براءة الذمة والصحة ، كسائر شروطها - من الطهارة ، والاستقبال ، وستر العورة - فالأمر تناول الشروط تناولاً واحداً ، فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها في الوجوب ، والأمر ، والشرطية؟

قالوا : وليس مع المصحِّحين لها بعد الوقت لا نص ، ولا إجماع ، ولا قياس صحيح . وسنبطل جميع أقيستهم التي قاسوا عليها ، ونبيِّن فسادَها .

قالوا : وفي مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : « **من أفطر يوماً من رمضان لغير عذر ، لم يقضه عنه صيام الدهر** »[1] ، فيكف يقال : يقضيه عنه يوم مثله؟

قالوا : ولأن صحة العبادة إن فسرت بموافقة الأمر ، فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له ، فلا تكون صحيحة . وإن فسرت بسقوط القضاء [فإنما يُسقط القضاءَ][2] ما وقع علىٰ الوجه المأمور به . وهذا لم يقع كذلك ، ولا سبيل إلىٰ

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٧٠ ، وأبو داود ٢/ ٧٨٨ - ٧٨٩ في كتاب الصوم ، باب (التغليظ في من أفطر عمداً) ح(٢٣٩٦) ، رواه الترمذي ٣/ ٩٢ في كتاب الصيام ، باب ما جاء في الإفطار عمداً (ح٧٢٣) ، وابن ماجه ١/ ٥٣٥ في كتاب الصيام ، باب (ما جاء في كفارة من أفطر يوماً من رمضان) ح (١٦٧٢) ، والدارمي في سننه ١/ ٣٤٣ في كتاب الصيام باب (من أفطر يوماً من رمضان متعمداً) ح(١٧٢١) ، وابن خزيمة في صحيحه ٣/ ٢٣٨ في كتاب الصيام باب (التغليظ في إفطار يوم من رمضان . . .) ح١٩٨٧ ، وذكره البخاري تعليقاً ٤/ ١٦٠ ، في كتاب الصيام باب (إذا جامع في رمضان) ووصله ابن حجر في تعليق التعليق ٣/ ١٧٠ ، وذكره في الفتح ٤/ ١٦١ وذكر فيه ثلاث علل ، وضعفه كذلك الأعظمي في تحقيقه لصحيح ابن خزيمة ٣/ ٢٣٨ الهامش و محققو مسند أحمد ١٦/ ١٠١ هامش (٤) .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ق .

وقوعه علىٰ الوجه المأمور به. فلا سبيل إلىٰ صحته. وإن فسرت بما أبرأ الذمّة. فهذه لم تبرئ الذمة من الإثم قطعاً، ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور.

قالوا: ولأن الصحيح من العبادات: ما اعتبره الشارع، ورضيه، وقبله، وهذا لا يعلم إلا بإخباره عن صحتها، أو بموافقتها أمره، وكلاهما منتف عن هذه العبادة فكيف يُحكَمُ لها بالصحة؟

قالوا: فالصحة والفساد حكمان شرعيان مرجعهما إلىٰ الشارع. فالصحيح: ما شهد له بالصحة، أو علم أنه وافق أمره، أو كان[1] مماثلاً لما شهد له بالصحة. فيكون حكم المثل، حكم[2] مثله. وهذه العبادة قد انتفىٰ عنها كل واحد من هذه الأمور.

ومن أفسد الاعتبار: اعتبارها بالتأخير المعذور به، أو[3] المأذون فيه. وهو اعتبار الشيء بضده، وقياسه علىٰ مُخَالِفه[4] في الحقيقة والشرع. وهو من أفسد القياس، كما سيأتي.

قالوا: وأما استدلالكم بقول النبي ﷺ: «من نام عن صلاة، أو نسيها. فليصلها إذا ذكرها»[5] فأوجب القضاء علىٰ المعذور، فالمفرط أولىٰ. فهذه

(١) في ح٢: «وكان».
(٢) «حكم» ساقطة من أ، ب، ح١، غ، ط.
(٣) «أو» ساقطة من ح١، وفي ح٢: «إذ».
(٤) في أ، غ، ح١، ح٢، د، م، ق: مخالفته.
(٥) سبق تخريجه ص٩٩٣.

الحجة إلىٰ أن تكون عليكم ، أقرب منها أن تكون لكم . فإن صاحب الشرع شرط في فعلها بعد الوقت ، أن يكون الترك عن نوم أو نسيان . والمعلق علىٰ الشرط عدم (١) عند عدمه ، فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصي المستحق للعقوبة علىٰ من عذره الله ، ولم ينسب إلىٰ تفريط ولا معصية . كما ثبت عنه في الصحيح : « **ليس في النوم تفريط . إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر صلاة حتىٰ يدخل وقت التي بعدها** » (٢) . وأي قياس في الدنيا أفسد من هذا القياس وأبطل؟

قالوا : وأيضاً فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها ؛ بل وقتها المأمور به لمثله ، حين استيقظ وذكر . كما قال النبي ﷺ : « **من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها** » فإن ذلك وقتها . فإن الله يقول : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه : ١٤] وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية ، أي عند ذكري ، أو في وقت ذكري .

قالوا : والنبي ﷺ ما صلىٰ الصبح يوم الوادي (٣) بعد طلوع الشمس إلا في

---

(١) في ط : « يُعْدم » .

(٢) رواه مسلم ١/ ٤٧٢ في كتاب المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة (ح٦٨١) ، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٩٨ ، والترمذي ١/ ٣٣٤ في كتاب الصلاة ، باب (ما جاء في النوم عن الصلاة) (ح١٧٧) ، وأبو داود ١/ ٣٠٤ في كتاب الصلاة ، باب (في من نام عن الصلاة أو نسيها) (ح٤٣٧) ، والنسائي ١/ ٢٩٤ في كتاب المواقيت ، باب (فيمن نام عن صلاة) (ح٦١٥ ، ٦١٦) ، وابن ماجه ١/ ٢٢٨ ، في كتاب الصلاة ، باب (من نام عن الصلاة أو نسيها) (ح٦٩٢) .

(٣) رواه البخاري ٢/ ٦٦ في كتاب المواقيت ، باب الأذان بعد ذهاب الوقت (ح٥٩٥) ، ومسلم

وقتها حقيقة .

قالوا : والأوقات ثلاثة أنواع ؛ وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور . فهي خمسة ، ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهي ثلاثة . فإن في حقه وقت الظهر والعصر واحد ، ووقت المغرب والعشاء واحد ، ووقت الفجر واحد . فالأوقات في حق هذا ثلاثة . وإذا أخر الظهر إلىٰ أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها .

ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان . فهو غير محدود [1] البتة ؛ بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره . لا وقت له إلا ذلك .

هذا الذي دل [2] عليه نصوص الشرع وقواعده ، وهذا المفرط المضيع خارج عنه هذه الأقسام ، وهو قسم رابع . فبأيِّها تُلحقونه؟

قالوا : وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر من حيض ، أو سفر ، أو مرض ، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر ، لا بنص ولا بإيماء ، ولا تنبيه ، ولا تقتضيه قواعده . وإنما غاية ما معكم ؛ قياسه علىٰ المعذور مع اطراد قواعد الشرع علىٰ التفريق بينهما ؛ بل قد أخبر الشارع أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر فضلاً عن يوم مثله .

١/ ٤٧١ في كتاب المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة ... (ح٦٨٠) ، وصلاة النبي ﷺ يوم الوادي هذه حين رجع من غزوة خيبر. انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥٥، وفتح الباري ٢/ ٦٧ .

(١) في غ : « يحدد » .

(٢) في أ : « يدل » وفي ط : « دلت » .

قالوا : وأما قولكم إنه كان يجب عليه أمران : العبادة ، وإيقاعها في وقتها . فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر ، فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطاً بالآخر ارتباط الشَرْطِيّة ، كمن أُمر بالحج والزكاة . فتركَ أحدَهما : لم يَسْقُط عنه الآخر . أما إذا كان أحدهما شرطاً في الآخر ، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يُؤمر بالمشروط إلا به ، فكيف يقال : إنه يُؤمر بالآخر بدونه ، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أَمَره الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

قالوا : وإن قلنا إنما يجب القضاء بأمر جديد ، فلا أمر معكم بالقضاء في محل النزاع ، وقياسه علىٰ مواقع الإجماع ممتنع كما بيَّنّاه . وإن قلنا : يجب بالأمر الأول ، فهذا فيما إذا كان القضاءُ نافعاً ، ومصلحته كمصلحة الأداء ، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم ، وقضاء المغمىٰ عليه والنائم والناسي . أما إذا كان القضاءُ غيرَ مبرئٍ للذمة ، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته . فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمرٌ ثان . وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصفٍ ظاهر التأثير ، مانع الإلحاق[1] .

قالوا : وأما قولكم : « إنه إذا لم يمكن تدارك مصلحة الفعل تدارك منها ما أمكن » فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن[2][3] حصول المصلحة موقوفاً[4] علىٰ شرط

---

(١) في ش ، د ، ق ، ط : « للإلحاق » .

(٢) في ح١ ، د : يكن .

(٣) في ح٢ زيادة : « به » .

(٤) « موقوفاً » ساقطة من أ ، ح١ ، غ ، ب ، ط .

تزول المصلحة بزواله ، والتدارك بعد فوات شرطه ، وخروجه عن الوجه[1] المأمور به ممتنع إلا بأمر آخر ؛ من التوبة ، وتكثير النوافل والحسنات . وأما تدارك غير هذا[2] الفعل فكلاًّ ولما .

قالوا : وأما قوله ﷺ : « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم** »[3] فقد أبعد النجعة من احتج به . فإن هذا إنما يدل علىٰ أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتىٰ بما يقدر عليه منه - كمن عجز عن القيام في الصلاة ، أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء ، أو عن إكمال الفاتحة ، أو عن تمام الكفاية في الإنفاق الواجب ونحو ذلك- أتىٰ بما يقدر عليه ، وسقط[4] عنه ما يعجز[5] عنه . أما من ترك المأمور به حتىٰ خرج وقتُه عمداً وتفريطاً بلا عذر ، فلا يتناوله الحديث ، ولو كان الحديث[6] متناولاً له لما توعده بإحباط عمله ، وتشبيهه[7] بمن سُلب أهله وماله ، وبَقِيَ بلا أهل ولا مال .

قالوا : وأما قولكم : « إنه لا يُظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط

---

(١) في ش : « الوقت » .

(٢) « هذا » ساقطة من ش .

(٣) سبق تخريجه ص٩٩٤.

(٤) في أ ، ب ، ح٢ ، غ ، ح١ ، ط : « ويسقط » .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « ما عجز » .

(٦) « الحديث » ساقطة من ح٢ ، م .

(٧) في ش : وشبهه ، وفي ح٢ : « وتشبيههم » .

بعدم إيجاب القضاء[1] ، وتكليف المعذور به » ، فكلام بعيد عن التحقيق ، بَيِّن البطلان . فإن هذا المعذور ، إنما فعل ما أمر به في وقته كما تقدم . فهو في فعل ما أمر به كغير المعذور الذي صلىٰ في وقته . ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفاً عنه ؛ بل لأنه غير نافع له، ولا مقبول منه، ولا مأمور به. فلا سبيل له إلىٰ تحصيل مصلحةِ ما تركه ، فأين التخفيف عنه؟

قالوا : وأما قولكم :« إن الصلاة خارج الوقت بدلٌ عن الصلاة في الوقت ، وإذا تعذر المُبْدَل انتقل إلىٰ بدله » فهل هذا إلا مجرد دعوىٰ؟ وهل وقع النزاع إلا في هذا؟ فما الدليل علىٰ أن صلاة هذا المفرط العامد بدل؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولاً ، وبكونها مقبولة نافعة ثانياً ، وبكونها بدلاً ثالثاً ، ولا سبيل لكم إلىٰ إثبات شيء من ذلك البتة .

وإنما يعلم كون الشيء بدلاً بجعل الشارع له كذلك[2] ، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء ، والإطعام عند العجز عن الصيام ، وبالعكس . كما في كفارة اليمين . فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرِّط المضيع بدلاً عن فعله العبادة في الوقت وهو ذلك القياس[3] الذي قد تبيَّن فسادُه؟

قالوا : وأما قياسُكم فعلها خارجَ الوقت علىٰ صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها فمن هذا النمط ؛ لأن وقت الوجوب في حقه ليس بمحدود[4] الطرفين

---

(١) في ط زيادة : « عليه » .

(٢) في أ : « ذلك » .

(٣) في ط : « وهل ذلك إلا القياس . . . » .

(٤) في جميع النسخ ، ط : « محدود » .

كوقت الصلاة ، فالوجوب في حقه ليس مؤقتاً محدوداً ؛ بل هو علىٰ الفور ، كالزكاة والحج ، عند من يراه علىٰ الفور . فلا يتصور فيه إخراجٌ عن وقت محدود هو شرطٌ لفعله .

نعم أولىٰ الأوقات به : الوقت الأول علىٰ الفور ، وتأخيره عنه لا يوجب كونه قضاءً .

فإن قيل : فما تصنعون بقضاء رمضان؟ فإنه محدود علىٰ جهة التوسعة بما بين رمضانين ، ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلىٰ رمضان آخر ، ومع هذا لو أخَّره لزمه فعلَه ، وإطعام كل يوم مسكيناً . كما أفتىٰ به الصحابة -رضي الله عنهم-[١] . وهذا دليل علىٰ أن العبادة المؤقتة لا يُتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعاً .

قيل : قد فرَّق الشارع بين أيام رمضان نفسها[٢] وبين أيام القضاء . فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين ، لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها[٣] . وأطلق أيام قضائه . فقال سبحانه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ

---

(١) روي هذا عن ابن عباس وأبي هريرة . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٤٢٢ عن ابن عباس . قال النووي في المجموع ٦/ ٣٦٤ : « إسناده صحيح » . وأخرجه الدارقطني في السنن عن أبي هريرة وقال : إسناده صحيح موقوف . انظر : التعليق المغني ٢/ ١٩٧ .

(٢) « نفسها » ساقطة من ش ، غ ، ط .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، غ : « تقدمها ولا تأخرها » .

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة : ١٨٣ ، ١٨٤] فأطلق العدة ولم يوقتها ، وهذا يدل علىٰ أنها تجيء في أي أيام كانت ، ولم يجئ نصٌّ عن الله تعالىٰ ولا عن رسوله ﷺ ولا إجماعٌ علىٰ تقييدها بأيام لا تجزئ في غيرها ، وليس في الباب إلا حديث عائشة : «**كان يكون علي الصوم من رمضان ، فلا أقضيه إلا في شعبان ، من الشغل برسول الله ﷺ**»[1] ، ومعلوم أن هذا ليس صريحاً[2] في التوقيت بما بين الرمضانين ، كتوقيت أيام رمضان بما[3] بين الهلالين . فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع ، وجمع بين ما فرق الله بينهما . فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لا تتقدم عنه ولا تتأخر ، وأطلق أيام القضاء ، وأكد إطلاقها بقوله «أُخَر» وأفتىٰ من أفتىٰ من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلىٰ رمضان آخر، جبراً لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين ، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاءً[4] ، وإن فعلت بعد رمضان آخر ، فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد ، بخلاف أيام رمضان .

يوضح هذا : أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله[5] البتة ، ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام

---

(١) رواه البخاري ٤/ ١٨٩ في كتاب الصوم ، باب (متى يقضي قضاء رمضان) (ح١٩٥٠) ومسلم ٢/ ٨٠٢ في كتاب الصيام ، باب قضاء رمضان في شعبان (ح١١٤٦) .

(٢) في د : « تصريحاً » .

(٣) « بما » ساقطة من أ .

(٤) في ط والجميع سوى م زيادة : « بل هي قضاء » .

(٥) « مثله » ساقطة من ش .

اليوم[1] الذي بعده مقامه .

وسِرُّ الفرق: أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء؛ بل هو مخُيّر فيها[2]، أيُّ يوم صامَه قام مقام الآخر، وأما غير المعذور فأيام الوجوب متعينة في حقه، لا يقوم غيرها مقامها .

قالوا : وأما من ترك الجمعة عمداً ، فإنما أوجبنا عليه الظهر ؛ لأن الواجب في هذا الوقت أحد[3] الصلاتين ولا بد ، إما الجمعة ، وإما الظهر . فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم . وهو مخاطب بوظيفة الوقت .

قالوا : ولا سيما عند من يجعل الجمعة بدلاً من الظهر . فإنه إذا فاته البدل رجع إلىٰ الأصل هذا إن[4] كان القضاء ثابتاً بالإجماع أو بالنص . وإن كان فيه خلاف ، أجبنا بالجواب المركب .

فنقول : إن كان ترك الجمعة مساوياً لترك الصلاة حتىٰ يخرج وقتها . فالحكم في[5] الصورتين[6] واحد. ولا فرق حينئذ، عملاً بما ذكرنا[7] من الدليل، وإن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق . فامتنع القياس ، فعلىٰ التقديرين بطل

---

(١) « اليوم » ساقطة من ش .

(٢) في ش : « بينهما » .

(٣) في غ ، ب : « إحدى » .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، غ : « وهذا إن » .

(٥) في ح١ : « بين » .

(٦) في ش : « الصلاتين » .

(٧) في أ : « بما ذكرناه » .

القياس .

قالوا : وأما تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلىٰ غروب الشمس فللناس في هذا التأخير - هل هو منسوخ أم لا؟ - قولان .

فقال الجمهور - كأحمد والشافعي ومالك - : هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ثم نسخ بصلاة الخوف[1] فكان[2] ذلك التأخير كتأخير[3] الجمع بين الصلاتين ، فلا يجوز اعتبار الترك المحرم به . ويكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسي ، وتأخير المفرط ؛ بل أولىٰ . فإن هذا التأخير حينئذ مأمور به ، فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلىٰ مزدلفة .

والقول[4] الثاني : أنه ليس بمنسوخ ؛ بل هو باق وللمقاتل تأخير الصلاة حال[5] اشتغاله بالحرب والمسايفة ، وفعلها عند تمكنه منها[6] ، وهذا[7] قول أبي حنيفة ويُذكر رواية عن أحمد .

وعلىٰ التقديرين : فلا يصح إلحاق العامد المفرط به . وكذلك تأخير الصحابة - رضي الله عنهم - العصر يوم بني قريظة ؛ فإنه كان تأخيراً مأموراً به

---

(١) انظر : المغني ٣/ ٢٩٨ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : « وكان » .

(٣) في ط ، ح١ زيادة : « صلاة » .

(٤) في ط والجميع سوى ش : القول الثاني .

(٥) في ط والجميع سوى ش : حال القتال واشتغاله .

(٦) « منها » ساقطة من ش .

(٧) في أ : « وهو » .

عند طائفة من أهل العلم (١) ، أو تأخيراً سائغاً للتأويل عند بعضهم . ولهذا لم يعنف النبي ﷺ من صلاها (٢) في الطريق في وقتها ، ولا من أخرها إلىٰ الليل حتىٰ صلاها في بني قريظة ؛ لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر ، وأولئك نظروا إلىٰ المعنىٰ والمراد منهم ، وهو سرعة السير .

واختلف علماء الإسلام في تصويب أي الطائفتين .

فقالت فرقة (٣) لو كنا مع القوم لصلينا في الطريق مع الذين فهموا المراد ، وعقلوا مقصود الأمر ، فجمعوا بين إيقاع الصلاة في وقتها وبين المبادرة إلىٰ العدو ولم يفتهم مشهدهم ، إذ المقدار الذي سبقهم به أولئك لحقوهم به ، لما اشتغلوا بالصلاة وقت النزول (٤) .

قالوا : فهؤلاء أفقه الطائفتين ، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد . والمبادرة إلىٰ الجهاد ، مع فقه النفس .

وقالت طائفة : لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلىٰ بني قريظة وهم (٥) الذين أصابوا حكم الله قطعاً . وكان هذا التأخير واجباً لأمر الرسول ﷺ (٦) به . فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة ، والله يأمر بما يشاء . فأمره بالتأخير في

---

(١) في ط والجميع زيادة :كأهل الظاهر .

(٢) في غ : « صلى » .

(٣) في ط : « طائفة » .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : « في بني قريظة » .

(٥) في ط ، ب ، م ، ح١ : « فهم » .

(٦) ط ، ح١ ، ح٢ ، د : « رسول الله » .

وجوب الطاعة ، كأمره بالتقديم . فهؤلاء كانوا أسعد بالنص ، وهم الذين فازوا بالأجرين . وإنما لم يعنِّف الآخرين ، لأجل التأويل والاجتهاد . فإنهم إنما قصدوا طاعة الله(١) ورسوله ، وهم أهل الأجر الواحد ، وهم (٢) كالحاكم الذي يجتهد فيخطئ الحق .

والمقصود : أن إلحاق المفرط العاصي بالتأخير بهؤلاء في غاية الفساد .

قالوا : وأما قولكم إن (٣) هذا تائب نادم . فكيف نسدُّ(٤) عليه طريق التوبة ، ونجعل(٥) إثمَ التضييع لازماً له وطائراً في عنقه؟ فمعاذ الله أن (٦) نسُدَّ عليه باباً فتحه الله لعباده المذنبين كلهم ، ولم يغلقه عن أحد(٧) إلىٰ حين موته ، أو إلىٰ وقت طلوع الشمس من مغربها . وإنما الشأن في طريق توبته وتحقيقها(٨) ، هل يتعين لها القضاء أم يستأنف العمل؟ ويصير ما مضىٰ لا له ولا عليه . ويكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم في استئناف العمل وقبول التوبة . فإن(٩) ترك

---

(١) في د زيادة : « وطاعة » .

(٢) «وهم» ساقطة من ب ، ق .

(٣) « إن » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، ق : « يُسد » .

(٥) في ط : « ويجُعل » .

(٦) « أن » ساقطة من: غ .

(٧) في م : « واحد » .

(٨) في أ : « وتحققها » .

(٩) في أ ، ب : « من » .

فريضة من فرائض الإسلام ، لا يزيد[1] علىٰ ترك الإسلام بجملته وفرائضه .

فإذا كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة ، لا يشترط في صحتها إعادة ما فاته في حال [كفره][2] - أصلياً كان أو مرتداً - كما أجمع عليه الصحابة - رضي الله عنهم- في ترك أمر المرتدين لما رجعوا إلىٰ الإسلام بالقضاء ؛ فقبول توبة تارك الصلاة ، وعدم توقفها علىٰ القضاء أولىٰ . والله أعلم .

فصل

مسائل تتعلق في حقوق العباد

وأما[3] حقوق العباد : فيتصور في مسائل :

إحداها : من غصب أموالاً . ثم تاب وتعذَّر عليه ردُّها[4] إلىٰ أصحابها ، أو إلىٰ[5] ورثتهم ، لجهله بهم ، أو لانقراضهم ، وبغير[6] ذلك ، فاختلف في توبة مثل هذا .

فقالت طائفة : لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلىٰ أربابها . فإذا كان ذلك قد تعذر عليه[7] ، تعذرت عليه[8] التوبة ، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات

---

(١) في ش : « لا تزيد » .

(٢) في الأصل و ط والجميع سوى ش : « إسلامه » وما أثبته من ش وهو الذي يقتضيه السياق .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : « في » .

(٤) في ش : « أداؤها » .

(٥) في د : « وإلى » .

(٦) في ح١ : « أو غير » وط : « أو لغير » .

(٧) في ط زيادة : « فقد » .

(٨) « عليه » ساقطة من أ .

والسيئات ليس إلا .

قالوا : فإن هذا حق آدمي (١) لم يصل إليه . والله تعالىٰ لا يترك من حقوق عباده شيئاً ؛ بل يستوفيها لبعضهم من بعض ، ولا يجاوزُه ظلمُ ظالم ، فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقَّه من ظالمه ، ولو لَطْمَة ، ولو كلمة ، ولو رمية بحجر (٢) .

قالوا : أقرب ما لهذا في تدارك الفارط منه ، أن يستكثر (٣) من الحسنات ، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا درهم (٤) ، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها . ومن أنفع ما له ؛ الصبر علىٰ ظلم غيره له وأذاه ، وغيبته وقذفه . فلا يستوفي حقه في الدنيا ، ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته . فإنه كما يؤخذ منه ما عليه يستوفي أيضاً ماله ، وقد يتساويان (٥) . وقد يزيد أحدهما عن الآخر .

---

(١) في ح١ ، غ ، ب ، ط : «حق لآدمي» .

(٢) يدل عليه ما رواه مسلم ٤/ ١٩٩٧ في كتاب البر والصلة (ح٢٥٨١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيُعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

(٣) في أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط : « يكثر » .

(٤) في أ ، ب ، م ، ح١ ، د ، ق ، ط : « ولا بدرهم » .

(٥) في غ : « يستويان» .

ثم اختلف هؤلاء في حكم ما بيده من الأموال :

فقالت طائفة : يوقِفُ أمرَها ، ولا يتصرف فيها البتة .

وقالت طائفة : يدفعها إلىٰ الإمام أو نائبه، لأنه وكيل أربابها. فيحفظها لهم، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة .

وقالت طائفة أخرىٰ : بل باب التوبة مفتوح لهذا ، ولم يغلق (١) الله عنه ، ولا عن مذنب باب التوبة (٢) ، وتوبته أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها . فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لهم الخيار ، بين أن يجيزوا ما فعل ، وتكون أجورها لهم ، وبين أن لا يجيزوه (٣) ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم فيكون (٤) ثواب تلك الصدقة له . إذ لا يُبطلُ الله سبحانه ثوابها ، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمُعَوّض (٥) فيُغرّمه إياها ، ويجعل أجرها لهم ، وقد غَرم من حسناته بقدرها (٦) .

وهذا مذهب جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - كما هو مروي عن ابن مسعود ، ومعاوية (٧) ، وحجاج بن

---

(١) في الجميع سوى ش : « يغلقه » .

(٢) « باب التوبة» ساقط من ط والجميع سوى ش ، ق .

(٣) في ط والجميع : «يجيزون » .

(٤) في ط والجميع سوى ش : « ويكون» .

(٥) في ش ، م ، ح٢ زيادة : « منه » .

(٦) انظر هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣٢١ .

(٧) معاوية بن أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، ولد بمكة وأسلم عام الفتح، كان من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، كان والياً على دمشق زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وجعل عثمان ولاة أمصار الديار الشامية تابعين له ، وقع بينه وبين علي بن

الشاعر[١] . فقد اشترىٰ ابن مسعود[٢] من رجل جارية ، ودخل يزن له الثمن ، فذهب رب الجارية ، فانتظره حتىٰ يئس من عوده . فتصدق بالثمن ، وقال : اللهم هذا عن رب الجارية . فإن رضي فالأجر له ، وإن أبىٰ فالأجر لي ، وله من حسناتي بقدره[٣] ، و«غَلَّ رجل من الغنيمة ، ثم تاب . فجاء بما غَلّه إلىٰ أمير الجيش ، فأبىٰ أن يقبله منه ، وقال : كيف لي بإيصاله إلىٰ الجيش ، وقد تفرقوا؟ فأتىٰ حجاجُ بن الشاعر . فقال : يا هذا ، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم ، فادفع خمسه إلىٰ صاحب الخمس ، وتصدق بالباقي عنهم . فإن الله يوصل ذلك إليهم -- أو كما قال -- ففعل . فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيك بذلك أحب إليَّ من نصف ملكي[٤] .

أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ خلاف بعد مقتل عثمان ، وقامت الحروب بينهما وبعد قتل علي ابن أبي طالب ومبايعة الحسن بن علي من بعده تنازل بالخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ توفي في دمشق سنة ٦٠هـ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ترجمته في : التاريخ الكبير ٧/ ٣٢٦ ، أسد الغابة ٤/ ٤٣٣ ، السير ٣/ ١١٩ ، الإصابة ٣/ ٤١٢ .

(١) أبو محمد حجاج بن يوسف بن حجاج بن أبي يعقوب الثقفي البغدادي الحافظ ، أحد الأثبات قال ابن أبي حاتم : ثقة من الحفاظ فمن يحسن الحديث عنه وقال النسائي : ثقة . توفي سنة ٥٩هـ . ترجمته في : تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٠ ، السير ١٢/ ٣٠١ ، تهذيب التهذيب ٢/ ٢٠٩ .

(٢) في ط : «فقد روى أن ابن مسعود اشترى . . . » .

(٣) رواه البخاري تعليقاً ٩/ ٤٢٩ في كتاب الطلاق ، باب حكم المفقود في أهله وماله . وذكره الغزالي في الإحياء ٢/ ١٨٠ ، وانظر : مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣٢١ .

(٤) رواه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٢٧٠ (ح٢٧٣٢) لكن قال : فمر ابن عبد الله بن الشاعر ، وذكر نحوه الغزالي في الإحياء ٢/ ١٨٠ .

في أحكام اللقطة

قالوا[١] : وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربهَا، بعد تعريفها، ولم يُرد أن يتملكها، تصدق بها عنه ، فإن ظهر مالكُها خيّره بين الأجر والضمان[٢] .

قالوا : وهذا لأن المجهول في الشرع كالمعدوم . فإذا جُهل المالك صار بمنزلة المعدوم . وهذا مال لم يعلم له مالك معين ، ولا سبيل إلىٰ تعطيل الانتفاع[٣] لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه والفقراء[٤] ، ومن[٥] هو في يده ، أما المالك ، فلعدم وصول نفعه إليه ، وكذلك الفقراء . وأما من هو في يده ، فلعدم تمكنه من الخلاص من إثمه ، فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به . ومثل هذا لا تبيحه شريعة ، فضلاً عن أن تأمر به وتوجبه . فإن الشرائع مبناها علىٰ تحصيل[٦] المصالح بحسب الإمكان [وتكميلها . وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليلها[٧] . وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به][٨]

---

(١) في د ، ح٢ ، ق : « قال» .

(٢) لحديث زيد بن خالد الجهني ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن اللقطة فقال : «عرّفها سنة ثم اعرف وكاءها وعفاصها ، ثم استنفق بها ، فإن جاء ربُها فأدها إليه » . رواه البخاري ٥/ ٩١ في كتاب اللقطة ، باب إذا جاء صاحب اللقطة ردها إليه (ح٢٤٣٦) ، ومسلم ٣/ ١٣٤٦ - ١٣٤٩ في كتاب اللقطة (ح١٧٢٢) ، وأحمد في مسنده ٤/ ١١٦ - ١١٧ .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : « به » .

(٤) في ط : « وبالفقراء » .

(٥) في ط : « وبمن » .

(٦) « تحصيل » ساقطة من ط .

(٧) في ط : وتقيلها .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من أ .

مفسدة محضة . لا مصلحة فيها[1] . فلا يصار إليه .

قالوا : وقد استقرت قواعد الشرع على أن الإذن العرفي كاللفظي[2] . فمن رأى بمال غيره موتاً - وهو مما[3] يمكن استدراكه بذبحه - فذبحه إحساناً إلى مالكه ونصحاً له ، فهو مأذون له فيه عرفاً ، وإلا[4] كان المالك سفيها . فإذا ذبحه لمصلحة مالكه لم يضمنه ؛ لأنه محسن و﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة : ٩١] وكذلك[5] إذا غصبه ظالم ، أو خاف عليه منه فصالحه عليه[6] ببعضه ، فيسلم[7] الباقي لمالكه ، وهو غائب عنه ، أو رآه آيلاً إلى تلاف[8] محض ، فباعه وحفظ ثمنه له ، ونحو ذلك ، فإن هذا[9] كله مأذون فيه عرفاً من المالك . وقد باع عروة بن الجعد البارقي[10] - رضي الله عنه - وكيل

---

(١) أ ، ب زيادة : له .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٩/ ٢٠ .

(٣) « مما » ساقطة من ش .

(٤) في ط : « وإن » .

(٥) في د : « ولذلك » .

(٦) « عليه » ساقطة من ح٢ .

(٧) في ط والجميع سوى ش : « ليسلم » .

(٨) في ط : « تلف » ، وح١ ، أ ، ش ، ح٢ : « إتلاف » .

(٩) في ح٢ : « ذلك » .

(١٠) عروة بن الجعد وقيل ابن أبي الجعد البارقي ، صحابي جليل ، وهو الذي أرسله النبي ﷺ ليشتري له شاة بدينار ، فاشترى به شاتين . حضر فتوح الشام ونزلها ، سيره عثمان رضي الله عنه إلى الكوفة . ترجمته في : أسد الغابة ٣/ ٥٢٣ ، الإصابة ٢/ ٤٦٨ .

النبي ﷺ - ملك النبي ﷺ بغير استئذانه [1] لفظاً، واشترىٰ له ببعض ثمنه مثل ما وكله في شرائه بذلك الثمن كله. ثم جاءه [2] بالثمن وبالمشترىٰ، فقبله النبي ودعا له [3].

وأشكل هذا علىٰ بعض الفقهاء [4]، وبناه علىٰ تصرف الفضولي [5] فأُورد عليه أن الفضولي لا يَقبض ولا يُقبِض، وهذا قَبَضَ وأَقْبَضَ.

وبناه آخر [6] علىٰ أنه كان وكيلاً مطلقاً في كل شيء، وهذا أفسد من الأول. فإنه لا يُعرف عن رسول الله ﷺ أنه وكَّل أحداً وكالة مطلقة البتة، ولا نقل ذلك عنه مسلم.

والصواب: أنه مبني علىٰ هذه القاعدة أن «الإذن العرفي كالإذن اللفظي» ومن رضي بالمشترىٰ وخروج [7] ثمنه عن ملكه، فهو بأن يرضىٰ به ويحصل له الثمن أشد رضاً.

---

(١) في ط: «إذنه».

(٢) في غ، م: «جاء».

(٣) رواه البخاري ٦/ ٦٣٢ في المناقب (ح٣٦٤٢)، وأحمد في مسنده ٤/ ٣٧٥، والترمذي ٣/ ٥٥٠ في البيوع (ح١٢٥٨)، وأبو داود ٣/ ٦٧٧ في البيوع، باب في المضارب يخالف (ح٣٣٨٤)، وابن ماجه ٢/ ٨٠٣ في الصدقات، باب الأمين يتجر فيه فيربح (ح٢٤٠٢).

(٤) انظر: المغني ٧/ ٣٩٩.

(٥) الفضولي: هو من لم يكن ولياً ولا أصيلاً ولا وكيلاً في العقد. التعريفات للجرجاني ص١٩٠.

(٦) في ط: «آخرون».

(٧) في ط والجميع سوى ش، د: خرج.

ونظير هذا : مريض عجز أصحابه -في السفر أو الحضر- عن استئذانه في إخراج شيء من ماله في علاجه ، وخيف عليه . فإنهم يخرجون من ماله ما هو مضطر إليه بدون استئذانه ، بناء علىٰ العرف في ذلك . ونظائر ذلك مما مصلحته وحسنه مستقر في فطر الخلق ، ولا تأتي شريعة بتحريمه [1] .

وإذا ثبت ذلك ، فمن المعلوم : أن صاحب هذا المال الذي قد حيل بينه وبينه أشد شيء رضاً [2] بوصول نفعه الأخروي إليه ، وهو أكره شيء لتعطيله أو إبقائه مقطوعاً عن [3] الانتفاع به دنيا وأخرىٰ . وإذا وصل إليه ثواب ماله سرَّه ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه في الدنيا ، فكيف يقال : مصلحة تعطيل هذا المال - عن انتفاع [4] الميت والمساكين [5] ومن هو بيده- أرجح من مصلحة إنفاقه شرعاً؟ بل أي مصلحة دينية أو دنيوية في هذا التعطيل؟ وهل هو إلا محض المفسدة؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - سأله شيخٌ . فقال : هربت من أستاذي وأنا صغير إلىٰ الآن لم أطلع له علىٰ خبر ، وأنا مملوك ، وقد خفت من الله عز وجل ، وأريد براءة ذمتي من حق أستاذي من

---

(١) في ط والجميع سوى د زيادة « كثير » .

(٢) في ط : « رضي » .

(٣) في ق : « من » .

(٤) في ش زيادة : « هذا » .

(٥) في ط زيادة : « به » .

رقبتي ، وقد سألت جماعة من المفتين . فقالوا لي: اذهب فاقعد في المستودع. فضحك شيخنا وقال : تصدق بقيمتك - أغلى[1] ما كانت - عن[2] سيدك ولا حاجة لك بالمستودع[3] عبثاً في غير مصلحة ، وإضراراً بك ، وتعطيلاً عن مصالحك ، ولا مصلحة لأستاذك في هذا ، ولا لك ولا للمسلمين . أو نحو هذا من الكلام .

فصل

حكم قبض المعاوضة المحرمة

المسألة الثانية : إذا عاوض غيره معاوضة محرمة ، وقبض العوض - كالزانية والمغنِّي ، وبائع الخمر ، وشاهد الزور ونحوهم - ثم تاب والعوض بيده .

فقالت طائفة : يرده إلىٰ مالكه . إذ هو عين ماله . ولم يقبضه بإذن الشارع . ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح .

وقالت طائفة : بل توبته بالتصدق به . ولا يدفعه إلىٰ من أخذه منه . وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[4] . وهو أصوب القولين . فإنَّ قابضه إنما قبضه ببذل مالكه[5] له ، ورضاه ببذله . وقد استوفىٰ عوضه المحرم فكيف يجمع

(١) في أ ، ب ، م ، ح١ ، د ، ط : « أعلى » .

(٢) في م : « عند كف سيدك » .

(٣) في ط زيادة : « تقعد فيه » .

(٤) انظر : الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ١٦٧ .

(٥) في الأصل : « ماله » وهو خطأ وما أثبته من الجميع وهو الذي يقتضيه السياق .

له[١] بين العوض والمعوض؟ وكيف يُرد عليه مالاً قد استعان به علىٰ معاصي الله ، ورضي بإخراجه[٢] فيما يستعين به عليها ثانياً وثالثاً؟ وهل هذا إلا محض إعانته علىٰ الإثم والعدوان؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع أن يُقضىٰ للزاني بكل ما دفعه إلىٰ من زنىٰ بها؟ [ويؤخذ منها ذلك طوعاً أو كرهاً ، فيعطاه وقد نال غرضه[٣]منها[٤] [٥] .

وهب أن هذا المال][٦] لم يملكه الآخذ . فملْكُ صاحبِه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه ، وقد سلَّم له ما في قبالته من النفع ، فكيف يقال : ملْكه باق عليه ، ويجب رده إليه؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به [٧] . فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضا صاحبه وبذله له ، فلم يطب له [٨]بذلك ، وصاحبه قد رضي بإخراجه عن ملكه [٩] ، وأن لا يعود إليه ، فكان أحق الوجوه به ، صرفه في المصلحة التي ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه [١٠] الإثم ، ولا يُقَوّىٰ الفاجر به

---

(١) « له » ساقطة من م .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : « فيها » .

(٣) في غ ، أ ، ح ا ، ط : عوضه .

(٤) « منها » ساقطة من غ ، أ ، ح١ ، ط .

(٥) في ش زيادة : « وقد تابت » .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٧) « به» ساقط من ش ، ق .

(٨) « فلم يطب له» ساقطة من ط .

(٩) في ط زيادة : « بذلك » .

(١٠) في ش : « عن » .

ويُعان [1]، ويجمع له بين الأمرين .

وهكذا [2] من اختلط ماله الحلال بالحرام ، وتعذر عليه تمييزه ، أن يتصدق بقدر الحرام ، ويطيب له [3] باقي ماله . والله أعلم .

فصل

من غصب مالاً وتعذر رده لصاحبه

إذا غصب مالاً ومات ربُّه ، وتعذر ردُّه عليه . تعين عليه ردُّه إلىٰ [4] وارثه . فإن مات الوارثُ ردَّه إلىٰ وارثِه ، وهلُمَّ جرّا ، فإن لم يرده إلىٰ ربه ، ولا إلىٰ أحد من [5] ورثته ، فهل تكون المطالبة به في الآخرة للمَوْرُوث ، إذ هو ربه الأصلي ، وقد غصبه عليه ، أو للوارث الآخر [6] إذ الحق قد انتقل إليه .

فيه قولان للفقهاء . وهما وجهان في مذهب الشافعي - رضي الله عنه- .

ويحتمل أن يقال : المطالبة للموروث ، ولكل واحد من الورثة . إذ كل منهم [7] يستحقه ، ويجب عليه الدفع إليه [8] . فقد ظلمه بترك إعطائه ما وجب

---

(١) في ش : « ولا يعان » .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : « توبة » .

(٣) « له » ساقطة من غ ، ط .

(٤) في ح١ : « على » .

(٥) « من » ساقطة من ط .

(٦) في ط والجميع سوى ش : « الأخير » .

(٧) في ب زيادة : « قد » وفي ط والجميع زيادة : « قد كان » .

(٨) « إليه » ساقطة من ش .

عليه دفعه إليه ، فيتوجه عليه المطالبة في الآخرة له .

فإن قيل : كيف [١] يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء؟

قيل : طريق [٢] التوبة أن يتصدق عنهم بمال يجري منافع ثوابه عليهم بقدر ما فات كل واحد منهم من منفعة ذلك المال [٣] لو صار إليه ، متحرياً للممكن من ذلك . وهكذا لو تطاولت علىٰ المال سِنون ، وقد كان يمكن ربه أن ينميه بالربح . فتوبته بأن [٤] يخرج المال ومقدارَ ما فوّته [٥] من ربح ماله .

فإن كان قد ربح فيه بنفسه . فقيل : الربح كُله للمالك . وهو قول الشافعي وظاهر مذهب أحمد .

وقيل : كله للغاصب ، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة [٦] . وكذلك لو أودعه مالاً فاتجر به وربح ، فربحه له دون مالكه عندهما [٧] ، وضمانه عليه . وفيها [٨] قول ثالث [٩]: أنهما شريكان في الربح. وهو [١٠] رواية عن أحمد - رحمه الله -،

(١) في ط والجميع سوى ش : « فكيف » .

(٢) في م : « طريقه » .

(٣) في غ : « الملك » .

(٤) في ح١ : « أن » .

(٥) في ش : « ما فاته » .

(٦) في ط : « مذهب أبي حنيفة ومالك رحمهما الله » .

(٧) في ش : « عنده » .

(٨) في ح٢ ، م : « وفيه » .

(٩) في ش زيادة : « وهو» .

(١٠) في ش : « وهي » .

واختيار شيخنا وهو أصح الأقوال . فتضم حصة المالك من الربح إلىٰ أصل المال ، ويتصدق بذلك .

وهكذا لو غصب ناقة أو شاةً منه ، فنتجت أولاداً . فقيل : أولادها كلها للمالك . فإن ماتت - أو شيء من النتاج - ردَّ أولادها وقيمة الأم ، وما مات من النتاج [1] . هذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عند أصحابه .

وقال مالك : إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب ، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها ، وعلىٰ القول الثالث الراجح ، يكون عليه قيمتها وله نصف النتاج [2] .

فصل

هل في الذنوب ما لا تقبل فيه التوبة

اختلف الناس [3] : هل في الذنوب [4] ذنب لا تقبل توبته أم لا؟

فقال الجمهور : التوبة تأتي علىٰ كل ذنب . فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل .

الخلاف في توبة القاتل

وقالت طائفة لا تقبل توبة القاتل [5] ، وهذا مذهب ابن عباس - رضي الله عنه -

---

(١) من النتاج « ساقطة من م » .

(٢) انظر هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٣٠/ ٣٢٠-٣٢٣ .

(٣) « اختلف الناس » ساقط من م .

(٤) في ح٢ ، م « الذنب » .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « لا توبة للقاتل » .

المعروف[١] عنه[٢]، وإحدىٰ الروايتين عن أحمد . وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه ، فقالوا له[٣] : «أليس قد قال الله تعالىٰ في القرآن[٤] ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ - إلىٰ أن قال - إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان : ٦٨-٧٠] فقال : كانت هذه الآية في الجاهلية وذلك أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا. فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إن الذي تدعو[٥] إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لما عملنا[٦] كفارة فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ قوله : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [الفرقان : ٦٨-٧٠] ، فهذه في أولئك. وأما التي[٧] في سورة النساء ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] ، فالرجل إذا عرف الإسلام وفرائضه[٨] ثم قتل . فجزاؤه جهنم »[٩] وقال

---

(١) « المعروف عنه » ساقط من ش .

(٢) انظر صحيح مسلم ٤/ ٢٣١٨ .

(٣) « له » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) في الجميع سوى م : « الفرقان » ، وفي ط : « سورة الفرقان » .

(٥) في ش : « تدعونا» .

(٦) في غ ، د ، ح١ ، أ : « علمناه » .

(٧) « التي » ساقطة من أ ، ب ، د ، غ ، ح١ ، م .

(٨) في ط : « شرائعه » .

(٩) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٦٥، وروى نحوه مسلم ٤/ ٢٣١٨ في كتاب التفسير (ح٣٠٢٣)، وروى نحوه كذلك الطبري في تفسيره ٤/ ٢٢١ .

زيد بن ثابت : « لما نزلت التي في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عجبنا من لينها ، فلبثنا سبعة أشهر ، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة » (١)، وأراد بالغليظة : هذه الآية آية النساء (٢) وباللينة: آية الفرقان. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « آية الفرقان مكية ، وآية النساء مدنية نزلت ولم ينسخها شيء » (٣) .

قال هؤلاء : ولأن التوبة من قتل المؤمن عمداً متعذرة . إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله ، أو إعادة نفسه - التي فوتها عليه (٤) إذ التوبة من حق الآدمي : لا (٥) تصح إلا بأحدهما ، وكلاهما متعذر علىٰ القاتل . فكيف تصح توبته من حق آدمي لم يصل إليه ، ولم يستحله منه؟

ولا يرد عليهم هذا في المال إذا مات ربه ولم يوفه إياه ؛ لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة .

قالوا : ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل ، وتصح التوبة منه . فإن ذلك محض حق الله تعالىٰ ، فالتوبة (٦) ممكنة . وأما حق الآدمي ، فالتوبة

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره في ١/ ٤٦٥ ، وروى نحوه الطبري في تفسيره ٤/ ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢) في الجميع سوى س : « التي في النساء » وط: « التي في سورة النساء » .

(٣) روى البخاري ٨/ ٢٥٧ قوله : « نزلت ولم ينسخها شيء » في كتاب التفسير ، باب : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ (ح ٤٥٩٠) .
ورواه الطبري في تفسيره ٤/ ٢٢١ وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٤٦٥ .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، ق زيادة : « إلى جسده » .

(٥) في أ : « لم » .

(٦) في ط والجميع سوى ش زيادة : « منه » .

منه[1] موقوفة علىٰ أدائه[2] واستحلاله وقد تعذر .

واحتج الجمهور بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فهذه في حق التائب . وبقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء : ٤٨] فهذه في حق غير التائب ؛ لأنه فرق بين الشرك وما دونه ، وعلق المغفرة بالمشيئة ، فخصص وعلق ، وفي التي قبلها عمم وأطلق .

واحتجوا بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحاً فالله[3] عز وجل غفار له .

قالوا : وقد صح عن النبي ﷺ حديث الذي قتل المائة، ثم تاب فنفعته توبته، وألحق بالقرية الصالحة التي خرج إليها[4] .

وصح عنه ﷺ من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال -وحوله عصابة من أصحابه - : « **بايعوني علىٰ أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا[5] ولا تقتلوا أولادكم . ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم**

---

(١) « منه » ساقطة من ط .

(٢) في ط زيادة : « إليه » .

(٣) في ط ، غ ، م ، ح١ ، أ : « فإن الله » .

(٤) سبق تخريجه ص ٨٩٢.

(٥) « ولا تزنوا » ساقطة من « م » .

وأرجلكم ولا تعصوني في معروف ، فمن وفّىٰ منكم فأجره علىٰ الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعُوقب به في الدنيا . فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلىٰ الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه . فبايعناه علىٰ ذلك »[١] .

قالوا : وقد قال ﷺ - فيما يروي عن ربه تعالىٰ - : « ابن آدم ، لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا . ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . لقيتك بقرابها مغفرة »[٢] .

وقال ﷺ : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة »[٣] وقال : «من كان آخر كلامه : لا إلٰه إلا الله دخل الجنة »[٤] ، وقال : «إن الله حرم علىٰ النار من قال لا إلٰه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[٥] ، وفي حديث الشفاعة : «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» وفيه يقول الله عز وجل : «وعزتي

---

(١) رواه البخاري ١/ ٦٤ في كتاب الإيمان ، باب (١١) ، (ح١٨) . ومسلم ٣/ ١٣٣٣ في كتاب الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (ح١٧٠٩) ، وأحمد في مسنده ٥/ ٣١٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٨٧٧ .

(٣) رواه البخاري ٣/ ١١٠ في كتاب الجنائز ، باب ومن كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله (ح١٢٣٧) ، ومسلم ١/ ٩٤ في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً (ح٩٣) ، وأحمد في مسنده ١/ ٣٨٢ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٣٣ بلفظ : « وجبت له الجنة » ، وأبو داود ٣/ ٤٨٦ في كتاب الجنائز ، باب في التلقين (ح٣١١٦) ، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٣ (ح١٢٩٩) وقال : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي» . وقال الألباني : حسن . الإرواء ٣/ ١٤٩ .

(٥) سبق تخريجه ص ٨٨٨ .

وجلالي ، لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله»(١) . وأضعاف هذه النصوص كثيرة(٢) ، فدل(٣) علىٰ أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد .

قالوا : وأما هذه الآية التي في النساء(٤) ، فهي نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء : ١٤](٥) .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء : ١٠]

وقوله ﷺ «من قتل نفسه بحديدة فحديدته يتوجأ(٦) بها خالداً مخلداً في نار جهنم»(٧) ونظائره كثيرة .

---

(١) جزء من حديث الشفاعة رواه البخاري ١٣/ ٤٧٣-٤٧٤ في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة (ح٧٥١٠) ، ومسلم ١/ ١٨٣-١٨٤ في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (ح١٩٣) .

(٢) في ط : كثير .

(٣) في ط والجميع سوى ش : « تدل» .

(٤) في ش : في سورة النساء .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقوله : ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ [الجن : ٢٣] .

(٦) الوجءُ : اللكز ، ووجأه باليد والسكين : ضربه ، لسان العرب ١٥/ ٢١٤ مادة وجأ . والنهاية في غريب الحديث ٥/ ١٥٢ .

(٧) جزء من حديث رواه البخاري ١٠/ ٢٤٧ في كتاب الطب ، باب شرب السم والدواء به (ح٥٧٧٨) ، ومسلم ١/ ١٠٣ - ١٠٤ في كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (ح١٠٩) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٥٤ .

وقد اختلف الناس في هذه النصوص علىٰ طرق .

أحدها : القول بظاهرها ، وتخليد أرباب هذه الجرائم في النار ، وهو قول الخوارج والمعتزلة [١] ثم اختلفوا .

فقالت الخوارج : هم كفار ؛ لأنه لا يخلد في النار إلا كافر .

وقالت المعتزلة : ليسوا بكفار ؛ بل فساق مخلدون في النار . هذا كله إذا لم يتوبوا [٢] .

وقالت فرقة : بل هذا [٣] الوعيد في حق المستحل لها ؛ لأنه كافر [٤] .

وأما من فعلها يعتقد [٥] تحريمها : لم [٦] يلحقه هذا الوعيد - وعيد الخلود - وإن لحقه وعيد الدخول .

وقد أنكر الإمام أحمد - رضي الله عنه - هذا القول ، وقال : لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافراً والنبي ﷺ إنما قال : من فعل كذا وكذا .

وقالت فرقة ثالثة : الاستدلال بهذه النصوص مبني علىٰ ثبوت العموم : وليس في اللغة ألفاظ عامة . ومن هٰهنا أنكر العموم من أنكره ، وقصدهم

---

(١) انظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ٨٦ ، الملل والنحل ١/ ٤٥ ، ١١٤ ، مجموع الفتاوى ٧/ ٦٧٠ .

(٢) انظر : الفتاوى ٧/ ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ١٢/ ٤٧١

(٣) في « هذا » ساقطة من ش .

(٤) انظر : تفسير البغوي ١/ ٤٦٥ .

(٥) في ط ، ح٢ ، غ ، م ، د ، ح١ ، أ : معتقداً .

(٦) في ط : « فلا » .

تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها ؛ لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة؛ بل تعطيل عامة الأخبار. فهولاء [١] ردوا باطلاً بأبطل منه ، وبدعة بأقبح منها . وكانوا كمن رام [٢] يبني قصراً فَهَدَّ مصراً .

وقالت[٣] فرقة رابعة : في الكلام إضمار .

قالوا : والإضمار في كلامهم كثير معروف .

ثم اختلفوا في هذا المضمر . فقالت طائفة : بإضمار الشرط . والتقدير : فجزاؤه كذا ، إن جازاه ، أو إن شاء .

وقالت فرقة خامسة : بإضمار الاستثناء . والتقدير : فجزاؤه كذلك [٤] إلا أن يعفو ، وهذه دعوىٰ لا دليل في الكلام عليها البتة ؛ ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ .

وقالت فرقة سادسة : هذا وعيد . وإخلاف الوعيد لا يذم ؛ بل يمدح ، والله تعالىٰ يجوز عليه إخلاف الوعيد ، ولا يجوز عليه إخلاف[٥] الوعد . والفرق بينهما ، أن الوعيد حقُّه ، فإخلافه عفو وهبة وإسقاط ، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه ، والوعد حق[٦] عليه ، أوجبه علىٰ نفسه ، والله لا يخلف

---

(١) في ق : « ولهذا » .

(٢) في ط ، ش زيادة : « أن » .

(٣) في غ ، أ : « فقالت » .

(٤) في ط ، ب ، غ ، ح١ : « كذا» .

(٥) في ط : « خُلفْ » .

(٦) في أ : « حقه » .

الميعاد .

قالوا : ولهذا مدح به كعب بن زهير[١] رسول الله ﷺ ، حيث يقول :

نُبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول[٢]

وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء[٣] ، وعمرو بن عبيد[٤] فقال عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ، لا يخلف الله وعده[٥] فقد[٦] قال : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني ، من فحول الشعراء من أهل نجد ، كان ممن اشتهر في الجاهلية ، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي ﷺ دمه ، فجاءه كعب بعد ذلك مستأمناً وقد أسلم ، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ....

فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته . ترجمته في: الشعر والشعراء ٨٠ ، أسد الغابة ٤/ ١٧٥ ، الإصابة ٣/ ٢٧٩ .

(٢) انظر : ديوان كعب بن زهير ١١٤ .

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان المازني النحوي القاري الثقة ، كان من أعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر ، وكان مقدماً في عصره . توفي سنة ١٥٤هـ .

ترجمته في : السير ٦/ ٤٠٧ ، تهذيب التهذيب ١٢/ ١٧٨ ، بغية الوعاة ٢/ ٢٣١ .

(٤) أبو عثمان عمرو بن عبيد البصري صاحب واصل بن عطاء ، المعتزلي الزاهد ، أخذ عن الحسن البصري ثم اعتزله . قال ابن معين لا يكتب حديثه ، وقال النسائي متروك الحديث ، مات سنة ١٤٣هـ ، وقيل ١٤٤هـ . ترجمته في : تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٢ ، السير ٦/ ١٠٤ ، ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧٣ .

(٥) في ح٢ ، أ ، ب : وعيده .

(٦) في ط : « وقد » .

[النساء :٩٣] فقال له أبو عمرو : ويحك يا عمرو ، من العُجمة أتيت . إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذماً ؛ بل جوداً وكرماً . أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ولا يختشي من صولة[1] المتهدد

وإني وإن[2] أوعدته أو وعدته[3] ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[4][5]

وقالت فرقة سابعة : هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضىٰ للعقوبة . ولا يلزم من وجود مقتضىٰ الحكم وجوده . فإن الحكم إنما تمّ[6] بوجود[7] مقتضيه وانتفاء مانعه ، وغاية هذه النصوص ؛ الإعلام بأن كذا سبب العقوبة[8] ومقتضٍ لها ، وقد قام الدليل علىٰ ذكر الموانع فبعضها بالإجماع وبعضها بالنص ، فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب الكبار المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص ، ولا سبيل إلىٰ تعطيل هذه

---

(١) في ط والجميع سوى ش : «سطوة» .

(٢) « وإن » ساقطة من غ . والواو ساقطة من ط ، ، ح٢ ، ب ، ح١ ، أ .

(٣) في ب : « وعدته أو أوعدته » .

(٤) في غ : « وعدي » .

(٥) الأبيات لعامر بن الطفيل . انظر ديوانه ١٨٢ ، وقد ورد فيه الشطر الثاني :

ويأمن مني صولة المتهدد

(٦) في ط والجميع : « يتم » .

(٧) في غ : « بوجوده » .

(٨) في ط والجميع سوى ش : « للعقوبة » .

النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتباراً لمقتضىٰ [1] العقاب ومانعه ، وإعمالاً لأرجحهما [2] .

قالوا : وعلىٰ هذا بناء [3] مصالح الدارين ومفاسدهما . وعلىٰ هذا بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضىٰ الحكمة السارية في الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً . وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً ، يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما . فالقوة مقتضية للصحة والعافية ، وفساد الأخلاط ونفيها [4] مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة ، والحكم للغالب منهما وكذلك قوىٰ الأدوية والأمراض ، والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب ، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه . فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له [5] .

ومن هٰهنا يعلم انقسام الخلق إلىٰ من [6] يدخل الجنة ، ولا يدخل النار وعكسه ، ومن يدخل النار ثم يخرج منها . ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من

---

(١) في ط : « بمقتضى » .

(٢) في ط والجميع سوى ش : « لأرجحها » .

(٣) في ح٢ ، م : « يبني » .

(٤) في ط ، ح١ ، ح٢ ، م ، د ، أ ، ق : « وبغيها» .

(٥) انظر في مسألة توبة القاتل : تفسير القرطبي ٥/ ٣٣٢-٣٣٥ ، والإنصاف بحاشية المقنع والشرح الكبير ٢٧/ ١٤٠-١٤١ .

(٦) في غ : « أن » .

مقتضىٰ المكث في سرعة الخروج وبطئه .

ومن له بصيرة منوّرة يرىٰ بها كل ما أخبر الله تعالىٰ به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله ، حتىٰ كأنه يشاهده رأي عين ، ويعلم أن هذا هو مقتضىٰ إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته [١] .

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه ، فيكون نسبة ذلك إلىٰ بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلىٰ بصره . وهذا يقين الإيمان ، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان ، يستحيل إصراره علىٰ السيئات ، وإن وقعت منه [٢] وكثرت . فإنَّ ما معه [٣] من نور الإيمان يأمره [٤] بتجديد التوبة كل وقت ، والرجوع[٥] إلىٰ الله بعدد أنفاسه .

وهذا من أحب الخلق إلىٰ الله تعالىٰ . فهذه [٦] مجامع طرق الناس في نصوص الوعيد .

---

(١) في د ، ق : « وحكمه » .

(٢) « منه » ساقطة من : « ق » .

(٣) في ق : « مانعه » .

(٤) « يأمره » ساقطة من غ ، أ ، ح١ .

(٥) في ط ، غ ، ح١ ، أ ، ب : « بالرجوع » .

(٦) « فهذه » ساقطة من غ .

فصل

إذا تاب القاتل وسلّم نفسه

واختلفوا فيما[١] إذا تاب القاتل وسلم نفسه ، فقتل قصاصاً ، هل يبقىٰ عليه للمقتول يوم القيامة حق[٢]؟

فقالت طائفة : لا يبقىٰ عليه شيء ؛ لأن القصاصَ حدُّه ، والحدود كفارة لأهلها، وقد استوفىٰ ورثة المقتول حق موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك. فكأنه قد استوفاه بنفسه . إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله .

يوضح هذا : أنه أحد[٣] الجنايتين ، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شيء ، كما لو جنىٰ علىٰ طرفه فاستقاد منه ، فإنه لا يبقىٰ له[٤] عليه شيء .

وقالت طائفة : المقتول قد ظُلم، وفاتت عليه نفسه، ولم يستدرك ظلامته . والوارث إنما أدرك ثأر نفسه ، وشفىٰ غيظ نفسه[٥] وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظلامة استوفاها من القاتل[٦]؟

قالوا : فالحقوق في القتل ثلاثة : حق الله ، وحق للمقتول ، وحق للوارث ،

---

(١) « فيما » ساقطة من ح٢ .

(٢) في ط ، ق : هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

(٣) في غ : « إحدى » .

(٤) « له » ساقطة من أ .

(٥) في ، ب ، ح٢ ، غ ، م ، د ، ح١ ، أ : « وشفى غيظه » وفي ط :« وشفاء غيظه» .

(٦) انظر : هذه المسألة في الإنصاف بحاشية المقنع ٢٧/ ١٤٠-١٤١ .

فحق الله لا يزول إلا بالتوبة ، وحق الوارث قد استوفاه بالقتل ، وهو مخيّر بين ثلاثة أشياء : بين القصاص ، والعفو مجاناً ، أو إلىٰ مال . فلو أحلَّ ، أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول [بذلك . فكذلك إذا اقتص منه ، لأنه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه . فكيف يسقط حق المقتول][1] بواحد منها دون الآخرين؟

قالوا : ولو قال القتيل : لا تقتلوه لأطالبه بحقي يوم القيامة . فقتلوه ، أكان يسقط حقه أولم[2] يسقطه[3]؟ فإن قلتم : يسقط . فباطل ؛ لأنه لم يرض بإسقاطه . وإن قلتم : لا يسقط . فكيف تسقطونه إذا اقتص منه ، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟

وهذه حجج كما ترىٰ في القوة ، لا تندفع إلا بأقوىٰ منها أو أمثالها[4] .

فالصواب — والله أعلم — أن يقال إذا تاب القاتل من حق الله . وسلّم نفسه طوعاً إلىٰ الوارث يستوفي[5] منه حق موروثه ؛ سقط عنه الحقان . وبقي حق الموروث لا يُضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل، تعويض المقتول . فإن[6]

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٢) في ط والجميع سوى ح٢ ، م : ولم .

(٣) في ح٢ ، م : يسقط .

(٤) في ط : « بأمثالها » .

(٥) في ط : « ليستوفي » .

(٦) في ح٢ ، غ ، م ، ح١ ، ط ، أ : « لأن » .

مصيبته [1] لم تنجبر بقتل قاتله . والتوبة النصوح تهدم ما قبلها . فيعوض هذا عن مظلمته ، ولا يعاقب هذا لكمال توبته . وصار هذا كالكافر المحارب لله ورسوله [2] إذا قتل مسلماً في الصف ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، فإن الله سبحانه يعوض [3] الشهيد المقتول . ويغفر للكافر بإسلامه ، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلماً . فإنَّ هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله .

وعلىٰ هذا إذا أسلم [4] نفسه وانقاد ، فعفا عنه الولي ، وتاب القاتل توبة نصوحاً . فالله تعالىٰ يقبل توبته ، ويعوض المقتول .

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده . والحكم بعد ذلك لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل : ٧٨] .

* * *

---

(١) في م : « معصيته » .

(٢) في ط : « ولرسوله » .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : هذا .

(٤) في ط ، ح٢ ، د ، ح١ ، ش ، م ، أ ، ق : « سلم » .

فصل

مشاهد الخلق في المعصية

في مشاهد الخلق في المعصية ، وهي ثلاثة عشر [1] مشهداً :

مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة ، ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة ، ومشهد الجبر ، ومشهد القدر ، ومشهد الحكمة ، ومشهد التوفيق والخذلان ، ومشهد التوحيد ، ومشهد الأسماء والصفات ، ومشهد الإيمان وتعدد شواهده [ومشهد الرحمة] [2] ، ومشهد العجز والضعف ، ومشهد الذل والافتقار ، ومشهد المحبة والعبودية .

فالأربعة الأُول [3] للمنحرفين. والثمانية البواقي لأهل الاستقامة. وأعلاها : المشهد العاشر .

وهذا الفصل من أجل الكتاب . وأنفعها لكل أحد ، وهو حقيق بأن تثنىٰ عليه الخناصر ، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه . إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمىٰ : « سفر الهجرتين وطريق [4] السعادتين » [5] .

---

(١) في الأصل ، ش : «اثنا عشر» وما أثبته من ط وباقي النسخ ويتبين هذا أيضاً من خلال عرضه لهذه المشاهد .

(٢) (ومشهد الرحمة) ساقط من الأصل وش :«وما أثبته من ط وباقي النسخ» .

(٣) في الجميع سوى ش : «الأولى» .

(٤) في ح٢ ، غ ، م ، د ، ق ، ح١ ، أ ، ب : «في طريق» .

(٥) انظر : طريق الهجرتين ٢٧٨ وما بعدها .

فصل

مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة

فأما مشهد الحيوانية ، وقضاء الشهوة : فمشهد الجهال ، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان ، إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان . ليس همهم[١] إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها . فهؤلاء نفوسهم[٢] نفوس[٣] حيوانية ، لم تترق عنها إلىٰ درجة الإنسانية ، فضلاً عن درجة الملائكة . فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر . وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم علىٰ أخلاقها وطباعها[٤] .

فمنهم[٥] : من نفسه كلبية . لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها[٦] ، وحماها من سائر الكلاب ، ونبح[٧] كل كلب يدنو منها . فلا تقربها[٨] الكلاب إلا علىٰ كره منه وغلبة ، ولا يسمح لكلب بشيء منها[٩] . وهمه شبع بطنه من أي

(١) في م ، ش ، د : « هممهم » وفي ح٢ : «همتهم » .

(٢) « نفوسهم » ساقطة من ق .

(٣) « نفوس » ساقطة من م .

(٤) في ح٢ ، م : « طبائعها » .

(٥) في م : « ومنهم » .

(٦) « عليها » ساقطة من غ .

(٧) في ش زيادة : « على » .

(٨) في د : « يقربها » .

(٩) في ح٢ : « منها في شيء » .

طعام اتفق ؛ ميتة أو ذكي[1] ، خبيث أو طيب . ولا يستحي من قبيح . إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث إن أطعمته بصبص[2] بذنبه ودار حولك . وإن منعته هرّك[3] ونبحك .

ومنهم : من نفسه حمارية ، لم تخلق إلا للكد والعلف . كلما زيد في علفه زيد في كده ، أبكم الحيوان ، وأقله بصيرة . ولهذا مثّل الله سبحانه وتعالىٰ به من حمَّله كتابه ، فلم يحمله[4] معرفة ولا فقهاً[5] ولا عملاً[6] ، ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وأخْلَد إلىٰ الأرض واتبع هواه[7] .

وفي هذين المثلين أسرار عظيمة . ليس هذا موضع ذكرها[8] .

---

(١) في ط والجميع : « مذكى » .

(٢) بصبص الكلب : حرك ذنبه طمعاً أو خوفاً . انظر : لسان العرب ١/ ٤٢١ مادة : بصبص .

(٣) في ش : « هرول » . وهرَّ الكلب : نبح وكشر عن أنيابه . وهرير الكلب : صوته دون النباح . انظر : لسان العرب ١٥/ ٧٢ مادة : هرر ، المعجم الوسيط ٩٨١ .

(٤) في ط والجميع سوى ش «يعرفه» .

(٥) في غ ، ح١ ، أ ، ب : « متفقهاً » .

(٦) كما قال تعالى : ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الجمعة : ٥] .

(٧) كما قال تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ...﴾ الآية [الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] .

(٨) انظر : أعلام الموقعين ١/ ١٦٥-١٦٩ .

ومنهم : من نفسه سُبعية غضبية همّه[1] العدوان علىٰ الناس ، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته طبيعية[2] مقتضاة ، وذلك[3] كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه[4] .

ومنهم : من نفسه فأرية ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال : سبحان من خلقه للفساد .

ومنهم : من نفسه علىٰ نفوس ذوات السموم والحُمَّات ، كالحية والعقرب وغيرهما . وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه . فيُدخل الرجل القبر ، والجمل القدر . والعين وحدها لم تفعل شيئاً . وإنما[5] النفس[6] الخبيثة السُمِّية تكيَّفت بكيفية غضبية ، مع شدة حسدٍ وإعجاب ، وقابلت المَعِين علىٰ غرة منه وغفلة ، وهو أعزل من سلاحه . فلدغته كالحية التي تنظر إلىٰ موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه[7] ، فإمّا عطب وإما أذىٰ . ولهذا لا يتوقف أذىٰ العائن علىٰ الرؤية والمشاهدة ؛ بل إذا وُصف له الشيء الغائب عنه وصل إليه أذاه .

---

(١) في ط والجميع سوى د : « همته » .

(٢) في ش : طبيعة وفي ط والباقي : « طبيعته » .

(٣) في ط والجميع سوى ش : « تتقاضي ذلك » .

(٤) في غ : « منهم » .

(٥) ح٢ ، م : « فإنما » .

(٦) في م : « النفوس » .

(٧) في ح٢ ، م ، د : « فنهشته » .

والذنب لجهل المعين وغفلته وغِرَّته عن[1] حمل سلاحه كل وقت . فالعائن[2] لا يؤثر في شاكي السلاح ، كالحية إذا قابلت درعاً سابغاً علىٰ جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف . فحقٌّ علىٰ من أراد حفظ نفسه وحمايتها ؛ أن لا يزال متدرعاً متحصناً لابساً أداة الحرب ، مواظباً علىٰ أوراد التعوذات[3] ، والتحصنات[4] النبوية التي في السنة والتي في القرآن[5] .

وإذا عُرف الرجل[6] بالأذىٰ بالعين[7] : ساغ – بل وجب – حبسه وإفراده عن الناس ، ويطعم ويسقىٰ حتىٰ يموت . ذكر ذلك غير واحد من الفقهاء ، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف ؛ لأن هذا من نصيحة المسلمين ، ودفع الأذىٰ عنهم[8] . ولو قيل فيه غير ذلك لم يكن بعيداً من أصول الشرع .

فإن قيل : فهل تُقيدون منه إذا قتل بعينه؟

قيل : إن كان ذلك بغير اختياره ؛ بل غلب علىٰ نفسه لم يقتص منه . وعليه

---

(١) في غ ، م : « من » .

(٢) في ح٢ ، م : « العين » .

(٣) في ش : « المعوذات » .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، د : « التحصينات » .

(٥) في ط : « التي في القرآن والتي في السنة » .

(٦) « الرجل » ساقطة من ق .

(٧) « بالعين » ساقطة من ش .

(٨) انظر : تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٧ .

الدية ، وإن عمد[1] ذلك[2] وَقَدر علىٰ رده ، وعلم أنه يقتل به : ساغ للولي أن يقتله بمثل ما قتل به . فيَعِينَه إن شاء ، كما عان هو المقتول . وأما قتله بالسيف قصاصاً ؛ فلا . لأن هذا ليس مما[3] يقتل غالباً ، ولا هو مماثل لجنايته .

وسألت شيخنا أبا العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - عن القتل[4] بالحال، هل يوجب القصاص؟

فقال : للولي أن يقتله بالحال . كما قتل به .

فإن قيل : فما الفرق بين هذا[5] وبين القتل بالسحر ، حيث توجبون القصاص به بالسيف[6] .

قلنا : الفرق من وجهين :

أحدهما : [أن السحر الذي يُقتل به][7] : هو السحر الذي يقتل مثلُه غالباً ، ولا ريب أن هذا كثير في السحر ، وفيه مقالات وأبواب معروفة للقتل عند أربابه[8] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : « تعمد » .

(٢) « ذلك » ساقطة من ط .

(٣) في أ ، ح٢ : « بما » .

(٤) في غ : « القتال » .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « القتل بهذا » .

(٦) « بالسيف » ساقطة من ش .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٨) في أ « أربابها » .

الثاني : أنه لا يمكن أن يُقتص منه بمثل ما فعل ، لكونه محرماً لحق الله ، فهو كما لو قتله باللواط وتجريع الخمر ، فإنه يقتص منه بالسيف .

وليس هذا موضع ذكر هذه المسائل ، وإنما ذكرت لما ذكرنا أن من النفوس البشرية ما هي علىٰ نفوس الحيوانات العادية وغيرها ، وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [1] [الأنعام : ٣٨] [2] .

وعلىٰ هذا [3] الشبه اعتماد [4] أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الإنسان أو في داره [5] ، أو أنها تحاربه ، وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة ، فكان تأويلها مطابقاً لأقوام علىٰ طباع [6] تلك الحيوانات. وقد رأىٰ النبي ﷺ في قصة أحد «بقراً تنحر» [7] فكان

---

(١) في ط والجميع سوى ش الآية حتى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٦/ ٤٢٠ .

(٣) « هذا » ساقطة من غ .

(٤) في ح٢ ، م : « اعتمد » .

(٥) في ط : وفي داره .

(٦) في ش : « طبائع » وفي غ : « طباق » .

(٧) رواه البخاري ٧/ ٣٧٥ عن أبي موسى في كتاب المغازي ، باب من قُتل من المسلمين يوم أحد (ح٤٠٨١) ولكن بغير لفظة « تنحر » ، ومسلم كذلك ٤/ ١٧٧٩-١٧٨٠ ، باب رؤيا النبي ﷺ (ح٢٢٧٢) ، والدارمي في سننه ٢/ ٥٥ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ وفيه : «ورأيت بقراً ينحر» (ح٢١٦٥) ، وأحمد في مسنده كذلك ٣/ ٣٥١ بلفظ : « ورأيت بقراً منحرة » . قال

ما [1] أصيب من المؤمنين بنحر [2] الكفار . فإن البقر أنفع الحيوان[3] للأرض ، وبها صلاحها وفلاحها [4] مع ما فيها من السكينة والمنافع والذِّل - بكسر الذال -[5] ، ورأىٰ عمر بن الخطاب ﷺ كأن ديكاً نقره ثلاث نقرات [6] ، فكان طعن أبي لؤلؤة [7] له . والديك رجل أعظمي شرير .

ومن الناس من طبعه طبع خنزير ، يمر بالطيبات فلا يلوي عليها . فإذا قام

الهيثمي في المجمع ٦/ ١٠٧ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » . وقال الألباني في الصحيحة ٣/ ٩١ (ح١١٠٠) : صحيح .

قال النووي - رحمه الله - : « قد جاء في غير مسلم زيادة في هذا الحديث : ورأيت بقراً تنحر . وبهذه الزيادة يتم تأويل الرؤيا بما ذكر » انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٢ .

(١) في ط : « من » .

(٢) في م : « بنحره » .

(٣) في ط : « الحيوانات » .

(٤) « فلاحها » ساقطة من م .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : « فإنها ذلول مذللة منقاده غير أبيه والجواميس كبارهم ورؤساؤهم » .

(٦) رواه مسلم ١/ ٣٩٦ في كتاب المساجد ، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً (ح٥٦٧) .

(٧) أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصل رومي الدار ، قاتل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، كان غلاماً للمغيرة بن شعبة ، وكان نجاراً نقاشاً حداداً ، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما علم أن الذي طعنه أبو لؤلؤة : الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام .

ترجمته في : أسد الغابة ٣/ ٦٦٢ ، البداية والنهاية ٧/ ١٤١ ، وانظر : صحيح البخاري ٧/ ٦٠ ح٣٧٠٠ .

الإنسان عن رجعية قمِّه[1] ، وهكذا كثير من الناس ، يسمع منك ويرىٰ من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ ، فلا يتحفظها[2] ولا ينقلها ولا تناسبه . فإذا رأىٰ سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبه[3] ، فجعلها فاكهته ونقله .

[ومنهم من هو علىٰ طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش[4]. وما وراء ذلك[5] شيء][6] .

ومنهم من هو علىٰ طبيعة الجمل أحقد الحيوان ، وأغلظه كبداً .

ومنهم من هو علىٰ طبيعة الذُّب أبلم[7] خبيث ، وعلىٰ طبيعة القرد .

وأحمد طبائع الحيوانات : طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوساً، وأكرمها طباعاً[8] وكذلك الغنم . وكل من ألف ضرباً من ضروب هذه

---

(١) قمَّ الشيء قمّاً : كنسه ، والمِقَمة : المِكْنَسَة ، والقُمامة : الكُناسة .
يقال : قمَّ بيته يقُمُه قماً إذا كنسه ، وقمَّ ما على المائدة يقُمُّه قمّاً : أكله فلم يدع منه شيئاً . انظر : لسان العرب ١١/ ٣٠٨ مادة : قمم .

(٢) في ط والجميع سوى ش : « يحفظها » .

(٣) في ط ، غ ، م ، ح١ ، ب ، أ : « يناسبها » .

(٤) في ط : « وليس » .

(٥) في ط زيادة : « من » .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ح١ ، ش ، أ ، ب .

(٧) في ط ، ح٢ ، م ، أبكم . أبلم الرجل إذا ورمت شفتاه ، وأبلم الرجل : سكت . انظر : لسان العرب ١/ ٤٩٤ مادة : بلم ، المعجم الوسيط ٧٠ .

(٨) في ط ، غ ، ح١ ، ب ، أ : « طبعاً » .

الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه [١] فإن تغذىٰ بلحمه كان الشبه أقوىٰ . فإن الغاذي شبيه بالمغتذي .

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير لما تورث[٢] آكلها[٣] من شبه نفوسها بها . والله أعلم .

والمقصود : أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوىٰ ميل[٤] نفوسهم[٥] وشهواتهم . لا يعرفون ما وراء ذلك البتة .

* * *

(١) يدل على ذلك قول النبي ﷺ : « رأس الكفر نحو المشرق ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم » .
رواه البخاري ٦/ ٣٥٠ في كتاب بدء الخلق ، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (ح٣٣٠١) ، ومسلم ١/ ٧٢ في كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ... (ح٥٢). الفدّادون : بالتشديد الذين تَعْلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، وأحدهم : فدّاد . وقيل : هم المكثرون من الإبل . وقيل : هم الجمّالون والبقّارون والحمّارون والرُّعيان . وقيل: إنما هو « الفَدَادِين » مخففاً واحدها : فَدَّان ، مشدد وهي البقر التي يحرث بها ، وأهلها أهل جفاء وغلظة . انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤١٩ .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : « يورث » .

(٣) في ش : « لما في أكلها » .

(٤) في ط : « مثل » .

(٥) في ش : « أنفسهم » .

فصل

مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة

المشهد الثاني : مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء[١] ، الذين يشهدون أن ذلك من لوازم الخلقة والطبيعة[٢] الإنسانية ، وأن تركيب الإنسان من الطبائع الأربع[٣] وامتزاجها واختلاطها ، كما يقتضي بغي بعضها علىٰ بعض ، وخروجه عن الاعتدال - بحسب اختلاف هذه الأخلاط - فكذلك تركيبه من البدن والنفس ، والطبيعة[٤] الحيوانية ، تتقاضاه أثر[٥] هذه الخلقة[٦] ، ورسول تلك الطبيعة . ولا تنقهر له[٧] إلا بقاهر ، إما من نفسه، وإما من خارج عنه. وأكثر النوع الإنساني ليس له قاهر من نفسه،

---

(١) الفلسفة تعني عند اليونانيين : الحكمة ، فالفيلسوف هو صاحب الحكمة ، والفلاسفة اسم يطلق على رواد المعرفة والحكمة ممن لهم اهتمام بالكون والطبيعة وعلاقتها بالإنسان ، ومن قدمائهم : أرسطو وأفلاطون ومن متأخريهم : الفارابي وابن سينا وغيرهما . وإذا قيل : زنادقة الفلاسفة فهم الذين ألحدوا في ذات الله ، وعطلوه عن أفعاله ، ونسبوها إلى الطبيعة . انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ٩١ ، والتحفة المهدية ٤٦ ، والموسوعة الفلسفية ص٣٣٦-٣٣٨ .

(٢) و« الطبيعة » ساقطة من ط .

(٣) « الأربع » ساقطة من ق .

(٤) في ط زيادة : « والأخلاط » .

(٥) في ط : « آثار » .

(٦) في ح٢ : « الخلطة » .

(٧) « له » ساقطة من ط ، والجميع سوى ش .

فاحتياجه إلىٰ قاهر فوقه[1] يدخله تحت سياسته[2]، وإيالة ينتظم بها أمره ضرورية[3]، كحاجته إلىٰ مصالحه من الطعام والشراب واللباس .

وعند هؤلاء : أن العاقل متىٰ كان له وازع من نفسه قاهر، لم يحتج إلىٰ أمرِ غيره ونهيه وضبطه .

فمشهد هؤلاء : من حركات النفس الاختيارية، الموجبة للجنايات، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية، الموجبة للتغيرات[4]، وليس لهم مشهد وراء ذلك .

فصل

مشهد أصحاب الجبر

المشهد الثالث : مشهد أصحاب الجبر[5] : وهم الذين يشهدون أنهم مُجْبَرون[6] علىٰ أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم ؛ بل لا يشهدون أنها

---

(١) « فوقه » ساقطة من ش .

(٢) في ط : « سياسة » .

(٣) في ط : « ضرورة » .

(٤) في الجميع سوى ش، ط : « للتغييرات » .

(٥) أصحاب الجبر، أو الجبرية : سُمّوا بذلك نسبة إلى الجبر ؛ لأنهم يقولون : إن العبد مجبور على فعله، فهو كالريشة في مهب الريح، وكحركات المرتعش، ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل، ومنهم من يقول له قدرة غير مؤثرة، وأشهر فرقهم الغالية الجهمية .
انظر : مقالات الإسلاميين ٢٧٩، الفرق بين الفرق ٢١٠، اعتقادات فرق المسلمين ٦٨، الملل والنحل ١/ ٨٥ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : « مجبورون » .

أفعالهم البتة .

ويقولـون[١] : إن أحـدهم غـير فاعـل في الحقيقـة ولا قـادر ، وأن الفاعـل فيـه[٢] غيره والمحـرك لـه سـواه[٣] . وأنـه آلـة محـضة ، وحركاتـه بمنزلـة هبـوب الرياح[٤] وحركات الأشجار[٥] .

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر ، وحملوا ذنوبهم عليه . وقـد يغلـون[٦] في ذلـك ، حتىٰ يـروا أفعـالهم كلهـا طاعـات . خيرهـا وشرهـا ، لموافقتها المشيئة[٧] والقدر .

ويقولون : كما أن موافقة الأمر طاعة ، فموافقـة المشيئة طاعـة . كـما حكىٰ الله تعالىٰ عن المشركين إخوانهم ، أنهم جعلوا مشيئة الله تعالىٰ لأفعالهم دليلاً علىٰ أمره بها ورضاه بها[٨] [٩]، وهؤلاء شر من القدرية النفاة، وأشد[١٠] عـداوة لله،

---

(١) في ط : يقولون .

(٢) « فيه » ساقطة من م .

(٣) في أ : « لسواه » .

(٤) في ح٢ : « الريح » .

(٥) انظر : مقالات الإسلاميين ٢٧٩ ، والملل والنحل ١/ ٨٧ .

(٦) في ق : « يغلوا » .

(٧) في ط والجميع سوى ش : « للمشيئة » .

(٨) « بها » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٩) قال تعالى : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء...﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

(١٠) في ط زيادة : « منهم » .

ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتىٰ إن هؤلاء من يعتذر عن إبليس - لعنه الله -[1]، ويتوجع له ، ويقيم عذره بجهده . وينسب ربه تعالىٰ إلىٰ ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول[2] : ما ذنبه ، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ، وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته[3] منه؟ ثم كيف يمكنه السجود ، وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان في ترك سجوده لغيرك[4] إلا محسناً؟ لكن

إذا كان المحبُّ قليلَ حظٍّ فما حسناتُه إلا ذنوبُ[5]

وهؤلاء أعداء الله حقاً ، وأولياء إبليس ، وأحباؤه[6] وإخوانه . وإذا ناح منهم نائح علىٰ إبليس ، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجباً[7] . ورأيت من ظلم[8] الأقدار ، واتهام[9] الجبار ما يبدو علىٰ فلتات ألسنتهم ، وصفحات وجوههم ،

---

(١) « لعنه الله » ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٢) في ش : « ويقولون » .

(٣) في أ ، ب : « ومراده » .

(٤) في ط والجميع سوى ش : « السجود لغير الله » .

(٥) في فوات الوفيات ٩٧٥٠ منسوب لرجل يسمى منصور بن محمد بن علي ، وللشبلي بيت قريب من لفظه وهو قوله :

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب

(٦) « وأحباؤه » ساقطة من ش .

(٧) في الجميع سوى ط : « عجيباً » .

(٨) في ط : « ظلمهم » ، وفي ش : « تظليم » .

(٩) في ط : « واتهامهم » .

وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه ، فهؤلاء هم [١] الذين قال فيهم شيخ الإسلام [٢] في تائيته :

ويدعىٰ خصوم الله يوم معادهم   إلىٰ النار طُراً فرقة القدرية [٣]

فصل

المشهد الرابع: مشهد القدرية النفاة، يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم دون مشيئة الله ، وأن الله لم يقدّر ذلك عليهم ، ولم يكتبه ، ولا شاءه [٤] ، ولا خلق أفعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدي أحداً ولا يضله إلا بمجرد البيان ، لا أنه [٥] يلهمه الهدىٰ والضلال ، والفجور والتقوىٰ ، فيجعل ذلك في قلبه . مشهد القدرية النفاة

ويشهدون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه ، وأنه يشاء ما لا يكون ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله .

فالمعاصي والذنوب خلقهم ، وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله ، ولا تتعلق بمشيئته . وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله تعالىٰ

---

(١) « هم » ساقطة من م .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : « ابن تيمية » .

(٣) انظر : ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب محمد عبدالرحيم ، ٥٢ ، والعقود الدرية لابن عبد الهادي ٣٨٤ .

(٤) في ط : « ولا شاء » .

(٥) في ح١ ، م : « لأنه » .

والتوكل عليه ، والاعتصام به ، وسؤاله أن يهديهم ، وأن يثبت قلوبهم ، وأن لا يزيغها ، وأن يوفقهم لمرضاته ، ويجنبهم معصيته . إذ هذا كله واقع بهم ، وعين أفعالهم [١] ، ولا يدخل [٢] تحت مشيئة الرب تعالىٰ[٣] .

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر . فلا يؤزهم [٤] إلىٰ المعاصي ذلك الأزّ ، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج . وله في ذلك غرضان مهمان :

أحدهما : أن يقرر [٥] في قلوبهم صحة هذا المشهد [٦] وهذه العقيدة ، وأنكم تاركون [٧] للذنوب والكبائر التي [٨] يقع بها [٩] أهل السنة . فدل علىٰ أن الأمر مُفوّض إليكم ، واقع بكم ، وأنكم العاصمون لأنفسكم ، المانعون لها من المعصية .

الغرض الثاني : أنه يَصطادُ علىٰ أيديهم الجهال . فإذا رأوهم أهل عبادة

---

(١) في ط والجميع سوى ش : عين أفعالهم .

(٢) في ط زيادة : « شيء منها » .

(٣) انظر : شرح الأصول الخمسة ، ٣٣٢ وما بعدها ، الفرق بين الفرق ص١١٤-١١٥ .

(٤) الأزُّ : التهيج والإغراء ، وأزّهُ يؤزُّهُ أزّاً : أغراه وهيّجه ، وفي القرآن : ﴿إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤُزُّهم أزّاً﴾ [مريم : ٨٣] . انظر : لسان العرب ١/ ١٣٣ مادة (أزز) .

(٥) في ط : « يقر » .

(٦) في ش : « الشبهة » .

(٧) في ط ، غ ، ح١ ، أ ، ب : « تاركون الذنوب » وفي ح٢ ، م : « تاركوا الذنوب » .

(٨) في د ، م : « تقع » .

(٩) في ط والجميع : « فيها » .

وزهادة ، وتورع عن المعاصي ، وتعظيم لها ، قالوا : هؤلاء هم [١] أهل الحق - والبدعة عنده آثر [٢] وأحب إليه من المعصية - [٣] فإذا ظفر بها منهم ، واصطاد الجهال على أيديهم ، كيف [٤] يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويُقبِّحُها في أعينهم وقلوبهم . ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر .

فصل

مشهد الحكمة

المشهد الخامس وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة ، **مشهد الحكمة**[٥] .

وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده ما [٦] يبغضه سبحانه ويكرهه ، ويلوم ويعاقب عليه . وأنه لو شاء لعصمه منه ، ولحال بينه وبينه . وأنه سبحانه لا يُعصىٰ قسراً [٧] ، وأنه لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سدىً ،

---

(١) « هم » ساقطة من ح٢ ، غ ، م ، ط .

(٢) في ط ، ق : « والبدعة آثر عنده » .

(٣) كما قال سفيان الثوري - رحمه الله - : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية . والمعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . حلية الأولياء ٧/ ٢٦ .

(٤) في ق : « فكيف » .

(٥) « مشهد الحكمة » ساقط من ب .

(٦) في ق : « بما » .

(٧) في ح٢ : « قهراً » .

وأنَّ[1] له الحكمة البالغة في كل ما قدّره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية. حكمة[2] باهرة، تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها، وتكلُّ[3] الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وَقَدرِه، لما يبغضه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذي بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالىٰ لملائكته – لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابهم سبحانه بقوله[4]: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم، وترتب آثارها عليها[5] من الآيات والحكم، وأنواع التعرفات إلىٰ خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وتمام ملكه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ما يشهده أولو البصائر عياناً[6] ببصائر قلوبهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[7] [آل عمران: ١٩١] إن هي إلا حكمتك[8] الباهرة، وآياتك الظاهرة.

---

(١) في الجميع سوى ش: «وأنه».

(٢) في ط: «وحكمة».

(٣) كَلَّ يَكلّ كَلاً: أعيا، وكللت من المشي: أعييت. وكَلَّ الرجل: إذا تعب.
انظر: لسان العرب ١٢/ ١٤٢ مادة كلل.

(٤) «فأجابهم سبحانه بقوله» ساقط من أ.

(٥) «عليها» ساقطة من ط.

(٦) «عياناً» ساقطة من ح٢، م.

(٧) الآية مكملة في ح٢، م.

(٨) في د: «لحكمتك».

وله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

فكم من آية في الأرض بيِّنة ، دالّة على الله ، وعلى[2] صدق رسله ، وعلى أن لقاءه حق . كان سببُها معاصي بني آدم وذنوبهم ، كآيته في إغراق قوم نوح ، وعلوِّ الماء على رؤوس الجبال ، حتى أغرق جميع أهل الأرض ، ونجّى أولياءه ، وأهل معرفته وتوحيده . فكم في ذلك من آية وعبرة ، ودلالة باقية على مر الدهور[3] ! وكذلك إهلاك[4] قوم عاد وثمود .

وكم له[5] آية في فرعون وقومه من[6] حين[7] بعث موسى إليهم - بل قبل مبعثه- إلى حين إغراقهم ، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر[8] تلك الآيات والعجائب .

وفي التوراة أن الله تعالى قال لموسى : اذهب إلى فرعون فإني

(١) البيتان من شعر أبي العتاهية . انظر : ديوانه ١٢٢ ، وتاريخ بغداد ٦/ ٢٥٣ ، ونسبا أيضاً إلى لبيد بن ربيعة . انظر : ديوانه بشرح الطوسي ٢٨٠ ضمن المنسوب إليه وإلى غيره .

(٢) « وعلى » ساقطة من د .

(٣) في غ : « الدهر » .

(٤) في ش : « هلاك » .

(٥) في ط زيادة : « من » .

(٦) « من » ساقطة من ح١ .

(٧) « حين » ساقطة من ح١ ، م .

(٨) في د : « تظفر » .

سأقسي[1] قلبه ، وأمنعه عن[2] الإيمان ؛ لأظهر آياتي وعجائبي بمصر . وكذلك فعل سبحانه ، فأظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما أظهر .

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم ، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم ، وإلقائهم له في النار ، حتىٰ صارت تلك آية ، وحتىٰ نال إبراهيم ما[3] نال من كمال الخُلَّة[4][5] .

وكذلك[6] ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفىٰ عند الله تعالىٰ ، والوجاهة عنده ، بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ قومهم ، وعلىٰ محاربتهم لهم ومعاداتهم .

وكذلك اتخاذ الله الشهداء والأولياء والأصفياء من بني آدم ، بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ[7] أهل المعاصي والظلم ومجاهداتهم في الله ، وتحملهم لأجله من

---

(١) في ح٢ ، م : « أقسي » .

(٢) في ح٢ ، م : « من » .

(٣) في ط زيادة : « بها » .

(٤) في ق : « الحكمة » .

(٥) الخُلَّة : بالضم الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خِلاَلَه أي في بطنه ، والخليل الذي أصفى المودة وأصحَّها قال تعالى : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء : ١٢٥] أي أحبه محبة تامة لا خلل فيها . انظر : لسان العرب ٤/ ٢٠٢ - ٢٠٣ مادة (خَلَل) .
قال ابن أبي العز : « الخلة كمال المحبة المستغرقة للمُحَب ، ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته . انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٣٢٩ .

(٦) في ق : « ولذلك » .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : « بني آدم من » .

أعدائه ما هو بعينه وعلمه ، واستحقاقهم بذلك رفعةَ الدرجات .

إلىٰ غير ذلك من المصالح والحكم التي وُجدت [١] بسبب ظهور المعاصي والجرائم ، وكان من سببها ، تقدير ما يبغضه الله ويسخطه . وكان ذلك محض الحكمة ، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه ، وآثر عنده من [٢] فوته بتقدير عدم المعصية .

فحصول هذا المحبوب العظيم ، أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط ، فإن فواته وعدمه – وإن كان محبوباً له – ؛ لكنَّ حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه ، وفوات هذا المحبوب أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط . وكمال حكمته تقتضي [٣] حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنىٰ المحبوبين ، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه . وفرض الذهن وجود هذا [٤] بدون هذا ، كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها ، والملزومات بدون لوازمها ، مما تمنعه حكمة الله ، وكمال قدرته وربوبيته .

ويكفي من هذا مثال واحد . وهو أنه لولا المعصية من أبي البَشَر – بأكل الشجرة [٥] – لما ترتب علىٰ ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب

---

(١) « وجدت » ساقطة من غ .

(٢) « من » ساقطة من غ .

(٣) في ش : « يقتضي » .

(٤) « هذا ساقطة » من م .

(٥) في ط والجميع سوى ش : « بأكله من الشجرة » وفي د : « من الشجر » .

تعالىٰ، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه، وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه [١]، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

فلو قَدّر أن آدم لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو ولا أولاده [٢]: لم يكن شيء من ذلك [٣]، ولا ظهر من القوة إلىٰ الفعل ما كان كامناً في قلب إبليس، يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه [٤]، ولم [٥] تَتِمّ المَمْلَكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل.

وكم في تسليط أوليائه علىٰ أعدائه، وتسليط أعدائه علىٰ أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض، من حكمة بالغة، ونعمة سابغة.

وكم في طيّها [٦] [٧] من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سمواته

---

(١) في د، غ: «وحكمه».

(٢) في ط، ب، أ، غ، ح١: «وأولاده».

(٣) في ط، غ، ب، أ، ح١: «تلك».

(٤) في ط: «طيبهم».

(٥) في غ: «ولا».

(٦) في ط: «فيها».

(٧) طوى: الطاء والواو والياء أصل صحيح يدل على إدراج شيء، حتى يدرج بعضه في بعض، وطيها: ضَمْنَها ودَاخِلَها. انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨١ مادة: طوى، والمعجم الوسيط ٥٧٣.

وأرضه ، وخضوع له وتذلّل ، وتعبد وخشية وافتقار إليه ، وانكسار بين يديه ، أن لا يجعلهم من أعدائه . إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون [١] خذلان الله لهم ، وإعراضه عنهم ، ومقته لهم ، وما أعدّ[٢] لهم[٣] من العذاب ، وكل ذلك بمشيئته وإذنه [٤] وتصرفه في مملكته . فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون ، علىٰ أشدِّ وَجَل ، وأعظم مخافة ، وأتمّ انكسار .

فإذا رأتْ الملائكةُ إبليسَ وما جرىٰ له ، وهاروت وماروت ، وضعت رؤوسها بين يدي الرب تعالىٰ خضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، وخشية من إبعاده وطرده ، وتذلّلاً لهيبته ، وافتقاراً إلىٰ عصمته ورحمته ، وعلمت بذلك منّتَه عليهم ، وإحسانَه إليهم ، وتخصيصَه لهم بفضله وكرامته .

وكذلك [٥] أولياؤه المتقون ، إذ شاهدوا أحوالَ أعدائه ومقْته[٦] لهم ، وغضبه عليهم ، وخذلانه لهم ، ازدادوا له [٧] خضوعاً وذلاً ، وافتقاراً وانكساراً ، وبه استعانة وإليه إنابة ، وعليه توكّلاً ، وفيه رغبة ، ومنه[٨] رهبة .

---

(١) « يشاهدون » ساقطة من غ .

(٢) في ب زيادة : « الله » .

(٣) « لهم » ساقطة من غ .

(٤) في الجميع سوى ش : « وإرادته » ، وفي ط : « بمشيئه وإرادته » .

(٥) في ق : « ولذلك » .

(٦) « ومقته » ساقطة من : م .

(٧) « له » ساقطة من ط .

(٨) في ط ، غ ، ح١ ، أ ، ق : « أنهم » .

وعلموا أنه لا ملجأ لهم منه (١) إلا إليه ، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو ، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته ، فالفضل بيده أولاً وآخراً .

وهذه قطرة من بحر حكمته [المحيط (٢) بخلقه وأمره (٣) . والبصيرُ يطالع ببصيرته ما وراءه . فيُطلعه علىٰ عجائبَ من حكمته] (٤) لا تبلغها العبارة ، ولا تنالها (٥) الصفة .

وأما حظ العبد في نفسه ، وما يخصه من شهود هذه الحكمة ، فبحسب استعداده (٦) ، وقوة بصيرته وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته ، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية ، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم ، ومقام لا يتعدّاه ولا يتخطّاه . والله الموفق والمعين .

* * *

---

(١) « منه » ساقطة من ق .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، غ : « المحيطة » .

(٣) « وأمره » ساقطة من ط ، ح١ ، ب ، أ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٥) « تنالها » ساقطة من ق .

(٦) في غ : « إعداده » .

فصل

مشهد انفراد الرب بالخلق والحكم

المشهد السادس : وهو أن يشهد انفراد الرب تعالىٰ بالخلق والحكم ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته ، وأنه ما من قلب إلا وهو بين أصابعه(١). إن شاء أن يُقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه(٢). فالقلوب بيده. وهو مقلّبُها ومصرفُها(٣) كيف شاء وكيف أراد ، وأنه(٤) هو(٥) الذي آتىٰ نفوس المؤمنين تقواها ، وهو الذي هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها(٦)(٧)، ومن يهده(٨)

---

(١) في ش : « اصبعيه » وفي ط : « اصبعين من أصابعه ».

(٢) كما في حديث النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه** » ، رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٨٢ ، وابن ماجه في سننه ١/ ٧٢ في المقدمة (ح١٩٩) ، وابن حبان في صحيحه ٢/ ١٤٦ -١٤٧ ح٩٣٩ ، والحاكم في مستدركه ٢/ ٣١٧ وصححه ووافقه الذهبي ، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ٩٨ (ح٢١٩) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/ ٤٠ (ح١٦٥).

(٣) في ش : « ويصرفها ».

(٤) « أنه » : ساقطة من أ ، غ.

(٥) « هو » ساقطة من ح١ .

(٦) في غ : «وشقاها ».

(٧) كما قال تعالىٰ : ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس : ٧ ، ٨].

(٨) في د : « يهد » وفي ح٢ ، غ ، م « يهدي » .

الله فلا مضل له، ومن يضلل(١) فلا هادي له ، ويهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. وهذا فضله وعطاؤه ، وما فضل الكريم بممنون(٢) ، وهذا عدله وقضاؤه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء : ٢٣].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده»(٣).

وفي هذا المشهد : يتحقق للعبد مقام(٤) (إياك نستعين) علماً وحالاً. فيثبت قدم العبد في توحيد(٥) الربوبية ، ثم يرقىٰ منه صاعداً إلىٰ توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضُرَّ(٦) والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدىٰ والضلال ، والسعادة والشقاوة(٧) كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء ، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله(٨) وتخلَّىٰ عنه(٩) ؛ اتخذه

---

(١) في د : « يضلله ».

(٢) في م زيادة : « به ».

(٣) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٣، والآجري في الشريعة ٢/ ٨٧٦ - ٨٧٧.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «إياك نعبد ».

(٥) في غ : « توحيده ».

(٦) في ط : « الضرر ».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : « الشقاء ».

(٨) في ط والجميع زيادة : « وأهانه » ، وفي ب : « أهانه الله ».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها وأشدها وألينها من اتخذه ».

وحده إلهاً معبوداً. فكان أحبَّ إليه من كل ما سواه، وأخوفَ عنده[1] من كل ما سواه، وأرجىٰ له من كل ما سواه. فتتقدم محبتُه في قلبه جميعَ المحابّ، فتنساق المحابَّ تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخاوف[2]، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كلُّ[3] رجاء له[4] تبعاً لرجائه.

فهذا علامة[5] توحيد الإلهية[6]، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية[7][8].

---

(١) في ح٢، م: «له».

(٢) في ط، ح١، ح٢، أ، ب، غ: «المخوفات» وفي م: «المخلوقات».

(٣) في غ: «كله».

(٤) «له» ساقطة من ط، أ، غ، ب، ح١.

(٥) في غ: «علامات».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «في هذا القلب».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «أي باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلىٰ توحيد الإلهية.

(٨) توحيد الربوبية والألوهية بينهما تلازم وتضمن، وبيانه أن يقال:

توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، بمعنىٰ أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الألوهية والقيام به، فمن عرف أن الله ربه، وخالقه، ومدبر أموره، وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية بمعنىٰ أن توحيد الربوبية يدخل ضمن توحيد الألوهية، فمن عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئاً، فلابد أن يكون قد اعتقد أنه هو ربه وخالقه.

التلازم والتضمن بين توحيدَي الربوبية والألوهية

كما يدعو[1]، سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلىٰ النوع الآخر[2]، ويحتج عليهم[3] به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال[4] تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي فمن أين[5] يُصرفون عن شهادة أن لا إله إلا هو[6] وعن عبادته وحده، وهم[7] يشهدون أنه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «إن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالىٰ من الصفات، ونزهه عن كل ما يُنزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحداً بل ولا مؤمناً حتىٰ يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له» انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢٦.

وقال ابن أبي العز: «وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس» انظر: شرح الطحاوية ٨٧.

(١) في ط زيادة: «الله».

(٢) أي يدعو الله سبحانه وتعالىٰ عباده بتوحيد الربوبية إلىٰ توحيد الإلهية كما قال تعالىٰ: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]

(٣) في غ: «عليه».

(٤) في ط زيادة: «الله».

(٥) في ط: «فأين».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: «الله».

(٧) «وهم» ساقطة من م.

لا رب[1] غيره ، ولا خالق[2] سواه. وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥] فيعلمون[3] أنه إذا كان[4] وحده مالك الأرض ومن فيها ، وخالقهم[5] وربهم ومليكهم ، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره[6] ، فهكذا لا إله لهم سواه ، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ [المؤمنون : ٨٦-٨٩]. وهكذا قوله في سورة النمل : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾ [النمل: ٥٩ ، ٦٠] إلىٰ آخر الآيات[7].

---

(١) في ش : « أن لا رب ».

(٢) في ح١ : « وأنه لا خالق ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ د : « فتعلمون ».

(٤) في ط زيادة : « هو ».

(٥) في ش : « وخالقها ».

(٦) في ش : « سواه ».

(٧) انظر الآيات من آية ٥٩ حتىٰ آية ٦٥.

يحتج عليهم بأنَّ منْ فعل هذا وحده ، فهو الإله[1] وحده ، فإن كان معه رب فعل هذا؛ فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا؛ فكيف تجعلون[2] معه إلهاً آخراً؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية : أإله مع الله فعل هذا؟[3] حتىٰ يتم الدليل ، فلابد من الجواب بلا[4]. فإذا لم يكن معه إله[5] فعل كفعله ، فكيف تعبدون آلهة أخرىٰ سواه؟ فعُلم أن[6] إلهية ما سواه باطلة كما أنَّ ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنىٰ هل مع الله إله آخر؟[7] من غير أن يكون المعنىٰ فعل هذا[8] فقوله ضعيف لوجهين :

أحدهما: أنهم كانوا يقولون مع الله آلهة أخرىٰ. ولا ينكرون ذلك.

الثاني : أنه لا يتم الدليل ، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير ، أي فإذا كنتم تقولون : إنه ليس معه إله آخر فعل مثل ما

---

(١) في ط زيادة : « لهم ».

(٢) في غ : « تجعلونه ».

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٠/ ٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٤) « بلا » ساقطة من ق.

(٥) في أ زيادة : « آخر ».

(٦) « أن » ساقطة من ق.

(٧) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٨ ، وتفسير الماوردي ٣/ ٢٠٧.

(٨) « هذا » ساقطة من الجميع سوىٰ ش ، ط.

فعل(١) ، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله : ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٢) [الرعد : ١٦] ، وقوله : ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان : ١١] ، وقوله : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل : ١٧] ، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل : ٢٠] ، وقوله : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان : ٣] وهو كثير في القرآن ، وبه (٣) تتم الحجةُ كما تبيَّن.

والمقصود : أن العبدَ يُحصِّل له هذا (٤) المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلىٰ الخليقة بتقدير العزيز الحكيم ، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو ، ولا سبيل إلىٰ طاعته إلا بمعونته ، ولا وصول إلىٰ مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه ، ومصادرها إليه. وأزمة(٥) التوفيق جميعها بيده (٦) فلا مستعان للعباد إلا به (٧) ، ولا مُتَّكَل(٨) إلا

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : « مثل فعله ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش الآية مكملة .

(٣) في غ : « فيه ».

(٤) في ط زيادة : « في ».

(٥) الأزْمُ : شدة العض بالفم كله ، وأزَمَ القوم : أمسكوا عن الكلام ، وأزَمْت الحبل : أحكمت فتله وضَفْرَه. انظر : لسان العرب ١/ ١٣٦ مادة (أزم) .

(٦) في ط ، ب ، م ، د ، أ : « بيديه ».

(٧) « إلا به » ساقطة من غ.

(٨) في ح١ : « متوكل ».

عليه[1]، قال تعالىٰ عن[2] شعيب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فصل

مشهد التوفيق والخذلان

المشهد السابع: **مشهد التوفيق والخذلان**، وهو من تمام هذا المشهد وفروعه؛ ولكن أُفرد بالذكر لحاجة العبد إلىٰ شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله أن «التوفيق»[3] أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك[4]، و «الخذلان»[5] أن يُخلي بينك وبينها[6]. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه؛ بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا. فيعطيه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له. ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو المحمود في[7] هذا وهذا، له أتم حمد[8] وأكمله. ولم يمنع العبد شيئاً هو له.

---

(١) في ق زيادة: «كما».

(٢) «تعالىٰ عن» ساقطة من ط.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «هو».

(٤) في ط زيادة: «وأن».

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «وهو».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: «وبين نفسك».

(٧) في ط، أ، غ، ب، ح١: «علىٰ».

(٨) في ش: «الحمد».

وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله[١].

فمتىٰ شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم[٢] ضرورته وفاقته[٣] إلىٰ التوفيق[٤] كل نفس وكل لحظة، وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيد غيره[٥] لو تخلىٰ عنه طرفة عين لثُلَّ[٦] عرشه[٧]، ولخَرَّت سماء إيمانه علىٰ الأرض. وأن الممسك له[٨]، من يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه فهِجِّيرىٰ[٩] قلبه، ودأب لسانه: «يامقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»[١٠]، و« يا مصرف

---

(١) في ش: « يضعه ».

(٢) في ط زيادة: « شدة ».

(٣) في ط والجميع: « حاجته ».

(٤) في ط، ش زيادة: « في ».

(٥) في ط، أ، غ، ح١، ب، ق: « بيده تعالىٰ ».

(٦) ثُلَّ عرشه: هدم وذهب سلطانه. انظر: لسان العرب ٢/ ١٢٢ مادة ثلَل، والمعجم الوسيط ٩٩.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: « عرش توحيده ».

(٨) في ط زيادة: « هو ».

(٩) الهجِّيرىٰ: الدأب، والعادة. انظر: لسان العرب ١٥/ ٣٤ مادة: هجر.

(١٠) رواه أحمد في مسنده ٦/ ٢٩٤، والترمذي في سننه ٤/ ٤٤٨ - ٤٤٩ في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (ح٢١٤٠) وقال: حديث حسن.

ورواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٣١، باب دعوات النبي ﷺ (ح٦٨٤). وابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٠٣-١٠٤ (ح٢٣٠). وقال الألباني: صحيح. انظر: ظلال الجنة في تخريج السنة ١/ ١٠٤.

القلوب صرف قلبي علىٰ طاعتك »(١) ودعواه « يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، ولا إلىٰ أحد من خلقك»(٢).

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٠٤٥ في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء (ح٢٦٥٤) بلفظ : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك ». وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٨.

(٢) رویٰ بعضه النسائي في عمل اليوم والليلة ٣٨١ (ح٥٧٠) عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ، أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين» . والبيهقي كذلك في الأسماء والصفات ١٤٠. والحاكم في المستدرك ١/ ٧٣٠ (ح٢٠٠٠) وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره المنذري في الترغيب ١/ ١٥٧ وقال : رواه النسائي والبزار بإسناد صحيح. وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١١٧ وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عثمان ابن موهب وهو ثقة. والحديث صححه الألباني. انظر : الصحيحة ١/ ٥٣ (ح٢٢٧).

وروىٰ أنس بن مالك أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك أن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام فقال النبي ﷺ : « لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطىٰ ».

رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٢٠. وأبو داود ٢/ ١٦٧-١٦٨ في كتاب الوتر ، باب الدعاء (ح١٤٩٥). والترمذي ٥/ ٥٥٠ في كتاب الدعوات ، باب خلق الله مائة رحمة (ح٣٥٤٤). وقال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس وقد روي من غير هذا الوجه عن أنس. وابن ماجه ٢/ ١٢٦٨ في كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم (ح٣٨٥٨). والنسائي ٣/ ٥٢ في كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر (ح١٣٠٠). والحاكم في المستدرك ١/ ٦٨٣ (ح١٨٥٦) وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه ، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر ، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف(١) ، ويلقي نفسه بين يديه ، طريحاً ببابه مستسلماً له ، ناكس الرأس بين يديه ، خاضعاً ذليلاً مستكيناً ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولانشوراً.

و «التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد ، بأن يجعله قادراً علىٰ فعل ما يرضيه ، مريداً له ، محباً له(٢) ، مؤثراً له علىٰ غيره. ويُبَغِّض إليه ما يسخطه ، ويُكَرِّهه إليه. وهذا مجرد فعله ، والعبد محل له. قال تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات : ٧ ، ٨] فهو سبحانه عليم(٣) بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عُقيب قوله : ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات : ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال :

المجمع ١٠/ ١٥٦ وقال : رواه أحمد والطبراني في الصغير ورجال أحمد ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس وإن كان ثقة. وقال الألباني : إسناده صحيح. انظر : مشكاة المصابيح ٢/ ٧٠٨ - ٧٠٩ (ح٢٢٩٠).

(١) الملهوف : المظلوم. ينادي ويستغيث. لسان العرب ١٢/ ٣٤٤ ، مادة : لهف.

(٢) « له » ساقطة من أ ، ح٢.

(٣) «فهو سبحانه عليم » ساقطة من ق.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات : ٧]. يقول سبحانه : لم تكن[١] محبتكم للإيمان وإرادته[٢] وتزيينه في قلوبكم : منكم ؛ ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فكذلك[٣] لا تقدموا بين يدي[٤] الله ورسوله[٥]، ولا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر. فالذي حبَّبَ إليكم الإيمان [أعلم بمصالح عباده وما يصلحهم[٦] منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم[٧] يكن الإيمان][٨] بمشورتكم وتوفيق[٩] أنفسكم، ولا تقدّمتم به عليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون ؛ لشَقَّ عليكم ذلك، ولهلكتم[١٠] وفسدَتْ مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد بكم[١١] الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أني حبَّبْته إليكم وزيَّنْتهُ في قلوبكم،

---

(١) في أ، ب، ح٢، ح١، غ: «لم يكن».

(٢) في ط: «وإرادتكم له».

(٣) في ط، أ، غ، ب، ح١: «فلذلك».

(٤) «يدي» ساقطة من غ.

(٥) في ط، ح١، ح٢، ب، ق: «يدي رسولي».

(٦) «وما يصلحهم» ساقطة من ط، ح٢، غ، أ، ح١، م، د.

(٧) في ش: «ولم».

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ق.

(٩) في م: «ولا توفيق».

(١٠) «ولهلكتم» ساقطة من ب.

(١١) في ط: «لكم».

وكرَّهْتُ إليكم ضدَّه لما وقع منكم. ولا [١] سمحت به نفوسكم [٢].

وقد ضُرِبَ للتوفيق والخذلان مثل : مَلِكٌ أرسل إلىٰ أهل بلدة [٣] من بلاده رسولاً. وكتب معه [٤] كتاباً يُعلمهم أن العدو مُصَبِّحُهم عن قريب ومجتاحهم ، ومخرب البلد ومهلك من فيها. وأرسل إليهم أموالاً ومراكبَ وزاداً وعدة وأدلة ، وقال : ارتحلوا إليّ [٥] مع هؤلاء الأدلة. وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ، ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا إلىٰ فلان ، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد ، واذهبوا إلىٰ فلان كذلك وإلىٰ فلان ، وذروا من عداهم ؛ فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي. فذهب خواصُّ الملك [٦] إلىٰ من أُمروا بحملهم ؛ فلم يتركوهم يَقِرُّون ؛ بل حملوهم حملاً ، وساقوهم سوقاً إلىٰ الملك ؛ فاجتاح العدوُّ من بقي في المدينة وقتلهم ، وأسر من أسر.

فهل يُعد الملِك ظالماً لهؤلاء ، أم عادلاً فيهم؟ نعم خَصَّ أولئك بإحسانه وعنايته ، وحرمها من عداهم ، إذ لا تجب [٧] عليه التسوية بينهم في فضله

---

(١) « ولا » ساقطة من غ ، وفي ش : « ولما ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « أنفسكم ».

(٣) في ط ، ح١ ، غ ، ب ، أ : « بلد ».

(٤) في ط زيادة : « إليهم ».

(٥) « إليّ » ساقطة من ط.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : « مماليكه ».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : « لا يحب ».

وإكرامه ؛ بل ذلك فضله وإكرامه [١] يؤتيه من يشاء.

وقد فسرت القدرية الجبرية « التوفيق » بأنه خلق الطاعة و« الخذلان»[٢] خلق المعصية [٣].

ولكن بنوا ذلك علىٰ أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم ، وردوا الأمر إلىٰ محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة ففسروا « التوفيق » بالبيان العام ، والهدي العام ، والتمكن من الطاعة والاقتدار[٤] عليها. وتهيئة أسبابها[٥]. وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة ، وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم : أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الإقدار والتمكين ، والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم ، والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم ، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلماً.

والتزموا لهذا الأصل لوازم ، قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء ، ولم يجدوا بدًّا من التزامها. فظهر فسادُ مذهبهم ، وتناقضه [٦] ، لمن أحاط به

---

(١) «وإكرامه» ساقط من ط والجميع.

(٢) في ط زيادة : « بأنه ».

(٣) انظر : الفرق بين الفِرَق ٢١١ ، الملل والنحل ١/ ٨٧.

(٤) في ط ، ح٢ ، أ ، ب ، ح١ ، م ، غ : « والإقبال ».

(٥) انظر : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢/ ٣٤٠ ، والملل والنحل ١/ ٤٥.

(٦) في ط ، ح٢ ، م : « تناقض قولهم ». وفي أح١ ، د ، غ ، ب ، ق : « أقوالهم ».

علماً، وتصوره حق تصوره، وعلم أنه من أبطل مذهب في العالم وأرواه.

وهدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولا بطريق هؤلاء، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم، فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات، وأثبتوا الأسباب والحكم، والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء، أو[1] أن يقدر خلقه علىٰ ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، وأن[2] يكون شيء من أفعالهم واقعاً بغير اختياره وبدون مشيئته. ومن قال ذلك فلم يعرف ربه، ولم يُثبت له كمال الربوبية. ونزهوه - مع ذلك - عن[3] العبث وفعل القبيح[4]، وأن يخلق شيئاً سدىٰ، وأن

---

(١) «أو» ساقطة من م.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: «أو أن».

(٣) في م: «من».

(٤) أول من اشتهر عنه البحث في مسألة التحسين والتقبيح هو الجهم بن صفوان الذي وضع قاعدته المشهورة «إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع» انظر: الملل والنحل ١/ ٨٨.
وقال: إن العقل يوجب ما في الأشياء من صلاح وفساد وحسن وقبح، وهو يعقل هذا قبل نزول الوحي وبعد ذلك يأتي الوحي مصدقاً لما قال به العقل من حسن بعض الأشياء وقبح بعضها، وقد أخذت المعتزلة بهذا القول وبنوا عليه أصلهم، وزادوا عليه شرحاً وبياناً واستدلالاً، والكرامية أخذت هذا القول عن المعتزلة. انظر: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة للمحمود ص١٧٠-١٧١.
ولقد وقع الخلاف في هذه المسألة بين أهل السنة وغيرهم علىٰ أقوال:
القول الأول: من يقول بالحسن والقبح، ويجعل ذلك صفات ذاتية للفعل لازمة له ولا =

= يجعل الشرع إلا كاشفاً عن تلك الصفات لا سبباً لشيء من الصفات. وهذا هو قول المعتزلة. فهؤلاء يجعلون الذي يُحسِّن ويقبِّح هو العقل ... انظر : مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٣١، ١١/ ٦٧٧.

القول الثاني : أن الأفعال لم تشتمل علىٰ صفات هي أحكام ولا علىٰ صفات هي علل للأحكام ؛ بل القادر أمر بأحد المتماثلين دون الآخر لمحض الإرادة لا لحكمة ولا لرعاية مصلحة في الخلق والأمر... فهم يقولون: إن الذي يجعله حسناً أو قبيحاً هو ورود الشرع به، وهذا قول الأشاعرة ومن وافقهم.

انظر : الإرشاد للجويني ٢٥٨ ، مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٣٢-٤٣٣ ، ١١/ ٦٧٧.

القول الثالث : أن الفعل يكون سيئاً وشراً وقبيحاً قبل مجيء الرسل ؛ لكن العقوبة تستحق بمجيء الرسل. وعلىٰ هذا عامة السلف وأكثر المسلمين ، فهم لا ينفون دور العقل في التحسين والتقبيح ، ولا يجعلونه من ناحية الشرع فقط ، ويوضح هذا شيخ الإسلام حيث قَسّم الأفعال إلىٰ ثلاثة أنواع :

أحدها : أن يكون الفعل مشتملاً علىٰ مصلحة أو مفسدة ، ولم يرد الشرع بذلك كما يُعلم أن العدل مشتملٌ علىٰ مصلحة العالم ، والظلم مشتملٌ علىٰ فسادهم ، فهذا النوع هو حسنٌ وقبيح. وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن ؛ لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك ، وهذا ما غلط فيه القائلون بالتحسين والتقبيح ؛ فإنهم قالوا : إن العباد يعاقبون علىٰ أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث الله إليهم رسولاً ، وهذا خلاف النص قال تعالىٰ : ﴿وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً﴾ [الإسراء : ١٥].

النوع الثاني : أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً وإذا نهىٰ عن شيء صار قبيحاً ، واكتسب الفعلُ صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

النوع الثالث : أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد ، هل يطيعه أم يعصيه ، ولا يكون المراد فعل المأمور به ، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه: ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ [الصافات: ١٠٣]

تخلو أفعاله عن حكم بالغة ، لأجْلِها أوْجَدها ، وأسباب بها [١] سَبَّبها ، وغايات جُعلت طرقاً ووسائل إليها ، وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به ، ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة.

وأهل [٢] الصراط المستقيم : بريئون من الطائفتين ، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه ، ويجمعون حق كل منهما [٣] إلىٰ حق الأخرىٰ [٤] ، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل. فهم شهداء الله علىٰ الطوائف ، أمناء [٥] عليهم ، حكامٌ بينهم ، حاكمون عليهم. ولا يحكم

حصل المقصود ، ففداه بالذبح ، وكذلك حديث أبرص وأقرع وأعمىٰ ، فلما أجاب الأعمىٰ قال الملك : « **أمسك عليك مالك ، فإنما ابتليتم ، فرضي عنك وسخط علىٰ صاحبيك** » ، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لامن نفس المأمور به.

وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه المعتزلة ، وزعمت أن الحسن والقبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك بدون أمر الشارع ، والأشعرية ادعوا أن جميع الشريعة من قسم الامتحان ، وأن الأفعال ليست صفة ، لا قبل الشرع ولا بالشرع. وأما الحكماء والجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة وهو الصواب.

انظر : مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٤٣٤ – ٤٣٦.

(١) في ش : « لها ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « فأهل ».

(٣) في ش : « منها ».

(٤) في ح١ : « الآخر ».

(٥) في ط : « وأمناؤه ».

عليهم منهم أحد[١]. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف[٢] عن معرفة ما جاءت به الرسل[٣]، وعرف الفرق بينه وبين غيره، ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً؛ بل ممن هو[٤] علىٰ بينة من ربه وبصيرة في إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق المعين[٥].

فصل

مشهد الأسماء والصفات

المشهد الثامن: مشهد الأسماء والصفات وهو من أجلِّ المشاهد. وهو أعلىٰ مما قبله وأوسع.

والمَطْلَع علىٰ هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، وارتباطه بها وأن[٦] العالم - بما فيه - من بعض آثارها ومقتضاها[٧]، وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه[٨]

---

(١) في ق: «أحد منهم»

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «له».

(٣) في ط، أ، غ، ح١، ب: «ما جاء به الرسول».

(٤) في ط: «هم».

(٥) «المعين» ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

(٦) في ط زيادة: «كان».

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: «مقتضياتها».

(٨) في ش: أسمائه سبحانه.

الحسنىٰ [1] أوصاف مدح وكمال [2].

وكل صفة لها مقتضىٰ وفعل : إما لازم وإما متعد. ولذلك الفعل تعلق بمفعول [3] هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنىٰ وموجباتها [4].

---

(١) « الحسنىٰ » ساقطة من ط والجميع وفي ش : « سبحانه ».

(٢) من الإيمان بأسماء الله سبحانه الإيمان بأنها أعلام وأوصاف ، فهي أعلام باعتبار دلالتها علىٰ ذات الله ، وهي أوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني ، فأسماؤه سبحانه اتفقت في دلالتها علىٰ ذاته مع تنوع معانيها ، فهي مترادفة من حيث دلالتها علىٰ ذات الله عز وجل ، ومتباينة فيما تتضمنه من الصفات لدلالة كل اسم منها علىٰ معنىٰ خاص ، وإثبات هذه الأسماء بمعانيها دالٌ علىٰ صفات الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

انظر : التدمرية لشيخ الإسلام ص١٠٠-١٠١ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٦٢ ، والقواعد المثلىٰ للشيخ ابن عثيمين ٨ ، أسماء الله الحسنىٰ لعبدالله الغصن ص٥٣-٥٤.

(٣) في ق : « بمفعوله ».

(٤) من الإيمان بأسماء الله عز وجل الإيمان بما يتعلق بها من آثار ، وهذه الآثار ليست عامة في جميع الأسماء ، فإن أسماء الله تعالىٰ إن دلت علىٰ وصف متعد تضمنت ثلاثة أمور : إثبات الاسم ، وإثبات الصفة التي تضمنها لله عز وجل ، وإثبات أثر ذلك الاسم وهو الحكم والمقتضىٰ.

مثال ذلك اسم (الرحيم) ، فيثبت الاسم وما تضمنه من صفة الرحمة والأثر المتعلق بها.

قال ابن القيم - رحمه الله - : « فانظر إلىٰ ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامة ، فبرحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ ، وأنزل علينا كتابه، وعلَّمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصّرنا من العمىٰ ، وأرشدنا من الغيّ ، وبرحمته ، عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا ، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم ، وأرشدنا لصالح ديننا ودنيانا ، وبرحمته

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه[١] يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماؤه حسنىٰ، ففرض تعطيلها عن[٢] موجباتها مستحيل في حقّه. ولهذا ينكر سبحانه علىٰ من عَطَّله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه[٣] نسبه إلىٰ ما لا يليق به بل[٤] تنزه عنه، وأن ذلك حكم سيىء ممن حكم به عليه، وأنَّ من نسبه إلىٰ ذلك فما قَدّره حق قدره، ولا عَظّمه حق تعظيمه، كما قال تعالىٰ في حق منكري النبوات[٥] وإرسال

أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار ...». انظر: مختصر الصواعق المرسلة للموصلي ٢/ ٣١٧.

وإن دلت علىٰ غير متعد تضمنت أمرين. . إثبات الاسم له عز وجل، وإثبات الصفة التي تضمنها هذا الاسم.

مثال ذلك: اسم (الحي) يتضمن إثبات الاسم لله تعالىٰ وما تضمنه من صفة الحياة لله عز وجل. انظر: القواعد المثلىٰ للشيخ ابن عثيمين ص١٠-١١.

(١) «أنه» ساقطة من ش.

(٢) في م: «من».

(٣) في ط زيادة: «بذلك».

(٤) في ط: «وإلىٰ ما يتنزه».

(٥) في ط، ح٢، م، غ، ب، ح١، أ: «النبوة».

الرسل ، وإنزال الكتب : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٩١] وقال في (١) منكري المعاد والثواب والعقاب : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر : ٦٧] وقال في حق من جوّز عليه التسوية بين المختلفين ، كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية : ٢١]. فأخبر أن حكم شيء لا يليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ (٢) [المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦]. عن هذا الظن والحسبان ، الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثير (٣) ينفي (٤) عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته ، إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضاها (٥).

فاسمه «الحميد ، المجيد» يمنع ترك الإنسان سدىً مهملاً معطلاً ، لا يؤمر ولا يُنهىٰ. ولا يُثاب ولا يُعاقَب. وكذلك اسمه « الحكيم » يأبىٰ ذلك. وكذلك

---

(١) في ط والجميع زيادة : « حق ».

(٢) في الجميع سوىٰ ط وش الآية مكملة.

(٣) في ط : « كثيرة ».

(٤) في ط زيادة : « فيها ».

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : « مقتضياتها ».

اسمه « الملك » ، واسمه الحي يمنع أن يكون مُعطّلاً عن [1] الفعل ، بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حي فعال. وكونه سبحانه « خالقاً قيّوماً »من موجبات حياته ومقتضاها [2] ، واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً ، واسم [3] «الخالق» يقتضي مخلوقاً ، وكذا [4] «الرازق» [5] واسم [6] «الملك» يقتضي مملكة [7] وتصرّفاً وتدبيراً ، وإعطاءً ومنعاً، وإحساناً وعدلاً ، وثواباً وعقاباً. واسم «البر ، المحسن ، والمعطي ، المنان» ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عُرف هذا. فمن أسمائه سبحانه « الغفار ، التواب ، العفو » فلابد لهذه الأسماء من متعلقات ، ولابد من جناية تُغفرَ ، وتوبة تُقبَل ، وجرائم يُعْفَىٰ عنها. ولابدَ لاسمه « الحليم » [8] من متعلق يظهر فيه حلمُه [9]. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم « الخالق ، الرازق ، المُعْطِي ، المانع » للمخلوق والمرزوق والمعطىٰ والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنىٰ.

---

(١) في ط : « من ».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : « مقتضياتها ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : « واسمه ».

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : «وكذلك ».

(٥) في ط ، ح٢ ، غ ، ب ، م ، ش ، ح١ ، ق : « الرزاق ».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : « واسمه ».

(٧) في غ ، م : « مملكته ».

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : « الحكيم ».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : « حكمه ».

والرب تعالىٰ يحب[1] ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفوٌّ يحب العفو ، ويحب المغفرة ويحب التوبة ، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال[2]. فكان[3] تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ، ويحلم عنه ، ويتوب عليه ويسامحه ، من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك ، وما يحمد به نفسه ، ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه ، ما هو[4] من موجبات كماله ومقتضىٰ حمده.

وهو [5] سبحانه الحميد المجيد ، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما : مغفرة الزلات وإقالة العثرات ، والعفو عن السيئات ، والمسامحة علىٰ الجنايات. [6]مع كمال القدرة علىٰ استيفاء الحق ، والعلم منه

---

(١) في الجميع سوىٰ ش ، ط : « تحب ».

(٢) كما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، حين يتوب إليه ، من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة. فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها. فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح ». رواه مسلم ٤/ ٢١٠٤ – ٢١٠٥ في كتاب التوبة ، باب في الحض علىٰ التوبة والفرح بها (ح٢٧٤٧).

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : « وكان ».

(٤) في ش : « مما هو ».

(٥) في أ ، ب زيادة : « أنه ».

(٦) في أ ، ح١ ، غ ، ب بزيادة : « هذا ».

سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه (١) بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ـ صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ـ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح (٢) جهلاً بقدر الحق؛ بل أنت عليم بحقك، قادر علىٰ استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان (٣) آثار الأسماء والصفات في العالم (٤)، وفي الأمر، تبيَّن له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغاياتها أيضاً: مقتضىٰ حمده ومجده، كما هو مقتضىٰ ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضىٰ (٥) وقدّره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرف (٦) إلىٰ عباده (٧) بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له (٨)، وشكرهم

---

(١) في م: «وحكمه».

(٢) في ح١: «أو يسامح».

(٣) في ش: «باب».

(٤) في غ: «العلم».

(٥) في ط، أ، ب، ح١، ح٢، د، م: «ما قضاه».

(٦) في ط، غ، أ، ب، ح١: «التعرفات».

(٧) في ش: «عبيده».

(٨) «له» ساقطة من ح٢.

له[١] ، وتعبدهم له بأسمائه الحسنىٰ. إذ كل اسم فله تعبد مختص به ، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية ، المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا تحجبه[٢] عبودية اسم عن عبودية[٣] آخر[٤] ، كمن يحجبه التعبد باسمه « القدير » عن التعبد باسمه « الحليم الرحيم » أو يحجبه عبودية اسمه « المعطي » عن عبودية اسمه « المانع » أو عبودية اسمه « الرحيم والعفو والغفور » عن اسمه « المنتقم » أو[٥] التعبد بأسماء « التودد ، والبر ، واللطف ، والإحسان » عن أسماء « العدل ، والجبروت ، والكبرياء ، والعظمة »[٦] ونحو ذلك.

وهذه[٧] طريقة الكُمّل من السائرين إلىٰ الله تعالىٰ ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن.

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ، ودعاء الثناء ، ودعاء التعبد ، وهو سبحانه يدعو عباده إلىٰ أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

---

(١) « له » ساقطة من غ.

(٢) في ح٢ ، غ ، ب ، م ، د ، ح١ : « يحجبه ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ غ زيادة : « اسم ».

(٤) في ش : « أخرىٰ ».

(٥) « أو » ساقطة من ح١.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « الكبرياء ».

(٧) في أ زيادة : « عبودية ».

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته. فهو «عليم» يحب كل عليم، «جواد»[1] يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حَيِيٌّ» يحب الحياء وأهله، «بَرٌّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقَدّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له. فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلىٰ المحبوب.

فربما كان مكروهُ النفوسِ[2] إلىٰ محبوبها سبباً ما مثلهُ سببُ[3]

والأسباب - مع مسبباتها - أربعة أنواع: محبوب يفضي إلىٰ محبوب. ومكروه يفضي إلىٰ محبوب، وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره[4] بالنسبة إلىٰ ما يحبه ويكرهه[5].

الثالث: مكروه يفضي إلىٰ مكروه. والرابع: محبوب يفضي إلىٰ مكروه. وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه، إذ الغايات المطلوبة من قضائه

---

(١) في الجميع سوىٰ ق: «وجواد».

(٢) في ط: «العباد».

(٣) البيت للبحتري. انظر: ديوانه ١/ ١٧١ لكن قال: مكروه الأمور.

(٤) في ش: «وقدره».

(٥) في ط: «وما يكرهه».

وقدره - التي خلق [1] ما خلق وقضىٰ [2] ما قضىٰ [3] لأجل حصولها - لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له. والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلىٰ محبوب له ومكروه له.

فالطاعات والتوحيد : أسباب محبوبة له ، موصلة إلىٰ الإحسان والثواب المحبوب له أيضاً. والشرك والمعاصي : أسباب مسخوطة له ، موصلة إلىٰ العدل المحبوب له ، وإن كان الفضل أحب إليه من العدل. فاجتماع الفضل والعدل [4] أحب إليه من انفراد أحدهما [5] لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء ، وكمال القدرة.

فإن قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه.

قيل : هذا سؤال باطل ؛ لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذي يقدِّر [6] الذهنُ وجوده شيءٌ آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب. وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم ، بل قد يكون مبغوضاً للرب تعالىٰ لمنافاته حكمته ؛ فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له ، كان نسبة له إلىٰ ما لا يليق به ، ويتعالىٰ عنه.

---

(١) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ : « الذي ما خلق ».

(٢) في ط : « ولا ».

(٣) في ط : « إلا ».

(٤) في ط : « العدل والفضل ».

(٥) في ط زيادة : « عن الآخر ».

(٦) في ط زيادة : « في ».

فَلْيُعْطِ اللبيبُ هذا الموضعَ حقَّه من التأمل. فإنه مزَّلةُ أقدام ، ومضلَّةُ أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقلّ الخلافُ. وهذا المشهدُ أجلّ من أن يحيط به كتاب أو يستوعبه خطاب ، وإنما أشرنا منه [١] إلىٰ أدنىٰ إشارة ، تُطلع علىٰ ما وراءها. والله الموفق المعين [٢].

* * *

(١) « منه » ساقطة من م ، وفي ط : « إليه ».

(٢) « المعين » ساقطة من: أ ، ح١ ، ب ، غ.

فصل

مشهد زيادة الإيمان

المشهد التاسع : مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده ، وهذا من ألطف المشاهد ، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلىٰ إنكاره ، ويقول : كيف تُشهد[1] زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولا سيما من[2] ذنوب العبد ومعاصيه. وهل[3] ذلك إلا منقص الإيمان[4] ، فإنه بإجماع السلف : يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية[5].

---

(١) في ط والجميع سوىٰ د : يشهد.

(٢) « من » ساقطة من غ.

(٣) في ح١ : « فإن ذلك ».

(٤) في ط ، أ ، غ ، ب ، د ، ش ، ق : « للإيمان ».

(٥) القول بزيادة الإيمان ونقصانه هو مذهب أهل السنة والجماعة. وقد تواتر بذلك النقل عنهم قال أبو هريرة - رضي الله عنه- : « الإيمان يزداد وينقص » رواه الآجري في الشريعة ٢/ ٥٨٢. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول لأصحابه : « هلموا نزدد إيماناً فيذكرون الله عز وجل »رواه الآجري في الشريعة ١/ ٥٨٤-٥٨٥.

وقال عُمير بن حبيب : « الإيمان يزيد وينقص. قيل له : ما زيادته ونقصانه؟ قال : إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه ، وخشيناه فذلك زيادته ، فإذا غفلنا وضيعنا فذلك نقصانه » رواه الآجري في الشريعة ١/ ٥٨٤.

وقال سفيان الثوري – رحمه الله – : «خالفنا المرجئة في ثلاث : نحن نقول الإيمان قول وعمل ، وهم يقولون : قول بلا عمل ، ونحن نقول : يزيد وينقص ، وهم يقولون لا يزيد ولاينقص ، ونحن نقول مؤمنون بالإقرار ، وهم يقولون نحن مؤمنون عند الله». ذكره البغوي في شرح السنة ١/ ٤١.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلىٰ الذنوب والمعاصي منه ومن غيره، وإلىٰ ترتب آثارها عليها(١). وترتب هذه الآثار(٢) عَلَم من أعلام النبوة،

ولقد روىٰ اللالكائي ـ رحمه الله ـ في كتاب السنة بسنده عن البخاري ـ رحمه الله ـ أنه قال: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص». انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٧٣-١٧٤، وانظر فتح الباري ١/ ٤٧.

وحكىٰ البغوي – رحمه الله – اتفاق الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء السنة علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. انظر: شرح السنة ١/ ٣٨-٣٩.

ولقد استدل أهل السنة والجماعة علىٰ قولهم بأدلة عديدة من الكتاب والسنة.

من الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ...﴾ الأنفال: ٢. وقوله تعالىٰ: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ [التوبة: ١٢٤]. وغير ذلك من الآيات. ومن السنة: قوله ﷺ: ﴿من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان﴾ رواه مسلم ١/ ٦٩ في كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (ح٤٩). وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

رواه البخاري ٥/ ١١٩ في كتاب المظالم، باب النُّهبىٰ بغير إذن صاحبه (ح٢٤٧٥).

ومسلم ١/ ٧٦ في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (ح٥٧).

وقوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٥٠، والترمذي ٣/ ٤٥٧ في كتاب الرضاع، باب (ما جاء في حق المرأة علىٰ زوجها) ح(١١٦٢) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني. انظر الصحيحة ١/ ١٦٧ (ح٢٨٤).

(١) في ش: «عليه».

(٢) في ط والجميع زيادة: «عليها».

وبرهان من براهين صدق الرسل ، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم ، ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد ، وأخبروهم عن الله سبحانه أنه يحب كذا وكذا [ويثبت عليه كذا وكذا](١) وأنه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت ، وأنه إذا أطيع بما أمر به ؛ شكر عليه بالإمداد والزيادة والنعم ، في القلوب والأبدان والأموال. ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خُولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص ، والفساد ، والضعف ، والذل ، والمهانة ، والحقارة ، وضيق العيش ، وتنكد الحياة ما ترتب ، كما قال تعالىٰ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٧] وقال : ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النحل : ٣٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود : ٣] وقال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه : ١٢٤] ، وفسرت المعيشة الضنك : بعذاب القبر(٢). والصحيح : أنها في الدنيا ، وفي البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله ، فله من(٣) ضيق الصدر ، ونكد

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ح١ ، ب ، أ.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٨/ ٤٧١-٤٧٢ ، تفسير القرطبي ١١/ ٢٥٩.

(٣) « من » ساقطة من غ.

العيش ، وكثرة الخوف ، وشدة الحرص والتعب علىٰ الدنيا ، والتحسُّر علىٰ فواتها قبل حصولها وبعد حصولها ، والآلام -التي في خلال ذلك- ما لا يشعر به القلب ، لسكرته ، وانغماسه في المسكر(١). فهو لا يصحو ساعة إلا (٢) شعر بهذا الألم ، فبادر إلىٰ إزالته بسكر ثان. فهو هكذا(٣) مدة حياته. وأي معيشة (٤) أضيق من هذه (٥) لو كان للقلب شعور؟

فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن ، وأهل الغفلة عن الله ، وأهل المعاصي ؛ في جحيم قبل الجحيم (٦) ، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] هذا في دورهم الثلاث ليس مختصاً بالدار الآخرة ، وإن كان تمامه وكماله وظهوره لهما(٧) إنما هو [في] (٨) الدار الآخرة ، وفي البرزخ دون ذلك(٩) قال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور : ٤٧] ، وقال تعالىٰ :

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : « السكر ».

(٢) في ط والجميع زيادة : « أحس وشعر ».

(٣) في غ : « كذا ».

(٤) في ط ، ق ، ب ، م ، ح١ ، أ : « عيشة » وفي غ : « عيش ».

(٥) في ب : « هذا ».

(٦) في ط : « الأكبر ».

(٧) « لهما » ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش.

(٨) « في » ساقطة من الأصل وما أثبته من الجميع والسياق : «يقتضيه».

(٩) في ق زيادة : « كما ».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل : ٧١ ، ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ؛ ولكن يمنع من(١) الإحساس به ؛ الاستغراق في سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب ، وعدم التفكير فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه ، ويقطع(٢) التفاته عنه ، ويجعل إقباله علىٰ غيره ، لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات ، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله تعالىٰ للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة ، لا نسبة لها إليها(٣) ، وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة ، وحزازات(٤) تربىٰ علىٰ لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياءً في الوجه ، وقوة في البدن ، وزيادة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضةً في قلوب الخلق»(٥) وهذا يعرفه صاحب البصيرة ،

---

(١) «من» ساقطة من ح٢ ، م.

(٢) في ق : «ويطرح».

(٣) في أ ، ب زيادة : «وقد».

(٤) في ش : «وحزازاً».

(٥) ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٦٣٠. وروىٰ نحوه أبو نعيم عن أنس. انظر : حلية الأولياء ٢/ ١٦٠ ، ١٦١.

ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله(١). ولهذا قال ﴿ ما أصابك ﴾ ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فبسبب(٢) الذنوب، ومخالفة أوامر الرب تعالىٰ، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال؛ أمر مشهود في العالم لا ينكره ذو عقل سليم؛ بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد(٣) هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته؛ مما يقوِّي إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة علىٰ ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال لي(٤) بعض الناس:

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤/ ١٧٨-١٧٩، وتفسير البغوي ١/ ٤٥٤.

(٢) في ط: «فسببه».

(٣) «العبد» ساقطة من م.

(٤) «لي» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش.

إذا صدر مني ذنب ولم أبادره ، ولم أتداركه بالتوبة : انتظرت أثره السيء. فإذا أصابني - أو فوقه أو دونه - كما حسبت. يكون هجيراي [أشهد أن لا إله إلا الله](١) وأشهد أن محمداً رسول الله ، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متىٰ أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما (٢) فعلت شيئاً من ذلك حصل لك ما قال من المكروه ، لم (٣) تزدد إلا علماً بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا (٤) لكل أحد ؛ بل أكثر الناس ترين(٥) الذنوب علىٰ قلبه. فلا يشهد شيئاً من ذلك ، ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا لقلب (٦) فيه نور الإيمان ، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه (٧). فهو يشاهد هذا وهذا ، ويرىٰ حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح ، فيرىٰ نفسه كراكب البحر عند هيجان الريح(٨) ، وتقلب

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ح١ ، أ ، ب ، د ، ق.

(٢) في غ : « كما ».

(٣) في ح٢ : « ولم ».

(٤) في ش زيادة : « كله ».

(٥) الرَّيْنُ : قال ابن فارس : « الراء والياء والنون أصل يدل علىٰ غطاء وستر ، والرين : الطبع والدنس. يقال : ران علىٰ قلبه ذنبُه يرين ريناً أي : «غلب ».

انظر : معجم مقاييس اللغة ١/ ٥٠٣ ، والصحاح ٥/ ٢١٢٩ مادة : رين.

(٦) في الجميع سوىٰ ش : « القلب ».

(٧) في أ ، ب : « عليه ».

(٨) في ط والجميع : « الرياح ».

السفينة وتكفئها ؛ ولا سيما إذا انكسرت به ، وبقي على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، إذا أريد به الخير ، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في وادٍ آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد ؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم ، وأحوال الأمم ، ومجريات(١) الخلق ؛ بل انتفع بما جريات(٢) أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] وقوله : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٣)﴾[آل عمران : ١٨] ، فكل ما تراه في الوجود من شر وألم ، وعقوبة ، وجدب وخوف(٤) ، ونقص - في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط ، وهو عدل الله وقسطه ، وإن أجراه على يد(٥) ظالم. فالمُسَلِط له أعدل العادلين ، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا(٦)﴾[الإسراء : ٥].

---

(١) في د : « وما جرايات ».

(٢) في د : « بما جرايات ».

(٣) « العزيز الحكيم » ساقطة من ح٢ ، د.

(٤) « وخوف » ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ ، ح١.

(٥) في م ، د : « يدي ».

(٦) ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ ساقطة من ط والجميع سوى ش.

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سَقْي بالأدوية المقاومة لها وإلا قهرت القوةَ الإيمانية ، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمىٰ بريد الموت»(١).

فشهود العبد نقصَ حاله إذا عصىٰ ربه ، وتَغَيُّرَ(٢) القلوب عليه ، وجفولَها(٣) منه(٤) ، وانسداد الأبواب في وجهه ، وتوعُّرَ المسالك عليه ، وهوانه علىٰ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه ، وتطلّب(٥) سبب(٦) ذلك حتىٰ يعلم من أين أُتي؟ ووقوعه(٧) علىٰ السبب الموجب لذلك ؛ مما يقوي إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلىٰ ضد هذه الحال ، رأىٰ العز بعد الذل ، والغنىٰ بعد الفقر ، والسرور بعد الحزن ، والأمن بعد الخوف ، والقوة في قلبه - بعد ضعفه ووهنه - ازداد إيماناً مع إيمانه(٨). فتقوىٰ شواهد الإيمان في قلبه،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٢٩ عن أبي حفص عمرو النيسابوري.

(٢) في ح١ : تغيرت.

(٣) جفولها : شرودُها ونفورها منه. انظر : المعجم ١٢٧ مادة : جفل.

(٤) « منه » ساقطة من م.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ : « تطلبه ».

(٦) « سبب » ساقطة من ط.

(٧) في الأصل « وقوعه » وما أثبته من ط والجميع والسياق يقتضيه.

(٨) كما في الحديث : «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت حتىٰ يعلو قلبه ذاك الرين الذي ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿كلا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين : ١٤] » .

وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين [قال الله فيهم](١): ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متىٰ تَبَصَّر فيه، وأعطاه حقَّه، صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله في نفسه، ونفع به من شاء من خلقه(٢).

فصل

مشهد الرحمة

المشهد العاشر: مشهد الرحمة. فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك(٣) الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتىٰ لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه(٤) أن يهلكه ويأخذه، غضباً منه لله(٥)، وحرصاً علىٰ أن لا يُعصىٰ، فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين

رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٩٧. والترمذي ٥/ ٤٣٤ في كتاب التفسير، باب ومن سورة ويل للمطففين (ح٣٣٣٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه ٢/ ١٤١٨ في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب (ح٤٢٤٤). والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٦٢ في كتاب التفسير (ح٣٩٠٨) وقال: حديث علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٦ (ح٣٤٢٢): حسن.

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، ش، وما أثبته من ط وباقي النسخ.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «والله أعلم».

(٣) «تلك» ساقطة من غ.

(٤) «عليه» ساقطة من أ.

(٥) «لله» ساقطة من ق.

الخطّائين[١] ، ولا يراهم إلا بِعَينِ الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم ، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخُلّي ونفسه استغاث بالله[٢] والتجأ إليه ، وتململ بين يديه تململ السليم[٣] ودعاه[٤] دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة علىٰ المذنبين رقة[٥] ، وتلك القساوة علىٰ الخطائين[٦] رحمة[٧] ، مع قيامه بحدود الله. وتَبَدّل دعاؤه عليهم دعاءً لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره ، يسأل الله فيها[٨] أن يغفر لهم فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه[٩].

فصل

مشهد العجز والضعف

فيورثه ذلك: المشهد الحادي عشر، وهو مشهد العجز والضعف، وأنه[١٠]

---

(١) في « ط » : الخاطئين ».

(٢) في ط : « الله ».

(٣) السليم : الملدوغ أو الجريح الذي أشرف علىٰ الهلاك ، ويوصف بالسليم تفاؤلاً بشفائه.
انظر: لسان العرب ٦/ ٣٤٤ - ٣٤٥ مادة : « سلم ».

(٤) في غ : « دعا ».

(٥) في ق : « رأفة ».

(٦) في ط : « الخاطئين ».

(٧) في ط ، ق ، ح١ ، د ، م ، أ ، ب زيادة : « وليناً ».

(٨) « فيها » ساقطة من ط وفي غ : « فيه ».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « والله أعلم ».

(١٠) « أنه » ساقطة من غ.

أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعف[1] ، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كريشةٍ ملقاة بأرض فلاة[2] تُسيِّرها[3] الرياح ، يميناً وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تَهِيج بها الرياح ، وتتلاعب بها الأمواج ، ترفعها تارة ، وتخفضها[4] أخرىٰ ، تجري عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريحاً بين يدي وليه ، ملقىٰ ببابه ، واضعاً خده علىٰ ثرىٰ أعتابه ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم ، وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنىٰ إليه من شراك نعله ، كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع ، لا يردهم[5] عنها إلا الراعي ، فلو تخلّىٰ عنها طرفة عين لتقاسموها[6] أعضاءً.

وهكذا حال العبد ملقىٰ بين[7] الله وبين أعدائه، من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفّهم عنه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، وإن تخلّىٰ عنه ، ووكله إلىٰ نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم ؛ بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : « وأضعفه ».

(٢) في ح٢ ، م زيادة : « فهي ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : « تُقلِّبها ».

(٤) في ط ، ق ، ب ، أ ، غ ، ح١ زيادة : « تارة ».

(٥) في ط : « لا يردها ».

(٦) في ق : « لقاسموها ».

(٧) في ح١ زيادة : « يدي ».

للكلام المشهور : « من عرف نفسه عرف ربه »(١) وليس(٢) حديثاً عن رسول الله ﷺ(٣) وإنما(٤) هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضاً : « يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن(٥) من عرف نفسه بالضعف ، عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز ، عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل ، عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل، عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد(٦) والثناء، والمجد والغنىٰ. والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ؛ ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله(٧).

التأويل الثاني: أن من نظر إلىٰ نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة

---

(١) قال شيخ الإسلام : « ومن الأقوال المشهورة عند الناس : من عرف نفسه عرف ربه». انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٤٧.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « هذا ».

(٣) قال العجلوني : وقال النووي ليس بثابت ، وقال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع : إنه لا يُعرف مرفوعاً ، وإنما يحكي عن يحيىٰ بن معاذ الرازي ، يعني من قوله. . . .

وللحافظ السيوطي مؤلف لطيف سماه «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه». انظر : كشف الخفا ومزيل الإلباس ٢/ ٣٤٣.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : إنما.

(٥) في ق : « أنه ».

(٦) « والحمد » ساقطة من ب.

(٧) انظر : الفتاوىٰ ٩/ ٢٩٧.

والإرادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولىٰ به. فمعطي الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً ، يفعل باختياره ، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولىٰ بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلماً أولىٰ أن يكون هو متكلماً ، ومن جعله حياً عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً ، أولىٰ أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد ، وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث : أن هذا من باب النفي. أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك ، ولا تعرف (١)حقيقتها ، ولاماهيتها ولا كيفيتها. فكيف تعرف حقيقة(٢) ربك وكيفية صفاته(٣).

والمقصود أن في(٤) هذا المشهد يَعْرِفُ العبد أنه عاجز ضعيف ، فتزول عنه رعونات(٥) الدعاوىٰ ، والإضافات إلىٰ نفسه ، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء [وليس بيده شيء](٦) ، إن(٧) هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

---

(١) في ط والجميع : «فلا».

(٢) « حقيقة » ساقطة من ط.

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٤٧ ، ٤٨.

(٤) « في » ساقطة من ط ، غ.

(٥) الرعونة : الحمق والاسترخاء ، والأرعن : الأهوج. انظر : لسان العرب ٥/ ٢٥٠ مادة رعن.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من ط.

(٧) في ش : « إنما ».

فصل

فحينئذ يطلع منه على(١) المشهد الثاني عشر، وهو مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة، ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلىٰ ربه وليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال(٢) التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء. بحيث يرىٰ نفسه كالإناء المرضوض(٣) تحت الأرجل ، الذي لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله. وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرىٰ أنه لا يستحق منه قليلاً ولا كثيراً(٤). فأي خير ناله من الله تعالىٰ استكثره علىٰ نفسه. وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه(٥) اقتضت ذكره به ، وسياقته(٦) إليه. واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها(٧) - ولو ساوت

مشهد الذل والانكسار لله

---

(١) « منه » ساقطة من د.

(٢) في ح٢ : « الحالة ».

(٣) المرضوض : الرضُّ الدقّ ، دون تنعيم وكل شيء رضضته فقد كسرته. انظر : مختار الصحاح ١٠٣ ، والمعجم الوسيط ٣٥٠ مادة : رضض.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : « لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً ».

(٥) في ط زيادة : « هي التي ».

(٦) في ش : « وساقته ».

(٧) في ح٢ ، م زيادة : « قليلة ».

طاعات [١] الثقلين - من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كلَّه.

فما أقرب الخير [٢] من هذا القلب المكسور! وما أدنىٰ النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه. وذرة من هذا ونَفَس منه أحبُّ إلىٰ الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلىٰ الله تعالىٰ، قلبٌ قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذّلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه تعالىٰ. لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله تعالىٰ.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللقاء. فهذا [٣] سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا [٤] سجد القلب لله -هذه السجدة العظمىٰ- سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده علىٰ عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلىٰ ربه ووليه نظر الذليل إلىٰ العزيز الرحيم. فلا يُرىٰ إلا متملقاً لربه، خاضعاً له، ذليلاً

---

(١) في ش: «طاعة».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: «الجبر».

(٣) في أ، ح٢، م «هذا».

(٤) في ش: «فإذا».

مستكيناً[١] مستعطفاً له ، يسأله عطفَه ورحمتهَ. فهو يترضّىٰ[٢] ربه كما يترضىٰ المحبُّ الكاملُ المحبةِ محبوبَه المالك له. الذي لا غنىٰ له عنه ، ولا بد له منه. فليس له همّ غير استرضائه واستعطافه ؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه[٣] ورضاه عنه[٤] ، يقول: كيف أُغضب مَنْ حياتي في رضاه، وكيف أعدل عمّنْ[٥] سعادتي وفلاحي وفوزي ، في قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد : يشهد نفسه كرجل كان[٦] في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويُزيِّنه أحسن الزينة[٧] ، ويُرَقِّيه[٨] درجات الكمال أتم ترقية[٩]. وهو القَيِّم بمصالحه كلها فبعثه أبوه في حاجة له[١٠]. فخرج عليه في طريقه[١١] عدو ، فأسره وكتفه وشده[١٢] وثاقاً ، ثم ذهب به إلىٰ بلاد

---

(١) « مستكيناً » ساقطة من ط ، غ ، د ، ح١ ، أ ، ب ، ق.

(٢) في غ : « يرتضي ».

(٣) في ش زيادة : « منه ».

(٤) في ط والجميع زيادة : « ومحبته له ».

(٥) في غ : « عن ».

(٦) « كان » ساقطة من ش.

(٧) في ط والجميع : « ويربيه أحسن تربية ».

(٨) في ط : « علىٰ ».

(٩) في أ : « رقية ».

(١٠) « له » ساقطة من ق.

(١١) في ش : « الطريق ».

(١٢) في ش : « وشدَّ ».

الأعداء فسامه سوء[1] العذاب ، وعامله بضد ما كان[2] أبوه يعامله به. فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة[3]. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأىٰ حاله ، وتذكر[4] ما كان فيه[5][6] فبينا[7] هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ، ويريد نحره في آخر الأمر ، إذْ حانت منه التفاتة إلىٰ نحو ديار أبيه فرأىٰ أباه منه[8] قريباً ، فسعىٰ إليه ، وألقىٰ نفسه عليه[9] ، يستغيث : يا أبتاه ، يا أبتاه[10] انظر إلىٰ ولدك وما هو فيه ، ودموعه تستبق[11] علىٰ خدّيه ، قد اعتنقه والتزمه. وعدوه في طلبه ، حتىٰ وقف علىٰ رأسه ، وهو ملتزم لوالده ممسك له[12]. فهل تقول : إن والده يسلمه مع هذه الحال إلىٰ عدوه ، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده[13] ، والوالدة

---

(١) « سوء » ساقطة من ق.

(٢) في غ ، ح١ : « ما يكون ».

(٣) في ش ، م ، ح٢ : « اللفتة بعد اللفتة ».

(٤) في ط : ويتذكر.

(٥) في ط والجميع : « عليه ».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : « وكل ما كان فيه ».

(٧) في ط : « بينما ».

(٨) « منه » ساقطة من : ح٢ ، م.

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وانطرح بين يديه.

(١٠) في ط ، غ زيادة : يا أبتاه.

(١١) في ش : « تسبق ».

(١٢) في ط : «به».

(١٣) في ط زيادة : «ومن».

بولدها[1] إذا فرَّ[2] إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقىٰ نفسه[3] طريحاً ببابه ، يمرِّغ خدَّه في ثرىٰ أعتابه باكياً بين يديه ، يقول : يارب ، يا رب ، ارحم من لا راحم له سواك [ولا ولي له سواك][4] ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرتجيك[5] ، لا ملجا له ولا منجا له منك إلا إليك ، أنت ملاذه ، وبك معاذه[6].

يا مَنْ ألوذُ به فيما أؤمّلُه ... ومَنْ أعوذُ به مما أُحاذرهُ
لا يجبرُ الناسُ عظْماً أنت كاسرُه ... ولا يُهيضون عظْماً أنت جابِرُه[7]

---

(١) وفي الحديث عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قدم علىٰ النبي ﷺ سبي ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي ، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ : «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ » قلنا : لا. وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه. فقال : « الله أرحم بعباده من هذه بولدها» .
رواه البخاري ١٠/ ٤٢٦ في كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (ح٥٩٩٩).
ومسلم ٤/ ٢١٠٩ في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (ح٢٧٥٤).

(٢) في ط زيادة «عبدٌ».

(٣) في ط : «بنفسه».

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

(٥) في ط والجميع سوىٰ غ : «ومرجيك».

(٦) في ط : «أنت معاذه وبك ملاذه».

(٧) البيتان لأبي الطيب المتنبي. انظر : ديوانه المسمىٰ بالتبيان في شرح الديوان ٢/ ١٢٢ ، وقد أورد ابن القيم هذين البيتين في شفاء العليل ٢/ ٦٥٨ ناسياً أيهما للمتنبي ، ثم قال : «ولو قال ذلك في ربه وفاطره ، لكان أسعد به من مخلوق مثله» .

فإذا استبصر في هذا المشهد، تمكن [١] من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته وترقىٰ [٢] منه إلىٰ:

المشهد الثالث عشر وهو الغاية التي شمّر إليها السالكون، وأمَّها القاصدون ولَحظَ إليها العاملون وهو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلىٰ لقائه، والابتهاج [٣]، والفرح والسرور به، فتقرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره علىٰ لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية وإرادة [٤] التقرب إليه [٥] ومرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي. وقد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانهُ بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

وكذلك أوردهما ابن كثير في ترجمته للمتنبي، ثم قال: وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - أنه كان ينكر علىٰ المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالىٰ، ثم قال: وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٢٧٥.

(١) في ط، وق: «وتمكن».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش، د: «ترقىٰ».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «به».

(٤) في ط: «وإرادات».

(٥) في ط والجميع زيادة: و«إلىٰ».

ويُحكىٰ عن بعض العارفين [١] ، قال : دخلت علىٰ الله من أبواب الطاعات كلها ، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول ، حتىٰ جئت باب الذل والافتقار ، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه. ولا مزاحم فيه ولا معوق [فما هو][٢] إلا أن وضعت قدمي في عتبته ، فإذا هو قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين : لا طريق أقرب إلىٰ الله[٣] من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوىٰ. ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد ، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة [٤]. يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد : أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله علىٰ الله ، وترميه علىٰ طريق المحبة. فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت[٥] طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة ، ولكن الذي يفتح[٦] منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها

---

(١) في ط زيادة : «أنه».

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وما أثبته من ط والجميع.

(٣) في ش : «لا طريق إلىٰ الله أقرب».

(٤) عزاه في صفة الصفوة إلىٰ سهل بن عبدالله ٤/ ٦٥.

(٥) في ط : «كان».

(٦) في ب زيادة : «له».

بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضَيْعَةً وعجزاً، وتفريطاً وذنباً وخطيئةً، نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذا [1] الطريق غريب في الناس، هم [2] في واد وهو في واد، وهي تسمىٰ طريقة [3] الطير، يسبق النائمُ فيها علىٰ فراشه السعاة. فيصبح وقد قطع [4] الركب. بينا هو يحدثك [5] وإذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله [6]، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد مننه [7] سبحانه [8] قبل الذنب، وفي حال مواقعة الذنب وبعد الذنب [9] وبره به [10] وحلمه عنه، وإحسانه إليه، هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلىٰ لقائه. فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها،

---

(١) في ط: «بهذه».

(٢) في ط: «وهم».

(٣) في ط والجميع: «طريق».

(٤) في ط زيادة: «الطريق وسبق».

(٥) في ح٢: «يحادثك».

(٦) في ط والجميع زيادة: «له».

(٧) في ط: «منن ربه».

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «عليه».

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش: «مواقعته وبعده».

(١٠) «به» ساقطة من ق.

وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي ؛ وهو يمده بنعمه ، ويعامله بألطافه ، ويسبل عليه ستره ، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنىٰ عثرة ، ينالون منه بها بغيتهم ، ويردهم عنه ، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بِعَيْنِه ، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه ، والأرض تستأذنه أن تخسف به ، والبحر يستأذنه أن يغرقه ، كما في مسند الإمام أحمد رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه : أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه : أن تعاجله وتهلكه. والرب تعالىٰ يقول : دعوا عبدي. فأنا أعلم به ، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به ، وإن كان عبدي فمني وإليَّ. عبدي وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته. وإن أتاني نهاراً قبلته ، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً. وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً. وإن مشىٰ إليَّ هرولت إليه ، وإن استغفرني غفرت له ، وإن استقالني أقلته ، وإن تاب إليَّ تبت عليه. من أعظم مني جوداً وكرماً ، وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم ، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم ، وأحرسهم علىٰ فرشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب»(١).

---

(١) لم أعثر علىٰ هذ الحديث بهذا الطول ولا بهذا اللفظ عند الإمام أحمد ، وإنما ورد مختصراً

ولنقتصر علىٰ هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلىٰ معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك[1]، والقيام به عملاً وحالاً، كما وفق له علماً ومعرفة فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

بلفظ: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات علىٰ الأرض يستأذن الله في أن ينفضخ عليهم فيكفه الله عز وجل». انظر: المسند ١/ ٤٣. ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٠-٤١، وقال: العوام ضعيف، والشيخ مجهول. وقال محقق المسند ١/ ٣٩٥: إسناده ضعيف لجهالة الشيخ الذي روىٰ عنه العوام بن حوشب، وأبو صالح مولىٰ عمر مجهول أيضاً. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١٨/ ١٩-٢٠ ناسباً إياه إلىٰ الإمام أحمد وإسحاق ابن راهويه وقال: «وفي إسناده رجل مبهم».

(١) في ش: «الرعاية ذلك».

فصل

فقد علمت أن من نزل في منزل التوبة وقام في مقامها ، نزل في جميع منازل الإسلام ، وأن(١) التوبة الكاملة متضمنة لها ، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل ، تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

منزلة الإنابة

فإذا استقرت قدمه في منزل(٢) التوبة نزل بعده منزل الإنابة(٣) ، وقد أمر به(٤) تعالىٰ في كتابه. وأثنىٰ علىٰ خليله به(٥) ، فقال : ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر : ٥٤] ، وقال : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود : ٧٥] ، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ

أدلة الإنابة

(١) في ط ، ب ، غ ، ح١ ، أ : «فإن».

(٢) في غ : «منزلة».

(٣) الإنابة في اللغة : الرجوع. يقال : أناب فلان إلىٰ الشيء رجع إليه مرة بعد أخرىٰ ، وأناب العبد إلىٰ الله : رجع إليه وتاب. انظر : المعجم الوسيط ٩٦١ مادة : ناب.
والإنابة عند الصوفية أقسام :
فإنابة العامة : الرجوع من المخالفة إلىٰ الموافقة فلا يجدك حيث نهاك.
أما إنابة الخاصة : فهي أن لا يختلج في قلبك إرادة شيء ، لعلمك بأنه لا يقع إلا ما أراد الله وقوعه. وأما إنابة خاصة الخاصة : فهي أن لا يرىٰ معه سواه. ومن أقسامها : إنابة خلاصة خاصة الخاصة. ومنها : إنابة صفاء خلاصة خاصة الخاصة. والإنابة من نتائج المعرفة.
انظر : لطائف الأعلام ١/ ٢٤٨-٢٤٩ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٦ ، وطبقات الصوفية للسلمي ٥٨.

(٤) (به) ساقطة من : ق ، وفي أ ، ب ، غ ، ح١ : «بها» ، وفي ط : «وقد أمر الله تعالىٰ بها».

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : «بها».

كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾(١) [ق : ٦-٨] وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر : ١٣]، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾(٢). [الروم : ٣٠ ، ٣١]. (منيبين)(٣) منصوب علىٰ الحال من الضمير المستكن في قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه(٤)، نظيره : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق : ١]، ويجوز أن يكون(٥) حالاً من المفعول في قوله : ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، أي فطرهم منيبين إليه(٦)، فلو خُلُّوا وفطرَهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحُوَّل وتُغيَّر عما فطرت عليه. كما قال ﷺ : «ما من مولود إلا يولد علىٰ هذه(٧) الملة حتىٰ يعرب

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : لم تكتب الآيات كاملة.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : لم تكتب الآيات كاملة.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، ط : فمنيبين.

(٤) انظر : إعراب القرآن للزجاج ٤/ ١٨٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٢ ، وتفسير القرطبي ١٤/ ٣٢.

(٥) في ش : «الأمر».

(٦) «إليه» ساقطة من أ.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : «علىٰ الفطرة» وفي رواية : «علىٰ الملة».

عنه لسانه»[١] وقال عن نبيه داود - عليه السلام - : ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾ [ص : ٢٤] ، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق : ٣١ - ٣٤] ، وأخبر سبحانه أن البشرىٰ منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر : ١٧].

و«الإنابة» إنابتان :

أقسام الإنابة

إنابة لربوبيته ، وهي إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم : ٣٣]. فهذا عام في حق[٢] كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام ؛ بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالىٰ في حق هؤلاء[٣] : ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم : ٣٣ ، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية : إنابة أوليائه ، وهي إنابة لإلهيته[٤] ، إنابة عبودية و محبة.

---

(١) رواه البخاري ٣/ ٢١٩ في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي هل يصلىٰ عليه (ح٢٦٥٨).
ومسلم ٤/ ٢٠٤٧ في كتاب القدر ، باب معنىٰ كل مولود يولد علىٰ الفطرة (ح٢٦٥٨).
وأحمد في مسنده ٢/ ٣١٥ ، ٣٤٦.

(٢) «حق» ساقطة من أ.

(٣) في ش : «حق ثمود».

(٤) في ح٢ ، م ، غ : «الإلهية».

وهي تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة [1] ، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور [2] علىٰ ذلك [3].

وفي اللفظة معنىٰ الإسراع والرجوع والتقدم ، فـ« المنيب »[4] إلىٰ الله : المسرع إلىٰ مرضاته ، الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلىٰ محابه.

قال صاحب المنازل :

«الإِنَابَةُ [في اللغة : الرّجُوعُ ، وَهِي هَاهُنَا الرُّجُوعُ إلىٰ الحقِّ.

و][5] **هيَ ثَلاثَةُ أَشْيَاءَ**[6] **: الرّجُوعُ إلىٰ الحَقِّ إِصْلاحاً ، كَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ اعْتذَاراً. والرّجُوعُ إِلَيهِ وَفَاءً ، كَمَا رَجَعَ إِلَيهِ عَهْداً ، والرُّجُوعُ إِلَيهِ حَالاً ، كَمَا رَجَع**[7] **إِلَيهِ إِجَابَةً»**[8].

لما كان التائب قد رجع إلىٰ الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ، كان من تتمة ذلك ، رجوعه إليه بالاجتهاد ، والنصح في طاعاته [9] كما قال تعالىٰ :

---

(١) في ط ، غ : «الأربع».

(٢) في ش : «تدور».

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٠/ ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٤) في ط : «والمنيب».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في المنازل.

(٦) في ش : «أقسام».

(٧) في ط : «رجعت».

(٨) انظر : منازل السائرين ١٢.

(٩) في ط ، ب ، أ ، غ ، د ، ح١ : «طاعته».

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة، فلا بد من توبة وعمل صالح؛ ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل[1] عن معصيته. وتحل[2] بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك فرجعت إليه بالدخول تحت عهده[3] أولاً[4]. فعليك الرجوع[5] بالوفاء بما عاهدته[6] عليه ثانياً. والدين كله، عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده علىٰ جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده علىٰ أنبيائه ورسله علىٰ لسان ملائكته أو منه إلىٰ الرسول بلا واسطة كما كلم موسىٰ، وأخذ عهده علىٰ الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده علىٰ الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده علىٰ هؤلاء بالتعليم[7]، وعلىٰ هؤلاء بالتعلم[8]. ومدح الموفِين بعهده، وأخبرهم[9] بما لهم عنده من

(١) في غ: «وتخل».

(٢) في د، م، أ، غ، ب، ح١، ق: «تحلٍّ».

(٣) «عهده» ساقطة من ق.

(٤) كما قال تعالىٰ: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٥) في ط والجميع: «بالرجوع».

(٦) في ح٢، م: «عاهدت».

(٧) في د: «بالتعلم».

(٨) في أ: «بالتعليم».

(٩) في ط: «وأخبر».

الأجـر، فقـال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهـذا يتنـاول عهـودهم مـع الله بالوفـاء لـه بـالإخلاص والإيمان والطاعـة، وعهودهم مع الخلق.

وأخـبر النبـي ﷺ: أن [مـن](١) علامـات النفـاق: الغـدر بعـد العهـد(٢). فما(٣) أناب إلىٰ الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «وَالرُّجُوعُ إِلَيهِ حَالاً. كَمَا رَجَعْتَ إِلَيهِ إِجَابَةً».

أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قـولاً، فـلا بـد مـن الإجابة حالاً تصدق به المقال، فإن الأحوال تـصدق الأقـوال أو تكـذبها(٤). وكـل قـول فلصدقه وكذبه شاهد مـن حـال قائلـه. فكـما(٥) رجعـت إليـه(٦) إجابة بالمقال،

---

(١) «من» ساقطة من الأصل وش، وما أثبته من ط والجميع، والسياق يقتضيه.

(٢) كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وهو في الصحيحين، وتقدم تخريجه ٩٤٦.

(٣) في ق: «فمن».

(٤) في ق، ح٢، م، أ: «وتكذبها».

(٥) في غ: «فلما».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: «إلىٰ الله».

فارجع إليه إجابة بالحال. قال الحسن ـ رحمه الله ـ «ابن آدم؟ لك قول وعمل ، وعملك أولىٰ بك من قولك ، ولك سريرة وعلانية وسريرتك أملك بك من علانيتك»[1].

* * *

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد ٣٤٣ ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ٢٨٣.

فصل

الأشياء التي يستقيم بها الرجوع إليه إصلاحاً

قال : « وإِنَّمَا يَستقيمُ الرُّجُوعُ إِلَيهِ إصلاَحاً بثَلاَثَةِ أَشياءَ : بِالخُروجِ مِنَ التَّبِعَاتِ ، وَالتَّوجُّعِ للعَثَراتِ ، وَاستِدْرَاكِ الفَائِتَاتِ»[1].

الخروج[2] من التبعات : هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله تعالىٰ ، وأداء الحقوق التي عليه للخلق. والتوجع للعثرات يحتمل شيئين :

أحدهما : أن يتوجع لعثرته إذا عثر ، فيتوجع قلبه وينصدع ، فهذا[3] دليل علىٰ إنابته إلىٰ الله. بخلاف من لا[4] يتألم قلبه ، ولا ينصدع من عثرته ، فإنه دليل[5] فساد قلبه وموته.

الثاني : أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر ، حتىٰ كأنه هو الذي[6] عثر بها ولا يشمت به ، فهو دليل علىٰ رقة قلبه وإنابته.

واستدراك الفائتات: هو [7]استدراك[8] ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها ، أو

---

(١) انظر : منازل السائرين ١٣.

(٢) في ط : «والخروج».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : «وهذا».

(٤) في ح٢ ، م ، د : «ولم».

(٥) في ط زيادة : «علىٰ».

(٦) «الذي» ساقطة من الجميع سوىٰ ش ، ط.

(٧) في م ، ح : «وهو».

(٨) في د : «استدرك».

خير منهـا[1] ولا سيما في بقيـة عمره ، وعند قـرب رحيلـه إلىٰ الله. فبقيـة عمـر المؤمن لا قيمة لها. يستدرك بها ما فات. ويحييٰ به ما أمات.

فصـل

قال : «وَإِنَّما يَستقيمُ الرُّجُوعُ إِلَيهِ وَفَاءً[2] بِثَلاثَةِ أشياءَ : بِالخَلاَصِ مِنْ لَذَّةِ الذَّنبِ وَبِتَرْكِ الاستِهَانَةِ بِأَهْلِ الغَفْلَةِ ، تَخوفاً عَلَيهِم ، مَعَ الرَّجَاءِ لنفسِك ، وَبِالاستِقصَاءِ فِي رُؤيةِ عِلّةِ الخِدمةِ»[3] . الأشياء التي يستقيم بها الرجوع إليه وفاءً

إذا صفت له الإنابة إلىٰ ربه ، تخلص من الفكرة في لذة الذنب ، وأعاد[4] مكانها ألماً وتوجعاً لذكره ، والفكرة فيه. فما دامت لذَّةُ الفكر[5] فيه موجودة في قلبه ، فإنابته غيرُ صافية.

فإن قيل : أيَّ الحالين أعلىٰ؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه ، فهو يجاهدها لله ، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله ، أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه ، وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلىٰ ربه ، وسكوناً إليه ، والتِذاذاً بحبه ، وتنعّماً بذكره؟.

---

(١) في م : «وخير منها».

(٢) في ط والجميع : «عهداً».

(٣) منازل السائرين ص١٣ لكن قال : «علل الخدمة».

(٤) في ط والجميع : «وعاد».

(٥) في ط ، ب ، ح١ ، غ ، أ : «الفكرة».

قيل : حال هذا أرفع وأكمل[1] ، وغاية صاحب[2] المجاهدة : أن يجاهد نفسه حتىٰ يصل إلىٰ مقام هذا[3] ومنزلته ، ولكنه تاليه[4] في المنزلة والقرب ، ومنوط به.

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابَّه لله ، وإيثاره رضا الله علىٰ هواه؟ وبهذا[5] كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة[6] وكانوا خير البرية. والمطمئن قد استراح من[7] هذه المجاهدة وعُوفي

(١) في ط ، ق : أكمل وأرفع.

(٢) في ح١ ، ش : زيادة : هذه.

(٣) في م : هذه.

(٤) في ط : يتلوه.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ألم.

(٦) في ب ، غ ، أ ، ح١ : ولهذا.

(٧) مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر من المسائل التي تكلم فيها السلف - رحمهم الله - بل ثبت أن الصحابة - رضي الله عنهم - تكلموا فيها ، فمن ذلك ما قاله عبدالله بن سلام - رضي الله عنه - : «إن أكرم خلقه علىٰ الله أبو القاسم ﷺ فقيل له : يرحمك الله فأين الملائكة؟ فقال: يا ابن أخي هل تدري ما الملائكة؟ إنما الملائكة خلق كخلق السماء والأرض والرياح والسحاب وسائر الخلق الذي لا يعصي الله شيئاً. . .» الحديث. رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٦١٢-٦١٣ وصححه ووافقه الذهبي.

ومن ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : «لقد قالت الملائكة يا ربنا ، منا الملائكة المقربون ، ومنا حملة العرش ، ومنا الكرام الكاتبون ، ونحن نسبح الليل والنهار ولا نفتر ، خلقت بني آدم فجعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. فقال : لن أفعل ، ثم عادوا فاجتهدوا المسألة ، فقال : لن أفعل ، ثم عادوا فاجتهدوا المسألة بمثل ذلك ، فقال : =

= لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ، كمن قلت له كن فكان» رواه الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في رده علىٰ المريسي ٣٧.

قال ابن كثير : «وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح» البداية والنهاية ١/ ٤٩. وقال الألباني عنه : «إسناده صحيح». انظر : شرح الطحاوية ٣٤٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وكنت أحسب أن القول فيها محدث حتىٰ رأيتها أثرية سلفية صحابية ، فانبعثت الهمة إلىٰ تحقيق القول فيها» انظر : مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٣٥٧.

ومما تقدم يتبين ضعف ما ذهب إليه تاج الدين الفزاري حيث قال : «اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأمة...». ذكر ذلك عنه ابن أبي العز في شرحه للطحاوية ٣٣٩.

ولا خلاف في أن الكفرة والمنافقين غير داخلين في المفاضلة ، فهؤلاء أضل من الأنعام كما قال تعالىٰ : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل. . ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، ولا يعنىٰ بالمفاضلة التفضيل بين حقيقة البشر وحقيقة الملائكة ، وإنما المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة.

انظر : عالم الملائكة الأبرار للأشقر ص٨٦-٨٧.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تكلم في هذه المسألة وذكر في سياق عرضه لها أن المشهور عن جماعة من المنتسبين إلىٰ السنة القول بأن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة ، وأن المعتزلة قالوا بتفضيل الملائكة علىٰ البشر ، وأن أتباع الأشعري فيها علىٰ قولين : منهم من يرىٰ تفضيل الأنبياء والأولياء ، ومنهم من يقف ولا يقطع بشيء ؛ بل ذكر أن بعض متأخريهم مال إلىٰ قول المعتزلة. وبعد ذكره لأقوالهم ذكر أدلة كل قول وناقشها.

انظر : مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٣٤٣ - ٣٩٢.

أما ابن أبي العز الحنفي فقد ذكر أقوال الطوائف والفرق علىٰ نحو ما ذكره شيخ الإسلام ، وأضاف إليها رأي الشيعة الذين يرون تفضيل الأئمة علىٰ جميع الملائكة وقد كان متردداً في الكلام علىٰ هذه المسألة. =

منها ، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافىٰ والمبتلىٰ.

قيل : النفس لها ثلاثة أحوال : الأمر بالذنب ، ثم اللوم عليه والندم منه ، ثم الطمأنينة إلىٰ ربها والإقبال بكلِّيتها عليه ، وهذه الحال أعلىٰ أحوالها. وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد ، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو

= ثم ذكر بعد ذلك أن أبا حنيفة توقف في الجواب عن هذه المسألة ، وأن الطحاوي لم يعرض لهذه المسألة بنفي ولا إثبات ، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً ، ثم قال : وهذا هو الحق فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين ، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل ، فإن هذا لو كان من الواجب لبيِّن لنا نصاً. . . فالسكوت عن هذه المسألة نفياً وإثباتاً والحالة هذه أولىٰ. ولا يقال : إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة ؛ لأن الأدلة هنا متكافئة.

وذكر السفاريني عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه قال : يخطئ من فضل الملائكة ، وقال : كل مؤمن أفضل من الملائكة. انظر : لوامع الأنوار ٢/ ٣٩٩.

قلت : ولعل الصواب في هذه المسألة هو ما ذكره شيخ الإسلام حيث أنه فصل في ذلك فقال : إن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلىٰ منزهين عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال أكمل من أحوال البشر. وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحوا البشر أكمل من حال الملائكة. انظر : مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٣٤٣.

قال ابن القيم : وبهذا التفضيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ، ويصالح كل منهم حقه. انظر : بدائع الفوائد ٣/ ١٦٣.

ولمزيد من البحث في هذه المسألة انظر : مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٤/ ٣٤٣ وما بعدها و ١٠/ ٣٠٠-٣٠١ و ١١/ ٩٤-٩٦ ، وشرح الطحاوية ٣٣٧ وما بعدها ، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٦٨ وما بعدها.

لتشميره إلىٰ درجة الطمأنينة إلىٰ الله، فهو بمنزلة مرتكب[١] القفار، والمهَامِه[٢]، والأهوال ليصل إلىٰ البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر[٣] بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً وراكعاً وساجداً، ليس له التفات إلىٰ غيره. فهذا مشغول بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَوْن.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان، فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله تعالىٰ، وإن كان أكثر عملاً، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً[٤]، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل[٥]، وفيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه[٦]، حتى إن أفضل الصحابة[٧] يسابقه ولا يراه إلا أمامه[٨].

---

(١) في أ، ب، من ارتكب، وفي ط: راكب.

(٢) المهَامِه: جمع مَهْمَه، وهي المفازة البعيدة الأطراف. انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٥٠.

(٣) في الأصل: المتأخر. وما أثبته من ط والجميع. والسياق يقتضيه.

(٤) في ح١ زيادة: «هو».

(٥) في ط: زيادة: «وقد كان».

(٦) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٣٥، وقال العراقي فيه: أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

(٧) في ط: والجميع سوىٰ ش زيادة: «كان».

(٨) لعله يشير إلىٰ ما رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قال: أمرنا رسول الله ﷺ

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون [١] أشق ، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة ، فأفضل الأعمال ، الإيمان بالله، والجهاد أشق منه، وهو تاليه في الدرجة [٢] ، ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء [٣] . وفي مسند الإمام أحمد - رحمه الله - من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ عنده ذكر [٤] الشهداء فقال : « إن أكثر شهداء أمتي لأصحاب الفُرُش، ورُبَّ قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» [٥] .

يوماً أن نتصدق. فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك»؟ قلت : مثله. قال وأتىٰ أبو بكر - رضي الله عنه - بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت لا أسابقك إلىٰ شيء أبداً. الحديث رواه أبو داود ٢/ ٣١٢ في كتاب الزكاة باب (في الرخصة في ذلك) ح١٦٧٨ ، والترمذي ٥/ ٦١٤ في كتاب المناقب باب (في مناقب أبي بكر وعمر) ح٣٦٧٥ قال : هذا حديث حسن صحيح. والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧٤ في كتاب الزكاة ح١٥١٠ وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني : حسن. انظر : صحيح أبي داود ١/ ٣١٥ ح١٤٧٢.

(١) في ب ، غ ، م ، ح١ ، أ : «يكون».

(٢) يدل لذلك ما رواه أبوهريرة أن رسول الله ﷺ سُئل : أي العمل أفضل. قال : «إيمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا؟ قال : «الجهاد في سبيل الله» قيل : ثم ماذا؟ قال : «حج مبرور» رواه البخاري ١/ ٧٧ في كتاب الإيمان باب (من قال إن الإيمان هو العمل) ح٢٦.

(٣) كما قال تعالىٰ : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء : ٦٩].

(٤) (عنده) ساقطة من : ط.

(٥) رواه أحمد في مسنده ١/ ٣٩٧.

فصـل

ومن علامات الإنابة : ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك[1] باب الرجاء لنفسك ، فترجو لنفسك الرحمة ، وتخشىٰ علىٰ أهل الغفلة النقمة[2] ؛ ولكن ارج لهم الرحمة واخش علىٰ نفسك النقمة. فإن كنت لابد مستهيناً بهم[3] ماقتاً لهم ، لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ما هم عليه ، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم ، وكن لهم أرجىٰ[4] لرحمة الله منك لنفسك.

من علامات الإنابة

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الخلق[5] في ذات الله ، ثم تقبل[6] علىٰ[7] نفسك فتكون لها أشد مقتاً[8].

قال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣٠٢ رواه أحمد هكذا ولم أره ذكره ابن مسعود ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف ، والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات ، وقال ابن حجر في الفتح ١٠/ ١٩٤ : الضمير في قوله : «إنه» لابن مسعود فإن أحمد خرجه في مسند ابن مسعود ورجال سنده موثوقون. وقال الألباني : ضعيف. انظر : ضعيف الجامع ٢/ ٣٤.

(١) في ح ا : «فتح».

(٢) «النقمة» ساقطة من : م.

(٣) في ح٢ ، م : «لهم».

(٤) في ط : «وكن أرجىٰ لهم».

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : «الناس» .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : «ترجع».

(٧) في ط : «إلىٰ».

(٨) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢١١ عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

وهذا الكلام لا يَعلمُ [١] معناه إلا الفقيهُ في دين الله تعالىٰ. فإن من [٢] شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم؛ بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم [٣] علىٰ غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن - من هذا العاجل الفاني - لم يجد بدّاً من مقتهم، ولم [٤] يمكنه غير ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلىٰ نفسه وحاله وتقصيره، وكان علىٰ بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة، فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها - أو كلها - أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض، وحظوظ تمنع الأعمال، أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه، وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا من هذا [٥] إلا أهلُ البصائر، وأطباءُ القلوب، العالمون [٦] بأدوائها وعللها.

---

(١) في الجميع سوىٰ ش: لا يفهم. وفي ط: لا يفقه.

(٢) «من» ساقطة من: ح١، غ.

(٣) في ش: «وإقبالها».

(٤) في ط، ب، ح١، غ، أ: «ولا».

(٥) (من هذا) ساقطة من: ط.

(٦) في غ: العاملون.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصولَ العمل إلىٰ القلب. فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلىٰ قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا و رغبة[1] في الآخرة، ولا نور يُفرِّقُ به بين أولياء الله وأعدائه، وبين[2] الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلىٰ قلبه لاستنار وأشرق، ورأىٰ الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب[3] له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قُطَّاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال[4]، ورؤية العمل، ونسيان المِنَّة، وعلل خفية لو اسُتقصِي[5] في طلبها لرئي[6] العجب. ومن رحمة الله تعالىٰ، سترها علىٰ أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة.

---

(١) في ش: ولا رغبة.

(٢) في م، ح٢: ولا بين.

(٣) في ش، ح٢، م: فأوجب.

(٤) أَدَلَّ عليه: وثق بمحبته فأفرط عليه، ودَلّ يدلُّ إذا مَنَّ بعطائه، والدَّلَّة: المنَّة، والأدَلُّ: المنان بعمله. انظر: لسان العرب ٤/ ٣٩٣ مادة دلل.

(٥) في ط والجميع: استقصىٰ.

(٦) في ط والجميع: لرأىٰ.

ولهذا لما ظهرت «رعاية»(١) أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يُطب(٢) النفوس، فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً.

* * *

(١) يعني كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل وهو كتاب مطبوع. انظر: كشف الظنون ١/ ٩٠٨، والأعلام ٢/ ١٥٣.

(٢) في ط: يطبب.

فصل

الأشياء التي يستقيم بها الرجوع إلى الله حالاً

قال : «وإِنَّما يَستَقِيمُ الرَّجُوعُ إِلَيهِ حَالاً بِثَلاثَةِ أَشياءَ : بِالإِيَاسِ[1] مِنْ عَمَلِكَ ، وَبِمُعَايَنَةِ اضطِرَارِكَ ، وَشَيْمِ بَرقِ لُطفِهِ[2] بِكَ»[3].

الإياس من العملِ يُفسر بشيئين :

أحدهما : أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلىٰ الفاعل الحق ، والمحرِّك الأول ، وأنه لو لا مشيئته لما كان منك فعل. فمشيئته أوجبت فعلك ، لا مشيئتُك - بقي بلا فعل - فهاهنا تنفع مشاهدة القدر ، والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني : أن تيأس من النجاة بعملك. وترىٰ النجاة إنما هي برحمته ، وعفوه[4] وفضله ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ[5] : «لن ينجي أحداً منكم عمله» . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[6] فالمعنىٰ الأول يتعلق ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآله.

---

(١) في ش : باليأس.

(٢) في ح٢ : لطف ربك.

(٣) انظر : منازل السائرين ١٣.

(٤) في ط : وعمله.

(٥) في ط : زيادة : أنه قال.

(٦) رواه البخاري ١١/ ٢٩٤ في كتاب الرقاق باب (القصد والمداومة علىٰ العمل) ح٦٤٦٣ ومسلم ٤/ ٢١٦٩ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ح٢٨١٦ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٨٢.

وأما معاينة الاضطرار : فإنه إذا يئس [١] من عمله بداية ، والنجاة به [٢] نهاية [شهد اضطراره إلىٰ الله ؛ بل] [٣] شهد به في كل ذرة منه ضرورة تامة إليه. وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها ؛ بل من جميع الجهات. وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ، ولا لها سبب ، بل هو مضطر إليه بالذات ، كما أن الله غني بالذات. فالغنىٰ [٤] وصف ذاتي للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنىٰ أبداً وصف له ذاتي [٥]

وأما شيم برق لطفه [٦] بك : فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية. وأيس من عمله والنجاة به ، نظر إلىٰ ألطاف الله ، وشام [٧] برقها. وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له ، لطف من الله به ، ومنة منَّ بها عليه ، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن بالسبب والمسبب ، والأمر له من قبل ومن بعد ، وهو الأول والآخر. لا إله غيره ، ولا رب سواه.

---

(١) في ط : أيس.

(٢) في ط : زيادة : وأيس من النجاة.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : ط.

(٤) في ط : فإن الغنىٰ.

(٥) انظر : ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٤ ، وانظر : العقود الدرية لابن عبد الهادي ص٣٩١.

(٦) في ح٢ : لطف ربك.

(٧) شام برقها : نظر إليها ، وتطلّع نحوها. انظر : الصحاح ٥/ ٩٦٣ مادة : شيم.

فصل

منزلة التذكر

ثـم ينـزل القلـب (١) منزلـة «التـذكر»(٢) وهـو قـرين الإنابـة. قـال تعـالىٰ : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق : ٨] وهـو مـن خـواص أولي الألبـاب. كـما قـال تعـالىٰ : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد : ١٩](٣).

و «التذكر»(٤) و«التفكر» منزلان يثمران أنـواع المعـارف ، وحقـائق(٥) الإيـمان والإحسان. فالعارف (٦) لا يزال يعود بتفكره علىٰ تذكره ، وبتذكره علىٰ تفكره ، حتىٰ يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري رضي الله عنه : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر علىٰ التفكر ، وبالتفكر علىٰ التذكر ، ويناطقون

---

(١) في ط ، ب ، غ ، ح١ ، د : منزل.

(٢) التذكر عند الصوفية : هو وجدان ما حصل بالتفكر ، فهو فوقه. وتذكر الناسي هو ما يحصل له في البداية من تذكير ما يسمعه ممن يستجلبون قلوب الناس ، أما تذكير الذاكر فهو ما يرسل الله به أنبياءه من الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وما يلهم أولياءه من إقامة حجته ، وإظهار مقدرته. انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال تعالىٰ : ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [البقرة : ٢٦٩].

(٤) في ب : فالتذكر.

(٥) في أ زيادة : القرآن.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : والعارف.

القلوب حتىٰ نطقت»[1].

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«التَّذَكُّرُ فَوْقَ التَّفَكُّرِ ؛ لأَنَّ التَّفَكُّرَ طَلَبٌ ، وَالتَّذَكُّرُ وُجُودٌ»[2].

يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال : «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك[3] البغية»[4].

وأما قوله «التذكر وجود» ؛ لأنه[5] يكون فيما قد حصل بالتفكر ، ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكّره وجدَه وظفر به[6].

و«التذكُّر» تفعّل من الذكر. وهو ضد النسيان : وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعّل ، لحصوله بعد مُهْلة وتدريج[7] ، كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٤/ ٤٢٥ ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة ١/ ٢١٠.

(٢) انظر : منازل السائرين ١٥ وابن القيم ـ رحمه الله ـ شرح هذه المنازل علىٰ غير ترتيب الهروي لها ؛ لأن الذي بعد منزلة الإنابة هي منزلة التفكر. وقد تحدث عنها فيما سبق بعد منزلة اليقظة.

(٣) في الأصل والجميع : واستدراك. وما أثبته من المطبوع ومن المنازل.

(٤) انظر : منازل السائرين ١٣.

(٥) في ط : فلأنه.

(٦) في ط ، ق ، غ ، ب ، ح٢ ، م ، ح١ : فظفر.

(٧) في ط : تدرّج.

عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوّة والمشهودة ذكرىٰ. كما قال في المتلوة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤] وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦-٨].

فـ «التبصرة» آلة البصر[1]، و «التذكرة» آلة الذكر[2]. وقُرن بينهما وجعلا[3] لأهل الإنابة، لأنه[4] إذا أناب إلىٰ الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها علىٰ ما هي آيات له، فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمىٰ بالتبصرة[5]، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلُول في القَلب بعد غفلته عنها. فترتَّبتْ[6] المنازل الثلاثة أحسن ترتُّبٍ[7]، ثم إن كُلاً منها[8]

---

(١) في ش: التبصر.

(٢) في ش: والذكرىٰ آلة التذكر.

(٣) في ط: وجعلهما.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: لأن العبد.

(٥) في غ: البصيرة.

(٦) في ط، ح٢، م: فترتيب.

(٧) في ط، ح٢، م: ترتيب.

(٨) في ح٢، م، د، ب، ح١، غ: فهما.

يمدُّ صاحبه (١) ويقوّيه ويثمره.

وقال تعالىٰ في آياته المشهودة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾ [ق : ٣٦ ، ٣٧].

والناس ثلاثة : رجل قلبه ميت ، فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست(٢) هذه الآية (٣) ذكرىٰ في حقه.

الثاني : رجل له قلب حي مستعد ؛ لكنه غير مستمع للآيات المتلوة ، التي يخبر بها (٤) عن الآيات المشهودة : إما لعدم ورودها ، أو لوصولها إليه ، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ، ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرىٰ ، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث : رجل حي القلب مستعد. تُلِيتْ عليه الآيات ، فأصغىٰ بسمعه ، وألقىٰ السمع وأحضر قلبه ، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب ، ملقِ السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلُوَّة والمشهودة.

فالأول(٥): بمنزلة الأعمىٰ الذي لا يبصر.

---

(١) في ش : صاحبها.

(٢) في ح٢ ، م : ليس.

(٣) في غ : الآيات.

(٤) في ط زيادة : الله.

(٥) في ق : الأولىٰ.

والثـاني : بمنزلـة البـصير الطـامح ببـصره [1] إلىٰ غـير جهـة المنظـور إليـه ، فكلاهما لا يراه.

والثالث : بمنزلة البصير [2] الذي قد حَدَّق إلىٰ جهة المنظور ، وأتبعه بـصره ، وقابله علىٰ توسط من البعد والقرب. فهذا هو [3] الذي يراه. فسبحان مـن جعـل كلامه شفاءً لما في الصدور. فإن قيل : فما موقعُ «أو» مِنْ هـذا الـنظم علـىٰ ما قرّرت؟

قيـل : فيهـا سر لطيـف ، ولـسنا نقـول : إنهـا بمعنـىٰ الـواو [4] ، كـما يقولـه ظاهرية [5] النحاة.

فـاعلم [6] أن الرجـل قـد يكـون لـه قلـب وقـاد [7] ، مـليء باسـتخراج العـبر ، واستنباط الحكـم. فهـذا قلبه يوقعـه علـىٰ التـذكر والاعتبـار. فـإذا سـمع الآيات كانت له نوراً علىٰ نور. وهؤلاء أكمل خلق الله تعالىٰ ، وأعظمهم إيماناً وبـصيرة. حتـىٰ كـأن الـذي أخـبرهم بـه الرسـول قـد كـان [8] مـشاهداً لهـم ؛ لكـن لم يـشعروا

---

(١) (ببصره) ساقطة من : ش.

(٢) في غ : البصيرة.

(٣) (هو) ساقطة من : غ.

(٤) في غ : أو.

(٥) (ظاهرية) ساقطة من : ح١ ، أ.

(٦) في م ، ح٢ : واعلم.

(٧) في غ : وقد.

(٨) (قد كان) ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

بتفاصيله وأنواعه. حتىٰ قيل : إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ ، كمثل رجلين دخلا داراً [١] ، فرأىٰ أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته ، والآخر وقعت يده علىٰ ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أموراً عظيمة ، لم يدرك بصره تفاصيلها ، ثم خرجا. فسأله عما رأىٰ في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه ، لما عنده من شواهده. وهذه أعلىٰ درجات الصِّدِّيقية [٢]. ولا يُستبعد [٣] أن يَمُنَّ اللهُ [٤] المنانُ [٥] علىٰ عبد [٦] بمثل هذا الإيمان. فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان [٧].

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ، ازداد بها نوراً إلىٰ نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقىٰ السمع وشهد قلبه ولم يغب ، حصل له التذكر أيضاً : ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة : ٢٦٥]. والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها ، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون [٨] ،

---

(١) في غ ، ب ، ح١ ، د ، أ ، م : دارين.

(٢) في أ : الصديقين.

(٣) في ط والجميع سوىٰ د : تستبعد.

(٤) في أ : أن الله يَمُنُّ.

(٥) (المنان) ساقطة من : أ.

(٦) في ق : عبده.

(٧) في ح١ : حساب.

(٨) كما قال تعالىٰ : ﴿والسابقون السابقون. أولئك المقربون. في جنات النعيم. . .﴾ [الواقعة : ١٠-١٢].

وأصحاب يمين(١)، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتىٰ إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجاً. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] فكل(٢) مؤمن يرىٰ هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون(٣).

قال صاحب المنازل ـ يرحمه الله ـ:

أبنية التذكـر

«أَبنِيةُ التَّذَكُّر ثَلاثَةٌ: الانتِفَاعُ(٤) بالعِظَةِ، والاستِبصَارُ(٥) لِلعبرةِ، وَالظَّفَرُ بِثَمرَةِ الفِكْرةِ»(٦).

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلبا للخلاص من الخوف(٧)، ورغبة في حصول المرجوّ.

والعظة هي الأمر والنهي، المقرون(٨) بالترغيب والترهيب.

---

(١) كما قال تعالىٰ: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود...﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨].

(٢) في ش: وكل.

(٣) في ط زيادة: آخر.

(٤) في م: انتفاع.

(٥) في ط والاستبصار بالعبرة وفي طبعة المنازل: واستبصار العبرة.

(٦) انظر: المنازل ١٥.

(٧) في ق: المخوف.

(٨) في الجميع سوىٰ ش، ط: المعروف.

أنواع الموعظة

والعظة نوعان : عظة بالمسموع ، وعظة بالمشهود.

فالعظة[١] **بالمسموع** : الانتفاع بما يسمعه من الهدىٰ والرشد ، والنصائح التي جاءت علىٰ يد[٢] الرسل[٣] ، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود : الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر ، وأحكام القدر ، ومجاريه[٤]، وما يشاهده من آيات الله الدالة علىٰ صدق رسله.

وأما الاستبصار للعبرة[٥] : فهو زيادة البصيرة[٦] عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار ؛ لأن التذكر يصقل[٧] المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكر ، وتنصقل له وتنجلي بالتذكر. فيقوي العزم علىٰ السير بحسب قوة الاستبصار ؛ لأنه[٨] يوجب تحديد النظر فيما يحرك الطلب[٩] إذ الطلب فرع الشعور. وكلما[١٠] قوي الشعور بالمحبوب اشتدَّ

---

(١) في د : والعظة.

(٢) في ط : علىٰ اللسان.

(٣) في ط زيادة : وما أوحي إليهم.

(٤) ومجاريه ساقطة من : ش.

(٥) في ح١ ، ب ، غ ، أ ، د : للعبر ، وفي ط : استبصار العبرة.

(٦) في ق ، ب ، ح١ ، د ، أ : البصر.

(٧) في ط ، ب ، أ ، ح١ ، غ ، ح٢ ، م : يعتقل .

(٨) في ق : ولأنه.

(٩) في ط : المطلب.

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش : فكلما.

سفرُ القلب إليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور[1] والبصيرة به[2] والذكر[3].

وأما الظفر بثمرة الفكرة، فهذا موضع لطيف.

وللفكـرة ثمرتـان: حـصول المطلـوب تمامـا بحـسب الإمكـان، والعمـل بموجبه رعاية لحقه. ثمار الفكرة

فإن العقل[4] حال التفكر كان قد كَلَّ[5] بأعماله في تحصيل[6] المطلوب. فلـما حصلت له المعاني وتخمَّرت في القلب، واستراح العقل؛ عاد فتـذكر مـا كـان حصّله وطالعه، فابتهج به، وفرح به، وصحح في هذا المنزل مـا كـان فاتـه في منزل التفكر؛ لأنه قد أشرف عليه من[7] مقام التذكر، الذي هو أعلىٰ منه. فأخـذ حينئـذ في الثمـرة مقـصوده. وهـي العمـل بموجبـه مراعـاة لحقـه. فـإن العمـل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذي هو ثمرة التفكر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسِّي. فطالبُ المال مـا دام جـادّاً في طلبـه، فهـو في كـلال وتعـب. حتىٰ إذا ظفـر بـه اسـتراح مـن كـد الطلـب، وقـدم مـن سـفر

(١) في ط زيادة: به.

(٢) في ط زيادة: فيه.

(٣) في ط: والتذكر له.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش، ق: القلب.

(٥) كَلَّ: يقال: كلّ الرجل والبعير من المشي يكـلُّ: أي أعيا. انظر: مختـار الـصحاح ٢٤٠ مـادة كلل.

(٦) في ق: تحصل.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: في.

التجارة، وطالع(١) ما حصله وأبصره، وصحح في هذه(٢) الحال ما عساه غلط(٣) فيه في حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له، وبردت غنيمته له، أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه(٤).

فصل

الأشياء التي تحصل بها منفعة الموعظة والوعيد

قال: «وإِنَّمَا يَنتَفِعُ بِالعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشيَاءَ: شِدَّةُ الافتِقَارِ إِليَهَا، وَالعَمَىٰ عَن عَيبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّر الوَعدِ وَالوَعِيدِ»(٥).

إنما يشتد افتقار العبد إلىٰ العظة - وهي الترغيب والترهيب - إذا ضعف تذكره وإنابته(٦)، وإلا فمتىٰ قويت إنابته وتذكره، لم تشتد حاجته إلىٰ(٧) الترغيب والترهيب، ولكن(٨) الحاجة منه شديدة إلىٰ معرفة الأمر النهي.

والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرون(٩) [بالرغبة والرهبة، ونفس

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش: فطالع.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: هذا.

(٣) في ق، ب، ح١، م، أ، د، غ: غلطه.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: والله أعلم.

(٥) انظر: المنازل ص١٥ وفيها: وبذكر الوعد والوعيد.

(٦) في ط: وضعفت إنابته وتذكره.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: التذكير.

(٨) في ط زيادة: تكون.

(٩) في ط: المقرونان.

الرغبـة والرهبـة. فالمنيـب المتـذكر ؛ شـديد الحاجـة إلىٰ الأمـر والنهـي ، والمعـرض الغافـل شـديد الحاجـة إلىٰ الترغيـب والترهيـب ، والمعـارض المنكر(١) : شديد الحاجة إلىٰ المجادلة.

فجاءت هـذه الثلاثـة في حـق هـؤلاء الثلاثـة في قولـه : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحـل: ١٢٥](٢) ، وأطلـق(٣) الحكمـة ، ولم يقيـدها بوصـف الحسنة إذ كلهـا حسنة ، ووصـف الحسن لهـا ذاتي(٤). وأمـا الموعظـة فقيَّـدها بوصـف الإحـسان ، إذ لـيس كـل موعظة حسنة. وكذلك الجدال(٥) قد يكون بالتي هي أحسن ، وقـد يكـون بغير ذلك وهذا يحتمل أن يرجع إلىٰ حال المجادل من(٦) غلظته ، ولِينهِ ، وحدّته ، ورِفْقه. فيكون مأمورا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

وأن(٧) يكون صفة لما يجادل به ، من الحجج والبراهين ، والكلمات التي هـي أحـسن شيء وأبيْنـه(٨) ، وأدلـه عـلىٰ المقـصود ، وأوصـله إلىٰ المطلـوب.

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : المتكبر.

(٢) في ط : ما بين المعقوفين ساقط من م ، غ.

(٣) في ط : أطلق.

(٤) لأنها وحي الله الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ. انظر : تفسير الطبري ٧/ ٦٦٣.

(٥) في ط : الجدل.

(٦) (من) ساقط من : ط ، ب ، أ ، ح٢ ، غ.

(٧) في ط : ويحتمل أن يكون.

(٨) في أ : ألينه.

والتحقيق : أن الآية تتناول النوعين.

وأما[1] ما ذكره بعض المتأخرين[2] : أن هذا إشارة إلىٰ أنواع القياسات ، فالحكمة هي طريقة[3] البرهان ، والموعظة الحسنة[4] طريقة الخطابة ، والمجادلة بالتي هي أحسن طريقة الجدل.

فالأول : بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضىٰ إلا بالبرهان ، ولا ينقاد إلا له ، وهم خواص الناس.

والثاني : بذكر المقدمات الخطابية ، التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة ، وهم الجمهور.

والثالث : بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل - وهم المخالفون- فتنزيل القرآن علىٰ قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم. وذلك باطل قطعاً من وجوه عديدة[5][6]. ليس هذا موضع ذكرها. وإنما ذكر هذا

---

(١) في د : أما.

(٢) ولعل أشهر من يظهر لديه هذا التقسيم هو أبو الوليد ابن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، انظر : ص٣٠-٣١.

(٣) في ح١ : طريق.

(٤) في ط زيادة : هي.

(٥) «عديدة» ساقطة من : م.

(٦) وهذا يؤكده حاصل ما توصل إليه الفلاسفة الذين خاضوا في الإلهيات وكثر انحرافهم وضلالهم ، حيث أنكروا معاد الأبدان وقالوا بقدم العالم ، وعطلوا الخالق إلىٰ غيرها من أنواع الضلالات ، حيث كانوا أجرأ علىٰ القرآن يؤولونه ويبتعدون بمعانيه عن متعارف اللغة

استطرادا لـذكر العظـة. وأن[1] المنيـب المتـذكر لا تـشتد حاجتـه إليهـا كحاجـة الغافل المعرض ، فإنه شديد الحاجة جـداً[2] إلىٰ العظـة ، ليتـذكر مـا قـد نـسيه ، فينتفع بالتذكر.

وأما العمىٰ عن عيب الواعظ : فإنه إذا اشتغل بـه حـرم الانتفـاع بموعظتـه ؛ لأن النفوس مجبولة علىٰ عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمـه ولا ينتفـع بـه. وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثلـه ، والطبيـب معـرض عنـه غير ملتفت إليه ؛ بل الطبيب المـذكور عنـدهم ، أحـسن حـالا مـن هـذا الـواعظ المخالف لما يعظ به ؛ لأنه قد يقوم عنده دواء آخر[3] مقام هذا الدواء. وقد يرىٰ أن به قوة علىٰ ترك التداوي. وقد يقْنع بعمل الطبيعة وغير ذلـك ، بخـلاف هـذا الواعظ. فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامهـا ، ولا بـد منهـا. ولأجل هذه النفرة قال شعيب ـ صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ـ لقومـه : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود : ٨٨] وقـال بعـض الـسلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمـر والنهـي ، فـإذا أمـرت بـشيء فكـن أول الفـاعلين لـه ،

والدين ، ولقد تكلف الفارابي وتحمل في التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو والتي ألف من أجلها رسالته المشهورة (الجمع بين رأي الحكمين) وما هذا إلا إنموذج لتنزيل القرآن علىٰ نموذج المنطق وقانون الفلسفة.

(١) في غ : وإنما ، وفي ح١ : والمنيب.

(٢) «جداً» ساقطة من ش ، م ، ح٢.

(٣) في ط ، ق : دواء آخر عنده.

المؤتمرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه[1].

وقد قيل :

يـا أيهـا الرجـلُ المعلِّـمُ غـيرَه ... هـلاَّ لنفسك كـان ذا التعليـمُ

تصفُ الدواءَ لذي السّقام من الضّنىٰ ... ومن الضَّنىٰ تمُسي[2] وأنت سقيمُ

لا تَنْهَ عـن خُلُـق وتـأْتيَ مثلَـه ... عـارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ[3]

وابدأ[4] بنفسك فانهَهَا عن غيِّها ... فـإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ

فهناك يقبلُ ما تقول ويقتدَىٰ ... بالقول منك وينفع التعليمُ[1]

فالعمىٰ عن عيب الواعظ : من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد : فإن ذلك يوجب خشيته والحذر[6] منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] وقال : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلىٰ : ١٠] وقال : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا

---

(١) روي عن الحسن نحوه. انظر : حلية الأولياء ٢/ ١٥٤.

(٢) في ط : ذميم.

(٣) في ط : ابدأ.

(٤) الأبيات الثلاثة الأخيرة في ديوان أبي الأسود الدؤلي، ضمن مستدرك الديوان، ص١٦٥-١٦٦.

(٥) في م : تمشي.

(٦) في غ : بالحذر.

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾[1] [النازعات : ٤٢-٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] ، فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره : شرط في[2] الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

الأشياء التي تستبصر بها العبرة

قال : «وَإِنَّما تُسْتبصَرُ العِبْرَةُ بِثَلاثَةِ أَشْيَاءَ : بِحيَاةِ العَقْلِ ، وَمَعْرِفَةِ الأَيَّامِ ، وَالسَّلامَةِ مِنَ الأَغْرَاضِ[3]»[4].

وإنما تميز[5] العبرة وترىٰ وتتحقق بحياة العقل. والعبرة هي الاعتبار ، وحقيقتها[6] : العبور من حكم الشيء إلىٰ حكم مثله. فإذا رأىٰ من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه ، علم أنّ حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل : هي صحة الإدراك ، وقوة الفهم وجودته ، وتحقيق[7] الانتفاع بالشيء والتضرر به، وهو نور[8] يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب[9]

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : لم تذكر الآيات كاملة.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : في.

(٣) في ش ، ح٢ ، م : الاعتراض.

(٤) انظر : المنازل ١٥.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : إنما تتميز. وفي ش : إنما تتم.

(٦) في غ : حقيقة.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : تحقق.

(٨) في غ : نوع.

(٩) في ب ، ح١ ، غ : بحسب.

تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلىٰ القلب كنسبة النور الباصر إلىٰ العين.

اسم الله الأعظم

ومن[1] تجريبات السالكين، التي جربوها فألْفَوهَا صحيحة: أن من أدمن من قول[2]: «يا حي ياقيوم لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- شديد اللهج بها[3] جداً. وقال لي يوما: لهذين الاسمين وهما «الحي القيوم» تأثير عظيم في حياة القلب. وكان يشير إلىٰ أنهما الاسم الأعظم[4]. وسمعته يقول: من واظب علىٰ

---

(١) في ب، ح١، غ: من.

(٢) «من قول» ساقطة من ط ب، غ، ح١، أ.

(٣) في ح١: بهذا.

(٤) الذي وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - أنه يرىٰ أن الاسم الأعظم هو اسم (الحي) فقط. انظر: مجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٣١١. والاسم الأعظم لله تعالىٰ، اختلف أهل العلم في تعيينه من عدمه، والقائلون بتعيينه اختلفوا، ونُقلتْ عنهم أقوال كثيرة أوصلها ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٢٤-٢٢٥ إلىٰ أربعة عشر قولاً، وزاد علىٰ ذلك السيوطي في الدر المنظم في الاسم الأعظم (ضمن الحاوي للفتاوىٰ) ١/ ٣٩٤-٣٩٧ وقال الشوكاني في تحفة الذاكرين ص٥٢ أنها نحو من أربعين قولاً؛ لكن من أشهر هذه الأقوال وأقواها وأصحها قولان:

القول الأول: إن اسم الله الأعظم (الله) وممن قال به الإمام الطحاوي في مشكل الآثار، وابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٧٩٨، ٨٠٥، والسفاريني في لوامع الأنوار ١/ ٣٥، والمباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/ ٤٤٦ وغيرهم.

أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر «ياحي ياقيوم. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث» حصلت له حياة القلب. ولم يمت قلبه.

ومَنْ عَلِمَ عبوديات الأسماء الحسنىٰ والدعاء بها، وسرَّ[1] ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاته[2]، عرف ذلك وتحققه. فإن كل مطلوب

وقد رجح هذا القول الشيخ عبد الله الغصن وذكر له عدة مرجحات. انظر: أسماء الله الحسنىٰ للغصن ص٩٦-٩٨.

القول الثاني: أن اسم الله الأعظم هو (الحي القيوم) وممن قال به الإمام ابن القيم - رحمه الله -. انظر: القصيدة النونية ٣٣، ومختصر الصواعق المرسلة للموصلي ١/ ١٠١، وزاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٢٠٤.

وقد سألت الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ عن الاسم الأعظم لله تعالىٰ فرجح أنه (الحي القيوم). وقد اعتنىٰ في تحقيق هذه المسألة الدكتور عبدالله بن عمر الدميجي فألف كتاباً ذكر فيه أقوال أهل العلم وأدلتهم، ورجح أنه لايمكن تحديد الاسم الأعظم وتعيينه حيث قال: فالذي يترجح عندي - والله أعلم - هو أن الجزم بتحديد الاسم الأعظم وتعيينه علىٰ وجه قطعي من الأمور المتعذرة؛ لأن العلم به من الأمور الموقوفة علىٰ الوحي السماوي لا مجال للاجتهاد فيه، وما ورد عن النبي ﷺ في هذا الموضوع مما يمكن الاحتجاج به، ليس صريحاً في تعيينه، وما روي عمن تقدم من العلماء في تحديده إنما هو اجتهاد وفهم في فهم هذه النصوص الواردة. انظر: كتاب الاسم الأعظم ص١٦١-١٦٢.

ومن أراد مزيداً من البحث فليرجع إلىٰ فتح الباري ١١/ ٢٢٤ وما بعدها، الدر المنظم في الاسم الأعظم (ضمن الحاوي للفتاوي١/ ٣٩٤ وما بعدها) أسماء الله الحسنىٰ للغصن ٩٠ وما بعدها، اسم الله الأعظم للدميجي ٩٣ وما بعدها.

(١) في غ: وأسر.

(٢) في غ: وحاجته.

يسأل بالاسم[1] المناسب له. فتأمل أدعية القرآن والحديث النبوي[2] تجدها كذلك.

وأما معرفة الأيام: فيُحتمل أن يريد به أيامه التىٰ تخصّه، وما يلحقه[3] فيها من الزيادة والنقصان، ويعلم قِصَرَها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية نسبة قط [4] إلىٰ أيام البقاء. والعبد يساوق[5] زمنه، وفي مدة عمره[6] إلىٰ النعيم أو إلىٰ الجحيم. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفسا إلا في أحب الأمور إلىٰ الله، فلو صرفه[7] فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطا، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف [8] فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان [9].

---

(١) «الاسم»: ساقط من ط، غ، ب، أ، ح١.

(٢) في ط، ب، غ، أ، ح١: والأحاديث النبوية.

(٣) في م، ح٢: تلحقه.

(٤) في ط: قط نسبة.

(٥) في ب، ح١، غ، أ: يساق وفي ط: منساق.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: العمر.

(٧) في ق: صرفها.

(٨) في ط زيادة: إذا صرفه.

(٩) في ط زيادة: ولا قوة إلا به.

ويحتمل أن يريد بالأيام : أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها[١]. كما قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم : ٥] وقد فسرت «أيام الله» بنعمه ، وفسرت بنقمةَ من أهل الكفر والمعاصي. فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن[٢] كعب ومجاهد[٣] والثاني : تفسير مقاتل[٤][٥].

والصواب : أن أيامه تعم النوعين. وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ، ونعمه التي ساقها إلىٰ أوليائه. وسميت هذه[٦] النعم والنقم الكبار المتحدَّث[٧] بها «أياماً» لأنها ظرف لها. تقول العرب : فلان عالم بأيام العرب ، وأيام الناس. أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد الاستبصار للعبرة[٨] وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالىٰ :

---

(١) «بها» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضي ذلك.

(٢) «ابن» ساقطة من : د.

(٣) انظر : تفسير البغوي ٧/ ٤١٨ ، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٥.

(٤) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٦.

(٥) أبو الحسن: مقاتل بن سليمان البلخي المفسر ، يروي عن مجاهد وابن بريدة وعطاء وغيرهم، قال الشافعي: الناس عيال في التفسير عليه. وقال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وقال الذهبي : أجمعوا علىٰ تركه. مات سنة ١٥٠هـ.

ترجمته في : السير ٧/ ٢٠١ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧٩ ، شذرات الذهب ١/ ٢٢٧.

(٦) في غ : هذا.

(٧) في ق : والمتحدث.

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : استبصار العبر.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف : ١١١]. ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الإعراض[١]، وهي متابعة الهوىٰ والانقياد لداعي النفس الأمارة[٢]، فإن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب[٣]، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق[٤] المستقيم[٥]، فلا تحصل[٦] بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره. فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح - في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة.

فصل

الأشياء التي تجتنى بها ثمرة الفكرة

قال: «وإِنَّمَا تُجتَنىٰ ثَمرةُ الفِكرةِ بِثلاثَةِ أَشْياءَ: بِقِصَرِ الأَمَل، وَالتَّأَمُّلِ في القُرآنِ. وَقِلَّةِ الخِلطَةِ، والتَّمنِّي، والتَّعلُّقِ بِغَيرِ الله، وَالشِّبعِ وَالمَنَامِ»[٧].

يعنىٰ: أن في منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلىٰ منها. وكل

---

(١) في ط، ق، ب، ح١، د، غ، أ، م: الأغراض.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: بالسوء.

(٣) في هامش الأصل زيادة: ويصم آذان القلب عن وعي الحكمة، وسماع الموعظة، ورؤية الآيات المعتبرة الموضوعة للعبرة والبصيرة.

(٤) في ب، ش، غ، أ: الصراط.

(٥) كما قال تعالىٰ: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علىٰ علم وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(٦) في ح٢، م، ش: يحصل.

(٧) انظر: المنازل ١٥.

مقام تجتنىٰ(١) ثمرته في الذي هو أعلىٰ منه. ولا سيما علىٰ ما قرره في خطبة كتابه(٢) «كل مقام يصحح ما قبله»(٣).

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنىٰ بثلاثة أشياء: **أحدها**: قصر الأمل، **والثاني**: تدبر القرآن، **والثالث**: تجنّب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه علىٰ مغافصة(٤)(٥) الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلىٰ دار البقاء، ويحثه علىٰ قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهِّده في الدنيا، ويرغِّبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا(٦) داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين. يريه فناءَ الدنيا، وسرعَةَ انقضائها، وقلّة مَا بقي منها، وأنها قد ترحّلتْ مُدْبرة. ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها(٧). وأنها

---

(١) في م، ح٢: يجتنىٰ.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: أن.

(٣) انظر: المنازل ٣٠ حيث قال: «وعندي أن العبد لا يصح له مقام حتىٰ يرتفع عنه، ثم يشرف عليه فيصححه».

(٤) في ط: معافصة.

(٥) غافص الرجل مغافصة: أخذه علىٰ غرة. لسان العرب ١٠/ ٩٤ مادة: غفص.

(٦) في ق: إلىٰ.

(٧) جزء من خطبة لعتبة بن غزوان رواها مسلم ٤/ ٢٢٧٨ في كتاب الزهد (ح٢٩٦٧)، وأحمد في مسنده ٤/ ١٧٤، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٩٢.

لم يبق منها إلا كما بقي(١) من يوم صارت شمسه علىٰ رءوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مُقْبلة. وقد جاء أشراطها وأعلامها(٢)، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحب(٣) له يتلقاه، فكل(٤) منهما يسير إلىٰ الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر(٥) الأمل(٦): ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾(٧) [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢

---

(١) في غ: يبقىٰ.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: وعلاماتها.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: صاحبه.

(٤) في ق: وكل.

(٥) في ش: قصور.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: قوله تعالىٰ.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: الآيات ناقصة.

يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾﴾[1] [طه : ١٠٢ - ١٠٤]، وخطب النبي ﷺ يوماً أصحابه[2] والشمس على رءوس الجبال فقال : «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضىٰ منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضىٰ منه**»[3]، ومر رسول الله ﷺ ببعض أصحابه. وهم يعالجون خِصًّا[4] لهم قد وهىٰ، وهم[5] يصلحونه، فقال : «**ما هذا؟** » قالوا : خصٌّ لنا قد وَهَىٰ فنحن نعالجه. فقال : « **ما أرىٰ الأمر إلا أعجل من هذا**»[6].

وقصر الأمل بناؤه علىٰ أمرين : تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن[7] لقاء

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : أصحابه يوماً.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش الآيات ناقصة.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٩، والترمذي ٤/ ٤٨٣ في كتاب الفتن، باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن (ح٢١٩١) وقال : حسن صحيح.

(٤) الخِصُّ : بيت يعمل من الخشب والقصب، وجمعه خصاص، وأخصاص، سُمي بذلك لما فيه من الخصاص وهي الفرج والأنقاب.

انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٧، ولسان العرب ٤/ ١١٠ مادة : خصص.

(٥) في ط والجميع «فهم».

(٦) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٦١، وأبو داود ٥/ ٤٠١-٤٠٢ في كتاب الأدب، باب ما جاء في البناء (ح٥٢٣٦)، والترمذي ٤/ ٥٦٨ في كتاب الزهد، باب ما جاء في قصر الأمل، (ح٣٣٣٣) وقال : حسن صحيح، وابن ماجه ٢/ ١٣٩٣ في كتاب الزهد، باب في البناء والخراب، (ح٤١٦٠). وصححه الألباني. انظر : صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٨٣.

(٧) في غ : ويتيقن.

الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين ويُؤْثر أولاهما بالإيثار.

فصل

معنى التأمل في القرآن

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه. وجمع الفكر[1] علىٰ تدبره وتعقله[2]. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا تفهم[3] ولا تدبر.

قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال تعالىٰ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليُتدبَّر ويُعمَل به، فاتخذوا[4] تلاوته عملاً[5].

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلىٰ نجاته، من تدبر

---

(١) في ح ١: الفكرة.

(٢) في غ: تعلقه.

(٣) في ط والجميع: بلا فهم.

(٤) في ح١: فاتخذتم.

(٥) جاء عن الحسن أنه قال: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملا، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإنَّ من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار. ونحوه عن ابن مسعود قال: «أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً ...» انظر قوت القلوب ١/ ١١٥، والإحياء ١/ ٣٨٤ـ٣٨٥.

القرآن ، وإطالة التأمل[١] ، وجمع الفكر[٢] علىٰ معاني آياته. فإنها تطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما ، وعلىٰ طرقاتهما[٣] ، وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وَتتُلُّ[٤][٥] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ، وتشيد بنيانه ، وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار في قلبه. وتحضره بين الأمم ، وتريه أيام الله فيهم ، وتبصره مواقع العبر ، وتشهده عدل الله وفضله ، وتعرفه ذاته ، وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وصراطه الموصل إليه ، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه ، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها ، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم ، وأحوالهم، وسيماهم[٦]، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه ، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة : تعرفه الرب المدعو إليه ، وطريق الوصول إليه ، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

---

(١) في ط زيادة : فيه.

(٢) في ح١ : الفكرة.

(٣) في أ : طرقهما.

(٤) في غ ، أ ، ح١ ، ب ، د : تتل.

(٥) التلُّ : الصَّبُّ. يقال : تَل يتُلُّ إذا صَبَّ. انظر : لسان العرب ٢/ ٤٥ مادة : تلل.

(٦) في ق : وسيما.

وتعرفه في مقابل[1] ذلك ثلاثة أخرىٰ : ما يدعو إليه الشيطان ، والطريق الموصلة إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ، ضرورية[2] للعبد معرفتها ، ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتىٰ كأنه فيها ، وتغيبه عن الدنيا حتىٰ كأنه ليس فيها ، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه[3] العالم. فتريه الحق حقاً، والباطل باطلاً ، وتعطيه فرقانا ونورا يفرق به بين الهدىٰ والضلال ، والغي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه ، وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً. فيصير في شأن الناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة علىٰ التوحيد وبراهينه ، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال ، وما يتنزه[4] عنه من سمات النقص ، وعلىٰ الإيمان بالرسل ، وذكر براهين صدقهم ، وأدلة صحة نبوتهم ، والتعريف بحقوقهم ، وحقوق مرسلهم[5]. وعلىٰ الإيمان بملائكته ، وهم رسله في خلقه وأمره ، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته ، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي ، وما يختص بالنوع الإنسانيّ منهم ، من[6] حين يستقر في رحم أمه إلىٰ

(١) في ح١ : مقابلة.

(٢) في ط : ضروري.

(٣) «فيه» ساقطة من غ.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ينزه.

(٥) في هامش الأصل : وما يجب ويجوز ويستحيل للحق وللخلق.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : من.

أن [١] يوافي ربه ويقدم عليه. وعلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التىٰ لا يشوبها [٢] ألم ولا نكد ولاتنغيص [٣]. وما أعد [٤] لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التىٰ لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه [٥]. وعلىٰ تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلىٰ ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه علىٰ التضمر [٦] والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتَهْديه في ظلم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتَصدُّه عن اقتحام طرق [٧] البدع والأضاليل، وتبعثه علىٰ الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتَقِفُه [٨] عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل.

---

(١) في ط، غ، ب، أ، ح١ : يوم.

(٢) في ط : لا يشعرون فيها بألم.

(٣) في ط : وتنغيص.

(٤) في ح زيادة : الله.

(٥) في الأصل : علىٰ، وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه.

(٦) الضَّمْرُ من الرجال : الضامر البطن، وقيل : المُهَضَّمُ البطن اللطيف الجسم. ويُضمرُ الشيء : يُضْعِفُه ويقلله. انظر : لسان العرب ٨/ ٨٤، ٨٥، مادة : ضمر.

(٧) في ح١ : طريق.

(٨) في ط والجميع توقفه.

وتثبِّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونىٰ في سيره: تقدم الركب وفاتك[1]، فاللحاقَ اللحاق، والرحيلَ الرحيل. وتحدو[2] به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين[3] من كمائن العدو، أو قاطع[4] من قُطّاع الطرق[5] نادته: الحذر الحذرَ! فاعتصم بالله، واستعن به[6] وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره[7]، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرناه[8] من الحكم والفوائد.

وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طلسمه[9] الغوص بالفكر إلىٰ قرار معانيه:

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: الدليل.

(٢) في ط: تخذوا.

(٣) يقال: كَمَن فلان إذا استخفىٰ في مكْمَن لا يفطن له، والكمين في الحرب الذين يكْمُنون. انظر: لسان العرب ١٢/ ١٦٠، ١٦١ مادة (كمن).

(٤) في أ، ب، م: وقاطع.

(٥) في ط والجميع: الطريق.

(٦) «به» ساقطة م، ح٢.

(٧) «وتدبره» ساقطة من أ.

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش: ما ذكرنا.

(٩) طَلْسم الرجل: كرّه وجهه وقطبه، والطَلْسَم لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي، يقال: فك طلسمه أو طلاسمه: وضحه وفسّره.

انظر: لسان العرب ٨/ ١٨٣ مادة «طلسم»، المعجم الوسيط ٥٦٢.

نـزه فـؤادك عـن سـوىٰ روضـاته فرياضـه حـلٌّ لكـل منـزَّه
والفهـم طلَّسْمٌ لكنـز علومـه فاقـصد إلىٰ الطِّلَّسْم تحْـظَ بكنـزه
لا تخـش مـن بـدع لهـم وحـوادث مـا دمـت فِي كنف الكتـاب وحـرزه
مـن كـان حارسـه الكتـاب ودرعـه لم يخـش مـن طعـن العـدو ووخـزه[1]
لا تخـش مـن شـبهاتهم واحـمـل إذا مـا قابلتْـك بنـصره وبعـزِّه
والله مـا هـاب امـرؤ شـبهاتهم إلا لـضعف القلـب منـه وعجـزه
يـا ويـح تـيس ضـالع[2] [3] يبغـي مـسا بقـة الهزبـر[4] بعـدوه وبجمـزه
ودخـان زبـل[5] يرتقـي للـشمس يـسـ ـتر عينهـا لمـا سرىٰ في أزه[6]
وجبـان قلـب أعـزل قـد رام يأسـ ـر فارساً شـاكي الـسلاح بهـزه[7]

---

(١) في ح٢ ، م ، د : ووكزه.

(٢) في غ : ضائع.

(٣) الضالع : الأعرج الذي يغمز في مشيه . انظر : لسان العرب ٨/ ٢٥٦ مادة : «ضلع».

(٤) الهزبر : الأسد الضخم ، الكاسر. انظر : المعجم الوسيط ٩٨٤.

(٥) الزبل : السِّرْجين وما أشبهه. انظر : المعجم الوسيط ص٣٨٨ مادة : «زبل».

(٦) في ح٢ البيت هكذا :

ودخان زبل يرتقي في سيره للشمس يميناً إذ سرىٰ في أزِّه

(٧) لم أقف لها علىٰ قائل ولعلها من نظم ابن القيم.

فصل

مفسدات القلب الخمسة

وأما مفسدات القلب الخمسة : فهي التي أشار[١] إليها :

من كثرة الخلطة ، والتمني ، والتعلق بغير الله ، والشبع ، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

فنذكر آثارها التي اشتركت فيها ، وما يميز[٢] به كل واحد منها.

اعلم[٣] أن القلب يسير إلىٰ الله ، والدار الآخرة ، ويكشف عن طريق الحق ونهجه ، وآفات النفس والعمل ، وقطاع الطريق ، بنوره وحياته وقوته ، وصحته وعزمه ، وسلامة سمعه وبصره ، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفىٰء نوره ، وتغور[٤] عين بصيرته ، وتُثقل سمعه ، إن لم تصمه وتبكمه[٥] ، وتضعف قواه كلها ، وتوهن صحته وتفتر عزيمته ، وتوقف همته ، وتنكسه إلىٰ ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب :

.... وما لجرح بميت إيلام[٦].

---

(١) «أشار» ساقطة من ح٢.

(٢) في ط والجميع سوىٰ د : تميز.

(٣) في م ، ح٢ : واعلم.

(٤) في ط ، غ ، ح٢ ، ح١ ، د ، ب ، م ، أ : تعور.

(٥) «وتبكمه» ساقط من م.

(٦) هذا عجز بيت قاله المتنبي ، وصدره : من يهن يسهل الهوان عليه. انظر : شرح ديوان المتنبيٰ ٤/٢١٧.

فهي عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول الىٰ ما خلق لـه. وجعـل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذّته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له[1]، ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله و محبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلىٰ لقائه. فهذه جنته العاجلة. كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنه الآجلة. فله جنتان: لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولىٰ.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[2].

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب[3].

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا[4] وما ذاقوا أطيب ما فيها. قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه[5] - أو نحو هذا من الكلام.

---

(١) «له» ساقطة من: م.

(٢) انظر: الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي (١/ ٦٩).

(٣) ذكره ابن تيمية عن بعض الشيوخ. انظر: السلوك ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٦٤٧.

(٤) في أ: منها.

(٥) انظر: حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨، ٨/ ١٦٧.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة : قاطعة عن هذا ، حائلة بين القلب وبينه ، عائقة له عن سيره ، محدثة[1] له أمراضاً وعللاً ، إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

المفسد الأول : كثرة الخُلطة

فأما ما تؤثره[2] **كثرة الخُلطة** : فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتىٰ يسود ، ويوجب له تشتُّتاً وتفرُّقاً ، وهمّاً وغمّاً ، وضعْفاً ، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء ، وإضاعة مصالحه ، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم ، وتقسيم[3] فكره في أودية[4] مطالبهم وإراداتهم. فماذا يبقىٰ منه لله والدار الآخرة؟

هذا ، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة ، وعطلت من منحة[5] ، وأحلّت من رزية ، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان علىٰ[6] أبي طالب[7] عند الوفاة أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتىٰ حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

---

(١) في ط : ومحدثة.

(٢) في ب ، د : ثورته.

(٣) في ط : وتقسُّم.

(٤) في د : أدوية.

(٥) «وعطلت من منحه» ساقطة من ح٢.

(٦) في الجميع سوىٰ ش ، ط زيادة : ابن. وهو خطأ.

(٧) في الجميع سوىٰ ش ، ط زيادة : رضي الله عنه.

وهــذه الخلطــة التي تكــون علىٰ نــوع مــودة في الدنيــا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، يعض[1] المخالـط[2] عليها[3] يديه ندماً كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[4] [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال إبراهيم[5] خليله[6] عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ما داموا متساعدين[7] علىٰ حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألماً[8] [وانقلبت تلك المودة بغضاً، ولعنة، وذماً، من بعضهم لبعض،

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش: ويعض.

(٢) في ط: المخلط.

(٣) في أ: علىٰ.

(٤) باقي الآية ساقط من ط، غ، ب، أ، ح١.

(٥) «إبراهيم» ساقطة من ش.

(٦) في ط، ق: وقال خليله إبراهيم لقومه.

(٧) في ب زيادة: له.

(٨) في ش: خزياً.

لما انقلب ذلك الغرض حزناً[1]][2] وعذاباً ، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه ، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين علىٰ باطل ، متوادين عليه : لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة : أن يخالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعات[3] والأعياد والحج ، وتعليم[4] العلم ، والجهاد ، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر ، وفضول المباحات.

فإذا[5] دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشر ، ولم يمكنه اعتزالهم : فالحذر الحذر أن يوافقهم ، وليصبر علىٰ أذاهم ، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن[6] أذىٰ[7] يعقبه عز[8] ومحبة له[9] وتعظيم، وثناء عليه منهم، ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له[10] ، ومقت ،

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ.

(٢) «وألماً» ساقطة من ش.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : الجماعة.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : وتعلّم.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ : فإن.

(٦) في ح٢ ، م : ولكنه.

(٧) في ط : أدىٰ.

(٨) في ش : عزة.

(٩) «له» ساقطة من م ، ح٢.

(١٠) «له» ساقطة من ق.

وذم منهم، ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر علىٰ أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً [١]، وإن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع [٢] نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفِتْ إلىٰ الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن [٣] هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن [٤] بالله، ويؤثر فيهم [٥] من الخير ما أمكنه.

فإن [٦] عجّزته [٧] المقادير عن ذلك، فليَسُلّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا

---

(١) كما قال النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر علىٰ أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم».

رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٣، والبخاري في الأدب المفرد ص١٤٠-١٤١ (ح٣٩٠)، وابن ماجه ٢/ ١٣٣٨ في كتاب الفتن باب (الصبر علىٰ البلاء) (ح٤٠٣٢)، والترمذي ٤/ ٦٦٢-٦٦٣ في كتاب صفة القيامة، باب (٥٥) (ح٢٥٠٧) لكن بلفظ: المسلم الذي يخالط.... وصححه الألباني، انظر: الصحيحة ٢/ ٦٥٢ (ح٩٣٩). وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. مسند أحمد ٩/ ٦٤ هامش ٢.

(٢) في أ، ح١، ب، غ: يشجع.

(٣) في د: فإن.

(٤) في ط: وليستغن.

(٥) في ح٢ زيادة: في المجلس.

(٦) في ح٢، م: فإذا.

(٧) في ط، أ، غ، ح١، ح٢، م: أعجزته.

يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه[١]؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورَقَىٰ[٢] به إلىٰ الملأ الأعلىٰ، يُسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه علىٰ النفوس، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه[٣]. فبين العبد وبينه أن يصدق الله[٤]، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه علىٰ بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين علىٰ هذا إلا المحبة الصادقة[٥]، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع[٦] الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة، ومادة قوية[٧] من الله، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله[٨].

فصل

المفسد الثاني: التمنّي

المفسد الثاني: من مفسدات القلب: ركوبه **بحر التمنّي**، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، [٩] إن المنىٰ رأس أموال

---

(١) في م: ينظر إليهم ولا يسمع كلامهم ولا يعيه.

(٢) في م: رقىٰ.

(٣) «عليه» ساقطة من ش.

(٤) في أ: ربه.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش: محبة صادقة.

(٦) في الأصل والجميع سوىٰ ق: الأربعة، وما أثبته منهما.

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش: قوة.

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: والله تعالىٰ أعلم.

(٩) في ط زيادة: كما قيل.

المفاليس. وبضاعةُ ركابه مواعيدُ الشياطين ، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة ، والخيالات الباطلة ، تتلاعب براكبه كما يُتلاعب[1] بالجيفة ، وهي بضاعة[2] كل نفس مهينة ، خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. فاعتاضت[3] عنها بالأماني الذهنية. وكل بحسب حاله ، من متمنّ للقدرة والسلطان ، أو للضرب[4] فىٰ الأرض والطواف في البلدان[5] ، أو للأموال[6] والأثمان ، أو للنسوان[7] ، والمردان فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصلها[8] ، والْتذَّ بالظفر بها. فبينا هو[9] علىٰ هذه الحال ، إذ[10] استيقظ فإذا يده والحصير. وصاحب الهمة العلية[11] أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذىٰ يقربه من ربه[12] ويدنيه من جواره.

---

(١) في ط ، أ ، غ ، ح١ ، ح٢ ، ب : يتلاعب الكلاب.

(٢) في ط : بطاعة.

(٣) في ط : بل اعتاضت ، وفي ح٢ ، م ، غ ، أ ، ح١ ، ب : واعتاضت.

(٤) في غ : وللضرب.

(٥) في ط والجميع : التطواف.

(٦) في ق : وللأموال.

(٧) في ق : وللنسوان.

(٨) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ : بوصولها.

(٩) في ش : هم.

(١٠) في ب ، غ ، د ، ش ، ح٢ ، م : إذا.

(١١) في ح٢ : العالية.

(١٢) في ط والجميع سوىٰ ش : إلىٰ الله.

فأماني هذا إيمان ونور[١]. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالا لعملت[٢] بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: «**هما في الأجر سواء**»[٣].

وتمنى[٤] ﷺ في[٥] حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحل ولم يَسُقِ الهدي، وكان قد قرن[٦]. فأعطاه الله[٧] ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأُمْنيته، فجمع له بين الأجرين.

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة: وحكمة.

(٢) في م زيادة: فيه.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٣٠، وابن ماجه ٢/ ١٤١٣ في كتاب الزهد، باب النية (ح٤٢٢٨)، والترمذي ٤/ ٥٦٢ في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (ح٢٣٢٥). وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٣ (ح٣٤٠٥).
وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. انظر: شرح السنة ١٤/ ٢٩٠ هامش ١.

(٤) في ب زيادة: النبي.

(٥) «في» ساقطة من غ.

(٦) رواه البخاري ٣/ ٥٠٤ في كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، ح١٦٥١، ومسلم ٢/ ٨٨٦ في كتاب الحج، باب صحة النبي ﷺ، ح١٢١٨، وأحمد في مسنده ١/ ٢٥٣.

(٧) «الله» ساقطة من ش.

فصل

المفسد الثالث: التعلق بغير الله

المفسد الثالث من مفسدات القلب : التعلق بغير الله. وهـذا أعظـم مفسداته علىٰ الإطلاق. فليس عليه أضر من ذلك ، ولا أقطع [له عن الله وأحجب](١) لـه عن مصالحه وسعادته منه ، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله(٢) إلىٰ من(٣) تعلق بـه ، وخذله من جهة من(٤) تعلق به ، وفاتـه تحصيل مقصوده من الله بتعلقه بغيره ، والتفاته إلىٰ سواه(٥). فلا علىٰ نصيبه من الله حصل (٦) ، ولا إلىٰ ما أمله ممن تعلق به وصل. قال تعالىٰ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] وقال تعالىٰ : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه ، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرّض للزوال والفوات.

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ط.

(٢) «الله» ساقطة من ش.

(٣) في ط : ما.

(٤) في ط : ما.

(٥) في ح١ : إلىٰ ما سواه.

(٦) «حصل» ساقطة من ح١.

ومثل المتعلق بغير الله : كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت ، أوهن البيوت.

وبالجملة : فأساس الشرك وقاعدته التي بنىٰ عليها : التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم[١] والخذلان ، كما قال تعالىٰ : ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء : ٢٢] ، [مذموماً لا حامد لك مخذولاً][٢] لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً. كالذي قهر وتسلط بباطل[٣]. وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة ، لا محمود ولا منصور.

المفسد الرابع : الطعام

المفسد الرابع من مفسدات القلب : الطعام ، والمفسد له من ذلك نوعان :

أحدهما : ما يفسده[٤] لعينه وذاته كالمحرمات.

وهي نوعان :

- **محرمات لحق الله** ، كالميتة والدم ولحم الخنزير[٥] ، وذي الناب من

---

(١) في ح١ : الذل.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : عليه.

(٤) في ش : ما يفسد.

(٥) كما قال تعالىٰ : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. . .﴾ [البقرة : ١٧٣].

السباع والمخلب من الطير[1].

- ومحرمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضىٰ صاحبه ، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثاني : ما يفسده بقدره : وتعدي حده ، كالإسراف في الحلال ، والشبع المفرط ، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة و محاولتها ، حتىٰ يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها ، والتأذي بثقلها. وقوَّىٰ عليه مواد الشهوة ، وطرق مجاري الشيطان ووسعها ، فإنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه ، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيرا شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور : «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه[2] . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »[3].

---

(١) كما روىٰ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : «نهىٰ رسول الله ﷺ : عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير» .

أخرجه مسلم ٣/ ١٥٣٤ في كتاب الصيد ، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (ح١٩٣٤) ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٤٤.

(٢) في ق : بطن.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٣٢ ، وابن ماجه ٢/ ١١١١ في كتاب الأطعمة ، باب الاقتصاد في الأكل (ح٣٣٤٩) ، والترمذي ٤٠/ ٥٩٠ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (ح٢٣٨٠) وقال : حسن صحيح ، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٣٥ في كتاب الأطعمة

ويحكىٰ أن إبليس[١] عرض ليحيىٰ بن زكريا عليهما السلام فقال له[٢]: هل نلت[٣] مني شيئاً قط؟ قال: لا. إلا أنه قدم إليك الطعام ليلة فشهيته إليك حتىٰ شبعت منه. فنمت عن وردك. فقال:[٤] لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبداً. فقال[٥]: وأنا، لله عليَّ أن لا أنصح رجلاً[٦] أبداً.

(ح٧١٣٩) بلفظ: «ما وعىٰ ابن آدم وعاءً...» وسكت عنه. وقال الذهبي صحيح. وصححه الألباني. انظر: الإرواء ٧/ ٤١ (ح١٩٨٣).

(١) في ط زيادة: لعنه الله.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: يحيى.

(٣) «نلت» ساقطة من ق.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: يحيىٰ.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: إبليس.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: آدمياً.

فصـل

المفسد الخامس : كثرة النوم ، فإنه يميت القلب ، ويثقل البدن ، ويضيع الوقت ، ويورث كثرة الغفلة والكسل.

المفسد الخامس : كثرة النوم

ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن.

وأنفع النوم : ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر. والنوم[1] أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم : النوم بين صلاة الصبح[2] وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة ، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتىٰ[3] لو ساروا طول[4] ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتىٰ تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه ، ووقت نزول الأرزاق ، وحصول القسم ، وحلول البركة[5] ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه علىٰ حكم تلك الحصة.

---

(١) في أ : ونوم.

(٢) في ب : الفجر.

(٣) «حتىٰ» ساقطة من أ.

(٤) في غ : أطول.

(٥) ففي الحديث أن النبي ﷺ قال : «اللهم بارك لأمتي في بكورها» رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤١٦ ، وأبو داود ٣/ ٨٠٧٩ في كتاب الجهاد ، باب في الابتكار في السفر (ح٢٦٠٦) ، وابن ماجه ٢/ ٧٥٢ في كتاب التجارات ، باب ما يرجىٰ من البركة في البكور (ح٢٢٣٦) ،

فينبغي أن يكون نومها[1] كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل[2]، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. فما[3] زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتىٰ تذهب فحمة العشاء. وكان نبي[4] الله ﷺ يكرهه[5]. فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره مطلقاً[6] مورث لآفات أخرىٰ عظام: من سوء المزاج ويبسه[7]، وانحراف النفس، وجفاف

والترمذي ٣/ ٥٠٨ في كتاب البيوع باب ما جاء في التبكير في التجارة ح (١٢١٢)، والطيالسي في مسنده (٦/ ١٧٥) ح(١٢٤٦) وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢١) ح(١٨١٨).

(١) في ش: نوماً.

(٢) في ط والجميع زيادة: الأول.

(٣) في ط: وما زاد.

(٤) في ط رسول الله.

(٥) فعن أبي برزة «أن رسول الله ﷺ: كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها». رواه البخاري ٢/ ٤٩ في كتاب الصلاة، باب ما يكره في النوم قبل العشاء (ح٥٦٨) وروىٰ أحمد في مسنده ٦/ ٢٦٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما نام رسول الله ﷺ قبل العشاء ولا سهر بعدها».

(٦) «مطلقاً» ساقطة من ط ومن الجميع.

(٧) «ويبسه» ساقطة من أ.

الرطوبات(١)، المعينة علىٰ الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة، لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به(٢) فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. والله المستعان.

* * *

---

(١) في ق: الرطوبة.

(٢) في ب: بالله.

فصل

منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزل[1] «الاعتصام»[2]، وهو نوعان :

اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله . قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران :١٠٣] وقال : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨] .

والاعتصام افتعال من العصمة . وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف[3] . فالعصمة[4] : الحمية . والاعتصام : الاحتماء . ومنه سميت القلاع : العواصم لمنعها وحمايتها[5] .

---

(١) في ب : منزلة .

(٢) الاعتصام عند الصوفية : هو أحد أبواب البدايات . وهو الاحتماء أي: الاحتماء إلىٰ الله، وقد يطلق ويراد به الاستخذاء، ويراد به المحافظة علىٰ الطاعة ومراقبة الأمر، وهو علىٰ مراتب .
فهو للعامة : يعني المحافظة علىٰ الطاعة مراقبة الأمر لله .
أما الخاصة: فهو الاحتماء بإرادته عن إرادتهم بانقطاع أنفسهم عن غرض الإرادة فلا يبقىٰ لهم إرادة . أما خاصة الخاصة فهو احتماء العبد بهوية الحق عن رؤية إنية يضيفها إلىٰ نفسه أو إلىٰ غيره من الخلق .
وهو لخلاصة خاصة الخاصة احتماء بتأدية الحق له تضييع حقوق الربوبية وهو الوقوع تحت قهر سلطان التجليات . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٢٢٠-٢٢١، معجم مصطلحات الصوفية ١٨ .

(٣) في ط : والمخوف .

(٤) في غ، ب، ح١، أ : والعصمة .

(٥) انظر : لسان العرب ٩/ ٢٤٤ مادة : عصم .

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية ، علىٰ الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلا لمن استمسك[١] بهاتين العصمتين .

فأما الاعتصام بحبله : فإنه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به : يعصم من الهلكة . فإن السائر الىٰ الله كالسائر علىٰ طريق نحو مقصده ، فهو محتاج إلىٰ هداية الطريق . والسلامة فيها[٢] . فلا يصل إلىٰ مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له . فالدليل كفيل يعصمه[٣] الضلالة ، وأن يهديه إلىٰ الطريق ، والعدة والقوة والسلاح[٤] بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

والاعتصام[٥] بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله ، يوجب له القوة والعدة والسلاح[٦] ، والمادة التي يسلم[٧] بها فىٰ طريقه . ولهذا اختلفت[٨] عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله ، بعد إشارتهم[٩] كلهم إلىٰ هذا المعنىٰ .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : تمسك .

(٢) في ب : منها .

(٣) في ط ، م ، ح٢ ، ش : بعصمته من .

(٤) في ط زيادة : التي .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : فالاعتصام .

(٦) «والسلاح» ساقطة من م ، ح٢ .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ ، م ، ح٢ : يستلئم .

(٨) في غ : اختلف .

(٩) في ب إشاراتهم .

فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله[١] .

وقال ابن مسعود : هو الجماعة[٢] . وقال : عليكم بالجماعة . فإنها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة[٣] .

وقال[٤] مجاهد وعطاء : بعهد الله[٥] . وقال قتادة والسدي وكثير من المفسرين[٦] هو القرآن[٧] .

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ : إن هذا القرآن هو[٨] حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه[٩] . وقال

---

(١) انظر : تفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٧٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٨٠ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٤) في ق : قال .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٧٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : أهل التفسير .

(٧) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٣٧٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٨) «هو» ساقطة من ق .

(٩) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٤٨٢ ، ٤٨٣ عن ابن مسعود مرفوعاً ، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٤١-٧٤٢ وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر . وقال الذهبي : علىٰ شرط مسلم . وذكره البغوي في تفسيره ١/ ٣٣٣ ، وعزاه ابن كثير في تفسيره ٢/ ٨٤ لابن مردويه مرفوعاً . وذكره المنذري في الترغيب. ٢/ ٣٥٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٤ وقال : رواه الطبراني وفيه مسلم بن إبراهيم الهجري وهو متروك ، ورواه الدارمي في سننه ٢/ ٣١٠ موقوفاً علىٰ ابن مسعود (ح٢٣١٨) .

علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ في القرآن : «هو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تلتبس[1] به الألسن ، ولايشبع منه العلماء»[2] . وقال مقاتل : بأمر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى[3] .

وفي الموطأ[4] من حديث مالك عن سهيل بن صالح عن أبيه[5] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً . يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تُناصِحوا من ولاه الله أمركم . ويسخط لكم: قيل وقال ،

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، د : تختلف .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٤٨٢ (ح١٠٠٥٦) ، والدارمي في سننه ٢/ ٣١٢ ، ٣١٣ (ح٣٣٣٤) ، والبزار في مسنده ٣/ ٧١ ، ٧٢ (ح٨٣٦) ، والترمذي في سننه ٥/ ١٧٢ ، ١٧٣ في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن (ح٢٩٠٦) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال ، ورواه البغوي في شرح السنة٤/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، وروى جزءاً منه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٩١ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٤ ، ١٦٥ وقال : رواه الطبراني وفيه عمر بن واقد وهو متروك . وقال محققو المسند ٢/ ١١٢ : إسناده ضعيف لضعف الحارث بن عبدالله الأعور ، ثم هو منقطع .

قال ابن كثير في فضائل القرآن : وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ وقد وهم بعضهم رفعه ، وهو كلام حسن . انظر : شرح السنة ٤/ ٤٣٩ هامش ١ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٤) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٠ في كتاب الكلام، باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين.

(٥) «أبيه» ساقطة من غ .

وإضاعة المال، وكثرة السؤال» رواه مسلم [١] في الصحيح [٢] .

قال صاحب المنازل :

الاعتصام بحبل الله

«الاعتِصَامُ بِحَبلِ الله : هُوَ المحَافَظَةُ عَلَىٰ طَاعَتِهِ ، مُرَاقِباً لأَمرِهِ» [٣] .

ويريد بمراقبة الأمر : القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها . لا لمجرد العادة ، أو لعلة باعثة سوىٰ امتثال الأمر . كما قال طلق بن حبيب [٤] - رضي الله عنه - في التقوىٰ : هيٰ العمل بطاعة الله ، علىٰ نور من الله [ترجو ثواب الله] [٥]، وترك معصية الله ، علىٰ نور من الله ، تخاف عقاب الله [٦] .

وهذا هو الإيمان والاحتساب ، المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً . ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له» [٧] فالصيام والقيام : هو الطاعة، و الإيمان: مراقبة الأمر . وإخلاص الباعث:

---

(١) رواه مسلم ٣/ ١٣٤٠ في كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (ح١٧١٥) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٦٧ .

(٢) «الصحيح» ساقطة من م ، ح٢ .

(٣) انظر : المنازل ١٦ .

(٤) طلق بن حبيب الغزي البصري العابد الثقة ، كان يقول بالإرجاء ، قال العجلي : كان من أعبد أهل زمانه ، توفي بعد التسعين وقبل المائة . ترجمته في : الحلية ٣/ ٦٣ ، السير ٤/ ٦٠١ ، البداية والنهاية ٩/ ١٠٦ ، تهذيب التهذيب ٥/ ٣١ .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش و، ما أثبته من الأثر وباقي النسخ .

(٦) انظر : الحلية ٣/ ٦٤ .

(٧) رواه مسلم ١/ ٥٢٣ في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح =

هو أن يكـون الإيـمان الآمر ، لا شيء سـواه : و الاحتساب : رجـاء ثـواب الله .

فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل .

* * *

= (ح٧٦٠) ، والبخاري ٤/ ١١٥ في كتاب الصوم ، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (ح١٩٠١) لكن بتقديم قيام ليلة القدر علىٰ صيام رمضان ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٤١ .

فصل

الاعتصام بالله

وأما الاعتصام به [١] : فهو التوكل عليه ، والامتناع به ، والاحتماء به ، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ، ويعصمه ويدفع عنه ، فإن ثمرة الاعتصام به : هو الدفع عن العبد . والله يدفع [٢] عن الذين آمنوا . فيدفع عن عبده المؤمن به [٣] إذا اعتصم به كل سبب يفضي [٤] إلىٰ العطب ، ويحميه منه [٥] . فيدفع عنه الشبهات والشهوات ، وكيدَ عدوِّه الباطنَ والظاهرَ [٦] ، وشرَّ نفسه . ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها ، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه ، فينعقد [٧] في حقه أسباب العطب . فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها . ويدفع عنه قَدَرَه بقَدَرِه ، وإرادته بإرادتِه ، ويُعيذُه به منه .

* * *

(١) «به» ساقطة من م .

(٢) في ط ، ح٢ : يدافع .

(٣) «به» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ط ، م زيادة : به .

(٥) في م ، ح٢ : عنه .

(٦) في ط : الظاهر والباطن .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح١ : فتفقد .

فصل

وأما[1] صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ فقال :

«الاعتِصَامُ بالله[2] التَّرَقِّي عَن كُلِّ مَوهُومٍ»[3] .

الموهوم عنده ما سوىٰ الله . والترقي عنه[4] الصعود من شهود نفعه وضره، وعطائه ومنعه وتأثيره ، إلىٰ الله . وهذا[5] إشارة إلىٰ الفناء[6] . ومراده : الصعود عن شهود ما سوىٰ الله إلىٰ الله . والكمال في ذلك ، الصعود عن إرادة ما سواه[7] إلىٰ إرادته .

والاتحادي[8] يفسره بالصعود عن وجود ما سواه إلىٰ وجوده . بحيث لا

---

(١) «وأما» ساقطة من ق .

(٢) في ش زيادة هو .

(٣) انظر : المنازل ص١٦ .

(٤) في ق : عنده .

(٥) في ط ، ح١ ، ب ، غ ، أ : وهذه .

(٦) الفناء : هو سقوط الأوصاف المذمومة ، وهو ضد البقاء الذي يعني وجود الأوصاف المحمودة ، وهو الاستغراق في المشاهدة والذهول عن الغير ، وقيل : هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات . وخلاصته : الزوال والاضمحلال . وهو عند الطائفة مراتب فمنه : فناء عن إرادة السوىٰ ، وفناء عن شهود السوىٰ ، وفناء عن وجود السوىٰ .
انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٧ ، التعرف لمذهب التصوف ١٤٢ ، لطائف الإعلام ٢/ ٢١٧ ، التعريفات ١٩٢ .

(٧) في ط : ما سوىٰ الله .

(٨) يعني بالاتحادي العفيف التلمساني . انظر : قوله في شرحه لمنازل السائرين ١/ ٩٤ .

يرىٰ لغيره وجودا البتة ، ويرىٰ وجود كل موجود ، هو وجوده فلا وجود لغيره إلا في الوهم الكاذب عنده .

اعتصام العامة

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ درجَاتٍ : اعتِصَامُ العَامَّةِ بِالخَبَرِ استِسْلاَماً ، وَإِذْعَاناً ، بِتَصدِيقِ الوَعدِ وَالوعِيدِ ، وَتَعظِيمِ الأمرِ والنَّهيِ . وَتَأْسِيسِ المعَامَلَةِ عَلَىٰ اليَقِين وَالإنصَافِ»[1] .

يعني أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلاماً من غير منازعة، بل إيماناً واستسلاماً . وانقادوا إلىٰ تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما ، والتصديق بالوعد والوعيد . وأسَّسوا معاملتهم علىٰ اليقين ، لا علىٰ الشك والتردد وسلوك طريق[2] الاحتياط . كما قال القائل :

زعم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهمـا لا تبعث الأجسادُ قلتْ : إليكُما
إن صحَّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالخسارُ عليكُما[3]

فهذه[4] طريقة[5] أهل الرَّيب والشك . يقومون بالأمر والنهي احتياطاً وهذه الطريقة[6] لا تنجي من عذاب الله ، ولا يحصل[7] لصاحبها السعادة ، ولا توصله

---

(١) المنازل ١٦ وفيها زيادة : «وهو الاعتصام بحبل الله» .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : طريقة .

(٣) البيتان لأبي العلاء المعري . انظر : اللزوميات ولزوم ما لا يلزم ٢٠٦ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : هذه .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، م : طريق .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، م : الطريق .

(٧) في ط ، ش ، ق : تحصل .

إلىٰ المأْمَن . وأما الإنصاف الذي أَسَّسوا معاملتهم عليه؛ فهو الإنصاف في معاملتهم لله ولخلقه . فأما الإنصاف في معاملة الله ، فأن يعطي العبودية حقها ، وأن لا ينازع ربه صفات إلهيته التي لا تليق[١] بالعبد ، ولا تنبغي[٢] له : من العظمة والكبرياء والجبروت[٣] .

ومن إنصافه لربه : أن لا يشكر سواه علىٰ نعمه وينساه ، ولا يستعين بها علىٰ معاصيه ، ولا يحمد علىٰ رزقه غيره ، ولا يعبد سواه . كما في الأثر الإلهي «إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم : أخلق ويعبد غيري . وأرزق ويشكر سواي» [٤] .

وفي أثر آخر : «ابن آدم : ما أنصفتني ، خيري إليك نازل ، وشرك إلي صاعد . أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غني عنك[٥] . وتتبغض إلي بالمعاصي وأنت

---

(١) في الأصل : يليق ، وما أثبته من الجميع ، ط والسياق يقتضي ذلك .

(٢) في الأصل : ينبغي ، وما أثبته من الجميع ، ط والسياق يقتضي ذلك .

(٣) في الأصل والجميع : الجبرية وهو خطأ وما أثبته من المطبوع .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ١٣٤ عن أبي الدرداء ، وذكره الديلمي في الفردوس ٣/ ١٦٦ ، والألباني في الضعيفة ٥/ ٣٩٣ (ح٢٣٧١) ، وروىٰ الإمام أحمد في كتاب الزهد ١٠٧ نحوه عن الحسن قال : قال الله عز وجل : «يا بني آدم خلقتك وتعبد غيري ، وتدعو إلي وتفر مني ، وتذكر بي وتنساني ، هذا أظلم الظلم في الأرض . قال ثم تلا الحسن : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان :١٣] ، ورواه الأصفهاني في الحلية ١٤٨/ ٢عن الحسن كذلك .

(٥) في ط : وأنا عنك غني .

فقير إليَّ . ولا يزال الملك الكريم ، يعرج إليَّ منك بعمل قبيح»[١] .

وفي أثر آخر :«يا ابن آدم . ما من يوم جديد ، إلا يأتيك من عندي رزق جديد ، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح . تأكل رزقي وتعصيني . وتدعوني فأستجيب لك ، وتسألني فأعطيك ، وأنا أدعوك إلىٰ جنتي فتأبىٰ ذلك . وما هذا من الإنصاف»[٢] .

وأما الإنصاف في حق العبيد : فأن يعاملهم مثل ما يحب أن يعاملوه به .

ولعمر الله هذا الدين ولو أنه اعتصام العامة[٣] ، هو اعتصام خاصة الخاصة في الحقيقة . ولكن الشيخ[٤] ـ رحمه الله ـ ممن رفع له علم الفناء فشمر إليه . فلا تأخذه فيه لومة لائم . ولا يرىٰ مقاما أجل منه .

* * *

---

(١) رواه الأصفهاني في الحلية ٤/ ٢٧ عن بكار بن وهب بن منبه قال : قرأت في بعض الكتب الإلهية فوجدت الله يقول : « يا ابن آدم . . . » .

ورونى جزءاً منه كذلك في الحلية ٢/ ٣٧٧ عن مالك بن دينار قال : قرأت في بعض الكتب إن الله عز وجل يقول : «يا ابن آدم خيري ينزل عليك . . . . » .

(٢) هذا الأثر معناه قريب من الأثرين السابقين .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : هذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة ...

(٤) يعني الهروي رحمه الله .

فصل

«(١) واعتِصَامُ الخَاصَّةِ : بالانقِطَاعِ . وَهُوَ صَوْنُ الإرَادَةِ قَبضاً ، وإسبَالُ الخَلقِ عَلَىٰ(٢) الخَلقِ بَسْطاً ، وَرَفضُ العَلاَئِقِ عَزماً ، وَهُوَ التَّمَسُّكُ بِالعُروَةِ الوُثقَىٰ»(٣) . اعتصام الخاصة

يريد انقطاع النفس عن أغراضها من هذه الوجوه الثلاثة . فيصون إرادته ، ويقبضها عما سوىٰ الله سبحانه . وهذا شبيه بحال أبي يزيد ـ رحمه الله ـ فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ما تريد؟ فقال : أريد أن لا أريد(٤) .

الثاني : إسبال الخلق علىٰ الخلق بسطاً . وهذا حقيقة التصوف(٥) . فإنه كما قال بعض العارفين(٦) : التصوف خلق . فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف(٧) .

---

(١) في ط والجميع زيادة : قال .

(٢) في الأصل وط : عن . وما أثبته من الجميع ومن نسخة المنازل .

(٣) انظر : المنازل ١٦ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢١٨ .

(٥) الصوفية أو أهل التصوف : اختلف في اشتقاق لفظ الصوفية علىٰ أقوال كثيرة لعل أرجحها أنها نسبة إلىٰ لبس الصوف ، وقد كانت بداية التصوف عبارة عن التمسك بالأخلاق والزهد في الدنيا لعبادة الله عز وجل إلىٰ أن أصبح عقائد باطلة ، كالحلول والاتحاد ، وترك الواجبات ، وفعل المحرمات . انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزي ١٦١ وما بعدها ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٧٢وما بعدها ، التصوف المنشأ والمصدر لإحسان إلهي ظهير ص ٢٠وما بعدها .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : أبو بكر الكتاني .

(٧) انظر : الرسالة القشيرية ٢٤٢ .

فإن حسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق، يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف، يكف الأذى، ويحمل الأذى، ويوجد الراحة، ويدير خده الأيسر لمن لطمه على الأيمن[1]، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه، ويمشي ميلين مع من سخره ميلاً. وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها.

وأما رفض[2] العلائق عزماً: فهو العزم التام على رفض العلائق، وتركها في ظاهره وباطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال في يدك[3]، وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر. ومتى كان في قلبك ضرَّ[4]، ولو لم يكن في يديك[5] منه شيء.

قيل للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: أيكون الرجل زاهداً، ومعه ألف دينار؟ قال: نعم على شريطة[6] أن لا يفرح إذا زادت[7] ولا يحزن إذا نقصت[8]. ولهذا

---

(١) في ط والجميع سوى ش: لطم الأيمن.

(٢) في الأصل: قبض. وهو خطأ وما أثبته من الجميع، ط.

(٣) في أ زيادة: منه شيء.

(٤) في ط والجميع سوى ش: ضرك.

(٥) في ط والجميع: يدك.

(٦) في ح١: بشرط.

(٧) في م: زيدت.

(٨) قال ابن رجب: وسئل بعضهم - أظنه الإمام أحمد - عمن معه مال: هل يكون زاهداً؟ قال: إن كان لايفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه أو كما قال. انظر: جامع العلوم والحكم ٢/ ١٨٣.

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال[١] .

وإنما يُحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين[٢] : حيث يخاف منها ضرراً في دينه ، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة . والكمال من ذلك : قطع العلائق التىٰ تصير[٣] كلاليب علىٰ الصراط تمنعه من العبور . وهي كلاليب الشهوات والشبهات ، ولا يضره ما تعلق به بعدها .

* * *

---

(١) في الجميع سوىٰ ش زيادة : وقيل لسفيان الثوري : أيكون ذو المال زاهداً؟ قال : نعم . إن كان إذا زيد في ماله شكر ، وإن نقص شكر وصبر . وانظر الحلية ٦/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢) في أ : نوعين .

(٣) «تصير» ساقطة من ق .

فصل

اعتصام خاصة الخاصة قال : «واعتِصَامُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ : بالاتِّصَالِ . وَهُوَ شُهُودُ الحَقِّ تَفرِيداً . بَعْدَ الاستِخْذَاءِ[1] لَهُ تَعظِيماً ، وَالاشتِغَالِ بِهِ قُرْباً»[2] .

لما كان ذلك الانقطاع موصلا إلىٰ هذا الاتصال ، كان ذلك للمتوسطين . وهذا عنده لأهل الوصول .

ويعني بشهود الحق تفريداً : أن يشهد الحق سبحانه وحده منفرداً . ولا شيء معه ، وذلك لفناء الشاهد في المشهود[3] ، والحوالة في ذلك عند القوم : علىٰ الكشف[4] .

---

(١) الاستخذاء : هو الخضوع والانقياد، واستخذيت: خضعت. انظر : لسان العرب ٤/ ٤٢ مادة : «خذأ» . والاستخذاء عند الصوفية : يطلق ويراد به القرب : وهو هبة من الله لعبده وملخصه عندهم : أنه القرب برفع الوسائط التي بارتفاعها يكمل للعبد حقيقة التعظيم لربه . انظر : لطائف الإعلام ١/ ١٩٧ . والاستخذاء هكذا في المنازل ، وفي نسخ المدارج كلها الاستحذاء ، وابن القيم شرح هذه اللفظة ولعله اطلع علىٰ نسخة أخرىٰ للمنازل مع أن الأقرب هو ما ذكر في المنازل هنا ، والله أعلم .

(٢) انظر : المنازل ١٦ وفيها زيادة : «وهو الاعتصام بالله» .

(٣) في «ط» : الشهود .

(٤) الكشف : هو عبارة عن كشف النفس لما غاب عن الحواس إدراكه ، والاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية بحيث يرتفع الغيب كما هو في المرئيات ، سواء كان ذلك بفكر أو حدس ، أو سانح أو غيرها .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٢٥، لطائف الإعلام ٢/ ٣٣٣ ، التعريفات ص ٢١٠ .

وقد تقدم أن هذا ليس بكمال وأن (١) الكمال : أن يفنىٰ بمراده عن مراد نفسه . وأما فناؤه بشهوده عن شهود ما سواه(٢) : فدون(٣) هذا الفناء في الرتبة كما تقدم(٤) .

وأما قوله : «بَعدَ الاستِحذَاءِ له تعظِيماً» فالشيخ ـ رحمه الله ـ لكثرة لهجه بالاستعارات ، عبر عن معنىٰ لطيف عظيم بلفظة «الاستحذاء» التي هي استفعال من المحاذاة . وهي المقابلة التي لا يبقىٰ فيها جزء من المحاذي خارجا عما حاذاه؛ بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع أجزائه ، ومراده بذلك : القرب ، وارتفاع الوسائط المانعة منه ، ولا ريب أن العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده(٥) . فأما قرب العبد : فكقوله تعالىٰ : ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق :١٩] وقوله في الأثر الإلهي : «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» (٦) وكقوله : «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع

---

(١) في ش : وإنما وفي ح٢ ، م : فإن .

(٢) في ق : شهوده وما سواه .

(٣) في ش : فالآن .

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٥٤ وما بعدها .

(٥) في أ : منه .

(٦) جزء من حديث رواه البخاري ١٣/ ٣٨٤ في كتاب التوحيد باب ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ح٧٤٠٥، ومسلم ٤/ ٢٠٦١ في كتاب الدعاء والتوبة، باب الحث علىٰ ذكر الله (ح٢٦٧٥) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٥١ ، ٤١٣ .

به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التىٰ يمشىٰ بها ، فبي يسمع . وبي يبصر . وبي يبطش . وبي يمشي»[١] ، وفي الحديث الصحيح : «أقرب ما يكون الرب من عبده : في جوف الليل الأخير»[٢] . [وفي الحديث أيضا : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٣]][٤] . وفي الحديث الصحيح - لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي ﷺ في السفر فقال : «يا أيها الناس ، اربعوا علىٰ أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إن الذي»[٥]

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري ١١/ ٣٤٠ عن أبي هريرة في كتاب الرقاق ، باب التواضع ، (ح٦٥٠٢) ، وأحمد في مسنده ٦/ ٢٥٦ بنحوه عن عائشة ، والطبراني في الكبير ٨/ ٢٤٤ عن أبي أمامة الباهلي . وآخره : «فبي يسمع ...» يذكرها ابن القيم وشيخه ابن تيمية كثيراً كما في الفتاوىٰ ٥/ ١١و١٠/ ٥٨ ويذكر أنها من رواية البخاري وذكرها ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٥٢ نقلاً عن الطوفي ولم يعزها لأحد . انظر السلسلة الصحيحة للألباني ٤/ ١٨٣ ، ١٩١ .

(٢) رواه الترمذي ٥/ ٥٦٩ ، ٥٦٠ ، في كتاب الدعوات ، باب (١١٩) (ح٣٥٧٩) وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، والنسائي ١/ ٢٧٩ - ٢٨٠ في كتاب المواقيت باب النهي عن الصلاة بعد العصر ، (ح٥٧٢) ، وابن خزيمة في صحيحه ٢/ ١٨٢ (ح١١٤٧) ، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٥٣ (ح١١٦٢) وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه . وقال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الترغيب ١/ ٢٥٧ .

(٣) رواه مسلم ١/ ٣٥٠ في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، ح(٤٨٢) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٢١ ، وأبو داود ١/ ٥٤٥ في كتاب الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود (ح٨٧٥) ، والنسائي ٢/ ٢٢٦ في كتاب التطبيق ، باب أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل ، (ح١١٣٧) .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من أ .

(٥) في الأصل : الذين وهو خطأ .

تدعونه سميع قريب . أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته»[١] .

فعبر الشيخ - رحمه الله - عن طلب القرب منه ، ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به : - بالاستحذاء - وحقيقته[٢] : موافاة العبد إلىٰ حضرته وقدامه ، وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراءه ظهرياً وأعرض عنه ونأىٰ[٣] بجانبه ، بمنزلة من ولىٰ المطاع ظهره . ومال بشقه عنه .

وهذا أمر[٤] لا يدرك معناه إلا بوجوده وذوقه . وأحسن ما يعبر عنه ، بالعبارة[٥] النبوية المحمدية ، وأقرب عبارات القوم عنه[٦] : أنه التقرب[٧] برفع الوسائط التىٰ بارتفاعها يحصل للعبد[٨] حقيقة التعظيم . فلذلك قال «الاستحذاء له تعظيماً» .

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٥٠٠ في كتاب القدر ، باب لا حول ولا قوة إلا بالله (ح٦٦١٠) ، ومسلم ٤/ ٢٠٧٦ في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ، (ح٢٧٠٤) ، وأحمد في مسنده ٤/ ٤٠٢ .

(٢) في غ ، د : وحقيقة .

(٣) في أ : ونادىٰ .

(٤) في ط : الأمر .

(٥) في ب : العبارات .

(٦) «عنه» ساقطة من ط والجميع سوىٰ : ش .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : التقريب .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : للعبد .

ومن أراد فهم هذا - كما ينبغي - فعليه بفهم اسمه تعالىٰ «الباطن» وفهم اسمه «القريب» مع امتلاء القلب بحبه، ولهج اللسان بذكره. ومن ههٰنا يؤخذ العبد إلىٰ الفناء الذي كان مشمراً إليه، عاملاً عليه.

فإن كان مشمراً إلىٰ الفناء المتوسط، وهو الفناء عن شهود السوىٰ، لم يبق في قلبه شهود[1] لغيره ألبتة، بل تضمحل الرسوم[2] وتَفْنىٰ الإشارات[3] ويفنىٰ من لم يكن، ويبقىٰ من لم يزل. وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء طوعاً ورغبة لا كرهاً[4]؛ لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب، وهو منتهىٰ سفر الطالبين لمقام الفناء.

وإن كان[5] مشمراً للفناء العالي، وهو الفناء عن إرادة السوىٰ: لم يبق في

---

(١) في الأصل وش: ويعبد، وما أثبته من باقي النسخ.

(٢) الرسم هو الخُلُق والصفات، والرسوم هي الآثار وكل ما سوىٰ الله آثاره. وهذا معنىٰ قولهم: نعت يجري في الأبد بما يجري في الأزل، واصطلح أهل الطريق علىٰ أن كل ما سوىٰ الله من الأغيار، وعالم الخلق رسوم. انظر: معجم مصطلحات الصوفية ١١٢، لطائف الإعلام ١/ ٤٨٩، التعرف ص١٠٦، ١٦٤، التعريفات ١٢٤.

(٣) الإشارات: الإشارة هي الإخبار من غير الاستعانة إلىٰ التعبير باللسان، وقيل: ما يخفىٰ عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه. وتفردت به الصوفية؛ لأن مشاهدات القلوب، ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها علىٰ التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نزل تلك الأحوال وحلَّ تلك المقامات.

انظر: معجم مصطلحات الصوفية ص١٦، ١٧، التعرف ١٠٠.

(٤) «لا كرهاً» ساقطة من: أ.

(٥) في ط زيادة: «العبد» وفي، أ، ب، ح١، ح٢، د، غ زيادة: «هذا».

قلبه مراد يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني . بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو[1] عين[2] مراد العبد . وهذا حقيقة المحبة الخالصة . وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد في المراد ، لا في المريد ، ولا في الإرادة .

فتدبر هذا الفرقان في هذا الموضع الذي[3] طالما زلت فيه أقدام السالكين. وضلت فيه أفهام الواجدين[4] .

وفي هذا المقام حقيقة ، يفنىٰ من لم يكن إرادةً وإيثاراً ، ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وتوكلاً ، ويبقىٰ من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة، ويحصل[5] له الاستحذاء المذكور مقرونا بغاية الحب ، وغاية التعظيم .

وفي هذا المقام : يجيب داعي الفناء في المحبة طوعاً واختياراً لا كرهاً؛ بل ينجذب إليه انجذاب قلب المحب وروحه ، الذي قد ملأت المحبة قلبه .

---

(١) (هو) ساقطة من الأصل وش وما أثبته من باقي النسخ ولا يستقيم المعنىٰ إلا بها .

(٢) عين ساقطة من ط .

(٣) «الذي» ساقطة من : م .

(٤) الواجدين : الوَجْد هو ضد الفقد ، فمن لا فقد له فلا وجد له ، وهو ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع . وقيل : هو انقطاع الأوصاف عند سمت الذات بالسرور ، وهو من خواص أهل البدايات ، إذ هو عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر ، وقيل : هو الغيبة عن الأوصاف بشهود الحق ، وهو عند أصحاب الطريق درجات ومراتب .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٦٤ ، لطائف الإعلام ٣٨١/ ٢ ، التعريفات ٢٧٨ .

(٥) في ح٢ : «ويجعل» .

بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها، إلىٰ محبوبه الذي هو أكمل محبوب، وأجمله[1]، وأحقه بالحب.

وهذا[2] أوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والإجلال والقرب، ومحو ما سوىٰ مراد المحبوب من القلب. بحيث لم يبق في القلب إلا المحبوب ومراده، وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله. والله المستعان.

وأما قوله: «والاشتِغَالِ بِهِ قُرْباً» أي يشغله قرب الحق عن كل ما سواه، وهذا حقيقة القرب. ألا ترىٰ أن القريب من السلطان جداً، المقبل عليه، المكلم له، لا يشتغل بشيء سواه البتة؟ فعلىٰ قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به[3].

* * *

---

(١) في ط: «أجله».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «الفناء».

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «والله أعلم».

فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الفرار» [1] . منزلة الفرار

قال تعالىٰ : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وحقيقة الفرار : الهرب من شيء إلىٰ شيء . وهو نوعان : فرار السعداء . وفرار الأشقياء .

ففرار السعداء : الفرار إلىٰ الله تعالىٰ .

وفرار الأشقياء : الفرار منه لا إليه . وأما الفرار منه إليه : ففرار أوليائه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فيٰ قوله تعالىٰ : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فروا منه إليه ، واعملوا بطاعته [2] . وقال سهل بن عبدالله : فروا مما سوىٰ الله إلىٰ الله [3] . وقال آخرون : اهربوا من عذاب الله إلىٰ ثوابه بالإيمان والطاعة [4] .

وقال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

---

(١) الفرار : الهرب . ويقال : فرّ إليه أي لجأ إليه . انظر : المعجم الوسيط ٦٨٠ مادة : فرَّ والفرار هو الهرب عما يُبعد عن الحق إلىٰ ما يُقرب إليه .

وهو عند الصوفية أقسام : ففرار العامة : من علمهم بآداب الخدمة إلىٰ العمل بها . وفرار الخاصة : عن حظوظ الأنفس ، لا رجاء ولا خوف عقاب . وخاصة الخاصة : فرار عن الاشتغال بما سوىٰ الحق ، ثم بالفرار عن رؤية فرارهم بأنفسهم لمشاهدتهم قيومية الحق .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٩ - ٢١٠ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٠٤ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١١/ ٤٧٣ ، وتفسير القرطبي ١٧/ ٥٣ .

فرار العامة

«هُوَ الهَرَبُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ إلىٰ مَنْ لَمْ يَزَلْ . وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ :

فِرَارُ العَامَّةِ مِنَ الجَهْلِ إلىٰ العِلْمِ عَقْداً وَسَعْياً ، وَمِنَ الكَسَلِ إلىٰ التَّشْمِيرِ جِدّاً وَعَزْماً، وَمِنَ الضِّيقِ إلىٰ السَّعَةِ ثِقَةً وَرَجَاءً»(١) .

يريد بما لم يكن «الخلق» وما(٢) لم يزل «الحق» .

أنواع الجهل

وقوله : «فِرَارُ العَامَّةِ مِنَ الجَهَلِ إلىٰ العِلْمِ عَقْداً وَسَعْياً» .

الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل(٣) بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما(٤) جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة . قال موسىٰ : ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقره: ٦٧] لما قال له قومه ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي(٥) المستهزئين . وقال يوسف الصديق : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] أي من(٦) مرتكبي(٧)ما حرمت عليهم . وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النساء :١٧] . قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصىٰ الله به فهو جهالة(٨) ، وقال غيره :

---

(١) انظر : المنازل ١٧ ، لكن قال : «إلىٰ ما لم يزل ... » .

(٢) في ط والجميع : «وبما» .

(٣) في د : «العلم» .

(٤) في ش : «وكلاهما» .

(٥) في ط زيادة : «من» .

(٦) «من» ساقطة من ق ، م .

(٧) في أ : «المرتكبين» .

(٨) انظر : تفسير الطبري ٣/ ٦٤٠ ، وتفسير القرطبي ٥/ ٩٢ .

أجمع الصحابة على[1] أن كل من عصىٰ الله فهو جاهل[2][3][4] :

ألا لا يجهَلَنْ أحَدٌ علينا فنجهل فوق جَهْلِ الجاهلينا[5]

وسمىٰ عدم مراعاة العلم جهلاً ، إما لأنه لم[6] ينتفع به . فنزل منزلة الجاهل[7] ، وإما لجهله بسوء ما يجني[8] عواقب فعله .

فالفرار المذكور[9] : الفرار من الجهلين ، من الجهل بالعلم إلىٰ تحصيله اعتقاداً ومعرفة وبصيرة ، والفرار[10] من جهل العمل إلىٰ السعي النافع ، والعمل الصالح قصداً وسعياً .

قوله[11] : «وَمِنَ الكَسَلِ إلىٰ التَّشْمِيرِ جِدّاً وَعَزماً» . أي يفر من إجابة داعي الكسل إلىٰ داعي العمل ، والتشمير بالجد[12] والاجتهاد .

---

(١) «علىٰ» ساقطة من : ط ، ح١ ، غ ، أ ، ب .

(٢) في م ، ح٢ : «أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة» .

(٣) انظر : تفسير البغوي ١/ ٤٠٧ .

(٤) في ط ، الجميع سوىٰ ش زيادة : «وقال الشاعر» .

(٥) هذا البيت لعمرو بن كلثوم ، انظر : ديوانه ٧٨ ، شرح المعلقات السبع ١٢٧ .

(٦) في م ، ح٢ : «لا» .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : «الجهل» .

(٨) في ط والجميع : «تجني» .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «هو» .

(١٠) «الفرار» ساقطة من : ط .

(١١) في ح٢ ، م : «قال» .

(١٢) في أ ، غ ، ح١ : «من الجد» .

و «الجد»(١) هو ها هنا(٢) صدق العزم(٣)، وإخلاصه، من شوائب الفتور، ووعود(٤) التسويف والتهاون. وهو تجنب(٥) السين وسوف. وعسىٰ، ولعل، فهو(٦) أضر شيء علىٰ العبد. وهي شجرة ثمرها(٧) الحسرات(٨) والندامات.

الفرق بين الجد والعزم

والفرق بين الجد والعزم: أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها، و «الجد» صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقره: ٦٣]، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أي: بجد واجتهاد وعزم، لا كمن يأخذ ما أُمر به بتردد وفتور.

وقوله: «وَمِنَ الضِّيقِ إِلىٰ السَّعَةِ ثِقَةً وَرَجَاءً».

يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم، والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق

---

(١) «والجد» ساقطة من: ح٢.

(٢) في ط: «ههنا هو».

(٣) في ط: «العمل».

(٤) في ح١: «ووعد».

(٥) في ط، غ، ح٢، م، ب: «تحت».

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: «فهي».

(٧) في د: «ثمرتها».

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش: «الخسران».

بأسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به ، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه . يهرب[1] من ضيق صدره بذلك كله إلىٰ سعة فضاء الثقة بالله ، وصدق التوكل عليه ، وحسن الرجاء لجميل صُنْعه به[2] ، وتوقّع المرجوِّ من لطفه وبره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لا هَمَّ مع الله . قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . قال الربيع ابن خُثَيْم[3] : يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق علىٰ الناس[4] . وقال أبو العالية : مخرجاً من كل شدة[5][6] .

وقال الحسن : مخرجاً مما نهاه عنه[7] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣][8] ومن يثق به في نوائبه ومهماته . يكفيه كل ما أهمّه .

---

(١) في ق : «ويهرب» .

(٢) «به» ساقطة من : ق .

(٣) الربيع بن خُثَيم بن عائذ الثوري الكوفي ، الإمام القدوة العابد ، أدرك زمن النبي ﷺ ، وكان قليل الرواية كثير الشأن ، يُعد من عقلاء الرجال ، وله كلمات في الزهد مأثورة ، توفي سنة ٦٥هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٣/ ٢٦٩ ، حلية الأولياء ٢/ ١٠٥ ، السير ٤/ ٢٥٨ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٤٢ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ١٣١ .

(٥) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧ .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ، ولمضايق الدنيا والآخرة ، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق علىٰ الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً» .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧ ، وانظر : تفسير الحسن البصري ٢/ ٣٥٢ .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : «أي كافي من يثق» .

والحسب[1] الكافي ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران :١٧٣ ، التوبه :٥٩] كافينا الله .

وكلما كان العبد حسن الظن بالله ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه ، فإن الله لا يخيِّب أملَه فيه البتة ، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل[2] ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة . فإنه لا أشرح للصدر[3] ، ولا أوسع له -بعد الإيمان- من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به .

فصل

فرار الخاصة

قال : «وَفِرَارُ الخَاصَّةِ مِنَ الخَبَرِ إِلىٰ الشُّهُودِ ، وَمِنَ الرُّسُومِ إِلىٰ الأُصُولِ ، وَمِنَ الحظُوظِ[4] إِلىٰ التَّجرِيدِ[5]»[6] .

---

(١) في ش : « الحسيب » .

(٢) في ق : « مؤمل » .

(٣) في غ : « للعبد » .

(٤) الحظوظ : هي حظوظ النفس ولا تجتمع مع الحقوق؛ لأنهما ضدان لا يجتمعان ، فإذا ظهرت الحقوق غابت الحظوظ ، وإذا ظهرت الحظوظ غابت الحقوق ، ولهذا قيل : الغيبة أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها . انظر : التعرف لمذهب التصوف ١٣٦ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٨ .

(٥) التجريد : هو أن يتجرد الإنسان بظاهره عن الأعواض وبباطنه عن الأعراض ، فهو يفعل ما يفعل لله لا لعلة ولا لسبب ، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات . وهو خلو قلب العبد وسره عن ما سوىٰ الله . انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣١١، التعرف لمذهب التصوف ص١٣١، معجم مصطلحات الصوفية ٤١ .

(٦) انظر : المنازل ١٧ .

يعني أنهم لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر(١)، حتىٰ يترقوا منه إلىٰ مشاهدة المخبر عنه. فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر، إلىٰ عين اليقين بالشهود كما طلب إبراهيم(٢) الخليل - صلوات الله وسلامه علىٰ نبينا وعليه - ذلك من ربه. إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب(٣) إبراهيم عليه السلام أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً. وهذا هو المعنىٰ الذي عبر عنه النبي ﷺ بالشك فىٰ قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»(٤) حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٥) وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم(٦) حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنىٰ بهذه العبارة. هذا(٧) أحد الأقوال في الحديث(٨).

---

(١) في أ: «خبره».

(٢) «إبراهيم» ساقطة من: ش، د.

(٣) في ق: «وطلب».

(٤) جزء من حديث رواه البخاري ٦/ ٤١٠-٤١١، في كتاب الأنبياء باب (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) ح٣٣٧٢، ومسلم، ١/ ١٣٣ في كتاب الإيمان باب (زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة) ح١٥١، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٢٦.

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش: الآية ناقصة.

(٦) «ولا» ساقطة من: ق.

(٧) في أ: «وهو».

(٨) انظر: تفسير البغوي ١/ ٢٤٨، فتح الباري ٦/ ٤١٢.

وفيه قول ثان : أنه علىٰ وجه النفي . أي لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال ، ولم نشك نحن (١) .

وهذا القول صحيح أيضاً أي لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه؛ لكن لم (٢) يطلب ما طلب شكاً ، وإنما طلبه (٣) طمأنينة .

فالمراتب ثلاث (٤) علم (٥) يقين يحصل عن الخبر. ثم يتجلّىٰ (٦) حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر ، حتىٰ يصير العلم به عين يقين . ثم يباشره ويلابسه فيصير (٧) حق يقين . فعِلمُنا بالجنة والنار الآن (٨) علم يقين ، فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوهما (٩) عياناً ، كان ذلك عين يقين . كما قال تعالىٰ : ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر : ٦ ، ٧] ، فإذا (١٠) دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار

---

(١) انظر : تفسير البغوي ١/ ٢٤٨ ، فتح الباري ٦/ ٤١٢ .

(٢) في أ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، م : « لا يطلب » .

(٣) في ط : « طلب ما طلب » .

(٤) في الأصل والجميع سوىٰ ش : ثلاثة وما أثبته من ط وش وهو الصحيح .

(٥) في ح١ : « علم اليقين » .

(٦) في ط ، م ، أ ، ح٢ : « تتجلىٰ » .

(٧) في م ، ح٢ : « تصير » .

(٨) « الآن » ساقطة من : ح١ .

(٩) في غ : « وشاهدوها » .

(١٠) في أ : « ثم إذا » .

النار ، فذلك حق اليقين. وسنزيد ذلك(١) إيضاحاً إن شاء الله (٢) إذا انتهينا إليه(٣).

وأما قوله : « وَمِنَ الرُّسُومِ إِلَىٰ الأُصُولِ (٤)» .

(٥)يريد بالرسوم : ظواهر العلم والعمل .

وبالأصول(٦) : حقائق الإيمان ومعاملات القلوب ، وأذواق الإيمان ووارداته(٧) . فيفر من إحكام العلم والعمل إلىٰ خشوع السر(٨) للعرفان . فإن أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها ، ولا يعتدون منها (٩) إلا بأرواحها وحقائقها ، وما يثبته لهم التعرف الإلهي [وهو نصيبهم من

---

(١) في د : « لذلك » .

(٢) « إن شاء الله » ساقطة من : ش .

(٣) انظر : شرحه لمنزلة المكاشفة ، والمشاهدة والمعاينة ، والمعرفة في القسم الأخير من المدارج .

(٤) في ح٢ : « الوصول » .

(٥) في ط زيادة : « فإنه » .

(٦) في ح٢ : «وبالوصول» .

(٧) في غ : « وإراداته » .

(٨) السرُّ : لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن ، ونور روحاني هو آلة النفس ، وقيل : هو بعد القلب ، وقيل : هو الروح ، وقيل : هو ألطف منها وأعلىٰ ، ويطلق لفظ السر علىٰ ما يكون مصوناً مكتوفاً بين العبد والحق سبحانه في الأحوال .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ١٤ - ١٨ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٢٩ - ١٣٠ ، الرسالة القشيرية ٨٨ .

(٩) في ح٢ ، م زيادة : والنهىٰ » .

الأمـر[1] .

والتعـرف[2] الإلهي][3] لا يقتـضي مفارقـة الأمـر . كـما يظـن قطـاع الطريـق وزنادقة[4] الصوفية[5]؛ بل يستخرج منهم حقائق الأمر ، وأسرار العبودية ، وروح المعاملة . فحظهم من الأمر ، حظ العالم بمراد المتكلم مـن كلامـه ، تـصريحاً وإيماء ، وتنبيها وإشارة . وحظّ غيرهم منه ، حظّ التالي له حفظاً ، بـلا فهـم ولا معرفـة لمـراده . وهـؤلاء أحـوج شيء إلىٰ الأمـر؛ لأنهـم لم يـصلوا إلىٰ تلـك التعرفـات[6] والحقـائق إلا بـه . فالمحافظـة[7] عليـه[8] لهـم علـماً ومعرفـةً وعمـلاً

---

(١) في ح٢ ، م ، زيادة : « والنهىٰ» .

(٢) « التعرف الإلهي » ساقط من : ح٢ ، م .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : أ .

(٤) الزندقة : هي من الوثنية ، أو من قال بالنور والظلمة ، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية ، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والجاحد المعطل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفي المنتسبين إلىٰ الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة ويسمون الزنادقة ... وهؤلاء يكثرون في المتفلسفة من المنجمين ونحوهم . أما زنادقة الصوفية فهم الذين غلوا في الشطحات حتىٰ خرجوا عن الإسلام ، وعطلوا الأمر والنهي ، جرياً وراء الحقيقة الكونية .

انظر : لسان العرب ١٠/ ١٤٧ ، مختار الصحاح ٢٦٧ ، ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٤٨١ ، قواعد الأديان لشيخ الإسلام ٩٦ ، قضية التكفير لسعيد القحطاني ١٦ ، صون المنطق ١٨٤ .

(٥) في ش : التصوف .

(٦) في ش التعريفات وفي غ : الغرفات .

(٧) في ح٢ ، م : المحافظات .

(٨) في أ : عليهم .

وحالاً ضرورية ، لا عوض لهم عنه ألبتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة ، قطاع[١] الطريق من المتسببين إلىٰ طريق القوم. فإنهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة وأرواحها[٢]، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا : نجمع هِمَمَنا علىٰ مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلىٰ رسومها وظواهرها؛ بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره ، وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها ، دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها . فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك ، وهممهم أعلىٰ ، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر . فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل جملة[٣] الأمر[٤] ، هؤلاء عطّلوا سره[٥] ومقصوده وحقيقته . وهؤلاء عطّلوا رسمه وصورته . وظنوا[٦] أنهم يصلون إلىٰ حقيقته ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا إلا إلىٰ الكفر والزندقة . وجحد[٧] ما عُلم بالضرورة مجيء

---

(١) في ط والجميع : وقطاع .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : أرواحها .

(٣) في ط : وجملة .

(٤) في ط زيادة : أن .

(٥) « سره » ساقطة من ق ، وفي غ : الأمر .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : فظنوا .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : وجحدوا .

الرسول[1] به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون . وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا [2] الذين يرون أن [3] الأمر متوجه إلىٰ قلوبهم قبل جوارحهم ، وأن علىٰ القلب عبودية في الأمر كما علىٰ الجوارح ، وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح ، وأن كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده بعبوديته؛ فهؤلاء خواص أهل الإيمان، وأهل العلم والعرفان .

فصل

قوله : «وَمِنَ الحُظُوظ إِلىٰ التَّجرِيدِ» .

يريد الفرار من حظوظ النفوس[4] علىٰ اختلاف مراتبها . فإنه لا يعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده ، وحقه علىٰ عبده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما[5] ، ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين ، يستغفرون الله منها ، ويفرّون إليه منها . يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم .

وبالجملة فالحظّ : ما سوىٰ مراد الله الدينيّ منك ، كائناً ما كان ، وهو ما بين[6] حظٍّ محرمٍ إلىٰ مكروهٍ إلىٰ مباحٍ إلىٰ مستحبٍّ ، غيره أحب إلىٰ الله منه .

---

(١) في ط : الرسل .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هم .

(٣) « أن » ساقط من غ ، أ ، ح١ ، ب .

(٤) في ب ، أ ، م : النفس .

(٥) في ش : وآفاتها .

(٦) في ط ، ب ، غ ، ح٢ ، م ، ح١ ، أ : ما يبرح .

ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره ، وبالنفس وصفاتها وأحوالها .

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق . ويفر من الحظ[1] إلىٰ التجريد . وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا ، لأنهم إنما يعبدون الله علىٰ الحظوظ وعلىٰ مرادهم منه . وأما تجريد عبادته علىٰ مراده من عبده :

فتلك منزلةٌ لم يُعطَها أحدٌ ... سوىٰ نبيٍّ وصدّيقٍ من البَشَر

والزهدُ زهدُك فيها ليس زهدك في ... ما قد أبيح لنا في مُحكم السُّور

والصدقُ صدقُك في تجريدها وكذا الـ ... إخلاص تخليصُها إن كنت ذا بصر

كذا توكّلُ أربابِ البصائر في ... تجريدِ أعمالهم من ذلك الكَدَر

كذاك توبتُهم منها فهُمْ أبدًا ... في توبة أو يَصِيرُوا داخل الحُفَرِ[2]

وبالجملة فصاحب هذا التجريد : لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسىٰ علىٰ ما فاته سوىٰ الله ، ولا يستغني برتبة شريفة ، وإن عظمت عنده أو عند الناس؛ فلا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلىٰ الله[3] ، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن إلا علىٰ ما فاته من الله ، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه . فكلّه بالله ،

---

(١) في ق : الخطأ .

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات ، ولعلها من نظم ابن القيم رحمه الله .

(٣) في ق : بالله .

وكلّه لله ، وكلّه مع الله ، وسيره دائما إلىٰ الله ، قد رُفعَ له علمٌ[١] فشمّر إليه . وتجرّد له[٢] مطلوبهُ فعمل عليه . تناديه الحظوظُ : إليَّ ، وهو يقول : إنما أريد من إذا حصل لي ، حصل[٣] كل شيء ، وإذا فاتني فاتني كل شيء . فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الأمر مجرد عن حظه ، وأعني الحظ المزاحم للأمر . وأما الحظ المُعِينُ علىٰ الأمر ، فإنه لا يحطه تناوله عن[٤] مرتبته ، ولا يُسقطه من عين ربه . وهذا أيضا موضع غلط فيه من غلط[٥] من الشيوخ. فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة .

والتحقيق فيه : أن الحظ نوعان . حظ يزاحم الأمر ، وحظ يؤازر الأمر فينفذه . فالأول هو المذموم ، والثاني ممدوح ، وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

* * *

(١) في ط : علمه .

(٢) في غ : إليه .

(٣) في ط زيادة : لي .

(٤) في ح١ : عنه .

(٥) « من غلط » ساقط من غ .

فصل

قال : «وَفِرَارُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ؛ مماَّ دُونَ الحَقِّ إِلىٰ الحَقِّ ، ثُمَّ مِن شُهُودِ الفِرَارِ إِلىٰ الحَقِّ ، ثُمَّ الفِرَارُ[١] مِنْ شُهُودِ الفِرَارِ»[٢] . فرار خاصة الخاصة

هذا علىٰ قاعدته في جعل الفناء عن الشهود غاية السالكين ، فيفر أولا من الخلق إلىٰ الحق ، ويشهد بهذا الفرار انفراد مشهوده الذي فر إليه؛ لكن بقيت عليه بقيّة ، وهي شهود فراره ، فيعدله إحساسًا بالخلق . فيفرّ ثانيا من شهود فراره . فتنقطع النسب كلها بينه وبين الخلق بهذا الفرار الثاني[٣] ، فلا يبقىٰ فيه بقية إلا ملاحظة فراره من شهود فراره ، فيفر من شهود الفرار . فتنقطع حينئذ النسب كلها . وقد تقدم الكلام علىٰ هذا[٤]، وأنه ليس أعلىٰ المقامات والرتب ، ولا هو غاية الكمال . وأن فوقه ما هو أعلىٰ منه مقاما وأشرف منزلاً ، وهو أن يشهد فراره ، وأنه بالله من[٥] الله إلىٰ الله . فيشهد أنه فرَّ به[٦] مِنْه إليه . ويعطي كل مشهد حقَّه من العبودية ، وهذا حَالُ الكُمَّلِ . فالله[٧] المستعان .

* * *

---

(١) في المنازل : ثم الفرار من الفرار إلىٰ الحق .

(٢) انظر : المنازل ١٧ .

(٣) « الثاني » ساقطة من ش .

(٤) انظر ص ١٢٠٦ .

(٥) في م ، ح٢ : ومن .

(٦) «به» ساقطة من ح٢ .

(٧) في ط ، أ ، غ ، ح١ ، ب : والله

فصل

منزلة الرياضة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : «منزلة : الرياضة»(١) .

هي تمرين النفس على الصدق والإخلاص .

قال صاحب « المنازل » - رحمه الله - : «هِيَ تَمْرِينُ النَّفْسِ عَلَىٰ قَبُولِ الصِّدقِ»(٢) .

وهذا يراد به أمران : تمرينها علىٰ قبول الصدق إذا عرضه عليها(٣) في أقواله وأفعاله وإرادته(٤) . فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادتْ له ، وأذعنت له .

والثاني : قبول الحق ممن عرضه عليه . قال تعالىٰ : ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣] فلا يكفي صدقك؛ بل لا بد من صدقك وتصديقك للصادقين(٥) . فكثير من الناس يصدق ، ولكن يمنعه من التصديق كبر أو حسد ، أو غير ذلك .

---

(١) الرياضة عند الصوفية : تهذيب الأخلاق النفسية بمجاهدة النفس بترك مألوفاتها . لتزكو بترك المألوفات ، ورفع العادات ، ومخالفة المرادات والأهواء المرديات ، ورياضة النفس عن الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الحق ، وأعظم أركانها المداومة علىٰ الذكر .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ١١٦ ، رشح الزلال ٩٨ .

(٢) انظر : المنازل ١٧ .

(٣) في ح٢ : عليه .

(٤) في ق ، ب : وإراداته .

(٥) في م : الصادقين .

رياضة العامة

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ : رِيَاضَةُ العَامَّةِ ؛ وَهِيَ تَهذِيبُ الأَخلاَقِ بِالعِلمِ ، وَتَصْفِيَةُ الأَعمَالِ بِالإِخلاَصِ ، وَتَوفِيرُ الحُقُوقِ فِي المُعَامَلَةِ»(١) .

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم . فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة(٢) إلا بمقتضىٰ العلم ، فتكون حركات ظاهرة وباطنة موزونة بميزان الشرع .

وأما تصفية الأعمال بالإخلاص : فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله . وهو(٣) عبارة عن توحيد المراد ، وتجريد الباعث إليه .

وأما توفير الحقوق في المعاملة : فهو أن تعطي ما أُمرت به(٤) من حق الله وحقوق العباد كاملاً موفّراً . قد نصحت فيه صاحب الحق غاية النصح ، وأرضيته كل الرضىٰ ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة علىٰ النفس جداً؛ كان تكلفها(٥) رياضة ، فإذا اعتادها صارت خُلقاً .

رياضة الخاصة

قال : «وَرِيَاضَةُ الخاصَّةِ : حَسمُ التَّفَرُّقِ ، وَقَطعُ الالتِفَاتِ إِلَىٰ المَقَامِ الذِي جَاوَزَهُ ، وَإِبقَاءُ العِلمِ يَجرِي مَجرَاه»(٦) .

---

(١) انظر : المنازل ١٧ .

(٢) في غ : وباطنه .

(٣) في ط ، ح١ ، أ ، م ، غ ، ح٢ ، ب : وهي .

(٤) « به » ساقطة من الجميع سوىٰ ش ، ب ، ط .

(٥) في د : تكليفها .

(٦) انظر : المنازل ١٨ .

يريد بحسم التفرق : قطع ما يفرق قلبك عن الله بالجمعية [١]عليه ، والإقبال عليه[٢] بكليتك ، حاضراً معه بقلبك كله ، لا تلتفت إلىٰ غيره .

وأما قطع الالتفات إلىٰ المقام الذي جاوزه ، فهو ألا يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذته واستحسانه؛ بل يلهىٰ عنه معرضا مقبلاً علىٰ الله ، طالباً للزيادة ، خائفاً أن يكون ذلك المقام له[٣] حجاباً يقف عنده عن السير . فهمته حفظه . ليس له همة ولا قوة [٤]أن ينهض إلىٰ ما فوقه . ومن لم تكن همته التقدم فهو في تأخر ولا يشعر . فإنه لا وقوف في الطبيعة ، ولا في السير؛ بل[٥] إما إلىٰ قدام ، وإما إلىٰ وراء . فالسالك الصادق لا ينظر إلىٰ ورائه ، ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه .

وأما إبقاء العلم يجري مجراه ، فالذهاب مع داعي العلم أين ذهب[٦] به ، والجري معه في تيَّاره أين جرىٰ .

---

(١) الجمعية : اجتماع الهمم في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ ، والاشتغال به عما سواه ، وضد ذلك التفرقة .

والجمع : الاشتغال بشهود الله عما سواه ، والتفرقة هي الاشتغال عن الله بما سواه .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ٦٧ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٩٢ .

(٢) في ط والجميع : ولإقبال بكليتك عليه .

(٣) « له » ساقطة من أ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : قوة ولا همة .

(٥) « بل » ساقطة من ح٢ .

(٦) في ح٢ ، م : يذهب .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وأن لا يعارضه[(١)] بجمعية ، ولا ذوق[(٢)] ولا حال[(٣)] . بل امض معه حيث ذهب . فالواجب تسليط العلم علىٰ الحال . وتحكيمه عليه ، وأن لا يعارض به .

وهذا صعب جداً إلا علىٰ الصادقين [(٤)]أرباب العزائم . فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتىٰ تمرَّنت النفس عليه وتعوّدته صار خُلُقاً . وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة[(٥)] ، أو غلبه حال أو ذوق : خلَّىٰ العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه

(١) في ط : تعارضه .

(٢) الذوق : يطلق ويراد به أول مبادئ التجليات ، ويشير القوم إلىٰ أنه علم لا ينال إلا لمن كان خالي القلب عن جميع العلائق والعوائق ، فهو نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٧١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٠٤ ، التعريفات ١٢٠ .

(٣) الحال : هو ما يرد علىٰ القلب من غير تأمل ولا اجتلاب ، وقيل : هو تغير الأوصاف علىٰ العبد ، وقيل : هو كاسمه كلما حَلَّ بالقلب حال عنه ، سُمي بذلك لتحوله وزواله بخلاف المقام فهو من الإقامة والاستقرار ، ولهذا قال بعضهم : هو نازلة تنزل بالقلب فلا تدوم .
انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٣ ، التعريفات ٩٤ .

(٤) في ط زيادة : من .

(٥) البرق : واحد بروق السحاب وهو الذي يلمع في الغيم ، انظر : لسان العرب١/ ٣٨١مادة : برق، وعند الصوفية : أول ما يبدو للعبد من اللوامع النورية ، فيدعوه إلىٰ الدخول في حضرة القرب من الرب للسير إلىٰ الله . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٢٧٦-٢٧٧ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٤٢ .

ظهرياً ، وحكَّم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين . وهي حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً . ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به .

فصل

رياضة خاصة الخاصة قال : « وَرِيَاضَةُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ : تجرِيدُ الشُّهُودِ ، وَالصُّعُودُ إلىٰ الجَمْعِ ، وَرَفضُ المعارَضَاتِ ، وَقَطْعُ المُعاوَضَاتِ »(١) .

أما تجريد الشهود فنوعان :

أحدهما : تجريده عن الالتفات إلىٰ غيره .

والثاني : تجريده عن رؤيته وشهوده .

وأما الصعود إلىٰ الجمع : فيعني به الصعود عن معاني التفرقة إلىٰ الجمع الذاتي . وهذا يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلىٰ وحدة مصدرها .

والثاني : أن يصعد عن علائق الأسماء والصفات إلىٰ الذات . فإن شهود الذات بدون علائق الأسماء والصفات عندهم هو حضرة(٢) الجمع . وهذا موضع مزلة أقدام ، ومضلة أفهام ، لا بد من تحقيقه . فنقول :

التفرقة تفرقتان : تفرقة في المفعولات ، وتفرقة في معاني الأسماء

(١) المنازل ١٨ .

(٢) في ح٢ ، م : حضر .

والصفات .

والجمع جمعان : جمع في الحكم الكوني ، وجمع ذاتي .

فالجمع في الحكم الكوني : اجتماع المفعولات كلها في القضاء والقدر والحكم .

والجمع الذاتي : اجتماع الأسماء والصفات في الذات .

فالذات(١) واحدة جامعة للأسماء والصفات .

والقضاء (٢) والقدر : جامع لجميع المقضيات(٣) والمقدورات ، والشهود مترتب(٤) علىٰ هذا(٥) .

فشهود اجتماع الكائنات في قضائه وقدره - وإن كان حقاً - فهو لا يعطي إيماناً فضلاً عن أن يكون أعلىٰ مقامات الإحسان . والفناء في هذا الشهود؛ غايته فناء في توحيد الربوبية الذي لا ينفع وحده ، ولا بد منه .

وشهود اجتماع الأسماء والصفات ، في وحدة الذات ، شهود صحيح . وهو شهود(٦) مطابق للحق في نفسه .

---

(١) في ش : والذات .

(٢) « القضاء » ساقطة من ط .

(٣) في ط ، ش : المقتضيات .

(٤) في ش ، ح٢ : مرتب .

(٥) في ط زيادة : وهذا .

(٦) « وهو شهود » ساقطة من ش .

وأما الصعود من[1] شهود تفرقة الأسماء والصفات، وعلائقها إلىٰ وحدة الذات المجردة، فغايته أن يكون صاحبه معذوراً لضيق قلبه [عن تفرقة الأسماء ومعاني الصفات، وغلبة المشهود[2] علىٰ قلبه][3]، وأما أن يكون[4] محموداً في شهوده ذاتاً مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلا ولما.

وأي إيمان يعطي ذلك؟ وأي معرفة؟ وإنما هو سلب ونفي في الشهود، كالسلب والنفي في العلم والاعتقاد. فنسبته إلىٰ الشهود، كنسبة نفي الجهمية وسلبهم إلىٰ الأخبار، لكن الفرق بينهما: أن ذلك السلب في العلم والاعتقاد، مخالف للحق الثابت في نفس الأمر، وكذبٌ علىٰ الله، ونفيٌ لما يستحقه من صفات كماله، ونعوت جلاله، ومعاني أسمائه الحسنىٰ.

وأما هذا السلب ففي الشعور به للصعود منه إلىٰ الجمع الذاتي، مع الإيمان به، والاعتراف بثبوته. فهذا لون وذاك لون.

والكمال في[5] شهود الأمر علىٰ ما هو عليه، فيشهد[6] الذات موصوفة بصفات الجلال، منعوتة بنعوت الكمال. وكلما كثر شهوده لمعاني الأسماء والصفات كان أكمل.

---

(١) في ط، ح١، ب، أ، غ: عن.

(٢) في ش، ح٢، م، د: الشهود.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من: ط، غ، أ، ح١، ب.

(٤) «يكون» ساقطة من: غ.

(٥) «في» ساقط من ط والجميع سوىٰ ش.

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش: ويشهد.

نعم قد يعذر في الفناء في الذات المجردة، لقوة الوارد، وضعف المحل[١] عن شهود معاني الأسماء والصفات.

فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه، ولا يصدنك عن تحقيقه[٢] ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق، فإنا لا ننكره ونقرُّ به[٣]؛ لكن[٤] الشأن في مرتبته. وبالله التوفيق.

وأما رفض المعارضات: فيحتمل أمرين.

أحدهما: ما يعارض شهوده [٥] الجمعي من التفرقات، وهو مراده.

والثاني: رفض[٦] ما يعارض إرادته من الإرادات، وما يعارض مراد الله من المرادات. وهذا أكمل من الأول، وأعلىٰ منه.

وأما قطع المعاوضات: فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعاوضة؛ بل تجردها[٧] لذاته، وأنه أهل أن يعبد، ولو لم يحصل لعابده عوض منه. فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلة، ولا لعرض[٨] ولا لمطلوب. وهذا أيضا موضع

---

(١) في أ: المورود.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: تحقيق ذلك.

(٣) بل نقر به.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: ولكن.

(٥) في غ، ق: شهود.

(٦) «رفض» ساقطة من ط، ب، غ، أ، ح١.

(٧) في ط، والجميع سوىٰ ب: يجردها.

(٨) في ط، والجميع سوىٰ ش: لعوض.

لابدّ من تجريده .

فيقال : ملاحظة المعاوضة ضرورية للعامل ، وإنما[1] الشأن في ملاحظة الأعواض وتباينها . فالمحب الصادق الذي قد تجرد عن ملاحظة عوض ، قد لاحظ أعظم الأعواض ، وشمر إليها . وهىٰ قربه من الله ووصوله إليه ، واشتغاله به عما سواه ، والتنعم بحبه ولذة الشوق إلىٰ لقائه ، فهذه أعواض لا بد للخاصة منها . وهي من أجل مقاصدهم وأعواضهم[2] . ولا يقدح[3] في مقاماتهم ، وتجريد عبودياتهم؛ بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتاً إلىٰ هذه الأعواض .

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة - من الجاه ، والمال ، والرياسة ، والملك - أو طلب[4] الحور العين ، والقصور والولدان ، ونحو ذلك بالنسبة إلىٰ تلك الأعواض التي يطلبها[5] الخاصة معلولة ، وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها .

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتي ، هو قربه والوصول إليه ، والتنعم بحبه، والشوق إلىٰ لقائه، وانضاف إلىٰ هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل ،

---

(١) في غ : وإنه .

(٢) في ط : أغراضهم .

(٣) في ط : ولا تقدح .

(٤) في غ ، م : وطلب .

(٥) في ط ، ب ، ق : تطلبها .

فلا علة في هذه العبودية بوجه ما ، ولا نقص وقد قال النبي ﷺ : «حولها ندندن»[١] يعني الجنة .

وقال : «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس . فإنه وسط الجنة وأعلىٰ الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »[٢] .

ومعلوم أن هذا[٣] مسكن خاصة الخاصة ، وسادات العارفين . فسؤالهم إياه ليس علة في عبوديتهم ، ولا قدحا[٤] فيها .

وقد استوفينا ذكر هذا الموضع في (كتاب سفر الهجرتين) عند الكلام علىٰ علل المقامات[٥] .

ويحتمل أن يريد الشيخ - رحمه الله - بقطع المعاوضات : أن تشهد[٦] أن الله ما أعطاك شيئا معاوضة ؛ بل إنما أعطاك تفضّلا وإحساناً ، لا لعوض يرجوه منك،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٧٤ ، وأبو داود ١/ ٥٠١ في كتاب الصلاة ، باب (في تحقيق الصلاة) ح٧٩٢ ، وابن ماجه ١/ ٢٩٥ في كتاب الصلاة ، باب (ما يقال في التشهد والصلاة علىٰ النبي ﷺ) ح٩١٠ ، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٣٥٨-٣٥٩ ، وصححه الألباني . انظر : صحيح سنن أبي داود ١/ ١٥٠ .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ٦/ ١١ في كتاب الجهاد ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ح٢٧٩٠ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٣٥ .

(٣) في م : وهذه .

(٤) في ق : قادحاً .

(٥) انظر : طريق الهجرتين ٤١٧ وما بعدها .

(٦) في ق : يشهد .

كما يكون من[١] عطاء العبد للعبد؛ لكن[٢] وإنما نتكلم فيما من العبد، مما يؤمر بالتجريد[٣] عنه، كتجرده عن التفرقة والمعاوضة. وهو[٤] أَلْيَقُ المعنيين بكلامه. والله أعلم.

* * *

(١) «من» ساقط من ط.

(٢) «لكن» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش، ق.

(٣) في ط: بالتجرد.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: وهذا.

فصل

منزلة السماع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «السماع»[1] .

وهو اسم مصدر كالنبات . وقد أمر الله به في كتابه ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أن البشرىٰ لهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ [المائده : ١٠٨] وقال : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء : ٤٦] ، وقال : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر : ١٧-١٨]، وقال : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، وقال : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائده : ٨٣] .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً علىٰ علم الخير فيهم ، وعدم ذلك التسليم علىٰ عدم الخير فيهم . فقال : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ

---

(١) السماع عند الصوفية : حقيقة الانتباه لكل بحسب نصيبه، فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلىٰ وطنه.

أي ينتبه كل أحد منه إلىٰ المقصود الخاص ، وسماع العامة : تنبيههم علىٰ امتثال الأوامر .

وسماع الخاصة : شهودهم الحق تعالىٰ في كل مسموع ومصور؛ لأنهم لايسمعون إلا بالحق ، وفي الحق ، وللحق ، ومن الحق .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٧ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٣٣ ، ١٣٤ .

أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

وأخبر عن أعدائه : أنهم هجروا السماع ونهوا عنه . فقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] .

فالسماع رسول الإيمان إلىٰ القلب ، وداعيه ومعلمه . وكم في القرآن من قوله : ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

فالسماع أصل العقل ، وأساس الإيمان الذي انبنىٰ عليه ، وهو رائده وجليسه ووزيره . ولكن الشأن كل الشأن في المسموع ، وفيه وقع خبط(١) الناس واختلافهم ، وغلط من غلط منهم(٢) .

وحقيقة «السماع » تنبيه القلب علىٰ معاني المسموع ، وتحريكه عنها طلباً وهرباً وحبّاً وبغُضاً ، فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلىٰ وطنه ومألفه .

وأصحاب السماع ، منهم من يسمع بطبعه ونفسه وهواه ، فهذا حظّه من مسموعه ، ما وافق طبعَه .

ومنهم : من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله ، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم : من يسمع بالله ، لا يسمع بغيره . كما في الحديث الإلهي الصحيح:

---

(١) الخبط : السير علىٰ غير هدىٰ . انظر : لسان العرب ٤/ ١٦ ، مادة : خبط .

(٢) في ط ، ق : وغلط فهم من غلط .

«فبي يسمع . وبي يبصر»[1] وهذا أعلىٰ سماعاً ، وأصح من كل أحد .

والكلام في «السماع» - مدحاً وذماً - يحتاج [2][3] إلىٰ معرفة صورة المسموع ، وحقيقته وسببه ، والباعث عليه ، وثمرته وغايته . فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار ، والحق والباطل . والممدوح والمذموم .

فأما «المسموع» فعلىٰ ثلاثة أضرب :

أحدها[4] : مسموع يحبه الله ويرضاه ، وأمر به عباده ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، ورضي عنهم به . أنواع السماع

الثاني : مسموع يبغضه الله[5] ويكرهه ، ونهىٰ عنه ، ومدح المعرضين عنه .

الثالث : مسموع مباح مأذون فيه ، لا يحبه ولا يبغضه ، ولا مدح صاحبه ولا ذمه ، فحكمه حكم سائر المباحات ، من المناظر ، والمشام ، والمطعومات ، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال علىٰ الله ما لا يعلم، وحرم ما أحل الله . ومن جعله ديناً وقربة يتقرب به إلىٰ الله، فقد كذب علىٰ الله،

---

(١) سبق تخريجه ص ١١٩٨ .

(٢) في غ : لا يحتاج .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : فيه .

(٤) في ط : أحدهما .

(٥) «الله» سقطت من الأصل والجميع سوىٰ ش ، ح٢ ، م .

وشرع ديناً لم (١) يأذن به الله . وضاهىٰ بذلك المشركين .

فصل

السماع الذي مدحه الله في كتابه

فأما النوع الأول : فهو السماع الذي مدحه(٢) في كتابه ، وأمر به وأثنىٰ علىٰ أصحابه(٣) ، وذم المعرضين عنه ولعنهم ، وجعلهم أضل من الأنعام (٤) ، وهم القائلون في النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها علىٰ رسوله ﷺ ، فهذا السماع أساس الإيمان الذي(٥) عليه بناؤه. وهو علىٰ ثلاثة أنواع: سماع إدراك بحاسة الأذن، وسماع فهم وعقل ، وسماع(٦) إجابة وقبول ، والثلاثة في القرآن .

أنواع السماع الممدوح

فأما سماع الإدراك : ففي قوله تعالىٰ حكاية عن مُؤْمِنيّ الجنّ قولهم : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢] وقولهم(٧): ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان

---

(١) «لم» ساقطة من : ق .

(٢) في ط ، م ، ح٢ زيادة : الله .

(٣) في أ : أهله .

(٤) في ط زيادة سبيلا .

(٥) في ط زيادة : يقوم .

(٦) في ط : وسماع فهم وإجابة

(٧) في ط ، ح١ ، ح٢ ، غ ، م ، أ : قوله .

والإجابة .

وأما سماع الفهم : فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة ، بقوله تعالىٰ : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر :٢٢](١) .

فالتخصيص هاهنا لإسماع الفهم والعقل ، وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة ، لا تخصيص فيه . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمَهُمْ ، وإلا فَهُم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو أفهمَهُمْ لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموه(٢)؛ لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع(٣) القبول والإجابة : ففي قوله تعالىٰ حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور :٥١] ، فإن هذا سماع قبول وإجابة ، مثمر للطاعة .

والتحقيق : أنه متضمن للأنواع الثلاثة ، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه وأجابوا(٤) له .

(١) آخر الآية ساقط من الجميع سوىٰ ش ، ط .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : فهموا .

(٣) في الجميع سوىٰ ش ، ط : سمع .

(٤) ط : واستجابوا .

ومن سمع القبول : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبه : ٤٧] [١] ، أي : قابلون منهم مستجيبون لهم . هذا أصح القولين في الآية [٢] .

وأما قول من قال : عيون لهم وجواسيس ، فضعيف . فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج ، بأن خروجهم يوجب الخَبَال والفساد ، والسعي بين العسكر بالفتنة ، وفي العسكر من يقبل منهم ، ويستجيب لهم . فكان في إقعادهم عنهم لطفاً بهم ورحمة ، حتىٰ لا يقعوا في عنت القبول من منهم .

أما اشتمال العسكر علىٰ جواسيس وعيون لهم ، فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد ، ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم . وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسْعَوا بالفساد في العسكر ، ويبغوهم [٣] الفتنة ، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم ، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضاً فإن الجواسيس إنما تسمىٰ «عيوناً» ، هذا المعروف في الاستعمال لا تسمىٰ سماعين .

وأيضاً فإن هذا نظير قوله تعالىٰ في إخوانهم من [٤] اليهود : ﴿سَمَّٰعُونَ

---

(١) أول الآية ساقط من ط والجميع سوىٰ ش .

(٢) هذا القول هو الذي رجحه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٠٦ ، وانظر أقوال المفسرين لهذه الآية في تفسير الطبري ٦/ ٣٨٤ .

(٣) في ط : ولئلا يبغوهم .

(٤) «من» ساقطة من ط .

لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائده : ٤٢] أي : قابلون له .

والمقصود : أن سماع خاصة الخاصة المقربين ، هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة : إدراكاً ، وفهماً ، وتدبراً ، وإجابة . وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم ، وأمر به أولياءه ، فهو هذا السماع .

وهو سماع الآيات [لا سماع الأبيات](١) وسماع القرآن، لا سماع(٢) الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء ، لا سماع قصائد الشعراء . وسماع المراشد ، لا سماع القصائد . وسماع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين(٣) ، لا سماع المغنين والمطربين .

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب إلىٰ جوار علام الغيوب ، وسائق يسوق الأرواح إلىٰ ديار الأفراح ، ومحرك يثير ساكن العزمات إلىٰ أعلىٰ المقامات وأرفع الدرجات ، ومناد ينادي للإيمان ، ودليل يدل(٤) الركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح ، من قبل فالق الإصباح «حي علىٰ الفلاح ، حي علىٰ الفلاح» .

فلن(٥) تعدم من(٦) هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة ،

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وما أثبته من ط والجميع والسياق يقتضيه .

(٢) في ط زيادة : مزامير .

(٣)«المؤمنين» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ط : يسير بالركب .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : فلم يعدم .

(٦) في ط زيادة : اختار .

وفكرةً في آية ، ودلالةً علىٰ رشد ، وردًّا عن[1] ضلالة ، وإرشاداً من غيّ ، وبصيرة من عمىٰ، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة ، وهدايةً إلىٰ نور ، وإخراجاً من ظلمة ، وزجراً عن هوىٰ ، وحثاً علىٰ تُقىٰ ، وجلاءً لبصيرة ، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً ، وعصمة ونجاةً، وكشفَ شبهة، وإيضاحَ برهان ، وتحقيقَ حق ، وإبطالَ باطل .

ونحن نرضىٰ بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد ، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدىٰ وشفاء ونوراً[2] وحياة هل وجدوا ذلك - أو شيئاً منه - في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن[3] ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل علىٰ تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان[4] ، ومحب العلم والعرفان ، ومحب الأموال والأثمان ، ومحب النِّسْوان ، ومحبّ[5] المردان ، ومحبّ الصلبان . فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب إلىٰ شيء[6] ساكنه، ويزعج قاطنه[7] . فيثور وجْدُه، ويبدو شوقُهُ[8] ،

---

(١) في ط ، أ ، ح١ ، غ ، ب : علىٰ .

(٢) «ونوراً» ساقطة من ش .

(٣) في الأصل والجميع سوىٰ ح٢ ، م ، ط : الشاهد ، وما أثبته منهما وهو الأقرب إلىٰ سياق الكلام؛ لأن الشادن هو المغني .

(٤) «ومحب الإخوان» ساقطة من ش .

(٥) «محب» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٦) في ط : لشيء .

(٧) القاطن : المقيم بالمكان . انظر: لسان العرب ١١/ ٢٣١ مادة : قطن .

(٨) الشوق : هو هيجان القلب عند ذكر المحبوب ، والفرق بين الشوق والاشتياق أن الشوق

فيتحرك علىٰ حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان . ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً في السماع ، وحالاً ووجداً وبكاء .

ويا لله العجب! أي إيمان ونور ، وبصيرة وهدىٰ ، ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات ، لعل أكثرها قيلت فيما يهوىٰ من محرم[1] يبغضه الله ورسوله ، ويعاقب عليه ، من تغزل[2][3] وتشبّب[4] بمن لا يحل له من ذكر أو أنثىٰ؟ فإن غالب التغزُّل والتّشبيب : إنما هو في الصور[5] المحرمة .

ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فىٰ امرأته ، وأمته وأمِّ أولاده[6] ، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة[7] في جلد الثور[8] ، فكيف يقع لمن له أدنىٰ بصيرة

يسكن باللقاء ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، بل يزيد ويتضاعف .

انظر : معجم مصطلحات الصوفية ١٣٧ ، والتعريفات ١٤٦ .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : فيما هو .

(٢) في ط : من غزل وتشبيب .

(٣) الغَزَلُ : حديث الفتيان والفتيات ، وقيل: اللهو من النساء ، وفي المثل : وهو أغزل من امرئ القيس . انظر : لسان العرب ١٠/ ٦٥ مادة : غزل .

(٤) التشبيب : ترقيق الشعر بذكر النساء ، وهو من تشبيب النار ، وتشبَّبَ بالمرأة : قال فيها الغزل والنَّسيب . انظر : لسان العرب ٧/ ١٢ مادة : شبب .

(٥) في د : الصورة .

(٦) في ط : أم ولده .

(٧) في ط زيادة : البيضاء .

(٨) في ط زيادة : الأسود .

وحياة قلب ، أن يتقرب إلىٰ الله ، ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه ، بالتذاذ ما[1] هو بغيض إليه ، مقيت عنده ، يمقت قائله وقابله[2] والراضي به؟ وتترقىٰ به الحال حتىٰ يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع ، وسنة نبيه ﷺ .

يا لله! إن هذا القلب مخسوف به ، ممكور به منكوس ، لم يصلح[3] لحقائق القرآن وأذواق معانيه ، ومطالعة أسراره فتولاّه[4] بقرآن الشيطان ، كما في معجم الطبراني وغيره - مرفوعاً وموقوفاً - : «**إن الشيطان قال : يا رب ، اجعل لي قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال : اجعل لي كتاباً . قال : كتابك الوشم . قال : اجعل لي مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار . قال : اجعل لي بيتاً . قال : بيتك الحمام . قال : اجعل لي مصائد . قال : مصائدك النساء . قال : اجعل لي طعاماً . قال : طعامك ما لم يذكر عليه اسمي**»[5] .

---

(١) في ط : بالتذاذه بما هو .

(٢)«قابله» ساقطة من ط .

(٣) في ش : لم يتسع .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : فبلاه وفي ش : فتلاه .

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٥ عن أبي أمامة ح٧٨٣٧ . قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١١٩ رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف ، ورواه أيضاً في الكبير ١١/ ١٠٣ عن ابن عباس ح١١١٨١ . وقال الهيثمي في المجمع ١/ ١١٤ ، ورواه الطبراني في الكبير وفيه يحيىٰ بن صالح الأيلي ضعفه العقيلي . ورواه كذلك أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٧٨ وقال : هذا حديث غريب من حديث عبيد بن عمير ، وإسماعيل بن أمية تفرد به عن

. . . .

* * *

يحيىٰ بن صالح الأيلي . وذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٧ ، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٧ : إذا اجتمع في خبرٍ عبدالله وعلي بن يزيد والقاسم أبوعبدالرحمن لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملت أيديهم ، وقال محمد عفيفي محقق إغاثة اللهفان : حديث موضوع فيه عبدالله بن زمر ، وعلي بن يزيد ، والقاسم أبو عبد الرحمن .

وقال الألباني في الضعيفة ٤/ ٦٧ منكر ، أخرجه ابن الجوزي في ذم الهوىٰ من طريق الطبراني . . . وقد ثبت من الحديث قوله : «وطعامك ما لم يذكر اسم الله عليه» . وانظر: الصحيحة ٢/ ٣٣٣ ح٧٠٨ .

فصل

السماع الذي يبغضه الله ويكرهه

ما يبغضه الله[١] ويكرهه ويمدح المعرض عنه . وهو سماع كل ما يضر[٢] العبد في قلبه ودينه ، كسماع الباطل كله ، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به ، بعلمه[٣] بحسن ضده . فإن الضد يظهر حسنه[٤] الضد . كما قيل :

وإذا سمعتُ إلىٰ حديثِك زَادَني حبًّا له سمعي حديثَ سِواكا[٥]

وكسماع اللغو الذي مدح الله[٦] التاركين لسماعه ، والمعرضين عنه[٧] بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] . قال محمد بن الحنفية[٨] : هو

---

(١) اسم الجلالة «الله» سقط من الأصل والجميع سوىٰ ط ، ش ، د .

(٢) في الأصل والجميع :«ما يضره» وما أثبته من المطبوع والسياق يقتضيه .

(٣) في ط : وقصد أن يُعلم به حسن ضده .

(٤)«حسنه» ساقطة من : ب .

(٥) لم أقف علىٰ من ذكره .

(٦) اسم الجلالة «الله» ساقطة من : ط ، ح٢ ، غ ، م ، أ ، ب .

(٧) في م : له .

(٨) أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي المعروف بابن الحنفية وهو أخو الحسن والحسين لأبيهما - رضي الله عنهم - ، ونسب إلىٰ أمه خولة بنت جعفر الحنفية تميزاً له عنهما ، كان واسع العلم ، ورعاً شجاعاً ، وكان المختار الثقفي مؤسس فرقة الكيسانية ، يدعو الناس إلىٰ إمامته ، ويزعم أنه المهدي وقد تبرأ منه - رضي الله عنه - ، توفي سنة ٨١هـ . ترجمته في : السير ٤/ ١١٠ ، البداية والنهاية ٩/ ٤٠ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥٤ . وانظر : الملل والنحل ١/ ١٤٧ وما بعدها .

الغناء[1] . وقال الحسن أو غيره : أكرموا نفوسهم عن سماعه[2] .

قال ابن مسعود - رحمه الله - : «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[3] . وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته ، فإنه ما اعتاده أحد إلا ونافق[4] قلبه وهو لا يشعر . ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره[5] في قلبه ،

---

(١) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٨ ، والدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٨٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٩/ ٤٢١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٨ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً علىٰ ابن مسعود ، في ذم الملاهي ٧٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨ - ٢٧٩ ، وقال : وقد روي هذا مسنداً بإسناد غير قوي ، وفي السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٧٧ في كتاب الشهادات باب الرجل يغني فيتخذ الغناء صنعة . . . .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٢ - ٣٧٣ وهو صحيح عن ابن مسعود .

وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً ورواه أبو داود في سننه ٥/ ٢٢٣ في كتاب الأدب باب كراهية الغناء والزمر ح٤٩٢٧ ، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٧٧-٣٧٨ في كتاب الشهادات ، باب الرجل يغني فيتخذ الغناء صنعة ، ح٢١٠٠٨ ، وأبو الحسين ابن المنادي كما في إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٧٣ .

قال ابن القيم : وفي رفعه نظر . والموقوف أصح . وقال الغزالي كما في الإحياء ٢/ ٣٨٦ ، ورفعه بعضهم إلىٰ رسول الله ﷺ وهو غير صحيح .

وقال العراقي : والمرفوع غير صحيح؛ لأن في إسناده من لم يُسم انظر : المغني عن حمل الأسفار بهامش إحياء علوم الدين ٢/ ٣٨٦ ، وضعفه الألباني . انظر : الضعيفة ٥/ ٤٥٠ ضعيف .

(٤) في ط : نافق .

(٥) في ش : لا يضره .

فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء، ومحبة القرآن إلا وطردت[1] إحداهما الأخرىٰ. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن علىٰ أهل الغناء وسماعه، وتبرّمهم به، وصياحهم بالقارىٔ إذا طوّل عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه، فلا تتحرك له[2] ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب. فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات[3]، وتسكن القلوب وتطمئن[4]، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقا فهو آخية[5] النفاق وأساسه:

تُلي الكتاب فأطرقوا لا خيفةً لكنه إطراق ساهٍ لاهي

وأتىٰ الغناء فكالذّباب تراقصُوا[6] والله ما رقصوا من أجل[7] الله

دفٌّ ومزمار ونغمةُ شادنٍ[8] فمتىٰ عهدتَ[9] عبادةً بملاهي؟

---

(١) في ط: طردت.

(٢) «له» ساقطة من ط والجميع سوىٰ: ش.

(٣) في ق زيادة: به.

(٤) «وتطمئن» ساقطة من: ش.

(٥) الآخيَّة: بالمد والتشديد الأواخي وهو: عُود يُعرَض في الحائط ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة تُشدُ إليه الدابة. انظر: لسان العرب ١/ ٩٢ مادة: أخا.

(٦) في غ: فكالحمير تناهقوا.

(٧) في د، ح٢: لجل.

(٨) في الأصل والجميع سوىٰ غ، م، ح٢، شاهد. وما أثبته منهما ومن كتابه مدارج السالكين.

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش: شهدت.

ثَقُلَ الكتابُ عليهم لما رأوا ... تقييدَه بأوامر ونواهي
وعليهمُ خفَّ الغنا لما رأوا ... إطلاقَه في اللهو دون مناهي[1]
يا فرقة ما ضرَّ دينَ محمد ... وجنىٰ عليه وملَّه إلا هي[2][3]

وكيف يكون السماع الذي يسمعه العبد بطبعه وهواه، أنفع له من الذي يسمعه بالله ولله وعن الله، فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك، فهذا غاية اللبس علىٰ القوم. فإنه إنما[4] يسمع بالله ولله وعن الله ما يحبه الله[5] ويرضاه. ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته، فقد جعل الله لكل شيء قدراً،

---

(١) في ق: ملاهي.

(٢) في د، ط زيادة أبيات بعد هذه الأبيات وهي:

سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوىٰ ... زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ويحها المتناهي
وأتىٰ السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوىٰ من قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهي
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلىٰ النشوان عند شرابه ... وانظر إلىٰ النشوان عند تلاهي
وانظر إلىٰ تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
فاحكم بأي الخمرتين أحق بالـ ... تحريم والتأثيم عند الله

(٣) ذكرها ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٤٦ وفي مسألة السماع ص١٠٧-١٠٨ ولم أقف علىٰ من ذكرها ولعلها من نظم ابن القيم.

(٤) «إنما» ساقطة من: غ.

(٥) «الله» ساقطة من الجميع سوىٰ ش، ط.

ولن يجعل الله من شربه ونصيبه[١] وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات.

الرد على من أجاز السماع المحرم

ومن **أعجب العجائب**: استدلال من استدل علىٰ أن هذا السماع من طريق القوم[٢]، أو أنه[٣] مباح: بكونه مستلذا طيباً، تلذه النفوس، وتستروح إليه. وأن الطفل يسكن إلىٰ الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة، فيهون عليه بالحداء[٤]، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله علىٰ صاحبه، وزيادة فىٰ خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩][٥]، وبأن الله وصف نعيم[٦] الجنة فقال فيه[٧]: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] بأن ذلك هو السماع الطيب، فكيف يكون حراماً وهو في الجنة؟ وبأن الله تعالىٰ ما أذن لشيء[٨] كإذنه -أي كاستماعه لنبي حسن الصوت يتغنىٰ[٩] بالقرآن[١٠] وبأن أبا موسىٰ

(١) في ح٢: نهيه.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ٣٣٨، والإحياء ٢/ ٣٦٦-٣٦٧.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: وأنه.

(٤) في ح٢: الحذاء.

(٥) في ط: طبعاً.

(٦) في ط زيادة: أهل.

(٧) في ق: فيهم.

(٨) في ش: لنبي.

(٩) التغني: تحسين القراءة وترقيقها. انظر: النهاية لابن الأثير ٣/ ٣٩١.

(١٠) رواه البخاري ٩/ ٦٨ في كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن ح ٥٢٤، ومسلم

الأشعري[١] - رضي الله عنه - استمع النبي ﷺ إلىٰ صوته، وأثنىٰ عليه بحسن الصوت، وقال: «لقد أوتي هذا[٢] مزماراً من مزامير آل داود»[٣]. فقال له أبو موسىٰ: «لو أعلم[٤] أنك استمعت لحبرته[٥] لك تحبيراً»[٦]. أي زينته لك وحسنته. وبقوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[٧].

١/ ٥٤٥ في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ح٧٩٢، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٧١.

(١) هو عبدالله بن قيس بن مسلم بن حضَّار بن حرب المعروف بأبي موسىٰ الأشعري، صحابي مشهور، ولي البصرة لعمر، والكوفة لعثمان، وهو أحد المحكمين، ثم اعتزل الفتنة، كان حسن الصوت بالقرآن، توفي سنة ٥٠هـ. ترجمته في: السير ٢/ ٣٨٠، الإصابة ٢/ ٣٥١، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٦٢.

(٢) «هذا» ساقطة من: ش.

(٣) رواه البخاري ٩/ ٩٢ في كتاب فضائل القرآن باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ح٥٠٤٨، ومسلم ١/ ٥٤٦ في كتاب صلاة المسافرين باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ح٧٩٣، وأحمد في مسنده ٥/ ٣٥٩.

(٤) في ط، ح٢، غ، م، ب، ح١، أ: علمت.

(٥) التحبير: تحسين الصوت وتحزينه يقال حبرت تحبيراً إذا حسنته. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٢٧.

(٦) قول أبي موسىٰ هذا رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٨، وذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٣٩٢. وانظر فتح الباري ٩/ ٩٢.

(٧) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٨٣، وأبو داود ٢/ ١٥٥ في كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، ح١٤٦٤، والنسائي ٢/ ١٧٩ في كتاب الافتتاح باب تزيين القرآن بالصوت ح١٠١٥، وابن ماجه في كتاب الصلاة باب في حسن الصوت بالقرآن ح١٣٤٢ والدارمي

وبقوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[١] والصحيح: أنه من التغني وهو[٢] تحسين الصوت به[٣]. وبذلك فسره[٤] أحمد ـ رحمه الله ـ فقال: يحسنه بصوته ما استطاع[٥].

وبأن النبي ﷺ أقر عائشة - رضي الله عنها- علىٰ غناء القينتين يوم العيد[٦] وقال لأبي بكر: «دعهما. فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا أهل الإسلام»[٧].

في سننه ٢/ ٣٤٠ في كتاب فضائل القرآن باب التغني بالقرآن ح٣٥٠٣.
ورواه البخاري تعليقاً ١٣/ ٥١٨ في كتاب التوحيد، ورواه موصولاً في كتاب خلق أفعال العباد ص٥٩، ٥٠. قال ابن حجر في الفتح ١٣/ ٥١٩ هذا الحديث من الأحاديث التي علقها البخاري ولم يصلها في موضع من كتابه وقد أخرجه في كتاب خلق أفعال العباد من رواية عبدالرحمن بن عوسجه عن البراء.
وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٢٢٤: صحيح.

(١) رواه البخاري ١٣/ ٥٠١ في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به...﴾ الآية ح٧٥٢٧، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٢، وأبو داود ٢/ ١٥٥-١٥٦ في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في التلاوة ح١٤٦٩.

(٢) في ط زيادة: بمعنىٰ.

(٣) «به» ساقطة من ط، غ، ح٢، ح١، م، ب، أ.

(٤) في ط زيادة: الإمام.

(٥) انظر: مسائل الإمام أحمد ص٨١.

(٦) في ب: في العيد.

(٧) رواه البخاري ٢/ ٤٤٠ في كتاب العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد، ح٩٤٩، وفي باب سنة العيدين لأهل الإسلام، ح٩٥١، ومسلم ٢/ ٦٠٧ في كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد ح٨٩٢، وأحمد في مسنده ٦/ ١٣٤.

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء وسماه : لهواً [1] وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء . وأذن فيه [2] .

وكان يسمع إنشاد [3] الصحابة ، وكانوا [4] يرتجزون بين يديه في حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمداً   علىٰ الجهاد ما بقينا أبداً [5]

ودخل مكة والمرتجز يرتجز [6] بين يديه بشعر

---

(١) يشير إلىٰ ما رواه البخاري ٩/ ٢٢٥ عن عائشة - رضي الله عنها- أنها زفت امرأة إلىٰ رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ : « يا عائشة ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو » كتاب النكاح ، باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلىٰ زوجها . . . ، ح٥١٦٢ ، ورواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠٠ - ٢٠١ ، ح٢٧٤٩ .

(٢) يشير إلىٰ ما رواه البخاري ١٠/ ٥٥٢ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ في سفر ، وكان معه غلام له أسود يقال له أنجشة يحدو فقال له رسول الله ﷺ : «ويحك يا أنجشة ! رويدك بالقوارير» كتاب الأدب ، باب ماجاء في قول الرجل : ويحك ح٦١٦١ ، ورواه مسلم في كتاب الفضائل باب رحمة النبي ﷺ للنساء ح٢٣٢٣ ، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٢٧ .

(٣) في ط ، ح١ ، غ ، ب ، ق : أنساً والصحابة .

(٤) في ط : وهم .

(٥) رواه البخاري ٧/ ٣٩٢ في كتاب المغازي باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ، ح٤٠٩٩ ، ومسلم ٣/ ١٤٣١-١٤٣٢ في كتاب الجهاد باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ح١٨٠٥ ، وأحمد في مسنده ٣/ ١٧٠ .

(٦) «يرتجز» ساقطة من ح٢ .

عبد الله بن رواحة[(١)(٢)]. وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر. فجعل يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا وثبِّت الأقدامَ إن لاَقينْا
إن الأُولا[(٣)] قد بَغَوا علينا إذا أرادوا فتنةً أَبَينا
ونحن إن صِيحَ بنا أتينا[(٤)]

فدعا لقائله[(٥)].

---

(١) أبو محمد عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي صحابي جليل شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الإثني عشر، يُعد من الأمراء والشعراء الراجزين، وكان أحد الأمراء في غزوة مؤتة واستشهد فيها وكان ذلك سنة ٨هـ.
ترجمته في: حلية الأولياء ١/ ١١٨، أسد الغابة ٣/ ١٣٠، السير ١/ ٢٣٠، الإصابة ٢/ ٢٩٨

(٢) رواه الترمذي ٥/ ١٣٩ في كتاب الأدب باب ما جاء في إنشاد الشعر ح٢٨٤٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والنسائي ٥/ ٢٠٢-٢٠٣ في كتاب المناسك باب إنشاد الشعر في الحرم والسعي بين يدي الإمام ح٢٨٧٣.
قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٣٠ رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.
وقال الألباني: صحيح. انظر: مختصر الشمائل المحمدية ١٣١.

(٣) في ط: الذين.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة:

وبالصياح عوَّلو علينا ونحن عن فضلك ما استغنينا

وقد نسبت هذه الأبيات لعامر بن الأكوع في (منح المدح) أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أو رثاه لابن سيد الناس، ٢١٠، وقد وردت في ديوان عبدالله بن رواحة ١٣٩.

(٥) رواه البخاري باختلاف يسير ٧/ ٤٦٣ في كتاب المغازي باب غزوة خيبر ح٤١٩٦، ومسلم ٣/ ١٤٢٧-١٤٢٨ في كتاب الجهاد والسير باب غزوة خيبر ح١٨٠٢، وأحمد في مسنده ٤/ ٤٦-٤٧.

وسمع قصيدة كعب بن زهير . وأجازه بردة [١][٢] .

واستنشد الأسود [٣] بن سريع قصائد حمد بها ربه [٤] .

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت [٥] مائة قافية [٦] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : ببردة .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ١٩/ ١٧٦-١٧٩ ورواه ابن هشام في السيرة ٤/ ١٤٦ ورواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٧٠-٦٧٤ ح٦٤٧٧-٦٤٧٩ وقال : حديث محمد بن فليح عن موسىٰ ابن عقبة وحديث الحجاج بن ذي الرقيبة فإنهما صحيحان . وقال الذهبي في التلخيص : قال الحاكم هذا وحديث ابن ذي الرقيبة صحيحان. انظر : التلخيص بهامش المستدرك ٣/ ٦٧٣. وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٣٩٤ رواه الطبراني ورجاله إلىٰ ابن إسحاق ثقات .

(٣) الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة التميمي السعدي ، الشاعر المشهور ، غزا مع النبي ﷺ أربع غزوات تو في سنة ٤٢هـ وقيل : لما قُتل عثمان ركب الأسود سفينة وحمل معه أهله وعياله فانطلق فما رؤي بعد . ترجمته في : أسد الغابة ١/ ١٠٣ ، الإصابة ١/ ٥٩ .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٨٩ ح٨٦٢ ، وأحمد في مسنده ٣/ ٤٣٥ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٦ ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٧١٢ ح٦٥٧٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني . انظر : صحيح الأدب المفرد ٣٢٠ .

(٥) أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ، شاعر جاهلي ، عاش في الطائف ، ثم عاش في أقصىٰ اليمن ، قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله تعالىٰ ، ورغب عن عبادة الأصنام ، وكان يخبر بأن نبياً سيبعث وقد أظل زمانه ، وكان يؤمل أن يكون ذلك النبي ، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً له ، مات سنة ٥هـ .

ترجمته في : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٠٠ ، الأغاني ٤/ ١٢٠ ، الأعلام ٢/ ٢٣ .

(٦) رواه مسلم ٤/ ١٧٦٧ في كتاب الشعر ح٢٢٥٥ ، والبخاري في الأدب المفرد ص٢٦٩ ح٨٠١ .

وأنشده الأعشى[1] شيئاً من شعره فسمعه[2].

وصدّق لبيداً[3] في قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل[4].

ودعا لحسان[5] «أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافح عنه»[6] وكان يعجبه[7]

---

(١) هو عبدالله بن الأعور المازني الأعشىٰ، أتىٰ النبي ﷺ فأنشده من شعره وفيه: «وهن شر غالب لمن غلب. فجعل النبي ﷺ يقول: وهن شر غالب لمن غلب» قيل إنه عاش إلىٰ خلافة بني مروان. ترجمته في: أسد الغابة ١/ ١٢٢، الإصابة ٢/ ٢٦٧

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٠٢، وابن الأثير في أسد الغابة ١/ ١٢٢. قال الهيثمي في المجمع ٤/ ٣٣٢ رواه عبدالله بن أحمد ورجاله ثقات.

(٣) أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك العامري أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية، من أهل عالية نجد، وهو أحد أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام وأسلم، ويقال إنه ما قال في الإسلام إلا بيتاً واحداً، توفي سنة ٤١هـ -رضي الله عنه-.

ترجمته في: الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٦٧، الإصابة ٣/ ٣٠٧، الأعلام ٥/ ٢٤٠.

(٤) رواه البخاري ١٠/ ٥٣٧ في كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر، ح٦١٤٧. ومسلم ٤/ ١٧٦٨ في كتاب الشعر ح٢٢٥٦، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٤٨.

(٥) أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي الصحابي المشهور، أحد المخضرمين، شاعر النبي ﷺ، فقد كان ينافح عنه بشعره، توفي - رضي الله عنه - سنة ٥٤هـ. ترجمته في: التاريخ الكبير ٣/ ٢٩، أسد الغابة ١/ ٤٨٢، الإصابة ١/ ٣٢٥.

(٦) رواه البخاري ٦/ ٣٠٤ في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ح٣٢١٢، ومسلم ٤/ ١٩٣٢-١٩٣٣ في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت ح٢٤٨٥، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٢٢.

(٧) في أ زيادة: من.

شعره . وقال له : «اهجهم . وروح القدس معك» [١] .

وأنشدته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قول أبي كبير الهذلي [٢] :

ومبرأ من كل [٣] غُبّر [٤] حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلىٰ أسرَّةِ وجهه ... برقَتْ كبرق العارض المتهلّل [٥]

وقالت : «أنت أحق بهذا البيت» فُسِّر بقولها [٦] .

وبأن ابن عمر ﷺ رخص فيه ، وعبدالله بن جعفر [٧][٨] وأهل المدينة . وبأن

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٣٠٤ في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ح٣٢١٣ بلفظ : «وجبريل معك» . ومسلم ٤/ ١٩٣٣ في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان ح٢٤٨٦ ، وأحمد في مسنده ٤/ ٢٩٩ .

(٢) هو عامر بن الحليس الهذلي من بني سهل بن هذيل ، شاعر فحل من شعراء الجاهلية أدرك الإسلام وأسلم ، وطلب من النبي ﷺ أن يحل له الزنا ، فقال له النبي ﷺ : « أتحب أن يؤتىٰ إليك مثل ذلك؟» قال : لا . قال : « فارض لأخيك ما ترض لنفسك » قال : « فادع الله أن يذهب عني ذلك » . ترجمته في : الشعر والشعراء ٤٤٦ ، أسد الغابة ٥/ ٢٦٢ ، الإصابة ، ٤/ ١٦٥ .

(٣) غُبَّرُ : كُل شيء بقيته وآخره ، وقد غلب ذلك علىٰ بقية اللبن في الضرع وبقية دم الحيض . انظر : لسان العرب ١٠/ ٧ مادة : غبر .

(٤) في غ ، أ ، ب ، ح١ : عيب محيضة .

(٥) انظر : ديوانه ص٩٣-٩٤ .

(٦) انظر : حلية الأولياء ٢/ ٤٦ ، وتاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٣ .

(٧) أبو جعفر عبدالله بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي عداده في صغار الصحابة ، ولد بأرض الحبشة ، واستشهد أبوه يوم مؤتة فكفله النبي ﷺ ، ونشأ في حجره ، بايع النبي ﷺ وهو ابن سبع سنين ، كان من أسخىٰ الناس ، توفي رضي الله عنه سنة ٨٠هـ .
ترجمته في: التاريخ الكبير ٧/ ١٤٢، أسد الغابة ٣/ ٩٤، السير ٣/ ٤٥٦، الإصابة ٢/ ٢٨٠ .

(٨) انظر الرسالة القشيرية ٣٣٧ .

كذا وكذا وليًّا لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء[1] السادة القدوة الأعلام[2] .

وبأن الإجماع منعقد علىٰ إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمي أولىٰ بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع[3] يحدو روح السامع وقلبه إلىٰ نحو محبوبه . فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له علىٰ الحرام . وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً . وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة؛ لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها[4] .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن . والشم بالروائح الطيبة ، والفم بالطعوم الطيبة . فإذا[5] كان هذا حراماً كانت جميع هذه[6] اللذات والإدراكات محرمة .

---

(١) في الجميع سوىٰ ش ، ط : هذه .

(٢) نسب الصوفية السماع إلىٰ بعض الصحابة - رضي الله عنهم - ومنهم عبدالله بن جعفر ، وابن الزبير ، والمغيرة ، وغيرهم ممن جاء بعدهم . انظر : قوت القلوب ٣/ ٢٣٩ ، القشيرية ٣٣٧ وما بعدها ، والإحياء ٢/ ٣٦٤ وما بعدها .

(٣) في م ، ح٢ زيادة : حادٍ .

(٤) في ش : ويقر بها .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : فإن .

(٦) هذه ساقطة من غ .

فالجواب : أن هذا[١] حيدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع . وتعلق[٢] بما لا تعلق به[٣] . فإن جهة كون الشيء مستلذًّا للحاسة ملائماً لها ، لا يدل علىٰ إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه . فإن هذه اللذة تكون في[٤] الأحكام الخمسة : تكون فىٰ الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح . فكيف يستدل بها علىٰ الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل علىٰ إباحة الزنا بما يجد به[٥] فاعله[٦] من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها ذو[٧] طبع سليم . وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة علىٰ حل اللذيذ[٨] الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها ، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد[٩] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : هذه .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : فتعلق وفي ق : يتعلق .

(٣) في ط : متعلق .

(٤) في ط : فيما فيه .

(٥) في ط : يجده .

(٦) في غ : العبد .

(٧) في ط ، ب ، ح١ ، أ : من له .

(٨) في م : اللذائذ .

(٩) يشير إلىٰ قول النبي ﷺ : «ليكونن أقوام يستحلون الحِرَ والخمر والمعازف . . . » الحديث

وأجمع[1] أهل العلم علىٰ تحريم بعضها . وقال جمهورهم : بتحريم جملتها - إلا لذيذة تلذ للسمع -[2] وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل علىٰ حكمه : من إباحة ، أو تحريم؟

وأعجب من هذا : الاستدلال علىٰ الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب . وهو زيادة نعمة منه[3] لصاحبه[4] .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة في النعمة ، والله خالقها ، ومعطي حسنها؟ أفيدل ذلك علىٰ إباحة التمتع بها ، والالتذاذ بها[5] علىٰ الإطلاق[6]؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة[7]؟

وهل في ذم الله لصوت الحمار ، ما يدل علىٰ إباحة الأصوات المطربات

رواه البخاري ١٠/ ٥١ في كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، ح٥٥٩٠ ، وأبو داود ٤/ ٣١٩ في كتاب اللباس ، باب ما جاء في الخمر ح٤٠٣٩ ، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٨٢ ، ح٣٤١٧ .

(١) في ب : أجمع .

(٢) في ط ، ح٢ ، ح١ ، أ ، غ ، م ، ب : تلذ السمع .

(٣) في : ح٢ ، م : من الله .

(٤) انظر : القشيرية ٣٣٨ ، الإحياء ٢/ ٣٦٦ وما بعدها .

(٥) «بها» ساقطة من : ح١ ، ح٢ ، د ، أ ، ب ، م ، ق .

(٦) في ط : علىٰ الإطلاق بها .

(٧) فيه إشارة إلىٰ أصحاب الشهوات البهيمية الإباحية ، فالطبيعة هي الاندفاع مع الغرائز دون الشريعة والعقل ، فهم يميلون مع شهوات النفس دون نظر في الأحكام المتعلقة بها .

بالنغمات الموزونات، والألحان اللذيذات[1]، من الصور المستحسنات، بأنواع القصائد المستحسنات[2] بالدفوف[3] والشبابات[4][5][هذا وأبيك إحدىٰ المضحكات والمعجبات][6].

وأعجب من هذا: الاستدلال علىٰ الإباحة[7] بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل علىٰ إباحة الخمر بأن في الجنة خمراً. وعلىٰ[8] حل لبس[9] الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلىٰ حل أواني الذهب والفضة والتحلي بها[10] للرجال بكون ذلك ثابتاً[11] في الجنة.

---

(١) في ب: المطربات.

(٢) في ط: المنغمات.

(٣) الدفوف: جمع دُفّ وهو آلة طرب ينقر عليها. انظر: المعجم الوسيط ٢٨٩.

(٤) الشبابات: مأخوذة من شبَّبَ في المرأة أي تغزل بها والتشبيب هو ذكر النساء في الشعر. انظر: لسان العرب ٧/ ١٢-١٣ مادة: شبب.

(٥) في ق زيادة: الهذينات.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من ط. ولعل الفقي استوحش من ذكرها عن ابن القيم لنكارتها ولا يوجد لها محل إن ثبتت إلا علىٰ ما يجري علىٰ ألسنة العرب من ألفاظ يطلقونها ولا يريدون حقيقتها كقولهم: تربت يداك فهي دعاء بالفقر ولا يريدون حقيقتها.

(٧) «علىٰ الإباحة» ساقط من: ش.

(٨) في د: أو.

(٩) في ط: لباس.

(١٠) في ط: بهما.

(١١) في ط زيادة: وجود النعيم به.

فإن قال : قد قام الدليل علىٰ تحريم هذا ، ولم يقم علىٰ تحريم السماع .

قيل : هذا الآن[1] استدلال آخر ، غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة . فعلم أن استدلالك[2] بإباحته لأهل الجنة : استدلال باطل ، لا يرضىٰ به محصل .

وأما قولك[3] : «لم يقم دليل علىٰ تحريم السماع» .

فيقال لك : أي السماعات تعني؟ وأي المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات ، منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب ، والمستحب . فعين نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً .

فإن قلت : سماع القصائد . قيل لك : أي القصائد تعني؟ ما مُدِحَ الله به[4] ، ورسوله ، وكتابه[5] ، وهُجِيَ به أعداؤه؟ ، فهذه[6] لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها . وهي التي سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه[7] ،

(١) «الآن» ساقطة من ط .

(٢) في ط : استدلالكم .

(٣) في غ ، ط : قولكم .

(٤) في ط : ما مُدح به الله . . .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ودينه .

(٦) في الأصل وش : هذا ، وما أثبته من الجميع وهو مقتضىٰ السياق .

(٧) يشير إلىٰ ما رواه أحمد في مسنده ٥/ ١٠٥ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : «كنا نجلس إلىٰ رسول الله ﷺ فكانوا يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية ورسول الله ﷺ ساكت فربما تبسم» الحديث .

وأثاب عليها[1] ، وحرض حساناً عليها[2] . وهي التي غرت أصحاب السماع الشيطاني ، فقالوا : تلك قصائد ، وسماعنا قصائد ، فنعم إذن ، والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتسبيح كلام ، والغيبة كلام[3][4] ، والقذفُ كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل علىٰ أكثر من مائة[5] مفسدة مذكورة في غير هذا الموضع[6] . وقد أشرنا فيما تقدم إلىٰ بعضها[7] .

ونظير هذا : ما غرّهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأذنه فيه وإذنه له[8] ، و محبة الله له[9] .

ورواه الترمذي ٥/ ١٤٠ في كتاب الأدب باب ما جاء في إنشاد الشعر ، ح٢٨٥٠ وقال : حديث حسن صحيح .

قال الألباني في مختصر الشمائل ١٣٢ : في إسناده شريك وهو سيء الحفظ . . لكن تابعه زهير وهو ابن معاوية عند النسائي في «السهو» فصح الحديث ولله الحمد .

(١) سبق تخريج سماع النبي ﷺ لقصيدة كعب بن زهير وأجازه بردة ص١٢٤٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٥٠ .

(٣)«كلام» ساقطة من ش .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : والدعاء كلام .

(٥)«مائة» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٦) انظر : ما ذكره في كتابه الكبير الكلام علىٰ مسألة السماع ، وكتابه إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٤-٣٧٥ .

(٧) انظر ص ١٢٤٠ .

(٨) في ط : وأذنه له وإذنه فيه . . .

(٩) سبق تخريجه ص ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ .

فنقلوا هذا الاستحسان إلىٰ صوت النسوان والمردان وغيرهم [١]، بالغناء المقرون بالمعازف والشادن [٢]، وذكر القد والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والشعر الأسود، ومحاسن الشباب، وتوريد الخدود، وذكر الوصل والصد، والتجني والهجران، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق والقلق والفراق، وما جرىٰ هذا المجرىٰ. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما. وأي نسبة [٣] سكر يوم ونحوه، إلىٰ سكرة العشق التي لايستفيق[٤] صاحبها إلا في عسكر الهالكين، سليباً حزيناً [٥]، وأسيراً قتيلاً؟

وهل تقاس سكرة الشراب إلىٰ سكرة[٦] الأرواح بالسماع؟ وهل يُظن[٧] بحكيم أن يحرم سكراً لمفسدة فيه معلومة، ويبيح سكراً مفسدته[٨] أضعاف أضعاف مفسدة الشراب؟ حاشا أحكم الحاكمين.

فإن نازعوا في سكر السماع، وتأثيره في العقول والأرواح: خرجوا عن الذوق والحس. فظهرت[٩] مكابرة القوم. فكيف يحمي الطبيب المريض عما

---

(١) في ش: وغيره.

(٢) في الأصل والجميع سوىٰ م، ح٢: الشاهد، وما أثبته منهما وهو الأقرب للسياق.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: لمفسدة.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: الدهر.

(٥) في ط، م، ح١، ح٢، غ: حربياً.

(٦) في ط: بسكره.

(٧) في م: تظن.

(٨) في غ: مفسداته.

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش: وظهرت.

يشوش عليه صحته، ويبيح له ما فيه أعظم السقم؟ والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر[1] الشراب، وسقمها بسكر السماع. وكلامنا مع واجد لا فاقد، فهو المقصود بالخطاب.

وأعجب من هذا: استدلالهم[2] علىٰ إباحة السماع - المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية - بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، في وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر - رضي الله عنه - سمىٰ ذلك: «مزمور[3] الشيطان» وأقره رسول ﷺ علىٰ هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين[4]، ولا مفسدة في إنشاده[5]. ولا استماعه، أفيدل هذا علىٰ إباحة ما يعملونه[6] ويعلمونه من السماع المشتمل علىٰ ما لا يخفىٰ؟ فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟

وأعجب من هذا كله: الاستدلال علىٰ إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ، من

---

(١) في أ: بسقم.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: استدلالكم.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: من مزامير.

(٤) سبق تخريجه ص١٢٤٦.

(٥) في ط: إنشادهما ولا استماعهما.

(٦) في ط والجميع: تعملونه وتعلمونه.

الحداء المشتمل علىٰ الحق والتوحيد(1) . وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه؟ فكم (2) هذا التعلق ببيوت(3) العنكبوت؟

وأعجب من هذا : الاستدلال علىٰ إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة . وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقره : ٢٧٥] ، وأين أصوات الطيور إلىٰ نغمات الغيد(4) الحسان، والأوتار والعَيْدان ، وأصوات أشباه النساء من المردان ، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلىٰ مواصلة كل محبوبة و محبوب؟ وأين الفتنة بهذا إلىٰ الفتنة بصوت القمرىٰ والبلبل والهزار(5) ونحوها .

بل نقول : لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة ، تستنزل به المعارف(6) ، والأذواق ، والمواجيد ، وتحرك (7) به الأحوال بمنزلة التقرب إلىٰ

---

(١) انظر ما سبق تخريجه ص ١٢٤٧ وما رواه البخاري ١٠/ ٥٥٢ في كتاب الأدب ، باب ما جاء في قول الرجل : ويلك ، ح٦١٦١ عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ في سفر وكان معه غلام له أسود يقال له : أنجشة يحدو ، فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك يا أنجشة ، رويدك بالقوارير » .

(٢) في ط زيادة : في .

(٣) في ش ، ح١ : بيت .

(٤) الغَيَد: النعومة، والغيداء : المراة المتثنية من اللين. انظر: لسان العرب ١٠/ ١٥٤ مادة: غَيد.

(٥) الهَزَارُ : طائر حسن الصوت (فارسي معرب) ويقال له : هزار دستان ، لأنه يغني ألحاناً كثيرة وهزار في الفارسية بمعنىٰ الألف .

انظر المعجم الوسيط ٩٨٤ . مادة : هَزَر .

(٦) في غ ، ق : المعازف .

(٧) في الأصل والجميع سوىٰ ط : وتحك، وما أثبته من ط والسياق يقتضيه .

الله بأصوات الطيور ، ومعاذ الله أن يكونا سواء .

* * *

ثلاث قواعد تفصل النزاع في حكم السماع

والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد . من أهم قواعد الإيمان والسلوك . فمن لم يبن عليها فبناؤه علىٰ شفا جرف هار .

القاعدة الأولى

القاعدة الأولىٰ : أن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه؟ فيحكم(١) عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه (٢) .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكماً فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد . وجعلوه محكاً للحق والباطل ، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكّموا عليهما (٣) الأذواق ، والأحوال ، والمواجيد . فعَظُم الأمر ، وتفاقم الفساد(٤) ، وطُمستْ معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان(٥) إلىٰ الله ، فصيروه إلىٰ النفوس . فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

---

(١)«فيحكم عليه» ساقط من د .

(٢) في ق : أو يتحاكم .

(٣) في الجميع : عليها وفي ط : فيها .

(٤) في ط زيادة : والشر .

(٥) في الجميع سوىٰ ش ، ط : فكان .

العجب[1] : أنهم دخلوا في أنواع من[2] الرياضات والمجاهدات والزهد ، ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها . فانتقلوا من شهوات إلىٰ شهوات أكبر منها ، ومن حظوظ إلىٰ حظوظ أعظم[3] منها[4] . وكان حالهم في الشهوات[5] التي انتقلوا عنها أكمل ، وحال أربابها خير من حال هؤلاء؛ لأنهم لم يعارضوا بها العلم ، ولا قدّموها علىٰ النصوص ، ولا جعلوها ديناً وقربة ، ولا ازدروا بها[6] العلم وأهله . والشهوات التي انتقلوا إليها جعلوها أعلاماً[7] يشمّرون إليها ، فهي قبلة قلوبهم . فهم[8] واقفون مع حظوظهم من الله ، فَانُونَ بها عن مراد الله منهم . الناس يعبدون الله ، وهم يعبدون أنفسهم ، عاتبون[9] لأهل[10] الحظوظ والشهوات ومُزْدَرون بهم[11] . وهم أعظم الناس حظوظاً ،

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : ومن العصب .

(٢)«من» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٣) في ط : أحط .

(٤) في هامش الأصل زيادة : ومن كبر إلىٰ كبر أكبر منه وهلمّ جرّا فيا غربة الإسلام .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : في شهوات نفوسهم .

(٦) في ط : من أجلها .

(٧) في ط : أعلىٰ ما يشمرون .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : حولها عاكفون .

(٩) في ط والجميع : عائبون .

(١٠) في ط : علىٰ أهل .

(١١) في ط : لهم .

وإنما زهدوا في حظٍّ إلىٰ حظٍّ[1] أعلىٰ منه ، وتركوا[2] شهوة لشهوة[3] .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره . فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد فهو حظه وشهوته ، مالاً كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو ذوقاً ، أو وجداً ، أو حالاً[4] .

ثم من قدمه علىٰ مراد الله فهو أسوأ حالاً ممن عرف أنه نقص ومحنة . وأن مراد الله أولىٰ بالتقديم منه ، فهو يتوب منه كل وقت إلىٰ الله .

ثم إنه وقع في[5] تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله . فإن الأذواق مختلفة فىٰ نفسها[6] ، كثيرة الألوان ، متباينة أعظم التباين ، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد، بحسب معتقداتهم وسلوكهم . فالقائلون بوحدة الوجود[7] لهم

---

(١) «حظ» ساقطة من : غ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : وإنما تركوا .

(٣) في ط زيادة : أحط .

(٤) في ط : أو حالاً ، أو ذوقاً ، أو وجداً .

(٥) في ط والجميع : من .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : أنفسها .

(٧) وحدة الوجود : ينسب إلىٰ هذه الكلمة فرقة تسمىٰ الاتحادية ، وقد قال عنهم ابن القيم بأنهم أكفر من اليهود والنصارىٰ ، وهي في الأصل مذهب فلسفي غارق في الوجودية المغلقة مبني علىٰ أن الله هو الطبيعة وأبرز من أشهر هذا المذهب في المسلمين هو ابن عربي الصوفي . انظر : رسالة الحجج العقلية والنقلية لشيخ الإسلام ضمن مجموع الفتاوىٰ ٢/ ٢٩٣ ، ونشأة الفلسفة الصوفية د . عرفان فتاح ٣٦٧ ، والتعريفات ٩٢ ، وشرح العقيدة النونية لأحمد بن عيسىٰ ١/ ١٤٢-١٤٣ .

ذوق وحال ووجد في معتقدهم بحسبه . والنصارىٰ(١) لهم ذوق في النصرانية ووجد(٢) بحسب رياضتهم وعقائدهم . وكل من اعتقد شيئاً وسلك(٣) سلوكاً حقاً كان أو باطلاً - فإنه إذا ارتاض وتجرّد ولزمه(٤) ، وتمكن من قلبه ، بقي(٥) له فيه حال وذوق ووجد . فبذوق من توزن الحقائق إذن ، ويعرف الحق من الباطل ؟

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدَّث المكاشف(٦)(٧) ، لا يلتفت إلىٰ ذوقه ووجده ومخاطباته في شيء من أمور

(١) النصارىٰ : جمع ، واحده نصراني ، وقيل : نصران بإسقاط الياء ، والأنثىٰ نصرانة ، سموا بذلك لقرية تسمىٰ ناصرة كان ينزلها عيسىٰ - عليه السلام - ، فنسب إليها فقيل عيسىٰ الناصري ، فلما نسب أصحابه إليه قيل : النصارىٰ . قال ابن عباس وقتادة : ونصران قرية بالشام ينسب إليها النصارىٰ ، ويقال : ناصرة ، وقيل سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضاً .
والنصارىٰ وإن كانوا أهل كتاب إلا أن جماهيرهم وفرقهم يقولون بالتثليث ، فهم لا يقرون بالتوحيد ، وهم فرق عديدة حرفوا في كتابهم فضلُّوا وأضلُّوا . انظر : تفسير الطبري ٢/ ١٤٣-١٤٥ المحقق ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ١٠٩ .

(٢) «ووجد» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : أو سلك . وفي غ : سلكه .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : لزمه .

(٥) في ط : وبقي .

(٦) يعني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي قال عنه النبي ﷺ : «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يكُ في أمتي أحد فإنه عمر» رواه البخاري ٧/ ٤٢ في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر ، ح٣٦٨٩ . والمُحدَّثُ : قيل: هو الملهم ، وقيل : الصادق الظن ، وقيل : من يجري الصواب علىٰ لسانه من غير قصد ، وقيل : المُفهَّم ، وقيل : المكلّم أي تكلمه الملائكة من غير نبوة . انظر فتح الباري ٧/ ٥٠ .

(٧) في ط زيادة : عمر - رضي الله عنه - .

الدين ، حتىٰ ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب . فإذا أخبروه[١] عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلىٰ ذوقه ، ولا إلىٰ وجده وخطابه ، بل يقول : لو لم يُسمع[٢] هذا لقضينا بغيره ويقول : «أيها الناس رجل أخطأ وامرأة أصابت»[٣] ، فهذا فِعْل الناصحِ لنفسه وللأمة رضي الله عنه ، ليس كفعل من غشَّ نفسه، والدِّينَ والأمة.

القاعدة الثانية

القاعدة الثانية : أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل[٤] من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق . هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل وجب الرجوع فيه إلىٰ الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين . وهو[٥] وحيه الذي تُتَلَقّىٰ[٦] أحكام النوازل والأحوال والواردات منه . وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكَّاه منها ، وقبله ، ورجحه ، وصححه فهو المقبول . وما أبطله ورده ـ فهو الباطل المردود . ومن لم يبن علىٰ هذا الأصل علمه وسلوكه[٧] ،

---

(١) في ب : فإن قالوا قال رسول الله .

(٢) في الجميع : نسمع هذا ، وفي ط : بهذا .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره ٥/ ٩٩ ، ورواه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٧/ ٣٨٠ في كتاب الصداق، باب لا وقت في الصداق كثر أو قل ، ح١٤٣٣٦ بلفظ «كل أحد أفقه من عمر ...». وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٣٠ من طريق أبي يعلىٰ ، وابن المنذر ، وذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣١٦ .

(٤) «فعل» ساقطة من غ ، ح١ ، أ ، ب .

(٥) في ط : وهي .

(٦) في ق ، ح١ ، ح٢ ، أ ، م : يتلقىٰ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : عمله .

فليس علىٰ شيء[١] وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

القاعدة الثالثة

القاعدة الثالثة: إذا أشكل علىٰ الناظر أو السالك[٢] حكم شيء هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلىٰ مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملاً علىٰ مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل علىٰ الشارع الأمر به أو إباحته؛ بل العلم بتحريمه من شرعه قطعيّ.

ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلىٰ ما يبغضه[٣] الله ورسوله، موصلاً إليه عن قرب[٤]، وهو رقية له ورائد وبريد. فهذا لا يشك في تحريمه أولو البصائر[٥]. فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر، لأنه[٦] يسوق النفس إلىٰ السكر الذي يسوقها إلىٰ المحرمات، ثم يبيح ما هو أعظم[٧] سوقاً للنفوس إلىٰ المحرم[٨] بكثير؟ فإن الغناء - كما قال ابن مسعود رضي الله

---

(١) في ط زيادة: من الدين.

(٢) في غ والسالك.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: يغضب.

(٤) في ش: قريب.

(٥) في غ: الأبصار.

(٦) في ش: الذي.

(٧) في ط زيادة: منه.

(٨) في ط، غ، أ، ح١: الحرام.

عنه - هو «رقية الزنا» (١) وقد شاهد(٢) الناس : أنه ما عاناه صبيٌّ إلا وفسد(٣) ، ولا امرأة إلا وبَغَتْ ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا ، والعيان من ذلك يغني عن البرهان ، ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حدو إلىٰ المعصية [والفجور ، بأن يكون علىٰ الوجه الذي ينبغي(٤) من المكان والإمكان ، والعشراء والإخوان](٥) ، وآلات المعازف ، من اليراع(٦) ، والدف ، والأوتار والعيدان . وكان القوال(٧) شادياً(٨)(٩) شجي الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان(١٠) . وكان القول في العشق والوصال ، والصد والهجران.

---

(١) لم أقف علىٰ نسبته إلى ابن مسعود وإنما هو منسوب إلىٰ الفضيل بن عياض - رحمه الله - . انظر : الإحياء ٢/ ٣٨٦ ، وإغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٦٩ فقد قال : «وأما تسميته رقية الزنىٰ ، فهو اسم لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه . فليس في رقىٰ الزنىٰ أنجع منه ، وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض» ثم ذكر رواية ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض .

(٢) في ب : شاهدناه .

(٣) في م ، ح٢ ، ح١ : إلا فسد .

(٤) في ط زيادة : لأهله .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من : أ .

(٦) اليراع : القصب ، واحدته يراعة ، وهي القصبة التي يزمر فيها الراعي . انظر : المعجم الوسيط ص١٠٦٣ مادة : يرع .

(٧) في ، م ، ح١ : القول .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : شادناً ، وفي ش ، ق : شاذياً .

(٩) الشادي : هو المُغنِّي . انظر : المعجم الوسيط ٤٧٦ مادة : شدا .

(١٠) في غ : والنسوان .

ودارتْ كـؤوسُ الهـوىٰ بيـنهم ... فلسْتَ تـرىٰ فـيهمُ صاحيـا
فكـلٌّ عـلىٰ قـدر مـشروبـه ... وكـلٌّ أجاب الهـوىٰ الـداعيا
فمالـوا سُـكارىٰ ولا سـكر مـن ... تنـاول أم الهـوىٰ خاليـا
وجـارٍ عـلىٰ القـوم ساقِيهـمُ ... ولم يؤثـروا غـيرَه ساقيـا
فمـزَّقَ منهـمْ قلوبـاً غـدت ... لباسـا عليـه يُـرىٰ ضافيـا[1]
فلـم يـستفيقـوا إلىٰ أن أتـىٰ ... إلـيهم منـادي اللِّقـا داعيـا
أجيبـوا فكـلُّ امـرئ منكـمُ ... عـلىٰ حالـه ربَّـه لاقيـا
هنـالك تَعْلـمُ مـن حمـأَةٍ ... شربـت مـع القـوم أم صـافيا
وتـالله[2] لا بـدَّ قبـل اللقـا ... سـتعلمُ[3] ذا إن تـك[4] واعيـا
ولا بـدَّ[5] تـصحو فـإمَّا هنـا ... وإمـا هنـاك فكُـنْ راضيـا[6]

* * *

(١) في ح٢ ، ح١ ، م ، ب ، أ : ضاحياً .

(٢) في ط ، ق : وبالله .

(٣) في الأصل والجميع سوىٰ ط : تعلم .

(٤) في الأصل والجميع سوىٰ ط : تكن وما أثبته منه .

(٥) في الأصل والجميع : لا بد .

(٦) لم أقف لها علىٰ قائل ولعلها من نظم ابن القيم .

فصل

الرد على من أجاز السماع بالمحاكمة إلى الذوق الصحيح

وإذا[1] لم يكن بد من المحاكمة إلىٰ الذوق ، فهلم نحاكمك إلىٰ ذوق لا ننكره نحن ولا أنت ، غير هذه الأذواق التي ذكرناها .

فالقلب تعرض[2] له حالتان : حالة[3] حزن وأسف علىٰ مفقود ، وحالة فرح وطرب[4] بموجود . وله بمقتضىٰ هاتين[5] الحالتين عبوديتان .

فله[6] بمقتضىٰ الحالة الأولىٰ : عبودية الرضاء ، وهي للسابقين ، والصبر ، وهي لأصحاب اليمين .

وله بمقتضىٰ الحالة الثانية : عبودية الشكر . والشاكرون فيها أيضا نوعان : سابقون ، وأصحاب يمين ، فاقتطعته النفس والشيطان عن[7] هاتين العبوديتين بصوتين أحمقين فاجرين[8] ، هما للشيطان لا للرحمن : صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب ، وصوت اللهو والمزمار والغناء عند

(١) في ح٢ ، م : وإن لم .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : يعرض .

(٣)«حالة» ساقطة من م .

(٤) في ط : رضىٰ .

(٥) في ش ، ب ، ح١ ، أ : هاذين .

(٦) في ط : وله .

(٧) في غ : عند .

(٨)«فاجرين» ساقطة من : ش .

الفرح وحصول المطلوب ، فعوضه الشيطان بهذين[١] الصوتين عن تلك[٢] العبوديتين .

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ بعينه في حديث أنس رضي الله عنه : «**إنما نهيت عن صوتين أحمقين ، فاجرين : صوت ويلٍ عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة**»[٣] .

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة ، وسَرتْ فيها تلك الرقائق حتىٰ تعبَّدَ بها من قلَّ نصيبُه من النور النبوي ، وقل شربه[٤] من العين المحمدية ، وانضاف ذلك إلىٰ صدق وطلب ، وإرادة مضادَّة[٥] لأهل شهوات[٦] الغيِّ ، وأهل البطالة . ورأوا قساوة قلوب المنكرين

---

(١) في ش : هاتين .

(٢) في ط : تينك .

(٣) لم أجد هذا اللفظ عن أنس وإنما هو بلفظ : «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة ، مزمار عند نعمة ، ورنة عند مصيبة» ذكره المنذري في الترغيب ٤/ ٣٥٠ . وقال : رواه البزار ورواته ثقات ، وذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ١٣ وقال : رواه البزار ورواته ثقات ، وصححه الألباني . انظر : الصحيحة ١/ ١٧٠ صحيح ، ح١٤٨ ، ورواه الترمذي في سننه ٣/ ١٣٩ بلفظ قريب مما ذكر ابن القيم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ ، في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في الرخصة في البكاء علىٰ الميت ، ح١٠٠٥ ، وقال : حديث حسن .

(٤) في ط ، أ ، ح١ ، غ ، ح٢ ، ب ، م : مشربه .

(٥) في د ومضاده .

(٦) في ط : لشهوات أهل البغي .

لطريقتهم[1] ، وكثافة حجبهم وغلظة طباعهم ، وثقل أرواحهم . وصادف ذلك تحريكاً لسواكنهم ، وإيقاداً[2] للواعج الحب ، وإزعاجاً للنفوس إلىٰ أوطانها الأولىٰ ومعاهدها التي سبيت منها . والنفوس الطالبة المرتاضة السائرة، لا بد لها من محرك يحركها، وحادٍ يحدوها . وليس لها من حادي القرآن عوض عن حادي السماع .

فتركب من هذه الأمور : إيثار منهم للسماع ، ومحبة صادقة له . تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم . إذ هو مثير عزماتهم ، ومحرك سواكنهم، ومزعج بواطنهم .

فدواء مثل صاحب[3] هذه[4] الحال : أن ينقل بالتدريج إلىٰ سماع القرآن بالأصوات الطيبة ، مع الإمعان في تفهم معانيه ، وتدبر خطابه قليلاً قليلاً ، إلىٰ أن يخلع[5][6] قلبهُ محبة[7] سماع الأبيات ، ويلبس محبة سماع الآيات . ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه ، فحينئذ يعلم هو من نفسه ، أنه لم يكن علىٰ

(١) في د : لطريقهم .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش وانقياداً .

(٣) في ط : صاحب مثل .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : هذا .

(٥) في ط : ينخلع .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : من .

(٧) «محبة» ساقطة من ط ، ح١ ، أ وفي ق : محبته .

شيء، ويتمثل[1] حينئذ بقول القائل :

وكنتُ أرىٰ أن قدْ تناهىٰ بيَ الهوىٰ إلىٰ غايةٍ ما فوقها ليَ مطْلبُ
فلما تلاقينا وعاينتُ حُسنَها تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعبُ[2]

ومنافاة النوح للصبر ، والغناء والمعازف[3] للشكر : أمر معلوم بالضرورة[4] من الدين[5] ، لا يمتري فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان . فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله ، لا بالصوت الأحمق الفاجر ، الذي هو للشيطان[6] . وكذلك النوح ضد[7] الصبر ، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في النائحة - وقد ضربها حتىٰ بدا شعرها - وقال : «لا حرمة لها . إنها تأمر بالجزع ، وقد نهىٰ الله عنه . وتنهىٰ عن الصبر ، وقد أمر الله به ، وتفتن الحي وتؤذي الميت ، وتبيع عَبْرتَها . وتبكي بشَجْوِ[8]

---

(١) في ب : وتمثلت نفسه .

(٢) قال محمد بن أبي سليمان داود الظاهري ولبعض أهل هذا العصر :

وكنت أرىٰ أن قد تناهىٰ بي الهوى إلىٰ غاية ما بعدها لي مذهب
فلما تفرقنا تذكرت ما مضىٰ فأيقنت أني إنما كنت ألعب

انظر : كتاب الزهرة ٢٧٤ .

(٣) «والمعازف» ساقطة من ط ، ح١ ، أ ، ب .

(٤) في ش : من الضرورة .

(٥) «من الدين» ساقط من أ .

(٦) في ش ، غ : الشيطان .

(٧) في غ : عند .

(٨) في ط : شجو . والشجو : الهم والحزن . انظر : المعجم الوسيط ٧٤٧ مادة : شجىٰ .

غيرِها»(١) .

ومعلوم عند الخاصة والعامة : أن فتنة سماع الغناء والمعازف ، أعظم من فتنة النوح بكثير . والذي شاهدناه - نحن وغيرنا - وعرفناه بالتجارب : أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم ، واشتغلوا بها ، إلا سُلط(٢) عليهم العدو ، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء . والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان .

ولا تستطل كلامنا في هذه المنزلة ، فإن لها عند القوم شأناً عظيماً .

الرد على من قال : إنكار السماع إنكار على أولياء الله

وأما قولهم : «من أنكر علىٰ أهله ، فقد أنكر علىٰ كذا وكذا ولي(٣)»(٤) فحجة عامية . نعم [إذا](٥) أنكر أولياء الله علىٰ أولياء الله كان ماذا؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً ، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدراً ، وأقرب بالقرون(٦) المفضلة عهداً وليس من شرط ولي الله العصمة . وقد تقاتل

---

(١) روىٰ صدر هذا الأثر عبدالرزاق في مصنفه ٣/ ٥٥٧ رقم ٦٦٨٢ ، وانظر : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : سلط الله .

(٣) في ط والجميع زيادة : لله .

(٤) انظر : قوت القلوب ٣/ ٢٣٨ حيث قال بعد تقسيم السماع : وإنما ذكرنا هذا لأنه كان طريقاً لبعض المحبين ، وحالاً لبعض المشتاقين ، فإن أنكرناه مجملاً فقد أنكرنا علىٰ تسعين صديقاً من خيار الأمة .

(٥) «إذا» ساقطة من الأصل وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه .

(٦) في ح٢ : إلىٰ القرون ، وفي م : القرون .

أولياء الله في صفين[1] بالسيوف ولما سار بعضهم إلىٰ بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلىٰ أهل الجنة . وكون ولي الله يرتكب المحظور[2] والمكروه متأولاً أو عاصياً لا يمنع ذلك[3] الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله تعالىٰ ، وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين[4] حضر هذا السماع المحدث[5][6] ، المشتمل علىٰ هذه الهيئة التي تفتن القلوب ، أعظم من فتنة المشروب ، حاشا[7] أولياء الله من ذلك[8] وإنما السماع الذي اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم في مكان خال من الأغيار[9] يذكرون الله ، ويتلون[10]

---

(١) صفين : موضع بقرب الرّقّة علىٰ شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس . انظر : معجم البلدان ٣/ ٤٧١ . ووقعة صفين كانت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – وكان ذلك سنة ٣٧هـ . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٦٨ .

(٢) في الجميع سوىٰ ش ط : المحذور .

(٣) في ط زيادة : من .

(٤) في ش زيادة : مَن .

(٥) في ق : المحذور .

(٦) في ط زيادة : المبتدع .

(٧) في ط : وحاشا .

(٨) قال القشيري ـ رحمه الله ـ :«وليس كلامنا في هذا النوع من السماع ، فإن هذه الطائفة جلّت رتبتهم عن أن يستمتعوا بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغو ، أو يستمعوا علىٰ صفة غير كفء» انظر : القشيرية ٣٣٧ .

(٩) في ق : الأعيان .

(١٠) في ب : ويقرؤون .

شيئاً من القرآن[1] . ثم يقوم بينهم قوَّال ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة في الدنيا ، المرغبة في لقاء الله تعالىٰ و محبته ، وخوفه ورجائه ، والدار الآخرة ، وينبههم[2] علىٰ بعض أحوالهم من غَدْرة[3] ، أو غفلة ، أو بُعْد أو انقطاع[4] ، أو تأسف علىٰ فائت ، أو تدارك[5] لفارط ، أو وفاء بعهد ، أو تصديق بوعد ، أو ذكر قلق وشوق ، أو خوف فرقة ، أو صدّ ، وما جرىٰ هذا المجرىٰ .

فهذا السماع الذي اختلف فيه القوم . لا سماع المكاء والتصدية ، والمعازف والخماريات[6] ، وعشق الصور من المردان والنسوان ، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها . فهذا لو سئل عنه من سئل من أولي العقول لقضىٰ بتحريمه ، وعلم أن الشرع لا يأتي بإباحته ، وأنه ليس علىٰ الناس أضرُّ منه، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه[7] .

* * *

---

(١)«من القرآن» ساقط من ش .

(٢) في ش : وينبئهم .

(٣) في ط : يقظة .

(٤) في ح١ : وانقطاع .

(٥) في م ، ح٢ ، أ : وتدارك .

(٦) في ط ، ح٢ : الخمريات .

(٧)«منه» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من باقي النسخ وبه تمام الكلام .

فصل

قال صاحب المنازل :

سماع العامة «السَّمَاعُ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ : سَمَاعُ العَامَّةِ وَهُوَ ثَلاَثَةُ أَشيَاءَ : إِجَابَةُ زَجرِ الوَعِيدِ رَغْبَةً[1] ، وَإِجَابَةُ دَعوَةِ الوَعدِ جهداً ، وبُلُوغُ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ استِبصَاراً»[2] .

الوعيد : يكون علىٰ ترك المأمور وفعل المحظور ، فإجابة[3] داعيه : هو العمل بالطاعة .

وقوله : «رَغبَةً» يعني امتثالاً لكون[4] الله عز وجل أمر ونهىٰ وأوعد .

وحقيقة الرغبة[5] : الخوف والرجاء . فيفعل ما أمر به علىٰ نور الإيمان ، راجياً للثواب . ويترك ما نهىٰ عنه علىٰ نور الإيمان ، خائفاً من العقاب .

وفي الرغبة فائدة أخرىٰ ، وهي أن فعله يكون فعل راغب مختار ، لا فعل كاره[6] ، كأنما يساق إلىٰ الموت وهو ينظر[7] .

---

(١) في المنازل : رعة. والرِّعَةُ: التحرج والتوقي عن المحارم . انظر المعجم الوسيط ص١٠٢٥ . مادة ورع . وابن القيم -رحمه الله- أثبت رغبة وشرحها ، والرَّغبُ عن الشيء : تركه تعمداً والزهد فيه . انظر : المعجم الوسيط ٣٥٦ مادة : رَغِبَ .

(٢) انظر : المنازل ١٨ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وإجابة .

(٤) في غ : بكون .

(٥) في ط : الرجاء .

(٦)«كاره» ساقطة من أ .

(٧)«وهو ينظر» ساقط من ق .

وأما إجابة الوعد جهداً : فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلىٰ الموعود به ، باذلاً جهده في ذلك ، مستفرغاً فيه قواه .

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً : فهو تنبه[1] السامع في سماعه إلىٰ أن جميع ما وصله من خير فِمنْ منَّة الله عليه[2] ، وتفضّلِه[3] عليه ، من غير استحقاق منْه ، ولا بذل[4] عوض استوجب به ذلك . كما قال تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه[5] من الدنيا ، أو ما لحقه منها من ضرٍّ[6] وأذىٰ ، فهو منَّةٌ أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة ، يستخرجها[7] الفكر الصحيح . كما قال بعض السلف : «يا ابن آدم ، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل : نعمته عليك[8] فيما أعطاك ، أو نعمته فيما زوىٰ عنك[9]»[10] .

---

(١) في ب ، ح٢ ، د ، م : تنبيه .

(٢) «عليه» ساقطة من ش .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : ويفضله .

(٤) في غ ، د ، ح١ ، أ ، ب : ولا بدل .

(٥) في ب : عليك .

(٦) في ط ، ح١ ، أ ، غ : ضرر .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : ويستخرجها .

(٨) «عليك» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٩) انظر : كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ١٢٣ .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : لا أبالي علىٰ أي

إذا مسَّ[١] بالسراء أعقَبَ شكرها ... وإن مسَّ بالضراء أعقبها الصبر[٢]

وما منهما إلا له فيه نعمةٌ ... تضيقُ بها الأوهامُ والبرُّ والبحرُ[٣]

فإن قلت : فهل يشهد منَّته فيما لحقه من المعصية والذنب؟

قلت : نعم . إذا اقترن بها التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، كانت من أعظم المِنَنِ عليه . كما تقدم تقريره[٤] .

فصل

سماع الخاصة

قال : «وَسَماعُ الخَاصَّةِ ، ثَلاثَةُ أَشْياءَ : شُهُودُ المقصُودِ في كُلِّ رَمْزٍ ، وَالوُقُوفُ عَلَىٰ الغَايَةِ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَالخَلاَصُ مِن التَّلَذُّذِ بِالتَّفَرُّقِ»[٥] .

المقصود[٦] في كل رمز[٧] : هو الرب تبارك وتعالىٰ . فإن المسموع كله

حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنىٰ ، إن فيه للشكر . وإن كان الفقر ، إن فيه للصبر .

وقال بعض السلف : نعمته فيما زوىٰ عني من الدنيا ، أعظم من نعمته فيما بسط لي منها ، إني رأيته أعطاها قوماً فاغتروا بها .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق : عمَّ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : الأجر .

(٣) القائل : محمود الوراق . انظر : ديوانه ١٢١ .

(٤) انظر : المدارج ١/ ٢٩٧-٣٠٧ .

(٥) انظر : المنازل ١٨؛ ولكن قال : والوقوف علىٰ الغاية في كلِّ حس .

(٦) في ط ، غ : والمقصود .

(٧) في ش : حق .

يعرف به وبصفاته[١] وأسمائه، وأفعاله وأحكامه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه ، وعدله وفضله . وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفي الله ومن الله .

أما السماع به : فأن[٢] لا يسمع وفيه بقية من نفسه . فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع[٣] ، فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلىٰ نفسه .

وأما السماع له[٤] : فأن يجرد النفس في السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه ، ويجمع[٥] قوىٰ سمعه [علىٰ][٦] تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه : فشأن آخر . وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلىٰ الحق من وصف ، أو سِمَةٍ أو نعت ، أو فعل ، مما هو لائق[٧] بكماله . فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع ، وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص[٨] فيه إلا الراسخون في العلم والمعرفة بالله . وأضل الله عنه[٩] أهلَ التحريف والتعطيل ، وأهلَ[١٠] التشبيه والتمثيل ، و﴿هَدَى

---

(١) في ق : وبأسمائه وصفاته .

(٢) في ق : فإنه .

(٣) «بالمسموع» ساقطة من ش .

(٤) في ش : لله .

(٥) في ط والجميع : وتجمع .

(٦) «علىٰ» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٧) في غ ، ح٢ ، م : لا يليق .

(٨) في م ، ح٢ : لا يتخلص .

(٩) في ش : عنهم .

(١٠)«أهل» ساقطة من: ط ، ب ، غ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣].

وأما السماع منه : فإنما يتصور بواسطة ، فهو سماع مقيد . وأما المطلق : فلا مطمع فيه في عالم الفناء ، إلا لمن اختصه الله برسالاته[1] ، وبكلامه . ولكن السماع لكلامه كالسماع منه ، فإنه[2] كلامه الذي تكلم به حقاً ، فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله[3] .

هذا هو السماع من الله . لا سماع أرباب الخيال ، ودعوىٰ المحال ، القائل أحدهم : «ناداني في سري ، وخاطبني ، وقال لي»[4] :

يا ليت شعري من المنادي لك؟ ومن المخاطب ، يا مخدوع يا مغرور؟ فما يدريك؟ أنداءٌ شيطاني أم رحماني؟ وما البرهان علىٰ أن المخاطب لك هو الرحمن؟

نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث . وإنما الشأن في

---

(١) في ح٢ ، م : برسالته .

(٢) في غ : فإن .

(٣) قال أبو سعيد الخراز : «أول إلقاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأن النبي ﷺ يقرأه عليك ، ثم ترقىٰ عن ذلك ، فكأنك تسمعه من جبريل - عليه السلام - وقراءته علىٰ النبي ﷺ ثم ترقىٰ عن ذلك ، فكأنك تسمعه من الحق ، وذلك قول الله تعالىٰ : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وقوله : ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ [الزمر :١] فكأنك تسمعه من الله» انظر : اللمع للطوسي ١١٤ .

(٤) ينسب مثل هذا القول لعدد من الصوفية كأبي يزيد البسطامي الذي قال : «رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي ... » . انظر اللمع ٤٦١ ، ٤٧٣ .

المنادي(1) المخاطب المحدث ، فههنا تسكب العبرات (2) .

وبالجملة فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به ، فإذا حصل له - مع ذلك - السماع به وله وفيه ، ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه ، وازدلفت إليه بأيها (3) يبدأ ، فما شئت من علم وحكم(4) ، وتعرف وبصيرة ، وهداية وعبرة .

وأما الوقوف على الغاية في كل حين : فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة(5) بالمسموع الذي(6) جعل وسيلة(7) إليها ، وهو الحق سبحانه . فإنه غاية كل طلب(8) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم : ٤٢] ، وليس وراء الله مرمى ، ولا دونه مستقر ، ولا تقرُّ العين بغيره ألبتة . فكل(9) مطلوب سواه فظل زائل ، وخيال مفارق (10) ، وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق : فالتفرق في معاني المسموع ، وتنقل

---

(١) في غ : في المنادي والمخاطب والمحدِّث .

(٢) انظر كلام ابن القيم عن مراتب الهداية الخاصة والعامة في المدارج ١/ ٣٧ وما بعدها .

(٣) في ط : بأيهما .

(٤) في ط : وحكمة .

(٥) في ق : المقصود .

(٦) في الأصل والجميع سوى ط : التي . ولا يستقيم السياق بها .

(٧) في غ : وسيلته .

(٨) في ط والجميع سوى ش : مطلب .

(٩) في ط والجميع سوى ش : وكل .

(١٠) في ط والجميع سوى ش زيادة : مائل .

القلب في منازلها يوجب له لذة، كما هو المألوف في الانتقال. فيتخلص[١] من لذة تفرقه التي هي حظه، إلىٰ الجمعية علىٰ المسموع به ومنه له[٢].

ولم يقل الشيخ ـ رحمه الله ـ: «الخلاص[٣] من التفرق» فإن المسموع إنما يُدرك معناه ويُفهم بالتفرق لتنوّعه، ولكن ليتخلص من لذته[٤] لا منه، لئلا يكون مع حظِّه، وهذا من ألطف[٥] أحوال السامعين المخلصين.

فصل

سماع خاصة الخاصة

قال: «وَسَمَاعُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ: سَمَاعٌ يَنفِي العِلَلَ عَنِ الكَشْفِ، وَيَصِلُ الأَبَدَ[٦] إِلىٰ الأَزَلِ[٧]، وَيَرُدُّ النِّهَايَاتِ إِلىٰ الأَوَّلِ»[٨].

تعريف الكشف

فالكشف: هو مكافحة[٩] القلب لحقيقة المسموع. وعلله أمران.

---

(١) في ط: فليتخلص.

(٢) في ط، ق: به وله ومنه.

(٣) «الخلاص» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش، وفي ش: الإخلاص.

(٤) في ح٢، م: لذاته.

(٥) في ط: لطف.

(٦) الأبد: مدة لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل البتة، والأبد هو الشيء الذي لا نهاية له، وهو استمرار الوجود في أزمة مقدرة، غير متناهية في جانب المستقبل، والأبدي ما لا يكون منعدماً. انظر: التعريفات ١٨.

(٧) الأزل: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي. انظر: التعريفات ٢٧.

(٨) المنازل ١٨ وفيها: وسماع خاصة الخاصة: سماع يغسل العلل عن الكشف.

(٩) المكافحة: مواجهة الوجه بالوجه، وكفح الشيء كشف عنه غطاءه. انظر لسان العرب

أحدهما : الشُّبه التي تنتفي بهذه المكافحة ، فلا يبقىٰ[1] معها شبهة . وهذا[2] هو عين اليقين .

والثاني : نفي الوسائط بين السامع والمسموع . فيغيب بمسموعه عنها ، ويفنىٰ عن شهودها ، ويفنىٰ عن شهود فنائه عنها ، بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة[3] . وهو البادي[4] ، فمنه الإسماع ، ومنه الهداية ، ومنه الابتداء ، وإليه الانتهاء . وأما وصله الأبد إلىٰ الأزل : فهذا -إن أخذ علىٰ ظاهره- : فهو محال؛ لأن الأبد[5] والأزل ، متقابلان تقابل التناقض ، فاتصال[6] أحدهما بالآخر[7] عين المحال . وإنما مراده : أن ما يكون في الأبد موجوداً مشهوداً فقد

١٢/ ١١٨ مادة كفح ، والنهاية في غريب الحديث ٤/ ١٨٥ .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ » قال بلىٰ يا رسول الله . قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحاً . . . الحديث . رواه ابن ماجه ١/ ٦٨ في المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ح١٩٠ والترمذي ٥/ ٢٣٠ في كتاب التفسير باب وفي سورة آل عمران ، ح٣٠١٠ وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه . وصححه الألباني . انظر : سنن ابن ماجه ١/ ٣٨ ح١٥٧ .

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، م ، د : تبقىٰ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : فهذا .

(٣) في غ : الواسط .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : الهادي .

(٥) «الأبد» ساقطة من ش .

(٦) في ط ، ح١ ، ح٢ ، غ ، أ : فإيصال .

(٧) في ط ح٢ ، غ ، م ، ح١ ، أ ، ب : في الآخر .

كان في الأزل معلوماً مقدراً ، فعاد حكم الأبد إلىٰ الأزل علماً وحقيقة ، وصار الأزليُّ أبديّاً ، كما كان الأبديُّ أزليّاً في العلم والحكم .

وإيضاح ذلك : أن الأبد ظهر فيه ما كان [1] في الأزل خافياً ، فانتهىٰ الأمر كله إلىٰ علمه وحكمه وحكمته ، وذلك أزلي . وهذا هو[2] رد النهايات إلىٰ الأول ، فتصير الخاتمة هي عين السابقة . والله تعالىٰ هو الأول والآخر . وكل ما كان ويكون آخراً فمردود إلىٰ سابق علمه وحكمه . فرجع الأبد إلىٰ الأزل ، والنهايات إلىٰ الأول . والله أعلم .

* * *

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : كامناً .

(٢) «هو» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

فصل

منزلة الحزن

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الحزن» [1] .

وليست من المنازل المطلوبة ، ولا المأمور بنزولها ، وإن كان لا بد للسالك من نزولها . ولم يأت «الحزن» في القرآن إلا منهياً عنه ، أو منفياً [2] .

فالنهي [3] : كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران :١٣٩] وقوله : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ١٢٧] في غير موضع وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] والمنفي كقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وسر ذلك : أن «الحزن» موقف غير مسير ، ولا مصلحة فيه للقلب . وأحب شيء إلىٰ الشيطان ، أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ، ويوقفه [4] عن سلوكه . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [المجادلة: ١٠]

---

(١) الحزن عند الصوفية : هو توجع القلب لفائت ، أو تأسف علىٰ ممتنع ، وهو عند الصوفية تأسف علىٰ ما يفوت العبد من الكمالات وأسبابها ، وماهياتها ، وهو يتضمن الخوف ، الحزن ، الإشفاق ، الخشوع ، الإخبات . علىٰ حسب الدرجات في العامة والخاصة والمريد وهكذا ، ومنه قبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤١٠ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٧ .

(٢) «أو منفياً» ساقطة من م .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش فالمنهي عنه .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ويوقفه .

ونهىٰ النبي ﷺ الثلاثة «أن يتناجىٰ اثنان منهم دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه»(١).

الحزن ليس مطلوباً ولا مقصوداً

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبي ﷺ فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»(٢)، فهو قرين الهم.

والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد علىٰ القلب، إن كان لما(٣) يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضىٰ: أورثه الحزن، وكلاهما مضعف للقلب مفتر للعزم(٤).

ولكن نزول منزلته(٥) ضرورية(٦) بحسب الواقع. ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فهذا يدل علىٰ أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم(٧) بغير اختيارهم.

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٨١ في كتاب الاستئذان، باب لا يتناجىٰ اثنان دون الثالث، ح٦٢٨٨ وفي باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس، ح٦٢٩٠، ومسلم ٤/ ١٧١٨ في كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، ح٢١٨٤، وأحمد في مسنده ١/ ٤٢٥.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ١١/ ١٧٣ في كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال ح٦٣٦٣، وأحمد في مسنده ٣/ ١٥٩، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، ح١٥٥٥، والترمذي ٥/ ٥٢٠ في كتاب الدعوات، باب ٧١، ح٣٤٨٤.

(٣) في ش: لمستقبل.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش: عن السير.

(٥) في د: منزلة.

(٦) في ط ضروري.

(٧) في ق: عليه.

وأما قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة : ٩٢] فلم يمدحوا علىٰ نفس الحزن ، وإنما مدحوا علىٰ ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم ، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة . ففيه تَعْرِيض بالمنافقين الذين لم يحزنوا علىٰ تخلفهم[١] ، وغبطوا نفوسهم به .

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «**ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ، ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه**»[٢] فهذا يدل علىٰ أنه[٣] مصيبة من الله يصيب بها العبد ، يكفر بها من سيئاته . لا يدل علىٰ أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه[٤] .

وأما حديث هند بن أبي هالة[٥] ، في صفة النبي ﷺ : «**إنه كان متواصل الأحزان**»[٦] . فحديث لا يثبت ، و في إسناده من لا يعرف .

---

(١) في ط : زيادة : بل .

(٢) رواه البخاري ١٠/ ١٠٣ في كتاب المرض ، باب ما جاء في كفارة المرض ، ح٥٦٤٠ ، ومسلم ٤/ ١٩٩٢ في كتاب البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ح٢٥٧٣ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٠٣ .

(٣)«أنه» ساقطة من ش .

(٤) في ب : واستنزاله .

(٥) هند بن أبي هالة التميمي ، ربيب النبي ﷺ ، أمه خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ ، روىٰ عن النبي ﷺ صفته وحليته . قال ابن عبدالبر : كان هند فصيحاً بليغاً . وفاته بالبصرة ، وقيل إنه استشهد مع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمل . ترجمته في : أسد الغابة ٤/ ٦٤١ ، الإصابة ٣/ ٥٧٨ ، تهذيب التهذيب ١١/ ٩ .

(٦) هذا الحديث رواه الترمذي في الشمائل ص٢٢ج ٧ والطبراني في الكبير٢٢/ ١٥٥-١٥٩ ،

وكيف يكون متواصل الأحزان ، وقد صانه الله عن الحزن علىٰ الدنيا وأسبابها ، ونهاه عن الحزن علىٰ الكفار ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فمن أين يأتيه الحزن؟

بل كان دائم البشر ، ضحوك السن ، كما في صفته : «الضحوك القتال»[1] صلوات الله وسلامه عليه .

وأما الخبر المروي : «إن الله يحب كل قلب حزين» [2] فلا يعرف إسناده ،

وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٢٤-٣٢٧ ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ٣٣-٣٥ .
قال الألباني في مختصر الشمائل ١٨ : إسناده ضعيف جداً وقال في الصحيحة ٥/ ٨٥ : وله علتان : الأولىٰ : جهالة أبي عبدالله التميمي . قال الحافظ وغيره : مجهول ، والثانية : ضعف جميع بن عمير واتهمه بعضهم .

(١) لم أجد حديثاً بهذه الألفاظ فيما وقفت عليه من مصادر ، لكن ذكر هذين الاسمين شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٣١ ، والإمام ابن القيم في زاد المعاد ١/ ٨٧ وقال في شرحهما :«وأما الضحوك القتال فاسمان مزدوجان لا يفرد أحدهما عن الآخر فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين ، غير عابس ولا مقطب ، ولا غضوب ولا فظ ، قتال لأعداء الله لا تأخذه فيهم لومة لائم .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥١ ح٧٨٨٤ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجه . وتعقبه الذهبي فقال : مع ضعف أبي بكر منقطع ، ورواه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٩٠ ، وذكره القشيري في القشيرية ١٣٨ ، وذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٨٧ ، وقال رواه الطبراني والقضاعي عن أبي الدرداء مرفوعاً .
قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٠٩-٣١٠ رواه البزار والطبراني وإسنادهما حسن ، وضعفه الألباني . انظر : الضعيفة ١/ ٤٩٣ ، ح٤٨٣ .

ولا من رواه، ولا تعلم صحته.

وعلىٰ تقدير صحته: فالحزن مصيبة من المصائب، التي يبتلي الله بها[1] عبده. فإذا ابتلىٰ به العبد فصبر عليه أحب صبره علىٰ بلائه.

وأما الأثر الآخر: «إذا أحب الله عبداً، نصب في قلبه نائحة. وإذا أبغض عبداً، جعل في قلبه مزماراً»[2]، فأثر إسرائيلي. قيل: إنه فىٰ التوراة. وله معنىٰ صحيح. فإن المؤمن حزين علىٰ ذنوبه، والفاجر لاهٍ لاعب، مترنّم فرح. وأما قوله تعالىٰ عن نبيِّه إسرائيل: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده وحبيبه، وأنه ابتلاه بذلك، كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه.

وأجمع أرباب السلوك: علىٰ أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحيري[3]، فإنه قال: الحزن بكل وجه فضيلة وزيادة للمؤمن، ما لم يكن بسبب معصية. قال: لأنه إن لم يوجب تخصيصاً، فإنه[4] يوجب تمحيصاً[5].

---

(١) في الجميع سوىٰ ش: به.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ١٣٨.

(٣) هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور، أبو عثمان النيسابوري الحيري، الواعظ الصوفي، ولد بالري ونشأ بها، ثم انتقل إلىٰ نيسابور فسكنها إلىٰ أن مات، وكان يقال إنه مجاب الدعوة، توفي سنة ٢٩٨هـ.

ترجمته في: طبقات الصوفية ١٧٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤، السير ١٤/ ٦٢.

(٤) «فإنه» ساقطة من د.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية ١٣٩، وقد قال القشيري: والحزن من أوصاف أهل السلوك القشيرية ١٣٨.

فيقال : لا ريب أنه محنة وبلاء من الله ، بمنزلة المرض والهم والغم[١] . وأما أنه من منازل الطريق : فلا .

فصل

تعريف الحزن

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ :

«الحزنُ : تَوَجُّعٌ لِفَائِتٍ[٢] ، وَتَأَسُّفٌ عَلَىٰ مُمْتَنِعٍ»[٣] .

يريد : أن ما يفوت الإنسان قد يكون مقدورا له ، وقد لا يكون . فإن كان مقدورا توجّعَ لفَوْته ، وإن كان غير مقدور تأسف لامتناعه[٤] .

حزن العامة

قال : «وَلَهُ ثَلاَثُ دَرَجَاتٍ : الأُولَىٰ : حُزْنُ العَامَّةِ . وَهُوَ حُزنٌ[٥] عَلَىٰ التَّفرِيطِ فِي الخِدمَةِ ، وَعَلَىٰ التَوَرُّطِ فِي الجفَاءِ[٦] ، وَعَلَىٰ ضَيَاعِ الأَيَّامِ»[٧] .

التفريط في الخدمة عندهم: فوق التفريط في العمل وتضييعه؛ بل هذا[٨] الحزن يكون مع القيام بالعمل[٩] . فإن الخدمة – عندهم – من باب الأخلاق

(١) «الغم» ساقطة من ش .

(٢) في ح٢ ، م : للفائت .

(٣) انظر : المنازل ١٩ وفيها : أو تأسف علىٰ ممتنع .

(٤) في ب ، أ : علىٰ امتناعه .

(٥) في ش : الحزن .

(٦) في ق : التوريط في الخفي .

(٧) انظر : المنازل ١٩ .

(٨)«هذا» ساقطة من ب .

(٩) في ط : والعمل .

والآداب ، لا من باب الأفعال . وهي حق العبودية ، وأدبها[1] وواجبها ، وصاحب هذا الحزن بالأَوْلىٰ[2] ، أن يحزن لتضييع العمل .

وأما التورط في الجفاء : فهو أيضاً أخص من المعصية بارتكاب المحظور؛ لأنه قد يكون بفقد[3] أنس سابق مع الله تعالىٰ . فإذا تواریٰ عنه تورط في الجفوة . فإن الشيخ ذكر «الحزن» في قسم الأبواب . وهو عنده من قسم البدايات[4] .

وأما تضييع الأيام : فنوعان أيضاً . تضييعها بخلوِّها عن الطاعات ، وتضييعها بخلوِّها عن مواجيد الإيمان ، وذوق[5] حلاوته ، والأنس بالله ، وحسن الصحبة معه .

فكل واحد من[6] الثلاثة نوعان لأهل البداية ، وللسالكين المتوسطين . وكلامه يعم النوعين ، وإن كان بالثاني .

---

(١) في ح١ : وآدابها .

(٢) في ح٢ ، م : فالأولىٰ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : لفقد .

(٤) الهروي ـ رحمه الله ـ قسم كتابه المنازل إلىٰ عشرة أقسام ، القسم الأول منها : البدايات وينتهي هذا القسم بمنزلة السماع ، والقسم الثاني : الأبواب ، والحزن هو المنزلة الأولىٰ من قسم الأبواب لا من قسم البدايات كما يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ .

(٥) في الأصل و ش : وذلك وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٦) في ح١ زيادة : هذه .

حزن أهل الإرادة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: حُزنُ أَهلِ الإِرَادَةِ. وَهُوَ حُزنٌ عَلَىٰ تَعَلُّقِ القَلبِ بالتَّفرِقَةِ، وَعَلَىٰ اشتِغَالِ النَّفسِ عَن الشُّهُودِ، وَعَلَىٰ التَّسلِّي عَن[1] الحُزْنِ»[2].

تعلق القلب بالتفرقة: هو عدم الجمعية في الحضور مع الله، وتشتيت الخواطر في أودية المرادات.

وأما اشتغال النفس عن الشهود فهو نوعان: اشتغالها عن الذكر الذي يوجب الشهود ويثمره بغيره.

والثاني: اشتغالها به[3] عن الشهود، لضعف الذكر، أو لضعف[4] القلب عن الشهود، أو لمانع آخر. ولكن إذا قهر الشهود النفس لم تتمكن من التشاغل عنه، إلا بقاهر يقهرها عنه.

وأما التسلي عن الحزن: يعني[5] أن وجود الحزن في القلب دليل علىٰ الإرادة والطلب. ففقْدُه والتسلّي عنه نقص. فيحزن علىٰ فَقْد [الحزن، كما يبكي علىٰ فقد][6] البكاء. ويخاف من عدم الخوف، وهذا فيه نظر. وإنما يحمد الحزن علىٰ فَقْد الحزن [أما إذا اشتغل بفرح مذموم][7] أما إذا اشتغل عن

---

(١) في ش: علىٰ.

(٢) انظر: المنازل ١٩ وفيها: «وهو حزن علىٰ تعلق الوقت بالتفرق...».

(٣) به ساقطة من ط.

(٤) في غ، ق: ولضعف.

(٥) في ط: فيعني.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من م.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من ط، والجميع سوىٰ ش، د.

الحزن بفرح محمود - وهو الفرح بفضل الله ورحمته - فلا معنىٰ للحزن علىٰ فوات الحزن .

قال[١] : «وَلَيْسَت الخَاصّةُ مِن مَقَامِ الحُزنِ فِي شَيْءٍ؛ لأَنَّ الحُزنَ فَقدٌ . وَالخَاصَّةُ أَهلُ وُجدَانٍ»[٢] .

وهذا إن أراد به : أنه لا ينبغي لهم تعمد الحزن : فصحيح . وإن أراد : أنه[٣] لا يعرض لهم حزن : فليس كذلك . والحزن من لوازم الطبيعة ، ولكنه[٤] ليس[٥] بمقام[٦] .

حزن المعارضات

قال[٧] : «وَلَكِنَّ الدَّرجَةَ الثَّالِثَةَ مِن الحُزنِ : التَّحَزُّنُ لِلمُعَارَضَاتِ دُونَ الخَوَاطِرِ ، وَمُعَارَضَاتِ القُصُودِ[٨] ، وَاعِترَاضَاتِ الأَحكَامِ»[٩] .

هذه ثلاثة أمور ، بحسب الشهود والإرادة .

---

(١) في ط زيادة صاحب المنازل .

(٢) انظر : المنازل ص ١٩ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : به .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ولكن .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هو .

(٦) لكن قد يثاب الإنسان علىٰ الحزن إذا اقترن به ما يحمد عليه ، كالحزن علىٰ مصيبة في دينه وعلىٰ مصائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب علىٰ ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك . انظر : التحفة العراقية لابن تيمية ٣١٢ .

(٧)«ولكن» ساقطة من ط والجميع .

(٨) في ح٢ ، م ، غ : المقصود .

(٩) انظر : المنازل ٢٠ وفيها :«والاعتراضات علىٰ الأحكام» .

الأول : حزن المعارضات . فإن القلب يعترضه[1] وارد الرجاء مثلاً ، فلم ينشب[2] أن يعارضه وارد الخوف ، وبالعكس . ويعترضه وارد البسط ، فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض . ويرد عليه وارد الأنس ، فيعترضه وارد الهيبة . فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزناً لا محالة .

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر ؛ بل[3] من قبيل الواردات الإلهية . فلذلك قال : «دُونَ الخَوَاطِرِ» فإن معارضات الخواطر غير هذا .

وعند القوم : هذا من آثار الأسماء والصفات ، واتصال أشعة أنوارها بالقلب ، وهو[4] المسمىٰ عندهم بالتجلي[5] .

وأما معارضات القصود[6] : فهو[7] أصعب ما علىٰ القوم ، وفيه يظهر اضطرارهم إلىٰ العلم فوق كل ضرورة. فإن الصادق يتحرىٰ في سلوكه كله[8]

---

(١) في ح٢ ، م : يعارضه .

(٢) ينشب : أي : يلبث . انظر : المعجم الوسيط ٩٢٠ مادة نشب .

(٣) في ط زيادة : هي .

(٤) في ح١ : وهي .

(٥) التجلّي عند الصوفية : هو إشراق أنوار إقبال الحق علىٰ قلوب المقبلين عليه ، وهو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب ، وهو علىٰ ثلاثة أحوال : تجلي ذاتي ، وتجلي شهودي ، وتجلي صفاتي . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣٠٠ ، معجم اصطلاحات الصوفية ٤٢ .

(٦) في ح٢ ، م : المقصود .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : فهي .

(٨) «كله» ساقطة من م .

أحب الطرق إلىٰ الله ، فإنه سالك به وإليه . فيعترضه طريقان لا يدري أيهما أرضىٰ لله وأحب[1] إليه . فمنهم من يحكم العلم بجهده استدلالاً فإن عجز فتقليداً ، فإن عجز عنهما سَكَنَ ينتظرُ ما يحكم له به القدرُ ، ويخلّي باطنه من المقاصد جملة .

ومنهم : من يلقي الكل علىٰ شيخه ، إن كان له شيخ .

ومنهم : من يلجأ إلىٰ الاستخارة[2] والدعاء ، ثم ينتظر ما يجري به القدر .

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم في طلب الأرضىٰ علماً ومعرفة ، فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب[3] ، فإن تساوىٰ عندهم الأمران ، قدموا أرجحهما مصلحة .

ولترجيح المصالح رتب متفاوتة : فتارة يترجح[4] بعموم النفع . وتارة يترجح[5] بزيادة الإيمان. وتارة يترجح[6] بمخالفة النفس . وتارة يترجح[7] باستجلاب مصلحة أخرىٰ بها[8] لا تحصل من غيرها . وتارة يترجح[9] بأمنها

---

(١) في م ، ح١ ، أ : أحبه .

(٢) في ق : الاستجارة .

(٣) في ب : الراجح .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

(٨)«بها» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : تترجح .

من الخوف من مفسدة لا تُؤمَن[1] في غيرها .

فهذه خمس جهات من الترجيح . قل أن يعدم[2] واحدة منها .

فإن أعوزه ذلك كله تخلىٰ عن الخواطر جملة ، وانتظر ما يحركه[3] به محرك القدر . وافتقر إلىٰ ربه ، افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه . فإذا جاءته الحركة استخار الله ، وافتقر إليه افتقاراً ثانياً ، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية ، لعدم العصمة في حقه ، واستمرار المحنة بعدوه . ما دام في عالم الابتلاء والامتحان ، ثم أقدم علىٰ الفعل . فهذا نهاية ما في مقدور الصادقين .

ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة[4] . ولهذا قال الأوزاعي[5] وابن المبارك : إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر»[6] يعني أهل الجهاد . فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ

---

(١) في ب«لا توجد» .

(٢) في ب : تقدم .

(٣) في أ : يحرك .

(٤) فرق الإمام ابن القيم بين أهل الجهاد في سبيل الله تعالىٰ وبين أهل مجاهدة النفس .

(٥) أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي شيخ الإسلام وعالم أهل الشام ، ولد ببعلبك سنة ٨٨هـ ، ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها ، أثنىٰ عليه غير واحد من الأئمة . قال مالك : كان الأوزاعي إماماً يقتدىٰ به ، وقال سفيان بن عيينة وغيره : كان الأوزاعي إمام أهل زمانه ، توفي سنة ١٥٧هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٥/ ٣٢٦ ، حلية الأولياء ٦/ ١٣٥ ، السير ٧/ ١٠٧ ، البداية والنهاية ١٠/ ١١٨ .

(٦) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥ ، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٦٥ .

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وأما اعتراضات الأحكام : فيجوز أن يريد[1] به الأحكام[2] الكونية ، وهو أظهر . وأن يريد به[3] الأحكام الدينية . فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعتراضات [علىٰ الأحكام الجارية عليهم بخلاف ما يريدونه . فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات][4] علىٰ ما صدر منهم من سوء الأدب . وتلك الاعتراضات هي إراداتهم[5] خلاف ما جرىٰ لهم به القدر . فيحزنون[6] علىٰ عدم الموافقة ، وإرادة خلاف ما أريد بهم[7] .

وإن كان المراد به : الأحكام الدينية ، فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينها وبين أحكام الأمر -كما تقدم- فلا يجدون بدّاً من القيام بأحكام الأمر، ولابدّ أن يحدث[8] لهم نوع[9] اعتراض[10] خفيٍّ أو جليٍّ ، بحسب

---

(١) في ش : يراد .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : بالأحكام .

(٣) في ط : بها .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وموجود في هامشها .

(٥) في ط ، أ ، غ ، م : إرادتهم .

(٦) في الأصل والجميع سوىٰ م ، ب ، ط : يحزن ، وما أثبته من ط ، ب ، م والسياق يقتضيه .

(٧) في الأصل والجميع : به . وما أثبته من ط والسياق يقتضيه .

(٨) في ط ، ب ، غ ، أ : يعرض وفي ح١ : يعترض .

(٩)«نوع» ساقطة من ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ .

(١٠) في ح١ : اختلاف .

انقطاعهم عن الحال بالأمر ، فيحزنون لوجود هذه المعارضة . فإذا قاموا بأحكام الأمر ، ورأوا أن المصلحة في حقهم ذلك ، وحَمِدُوا عاقبَته : حزنوا علىٰ تسرّعهم إلىٰ[1] المعارضة . فالتسليم لداعي العلم واجب ، ومعارضة الحال[2] من قبيل الإرادات والعلل ، فيحزن علىٰ بقيّتها[3] فيه . والله أعلم .

* * *

(١) في ط ، ح١ ، ب ، م ، غ ، أ : علىٰ .

(٢) في ش : الأحوال .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، أ : نفيهما .

فصل

منزلة الخوف

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «**الخوف**»[١].

وهي من أجل منازلها[٢]، وأنفعها للقلب. وفرض[٣] علىٰ كل أحد. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٤] [المائده: ٤٤]، ومدح أهله فيٰ كتابه وأثنىٰ عليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) الخوف عند الصوفية: ما يحذر من المكروه في المستأنف، ويبلغ إلىٰ حد الانخلاع من طمأنينة الأمن خوفاً من العقوبة أو من المكر أو الهيبة. فخوف العامة من العقوبة تصديقاً بالوعيد، وأرباب المراقبة من المكر في جريان الأنفاس، والخاصة إجلالاً وهيبة.

والخوف من المقامات التي أفرد الصوفية لها صفحات، بل كتباً، ومن معاني الخوف عندهم: الخوف من المعاصي والمناهي والتألم فيها.

انظر: لطائف الإعلام ١/ ٤٥٦ - ٤٥٧، الإحياء ٤/ ٢٠٥، القشيرية ١٢٤، التعرف ١١٥، رشح الزلال ١٣٣، معجم مصطلحات الصوفية ٩٣.

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش: منازل الطريق.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش: وهي فرض.

(٤) في الأصل وش ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وإياي فاتقون﴾[البقرة: ٤١]، وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضي ذلك.

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[١] [المؤمنون : ٥٧-٦١] وفي المسند والترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قلت يا رسول الله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ، ويشرب الخمر ، ويسرق؟ قال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه»[٢] . قال الحسن رضي الله عنه : عملوا والله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم . إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً[٣] .

تعريف الخوف

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة»[٤] ألفاظ متقاربة غير مترادفة . قال أبو القاسم الجنيد[٥] : الخوف توقع العقوبة علىٰ مجاري الأنفاس[٦] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : الآيات غير مكملة .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٦/ ٢٠٥ ، والترمذي ٥/ ٣٢٧ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة المؤمنون ، ح٣١٧٥ ، وابن ماجه ٢/ ١٤٠٤ في كتاب الزهد ، باب التوقي في العمل ، ح٤١٩٨ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٢٧ ، ح٣٤٨٦ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٧٧ . وصححه الألباني : انظر : الصحيحة ١/ ٩٥ ، ح١٦٢ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٣١١ ، وحلية الأولياء ٢/ ١٤٤ .

(٤) في م ، د : الهيبة .

(٥) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي شيخ الصوفية وإمامهم ، أصله من نهاوند ، ولد ببغداد ونشأ بها ، توفي سنة ٢٩٧هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ١٥٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ ، السير ١٤/ ٦٦ .

(٦) انظر : القشيرية ١٢٧ .

وقيل : الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف [١] .

وقيل : الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام [٢] . وهذا سبب الخوف . لا أنه نفسه .

وقيل : الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره [٣] .

الخشية أخص من الخوف

و«الخشية» أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر : ٢٨] ، فهي خوف مقرون بمعرفة.

وقال النبي ﷺ : «إني أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية» [٤] .

فالخوف [٥] حركة . والخشية انجماع ، وانقباض ، وسكون . فإن الذي يرىٰ العدو والسيل ونحو ذلك : له حالتان .

إحداهما : حركته [٦] للهرب منه ، وهي حالة الخوف .

---

(١) ورد في كلام الطوسي عن خوف العامة قوله : فخوفهم اضطراب قلوبهم مما عملوا من سطوة معبودهم . انظر : اللمع ٨٩ .

(٢) انظر : القشيرية ١٢٨ .

(٣) انظر : الإحياء ٤/ ٢٠٥-٢٠٦ .

(٤) رواه مسلم ٢/ ٧٧٩ في كتاب الصيام ، باب أن القبلة في الصوم ليست محرمة ، ح١١٠٨ عن عمر بن أبي سلمة بلفظ :«إني لأتقاكم لله وأخشاكم له» ورواه البخاري ٩/ ١٠٤ في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ح٥٠٦٣ عن أنس بلفظ«والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٧/ ١٢٣ في كتاب النكاح ، باب الرغبة في النكاح ، ح١٣٤٤٨ .

(٥) في ح٢ : والخوف .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : حركة .

والثانية: سكونه[١]، وقراره في مكان[٢] لا يصل إليه[٣]، وهي الخشية. ومنه: انخشى الشيء[٤]، والمضاعف والمعتل أخوان، كتقضى البازي وتقضض.

تعريف الرهبة

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب[٥] من المكروه، وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين الرهب[٦] والهرب تناسب في اللفظ والمعنى. يجمعهما الاشتقاق الأوسط[٧] الذي هو عقد تقاليب[٨] الكلمة على معنى جامع.

---

(١) في ب: اجتماعه وفي هامشها: سكونه.

(٢) في م: مكانه.

(٣) في ط زيادة: فيه.

(٤) انخشَّ في الشيء: دخل فيه، ويقال: انخش في القوم، وفي الشجر. انظر: المعجم الوسيط ٢٣٥ مادة: خشَّ.

(٥) في ق: والهرب.

(٦) في ق: الرهبة.

(٧) الاشتقاق نزع لفظ لفظ آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة، والاشتقاق ثلاثة أنواع هي:

١ - الاشتقاق الصغير: وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف والترتيب، نحو ضرب، من الضرب.

٢ - الاشتقاق الكبير: وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب نحو جبذ من الجبذ. وهذا هو الذي سماه ابن القيم الاشتقاق الأوسط؛ وهو أوسط؛ لأنه يقع بين الصغير والأكبر.

٣ - الاشتقاق الأكبر: وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المخرج، نحو: نعق، من النهق. انظر التعريفات ٣٧.

(٨) في ح٢: تراكيب وفي م: تكاليب.

وأما «الوجل» : فرجفان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، أو لرؤيته . تعريف الوجل

وأما «الهيبة» : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال . وأكثر ما يكون مع المعرفة[1] والمحبة والإجلال ، تعظيم مقرون بالحب . تعريف الهيبة

فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والهيبة للمحبين ، والإجلال للمقربين[2] . وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية . كما قال ﷺ : «إني لأعلمكم بالله . وأشدكم له خوفاً[3]»[4] . وقال «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش ، ولخرجتم إلىٰ الصعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ»[5] .

---

(١) في ط : مع المحبة والمعرفة .

(٢) في غ : للمتقربين .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش«خشية» وفي رواية«خوفاً» .

(٤) رواه البخاري ١٠/ ٥١٣ في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، ح٦١٠١ بلفظ: «إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» ، ومسلم ٤/ ١٨٢٩ في كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالىٰ وشدة خشيته ، ح٢٣٥٦ ، وأحمد في مسنده ٦/ ٤٥ .

(٥) رواه أحمد في مسنده ٥/ ١٧٣ ، والترمذي ٤/ ٥٥٦ في كتاب الزهد ، باب قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم ، ح٢٣١٢ وقال : حديث حسن غريب ، وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٤٠٢ في كتاب الزهد باب الحزن والبكاء ، ح٤١٩٠ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٤ ، ح٣٨٨٣ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي ، وحسنه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٤٠٧ - ٤٠٨ ، ح٣٣٧٨ ، وانظر الصحيحة ٤/ ٢٩٩ ، ح١٧٢٢ .

فصاحب[1] الخوف : يلتجئ إلىٰ الهرب ، والإمساك . وصاحب الخشية : يلتجئ إلىٰ الاعتصام بالعلم . ومثلهما مثل[2] من لا علم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق ، فالأول يلتجئ إلىٰ الحمية والهرب . والطبيب يلتجئ إلىٰ معرفته بالأدوية والأدواء .

قال أبو حفص[3] : الخوف سوط الله ، يقوم به الشاردُ[4] عن بابه وقال : الخوف سراج في القلب ، به يبصر ما فيه من الخير والشر[5] . وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالىٰ ، فإنك إذ خفته هربت إليه[6] .

فالخائف هارب من ربه إلىٰ ربه .

قلت : قد روىٰ البخاري ومسلم جزءاً منه وهو قوله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم قليلاً » ، البخاري ٢/ ٥٢٩ في كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف ، ح١٠٤٤ ، ومسلم ٤/ ١٨٣٢ في كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله ، ح٢٣٥٩ .

(١) في ش : وصاحب .

(٢) في ش : كمثل .

(٣) أبو حفص عمرو بن سَلَم وقيل: عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري الصوفي ، شيخ خرسان ، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور ، توفي سنة ٢٦٤هـ .
ترجمته في : طبقات الصوفية ١١٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩ ، السير ١٢/ ٥١٠ ، وانظر القشيرية ١٢٥ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : الشاردين .

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ، ١٢٦ .

(٦) انظر : الرسالة القشيرية ٢٦ . وقد نسب هذا القول إلىٰ أبي القاسم الحكيم .

قال أبوسليمان – رحمه الله – : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب[١] .

وقال إبراهيم ابن شيبان [٢] : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها ، وطرد الدنيا عنها[٣] .

وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ : الناس علىٰ الطريق[٤] ما لم يَزُلْ عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق [٥] .

وقال حاتم الأصم[٦] : لا تغترّ بمكان صالح . فلا مكان أصلح من الجنة ،

---

(١) انظر : القشيرية ١٢٧ .

(٢) في الأصل والجميع : سفيان ، وفي هامش ش شيبان ، ولعل هذا هو الصحيح كما سيأتي في تخريج هذا القول . وهو أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني شيخ الصوفية وزاهد الجيل في وقته ، صحب إبراهيم الخواص ، ومحمد بن إسماعيل المغربي ، توفي سنة ٣٣٧هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ٤٠٢ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦١ ، السير ١٥/ ٣٩٢ .

(٣) انظر : القشيرية ١٢٨ ، وطبقات الصوفية للسلمي ص٤٠٤ ، وقد نسب هذا القول فيهما إلىٰ إبراهيم بن شيبان ، وهذا مما يرجح أن ما أثبته هو الصحيح وأن الذي في المخطوطات ، والمطبوع تصحيف .

(٤) في ح١ : طريق .

(٥) انظر : القشيرية ١٢٧ .

(٦) أبو عبدالرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الأصم القدوة الزاهد ، الواعظ ، الناطق بالحكمة ، له كلام في الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة روىٰ عن شقيق البلخي وصحبه ، توفي سنة ٢٣٧هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ٩١ ، حلية الأولياء ٨/ ٧٣ ، تاريخ بغداد ٨/ ٢٤١ ، السير ١١/ ٤٨٤ .

ولقي آدم فيها[1] ما لقي[2] ، ولا تغتَر بكثرة[3] العبادة ، فإن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي[4] ، ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام بن باعور[5] لقي ما لقي وكان يعرف الاسم الأعظم[6] ، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم ، فلا شخص أصلح من النبي ﷺ ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون[7][8] .

---

(١) في ط ، ح١ ، غ ، أ : ولقي فيها آدم .

(٢) وذلك أن الله أهبطه من الجنة هو وزوجه بعد ما أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ، وقد زين لهما الشيطان ذلك . قال تعالىٰ : ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلىٰ حين﴾ [البقرة : ٣٥ ، ٣٦] .

(٣) في ح١ : بكثر .

(٤) حيث طرده الله من رحمته وغضب عليه ولعنه ، لأنه تكبر عن أمره سبحانه فلم يسجد لآدم ، حين أُمرتْ الملائكةُ بالسجود له . قال تعالىٰ : ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبي أن يكون مع الساجدين﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلىٰ يوم الدين﴾ [الحجر : ٣٠-٣٥] .

(٥) بلعام بن باعور ، رجل من بني إسرائيل . وقد ذكر الطبري وابن كثير أن هذا هو الذي نزل فيه قول الله تعالىٰ : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ الأعراف : ١٧٥ .

انظر : تفسير الطبري ١٣/ ٢٥٢ ، تاريخ الطبري ١/ ٤٣٧ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٠ .

(٦) في ب : وكان من أعلم الناس بالاسم الأعظم .

(٧) في ب زيادة : فإن أبا جهل الْتقىٰ بالنبي ﷺ ولم ينتفع بلقائه .

(٨) انظر : القشيرية ١٣٠ .

والخوف ليس مقصوداً لذاته؛ بل[1] مقصوداً لغيره قصد الوسائل . ولهذا يزول بزوال المخوف ، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والخوف يتعلق بالأفعال . والمحبة تتعلق بالذات والصفات ، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ، ولا يلحقهم فيها خوف ، ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلىٰ وأرفع من منزلة الخوف ومقامه .

والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال أبو عثمان - رضي الله عنه - : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً[2] .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : الخوف المحمود ، ما حجزك عن محارم الله .

وقال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

تعريف الهروي للخوف

«الخَوفُ : هُوَ الانخِلاعُ مِن طُمَأنِينَةِ الأَمنِ بمُطَالَعَةِ الخَبَرِ»[3] .

يعني الخروج عن سكون[4] الأمن ، باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد .

---

(١) في ط زيادة : هو .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ١٢٧ .

(٣) انظر : المنازل ٢٠ .

(٤) في ح٢ : سلوك .

درجات الخوف

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ[1] الأُولىٰ : الخَوفُ مِنَ العُقُوبةِ . وَهُوَ الخَوفُ الَّذِي يَصحُّ بِهِ الإِيمَانُ ، وَهُوَ خَوفُ العَامَّةِ . وَهُوَ يَتَوَلَّدُ مِن تَصدِيقِ الوَعِيدِ ، وَذِكرِ الجِنَايةِ ، وَمُرَاقَبَةِ العَاقِبةِ»[2] .

الدرجة الأولى الخوف من العقوبة

الخوف[3] مسبوق بالشعور والعلم ، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به . وله متعلقان[4] :

أحدهما : نفس المكروه المحذور وقوعه .

والثاني : السبب والطريق المفضي إليه . فعلىٰ قدر شعوره بإفضاء السبب إلىٰ المخوف ، وبقدر المخوف : يكون خوفه ، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلىٰ محذور كذا ، لم يخف من ذلك السبب . ومن اعتقد أنه يفضي إلىٰ مكروه ما ، ولم يعرف قدره : لم يخف منه ذلك الخوف . فإذا عرف قَدْر المخوف[5] ، وتيقَّن إفضاءَ السبب[6] ، حصل له لخوف .

هذا معنىٰ تولده من تصديق الوعيد ، وذِكْر الجناية ، ومراقبة العاقبة .

---

(١) «الدرجة» ساقطة من ق .

(٢) انظر : المنازل ٢٠ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : والخوف .

(٤) في ش : مقامان .

(٥) في م : الخوف .

(٦) في ط زيادة : إليه .

وفي مراقبة العاقبة[١] : زيادة استحضار المخوف ، وجعْله نصْبَ عينه[٢] ، بحيث لا ينساه ، فإنه -وإن كان عالما به- لكن نسيانه وعدم مراقبته ، يحول بين القلب[٣] وبين الخوف . فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان ، وترحُّله من القلب علامة ترحّلِ الإيمان[٤] .

فصل

الدرجة الثانية خوف المكر

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : خَوفُ المَكرِ فِي جَرَيَانِ الأَنفَاسِ المستَغرِقَةِ في اليَقَظَةِ ، المَشُوبَةِ بِالحَلاوَةِ»[٥] .

يريد : أن من حصلت له اليقظةُ بلا غفلة ، واستغرقت أنفاسه فيها ، واستحلىٰ[٦] ذلك . فإنه لا أحلىٰ من الحضور في اليقظة . فإنه ينبغي أن يخاف المكر ، وأن يسلب هذا الحضور ، واليقظة ، والحلاوة . فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال ، ورجع من حسن المعاملة إلىٰ قبيح[٧] الأعمال . فأصبح يقلب كفيه ، ويضرب باليمين علىٰ الشمال؟ بينما بدر أحواله مستنيراً في ليالي

---

(١) في م زيادة : قبله .

(٢) في ب ، م ، غ ، ح٢ : عينيه .

(٣) في الأصل زيادة : منه . ولا معنىٰ لها هنا .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : منه . والله أعلم .

(٥) انظر : المنازل ٢٠ .

(٦) في ط : استحلىٰ .

(٧) في د ، ق : أقبح .

التمام ، إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام . فبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضاً ، وبالتقريب[1] إبعاداً ، وبالجمع تفرقة . كما قيل :

أحسنت ظَنَّك بالأيام إذ حَسُنتْ ولم تخَف سُوءَ ما يأتي به القدَرُ

وسالمتْك الليالي فاغترَرْتَ بها وعند صَفْوِ الليالي يحدثُ الكدَرُ[2]

قال[3] : «**وَلَيسَ فِي مَقَامِ أَهلِ الخُصُوصِ وَحشَةُ الخَوفِ ، إِلَّا هَيبَةَ الجَلاَلِ . وَهِي أَقصَىٰ دَرَجَة يُشَارُ إِلَيهَا فِي غَايَةِ الخَوفِ**»[4] .

يعني أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة . وأهل الخصوص أهل وصول إلىٰ الله وقرب منه . فليس خوفهم خوف وحشة ، كخوف المسيئين المنقطعين؛ لأن الله عز وجل معهم بصفة الإقبال عليهم ، والمحبة لهم ، وهذا بخلاف هيبة الجلال ، فإنها متعلقة بذاته وصفاته . وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب ، كانت هيبة[5] جلاله في قلبه أعظم[6] . وهي

---

(١) في ح١ : بالتقرب .

(٢) البيتان للإمام الشافعي . انظر ديوانه ٤٤ . وقد ذكر القشيري أنه سمع الأستاذ أبا علي الدقاق ينشد كثيراً هذين البيتين . انظر : القشيرية ١٢٩ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : الدرجة الثالثة : درجة الخاصة .

(٤) انظر : المنازل ٢٠ لكن فيها : هيبة الإجلال .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : هيبته وإجلاله .

(٦) قال أحمد بن أبي عاصم الأنطاكي : «من كان بالله أعرف كان من الله أخوف» .
انظر : تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/ ٧٢٨ .

أعلىٰ من درجة خوف العامة .

قال : «وَهِيَ هَيبةٌ تُعَارِضُ المُكَاشِفَ أَوَقَاتَ المنُاَجَاةِ . وَتَصونُ المُشَاهِدَ[١] أَحيَانَ المُسَامَرَةِ ، وَتَفْصِمُ[٢] المعَايِنَ بِصَدْمَةِ العِزَّةِ»[٣] .

يعني أنه[٤] أكثر ما تكون «الهيبة» أوقات المناجاة . وهي[٥] وقت تملق العبد ربه ، وتضرعه بين يديه ، واستعطافه ، والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه أو مناجاته بكلامه . هذا هو مراد القوم بالمناجاة .

وهذه المناجاة : توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الرب ، ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته ، وتجليها عليه ، فتعارضه «الهيبة» في خلال هذه الأوقات . فتقبض[٦] من عنان مناجاته بحسب قوة واردها .

وأما صون المسامر أحيان المسامرة : فالمسامرة عندهم : أخص من المناجاة .

---

(١) في ط والجميع : المسافر .

(٢) في غ : تقصم .

(٣) المنازل ٢٠ وفيها «وتقصم المعاين» .

قلت : والفصم والقصم متقاربان في المعنىٰ ، ففصم الشيء كسره من غير أن يبين ، وقصم الشيء كسره حتىٰ يبين . انظر : مختار الصحاح ص٢١١ ، ٢٢٥ مادتي : فصم وقصم .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : أن .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : وهو .

(٦) في ط ، د ، ح٢ ، م ، ق : فيفيض .

وهي مخاطبة القلب للرب خطاب المحب لمحبوبه . فإن[١] لم تقارنها[٢] هيبة جلاله أخذت به في نوع[٣] الانبساط والإدلال . فتجيء الهيبة صائنة للمسامر في مسامرته من[٤] انخلاعه من أدب[٥] العبودية .

وأما فصمها[٦] المعاين بصدمة العزة : فإن «الفصم» هو[٧] : القطع . أي: تكاد تقتله ، وتمحقه بصدمة عزة الربوبية بمعانيها الثلاثة . وهي عزة الامتناع وعزة القوة والشدة ، وعزة السلطان والقهر ، فإذا صدمت المعاين كادت تفصمه[٨] وتمحق[٩] أثره ، إذ لا يقوم لعزة الربوبية شيء[١٠] .

* * *

(١) في ب : وإن .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : يقارنها .

(٣)«نوع» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ، غ ، ح١ ، ب ، أ : عن .

(٥) في ح٢ ، م : آداب .

(٦) في غ : قصمها .

(٧) (هو) ساقط من الأصل والجميع ، وما أثبته من ط والسياق يقتضيه .

(٨) في غ : تقصمه .

(٩) في ح٢ ، م : تمحو .

(١٠) في ط ، ق زيادة : والله أعلم .

فصل

القلب في سيره إلى الله

القلب في سيره إلىٰ الله تعالىٰ بمنزلة الطائر . فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه . فمتىٰ سلم الرأس والجناحان ، فالطير[1] جيد الطيران . ومتىٰ قطع الرأس ، مات الطائر . ومتىٰ عُدم[2] الجناحان ، فهو عرضة لكل صائد وكاسر؛ لكن[3] السلف استحبوا أن يقوىٰ في الصحة جناح الخوف علىٰ جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا ، يقوىٰ جناح الرجاء علىٰ جناح[4] الخوف[5] . هذه طريقة أبي سليمان وغيره[6] .

قال : ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ، فإنه إذا كان[7] الغالب عليه الرجاء فسد[8] .

وقال غيره : أكمل الأحوال ، اعتدال الرجاء والخوف ، وغلبة الحب . فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق ، والله الموصِلُ بمنّه وكرمه.

---

(١) في ط : فالطائر .

(٢) في ط : فقد .

(٣) في ط والجميع : ولكن .

(٤) «جناح» ساقطة من م .

(٥) قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحاً ، فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل . انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٣٢ .

(٦) في ب ، ق زيادة : فإنه .

(٧) في ط : فإن غلب عليه .

(٨) انظر : القشيرية ٢٨ .

فصل

منزلة الإشفاق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإشفاق»[١] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٧] .

«الإشفاق» رقة الخوف[٢] . وهو خوف برحمة[٣] من الخائف لمن يخاف عليه ، فنسبته إلىٰ الخوف نسبة الرأفة إلىٰ الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها. ولهذا قال صاحب المنازل رحمه الله :

تعريف الإشفاق ودرجاته

«الإِشفَاقُ : دَوَامُ الحَذَرِ ، مَقرُوناً بِالتَّرحُّم . وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاثِ دَرَجَاتٍ : الأُولَىٰ : إِشفَاقٌ عَلَىٰ النَّفسِ أَن تجمَحَ إِلَىٰ العِنَادِ»[٤] .

الدرجة الأولى

أي تسرع وتذهب إلىٰ طريق الهوىٰ والعصيان ، ومعاندة العبودية .

---

(١) الإشفاق عند الصوفية : هو دوام الحذر مقروناً بالترحم ، وعرفاً إشفاق العامة علىٰ أنفسهم تجنح إلىٰ المعاصي وتترك الطاعات ، وإشفاق المريد علىٰ وقته من تفرق قلبه عن الحضور مع ربه . انظر : لطائف الإعلام ١٠/ ٢٠٢ .

(٢) في د : القلب وفي هامشها : الخوف .

(٣) أي خوف مقرون برحمة .

(٤) انظر : المنازل ٢١ .

«وإِشْفَاقٌ عَلىٰ العَمَلِ : أَنْ يَصيرَ إِلىٰ الضَّيَاعِ»[١] .

أي يخاف علىٰ عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله تعالىٰ فيها : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] وهي الأعمال التي كانت لغير الله ، وعلىٰ غير أمره[٢] وسنة رسوله ، ويخاف أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل ، إما بتركه ، وإما بمعاصي[٣] تفرقه وتحبط به[٤] فيذهب ضائعاً . ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالىٰ[٥] : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ[٦] وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة :٢٦٦] ، قال عمر[٧] رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم يوماً[٨] : «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا نعلم ، أو لا نعلم . فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال : يا ابن أخي قل ، ولا تحقرن نفسك . قال ابن

---

(١) انظر : المنازل ٢١ .

(٢) في ح٢ ، م : مراده .

(٣) في ش : وإما بمعارض بفرقه .

(٤) في ط : وتخبطه وفي ش : يحيط به .

(٥) في ط زيادة : عن أصحابها .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش كتبت الآية إلىٰ قوله : ﴿كل الثمرات﴾ .

(٧) في ط ، ق زيادة : ابن الخطاب .

(٨) «يوماً» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

عباس - رضي الله عنهما - : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر : أي عمل؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر[1] : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، فبعث الله له[2] الشيطان . فعمل بالمعاصي حتىٰ أغرق[3][4] أعماله»[5] .

قال : «وَإِشفَاقٌ عَلَىٰ الخَلِيقَةِ لِمَعْرِفَةِ[6] مَعَاذِيرِهَا»[7] .

هذا قد يوهم نوع تناقض . فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر؟ وليس بمتناقض ، فإن الإشفاق -كما تقدم- خوف مقرون برحمة . فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهي ، مع نوع رحمة ، بملاحظة جريان القدر عليهم .

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : إِشْفَاقٌ عَلَىٰ الوَقْتِ : أَن[8] يَشُوبَهُ تَفَرُّقٌ»[9] .

أي يحذر علىٰ وقته ، أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل .

قال : «وَعَلَىٰ القَلْبِ ، أَن يُزَاحِمَهُ عَارِضٌ»[10] .

---

(١) «قال عمر» ساقط من ح٢ .

(٢) في ط ، ح١ ، غ ، ب : إليه .

(٣) في ب ، أ : أحرق .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : جميع .

(٥) رواه البخاري ٨/ ٢٠١-٢٠٢ في كتاب التفسير باب ، قوله : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة... ﴾ الآية ، ح ٤٥٣٨ ، وانظر : تفسير الطبري ٣/ ٧٥ ، ٧٦ .

(٦) في ش : يفهم وفي هامشها : لمعرفة .

(٧) انظر : المنازل ٢١ .

(٨) في غ : أن لا يشوبه .

(٩) انظر : المنازل ٢١ .

(١٠) انظر : المنازل ٢١ .

والعارض المزاحم : إما فترة ، وإما شبهة ، وإما شهوة . وهو كل[1] سبب يعوق السالك .

قال : «وَعَلَىٰ اليَقِينِ : أَن يُدَاخِلَهُ سَبَبٌ»[2] .

هو الطمأنينة إلىٰ من الأسباب كلها بيديه[3] ، فمتىٰ داخل[4] يقينه ركونٌ إلىٰ سبب ، وتعلقٌ به ، وطمأنينة[5] إليه : قدح ذلك في يقينه . وليس المراد : قطع الأسباب عن أن تكون أسباباً، والإعراض عنها، فإن هذا زندقة وكفر و محال. فإن الرسول سبب في حصول الهداية والإيمان .

والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة[6] . والكفر سبب لدخول النار . والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها؛ ولكن الذي يُريد[7] : أن يُحذِّر من[8] إضافة يقينه إلىٰ سبب غير الله ، ولا يتعلق بالأسباب؛ بل يفنىٰ بالمسبب عنها .

والشيخ ـ رحمه الله ـ ممن يبالغ في إنكار الأسباب[9] ، ولا يرىٰ وراء الفناء

---

(١) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، أ : وكل سبب .

(٢) انظر : المنازل ٢١ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، د : من بيده الأسباب كلها .

(٤) في م : دخل .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : واطمأن .

(٦) في ط زيادة : ودخول الجنة .

(٧) أي الهروي .

(٨) في ط : منه .

(٩) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٤ وما بعدها ، ومسألة الأخذ بالأسباب أو تركها الناس فيها علىٰ أربعة أقسام :

=

= القسم الأول : من نفىٰ تأثير الأسباب بالكلية وهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان ، ومن قال بقوله من الأشاعرة . انظر : الإرشاد للجويني ص١٩٠-٢٠٣ ، ومدارج السالكين ٣/ ٣٩٥ ، وموقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ٣١٣ .

وقولهم هذا مبني علىٰ إنكارهم الحكم والتعليل ، ونفي الحسن والقبيح ، ولوازمه الفاسدة لا تحصىٰ ونتائجه القيمة غير مقبولة عقلاً؛ بل مردودة شرعاً ، فمحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل ، ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة .

انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٥ ، ومدارج السالكين ٣/ ٤٩٩ ، وشرح الطحاوية ٤٥٧ ، ورد عليهم ابن القيم بأكثر من ستين وجهاً . انظر : مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٨ ، طريق الهجرتين ص١٧٧-١٧٨ .

القسم الثاني : من يعتمد علىٰ الأسباب من غير نظر إلىٰ مسببها ، وهذا شرك في التوحيد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر :مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٧٦ ، لأن هؤلاء نظروا إلىٰ الأسباب وعلىٰ أنها مستقلة بذاتها ، وهي الضارة والنافعة ، وهذا القول اشتهر به القدرية النفاة والماديون والعقلانيون ، وهذه مخالفة لنصوص الكتاب والسنة ، بل وللحس ، فإن الحس شاهد بأن الأسباب قد تنعقد ولا يحصل المراد . وقد فصّل الرد عليهم الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ١/ ٩٢ ، وانظر قولهم هذا في : تهافت الفلاسفة للغزالي ١٦٩ ، والاستقامة لشيخ الإسلام ١/ ١٤٧ ، والمعتزلة وأصولهم الخمسة ١٥١ .

القسم الثالث : من يؤمن بالأسباب؛ لكنه يعرض عنها ويهمل الأخذ بها زعماً منهم أن الأخذ بالأسباب ينافي حقيقة التوكل ويقدح فيه ، وهذا عُرف به بعض الصوفية ، لذا جاءت عباراتهم مبهمة غامضة وتصرفاتهم واضحة في الإهمال . انظر : مدارج السالكين ٢/ ١١٧ ، وطبقات الصوفية للسلمي ٤١٤ ، والرسالة القشيرية ١٦٢ ، ومجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٥ ، ١٧١ .

ولما ذكر ابن القيم هذا الصنف من الناس قال : هؤلاء درجتهم ناقصة عن العارفين ، ومع هذا فلا يمكن بشراً البتة ترك الأسباب جملة ، وهذا موضع اشتباه بين الجهمية والأشاعرة وبين الصوفية ، فإن خلع الأسباب غير تعطيلها ، فالخلع نوع من عدم الاعتماد ، والتعطيل =

في توحيد الربوبية غاية . وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب ، يرجع إلىٰ هذين الأصلين . وقد عرفت ما فيهما ، وأن الصواب خلافهما ، وهو إثبات الأسباب والقُوىٰ . وأن الفناء في توحيد الربوبية ليس هو غاية الطريق؛ بل فوقه ما هو أجلّ منه وأعلىٰ وأشرف .

ومن هاتين القاعدتين عرض في كتابه من الأمور التي أُنكرت عليه ما عرض .

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : إِشفَاقٌ يَصُونُ سَعيَه عَنِ العُجْبِ ، وَيَكُفُّ صَاحِبَه عَن مُخَاصَمَةِ الخَلقِ ، وَيحمِلُ المُرِيدَ عَلَىٰ حِفظِ الجِدِّ**»(١) .

الأول : يتعلق بالعمل(٢) . والثاني : بالخلق . والثالث : بالإرادة ، وكل منها له ما يفسده .

فالعجب : يفسد العمل كما يفسده الرياء ، فيشفق علىٰ سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

للخلق : مفسدة للخلق ، فيشفق علىٰ خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

= إلغاء يوصل إلىٰ الزندقة ، والتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً . انظر : المدارج ٢/ ١٣٣ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١/ ٩٦-٩٧ .

القسم الرابع : من يأخذ بالأسباب ويعتمد علىٰ مسببها وهو الله سبحانه وتعالىٰ ، وهم أهل السنة والجماعة وهذا هو الذي تقتضيه الأدلة الشرعية والعقلية، وهو إثبات الأسباب وأثرها في مسبباتها ، بما أودعه الله فيها من القوىٰ المقتضية لآثارها . انظر المدارج ٣/ ٥٠٠ .

(١) المنازل ٢١ .

(٢) في ب : النفس ، وفي هامشها : العمل .

والإرادة : يفسدها عدم الجد . وهو الهزل واللعب ، فيشفق علىٰ إرادته مما يفسدها . فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته ، استقام سلوكه وقلبه وحاله . والله المستعان[1] .

* * *

(١) بهذا انتهىٰ الجزء الأول من المخطوطة الأصل ويبدأ الجزء الثاني من منزلة الخشوع .

فصل

منزلة الخشوع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «**الخشوع**»[١].

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»[٢].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين. فعاتبهم علىٰ رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن»[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

تعريف الخشوع

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون[٤]، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت وذلت، وخضعت،

---

(١) الخشوع عند الصوفية: عبارة عن خمود النفس وهمود الطباع، وهو سكونها هيبة وتعظيمها لمن تخشىٰ سطوته وتتقىٰ نقمته، وهو درجات: فهو للعامة رهبة من الوعيد وخوف من التهديد، وللخاصة حفظ الحرمة وتجريد القصد. انظر: لطائف الإعلام ١/ ٤٤٣-٤٤٤، والتعريفات ١١٠.

(٢) رواه مسلم ٤/ ٢٣١٩ في كتاب التفسير، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم﴾ رقم ٣٠٢٧، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٩٧، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٥٥٨.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٣٣٨، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٩٧، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٥٥٨.

(٤) انظر: لسان العرب ٤/ ١٠٠ مادة خشع.

ومنه وصف الأرض بالخشوع . وهو يبسها ، وانخفاضها ، وعدم ارتفاعها[١] بالري والنبات . قال تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت : ٣٩] .

و «الخشوع» قيام القلب بين يدي[٢] الرب[٣] تعالىٰ بالخضوع والذلة[٤] والجمعية عليه .

وقيل : «الخشوع» الانقياد للحق[٥] . وهذا من موجبات الخشوع .

فمن علاماته : أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق ، استقبل ذلك بالقبول والانقياد .

وقيل : «الخشوع» خمود نيران الشهوة . وسكون دخان الصدر[٦] ، وإشراق نور التعظيم في القلب[٧] .

وقال الجنيد[٨] - رحمه الله - «الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب»[٩]

---

(١) في د : انتفاعها .

(٢) «يدي» ساقطة من ح١ .

(٣) في أ : الله .

(٤) في ط ، غ ، ب ، ح١ : الذل .

(٥) انظر : القشيرية ١٤٥ .

(٦) في الجميع سوىٰ ش ، ط : الصدور .

(٧) انظر : القشيرية ١٤٥ ، وقد نسب هذا القول لمحمد بن علي الترمذي- الحكيم الترمذي .

(٨) في غ : الجنيدي .

(٩) انظر : القشيرية ١٤٥ .

وأجمع العارفون علىٰ أن «الخشوع» محله القلب [١] . وثمرته علىٰ الجوارح ، فهي [٢] تظهره [٣] . و«رأىٰ النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» [٤][٥] . ورأىٰ بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن . فقال : يا فلان ، الخشوع هاهنا ، وأشار إلىٰ صدره . لا هاهنا . وأشار إلىٰ منكبيه [٦] .

وكان بعض الصحابة -رضي الله عنهم- وهو حذيفة ، يقول : «أعوذ بالله من خشوع النفاق [٧] . فقيل له : وما خشوع النفاق؟ فقال: أن يُرىٰ البدن خاشعاً

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٤٥ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : وهي .

(٣) في ب : تظهر .

(٤) ذكره السيوطي في التفسير ٦/ ٨٥ عن الحكيم الترمذي ، وفي الجامع الصغير ٢/ ١٣٠ . وقال : رواه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة ورمز له بالضعف ، ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ١٩٤ عن حذيفة وابن المسيب ، وذكره ابن حجر في الفتح ٢/ ٢٢٥ ، وقال العراقي في المغني : ضعيف ، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب ، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم . انظر : المغني عن حمل الأسفار - بهامش الإحياء - ١/ ٢١٢ ، وقال الألباني : الحديث موضوع مرفوعاً ، وضعيف موقوفاً؛ بل مقطوعاً . انظر : الضعيفة ١/ ١٤٤ .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال النبي ﷺ :«التقوىٰ هاهنا وأشار إلىٰ صدره ثلاث مرات» . وقال بعض العارفين : «حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن» .

(٦) انظر : القشيرية ١٤٥ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : يقول :«إياكم وخشوع النفاق . . . » .

والقلب غير خاشع»[1][2].

وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه[3].

وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع[4]. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترىٰ فيهم خاشعاً»[5].

وقال سهل ـ رحمه الله ـ: «من خشع قلبه لم يقرب[6] منه الشيطان»[7].

(١) لم أجد هذا الأثر عن حذيفة وإنما وجدته عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ. انظر: الزهد للإمام أحمد ١٧٦ وفيه: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق...».

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: ورأىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب. ورأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشىٰ أسرع. وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقاً.

(٣) انظر: القشيرية ١٤٦.

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة: «وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. وربَّ مصل لا خير فيه».

(٥) روىٰ أول هذا الأثر الإمام أحمد في كتاب الزهد ٢٢٤، وذكره القشيري. انظر: القشيرية، ١٤٥.

(٦) في م، ح٢: يقربه.

(٧) انظر: القشيرية ١٤٥.

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

تعريف الهروي للخشوع

«الخُشُوعُ : خُمُودُ النَّفْس ، وَهُمُودُ الطِّبَاعِ لمتُعَاظِمٍ ، أَو مُفْزِعٍ»[١] .

يعني : انقباض النفس والطبع ، وهو- خمود قوىٰ النفس عن الانبساط لمن له في القلوب عظمة ومهابة ، أو لما يفزع منه القلب .

والحق : أن «الخشوع» معنىٰ يلتئم من التعظيم ، والمحبة ، والذل والانكسار .

درجات الخشوع

قال : «وَهُوَ عَلىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : التَّذَلُّلُ لِلأَمرِ ، وَالاستِسلاَمُ لِلحُكْمِ ، والاتِّضَاعُ لِنَظَرِ الحَقِّ»[٢] .

الدرجة الأولى من درجات الخشوع

التذلل للأمر : تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال[٣] ، ومواطأة الظاهر الباطن ، مع إظهار الضعف ، والافتقار إلىٰ الهداية للأمر قبل الفعل ، والإعانة عليه حال الفعل ، وقبوله بعد الفعل .

وأما الاستسلام للحكم ، فيجوز أن يريد به : الحكمَ الدينيَّ الشرعيَّ فيكون معناه : عدم معارضته برأي أو شهوة . وأن يريد[٤] به : الاستسلام للحكم القدريِّ ، وهو عدم تلقّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض .

(١) انظر : المنازل ٢١ .

(٢) انظر : المنازل ٢١ ، ٢٢ .

(٣) في ب زيادة : وتسليم القلب .

(٤) في ح٢ ، م : أريد ، وفي ط : أن يريد .

والحق: أن «الخشوع» هو[1] الاستسلام للحكمين. وهو الانقياد بالمسكنة، والذلّ لأمره وقضائه[2].

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح [وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه علىٰ تفاصيل ما في القلب والجوارح][3]. وهذا أحد التأويلين في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وهو مقام الرب علىٰ عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة. وكلما كان أشدَّ استحضاراً له كان أشدَّ خشوعاً، وإنما يفارق القلب الخشوع[4] إذا غفل عن اطلاع الله تعالىٰ عليه، ونظره إليه.

والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه[5].

فعلىٰ الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلىٰ الفاعل.

وعلىٰ الثاني: - وهو أليق بالآية - يكون[6] من باب إضافة المصدر إلىٰ

(١) «هو» ساقط من الأصل والجميع وما أثبته من ط والسياق يقتضيه.

(٢) في ط: لأمر الله.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢، م، وموجود في هامش م.

(٤) «الخشوع» ساقطة من ط، ق.

(٥) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣، وأضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٧٥٦.

(٦) «يكون» ساقطة من الجميع سوىٰ ش، ط.

المخوف[١][٢] .

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَرَقُّبُ آفَاتِ النَّفْسِ وَالعَمَلِ ، وَرُؤيةُ فَضْلِ كُلِّ ذِي فَضلٍ عَلَيكَ ، وَتَنَسُّمُ نَسِيمِ الفَنَاءِ» [٣] .

يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك ، وعيوبهما لك . فإنه يجعل القلب خاشعاً لا محالة ، لمطالعة عيوب نفسه وأعمالها ونقائصهما[٤] : من الكبر والعجب ، والرياء ، وضعف الصدق ، وقلة اليقين ، وتشتت النية ، وعدم تجرد الباعث من هوىٰ نفساني[٥] ، [وعدم إيقاع العمل علىٰ الوجه الذي ترضاه لربك ، وغير ذلك من عيوب النفس][٦] ، ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك. فهو[٧] أن تراعي حقوق الناس فتؤديها، ولا ترىٰ أن ما فعلوه[٨] معك[٩] من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها، فإن

(١) في ح٢ : المفعول .

(٢) في ط ، ق زيادة : والله أعلم .

(٣) انظر : المنازل ٢٢ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : وأعماله ونقائصهما .

(٥) في ط : من الهوىٰ النفساني .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من م .

(٧) في ش : وهو .

(٨) في ب : يفعلوه .

(٩)«معك» ساقطة من ط .

هذا من رعونات النفس وحماقاتها ، ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنسىٰ فضل نفسك[١] .

وسمعت[٢] شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول : العارف لا يرىٰ له علىٰ أحد حقاً ، ولا يشهد له علىٰ غيره فضلاً . فلذلك[٣] لا يُعاتِبُ ، ولا يُطالبُ ، ولا يُضَارِبُ .

وأما تنسم نسيم الفناء : فلما كان الفناء عنده[٤] غاية ، جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقّته . وعبّر عنها بالنسيم للُطْف موقعه من الروح ، وشدة تشبُّثها به . ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلىٰ الفناء ، فاضلهُ ومفضولهُ .

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : حِفظُ الحُرمَةِ عِندَ المُكَاشَفَةِ ، وَتَصفِيةُ الوَقتِ مِن مُرَاءَاةِ الخَلقِ ، وَتجَرِيدُ رُؤْيَةِ الفَضلِ»[٥] .

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة : فهو ضبط النفس بالذل والانكسار ، عن البسط والإدلال الذي تقتضيه المكاشفة. فإن المكاشفة توجب بسطاً[٦] .

---

(١) «فضل نفسك» ساقط من ب وهو في هامشها .

(٢) في ب : وكان .

(٣) في ط : ولذلك .

(٤)«عنده» ساقطة من ح١ ، غ ، ب ، أ .

(٥) انظر : المنازل ٢٢ .

(٦) البسط : التوسعة ، وبسط الشيء : نشره . انظر : لسان العرب ١/ ٤٠٨ مادة : بسط .

ويخاف منه شطح[1] ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأما تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أنه يصفي وقته عن الرياء ، فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدراً وأعلىٰ من ذلك .

وإنما المراد : أنه يخفي أحواله عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره ، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها ، ورؤيتهم لها . فيفسد عليه قلبه ووقته[2] وحاله مع الله تعالىٰ . وكم قد اقتطع[3] في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله . فلا شيء أنفع[4] للصادق[5] من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل ، وأنه لا شيء ، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتىٰ يدعي

والبسط عند الصوفية : عبارة عن كون النفس في ما هي بسبيله علىٰ نشاط وطرب وبهجة يتسع معها لقبول الواردات وهو ضد القبض .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٢٨٣ معجم مصطلحات الصوفية ٤٢ .

(١) الشطح : شَطَح في السير أو القول : تباعد واسترسل ، والشطحة : يقال: فلان الصوفي له أحوال وشطحات . انظر : المعجم الوسيط ١/ ٤٨٢ مادة شطح .

والشطح عند الصوفية : كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوىٰ إلا أن يكون صاحبه مستلباً و محظوظاً ، وقيل : هو عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوىٰ ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب ، وهو من زلات المحققين ، فإنه دعوىٰ حتىٰ يفصح بها العارف، لكن من غير إذن إلهي. انظر : التعريفات ١٤٤، المعجم الصوفي ١٣٤ .

(٢) في ط ، ق : وقته وقلبه .

(٣) في ش ، ح٢ ، م : انقطع .

(٤)«أنفع» ساقطة من ق وهي في هامشها .

(٥) في ق : في الصادق .

الشرف [١] .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيراً : ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا في شيء . وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المكُدِّي وابن المُكَدِّي [٢]   وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أثنىٰ عليه في وجهه يقول : والله إني إلىٰ الآن أجدد إسلامي كل وقت . وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً .

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه . وعلىٰ ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقير إلىٰ ربِّ البريَّات [٣]   أنا المُسَيكين [٤] في مجموع حالاتي
أنا الظَّلومُ لنفسي وهيَ ظالمتي   والخيرُ إن جاءنا [٥] من عنده يأتي
[لا أستطيعُ لنفسي جلبَ منفعة   ولا عن النفس لىٰ دفعُ المضرَّات

(١) في ط زيادة : فيه .

(٢) كدت الأرض : أبطأ نباتها . وكدىٰ الرجل يَكْدي وأكدىٰ : قلل عطاءه ، وقيل : بخل وقلَّ خيره وفي التنزيل : ﴿وأعطىٰ قليلاً وأكدىٰ﴾ [النجم : ٣٤] وأكدىٰ الرجل : افتقر بعد غنىٰ .
انظر : لسان العرب ١٢/ ٤٩ ، المعجم الوسيط ٧٨٠ مادة : كدىٰ .

(٣) في ق : البرايا .

(٤) في ق ، ح١ ، أ ، م : المسكين .

(٥) في ط والجميع :يأتنا .

وليس لي دونه مولىٰ يدبِّرُني	ولا شفيعٌ إلىٰ ربِّ السموات[1]
إلا بإذنٍ من الرحمن خالِقنا	إلىٰ الشفيعِ كما قد جا بآيات[2]][3]
ولستُ أملك شيئاً دونه أبداً	ولا شريكٌ أنا في بعض ذرات
ولا ظهيرٌ له كي يستعين به	كما يكون لأرباب[4] الولايات
[والفقرُ لي وصفُ ذات لازمٌ أبداً	كما الغنىٰ أبداً وصفٌ له ذاتي
وهذه الحالُ حالُ الخلق أجمعهم	وكلُّهم عنده عبدٌ له آتي
فمن بَغَىٰ مطلباً من غير خالقه	فهو الظَّلومُ[5] الجهولُ المشركُ العاتي][6]
والحمدُ لله ملءُ الكون أجمعُه	ما كان منه وما من بعده[7][8] يأتي[9]

---

(١) في ق : إلىٰ رب البريات ، وفي ط والجميع : إذا حاطت خطيئاتي .

(٢) في ط والجميع : في الآيات . وفي العقود الدرية شطر البيت هكذا :

ورب السماء كما قد جاء في الآيات

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٤) في ق : من أرباب .

(٥) في ط والجميع : فهو الجهول الظلوم . . .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٧) في ط : من بعد قد يأتي .

(٨) في ق : آتي .

(٩) انظر : ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ص٧٤ ، وكذلك العقود الدرية لابن عبدالهادي ص٣٧٥ وقد جاء فيهما بيت بعد هذا الأخير قوله :

ثم الصلاة علىٰ المختار من مُضَرٍ خيرِ البرية من ماضي ومن آتي

وأما **تجريد رؤية الفضل** : فهو أن لا يرىٰ الفضل والإحسان إلا مِنَ الله . فهو المانُّ به بلا سبب منك ، ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة ، ولا وسيلة سبقت منك توسلت بها إلىٰ إحسانه .

والتجريد : هو تخليص شهود الفضل لوليه ، حتىٰ لا ينسبه إلىٰ غيره . وإلا فهو في نفسه مجرد عن النسبة إلىٰ سواه . وإنما الشأن في تجريده في الشهود ، ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر . والله أعلم .

فصل

حكم صلاة من عَدِمَ الخشوع

فإن قيل : فما تقولون في صلاة من عدم الخشوع في صلاته[1] : هل يعتد له[2] بها أم لا؟

قيل[3] : أما الاعتداد بها في الثواب ، فلا يعتد له منها[4] . إلا بما عقل فيه[5] ، وخشع فيه لربه .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»[6] .

---

(١) «في صلاته» ساقط من ط .

(٢) «له» ساقطة من ط ، ح١ ، ب ، أ .

(٣) «قيل» ساقطة من د .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : فيها .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ زيادة : منها .

(٦) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ٢٢٤ مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ ، قال العراقي : لم أجده مرفوعاً .

وفي السنن[1] والمسند مرفوعاً : «إن العبد ليصلي الصلاة ، ولم يكتب له إلا نصفها ، إلا[2] ثلثها ، إلا ربعها - حتىٰ بلغ عشرها»[3] .

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم[4] ، فدل علىٰ أن من لم يخشع فيها[5] ، فليس من أهل الفلاح ، ولو اعتدّ له بها ثواباً لكان من المفلحين .

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا ، وسقوط القضاء : فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها[6] اعتد بها إجماعاً . وكانت السنن ، والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها .

وروىٰ محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً «لا يقبل الله من عبد عملاً حتىٰ يشهد قلبه مع بدنه» . ورواه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من حديث أبي بن كعب ، ولابن المبارك في الزهد موقوفاً علىٰ عمار: «لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه» . انظر : المغني بهامش الإحياء ١/ ٢٢٤ .

(١) «السنن» ساقطة من ط .

(٢) في ط ، ش : أو .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٤١٩ ، وابن حبان في صحيحه ٣/ ١٨٢ ، ح١٨٨٦ ، وأبو داود ١/ ٥٠٣ بلفظ « الرجل لينصرف وما كتب ... » ، في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في نقصان الصلاة ، ح٧٩٦ ، والحميدي في المسند ١/ ٧٩-٨٠ ، ح١٤٥ ، قال العراقي : أخرجه أحمد بإسناد حسن ، انظر : المغني بهامش الإحياء ١/ ٢٤٠ ، وحسنه الألباني : صحيح سنن أبي داود ١/ ١٥١ ح٧١٤ .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [المؤمنون: ١ ، ٢] .

(٥) « فيها» ساقطة من ط .

(٦) في د : وتعلقها .

وإن غلب عليه[1] عدم الخشوع فيها، وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوجبها[2] أبو عبدالله بن حامد[3] من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه[4] لا في وسيطه[5] وبسيطه[6].

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ولم[7] يسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة، ومقصودها ولبُّها، فكيف يعتدّ بصلاة فقدتْ روحَها ولبَّها، وبقيتْ صورتُها وظاهرُها؟

قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً، لأبطلها تركه. وغايته[8]: أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها ولبّها ومقصودها؟ وصارت بمنزلة العبد

---

(١) في د، ق: عليها.

(٢) في د: فأوجب.

(٣) أبو عبدالله الحسن بن حامد بن علي بن مروان الوراق الحنبلي البغدادي شيخ الحنابلة ومفتيهم في زمانه، صنف كتاباً في الفقه وأصوله، له مكانة في النفوس، ومقدماً عند السلطان، كان شديد الزهد والورع، كثير الحج مات سنة ٤٠٣هـ.

ترجمته في: السير ١٧/ ٢٠٣، البداية والنهاية ١١/ ٣٧٣، شذرات الذهب ٣/ ١٦٦.

(٤) انظر: الإحياء ١/ ٢٢٤ وما بعدها.

(٥) يعني به كتاب الوسيط في المذهب وهو كتاب مطبوع.

(٦) البسيط للغزالي وهو مخطوط. انظر: الأعلام ٧/ ٢٢ ومقدمة كتاب الإحياء ١/ ٧.

(٧) في ط: ويسقط.

(٨) في الأصل: وغايتها، وما أثبته من الجميع.

الميت . فإذا[1] لم يعتد بالعبد المقطوع اليد ، بعتقه[2] تقرباً إلىٰ الله تعالىٰ في كفارة واجبة ، فكيف يعتد بالعبد الميت؟

ولهذا قال[3] بعض السلف : الصلاة كجارية تهدىٰ إلىٰ ملك من الملوك . فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء ، أو عوراء ، أو عمياء ، أو مقطوعة اليد والرِّجل ، أو مريضة ، أو زَمِنَةً[4] ، أو قبيحة ، حتىٰ يهدي جارية[5] ميتة بلا روح أو جارية[6] قبيحة . فهكذا[7] الصلاة التي يهديها العبد ، ويتقرب بها إلىٰ ربه تعالىٰ . والله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وليس من العمل الطيب ، صلاة لا روح فيها . كما أنه ليس من العتق الطيب ، عتق عبد لا روح فيه .

قالوا[8] : وتعطيل القلب عن [عبودية الحضور والخشوع : تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته ، وعزل له عنها . فماذا تغني طاعة][9] الرعية وعبوديتها ،

---

(١) في ط : إذا .

(٢) في ط : يعتقه .

(٣) في ط ، وش : وقال .

(٤) في ط ، ش : ذميمة . والزَّمِنُ هو المريض مرضاً طويلاً ، والضعيف بكبر سنٍّ أو مطاولة علة .

انظر : المعجم الوسيط ٤٠١ مادة : زمن .

(٥) في ط زيادة : إليه .

(٦) في ط : وجارية .

(٧) في ط : فكيف .

(٨) في د : قال .

(٩) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وهو في هامشها .

وقد عُزل ملكَها وتعطَّل .

قالوا : والأعضاء تابعة للقلب ، تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . فإذا لم يكن قائماً بعبوديته ، فالأعضاء أولىٰ أن لا يُعتدّ بعبوديتها ، وإذا فسدت عبوديتُه -بالغفلة والوسواس- فأنىٰ تصح عبوديةُ رعيّته وجندِه ، ومادّتهم[1] منه ، وعن أمره يصدرون ، وبه يأتمرون[2]؟

قالوا : وفي الترمذي وغيره مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ : «**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل**»[3] ، وهذا إما خاص بدعاء العبادة ، وإما عام له ولدعاء المسألة ، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو حق العبد[4] فهو تنبيه علىٰ أنه دعاء العبادة الذي هو خالص[5] حقه من قلب غافل .

---

(١) في د : ومادته .

(٢) في ق : وبه يأتمون وبأمره يأتمرون .

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥١٧-٥١٨ في كتاب الدعوات ، باب ٦٦ ح٣٤٧٩ وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٠ - ٦٧١ ح١٨١٧ وقال : هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة ولم يخرجاه ، ورده الذهبي بقوله : صالح متروك الحديث . وذكره المنذري في الترغيب ٢/ ٤٩١-٤٩٢ وقال : صالح المري لا شك في زهده لكن تركه أبو داود والنسائي ، وذكره الألباني في الصحيحة ٢/ ١٤٣ ح٥٩٤ وقال : لكن روي له شاهد بسند ضعيف رواه أحمد ٢/ ١٧٧ عن ابن عمرو . وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف ، وفي أول حديثه زيادة :«**القلوب أوعية بعضها أوعىٰ من بعض ، فإذا سألتم الله فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة . . .**» الحديث .

(٤) في ط : أبعد ، وفي ش : في العبد .

(٥) في ط : خاص .

قالوا : ولأن عبودية من غلبت[1] عليه الغفلة ، والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص[2] . فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد . والغافل[3] لا قصدَ له ، فلا عبوديةَ له .

قالوا : وقد قال تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون :٤-٥] ، وليس السهو عنها تركها ، وإلا لم يكونوا مصلين ، وإنما هو السهو عن واجبها : إما[4] الوقت ، كما قال ابن مسعود وغيره . وإما[5] الحضور والخشوع[6] ، والصواب : أنه يعم النوعين . فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب ، أو[7] إخلاصها وحضورها الواجب ، ولذلك وصفهم بالرياء . ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء . قالوا : ولو قدّرنا أنه السهو عن واجب الوقت[8] فقط ، فهو تنبيه علىٰ التوعد بالويل علىٰ سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولىٰ [لوجوه :

---

(١) في الأصل والجميع سوىٰ ط : غلب ، وما أثبته من ط وهو الذي يقتضيه السياق .

(٢) في الأصل والجميع سوىٰ ط ، د ، ق : الإخلاص ، وما أثبته منهما .

(٣) في ق ، د زيادة : الساهي .

(٤) في ط زيادة : عن .

(٥) في ط زيادة : عن .

(٦) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٧٠٦-٧٠٨ فقد ذكر هذين الرأيين وغيرهما ، وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٧) في ط زيادة : عن .

(٨) «الوقت» ساقطة من ط .

أحدها : أن الوقت يسقط في حال العذر ، وينتقل إلىٰ بدله . والإخلاص والحضور][1] لا يسقط بحال ، ولا بدل له .

الثاني : أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور . فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور ، كالمسافر ، والمريض ، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلىٰ الجمع ، كما نص عليه أحمد وغيره[2] .

فبالجملة : مصلحة الإخلاص والحضور ، وجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ في الصلاة؛ أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها . فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة ، أو اعتدال في ركن ، أو ترك حرف ، أو شدة من القراءة[3] الواجبة ، أو ترك تسبيحة ، أو قول «سمع الله لمن حمده» ، أو[4] «ربنا ولك الحمد»، أو ذكر[5] رسوله[6] بالصلاة عليه. ثم يصححها مع فوات[7] لُبِّها ، ومقصودها الأعظم ، وروحها وسرها . فهذا ما احتجت به هذه الطائفة . وهي حجج - كما تراها - قوة وظهوراً .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وهو في هامشها .

(٢) انظر : المغني ٣/ ١٣٥ .

(٣) في ط : القرآن .

(٤) في ط زيادة :قول .

(٥) في ق : وذكر .

(٦) في ط : رسول الله .

(٧) في ط : فَوْت .

قال أصحاب القول الآخر : : قد ثبت عن النبي [١] ﷺ في الصحيح أنه قال : «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان ، وله ضراط [٢] حتىٰ لا يسمع التأذين . فإذا قضىٰ التأذين أقبل . فإذا ثُوِّب [٣] بالصلاة أدبر . فإذا قضىٰ التثويب أقبل حتىٰ يخطر بين المرء وبين نفسه ، فيذكره ما لم يكن يذكر . يقول [٤] : اذكر كذا ، اذكر كذا [٥] . لما لم يكن يذكر حتىٰ يظل الرجل أن [٦] يدري كم صلىٰ . فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس» [٧] .

قالوا : فأمره [٨] ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها ، حتىٰ لم يَدْرِ كم صلىٰ : بأن يسجد سجدتي السهو . ولم يأمره بإعادتها ، ولو كانت باطلة - كما زعمتم - لأمره بإعادتها .

---

(١) في د : رسول .

(٢) في د ، ق : حصاص .

(٣) التثويب هاهنا : إقامة الصلاة . والأصل في التثويب : أن يجيء الرجل مستصرخاً فيلوح بثوبه ليُرَىٰ ويشتهر ، فسمي الدعاء تثويباً لذلك . وكل داع مثوب ، وقيل : إنما سمي تثويباً من ثاب يثوب إذا رجع : فهو رجوع إلىٰ الأمر بالمبادرة إلىٰ الصلاة .
انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٢٧ مادة : ثوب .

(٤) في ط : ويقول .

(٥) «كذا» ساقطة من الأصل وهي في هامشها .

(٦) في ط : لا يدري .

(٧) رواه البخاري ٣/ ١٠٣ في كتاب السهو ، باب إذا لم يدر كم صلى . . . ، ح١٢٣١ ، ومسلم ١/ ٣٩٨ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ح٣٨٩ .

(٨) في ط زيادة : النبي .

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو، ترغيماً للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في[1] الصلاة. ولهذا سماها[2] النبي ﷺ: «المُرغِمَتَيْن»[3] وأمر من سها بهما، ولم يُفَصّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب[4]. وقال: «لكل سهو سجدتان»[5] ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، [مع أنه الغالب][6].

---

(١) في ب زيادة: نفس.

(٢) في الجميع سوىٰ ش، ط: سماهما.

(٣) جاء هذا فيما رواه أبو داود عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ «سمىٰ سجدتي السهو المرغمتين» سنن أبي داود ١/ ٦٢٢، كتاب الصلاة، باب إذا صلىٰ خمساً ح١٠٢٥ وصححه الألباني. انظر: صحيح سنن أبي داود ١/ ١٩١ ح٩٠١.
قلت: ثبت عن النبي ﷺ أن سجدتي السهو تكونان ترغيماً للشيطان وذلك في الحديث الذي رواه مسلم ١/ ٤٠٠ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة ح٥٧١، وأحمد في مسنده ٣/ ٨٣.
«ترغيماً للشيطان»: أي إغاظة له وإذلالاً، مأخوذ من الرّغام وهو التراب، ومنه أرغم الله أنفه. والمعنىٰ أن الشيطان لَبّسَ عليه صلاته وتعرض لإفسادها ونقصها، فجعل الله تعالىٰ للمصلي طريقاً إلىٰ جبر صلاته، وتدارك ما لبسه عليه، وإرغام الشيطان، ورده خاسئاً مبعداً عن مراده، وكملت صلاة ابن آدم. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ٦٠.

(٤) في ش: المغلوبات.

(٥) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٨٠، وأبو داود ١/ ٦٣٠ في كتاب الصلاة، باب من نسي أن يتشهد وهو جالس، ح١٠٣٨، وابن ماجه ١/ ٣٨٥ في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن سجدهما بعد السلام ح١٢١٩. وحسنه الألباني: انظر: صحيح سنن أبي داود ١/ ١٩٣ ح٩١٧، وانظر: الإرواء ٢/ ٤٧.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من د.

قالوا : ولأن شرائع الإسلام علىٰ الأفعال الظاهرة . وأما حقائق الإيمان الباطنة ، فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب . فلله تعالىٰ حكمان :

حكم فىٰ الدنيا علىٰ الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح .

وحكم[1] الآخرة علىٰ الحقائق[2] والبواطن .

ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين، وَيكِلُ سرائرهم[3] إلىٰ الله تعالىٰ[4] ، ويناكحون[5] ، ويرثون ويورثون ، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا . فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة ، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة ، وأحكام الثواب والعقاب ، ليس[6] إلىٰ البشر؛ بل إلىٰ الله [7] يتولاه في الدار الآخرة .

قالوا : فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي

---

(١) في ط زيادة : في .

(٢) في ط : الظواهر .

(٣) في ط ، ح١ ، ب ، غ ، أ ، م : أسرارهم وفي ح٢ : أمرهم .

(٤) يدل علىٰ هذا قول النبي ﷺ : « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله . فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه علىٰ الله» رواه مسلم ١/ ٥٠-٥١ في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله . . . . ، ح٢٠ .
وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «.. إني لم أُومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم ..» الحديث رواه البخاري ٨/ ٦٧ في كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلىٰ اليمن قبل حجة الوداع ، ح٤٣٥١ .

(٥) في ط : فيناكحون .

(٦) في ط : ليست .

(٧) في ط زيادة : والله .

مع أنها(١) لا تُسقط عنه العقاب ، ولا يحصل له الثواب ، فصلاة المسلم الغافل المبتلىٰ بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولىٰ بالصحة .

نعم : لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً . فإن للصلاة مزيداً(٢) عاجلاً في القلب من قوة إيمانه ، واستنارته ، وانشراحه ، وانفساحه ، ووجد(٣) حلاوة العبادة ، والفرح والسرور ، واللذة التي تحصل لمن اجتمع قلبُه(٤) وهمُّه علىٰ الله ، وحضر قلبه بين يديه ، كما يحصل لمن قرّبه السلطان منه ، وخصّه بمناجاته والإقبال عليه ، والله أعلىٰ وأجلّ .

وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلىٰ في الآخرة ، ومرافقة المقربين .

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخشوع(٥) . وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً ، وبين(٦) صلاتيهما كما(٧) بين السماء والأرض ، وليس كلامنا في هذا كله .

فإن أردتم بوجوب(٨) الإعادة : لتحصل هذه الثمرات والفوائد ، فذاك إليه إن

---

(١) في ط ، ق ، ب ، غ ، ح١ ، ح٢ : أنه .

(٢) في ط : مزيد ثواب عاجل .

(٣) في ط ووجود .

(٤) في ط : همه وقلبه .

(٥) في ط : الخضوع .

(٦) في ب : وإن بين .

(٧) «كما» ساقطة من ش .

(٨) في ط : وجوب .

شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها علىٰ نفسه ، وإن أردتم بوجوب[1] الإعادة : أنا نلزمه بها ، ونعاقبه علىٰ تركها ، ونرتب[2] عليه أحكام تارك الصلاة فلا .

وهذا القول الثاني أرجح القولين . والله أعلم[3] .

* * *

(١) في ط ، ح٢ ، ب ، ح١ ، م ، ق : بوجوبها .

(٢) في غ : وترتب .

(٣) انتهىٰ الجزء الأول من مخطوطة ، ب ، غ ، أ ، ح١ ، ويبدأ الجزء الثاني من منزلة الإخبات إلىٰ ح١ ، فإن الجزء الثاني ناقص من أوله .

فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإخبات»[١] .

منزلة الإخبات

قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج :٣٤] ثم كشف عن معناهم. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج : ٣٥][٢] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود :٢٣] .

تعريف الإخبات

الخبت في أصل اللغة : المكان المنخفض من الأرض ،[٣] وبه[٤] فسر[٥] ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا : هم المتواضعون[٦] فقال[٧] مجاهد : المخبت المطمئن إلىٰ الله عز وجل . قال : والخبت : المكان

---

(١) الإخبات عند الصوفية : هو السكون إلىٰ الله تعالىٰ ، وهو من بَدَوات الطمأنينة . وإخبات العوام الخلاص من الالتفات إلىٰ المخلوقات ، لسكون النفس تحت ما يقتضيه أمر الحق .
وإخبات المتوسطين : الخلاص من تردد الخواطر بين الإقبال علىٰ الله والإدبار عنه .
وإخبات الخواص : أن يكون الإنسان ممن يستوي عنده المدح والذم ، مع لائمته لنفسه .
انظر : لطائف الإعلام ١/ ١٨٠-١٨١ ، المعجم الصوفي ١٥ .

(٢) الآية لم تكمل في : ح٢ ، م .

(٣) انظر : لسان العرب ٤/ ٩ مادة : خبت .

(٤) في د : وفيه .

(٥) في غ ، ب : قرأ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٥١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٧) في ط ، ق ، ح٢ ، ب ، أ ، م ، غ : قرأ .

المطمئن من الأرض[1] . وقال الأخفش[2] : الخاشعون[3] . وقال إبراهيم النخعي[4] :[5]المخلصون[6] . وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم[7] . وقال[8] عمرو ابن أوس[9] : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا[10] .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٥١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٢) أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ثم البصري المعروف بالأخفش الأوسط ، عالم باللغة والنحو ، أخذ العربية عن سيبويه ، قال أبو حاتم السجستاني : كان الأخفش قدرياً رجل سوء ، له مصنفات عدة . مات سنة ٢١٥هـ ، وقيل: ٢٢١هـ .
ترجمته في : السير ١٠/ ٢٠٦ ، بغية الوعاة ١/ ٥٩٠ ، شذرات الذهب ٢/ ٣٦ .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٤) أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي اليماني ثم الكوفي أحد الأئمة الأعلام ، كان واسع الرواية كبير الشأن ، ذكياً كثير المحاسن ، أدرك بعض الصحابة ولم يسمع منهم ، وكان بصيراً بعلم ابن مسعود ، توفي سنة ٩٦هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ١/ ٣٣٣ ، حلية الأولياء ٤/ ٢١٩ ، السير ٤/ ٥٢٠ .

(٥) في ط ، والجمع سوىٰ ش زيادة : المصلون .

(٦) انظر : تفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

(٧) المرجع السابق ٣/ ٢٨٧ .

(٨) في أ ، غ ، ب : قال .

(٩) عمرو بن أوس بن أبي أوس الثقفي الطائفي ، تابعي روىٰ عن أبيه وعبدالرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن عمرو بن العاص وغيرهم . ذكره ابن حبان في الثقات . قال البخاري : مات قبل سعيد بن جبير . ترجمته في : التاريخ الكبير ٦/ ٣١٤ ، الكاشف للذهبي ٢/ ٢٨٠ ، تهذيب التهذيب ٨/ ٦ .

(١٠) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٥١ ، تفسير البغوي ٣/ ٢٨٧ .

وهذه الأقوال تدور علىٰ معنيين : التواضع، والسكون إلىٰ الله تعالىٰ ، ولذلك عُدِّي بإلىٰ ، تضمينا لمعنىٰ الطمأنينة ، والإنابة ، والسكون إلىٰ الله .

قال صاحب المنازل : «هُوَ مِن أَوَّلِ مَقَامَاتِ الطُّمَأْنِينَةِ»[1] . يعني[2] بمقامات الطمأنينة ، السكينة ، واليقين ، والثقة بالله تعالىٰ نحوها . فالإخبات : مقدمتها ومبدؤها .

قال : «وَهُوَ وُرُودُ المُسَافِرِ[3] مِن الرُّجُوعِ وَالتَّرَدُّدِ[4]»[5] .

لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد - الذي هو نوع [شك ، والرجوع الذي هو نوع][6] غفلة وإعراض - والسالك مسافر إلىٰ ربه ، سائر إليه علىٰ مدىٰ أنفاسه . لا ينتهي سيره[7] إليه ما دام نفسه يصحبه .

شبّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يرده المسافر علىٰ ظمأ وحاجة فيٰ أول مناهله . فيرويه مورده ، ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام[8] سفره ، أو

---

(١) انظر : المنازل ٢٢ .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من : ط ، أ ، ب ، غ .

(٣) في ح٢ ، ب : فورد المسافر . وفي م : مراد المسافرين ، وفي أ ، غ : مراد المسافر ، وفي ط: ورود المآمن .

(٤) في ش : والشرود .

(٥) انظر : المنازل ٢٢ .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من : ط ، ح٢ ، أ ، ب ، غ ، م .

(٧) في ط ، ب ، د ، أ ، غ ، ق : مسيره .

(٨) في ش : أيام .

رجوعه إلىٰ وطنه لمشقة السفر . فإذا ورد ذلك الماء ، زال عنه التردد ، وخاطر الرجوع . كذلك السالك[١] إذا ورد مورد «الإخبات» تخلص[٢] من التردد والرجوع ، ونزل أول منازل الطمأنينة لسفره[٣] ، وجد في السير .

الدرجة الأولى من درجات الإخبات

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : أَن تَستَغرِقَ العِصمَةُ الشَّهوةَ ، وَتَستَدرِكَ الإِرَادَةُ الغَفلَةَ ، وَيستَهوِيَ الطَّلَبُ السَّلوةَ»[٤] .

المريد السالك : تعرض له غفلة عن مراده ، تضعف[٥] إرادته . وشهوة تعارض إرادته ، فتصده عن مراده . ورجوع عن مراده ، سلوة[٦] عنه .

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة ، فتستغرق عصمته شهوته .

و«العصمة» هي الحماية والحفظ ، و«الشهوة» الميل إلىٰ مطالب النفس ، و«الاستغراق للشيء» الاحتواء عليه والإحاطة به .

يقول : تغلب عصمته[٧] شهوته وتقهرها ، وتستوفي جميع أجزائها . فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة ، فذلك دليل علىٰ إخباته ودخوله في

---

(١) في د : الساير .

(٢) في ب : يتخلص .

(٣) في ط ، والجميع سوىٰ ش : بسفره .

(٤) انظر : المنازل ٢٢ .

(٥) في ش : يضعف .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : وسلوة .

(٧) في ش : شهوته عصمته .

مقام الطمأنينة ، ونزوله[1] منازلها ، وخَلاَصه في هذا المنزل من تردد الخواطر بين الإقبال والإدبار ، والرجوع والعزم ، إلىٰ الاستقامة والعزم الجازم ، والجد في السير ، وذلك علامة السكينة .

وتستدرك إرادتُه غفلتَه . و«الإرادة» عند القوم : هي اسم لأول منازل القاصدين إلىٰ الله[2] . و«المريد» هو الذي قد[3] خرج من وطن طبعه ونفسه . وأخذ في السير[4] إلىٰ الله ، والدار الآخرة . فإذا نزل في منزلة[5] «الإخبات» أحاطت إرادته بغفلته . فاستدركها ، واستدرك بها فارطها .

وأما «استهواء طلبه لسلوته» فهو قهر محبته لسلوته ، وغلبتها له بحيث تَهْوِي السلوة وتسقط ، كالذي يهوي في بئر . وهذا علامة المحبة الصادقة؛ أن يقهر[6] وارد السلوة ، ويدفنها[7] في هوة لا تحيا بعدها أبداً .

فالحاصل : أن عصمته وحمايته ، تقهر شهوته . وإرادته تقهر غفلته . ومحبته تقهر سلوته .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح٢ زيادة : أول .

(٢) انظر : القشيرية ٢٠١ حيث قال القشيري : والإرادة بدء طريق السالكين ، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلىٰ الله تعالىٰ .

(٣) «فقد» ساقطة من ط والجميع سوىٰ ش .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : السفر .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : منزل .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق ، د : أن تقهر فيه .

(٧) في ط : وتدفنها .

الدرجة الثانية من درجات الإخبات

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن لاَ يَنقُضَ[1] إِرَادَتَه سَبَبٌ[2] ، وَلاَ يُوحِشَ[3] قَلْبَه عَارِضٌ ، وَلاَ يَقْطَعَ عَلَيهِ الطَّرِيقَ فِتنةٌ»[4] .

هذه ثلاثة[5] أمور أخرىٰ[6] لصاحب[7] الإرادة : سبب يعرض له وينقض[8] عزمه وإرادته ، ووحشة تعرض له في طريق طلبه ، ولا سيما عند تفرده . وفتنة تخرج عليه ، تقصد قطع الطريق عليه .

فإذا تمكن من منزل «الإخبات» اندفعت[9] عنه هذه الآفات؛ لأن إرادته[10] وجدية السير[11] : لم ينقضها[12] سبب من أسباب التخلف .

و «النقض»[13] : هو الرجوع عن إرادته ، والعدول عن جهة سفره .

---

(١) في ش ، ح٢ : ينقص .

(٢) في د : بسبب .

(٣) في ق : ولا توحش .

(٤) المنازل : ٢٢ ، وفيها : «أن لا ينقص إرادته . . . ولا تقطع الطريق عليه فتنة» .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : تعرض .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : تعرض لصادق .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : تعرض لصادق .

(٨) في ط ، ش ، ح٢ : ينقض .

(٩) في غ ، ب : تدافعت .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : إذا قويت .

(١١) في ط والجميع سوىٰ ش : إذا جدَّ به السير .

(١٢) في ش ، د : ينقصها .

(١٣) في د ، ش : والنقص .

ولا يُوحش أُنسَه بالله في طريقه عارضٌ من العوارض . الشواغل للقلب ، والجواذب له عمن هو متوجه إليه .

و «العارض» هو المخالف ، كالشيء الذي يعترضك في طريقك ، فيجيء في عرضها . ومن أقوىٰ هذه العوارض ، عارض وحشة التفرد ، فلا يلتفت إليه ، كما قال بعض العارفين (١) : انفرادك في طريق طلبك ، دليل علىٰ صدق الطلب (٢) . وقال آخر : لا تستوحش في طريق الحق (٣) من قلة السالكين (٤) ولا يُغتر (٥) في الباطل (٦) بكثرة الهالكين .

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق، فهي الواردات التي ترد علىٰ القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده . فإذا تمكن من منزل «الإخبات» وصحة الإرادة والطلب ، لم يطمع فيه عارض الفتنة .

وهذه العزائم لا تصح إلا لمن أشرقت (٧) علىٰ قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات ، وتجلت عليه معانيها (٨) ، وكافح قلبه حقيقة اليقين بها .

---

(١) في ق : طريق .

(٢) في ط والجميع : الصادقين .

(٣) في ط ، ب ، غ : طريقك .

(٤) في م : السالك .

(٥) في ط والجميع : تَفْتَر .

(٦) «في الباطل» ساقط من ط ، غ ، أ ، ب .

(٧) في ط ، م ، ح٢ ، غ ، ب : أشرق .

(٨) في ق زيادة : وهذه العزائم .

وقد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت . ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبه ، ومالت به العبارات ، واختلفت عليه الأقوال .

الدرجة الثالثة من درجات الإخبات

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: أَن يَستَوِيَ عِنْدَهُ المَدحُ وَالذَّمُّ ، وَتَدُومَ[1] لائِمَتُهُ لِنَفْسِه، وَيَعمَىٰ عَن نُقصَانِ الخلقِ عَن دَرَجَتِهِ»[2] .

[3] متىٰ استقرت قدم العبد في منزلة «الإخبات» وتمكن فيها، ارتفعت همته، وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم ، فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمهم هذا وصف من خرج عن حظ نفسه ، وتأهل للفناء في عبودية[4] ربه . وصار قلبه مُطَّرِحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات . وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه .

والوقوف عند مدح الناس وذمهم : علامة انقطاع القلب ، وخلوه من الله ، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ، ولم يذق[5] حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه .

قوله[6] : «وَأَنْ تَدُومَ لائِمَتُه لِنَفسِهِ» فهو أن صاحب هذا المنزل لا يرضىٰ عن

---

(١) في ق : تدوم .

(٢) انظر : المنازل ٢٣ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : اعلم أنه .

(٤) في ح٢ : عبوديته .

(٥) في ب : تذق .

(٦) في الجميع سوىٰ ش : وقوله ، وفي ط : وأما قوله .

نفسه ، وهو مبغض لها متمنٍّ[1] لمفارقتها .

تعريف النفس عند الصوفية

والمراد بالنفس[2] عند القوم : ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، مذموماً من أخلاقه وأفعاله[3] ، سواء كان ذلك كسبيّاً له[4] ، أو خلقيّاً . فهو شديد اللائمة لها . وهذا أحد التأويلين في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة : ٢] قال سعيد بن جبير وعكرمة[5] : تلوم علىٰ الخير والشر ، ولا تصبر علىٰ السراء ، ولا علىٰ الضراء[6] .

وقال قتادة : اللوامة ، هي الفاجرة[7] .

وقال مجاهد : تندم علىٰ ما فات ، وتقول : لو فعلت؟ ولو لم أفعل؟[8] .

وقال الفراء[9] : ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها ، إن كانت

---

(١) في ب : مشمر .

(٢) في الأصل : اليقين ، وما أثبته من ط والجميع والسياق يقتضيه .

(٣) انظر : القشيرية ٨٧ .

(٤) «له» ساقطة من ط ، غ .

(٥) هو أبو عبدالله عكرمة القرشي مولاهم ، العلامة الحافظ المفسر ، تابعي ، مشهور ، روىٰ عن عدد من الصحابة ، وكان ـ رحمه الله ـ من أعلم الناس بكتاب الله وتفسيره . توفي سنة ١٠٤هـ . ترجمته في : حلية الأولياء ٣/ ٣٢٦ ، السير ٥/ ١٢ ، تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٣ .

(٦) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧ ، تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٨) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧ ، تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٩) أبوزكريا هو يحيىٰ بن زياد بن عبدالله الديلمي الكوفي ، المعروف بالفراء ، أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، كان يقال له: أمير المؤمنين في النحو ، ولد بالكوفة، له مؤلفات عدة ،

عملت خيراً قالت : هلاّ زدت[1] ، وإن[2] عملت شراً قالت : ليتني لم أفعل[3] .

وقال الحسن : هي النفس المؤمنة . إن المؤمن – والله – ما تراه إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلامي[4]؟ ما أردت بأكلتي[5]؟ [6] . وإن الفاجر يمضي قُدُماً قُدُماً[7] ، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[8] .

وقال مقاتل : هي النفس الكافرة . تلوم نفسها في الآخرة علىٰ ما فرَّطَتْ في أمر الله[9][10] .

والقصد : أن من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها؛ لأنه يريد أن يتقبَّلَها من بُذِلتْ له؛ لأنه[11] قد قرَّبها له قرباناً . ومن قرب قرباناً[12] فتقبل منه ، ليس

وكان يحب الكلام ويميل إلىٰ الاعتزال . توفي سنة ٢٠٧هـ .

ترجمته في: البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٢ ، بغية الوعاة ٢/ ٣٣٣ ، طبقات المفسرين ٢/ ٣٦٧ .

(١) في ح٢ : ازددت .

(٢) «وإن» ساقطة من : د .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : بكلمة كذا .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش : بأكلة كذا .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ما أردت بكذا؟ وما أردت بكذا؟ .

(٧) «قدماً» ساقطة من ح٢ .

(٨) انظر : الزهد للإمام أحمد ٣٤٣ ، تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(٩) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : في الدنيا .

(١١) في ط والجميع سوىٰ ش : ولأنه .

(١٢) «قرباناً» ساقطة من : ب ، غ .

كمن رُدَّ عليه قربانُه . فبقاء نفسه معه دليلٌ (١) أنه لم يُتقَّبل قربانهُ .

وأيضاً فإنه من قواعد القوم المجمع عليها بينهم ، التي اتفقت كلمة أولهم وآخرهم ، و محققهم ومُبطلهم عليها : أن النفس حجاب بين العبد وبين الله تعالىٰ(٢) ، وأنه لا يصل إلىٰ الله حتىٰ يقطع هذا الحجاب(٣) . كما قال أبو يزيد : رأيت رب العزة في المنام . فقلت : ربي(٤) كيف الطريق إليك؟ فقال : خل نفسك وتعال(٥) .

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير(٦) إلىٰ الله . وكل سائر فلا طريق(٧) له إلا علىٰ ذلك(٨) الجبل . فلا بد أن ينتهي إليه (٩) .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح٢ زيادة : علىٰ .

(٢) في ح٢ : وبين ربه .

(٣) انظر : القشيرية ١٥١ وما بعدها ، فقد ذكر القشيري في باب مخالفة النفس أقوالاً كثيرة تفيد هذا المعنىٰ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ح٢ : يا رب .

(٥) انظر : القشيرية ١٠٢ .

(٦) في ق : السبل .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح٢ : لا طريق .

(٨) في د : هذا .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه . وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه . وفي ذلك الجبل أودية وشعوب ، وعقبات ووهود ، وشوك وعوسج ، وعُلّيق وشبرق ، ولصوص يقطعون الطريق علىٰ السائرين . ولا سيما أهل الليل المدلجين . فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ، ومصابيح اليقين تتقد برتب الإخبات ، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير .

وأكثر[١] السائرين منه[٢] رجعوا علىٰ أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقبته[٣][٤] ، والشيطان علىٰ قُلَّة[٥] الجبل . يحذر الناس من صعوده[٦] وارتقائه[٧] ، ويخوفهم منه . فيتفق مشقة ذلك الجبل[٨] ، وقعود ذلك المخوف علىٰ قُلَّتِه ، وضعف عزيمة السائر ونيته . فيتولد من ذلك ، الانقطاع والرجوع . والمعصوم من عصمه الله .

وكلما[٩] رقىٰ السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه. فإذا قطعه وبلغ قلَّته : فإذا[١٠] المخاوف كلهن أمان ، وحينئذ يسهل[١١] وتزول عنه عوارض الطريق ، ومشقة عقباتها[١٢] ، ويرىٰ طريقاً واسعاً آمنا[١٣] به[١٤] المنازل

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : فإن .

(٢) في ط : فيه .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : عقباته .

(٤) العقبة هي : المرقىٰ الصعب من الجبال . انظر : المعجم الوسيط ٦١٣ مادة : عقب .

(٥) في ط زيادة : ذلك .

(٦) في ق : صعوبته .

(٧) في ط ، ب ، غ ، د ، ق : وارتفاعه .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : مشقة الصعود .

(٩) في ب : كلما .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش : انقلبت تلك .

(١١) في ط زيادة : السير .

(١٢) في ط والجميع سوىٰ ش : عقباتها .

(١٣) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : يفضي .

(١٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : إلىٰ .

والمناهل ، وعليه الأعلام ، وفيه الإقامات ، نُزُلُ الرحمن[١] .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قوة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس، وثبات[٢] قلب. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فصل

وقوله[٣] : «وَيعْمَىٰ عَن نُقصَانِ الخَلقِ عَن دَرَجَتِهِ» .

يعني: أنه - وإن كان أعلىٰ ممن[٤] دونه من الناقصين عن درجته - إلا أنه[٥] لاشتغاله بالله ، وامتلاء قلبه من محبته ومعرفته ، والإقبال عليه ، يشتغل[٦] عن ملاحظة حال غيره ، وعن شهود النسبة بين حاله وأحوال الناس ويرىٰ اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولاً عن مقامه . وانحطاطاً عن درجته ، ورجوعاً علىٰ عقبه[٧] . فإن هجم عليه ذلك - بغير استدعاء واختيار[٨] - فليداوه بشهود المنة، وخوف المكر ، وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي[٩] عليها[١٠] . والله المستعان .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : قد أعدت لركب الرحمن .

(٢) في ح٢ ، م : ثبوت .

(٣) في ق : قوله .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هو .

(٥) في غ ، ب : لأنه .

(٦) في ط زيادة : به .

(٧) في ط : عقبيه .

(٨) في م ، ح٢ : أو اختيار .

(٩) في ش : يتوفىٰ .

(١٠) في ح٢ ، م : إليها .

فصل

منزلة الزهد

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الزهد»[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل :٩٦] ، وقال : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد :٢٠] ، وقال : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ[3] مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا

---

(١) الزهد في اللغة : ضد الرغبة . تقول زهد فيه ، وزهد عنه زهداً ، وزهادة : أعرض عنه وتركه .

انظر :مختار الصحاح ١١٧ ، المعجم الوسيط ٤٠٣ مادة زهد .

وهو عند الصوفية : إسقاط الرغبة في الشيء بالكلية؛ لأنهم لا يعدون مجرد الترك زهداً لاحتمال أن يترك الشيء بالجوارح ويتعلق به قلبه .

وهو درجات :

فهو للعامة : تنزه عن الشبهات بعد ترك الحرام .

ولأهل الإرادة : النزاهة عن الفضول بترك ما زاد عما تحصل به المسكة .

وخاصة الخاصة : إعراض عن كل ما سوىٰ الله من الأغراض .

انظر : لطائف الإعلام ١/ ٥١٠ ، التعرف ١٠٩ .

(٢) من قولهِ تعالىٰ: ﴿كمثل غيث﴾ إلىٰ قوله : ﴿ومغفرة من الله ورضواناً﴾ ساقط من: أ ، ب، غ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش الآية كتبت إلىٰ هنا .

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس :٢٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف :٤٥-٤٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء :٧٧] ، وقال : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلىٰ :١٦-١٧] ، وقال : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾[1] [طه :١٣١] ، وقال : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف :٧ ، ٨] ، وقال : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف : ٣٣-٣٥] .

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا ، والإخبار بخسّتها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها . والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها وسرعة إقبالها[2] ، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا

---

(١) هذه الآية ساقطة من م .

(٢) «وسرعة إقبالها» ساقط من ط ، ب ، غ ، أ .

والآخرة ، ويؤثر منهما ما هو أولىٰ بالإيثار .

وقد أكثر الناس في[1] الكلام في «الزهد» وكل أشار إلىٰ ذوقه ، ونطق عن[2] حاله وشاهده . فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم . والكلام بلسان العلم : أوسع من الكلام بلسان الذوق ، وأقرب إلىٰ الحجة والبرهان .

تعريف الزهد

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه– يقول : الزهد ترك مالا ينفع في الآخرة ، والورع : ترك ما تخاف[3] ضرره في الآخرة[4] .

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد ، والورع» وأجمعها .

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل . ليس بأكل الغليظ ، ولا لبس العباء[5] .

وقال الجنيد : سمعت سرياً[6] يقول : إن الله تعالىٰ سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده . لأنه لم يرضها لهم[7] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ح١ : من .

(٢) «عن» ساقطة من د .

(٣) في ش ، ح٢ : يخاف .

(٤) انظر : التحفة العراقية ٣٢٠ .

(٥) انظر : القشيرية ١١٥ ، وحلية الأولياء ٦/ ٣٨٦ .

(٦) أبوالحسن سرِي بن المُغَلِّس السقطي البغدادي من أئمة الصوفية ، كان إمام البغداديين وشيخهم في وقته ، وهو خال الجنيد وأستاذه ، صحب معروفاً الكرخي ، وهو من أجل أصحابه . مات سنة ٢٥٣ هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ٤٨ ، حلية الأولياء ١٠/ ١١٦ ، السير ١٢/ ١٨٥ .

(٧) انظر : القشيرية ص١١٥ - ١١٦ .

وقال[1] : الزهد في قوله تعالىٰ : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد :٢٣][2] . فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ، ولا يأسف منها علىٰ مفقود[3] .

وقال يحيىٰ بن معاذ : الزهد يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح [4] . وقال ابن الجلاء[5] : الزهد هو النظر إلىٰ الدنيا بعين الزوال ، لتصغر[6] في عينيك[7] ، فيسهل عليك الإعراض عنها[8] . وقال ابن خفيف[9] :

(١) (وقال) ساقطة من الأصل ، ش ، ق ، د ، غ ، ح١ ، وما أثبته من ط ، أ ، ب ، ح٢ ، م .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش الآية مكملة .

(٣) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٤) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٥) أبو عبد الله أحمد بن يحيىٰ ابن الجلاء البغدادي ، من أكابر مشائخ الصوفية في وقته ، كان يقال : إن في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لا رابع لهم، الجنيد ببغداد، وأبو عثمان بنيسابور ، وأبوعبدالله بن الجلاء بالشام . مات سنة ٣٠٦هـ . ترجمته في : طبقات الصوفية ١٧٦ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣١٤ ، السير ١٤/ ٢٥١ .

(٦) في ط : فتصغر .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ح٢ ، ق : عينك .

(٨) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٩) أبو عبدالله محمد بن خفيف الضبي الفارسي الشيرازي أحد مشاهير الصوفية ، كان شيخ أقليم فارسي ، وهو من أولاد الأمراء ، تزهد وسافر في سياحات كثيرة ، وصنف كتباً . مات سنة ٣٧١هـ .

ترجمته في : القشيرية ص٤٢٠ ، السير ١٦/ ٣٤٢ ، البداية والنهاية ١١/ ٣١٩ .

علامة[1] الزهد وجود الراحة في الخروج من الملك .

وقال أيضاً: الزهد سلو القلب عن الأسباب، ونفض الأيدي من الأملاك[2] .

وقيل : هو عزوف[3] القلب عن الدنيا بلا تكلف[4] .

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد[5] .

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل[6] .

وعنه رواية ثانية[7] : أنه عدم فرحه بإقبالها ولاحزنه[8] علىٰ إدبارها . فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار ، هل يكون زاهداً؟ فقال : نعم علىٰ شريطة أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت[9] .

وقال عبد الله بن المبارك : هو الثقة بالله مع حب الفقر[10] .

---

(١) «علامة» ساقطة من ط ، ب ، ح٢ ، أ ، م ، غ .

(٢) انظر : القولين في القشيرية ص١١٦ .

(٣) في ح٢ ، أ ، ب ، غ ، م ، ش : عزوب .

(٤) انظر : القشيرية ١١٦ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٦) في طبقات الحنابلة ١/ ٣٩ سئل الإمام أحمد عن الزهد في الدنيا فقال : قصر الأمل والإياس مما في أيدي الناس . انظر: القشيرية ١١٦ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : أخرىٰ .

(٨) في الأصل والجميع : وحزنه ، وما أثبته من ط .

(٩) انظر : ٤١٩ .

(١٠) انظر : القشيرية ١١٧ .

وهذا قول شقيق [١] ، ويوسف بن أسباط [٢] [٣] .

وقال عبدالواحد بن زيد [٤] : ترك الدينار والدرهم [٥] .

وقال أبوسليمان الداراني : ترك ما يشغل عن الله [٦] . وهو قول الشبلي .

وسأل رويم [٧] الجنيد عن الزهد؟ فقال : استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب [٨] . وقال مرة [٩] : هو خلّو اليد عن الملك ، والقلب عن [١٠] التتبع [١١] [١٢] .

---

(١) أبو علي شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي زاهدٌ صوفي ، كان من كبار المجاهدين ، استشهد في غزوة كولان سنة ١٩٤هـ . قال الذهبي عنه : من كبار الزهاد ، منكر الحديث .
ترجمته في : حلية الأولياء ٨/ ٥٨ ، السير ٩/ ٣١٣ ، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٧٩ .

(٢) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الورع ، له مواعظ وحكم . وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : لا يحتج به ، وقال البخاري : دفن كتبه فكان حديثه يجئ كما لا ينبغي .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ٣٨٥ ، حلية الأولياء ٨/ ٢٣٧ ، السير ٩/ ١٦٩ .

(٣) انظر : القشيرية ١١٧ .

(٤) انظر : القشيرية ١١٧ .

(٥) في ط ، ح٢ ، أ ، غ ، ق : الزهد : الزهد في الدنيا . . .

(٦) القشيرية ١١٧ .

(٧) رويم بن أحمد وقيل : ابن محمد بن يزيد بن رويم بن يزيد البغدادي ، أحد أئمة الصوفية ، كان عالماً بالقرآن ومعانيه ، تفقه علىٰ مذهب داود الظاهري . توفي سنة ٣٠٣هـ .
ترجمته في : طبقات الصوفية ص١٨٠ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٩٦ ، السير ١٤/ ٢٣٤ .

(٨) انظر : القشيرية ١١٧ .

(٩) في ح٢ ، م : مرة أخرىٰ .

(١٠) في ح٢ ، م : من .

(١١) في م : التشيع .

(١٢) انظر : القشيرية ١١٧ .

وقال يحيىٰ بن معاذ : لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتىٰ يكون فيه ثلاث[1] خصال : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة .

وقال أيضاً : الزاهد يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر[2] .

وقيل: حقيقة[3] الزهد هو : الزهد في النفس. وهذا قول ذي النون المصري[4] .

وقيل : الزهد[5] الإيثار عند الاستغناء ، والفتوة الإيثار عند الحاجة [6] . قال تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر :٩] .

وقال رجل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزاهدين ، وأقعد معهم؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك إلىٰ حدٍ لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيام لم تضعف نفسك . فأما ما لم تبلغ إلىٰ[7] هذه الدرجة فجلوسك علىٰ بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن[8] أن تفتضح[9] .

---

(١) في الأصل : ثلاثة ، وما أثبته من الجميع وهو الصحيح .

(٢) القشيرية ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وقيل حقيقته هو الزهد في النفس .

(٤) انظر : القشيرية ١١٨ .

(٥) في ح٢ زيادة : هو .

(٦) هذا القول منسوب إلىٰ محمد بن الفضل الذي قال عن الزهد : إيثار الزهاد عند الاستغناء ، وإيثار الفتيان عند الحاجة ثم ذكر الآية . انظر : القشيرية ١١٨ .

(٧) «إلىٰ» ساقطة من أ ، ب .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : عليك .

(٩) انظر : القشيرية ١١٨ .

تعريف الإمام أحمد للزهد

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد علىٰ ثلاثة أوجه :

(١) ترك الحرام ، وهو زهد العوام .

والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين(٢) .

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي علىٰ جميع ما تقدم من كلام المشايخ - رضي الله عنهم - ، مع زيادة تفصيله وتَبْيين(٣) درجاته . وهو من أجمع(٤) الكلام . وهو يدل علىٰ أنه ـ رضي الله عنه ـ من هذا العلم بالمحل الأعلىٰ . وقد شهد له(٥) الشافعي ـ رحمه الله ـ بإمامته في ثمانية أشياء : «أحدها الزهد»(٦) . والذي أجمع عليه العارفون : أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة . وعلىٰ هذا صنف المتقدمون كتب الزهد . كالزهد لعبد الله بن المبارك ، وللإمام أحمد ، ولوكيع(٧) ، ولهناد بن السري(٨) ، ولغيرهم .

---

(١) في ط زيادة : الأول .

(٢) انظر : القشيرية ١١٩ .

(٣) في ش : وترتيب .

(٤) في ب ، أ : جمع .

(٥) «له» ساقطة من ط .

(٦) أورد ذلك ابن أبي يعلىٰ في طبقات الحنابلة ١/ ٥ .

(٧) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي ، الإمام الحافظ ، محدث العراق ، كان من بحور العلم ، عُرض عليه القضاء فامتنع ، وكان ذا عبادة . توفي سنة ١٩٧هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ١٧٩ ، حلية الأولياء ٨/ ٣٦٨ ، السير ٩/ ١٤٠ .

(٨) هناد بن السري بن مصعب التميمي الدارمي : الإمام الحجة ، المحدث الزاهد ، كان

ومتعلقه ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتىٰ يزهد فيها. وهي: المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك. فقد كان سليمان وداود من أزهد أهل زمانهما، ولهم من المال والنساء والملك[1] ما لهما. وكان نبينا ﷺ[2] أزهد البشر علىٰ الإطلاق، وله تسع نسوة. وكان علي بن أبي طالب، وعبدالرحمن ابن عوف، والزبير[3]، وعثمان[4] من الزهاد مع ما لهم من الأموال[5].

شيخ الكوفة في عصره. ما تزوج ولا تسرىٰ، وكان يقال له راهب الكوفة. توفي سنة ٢٤٣هـ.

ترجمته في: التاريخ الكبير ٨/ ٢٤٨، السير ١١/ ٤٦٥، شذرات الذهب ٢/ ٤٠.

(١) في ط: من المال والملك والنساء.

(٢) في ط، د زيادة: من.

(٣) أبوعبدالله الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية، وأحد العشرة المبشرون بالجنة، وهو أول من سل سيفه في سبيل الله. قتل - رضي الله عنه - يوم وقعة الجمل سنة ٣٦هـ، قتله ابن جرمز غيلة.

ترجمته في: حلية الأولياء ١/ ٨٩، السير ١/ ٤١، الإصابة ١/ ٥٢٦.

(٤) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي، ذو النورين، أحد السابقين إلىٰ الإسلام، ثالث الخلفاء الراشدين، ومن العشرة المبشرين بالجنة، كان في الجاهلية غنياً شريفاً، وكان له في الإسلام أعمال عظيمة ونفقات كثيرة، استشهد - رضي الله عنه - سنة ٣٥هـ.

ترجمته في: التاريخ الكبير ٦/ ٢٠٨، حلية الأولياء ١/ ٥٥، الإصابة ٢/ ٤٥٥.

(٥) انظر: أسد الغابة ٣/ ٥٩٩، والطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٣/ ٥٦، والسير ١/ ٥٥-٥٧، ٧٦، ٨٠-٨١، ٩٢.

وكان الحسن بن علي(١) ـ رضي الله عنهما ـ من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم(٢). وكان عبدالله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير(٣). وكذلك الليث بن سعد(٤) وسفيان(٥) من أئمة الزهاد(٦). وكان له رأس مال يقول: لولا هو(٧) لتمندل(٨) بنا هؤلاء(٩).

من أحسن ما قيل في الزهد

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا

---

(١) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، سبط رسول الله ﷺ، أمير المؤمنين، صحب رسول الله ﷺ وحفظ عنه. هو وأخوه الحسين سيدا شباب أهل الجنة، مات ـ رضي الله عنه ـ سنة ٤٩هـ أو ٥٠هـ. ترجمته في: حلية الأولياء ٢/ ٣٥، السير ٣/ ٢٤٥، الإصابة ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر: السير ٣/ ٢٦٧.

(٣) انظر: المرجع السابق ٨/ ٤٠٩.

(٤) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبدالرحمن - الفهمي الإمام الحافظ، عالم الديار المصرية، كان فقيهاً مفتياً كثير العلم، صحيح الحديث، مع الورع والفضل والسيادة. توفي سنة ١٧٥هـ. ترجمته في: التاريخ الكبير ٧/ ٢٤٦، السير ٨/ ١٣٦، تهذيب التهذيب ٨/ ٤٥٩.

(٥) «وسفيان» ساقطة من ط.

(٦) انظر: السير ٨/ ١٤٨-١٤٩.

(٧) في م: هذا.

(٨) التمندل: التمسح. يقال: تمندلت بالمنديل أي: تمسحت به.

انظر: لسان العرب ١٤/ ٩٣ مادة: ندل.

(٩) انظر: الحلية ٦/ ٣٨١. ويعني بهم السلاطين ومن في حكمهم ممن يستذلون المرء بسبب المال.

بتحريم الحلال ، ولا [1]إضاعة المال ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك . فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه . وقد روي مرفوعاً[2] .

فصل

الخلاف في إمكانية الزهد في هذه الأزمنة

وقد اختلف الناس فى «الزهد» هل هو [3] ممكن في هذه الأزمنة؟

فقال أبو حفص [4] - رحمه الله - : الزهد لا يكون إلا في الحلال ، ولا[5] حلال في الدنيا ، فلا زهد[6] .

وخالفه الناس في هذا ، وقالوا : بل الحلال موجود فيها . وفيها الحرام كثيراً ، وعلى تقدير : أن لا يكون فيها الحلال ، فهذا أدعى إلى الزهد فيها ،

---

(١) «ولا» ساقطة من : م ، ح٢ .

(٢) روي مرفوعاً عن أبي ذر - رضي الله عنه - . رواه الترمذي ٤/ ٥٧١ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا (ح٢٣٤٠) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه... وعمرو بن واقد - أحد رجال السند - منكر الحديث . ، وابن ماجه ٢/ ١٣٧٣ في كتاب الزهد ، باب الزهد في الدنيا (ح٤١٠٠) . ضعفه الألباني . انظر : ضعيف سنن ابن ماجه ص٣٣٧ ح٨٩٣ ، ورواه الإمام أحمد في الزهد ص٢٥ موقوفاً على أبي مسلم الخولاني .

(٣) «هو» ساقطة من غ .

(٤) هو عمرو بن سالم الحداد . تقدمت ترجمته ص ١٣٠٤ .

(٥) في م : فلا

(٦) انظر : القشيرية ١١٧ .

وتناول ما يتناوله المضطر منها ، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير»[١][٢] ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد .

فقالت طائفة : الزهد إنما هو في الحلال؛ لأن ترك الحرام فريضة .

وقالت فرقة : بل الزهد لايكون إلا في الحرام . وأما الحلال : فنعمة من الله علىٰ عبده[٣] ، والله يحب أن يرىٰ أثرَ نعمتِه علىٰ عبده . فشكرهُ علىٰ نِعَمِه ، والاستعانةُ بها علىٰ طاعته ، واتخاذُها طريقاً إلىٰ جنّته : أفضل من الزهد فيها ، والتخلّي عنها ، ومجانبة أسبابها[٤] .

والتحقيق : أنها إن شغلته عن الله ، فالزهد فيها أفضل . وإن لم تشغله[٥] عن الله؛ بل كان شاكرا لله فيها ، فحاله أفضل . والزهد فيها تجرد[٦] القلب عن

---

(١) قال وكيع - رحمه الله - : الدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة ، خذ منها ما يقيمك ؛ فإن كانت حلالاً قد زهدت فيها ، وإن كانت حراماً كنت قد أخذت منها ما يقيمك؛ لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك ، وإن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير . انظر : الحلية ٨/ ٣٧٠ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقال يوسف بن أسباط : لو بلغني أن رجلاً بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد ، وأشباههم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ما قلت له زاهد؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض . والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا . وأما الحرام فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل .

(٣) في ح٢ ، م : عباده .

(٤) انظر : بعض هذه الأقوال في القشيرية ص١١٥ ، ١١٦ ، وقوت القلوب ٣/ ١١١ وما بعدها .

(٥) في غ : تشغل .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : تجريد .

التعلق بها ، والطمأنينة إليها[١] .

فصل

تعريف الهروي للزهد

قال[٢] صاحب المنازل - رحمه الله - : «الزُّهْدُ : هُوَ إِسقَاطُ الرَّغبَةِ عَنِ الشَّيءِ بِالكُلِّيَّةِ»[٣] .

يريد بالشيء المزهود فيه : ما سوىٰ الله تعالىٰ ، والإسقاط عنه : إزالة[٤] تعلق الرغبة به[٥] .

وقوله : «بالكلية» أي : بحيث لا يلتفت إليه ، ولا يتشوق إليه .

قال : «وَهُوَ للعَامَّة : قُرْبَةٌ . وَلِلمُرِيدِ : ضَرُورَةٌ . وَلِلخَاصَّةِ : خَشْيَةٌ»[٦] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، ق زيادة : والله أعلم .

(٢) في ق : وقال .

(٣) انظر : المنازل ٢٣ .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : إزالته عن القلب وإسقاط تعلق . . .

(٥) في ش : فيه .

(٦) المنازل ٢٣ . لكن قال : «وللخاصة خسة» وابن القيم ـ رحمه الله ـ أثبتها «خشية» كما في نسخ المدارج ، ولعله اعتمد علىٰ نسخة أخرىٰ أثبتتها خشية ، ولو قرأها «خسة» لاعترض عليه علىٰ عادته في تعقب مثل هذه العبارات عند الهروي .

انظر : المدارج ٣/ ١٥٤ .

وإذا أثبتنا لفظة المنازل «خسة» فهذا التعبير فيه ازدراء لمكانته ومنزلته في الدين ، وإن كان شراح المنازل ممن اعتمد هذا اللفظ ، فسرها بأن الزهد يدل علىٰ أن هناك مطالعة من الإنسان لشيء آخر غير الله ، ومن ثم زهد به ، فكان الأولىٰ أن لا يكون عنده

يعني : أن العامة تتقرب به إلىٰ الله تعالىٰ . و«القربة» ما تقرب[1] به المتقرب إلىٰ محبوبه .

وهو ضرورة للمريد؛ لأنه لا يحصل له التخلي بما هو بصدده ، إلا بإسقاط الرغبة فيما سوىٰ مطلوبه . فهو مضطر إلىٰ الزهد ، كضرورته إلىٰ الطعام والشراب . إذ التعلق[2] بسوىٰ مطلوبه لا يعدم منه حجاباً ، أو وقفة ، أو نكسة ، علىٰ حسب بُعْد ذلك الشيء من مطلوبه[3] ، وقوة تعلقه به وضعفه .

وإنما كان خشية للخاصة : لأنهم يخافون علىٰ ما حصل لهم من القرب والأنس بالله ، وقرة عيونهم به : أن يتكدر عليهم صفوه بالتفاتهم إلىٰ ما سوىٰ الله تعالىٰ فزهدهم خشية وخوف .

شيء يستحق الزهد .

انظر : شرح منازل السائرين للاسكندري ٤٧ .

ولعل مراد الهروي - حسب ما يذهب إليه - أن الزهد ليس من المقامات العليا التي يتصف بها الخاصة؛ لأن الدنيا في ذاتها هينة يسيره لا تستحق أن يزهد فيها؛ ولأن الاشتغال بها ، ولو بالزهد فيها يشغل عن الله ، ولهذا جعل الزهد من علل المقامات حيث جعله من مقامات العوام؛ لأن الزهد يتضمن تعظيمها ، ويخشىٰ علىٰ الزاهد انشغال الباطن بها ، علىٰ الرغم من الزهد الظاهر. انظر : كتاب شيخ الإسلام عبدالله الأنصاري الهروي لمحمد سعيد الأفغاني، ص٢٩١-٢٩٢ .

(١) في ط : ما يتقرب .

(٢) في ب ، غ ، أ : إذا تعلق .

(٣) «من مطلوبه» ساقط من د .

الدرجة الأولى من درجات الزهد

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : الزُّهدُ فِي الشُّبْهَةِ[١] . بَعدَ تَركِ الحَرَامِ بِالحَذَرِ مِن المَعْتَبةِ ، وَالأَنَفَةِ مِنَ المنقَصَةِ ، وَكَرَاهَةِ مُشَارَكَةِ الفُسَّاقِ»[٢] .

أما الزهد في الشبهة : فهو ترك ما يشتبه علىٰ العبد : هل هو حلال ، أو حرام؟ كما في حديث النعمان بن بشير[٣] عن النبي ﷺ : «الحلال بيِّن . والحرام بيِّن . وبين ذلك أمور مشتبهات[٤] لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقىٰ الشبهات اتقىٰ الحرام . ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ ، يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمىٰ . ألا وإن حمىٰ الله محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد . وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد . ألا وهي القلب»[٥] .

---

(١) في م : الشبهات .

(٢) انظر : المنازل ٢٣ .

(٣) أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الصحابي المشهور ، سكن الكوفة مدة ، وكان أميرها في عهد معاوية ، ثم خرج إلىٰ الشام ، وولي قضاء دمشق ، وقتل بحمص ، وكان عاملاً لابن الزبير علىٰ حمص سنة ٦٥هـ ، وقيل : قتل سنة ٦٦هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٨/ ٧٥ ، أسد الغابة ٤/ ٥٥٠ ، السير ٣/ ٤١١ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٤٧ .

(٤) في الأصل وش «متشابهات» / وما أثبته من الجميع وهو الذي في الحديث .

(٥) رواه البخاري ١/ ١٢٦ في كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه (ح٥٢) ، ومسلم ٣/ ١٢١٩ ١٢٢٠ في كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، (ح١٥٩٩) ، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٧٠) .

الشبهات برزخٌ بين الحلال والحرام

فالشبهات برزخ(١) بين الحلال والحرام . وقد جعل الله عز وجل بين كل متباينين برزخاً ، كما جعل الموت وما بعده برزخاً بين الدنيا والآخرة . وجعل المعاصي برزخاً بين الإيمان والكفر. وجعل الأعراف(٢) برزخاً بين الجنة والنار.

وكذلك جعل بين كل مَشْعرَين من مشاعر المناسك برزخاً حاجزاً بينهما ليس من هذا ولا هذا(٣) . فمُحسِّر(٤) برزخ بين منىٰ ومزدلفة ، ليس من واحد

---

(١) البَرْزخ : الحاجز بين شيئين .
انظر : المعجم الوسيط ٤٩ ، مادة : (برزخ) .

(٢) الأعراف : جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع ، وعُرف الجبل ونحوه أعلاه ويطلق علىٰ السور .
انظر : لسان العرب ٩/ ١٥٦ ، والمعجم الوسيط ٥٩٥ مادة : (عرف) .
والمراد به في قول الله تعالىٰ : ﴿وبينهما حجاب وعلىٰ الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾ الآية . [الأعراف : ٤٦] ، هو السور الذي بين الجنة والنار كما قال تعالىٰ : ﴿وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . . . ﴾ الآية . [الحديد :١٣] . انظر : تفسير الطبري ٥/ ٤٩٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٦٢ .

(٣) في ح٢ ، م : وهذا ، وفي ط : ولا من هذا .

(٤) مُحسِّر : بضم الميم وفتح الحاء وتشديد السين وكسرها : هو وادي المزدلفة ، وهو بينها وبين منىٰ . انظر : معجم البلدان ١/ ٣٣٥ . قال النووي - رحمه الله - : سمي بذلك لأن فيل أصحاب الفيل حسر فيه ، أي أعيا وكلَّ . انظر : شرح صحيح مسلم ٨/ ١٩٠ .
قلت : وكان من هديه ﷺ الإسراع في هذا الموضع كما في حديث جابر الطويل في وصف حجة النبي ﷺ . انظر : صحيح مسلم ٢/ ٨٨٦ ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ح١٢١٨ ، وهذا إيذان منه ﷺ بأنه مكان عذاب .

منهما ، فلا يبيت به الحاج ليلة جمع ، ولا ليالي منىٰ . وبطن عرنة (١) ، برزخ بين عرفة وبين الحرم ، فليس من الحرم ولا من عرفة .

وكذلك ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس برزخ بين الليل والنهار ، فليس (٢) من الليل ، لتصرمه بطلوع الفجر ، ولا من النهار؛ لأنه من طلوع الشمس ، وإن دخل في اسم اليوم شرعاً .

وكذلك منازل السير : بين كل منزلتين منهما (٣) برزخ يعرفه السائر في تلك المنازل . وكثير من الأحوال والواردات تكون (٤) برازخ (٥) ، فيظنها صاحبها غاية . وهذا (٦) لم يتخلص منه إلا فقهاء الطريق (٧) ، والعلماء (٨) الأدلة فيها .

وقوله : «بَعدَ تَركِ الحَرَامِ» أي : ترك الشبهة لا يكون إلا بعد ترك الحرام .

قوله (٩) : «بِالحَذَرِ (١٠) مِن المَعتَبَةِ» يعني: أن يكون سبب تركه للشبهة : الحذر

---

(١) بطن عُرَنَة : وادٍ بحذاء عرفات كما قال الأزهري . وقال غيره : بطن عرنة مسجد عرفة ، والمسيل كله . انظر : معجم البلدان ٤/ ١٢٥ .

(٢) في ط : ليس ، وفي ح٢ ، م ، ب ، غ : وليس .

(٣) «منهما» ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب .

(٤) في ش : يكون .

(٥) في أ ، غ ، ب ، م : برازخاً وهو خطأ .

(٦) في د : ولهذا .

(٧) في ب ، أ : الطريقة .

(٨) في أ ، ب ، ح٢ ، م ، د ، ق زيادة : هم ، وفي غ : وإن العلماء هم .

(٩) في ط ، ح٢ ، م : وقوله .

(١٠) في ش : بعد الحذر .

من توجه عتب الله عليه .

وقوله : «وَالأَنَفَةِ مِنَ النَّقِيصَةِ[1]» أي يأنف لنفسه من نقصه عند ربه ، وسقوطه من عينه[2]، ولا أن أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من عيونهم[3]، وإن كان ذلك ليس مذموماً ، [بل هو][4] محمود أيضاً . ولكن[5] المذموم : أن تكون أنفته كلها من ذلك [6][7] .

وقوله : «وَكَرَاهَةُ مُشَارَكَةِ الفُسَّاقِ» يعني : أن الفساق يزدحمون علىٰ مواضع الرغبة في الدنيا ، ولتلك المواقف [8]كظيظ [9] من الزحام . فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف. ويرفع نفسه عنها، لخسة شركائه فيها ، كما قيل لبعضهم : ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال : قلةُ وفائها ، وكثرةُ جفائها ،

---

(١) في ط ، غ ، أ ، ب : المنقصة .

(٢) في ط ، ب ، غ ، أ : لا أنفته .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ : أعينهم .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش ، وما أثبته من ط ، أ ، غ ، ب وفي د ، ح٢ ، م ، بل محموداً .

(٥) في ح٢ ، م : وإنما المذموم .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : من الناس .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة ولا يأنف من الله .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : بهم .

(٩) كَظَّ المسيل بالماء كظّاً : ضاق من كثرته ، وكظ الغيظ صدره : ملأه . واكتظَّ : امتلأ واشتد امتلاؤه ، يقال : اكتظ المكان بالناس ، واكتظَّ الوادي بالسيل ، واكتظَّ بطنه بالطعام . انظر : المعجم الوسيط ٧٨٩ مادة : كظَّ .

وخِسَّةُ شركائها [١] .

الدرجة الثانية من درجات الزهد

قـال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الزُّهـدُ فِي الفُضُول . وَهِـيَ [٢] مَـا زَادَ عَـلَىٰ المُـسْكَةِ [٣] وَالـبَلاَغِ مِـنَ القُـوتِ ، بِاغْتِنَـام التَّفـرُّغ إِلَىٰ عَـمَارَةِ الوَقْـتِ ، وَحَـسمِ الجَـأْشِ ، والتَّحَلي بِحليَةِ الأنبِيَاءِ والصِّدِّيقينَ» [٤] .

و«الفضول» [٥] ما يفضل عن قدر الحاجة . و«المسكة» ما يمسك النفس من القوت والشراب ، واللباس والمسكن ، والمنكح إذا احتاج إليه . و«البلاغ» هو البلغة من ذلك ، الذي يتبلغ به [٦] في منازل السفر كزاد [٧] المسافر ، فيزهد فيما وراء ذلك ، اغتناما لتفرغه لعمارة وقته .

ولما كان الزهد لأهل الدرجة الأولىٰ : خوفاً من المعتبة ، وحذراً من المنقصة ، كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلىٰ وأرفع . وهو اغتنام الفراغ

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة أبيات هي :

إذا لم أترك الماء اتقـــاءً ... تركتُ لكثرة الشركاء فيـه
إذا وقع الذباب علىٰ طعـام ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجنبتْ الأسود ورود مـاء ... إذا كـان الكلاب يلغن فيه

(٢) في ط ، ح٢ ، ب ، أ ، م ، غ : وهو .

(٣) المُسْكَة : ما يتمسك به ، وما يمسك البدن من الطعام والشراب ، أو يبلغ به منهما . انظر : المعجم الوسيط ص٨٦٩٠ مادة : مسك .

(٤) انظر : المنازل ٢٣ .

(٥) في ط والجميع : الفضول .

(٦) في ط زيادة : المسافر .

(٧) في غ ، ب ، أ : كذا .

لعمارة أوقاتهم مع الله تعالىٰ؛ لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا ، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت . فالوقت سيف إن لم تقطعه [١] قطعك .

وعمارة الوقت : الاشتغال في جميع آنائه [٢] بما يقرب إلىٰ الله ، أو يعين علىٰ ذلك من مأكل ، أو مشرب ، أو منكح ، أو منام ، أو راحة . فإنه متىٰ أخذها بنية القوة علىٰ ما يحبه الله ، وتجنب ما يسخطه ، كانت من عمارة الوقت ، وإن كان له فيها أتم لذة ، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات [٣] .

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وإلا .

(٢) في ش : أيامه .

(٣) ذكر الغزالي - رحمه الله - أن ما تميل إليه النفس في الدنيا من الحظوظ والأغراض والشهوات ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يصاحب الإنسان في الآخرة ، وتبقىٰ ثمرته بعد الموت. وهو العلم والعمل إذا كانا خالصين لله ، مقصوداً بهما وجهه سبحانه ، وهذان ليسا من الدنيا وإن حصلا فيها .

القسم الثاني : مقابل للقسم الأول وهو كل ما فيه حظ عاجل مما لا ثمرة له في الآخرة ، كالتلذذ بالمعاصي ونحوها مما يشغل الإنسان عن طاعة الله وعبادته ، وكالتلذذ بالمباحات الزائدة علىٰ قدر الحاجات .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين ، وهو كل حظ في العاجل ، يعين علىٰ أمر الآخرة كقدر القوت من الطعام واللباس ، وكل ما لابد منه ليأتي للإنسان البقاء والصحة ، التي يتوصل بها إلىٰ العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول؛ لأنه معين عليه ووسيلة إليه ، فإذا تناوله الإنسان قاصداً به الاستعانة علىٰ العلم والعمل ، لم يكن به متناولاً للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا . وإن كان باعثه الحظ العاجل ، دون الاستعانة به علىٰ التقوىٰ ، التحق بالقسم الثاني وصار من الدنيا . انظر : الإحياء ٣/ ٢٨٣-٢٨٤ .

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه ، وجماع أهله وراحته ، أقوىٰ من سيره البدني في بعض الأحيان .

وقد[١] حُكي عن بعضهم : أنه كان يرد عليه - وهو علىٰ بطن امرأته - حال لا يعهدها في غيرها .

ولهذا سبب صحيح . وهو اجتماع قوىٰ النفس[٢] ، وعدم التفاتها حينئذ إلىٰ شيء ، مع ما يحصل لها من السرور والفرح واللذة[٣] . والسرور يذكر بالسرور ، واللذة تذكر باللذة . فتنهض الروح من تلك الفرحة واللذة إلىٰ ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعية ، والقوة والنشاط ، وقطع أسباب الالتفات ، فيورثه ذلك حالا عجيبة .

ولا تعجل بالإنكار . وانظر إلىٰ قلبك عند هجوم أعظم محبوب له عليه[٤] في هذه الحال ، كيف تراه؟ فهكذا حال غيرك .

ولا ريب أن النفس إذا نالت حظًّا صالحًا من الدنيا قَوِيتْ به وسرت ، واستجمعت قواها وجمعيتها ، . وزال تشتُّتُها .

اللهم غفراً[٥] . فقد طغىٰ القلم . وزاد الكلم ، فعياذا بك[٦] من مقتك .

---

(١) «وقد» ساقطة من د .

(٢) في ح٢ : قوة النفوس .

(٣) «واللذة» ساقطة من ط .

(٤) «عليه» ساقطة من ق .

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ : اغفر .

(٦) في ط ، ق ، أ ، م ، غ ، د زيادة : اللهم .

وأما «حَسمُ الجَأْشِ» فهو[1] اضطراب القلب ، بالتعلق[2] بأسباب الدنيا ، رغبة ورهبة ، وحباً وبغضاً وسعياً . فلا يصح الزهد للعبد حتىٰ يقطع هذا الاضطراب من قلبه . بأن لا يلتفت إليها ، ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه . فإن الزهد زهد القلب ، لا زهد[3] الترك من اليد[4] . فهو تخلي القلب عنها ، لا خلو اليد منها .

وأما « التحلي بحلية الأنبياء والصِّدِّيقين » فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقاً ، إذ هم مشمرون[5] إلى علم قد رفع لهم غيرها، فهم فيها[6] زاهدن، وإن كانوا لها مباشرين .

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الزهد

قال[7] : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الزُّهدُ فِي الزُّهد . وَهُوَ بِثَلاثَة أَشْيَاءَ : بِاسْتِحقَارِ[8] مَا زَهِدْتَ فِيهِ . واستِوَاءِ الحَالاَتِ فِيهِ عِندَكَ[9] . وَالذَّهَابِ عَن[10] شُهُودِ الاكتِسَابِ ،

(١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : قطع .

(٢) في ط : المتعلق .

(٣) في ش : لا هذا .

(٤) في ط ، أ ، ب ، ح٢ ، م زيادة : وسائر الأعضاء .

(٥) في م ، ح٢ : المشمرون .

(٦) «فيها» ساقطة من ط .

(٧) «قال» ساقطة من د .

(٨) في ط ، أ ، ب : استحقار .

(٩) «عندك» ساقطة من م .

(١٠) في : أ ، ب ، غ ، م : عند .

ناظِراً إِلىٰ وَادِي الحَقَائِقِ»[١] .

وقد فسر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء :

أحدها : احتقاره ما زهد فيه . فإنَّ مَن امتلأ قلبُه بمحبة[٢] الله وتعظيمه ، لا يرىٰ[٣] أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق[٤] أن يجعل قرباناً؛ لأن[٥] الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة . فالعارف لا يرىٰ زهده فيها كبير أمر يعتد به ، ويحتفل[٦] به[٧] ، فيستحي من صح له الزهد أن يجعل لما تركه لله[٨] قدراً يلاحظ زهده فيه؛ بل يفنىٰ عن زهده فيه كما فنىٰ عنه . ويستحي من ذكره بلسانه ، وشهوده بقلبه .

وأما استواء الحالات فيه عنده[٩] : فهو أن يرىٰ أن[١٠] ترك ما زهد فيه وأخذه متساويان عنده؛ إذ ليس له عنده قدر ، وهذا من دقائق فقه الزهد . فيكون زاهداً

---

(١) انظر : المنازل ٢٤ .

(٢) في ش : محبة .

(٣) «لا يرىٰ» ساقطة من د .

(٤) «يستحق» ساقطة من ق .

(٥) في د ، ق : ليس .

(٦) في ق : ويحتقر .

(٧) «به» ساقطة من ب ، وفي ط : له .

(٨) «لله» ساقطة من م ، ح٢ .

(٩) «عنده» ساقطة من ش .

(١٠) «أن» ساقطة من ط ، ب ، أ ، غ .

في حال أخذه ، كما هو زاهد في حال تركه ، إذ همته أعلىٰ من[1] ملاحظته أخذاً وتركاً ، لصغره في عينه .

وأما «**الذَّهَابُ عنَ شُهُودِ الاكتِسَابِ**» فمعناه : أن من استصغر الدنيا بقلبه ، واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده : لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة البتة؛ لأنها أصغر في عينه من أن يرىٰ أنه اكتسب بتركها الدرجات .

وفيه معنىٰ آخر : وهو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع . فلا[2] يرىٰ أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً . بل الله وحده هو المعطي المانع . فما أخذه فهو مجرىٰ لعطاء الله إياه ، كمجرىٰ الماء في النهر . وما تركه لله فالله هو الذي مَنَعَه مِنه . فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه . فإذا نظر إلىٰ الأشياء بعين الجمع ، وسلك في وادي الحقيقة ، غاب عن شهود اكتسابه . وهو معنىٰ قوله : «**نَاظِراً إِلىٰ وَادِي الحَقَائِقِ**» وهذا أَلْيَقُ المعنيين بكلامه . فهذا زهد الخاصة . قال الشاعر :

إذا زهدتني في الهوىٰ خشيـــة الردىٰ
جَلَت لي عن وجه[3] يُزهد في الزهـــد[4]

---

(١) في أ ، غ : عن .

(٢) في ح٢ : ولا .

(٣) في م : وجد .

(٤) البيت لأبي تمام . انظر : ديوانه بشرح الخطيب التبريزي ٢/ ٦٢ .

فصـل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الورع»[١] . منزلة الورع

قال تعالىٰ[٢] : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر : ٤] .

قال مجاهد وقتادة : نفسك فطهر من الذنب[٣] . فكنىٰ عن النفس بالثوب .

وهذا قول إبراهيم[٤]، والضحاك، والشعبي ، والزهري[٥][٦] ، والمحققين من

---

(١) الوَرَعُ في اللغة : التحرُّج والتوقِّي عن المحارم ، يقال: وَرَعَ يَرَعُ وَرْعاً ووَرَعاً ورِعَةً : تحرَّج وتوقَّىٰ عن المحارم ، ثم استعير للكف عن الحلال المباح . انظر : المعجم الوسيط ١٠٢٥ مادة : (ورع) .

والورع عند الصوفية : هو الاحتراز عن كل ما فيه شوب انحراف شرعي ، أو شبهة مضرة معنوية ، في كل ما يقوم به بصورة الإنسان الحسية ، أو المعنوية بحكم النشوة الدنيوية . والورع يتضمن القناعة التي هي صورة التقوىٰ .

فورع الخاصة : الاحتراز عن كل داعية تدعو إلىٰ شتات الوقت ، والتعلق بالتفرق ، وعارض يعارض حال الجميع .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٣٨٨ ، القشيرية ١٠٩ ، المعجم الصوفي ٢٥٩ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة آية وهو قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ [المؤمنون : ٥١] .

(٣) في أ ، ش ، ب : الذنوب .

(٤) في ط زيادة : النخعي .

(٥) في م : الأزهري .

(٦) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري تابعي من أهل المدينة ، أحد كبار الحفاظ والفقهاء ، وأول من دون الحديث . توفي سنة ١٢٤هـ .

ترجمته في : السير ٥/ ٣٢٦ ، البداية والنهاية ٩/ ٣٥٤ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٥ .

أهل التفسير[١] . قال ابن عباس : لا تلبسها علىٰ معصية ولا غدر . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي[٢] :

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من غدرة أتقنَّعُ[٣]

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء : طاهر الثياب . وتقول للغادر والفاجر : دَنِس الثياب[٤] . وقال أبي بن كعب[٥] - رضي الله عنه - : لا تلبسها علىٰ غدر ولا ظلم ولا إثم[٦][٧] . البسها وأنت بر طاهر[٨] .

وقال الضحاك : عملك فأصلح . قال السدي : يقال للرجل ، إذا كان

(١) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٣ .

(٢) غيلان بن سلمة الثقفي ، أحد وجوه ثقيف ومقدمهم ، شاعر جاهلي ، أدرك الإسلام وأسلم بعد فتح الطائف ، كان تحته عشر نسوة في الجاهلية ، فأمره النبي ﷺ أن يتخيَّر منهن أربعاً ، توفىٰ في آخر خلافة عمر . ترجمته في : أسد الغابة ٤/ ٤٣ ، الإصابة ٣/ ١٨٦ ، الأعلام ٥/ ١٢٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري والإصابة ٣/ ١٨٨ ، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون ٥٠٩ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٣ .

(٥) أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري الخزرجي سيد القراء ، من فضلاء الصحابة ، شهد بدراً والمشاهد كلها ، ويُعد من أصحاب الفتيا ، وقد سماه عمر - رضي الله عنه - : سيد المسلمين ، توفي - رضي الله عنه - سنة ١٩هـ وقيل: ٣٠هـ .

ترجمته في : حلية الأولياء ١/ ٢٥٠ ، السير ١/ ٣٨٩ ، الإصابة ١/ ٣١ .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : علىٰ الغدر والظلم والإثم .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ولكن .

(٨) انظر : تفسير البغوي ٤/ ٤١٣ .

صالحاً : إنه لطاهر الثياب . وإذا كان فاجراً : إنه لخبيث الثياب . وقال سعيد ابن جبير: وقلبك ونيتك[1] فطهر. وقال الحسن والقرظي[2] : وخلقك فحسن .

وقال ابن سيرين[3] وابن زيد[4] : أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهرون ، ولا يطهرون ثيابهم . وقال طاوس : وثيابك فقصّر ، لأن تقصير[5] الثياب طهرة لها[6] . والقول الأول: أصح الأقوال . ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به ، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأن نجاسة الظاهر تورث

---

(١) في ط ، غ ، أ ، ب : بيتك .

(٢) هو : محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني - أبو حمزة وقيل أبو عبدالله - من حلفاء الأوس ، وكان أبوه كعب من سبي بني قريظة ، الإمام العلامة ، كان ثقة عالماً ورعاً كثير الحديث ، لكنه يرسل كثيراً ، فهو يروي عمن لم يلقهم ، توفي سنة ١٠٨ هـ .
ترجمته في : حلية الأولياء ٣/ ٢١٢ ، السير ٥/ ٦٥ ، البداية والنهاية ٩/ ٢٦٨ .

(٣) أبو بكر محمد بن سيرين الأنصاري مولىٰ أنس بن مالك ، الإمام شيخ الإسلام ، كان من أعلم أهل البصرة بالقضاء ، وكان ذا ورع وعبادة . توفي سنة ١١٠هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ١/ ٩٠ ، السير ٤/ ٦٠٦ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٢١٤ .

(٤) هو : عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العُمري المدني ، حدث عن أبيه وابن المنكدر وفيه لين ، كان صاحب قرآن وتفسير ، له كتاب في تفسير القرآن ، وكتاب في الناسخ والمنسوخ . توفي سنة ١٨٢هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٥/ ٢٨٤ ، السير ٨/ ٣٤٩ ، معجم المؤلفين ٥/ ١٣٨ .

(٥) في غ : قصرة .

(٦) انظر : أقوالهم في تفسير الطبري ١٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤١٣ ، وتفسير القرطبي ١٩/ ٦٢-٦٦ .

نجاسة الباطن . ولذلك أُمر القائم بين يدي الله بإزالتها والبعد عنها .

والمقصود : أن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته ، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته . وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام علىٰ قلبه وحاله ، ويؤثر كل منهما في الآخر . ولهذا نهىٰ عن لباس الحرير والذهب ، وجلود السباع (١) ، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع . وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي ، يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها ، وبهجتها وكسفتها ، حتىٰ إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر ، وليسا عليهما (٢) .

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة . فقال : «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» (٣) ، فهذا يعم الترك لما لا يعني : من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة .

---

(١) كما في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٣٢ عن المقدام بن معدي كرب قال : «**نهىٰ رسول الله ﷺ عن الحرير والذهب وعن مياثر النمور**» ورواه النسائي في سننه ٧/ ١٧٦ ح٤٢٥٤ ، وأبو داود مطولاً ٤/ ٣٧٣ في كتاب اللباس ، باب في جلود السباع والنمور ، (ح٤١٣١) . وصححه الألباني : انظر : صحيح سنن أبي داود ٢/ ٧٧٨ (ح٣٤٧٩) .

(٢) في أ : عليها .

(٣) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٠١ ، والترمذي ٤/ ٥٥٨ في كتاب الزهد ، باب (١١) (ح٢٣١٧) وقال : حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٣١٥ - ١٣١٦ في كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة (ح٣٩٧٦) . وصححه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٦٠ (ح٣٢١١) .

فهذه الكلمة[1] شافية في الورع .

قال[2] إبراهيم[3] بن أدهم[4] : « الورع ترك كل شبهة . وترك ما لا يعنيك ، هو ترك الفضلات »[5] . وفي الترمذي مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ : **«يا أبا هريرة كن ورعاً ، تكن أعبد الناس»**[6] . تعريف الورع

قال الشبلي ـ رحمه الله ـ : « الورع أن تتورع[7] عن كل ما سوىٰ الله »[8] .

وقال إسحاق بن خلف[9] : الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة .

---

(١) في ط زيادة : كافية .

(٢) «قال» ساقطة من ق .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد التميمي البلخي أحد مشاهير العباد ، وأكابر الزهاد ، كانت له همة عالية في ذلك ، وكان شديد الورع كثير التحري في طلب الحلال ، صحب سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض بمكة . توفي سنة ١٦١هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٧ ، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧ ، السير ٧/ ٣٨٧ .

(٤) في ق : آدم .

(٥) انظر : القشيرية ١١٠ .

(٦) رواه الترمذي ٤/ ٥٥١ في كتاب الزهد ، باب من اتقىٰ المحارم فهو أعبد الناس ، (ح٢٣٠٥) بلفظ : «يا أبا هريرة اتق المحارم تكن أعبد الناس» وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان ، والحسن لم يسمع من أبي هريرة شيئاً ، ورواه ابن ماجه - وهو باللفظ الذي ذكره ابن القيم - ٢/ ١٤١٠ في كتاب الزهد ، باب الورع والتقىٰ (ح٤٢١٧) . وصححه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٤١٢ (ح٣٣٩٨) .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش :يتورع .

(٨) انظر : القشيرية ١١٠ .

(٩) إسحاق بن خلف الزاهد ، صاحب الحسن بن صالح روىٰ عن حفص بن غياث ، وروىٰ عنه أحمد بن الحواري . ترجمته في : الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ٢/ ٢١٩ .

والزهد في الرياسة : « أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يبذلان في طلب الرياسة »[١] .

وقال أبو سليمان الداراني : «الورع أول الزهد ، كما أن القناعة أول الرضا»[٢] .

وقال يحيىٰ بن معاذ : « الورع الوقوف علىٰ حد العلم من غير تأويل » .

وقال : « الورع علىٰ وجهين : ورع في[٣] الظاهر[٤] : أن لا يتحرك إلا لله ، وورع في[٥] الباطن : وهو[٦] أن لا يَدخُل[٧] قلبَك سواه» .

وقال : « من لم ينظر في الدقيق من الورع ، لم يصل إلىٰ الجليل من العطاء»[٨][٩] .

وقيل : « من دق في الدين[١٠] ورعه[١١] ، جلَّ في القيامة خطره» [١٢] .

---

(١) انظر : القشيرية ١١٠ .

(٢) القشيرية ١١٠ .

(٣) «في» ساقطة من د .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ق زيادة : وورع في الباطن ، فورع الظاهر .

(٥) «في» ساقطة من ط ، د ، ق .

(٦) في ط : هو .

(٧) في ط ، غ ، ب ، أ ، م ، ق : تدخل .

(٨) انظر : القشيرية ١١٠-١١١ .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وقيل: الورع الخروج من الشهوات ، وترك السيئات .

(١٠) في ط ، أ ، غ ، ب : الدنيا .

(١١) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : أو نظره .

(١٢) انظر : القشيرية ١١١ .

وقال يونس بن عبيد[١] : «الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس مع[٢] كل طرفة»[٣][٤] .

وقال سفيان الثوري: «ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك تركته»[٥][٦] .

وقال سهل : «الحلال[٧] الذي لا يُعصىٰ الله فيه ، والصافي منه[٨] الذي لا ينسىٰ الله فيه[٩] . وسأل الحسن غلاماً . فقال[١٠] : «ما ملاك [الدين؟ قال:][١١] الورع . قال : فما آفتة؟ قال : الطمع . فعجب الحسن منه»[١٢] .

وقال الحسن - رضي الله عنه - : «مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال

---

(١) أبو عبد الله يونس بن عبيد بن دينار العبدي مولاهم البصري ، الإمام ، القدوة ، الحجة من صغار التابعين وفضلائهم . حدث عن الحسن ، وابن سيرين ، وعطاء ، وغيرهم . توفي سنة ١٣٩هـ . ترجمته في حلية الأولياء ٣/ ١٥ ، السير ٦/ ٢٨٨ ، تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٢ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : في .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : عين .

(٤) انظر : القشيرية ١١١ .

(٥) في ط ، ب ، غ ، أ : فاتركه .

(٦) انظر : القشيرية ١١١ .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : هو .

(٨) في د ، ق زيادة : هو .

(٩) القشيرية ١١١ .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : له .

(١١) ما بين المعقوفين ساقط من : د .

(١٢) انظر : القشيرية ص١١١ .

من الصوم والصلاة»[١].

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - : «جلساء الله غداً أهل الورع والزهد»[٢].

وقال بعض السلف : «لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس[٣]»[٤].

وقال بعض الصحابة - رضي الله عنهم - : «كنا ندع سبعين باباً من الحلال، مخافة أن نقع في باب من الحرام»[٥].

فصل

تعريف الهروي للورع

قال صاحب المنازل رحمه الله :

«الوَرَعُ : تَوَقٍّ مُسْتَقصىٰ عَلَىٰ حَذَرٍ ، وَتحَرُّجٌ[٦] عَلَىٰ تَعظِيمٍ»[٧].

---

(١) انظر : المرجع السابق ص١١٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص١١٢ .

(٣) في ق : مما بأس به .

(٤) ليس هذا من قول أحد السلف ، وإنما هو حديث عن النبي ﷺ رواه الترمذي ٤/ ٦٣٤ في كتاب صفة القيامة ، باب (١٩) (ح٢٤٥١) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٤٠٩ في كتاب الزهد ، باب الورع والتقوىٰ ، (ح٤٢١٥) ، وذكره المنذري في الترغيب ٢/ ٥٥٩ وقال : رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد ، وذكره ابن حجر في الفتح ٤/ ٢٩٣ . وضعفه الألباني . انظر : غاية المرام ص١٣٠ (ح١٧٨) .

(٥) انظر : القشيرية ١١٠ ، وهو منسوب لأبي بكر - رضي الله عنه - .

(٦) في ق : أو تحرُّج .

(٧) انظر : المنازل ٢٤ وفيها «أو تحرج» .

يعني: أن يتوقىٰ الحرام والشبه ، وما يخاف أن يضره؛ أقصىٰ ما يمكنه من التوقي . والتوقي[١] والحذر متقاربان ، إلا أن «التوقي» فعل الجوارح ، و«الحذر» فعل القلب . فقد يتوقىٰ العبد الشيء لا علىٰ وجه الحذر والخوف ، ولكن لأمور أخرىٰ : من إظهار نزاهة ، وعزة وتصون[٢] أو أغراض[٣] أخر ، كتوقي الذين لا يؤمنون بمعاد ، ولا جنة ولا نار ، ما يتوقونه من الفواحش والدناءات[٤] تصوناً عنها ، ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها ، وطلباً للمحمدة ، ونحو ذلك .

وقوله : «**أَو[٥] تَحَرُّجٌ عَلَىٰ تَعظِيمٍ**» يعني أن الباعث علىٰ الورع عن المحارم والشبه ، إما حذر حلول الوعيد ، وإما تعظيم الرب جل جلاله ، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهىٰ عنه .

الورع[٦] عن المعصية : إما لخوف[٧] ، أو تعظيم . واكتفىٰ بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث علىٰ ترك معصية المحبوب ، لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه . وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه ، لم تستلزم محبته ترك مخالفته . كمحبة

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش : لأن التوقي .

(٢) في ط ، أ ، غ ، ب : تصوف .

(٣) في ط ، أ ، غ ، ب : اعتراض آخر .

(٤) في ط ، أ ، ب ، م ، ح٢ : الدناءة .

(٥) في غ : وتحرج .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش : فالورع .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : إما تخوف .

الإنسان ولده وعبده وأمته . فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة .

قال : «**وَهُوَ آخِرُ مَقَامِ الزُّهدِ لِلعَامَّةِ ، وَأَوَّلُ مَقَامِ الزُّهدِ لِلمُرِيدِ**»[1] .

يعني أن هذا التوقي والتحرج - بوصف الحذر والتعظيم - : هو نهاية لزهد العامة ، وبداية لزهد المريد . وإنما كان كذلك؛ لأن الورع - كما تقدم - هو أول الزهد ورديئه[2] . وزهد المريد : فوق زهد العامة ، ونهاية العامة : هي بداية المريد . فنهاية مقام هذا، هي بداية مقام هذا. فإذا انتهىٰ ورع العامة صار زهداً، وهو أول ورع المريد .

درجات الورع
الدرجة الأولى

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : تَجَنُّبُ القَبَائِحِ لِصَونِ النَّفْسِ ، وَتَوفِيرِ الحَسَنَاتِ ، وَصِيَانَةِ الإِيمَانِ**»[3] .

هذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح .

توفير الحسنات من وجهين

أحدها[4] : صون النفس . وهو حفظها وحمايتها عما يشينها ، ويعيبها ويزري بها عند الله وملائكته ، وعباده المؤمنين ، وسائر خلقه . فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده : صانها وحماها ، وزكاها وعلاها ، ووضعها في أعلىٰ المحال ، وزاحم بها أهل العزائم والكمالات . ومن هانت عليه نفسه وصغرت

---

(١) انظر : المنازل ٢٤ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : وركنه .

(٣) انظر : المنازل ٢٤ .

(٤) في ط : إحداها .

عنده ، ألقاها في الرذائل ، وأطلق شناقها[١] ، وحل زمامها[٢] ، ودساها[٣] ، ولم يصنها عن قبيح . فأقل ما في تجنب القبائح : صون النفس . وأما توفير الحسنات فمن وجهين :

أحدهما : توفير زمانه علىٰ اكتساب[٤] الحسنات . فإذا اشتغل بالقبائح ، نقصت عليه الحسنات التي[٥] كان مستعداً[٦] لتحصيلها .

والثاني : توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها ، بموازنة السيئات أو حبوطها[٧] ، كما تقدم في منزلة التوبة : أن السيئات قد تحبط الحسنات ، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها . فلا بد أن تضعفها قطعاً[٨] ، فتجنبها يوفر[٩] ديوان الحسنات . وذلك بمنزلة من له مال حاصل . واستدان[١٠] عليه ، فإمّا أن

---

(١) الشِّناقُ : الحبل أو السير يشدُّ به الشيء ويعلق . انظر المعجم الوسيط ٤٩٦ مادة : (شنق) .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وأرخاه .

(٣) دسا ، دَسْوَةً : نقص وصغر ، ضد زكا . ودسا الرجل : استخفىٰ واستتر ، ودَسَّىٰ نفسه : أغواها وأفسدها ، وأخفاها وأخملها .

انظر : المعجم الوسيط ٢٨٤ ، مادة : دسا .

(٤) في ح٢ : اكتسابه .

(٥) في ق : إن .

(٦) في ق : مستوراً .

(٧) في ط ، غ ، أ ، ب ، ح٢ ، م : وحوطها .

(٨) انظر : المدارج ١/ ٢٧٧-٢٧٩ .

(٩) في الجميع سوىٰ ش ط : توفير .

(١٠) في ط ، غ ، ب ، أ : فإذا استدان .

يستغرقه الدين أو أكثره [١] أو ينقصه ، فهكذا الحسنات والسيئات [٢] .

وأما «صيانة الإيمان» فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[٣] . وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم[٤] . وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود ، فإن العبد

---

(١) في ط : أو يكثره .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : سواء .

(٣) كما دلت علىٰ ذلك نصوص الكتاب والسنة قال تعالىٰ : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . . . ﴾ [الأنفال :٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران :١٧٣] .

وقال ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٥٠ ، وأبو داود في سننه ٥/ ٦٠ في كتاب السنة ، باب الدليل علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه ، (ح٤٦٨٢) ، والترمذي في سننه ٣/ ٤٥٧ ، في كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة علىٰ زوجها ، (ح١١٦٢) ، وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله ﷺ :«من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم ١/ ٦٩ في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، (ح٤٩) .

(٤) انظر : السنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ٣١٤ وما بعدها والشريعة للآجري ١١١ وما بعدها . وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٥/ ٨٩٠ وما بعدها .

هذا وقد روىٰ اللالكائي بسنده عن البخاري أنه قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف : في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٧٣ ، وانظر : فتح الباري ١/ ٤٧ .

وذكر ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ أن القول بزيادة الإيمان ونقصانه هو قول جماعة أهل الآثار

-كما جاء في الحديث- «إذا أذنب نكت[1] في قلبه نكتة سوداء . فإن تاب واستغفر صقل قلبه . وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرىٰ ، حتىٰ تعلو قلبه . وذلك الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤]»[2] . فالقبائح تسود القلب ، وتطفىٰء نوره . والإيمان هو نور في القلب ، والقبائح تذهب به أو تقلله قطعاً .

فالحسنات تزيد نور القلب ، والسيئات تطفئ نور القلب . وقد أخبر تعالىٰ أن كسب القلوب ، سبب للران الذي يعلوها . وأخبر أنه أركس[3] المنافقين في

فقال : وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر ، منهم مالك ابن أنس ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن علي ، وأبو جعفر الطبري ومن سلك سبيلهم ، فقالوا : الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي . انظر : التمهيد ٩/ ٢٤٣ .
وحكىٰ البغوي - رحمه الله - اتفاق الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية . انظر : شرح السنة ١/ ٣٨-٣٩ .

(١) في د : نكتت .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٩٧ ، والترمذي ٥/ ٤٣٤ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة ويل للمطففين ، (ح٣٣٣٤) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ٢/ ١٤١٨ في كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب ، (ح٤٢٤٤) . والحاكم في المستدرك ١/ ٤٥ في كتاب الإيمان (ح٦) وقال : حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين ، وصححه الألباني . انظر : صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٧ (ح٣٤٢٢) .

(٣) الرَّكْسُ : قلب الشيء علىٰ رأسه ، أو ردُّ أوله علىٰ آخره ، يقال : أركسه في الشر ، وأركس الله العدو: رده إلىٰ الكفر. انظر : لسان العرب ٥/ ٣٠١ ، والمعجم الوسيط ٣٦٩ مادة : (ركس).

نفاقهم(١) بكسبهم(٢) فقال : ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء : ٨٨] ، وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه علىٰ عباده سبب لتقسية(٣) القلب . فقال : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائده : ١٣] فجعل ذنب النقض موجباً لشدة(٤) الآثار : من تقسية القلب ، واللعنة ، وتحريف الكلم ، ونسيان العلم .

المعاصي للإيمان كالمرض والحمى للقوة

فالمعاصي للإيمان ، كالمرض والحمىٰ للقوة ، سواء بسواء . ولذلك قال السلف : المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمىٰ بريد الموت(٥) .

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض علىٰ حسب قوة(٦) مرضه(٧) وضعفه .

وهذه الأمور الثلاثة - هي صون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان - هي(٨) أرفع من باعث العامة علىٰ الورع؛ لأن صاحبها أرفع همة ، لأنه عامل علىٰ تزكية نفسه وصونها ، وتأهيلها للوصول إلىٰ ربها . فهو يصونها عما

---

(١) «في نفاقهم» ساقط من ط والجمع سوىٰ ش .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : بما كسبوا .

(٣) في د : تقصية .

(٤) في ط والجميع : لهذه .

(٥) سبق في المشهد التاسع : مشهد زيادة الإيمان وشواهده ص١٠٩٣ .

(٦) «قوة» ساقطة من : ش .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : المرض .

(٨) في غ ، ب : وهي .

يشينها عنده ، ويحجبه[1] عنها . ويصون حسناته عما يسقطها ويضعفها[2] ، لأنه يسير بها إلىٰ ربه ، ويتطلب[3] بها رضاه ، ويصون إيمانه بربه : من حبه له ، وتوحيده ومعرفته به ، ومراقبته إياه عما يطفئ نوره ، ويذهب بهجته ، ويوهي[4] قوته .

قال الشيخ - رحمه الله - :

«وَهَـٰذِه الثَّلاثُ صِفَاتٍ[5] : هِيَ فِي الدَّرَجَةِ الأُولَىٰ مِن وَرَعِ المُرِيدِينَ»[6] .

يعني أن للمريدين درجتين أخريين[7] من الورع فوق هذه . ثم ذكرهما فقال :

«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : حِفظُ الحُدُودِ عِندَ مَا لَا بَأسَ بِهِ ، إِبقَاءً عَلَىٰ الصِّيَانَةِ وَالتَّقوَىٰ ، وَصُعُوداً عَنِ الدَّنَاءَةِ ، وَتخَلُّصاً عَن اقتِحَامِ الحُدُودِ»[8] . الدرجة الثانية

يقول : إن من صعد عن الدرجة الأولىٰ إلىٰ[9] هذه الدرجة من الورع فهو[10]

---

(١) في ط ، أ ، غ ، ب ، ش : ويحجبها عنه .

(٢) في ط ، أ ، م ، ح٢ ، وفي غ ، ب: يضعها.

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : ويطلب .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش : ويوهن .

(٥) في ط : الصفات .

(٦) هذه العبارة ليست في كتاب المنازل المطبوع . انظر : المنازل ١٠٩٣ .

(٧) في ب ، د ، غ ، أ ، ح٢ : أخرتين .

(٨) انظر : المنازل ٢٤ .

(٩) في ش : من .

(١٠) «فهو» ساقطة من ط ، وفي أ ، ب ، ح٢ ، م ، غ ، ق : هو .

يترك كثيرا مما[1] لا بأس به من المباح ، إبقاء علىٰ صيانته وخوفاً عليها أن يتكدر صفوها ، ويطفأ نورها . فإن كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة ، ويذهب بهجتها ، ويطفئ نورها ، ويخلق حسنها وبهجتها .

وقال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة أو نحو[2] هذا من الكلام .

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً علىٰ صيانته ، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام . فإن بينهما برزخاً -كما تقدم- فتركه لصاحب هذه الدرجة[3] كالمتعين الذي لا بد منه لمنافاته لدرجته .

والفرق بين صاحب الدرجة الأولىٰ وصاحب هذه[4] : أن ذاك[5] يسعىٰ في تحصيل الصيانة . وهذا يسعىٰ في حفظ صفوها أن يتكدر ، ونورها[6] أن[7] يذهب ، وهو معنىٰ قوله : «**إِبقَاءً عَلَىٰ الصِّيَانَةِ**» .

---

(١) في ق : فيهما .

(٢) في ش : أو نحوها ، وفي ب : أو نحواً من هذا .

(٣) في غ زيادة : الأولىٰ .

(٤) في أ زيادة : الدرجة .

(٥) في ط ، غ ، أ ، ب : ذلك .

(٦) في ش : تقررها .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : يُطفأ .

وأما الصعود عن الدناءة : فهو التَّرفُّع[1] عن طرقاتها وأفعالها .

و«أَمَّا التَّخَلُّصُ عَن اقتِحَامِ الحُدُودِ» فالحدود : هي النهايات . وهي مقاطع الحلال والحرام ، فحيث ينقطع وينتهي فذلك حدُّه . فمن اقتحمه وقع في المعصية . وقد نهىٰ الله عن تعدي حدوده وعن[2] قربانها[3] فقال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقره: ١٨٧]. وقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقره : ٢٢٩] ، فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال ، [وأول الحرام . فحيث نهىٰ عن التعدي فالحدود هناك أواخر الحلال][4] ، وحيث نهىٰ عن القربان فالحدود هناك : أوائل الحرام .

يقول سبحانه : لا تتعدوا ما أبحتُ لكم ، ولا تقربوا ما حرمتُ عليكم .

فالورع يخلص العبد من قربان هذه ، وتعدي هذه . وهو اقتحام الحدود .

الدرجة الثالثة

وقال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : التَّوَرُّعُ عَن كُلِّ دَاعِيَةٍ تَدْعُو إِلَىٰ شَتَاتِ الوَقْتِ ، وَالتَّعَلُّقِ بِالتَّفَرُّقِ ، وَعَارِضٍ يُعَارِضُ حَالَ الجَمْعِ»[5] .

الفرق بين شتات الوقت ، والتعلق بالتفرق : كالفرق بين السبب والمسبب . والنفي والإثبات . فإنه يتشتَّت وقتَه ، فلا يجد بُدّاً من التعلق بما سوىٰ مطلوبه

---

(١) في ط ، ق ، ب ، د ، غ ، أ : الرفع .

(٢) «عن» ساقطة من ط ، غ ، أ ، ب .

(٣) في ط : وقربانه .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ .

(٥) انظر : المنازل ٢٤ .

الحق ، إذ لا تعطيل في النفس ولا في الإرادة . فمن لم يكن الله مراده ، أراد ما سواه . ومن لم يكن هو وحده معبوده ، عبد ما سواه . ومن لم يكن عمله لله ، فلا بد أن يعمل لغيره . وقد تقدم هذا .

فالمخلص يصونه الله بعبادته وحده ، وإرادة(١) وجهه وخشيته وحده ، ورجائه وحده ، والطلب منه ، والذل له ، والافتقار إليه(٢) [عن عبادة غيره وإرادته ، وخشيته ورجائه ، والطلب منه ، والذل له ، والافتقار إليه](٣) .

وإنما كان هذا أعلىٰ من الدرجة الثانية : لأن أربابها مشتغلون(٤) بحفظ الصيانة من الكدر وملاحظتها . وذلك عند أهل الدرجة الثالثة ؛ تفرق عن الحق ، واشتغال عن مراقبته بحال نفوسهم . فأدب أهل هذه الدرجة(٥) ، أدب حضور ، وأدب أولئك أدب غيبة .

وأما «الوَرَعُ عَن كُل حَالٍ يُعَارِضُ حَالَ الجَمْعِ» :

فمعناه : أن يستغرق العبد شهود فنائه في التوحيد ، وجمعيته علىٰ الله تعالىٰ فيه عن كل حال يعارض هذا الفناء والجمعية .

وهذا عند الشيخ لما كان هو الغاية التي ليس بعدها مطلب : جعل

(١) في د : وأراد توجهه .

(٢) في ط زيادة : وحده .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ط والجميع سوىٰ ش ، ق .

(٤) في ط ، غ ، أ ، ب ، ح٢ ، م : اشتغلوا .

(٥) «الدرجة» ساقطة من ط ، غ ، أ ، ب ، م ، ح٢ .

كل حال يعارضها ويقطع عنها ناقصاً بالنسبة إليها . فالرغبة عنه غير[1] ورع صاحبها . وقد عرفت ما فيه ، وأن فوق هذا مقام أرفع منه وأعلىٰ . وهو الورع عن كل حظ يزاحم مراده منك، ولو كان الحظ فناءً وجميعة[2] ، أو كائنا ما كان. وبيَّنَّا أن «الفناء» و «الجمعية» حظ العبد ، وأن حق الرب وراء لك . وهو البقاء بمراده فرقاً وجمعاً به وله[3] .

وعلىٰ هذا فالورع الخاص : الورع عن كل حال يعارض حال القيام بالأمر ، والبقاء به فرقاً وجمعاً . والله المستعان .

* * *

---

(١) في ق : عين .

(٢) في ق : أو جميعه .

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٤٧-١٥٣ .

فصل

الخوف يثمر الورع والاستقامة

الخوف يثمر الورع والاستقامة[1] ، وقصر الأمل . وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد . والمعرفة تثمر المحبة[2] ، والخوف والرجاء . والقناعة تثمر الرضاء . والذكر يثمر حياة القلب . والإيمان بالقدر يثمر التوكل . ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة . والورع يثمر الزهد أيضاً . والتوبة تثمر المحبة أيضاً ، ودوام الذكر يثمرها . والرضا يثمر الشكر . والعزيمة والصبر يثمران[3] جميع الأحوال والمقامات . والإخلاص والصدق كل منهما[4] يثمر الآخر ويقتضيه . والمعرفة تثمر حسن[5] الخلق . والفكر يثمر العزيمة . والمراقبة تثمر عمارة الوقت ، وحفظ الأيام والحياء ، والخشية والإنابة . وإماتة النفس وإذلالها وكسرها : يوجب حياة القلب وعزه[6] وجبره . ومعرفة النفس ومقتها يثمر[7] الحياء من الله تعالىٰ ، واستكثارَ ما مِنْه ، واستقلال ما منك من الطاعات .

---

(١) في ط ، غ ، أ ، د ، ح٢ ، م ، ق : والاستعانة .

(٢) «الخوف» ساقطة من ق .

(٣) في غ : يورثان .

(٤) في ق : منهم .

(٥) «حسن» ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب .

(٦) في ب : وعزته .

(٧) في ط ، غ ، أ ، ب : يوجب ، وفي : ح٢ ، م : يورث .

ومحو أثر(١) الدعوىٰ من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين . وحسن التأمل لما ترىٰ وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة .

وملاك ذلك كله : أمران .

أحدهما : أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة ، ثم تقبل به كله علىٰ معاني القرآن واستجلائها(٢) وتدبرها . وفهم ما يراد منه(٣) ، وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، تنزيلها(٤) علىٰ أدواء(٥) قلبك .

فهذه طريق(٦) مختصرة قريبة سهلة . موصلة إلىٰ الرفيق الأعلىٰ . آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب(٧) ، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق(٨) البتة . وعليها من الله حارس وحافظ ، يكلأ السالكين فيها ويحميهم ، ويدفع عنهم . ولا يعرف قدر هذه(٩) الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها(١٠) وقطاعها . والله المستعان .

---

(١) في ب : آثار .

(٢) في الجميع سوىٰ ش ، ط : واستجلابها .

(٣) في أ ، ب : منها .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ : وتنزلها .

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ : داء .

(٦) في : أ ، ب ، ق ، ح٢ ، م : طريقة .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : ولا جوع ولا عطش .

(٨) في أ ، ب ، غ : الطريق .

(٩) في د : هذا .

(١٠) في ط والجميع سوىٰ ش زيادة : وآفاتها .

فصل

منزلة التبتل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «التبتل»[١].

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] و«التبتل» الانقطاع. وهو تفعُّل من البتل[٢] وهو القطع[٣]. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن[٤] نظراء[٥] زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً، وقطعت منهن. ومصدر «تبتل»[٦] «تبتلا»[٧] كالتعلم والتفهم، ولكن جاء علىٰ التفعيل - مصدر تفعل - لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف[٨] والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتىٰ بالفعل الدال علىٰ

تعريف التبتل

(١) التبتل عند الصوفية: هو الانقطاع إلى الله بالكلية وهو على ثلاث درجات:

الأولى: تبتل العامة وهو التجريد عن اللواحظ للناس.

الثانية: تبتل المريد وهو التجريد عن اللواحظ إلى ما تدعو إليه النفس.

الثالثة: تبتل الواصل وهو انقطاعه عما سوى الحق.

ومن معانيه عندهم: مجانبة الهوى، وشم الأنس، وشم الكيف.

انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣٠٠، المعجم الصوفي ٤٧.

(٢) في ش، غ، أ: التبتل.

(٣) انظر: لسان العرب ١/ ٣١١، مادة: بتل.

(٤) في ط زيادة: أن يكون لها.

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة: من نساء.

(٦) في ط: بتَّل.

(٧) في أ، غ، ب زيادة: إليه.

(٨) في م، ح٢: التكليف.

أحدهما ، والمصدر[1] الدال على الآخر . فكأنه قيل : بتل[2] نفسك إليه[3] تبتيلاً ، [وتبتل أنت إليه[4] تبتلاً][5][6] ففهم المعنيان من الفعل ومصدره . وهذا كثير في القرآن ، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز .

قال صاحب «المنازل» رحمه الله :

تعريف الهروي للتبتل

«التَّبَتُّلُ : الانقِطَاعُ إِلىٰ الله تَعَالىٰ بِالكُلِّيةِ . وَقَولُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد : ١٤] أَي التَّجرِيدُ المحْضُ»[7] .

ومراده بالتجريد المحض : تجريد[8] التبتل عن ملاحظة الأعواض . بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة ، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، بخلاف العبد . فإنه يخدم سيده[9] بمقتضىٰ عبوديته ، لا

---

(١) في ط : وبالمصدر .

(٢) في د : تبتل .

(٣) «إليه» ساقطة من غ ، وفي ط : إلى الله .

(٤) «أنت» ساقطة من ط .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٦) في ق : تبتيلاً .

(٧) انظر : المنازل ٢٥ ؛ لكن هنا يختلف عما في المنازل لأن الهروي قال : باب التبتل قال الله عز وجل : ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [المزمل : ٨] ، التبتل الانقطاع بالكلية وقوله (إليه) دعوة إلى التجريد المحض . فابن القيم ذكر آية غير التي استدل بها الهروي ، وهذا يدل على أنه اعتمد نسخة أخرى للمنازل .

(٨) «تجريد» ساقطة من ط .

(٩) «سيده» ساقطة من ط .

للأجرة . فهو لا ينصرف عن بابه(١) إلا إذا كان آبقاً . والآبق قد خرج من شرف(٢) العبودية . ولم يحصل له إطلاق الحرية ، فصار بذلك موكوساً(٣)(٤) عند سيده وعند عبيده . وغاية شرف النفس : دخولها تحت رق العبودية طوعاً واختياراً ومحبة ، لا كرهاً وقهراً . كما قيل :

شرفُ النفوس(٥) دخولها في رقهم   والعبدُ يحوي الفخرَ بالتملك(٦)(٧)

والذي حسن استشهاده بقوله : ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ في هذا الموضع : إرادة هذا المعنىٰ ، وأنه سبحانه صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته ، وإن لم يوجب لداعيه بها ثواباً . فإنه يستحقها لذاته . فهو أهل أن يعبد وحده ، ويدعىٰ وحده ، ويقصد ويشكر ويُحمد، ويُحب ويُرجىٰ ويُخاف ، ويُتوكَّلُ عليه ، ويُستعان به، ويُستجار به ، ويُلجأ إليه ، ويُصمد إليه . فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده . ومن قام بقلبه هذا - معرفة وذوقاً وحالاً - صح له مقام التبتل، والتجريد المحض.

تفسير السلف لدعوة الحق

وقد فسر السلف رضي الله عنهم «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ، ومرادهم : هذا المعنىٰ . فقال علي - رضي الله عنه - : «دعوة

(١) في ط ، أ : باب سيده .

(٢) في ق زيادة : رق .

(٣) في ط ، ب ، غ ، أ : مركوساً .

(٤) الوكس : النقص والغبن والخسران . انظر : المعجم الوسيط ١٠٥٤ ، مادة : (وكس) .

(٥) في د : النفس .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، د : بالتمليك .

(٧) ذكره ابن رجب في اختيار الأولى في شرح أحاديث اختصام الملأ ص٣٤ ولم ينسبه لأحد .

الحق : التوحيد» .

وقال ابن عباس : «شهادة أن لا إله إلا الله» [١] . وقيل : الدعاء بالإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله [٢][٣] .

[ودعوة الحق[٤]] هي[٥] دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها .

درجات التبتل الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : تَجَرِيدُ الانقِطَاعِ عَن الحُظُوظِ وَاللُّحُوظِ إِلَىٰ العَالَمِ ، خَوفاً أَوْ رَجَاءً أَوْ مُبَالَاةً بِحَالٍ» [٦] .

قلت : التبتل يجمع أمرين ، اتصالاً وانفصالاً لا يصح إلا بهما .

فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه . وعن التفات قلبه إلىٰ ما سوىٰ الله ، خوفاً منه أو رغبة فيه ، أو مبالاة[٧] وفكراً[٨] فيه ، بحيث يشغل[٩] قلبه عن الله تعالىٰ .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٧/ ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢ .

(٢) في ش زيادة وحده .

(٣) انظر : تفسير البغوي ٣/ ١٢ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من د .

(٥) «هي» ساقطة من الجميع ، ط سوى ش .

(٦) انظر : المنازل ٢٥ .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : به .

(٨) في ط والجميع سوى ش : أو فكراً .

(٩) في د ، م ، ح٢ : يشتغل .

والاتصال : لا يصح إلا[1] بعد هذا الانفصال . وهو اتصال القلب بالله ، وإقباله عليه ، وإقامة وجهه له ، حباً وخوفاً ورجاءً ، وإنابة وتوكلاً .

ثم ذكر الشيخ - رحمه الله - ما يعين على هذا التجريد، وبأي شيء يحصل .

فقال : «**بِحَسْمِ الرَّجاءِ بِالرِّضَا ، وَقَطْعِ الخَوْفِ بِالتَّسْلِيمِ ، وَرَفضِ المبالَاةِ بِشُهُودِ الحَقِيقَةِ**»[2] .

يقول : إن الذي يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك : هو الرضا بحكم الله عز وجل وقسمه لك . ومن[3] رضي بحكم الله وقسمه ، لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع .

والذي يحسم مادة الخوف : هو التسليم لله . فإن من سلم لله واستسلم له ، وعلم[4] أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً . فإن نفسه التي[5] يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها ، وعلم أنه لا[6] يصيبها إلا ما كُتب[7] لها ، وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها ، فلا معنى للخوف من غير الله بوجه . وفي

---

(١) «إلا» ساقطة من غ .

(٢) انظر : المنازل ٢٥ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : فمن .

(٤) في غ ، أ ، ب : علم .

(٥) في الأصل ، وش ، ح٢ : الذي وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

(٦) في د ، ح٢ ، م ، ش : لن .

(٧) في ح٢ ، م زيادة : الله .

التسليم أيضا فائدة لطيفة ، وهي أنه إذا سَلّمها لله[١] فقد أودعها عنده ، وأحرزها في حرزه ، وجعلها تحت كنفه ، حيث لا تناله[٢] يد[٣] عاد ولا بغي باغ[٤] .

والذي يحسم مادة المبالاة بالناس : شهود الحقيقة . وهو رؤية الأشياء كلها من الله ، وبالله ، وفي قبضته ، وتحت قهر سلطانه[٥] . لا يتحرك منها[٦] شيء إلا بحوله وقوته ، ولا ينفع ولا يضر[٧] إلا بإذنه ومشيئته . فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود؟

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَجرِيدُ الانقِطَاعِ عَن التَّعرِيجِ عَلىٰ النَّفسِ بِمُجَانَبَةِ الهَوَىٰ ، وتَنَسُّمِ رَوحِ الأُنسِ ، وَشَيمِ[٨] بَرقِ الكَشْفِ**»[٩] .

الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أن الأولىٰ انقطاع عن الخلق ، وهذه انقطاع عن النفس . وجعله بثلاثة أشياء .

---

(١) في ط : الله .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، د : تنالها .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : عدو .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : عات .

(٥) في ط : قهره وسلطانه .

(٦) في د : منه .

(٧) في د ، ح٢ ، م ، ق : ويضر .

(٨) تقول شام البرق : أي: نظر إلى سحابته أين تمطر ، وشام مخايل الشيء : تَطَلَّع نحوها ببصره منتظراً له . انظر : مختار الصحاح ١٤٨ ، مادة : (شيم) .

(٩) انظر : المنازل ٢٥ .

أولاها[١] : مجانبة الهوىٰ ومخالفته ، ونهي النفس[٢] عنه ؛ لأن اتباعه يصد عن التبتل .

وثانيها[٣] : - وهو بعد مخالفة الهوىٰ - تنسم روح الأنس[٤] ، والرُوح كالرَوْحَ للبدن ، فهو روحها وراحتها . وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه . فحينئذ تنسم روح الأنس بالله ، ووجد[٥] رائحته . إذ النفس لا بد لها من التعلق فلما انقطع تعلقها من هواها ، وجدت روح الأنس بالله ، وهبت عليها[٦] نسماته ، فريحتها وأحيتها .

وثالثها : شيم برق الكشف . وهو مطالعته واستشرافه ، والنظر إليه ، ليعلم به مواقع الغيث[٧] ، ومساقط الرحمة .

وليس مراده بالكشف هاهنا : الكشف الجزئي السفلي ، المشترك بين البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالكشف عن مخبآت الناس ومستورهم . وإنما هو الكشف[٨] عن ثلاثة أشياء ، هي[٩] منتهىٰ

---

(١) في ط ، ب ، غ ، أ : أولها .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، ح٢ : نفسه .

(٣) في ح٢ ، م : وثانيهما .

(٤) في ط ، أ زيادة : بالله .

(٥) في ق : فوجد .

(٦) «عليها» ساقطة من م وفي غ ، أ ، ب : عليه .

(٧) في د : الغيب .

(٨) في غ : انكشف .

(٩) في ط ، ب ، غ ، أ : هن .

كشف[1] الصادقين أرباب البصائر .

أحدها : الكشف عن منازل السير .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها.

والثالث : الكشف عن معاني الأسماء والصفات، وحقائق التوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوم ، وعليها يحومون[3] ، وإليها يشمرون . فمنهم من جل كلامِه ومعظمُه : في السير وصفة المنازل . ومنهم من جل كلامه : في الآفات والقواطع[4] . ومنهم من جل كلامِه : في التوحيد والمعرفة ، وحقائق الأسماء والصفات .

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق . فيستعين به علىٰ مطلبه . ولا يرد ما يجده عنده من الحق، لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به . فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلا من[5] له مقام معلوم .

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : تَجرِيدُ الانقِطَاعِ إِلَىٰ السَّبقِ بِتَصْحِيحِ الاستِقَامَةِ[6] وَالاستِغْرَاقُ فِي قَصْدِ الوُصُولِ ، وَالنَّظَرُ إِلىٰ أَوَائِلِ الجَمْعِ**»[7] .

لما جعل الدرجة الأولىٰ انقطاعاً عن الخلق ، والثانية انقطاعاً عن النفس ،

---

(١) «كشف» ساقطة من م .

(٢) في د : حقائق .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وحولها يدندنون .

(٤) في د : القطاع .

(٥) «من» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) في غ ، م ، ح٢ ، أ ، ب : الإقامة .

(٧) انظر : المنازل ص٢٥ .

جعل الثالثة لطلب السبق[1]، وجعله بتصحيح الاستقامة . وهي الإعراض عما سوىٰ الحق ، ولزوم الإقبال عليه ، والاشتغال بمحابِّه ، ثم بالاستغراق في قصد الوصول .

وهو أن يشغله طلب الوصول عن كل شيء ، بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته[2]، أوقاته . وإنما يكون ذلك بعد بُدُوِّ برق الكشف المذكور له .

وأما النظر إلىٰ أوائل الجمع : فالجمع هو قيام الخلق كلهم بالحق وحده ، وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير .

والنظر إلىٰ أوائل ذلك : [3] الالتفات إلىٰ مقدماته وبداياته ، وهي العقبة التي ينحدر منها علىٰ وادي الفناء .

وقد قيل : إنها وقفة تعترض [القاطع لأودية التفرقة قبل وصوله إلىٰ الجمع ومنها يشرف عليه .

وهذه الوقفة تعترض][4] كل طالب مجد في طلبه . فمنها يرجع علىٰ عقبه ، أو يصل إلىٰ مطلبه كما قيل :

لا بُدَّ للعاشق من وَقْفة ما بين سلوان وبين غَرَامِ[5]

---

(١) في ط : طلباً للسبق .

(٢) في غ ، أ ، ب : وإرادته .

(٣) في ط زيادة : هو .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، م وهو في هامش الأصل .

(٥) في الأصل وش، د ، ح٢ ، ق : الغرام، وما أثبته من ط ، أ ، ب ، غ ، ووزن البيت يقتضي ذلك .

وعندها ينقُلُ أقدامَـه إما إلىٰ خلف[١] وإما أمام[٢]

والذي[٣] يظهر لي من كلامه : أن[٤] أوائل الجمع ، مباديه ولوائحه وبوارقه .

وبعد هذا درجة رابعة : وهي الانقطاع عن مراده من ربه ، والفناء عنه إلىٰ مراد ربه منه ، والفناء به . فلا يريد منه ؛ بل يريد ما يريده ، منقطعاً به عن كل إرادة . فينظر في أوائل الجمع في مراده الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه .

وأكثر أرباب السلوك عندهم «إياك نعبد» فرق «وإياك نستعين» جمع .

ثم منهم من يرىٰ : أن[٥] ترك الفرق[٦] زندقة وكفر . فهو يعرض عن الجمع إلىٰ الفرق .

ومنهم من يرىٰ : أن مقام «التفرقة» مقام[٧] ناقص مرغوب عنه . ويرىٰ سوء حال أهله وتشتتهم . ويرغب[٨] عنه عاملاً علىٰ الجمع ، يتوجه[٩] معه حيث توجهت ركائبه .

---

(١) في غ : خلق .

(٢) لم أقف على من ذكر هذين البيتين .

(٣) في ش : وإن الذي .

(٤) في أ ، ب ، غ : إلى .

(٥) في ش زيادة : في .

(٦) في ط ، غ ، ب ، أ : الجمع .

(٧) «مقام» ساقطة من ط والجميع سوى ش ، د ، ق .

(٨) في ط والجميع سوى ش : فيرغب .

(٩) في ب : فيتوجه .

والمستقيمون منهم يقولون : لابد للعبد السالك من جمع وفرق ، وقيام العبودية بهما. فمن لا تفرقة له لا عبودية له. ومن لا جمع له لا معرفة له ولا حال.

فـ «إياك نعبد» فرق . و «إياك نستعين» جمع .

والحق : أن كلا من مشهد[1] «إياك نعبد وإياك نستعين» [متضمن للفرق والجمع ، وكمال العبودية بالقيام بهما في كل مشهد .

ففرق «إياك نعبد»][2] تنوع ما يعبد به ، وكثرة تعلقاته وضروبه[3] .

وجمعه : توحيد المعبود بذلك كله ، وإرادة وجهه وحده ، والفناء[4] عن كل حظٍّ ومرادٍ يزاحم حقَّه ومرادَه .

فتضمن[5] هذا المشهد فرقاً في جمع ، وكثرة في وحدة . فصاحبه ينتقل[6] في منازل العبودية من عبادة إلىٰ عبادة ، ومعبوده واحد[7] .

وأما فرق «إياك نستعين» فشهود ما يستعين به عليه ، ومرتبته ومنزلته ، ومحله من النفع والضر ، وبدايته وعاقبته ، واتصاله[8] - بل وانفصاله - وما

---

(١) في ط والجميع سوى ش : مشهدي .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ق .

(٣) في غ ، ب ، ح٢ ، م : وضرورته .

(٤) في غ : الفناء .

(٥) في ق : وتضمن .

(٦) في ط : يتنقل .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : لا إله إلا الله .

(٨) في د ، ق : وإيصاله .

يترتب عليه من هذا الاتصال والانفصال .

فيشهد[1] - مع ذلك - فقر المستعين وحاجته ونقصه ، وضرورته إلىٰ كمالاته التي يستعين ربَّه في تحصيلها ، وآفاته التي يستعينه[2] في دفعها . ويشهد حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به ، وهذا كله فرق يثمر عبودية هذا المشهد .

وأما جمعه : فشهود تفرده سبحانه بالأفعال ، وصدور الكائنات بأسرها عن مشيئته ، وتصريفها بإرادته[3] وحكمه[4] .

فغيبته بهذا المشهد عما قبله من الفرق[5] : نقص في العبودية ، كما أن تفرقه في الذي قبله دون ملاحظته : نقص أيضاً . والكمال إعطاء الجمع والفرق[6] حقهما في هذا المشهد والمشهد الأول .

فتبين تضمن[7] «إياك نعبد وإياك نستعين» للجمع والفرق . وبالله المستعان .

* * *

(١) في ط ، غ ، ويشهد ، وفي أ ، ب ، د ، م ، ح٢ : وشهد .

(٢) في ح٢ ، ب ، أ ، غ : يستعين ، وفي ط : يستعين به .

(٣) في أ ، غ ، ب : بالإرادة .

(٤) في ط ، ح٢ : حكمته .

(٥) في أ ، ب ، غ : الفراق ، ومكتوب في هامشها : لعله الفروق .

(٦) في ط : الفرق والجمع .

(٧) في ح٢ ، م ، أ ، ب ، غ ، د : تضمين .

فصل

منزلة الرجاء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرجاء»[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء : ٥٧] فابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة . فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه[2] : الحب ، والخوف ، والرجاء . قال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾[العنكبوت : ٥] . وقال : ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا

---

(١) الرجاء في اللغة : من الأمل وهو نقيض اليأس ، ويأتي بمعنى الخوف ، والإرجاء : التأخير .
انظر : لسان العرب ٥/ ١٦٣ ، المعجم الوسيط ٣٣٣ ، مادة : (رجا) .
والرجاء عند الصوفية : الطمع في طول الأجل وبلوغ الأمل ، وهو حال الضعفاء من أهل السلوك ، فهو عندهم وقوف مع حظ النفس .
ومنه : رجاء المجازاة تحرياً لما ينتظره من لذة عاجلة أو آجلة ، ولولا هذا الأمل لما تحمل مرارة الترك والعمل ، ولهذا كان هذا الرجاء ضعيفاً .
ورجاء أرباب الرياضات هو : تصفية القلوب استعداداً للقاء المحبوب ، وتحمل المجاهدات وترك المألوفات ومع هذا كله فهو عندهم ضعيف ؛ لأنهم مشغولون بتطهير القلوب ، ولم يبلغوا بعد منزلة القرب .
ورجاء أرباب القلوب : هو لقاء المحبوب الحق وهو عندهم ضعيف أيضاً ؛ لأن الرجاء إنما يكون في وقت الغيبة ، والأمر عندهم ينبني على الحضور والمشاهدة .
انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٨٢ - ٤٨٤ ، القشيرية ١٣٢ .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : بناء .

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف : ١١٠][1] .

وفي صحيح مسلم عن جابر[2] - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - قبل موته بثلاث - : «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»[3] ، وفي الصحيح عنه ﷺ : «**يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي[4] فليظن بي ما شاء**»[5] .

تعريف الرجاء

«الرجاء» حادٍ يحدو القلوب إلى[6] الله والدار الآخرة ، ويطيب لها السير .

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال تعالى : ﴿أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ [البقرة : ٢١٨] .

(٢) جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاري الخزرجي الصحابي الجليل ، والحافظ الفقيه ، من أهل بيعة الرضوان ، وكان مفتي المدينة في زمانه . توفي سنة ٧٨هـ .
ترجمته في : التاريخ الكبير ٢/ ٢٠٧ ، السير ٣/ ١٨٩ ، الإصابة ١/ ٢١٤ .

(٣) رواه مسلم ٤/ ٢٢٠٥ في كتاب صفة الجنة ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، (ح٢٨٧٧) ، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٩٣ ، وأبو داود ٣/ ٤٨٤ في كتاب الجنائز ، باب ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت ، (ح٣١١٣) .

(٤) في م زيادة : عبدي .

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤٩١ ، ٤/ ١٠٦ ، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٨٨ ، وابن حبان في صحيحه ٢/ ١٤-١٥ ح٦٣٢ ، والدارمي في سننه ٢/ ٢١٤-٢١٥ ح٢٧٣٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٦ ح١٠٠٦ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٢/ ٣١٨ وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد ثقات ، وقال محققو مسند الإمام أحمد ٢٥/ ٣٩٨ إسناده صحيح .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، زيادة : بلاد المحبوب وهو .

وقيل : هو الاستبشار بوجود فضل[1] الرب تعالىٰ ، [والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه[2] .

وقيل : هو الثقه بجود[3] الرب[4]][5] .

الفرق بين الرجاء والتمني

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل . ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد . و «الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل[6] .

فالأول : كحال من يتمنىٰ أن يكون له أرض يبذرها ، ويأخذ زرعها .

والثاني : كحال[7] من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ، ويرجو طلوع الزرع .

ولهذا أجمع العارفون علىٰ أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل .

قال شاه الكرماني[8] : علامة صحة الرجاء : حسن الطاعة[9] .

---

(١) في ط : بجود وفضل .

(٢) انظر : القشيرية ١٣٣ ، وقد نسب إلى أبي عبد الله بن خفيف .

(٣) في ق : بوجود .

(٤) انظر القشيرية ١٣٣ ؛ لكن بلفظ : الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ش .

(٦) انظر : القشيرية ١٣٢ .

(٧) «كحال» ساقطة من : م ، ح٢ ، أ ، ب ، غ .

(٨) أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني كان من أبناء الملوك ، سلك طريق التصوف ، وصحب أبا تراب النخشبي ، وأبا عبدالله الذرّاع البصري وغيرهما ، مات قبل سنة ٣٠٠هـ .
ترجمته في : طبقات الصوفية ١٩٢ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧ ، القشيرية ٤٢٨ .

(٩) انظر : القشيرية ١٣٢ .

أنواع الرجاء

والرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ونوع غرور مذموم .

فالأولان[١] : رجاء رجل عمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ، فهو راج لثوابه . ورجل أذنب ذنباً[٢] ثم تاب منه[٣] إلىٰ الله تعالىٰ[٤] ، فهو راج لمغفرته[٥][٦] .

والثالث : رجل مُتَمَادٍ في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة[٧] الله بلا عمل . فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[٨] .

وللسالك نظران : نظرٌ إلىٰ نفسه وعيوبه وآفات عمله ، يفتح عليه باب الخوف . ونظرٌ[٩] إلىٰ سعة[١٠] فضل ربه وكرمه وبره ،[١١] يفتح عليه باب الرجاء . ولهذا قيل في حد «الرجاء» هو : النظر إلىٰ سعة رحمة الله[١٢] .

---

(١) في ح٢ ، م : فالأوليان .

(٢) في ط ، والجميع سوى ش : ذنوباً .

(٣) في ط والجميع سوى ش : منها .

(٤) «إلى الله تعالى» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٥) في ط والجميع سوى ش : لمغفرة الله تعالى .

(٦) في ط والجميع سوى ش : زيادة : وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه .

(٧) «رحمة» ساقطة من ق .

(٨) ورد هذا بمعناه في القشيرية ١٣٢ منسوباً إلى عبدالله بن خبيق .

(٩) «ونظرٌ» ساقطة من ط .

(١٠) في ح٢ ، م زيادة : رحمة الله .

(١١) في ط زيادة : ونظرٌ .

(١٢) انظر : القشيرية ١٣٢ .

وقال أبو علي الروذباري[١] - رحمه الله - : الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوىٰ الطير وتمَّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر[٢] في حدِّ الموت[٣] .

وسئل أحمد بن عاصم[٤] : ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال : أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر ، راجياً لتمام النعمة من الله عليه[٥] في الدنيا[٦] ، وتمام عفوه عنه في الآخرة[٧] .

واختلفوا، أي الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء[٨]

---

(١) أبو علي أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور الروذباري ، شيخ الصوفية ، أصله من بغداد ، وسكن مصر ، صحب الجنيد وغيره ، سمع الحديث وحفظ منه كثيراً ، كان كثير الصدقة والبر للفقراء ، توفي سنة ٣٢٢هـ .

ترجمته في : طبقات الصوفية ٣٥٤ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦ ، السير ١٤/ ٥٣٥ .

(٢) في ح٢ : الطير .

(٣) انظر : القشيرية ١٣٢ .

(٤) أبوعبدالله أحمد بن عاصم الأنطاكي كان من أقران بشر بن الحارث ، والحارث المحاسبي ، ويقال إنه رأى الفضيل بن عياض ، كان صاحب مواعظ وزهد ، وكان يلقب بجاسوس القلوب لحدة فراسته ، توفي سنة ٢٣٩ . ترجمته في : طبقات الصوفية ص١٣٧ ، حلية الأولياء ٩/ ٢٨٠ ، السير ١٠/ ٤٨٧ .

(٥) «عليه» ساقطة من أ ، ب .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، زيادة : الآخرة .

(٧) انظر : القشيرية ١٣٢ - ١٣٣ .

(٨) في ش : ورجاء .

المذنب[1] المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟

فطائفة رجحت رجاء المحسن، لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء[2] المذنب؛ لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيىٰ بن معاذ: يكاد رجائي لك[3] مع الذنوب يغلب علىٰ[4] رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال؛ علىٰ الإخلاص، وكيف[5] أحرزها[6]؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد علىٰ عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟[7].

وقال أيضاً: إلهي أحلىٰ العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام علىٰ لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ[8] ساعة يكون فيها لقاؤك[9].

---

(١) «المذنب» ساقطة من ط، غ، ب، أ.

(٢) في د: جانب.

(٣) «لك» ساقطة من غ، ب.

(٤) «على» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة: أصفيها.

(٦) في م، ح٢: أحررها.

(٧) انظر: القشيرية ١٣٣.

(٨) في م: لي.

(٩) انظر: القشيرية ١٣٣.

فصل

الرجاء أضعف منازل المريدين عند الهروي

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله - :

«الرَّجَاءُ : أَضعَفُ مَنَازِلِ المرِيدِ[1] ؛ لِأَنَّـهُ مُعَارَضَةٌ[2] مِن وَجْهٍ ، وَاعتِرَاضٌ مِن وَجْهٍ . وَهُوَ وُقُوعٌ فِي الرُّعُونَةِ فِي مَذهَبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ . وَلِفَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ نَطَقَ بِهِ[3] التَّنزِيلُ وَالسُّنَّةُ[4] ، وَتِلكَ الفَائِدَةُ : هِيَ كَونه يُبَرِّدُ حَرَارَةَ الخَوفِ ، حَتَّىٰ لَا يُفضِي بِصَاحِبِهِ[5] إِلَىٰ الإِيَاسِ»[6][7] .

شيخ الإسلام حبيب إلينا . والحق أحب إلينا منه . وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من قوله ومتروك . ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله ، ثم نبيِّن ما فيه .

أما قوله : «الرَّجَاءُ أَضعَفُ مَنَازِلِ المرِيدِ»[8] فيعني[9] بالنسبة إلىٰ ما فوقه من

---

(١) في ط ، ح٢ ، غ ، ب : المريدين .

(٢) في ح٢ ، م : معارض .

(٣) في ط : بها .

(٤) في ش زيادة : ودخل في مسالك المحققين .

(٥) في ح٢ ، م : بصاحبها .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : اليأس .

(٧) انظر : المنازل ٢٦ لكن فيها : «إلا ما فيه من فائدة واحدة ، ولها نطق باسمه التنزيل والسنة ، ودخل في مسالك المحققين . . . » .

(٨) في ط ، ح٢ ، ب ، غ : المريدين .

(٩) «فيعني» ساقطة من ح٢ .

رد ابن القيم على الهروي في جعله الرجاء أضعف المنازل

المنازل ، كمنزلة[1] المعرفة والمحبة[2] ، والإخلاص ، والصدق ، والتوكل . لا أن مراده ضعف حال هذه المنزلة في نفسها ، وأنها منزلة ناقصة .

وأما قوله : «**لأنَّه مُعَارَضَةٌ مِن وَجْهٍ ، وَاعتِرَاضٌ مِن وَجْهٍ**» .

فلأنه تعلق بمراد العبد من ربه ، من الإحسان والثواب والإفضال . وقد يكون مراده تعالىٰ من عبده : استيفاءَ حقِّه ، ومعاملته بحكم عدله[3] ، لما له في ذلك من الحكمة . فإذا أراد العبد منه معاملته بحكم الفضل دخل في نوع[4] معارضة ، فكأن[5] الراجي تعلق قلبه بما يعارض تصرف المالك في ملكه . وذلك ينافي حكم استسلامه وانقياده ، وانطراحه بين يَدَي رَبِّه ، مستسلماً لما يحكم به فيه[6] . فرجاؤه معارضة[7] لحكمه وإرادته ، ووقوف مع مراده من سيده ، وذلك يعارض مرادَ سيِّدِه منه . والمحب الصادق من فني بمراد محبوبه عن مراده منه ، ولو كان فيه تعذيبه . وأما وجه الاعتراض : فهو أن القلب إذا تعلق بالرجاء ولم يظفر بمرجوِّه[8] : اعترض[9] حيث لم يحصل له مرجوُّه ، ولم يظفر به .

---

(١) في د : كمنزل .

(٢) «والمحبة» ساقطة من ح٢ ، م .

(٣) في ط ، غ ، ب ، أ ، م زيادة : له .

(٤) «نوع» ساقطة من : غ ، ب ، أ، وهي في هامش أ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : وكأن .

(٦) «فيه» ساقطة من ح٢ ، م .

(٧) في ط : معارض .

(٨) في م : بموجوده .

(٩) في أ ، ب : اعتراض .

وإن ظفر به : اعترض حيث فات[1] غير[2] ذلك المرجو ؛ لأن كل أحد يرجو فضل الله ، ويحدث نفسه به[3] .

وفيه وجه آخر من الاعتراض : وهو أنه[4] يعترض على ربه بما يرجوه[5] منه ؛ لأن الراجي متمن لما يرجو[6] ، مؤثر له ، وذلك اعتراض على القدر ، مناف لكمال الاستسلام ، والرضا بما سبق به القضاء . فإذا تيقن[7] أنه قد[8] سبق القضاء بشيء وأنه[9] لا بد أن يناله ، فعلق قلبه برجاء شيء من الفضل، فقد اعترض على القضاء ، ولم يعرف للاستسلام للحكم حقه . وذلك وقوع في الرعونة، في مذهب السائرين على درب الفناء، الناظرين إلى عين الجمع . إذ الرعونة هي : الوقوف مع حظ النفس . والرجاء هو : الوقوف مع الحظ ، لأنه يتعلق بالحظوظ .

وأصحاب هذه الطريق[10] أول طريقهم : الخروج عن نفوسهم ، فضلا عن

(١) في ط ، أ ، ب ، غ : فاته .
(٢) في ق ، ح٢ ، م ، د : غيره .
(٣) «به» ساقطة من : غ ، أ ، ب .
(٤) في ط ، ح٢ ، ب : أن .
(٥) في ط ، ب ، غ ، أ ، م ، ح٢ : يرجو .
(٦) في ح٢ : يرجوه .
(٧) في ط زيادة : له .
(٨) «قد» ساقطة من : ط ، أ ، ب ، غ .
(٩) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ ، م : فإنه .
(١٠) في ط ، أ ، ب ، غ : الطريقة .

حظوظها[1] ؛ لأنهم عاملون علىٰ أن يكونوا بالله لا بنفوسهم . فغاية المحب : أن يـرضىٰ بأحكـام محبوبـه عليـه ، سـاءته أم سرتـه ، حتـىٰ يبلـغ[2] بأحـدهم هـذه[3] الحال إلىٰ أن ينشد :

أحبك لا أحبك للثــواب ... ولكنـي أحبـك للعقـــاب

وكل مآربي قد نلت منهـا ... سوىٰ ملذوذ وجدي بالعذاب[4]

ولو كان نفس تلذذه[5] بالعذاب مقصوده من العذاب : لكان أيضاً واقفاً[6] مـع حظه ، ولكن أراد أن رضاه بمراد محبوبه منه - ولـو كـان عذابـه - لم يـدع فيـه للرجاء موضعاً ولا للخوف؛ بل يقول : أنا أحب ما تريده بي[7]، ولو أنه عـذابي.

وقد كشف بعض المغرورين عن هذا بقوله :

وتعذيبي مع الهجران عنـدي ... أحبُّ إليَّ من طِيبِ الوِصَال

لأني في الوِصَال عُبَيْدُ حظِّي ... وفي الهُجْـرَان عَبْدٌ للموالي[8]

---

(١) في ح٢ ، م : حظوظهم .

(٢) في ش : تبلغ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : هذا .

(٤) ينسب مثل هذا للحلاج . انظر : ديوانه ١٠٩ . وقد نسب ابن عربي هذين البيتين إلى أبي يزيد البسطامي . انظر : الفتوحات المكية ١/ ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

(٥) في غ : ولو كان نفسٌ قد تلذذت بالعذاب .

(٦) «واقفاً» ساقطة من : غ ، ب ، أ .

(٧) «بي» ساقطة من ش ، وفي ب : في .

(٨) انظر : الفتوحات المكية لابن عربي ١٩٨١ .

فأخبر أن التعذيب بالهجران أحب إليه من طيب الوصال ، لكون الوصال فيه ما تشتهيه النفس . وأما التعذيب : فليس فيه للنفس[١] مقصود .

ثم أخبر[٢] أنه لم يأت في القرآن والسنة إلا لفائدة واحدة ، وهي تبريده[٣] لحرارة الخوف ، حتىٰ لا يفضي بصاحبه إلىٰ الإياس .

فهذا[٤] وجه كلامه ، وحمله علىٰ أحسن محامله[٥] .

فيقال : هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجىٰ[٦] مغفرتها بكثرة الحسنات . ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة ، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

الناس في حكمهم على الصوفية طرفان ووسط

وهذه الشطحات أوجبت فتنة علىٰ طائفتين من الناس :

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم[٧] ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار ، وأساؤوا الظن بهم[٨] وهذا عدوان وإسراف. فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك

---

(١) في ط والجميع : فليس للنفس فيه مقصود .

(٢) أي : الهروي .

(٣) في د : تبريد .

(٤) في ط : وهذا .

(٥) في ط والجميع سوى ش : المحامل .

(٦) في ش ، ح٢ ، ب ، أ ، ق ، غ : يُرجى ، وفي م : يرجو .

(٧) في ق : معاملاتهم .

(٨) في ش : بها .

جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها(١).

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن الطائفة(٢)، وصفاء قلوبهم، وصحة(٣) عزائمهم، وحسن معاملاتهم(٤) عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأَجْروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم.

وهؤلاء أيضاً معتدون مفرِّطون.

(٥) وأهل البصيرة(٦) والإنصاف أعطوا كلَّ ذي حق حقه، وأنزلوا كلَّ ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح؛ بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح؛ بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد.

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم، وذموا عاقبتها، وتبرؤوا منها. حتىٰ ذكر أبو القاسم القشيري في «رسالته»: أن أبا سليمان الداراني رُؤيَ بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وما كان شيء

---

(١) في ش: معارفها.

(٢) في ط والجميع سوى ش: القوم.

(٣) في ق: وقوة.

(٤) في د: معاملتهم.

(٥) في ط، غ، ح٢، ب، أ زيادة: والطائفة الثالثة وهم...

(٦) في ط: العدل.

أضر عليَّ من إشارات القوم[١] .

وقال أبو القاسم : سمعت أبا سعيد الشحام[٢] يقول : رأيت الأستاذ[٣] أبا سهل الصعلوكي[٤] في المنام ، فقلت له : أيها الشيخ ، فقال : دع التشييخ . فقلت : وتلك الأحوال؟ فقال : لم تغن عنا[٥] شيئاً ، فقلت : ما فعل الله بك؟ قال[٦] : غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العُجَّز[٧][٨] .

وذكر عن الجريري[٩] : أنه رأىٰ الجنيد في المنام بعد موته ، فقال : كيف حالك يا أبا القاسم؟ قال[١٠] : طاحت تلك الإشارات،

---

(١) انظر : القشيرية ص٣٧٦ .

(٢) لم أقف له على ترجمة .

(٣) «الأستاذ» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) أبو سهل محمد بن سليمان العجلي الحنفي النيسابوري الصعلوكي - شيخ الشافعية بخراسان، المتكلم الصوفي المفسر قال عنه الحاكم: أبو سهل الصعلوكي الشافعي اللغوي، المفسر النحوي المتكلم المفتي الصوفي ، حبر زمانه وبقية أقرانه ، توفي سنة ٣٦٩هـ .
ترجمته في : العبر ٢/ ١٣٢ ، السير ١٦/ ٢٣٥ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٥٢ .

(٥) في د : عنها .

(٦) في ش ، ب : فقال .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ : العجائز .

(٨) انظر : القشيرية ص٣٧٣ .

(٩) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري من كبار أصحاب الجنيد ، وكان الجنيد يكرمه ويجله ، وصحب سهلاً بن عبدالله التستري كذلك . توفي سنة ٣١١هـ .
ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٥٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٧ ، تاريخ بغداد ٤/ ٤٣٠ .

(١٠) في ط ، ش ، ب ، غ ، أ : فقال .

وبادت[١] تلك العبارات ، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات[٢][٣] .

الرجاء من أعلى المنازل وأشرفها

فأما قوله : «الرَّجَاءُ أَضعَفُ مَنَازِلِ المرِيدِينَ» فليس كذلك ؛ بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلىٰ الحب والخوف مدار السير إلىٰ الله . وقد مدح الله أهله ، وأثنىٰ عليهم . فقال : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل : «ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي»[٤] .

وقد[٥] روىٰ الأعمش[٦] عن أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي . وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير

---

(١) في ط والجميع سوى ش : وفنيت .

(٢) انظر : القشيرية ٣٧١ .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال أبو سليمان الداراني : تُعرض عليَّ النكتة من نُكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل : الكتاب والسنة .

وقال الجنيد : مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يقتدى به في طريقنا ، هذا إلى غير ذلك من الأقوال التي وردت عنهم رضي الله عنهم .

(٤) سبق تخريجه ص ٨٧٧ .

(٥) «وقد» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الإمام الحافظ ، شيخ المقرئين والمحدثين ، كان رأساً في العلم والعمل ، توفي سنة ١٤٨هـ .

ترجمته في : حلية الأولياء ٥/ ٤٦ ، تاريخ بغداد ٩/ ٣ ، السير ٦/ ٢٢٦ .

منهم . وإن اقترب إلي شبراً ، اقتربت إليه ذراعاً . [وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعا][١] ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه مسلم[٢] .

وقد أخبر تعالىٰ عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون [بهم][٣] إلىٰ الله : أنهم كانوا راجين له خائفين منه . فقال : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[٤] [الإسراء : ٥٦-٥٧] .

يقول تعالىٰ : هؤلاء الذين تدعونهم[٥] من دوني : [هم عبادي ، يتقربون إلي بطاعتي ، ويرجون رحمتي ، ويخافون عذابي ، فلماذا تدعونهم[٦] [٧] دوني][٨] فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم[٩] : من الحب ، والخوف والرجاء .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش .

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٦١ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار وروى بعضه البخاري وتقدم وتخريجه ص١١٩٨ .

(٣) «بهم» ساقطة من الأصل ، وما أثبته من الجميع والسياق يقتضي ذلك .

(٤) الآية مكملة في ط ، ح٢ ، ق ، د ، م .

(٥) في ح٢ ، أ ، غ ، م ، ب : يدعونهم .

(٦) في ح٢ ، م ، أ ، ب : يدعونهم .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : من .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من : ش .

(٩) «ومقاماتهم» ساقطة من أ .

قوله : «لأَنَّه مُعَارَضةٌ مِن وَجْهٍ ، وَاعتِرَاضٌ مِن وَجْهٍ» .

يقـال[١] : بـل هـو[٢] عبوديـة ، وتعلـق بـالله مـن حيـث اسـمه «المحسن البر» فذلك[٣] التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله: هو الذي أوجب له[٤] الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري . فقوة الرجاء علىٰ حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وغلبت رحمته غضبه . ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح ، وهدمت صوامع ، وبيع ، [وصلوات ، ومساجد][٥] يذكر فيها[٦] اسم الله كثيراً . بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة . ولـولا ريحه الطيبـة[٧] لمـا جـرت سـفن الأعـمال في بحـر الإرادات. ولي مـن الأبيـات :

ولا التعلل[٨] بالرجـــاء تقطعت نفس المحـــب تحسـرا وتمزّقـا
وكـذاك لـولا بَـردُه لحـرارة[٩] الـ أكباد ذابت بالحجاب تحرّقـــا
أيكـون قـط حليف حـب لايـرىٰ برجائـــه لحبيبـــه متعلّقـــا
أم كلـــما قويـــت محبتـــه لـــه قـــوي الرجـاء فـزاد فيـه تـشوّقا

(١) في ش : فيقال .

(٢) في ط ، أ ، د ، ب ، غ : وهو .

(٣) في د : فلذلك .

(٤) في ط : للعبد .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢ .

(٦) «فيها» ساقطة من م .

(٧) في ش : الطيب .

(٨) في ط والجميع سوى ش : التعلق .

(٩) في ط والجميع سوى ش : بحرارة .

لـولا الرجـا يحـدو المطـيَّ لمـا بحمولهـا لـديارهم ترجو اللّقـــا

على حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء

وعلىٰ حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء . وكل[١] محب راج خائف بالضرورة ، فهو أرجىٰ[٢] ما يكون لحبيبه أحب ما كان[٣] إليه . وكذلك خوفه ، فإنه يخاف سقوطه من عينه ، وطرد محبوبه له وإبعاده ، واحتجابه عنه . فخوفه أشد خوف ، ورجاؤه لمحبوبه[٤] ذاتي للمحبة . فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه . فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له ، لما[٥] يحصل[٦] به[٧] حياة روحه ، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه ، وبره وإقباله عليه ، ونظره إليه بعين الرضىٰ ، وتأهيله لمحبته[٨] وغير ذلك مما لا حياة للمحب ، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه . فرجاؤه أعظم رجاء ، وأجلُّه وأتمه[٩] .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك علىٰ أسرار عظيمة من أسرار

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، د : فكل .

(٢) في غ : راجٍ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : يكون .

(٤) «لمحبوبه» ساقطة من ط .

(٥) «لما» ساقطة من ق .

(٦) في ط زيادة : له .

(٧) في ط ، ح٢ ، م ، ش زيادة : من .

(٨) في ط ، غ ، ب ، أ : في محبته .

(٩) «وأتمه» ساقطة من ح٢ .

الرجاء ضروري للسالك

العبودية والمحبة . فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء . وعلىٰ قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه ، لكن خوف المحب لا يصحبه[1] وحشه ، بخلاف خوف المسيء . ورجاء المحب[2] لا يصحبه[3] علة ، بخلاف رجاء الأجير. فأين[4] رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما . **وبالجملة** : فالرجاء ضروري للمريد السالك ، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد . فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو صلاحه[5] ، وعملٍ صالحٍ يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها أو دوامها[6] ، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها ، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو عن[7] بعضها . فكيف يكون الرجاء من أضعف منازله[وهذا حاله؟

وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل. فإن الراجي][8] ليس معارضاً . ولا معترضاً[9]، بل راغباً راهباً . مؤملاً لفضل ربه . محسن[10] الظن به ،

---

(١) في ق ، ش : لا تصحبه .

(٢) في ب : المحبة .

(٣) في ش : لا تصحبه .

(٤) في ط ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، أ : واين وفي م : ولأن .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، ق : إصلاحه .

(٦) في ط ، غ ، أ ، ب ، م «ودوامها» .

(٧) «عن» ساقط من ط ، والجميع سوى ش .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من أ .

(٩) في الجميع سوى ش ، ط ، زيادة : متعرضاً .

(١٠) في ط والجميع سوى ش : حسن .

متعلق[١] الأمل ببره وجوده ، عابداً له بأسمائه[٢] «المحسن ، البر ، المعطي ، الحليم ، الغفور ، العفو[٣] ، الجواد ، الوهاب ، الرزاق» والله يحب من عبده أن يرجوه . ولذلك كان عند رجاء العبد له[٤] ، وظنه به .

الرجاء من أقوى الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجو

و«الرجاء» من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه ؛ بل هو من أقوىٰ الأسباب . ولو تضمن معارضة واعتراضاً ، لكان ذلك في الدعاء والمسألة أولىٰ . فكان دعاء العبد ربه وسؤاله – أن يهديه ويوفقه ويسدده ، ويعينه علىٰ طاعته ويجنبه معصيته ، ويغفر ذنوبه ، ويدخله الجنة ، وينجيه من النار – معارضة واعتراضاً ؛ لأن الداعي راجٍ وطالب ، [فمعه رجاء ، وطلب][٥] ما يرجوه . فهو[٦] أولىٰ حينئذ بالمعارضة والاعتراض .

والذي أوجب للشيخ هذا القدر : الاسترسال في القدر ، والفناء في شهود الحقيقة الكونية . فإنه من الراسخين فيه الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم . وهو شديد في إنكار الأسباب[٧] . وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمة أعلام .

---

(١) في د : يتعلق .

(٢) في الأصل باسمه ، وما أثبته من الجميع والسياق يقتضيه .

(٣) «العفو» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٤) «له» ساقطة من غ ، ب ، أ .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من ط .

(٦) في ق : فهذا .

(٧) انظر : ص١٣١٧ .

ولولا أن حق الحق أوجب من حق الخلق، لكان في الإمساك فسحة ومتسع.

وليس في «الرجاء» ولا في «الدعاء» معارضة لتصرف المالك في ملكه . فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضا بما (١)هو أحب(٢) الأمرين إليه . [فإن الفضل أحب إليه من العدل ، والعفو أحب إليه](٣) من الانتقام ، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء ، والترك أحب إليه من الاستيفاء ، ورحمته غلبت غضبه .

فالراجي(٤) علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له ، فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه ؛ بل اقتضىٰ عبوديته ، وحصول أحب(٥) التصرفين إليه . وهو سبحانه لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده ، حتىٰ يكون رجاؤه مبطلاً لذلك . وإنما العبد (٦) استدعىٰ العقوبة ، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به ، واجتهاده في غضبه . ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات ، والعبد مؤثر لها ، ساع في تحصيلها ، عاملٌ عليها بإيثاره وسعيه في أسبابها ، فهو المهلك لنفسه . وربه يحذره ويبصره ويناديه : هلمَّ إليَّ أحْمِك(٧) وأصُنك ، وأنجك مما تحذر ، وأؤمنك من كل ما تخاف . وهو يأبىٰ إلا شروداً عليه

---

(١) في أ ، ب : لما .

(٢) في ط والجميع سوى ش : أولى وأحب .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وش وما أثبته من ط والجميع وبه تمام المعنى .

(٤) في ق : فإن الراجي .

(٥) في أ ، ب : أحد .

(٦) «العبد» ساقطة من غ ، ب .

(٧) في م : أرحمك .

ونفاراً عنه ، ومصالحة لعدوه ، ومظاهرة له علىٰ ربه ، ومتطلباً لمرضاة خلقه بمساخطه . رضا المخلوق آثر عنده من رضاه[1] ، وحقه آكد عنده من حقه ، وخوفه ورجاؤه وحبه في قلبه أعظم[2] . فلم يدع لفضل ربه وكرامته[3] وثوابه إليه طريقاً ؛ بل سد دونه طرق مجاريها بجهده ، وأعطىٰ بيده لعدوه[4] . فصالحه وسمع له وأطاع، وانقاد إلىٰ مرضاته. فجاء من الظلم بأقبحه وأشده.

فهو الذي عارض مراد ربه[5] منه ، بمراده وهواه وشهوته . واعترض[6] لمحابه ومراضيه بالدفع ، ولم[7] يأذن لها في الدخول عليه . فأضاع حظه[8] ، وبخس حقه ، وظلم نفسه ، وعادىٰ حبيبه ، ووالىٰ عدوه . وأسخط من حياته في رضاه[9] ، وأرضىٰ من حياته في سخطه ، وجاد بنفسه لعدوه ، وبخل بها عن حبيبه ووليه .

والرب تعالىٰ ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا[10] يتشفىٰ بعقابه،

---

(١) في ط والجميع سوى ش : رضى خالقه .

(٢) في الجميع سوى ش زيادة : من خوفه من الله ورجائه وحبه .

(٣) «وكرامته» ساقطة من ش .

(٤) في ب : العدو ، وفي ق : ولعدوه .

(٥) في ط والجميع سوى ش : مراده به .

(٦) في غ : اعتراض .

(٧) في ش : فلم .

(٨) في ش : حقه .

(٩) في د ، ق : مرضاته .

(١٠) في م ، ح٢ : فلا .

ولا يزيد ذلك(١) في ملكه مثقال ذرة، ولا ينقص مغفرته. لو غفر(٢) لأهل الأرض كلهم(٣)، لما نقص مثقال ذرة من ملكه، كيف والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟ وهو قد كتب علىٰ نفسه الرحمة(٤) فرجاء العبد له لا ينقص شيئا من حكمته، ولا ينقص ذرة من ملكه، ولا يخرجه عن كمال تصرفه. ولا يوجب خلاف كمال، ولا تعطيل أوصافه وأسمائه. ولولا أن العبد هو الذي سد علىٰ نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه: لكان ربه له فوق رجائه، وفوق أمله.

وأما استسلام العبد لربه، واستسلامه وانطراحه(٥) بين يديه، ورضاه بمواقع(٦) حكمه فيه: فما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه، ويقيله عثرته(٧)، ويعفو عنه، ويقبل

---

(١) في م، ح٢: بذلك.

(٢) في ط: ولو غفر.

(٣) «كلهم» ساقطة من: أ، ب.

(٤) كما قال تعالى: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة...﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٥٦].
وقال النبي ﷺ: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش» رواه البخاري ١٣/ ٥٢٢ في كتاب التوحيد باب قول الله عز وجل: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ ح٧٥٥٤.

(٥) في ط: بانطراحه.

(٦) في ح٢، د، ق: بجوامع.

(٧) في غ: عثراته.

حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ، ويتجاوز عن سيئاته . فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد ، والانطراح بالباب . ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة . فالرجاء حياة (١) الطلب ، والإرادة روحها .

وأما رضاه بمراده منه وإن كان عذابه(٢) : فهذا هو الرعونة كل الرعونة . فإن مراده سبحانه نوعان : مراد يحبه ويرضاه ، ويمدح فاعله ويواليه . فموافقته في هذا المراد : [هي عين محبته ، وإرادة خلافه رعونة ومعارضة واعتراض . ومراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ويعاديه ، فموافقته في هذا المراد](٣) : عين مشاقَّته ومعاداته ومخالفته والتعرض لمقته وسخطه .

فهذا الموضع موضع فرقان . فالموافقة(٤) كل الموافقة معارضة هذا المراد ، واعتراضه بالدفع ، والرد بالمراد الآخر .

فالعبودية الحق : معارضة مراده بمراده ، ومزاحمة أحكامه بأحكامه .

فاستسلامه لهذا المراد المكروه المسخوط، وما يوجبه ويقتضيه: عين الرعونة. والخروج عن العبودية ، وهو عين الدعوىٰ الكاذبة . إذ لو كان مصدر ذلك الاستسلام والموافقة ، وترك الاعتراض والمعارضة ، لكان ذلك مخصوصاً بمحابه ومراضيه ، وأوامره التي الاستسلام لها والموافقة فيها ، وترك معارضتها ،

---

(١) «حياة» ساقطة من ب ، غ .

(٢) في ط ، ب ، أ ، غ : وإن عذبه .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ح٢ .

(٤) في د زيادة : هو .

والاعتراض عليها هو عين المحبة والموالاة [١] .

وأما الفناء بمراد ربه عن مراده [٢] : فقد تقدم [٣] أن المحمود من [٤] ذلك : الفناء بمراده الديني الأمري ، لا الكوني القدري . فإن الكون كله مراده القدري خيره وشره .

وأما تعلق الرجاء بمراده دون مراد سيده : فهو إنما علقه بمراده [٥] المحبوب له ، هارباً من مراده المسخوط المكروه له . وعلىٰ تقدير أن يكون محبوباً له - إذا كان انتقاماً - فالعفو والفضل أحب إليه منه ، فهو إنما علق رجاءه بأحب المرادين [٦] إليه .

وأما كون الرجاء اعتراضاً علىٰ ما سبق به الحكم : فليس كذلك ؛ بل تعلقاً بما سبق به الحكم . فإنه إنما يرجو فضلاً وإحساناً ، ورحمة سبق بها القضاء والقدر ، وجعل الرجاء أحد أسباب حصولها . فليس الرجاء اعتراضاً علىٰ القدر ، ولا معارضة للقدر ، بل طلباً لما سبق به القدر .

وأما اعتراضه إذا لم يحصل له مرجوُّه : فهذا نقص في العبودية ، وجهل بحق الربوبية . فإن الراجي والداعي يرجو ويدعو فضلاً لا يستحقه ، ولا

---

(١) «والموالاة» ساقطة من م .

(٢) «عن مراده» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٥٥-١٥٦ .

(٤) في ط زيادة : هو .

(٥) في د ، ق : مراد .

(٦) في ح٢ ، م : الأمرين .

يستوجبه بمعاوضة[١]، فإن أعطيه[٢] فمحض المنة والصدقة عليه، وإن مُنعه فلم يمنع[٣] حقا هو له، فاعتراضه رعونة وجهالة. ولا يلزم من فوات المرجو، وعدم[٤] حصول المدعو به في حق العبد الصادق، معارضة ولا اعتراض.

وقد سأل رسول الله ﷺ ربه ثلاث خصال لأمته. فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة[٥]، فرضي بما أعطاه. ولم يعترض فيما منعه؛ بل رضي وسلم.

وأما كون الرجاء وقوفاً مع الحظ، فأصحاب[٦] هذه الطريق[٧] قد خرجوا عن نفوسهم فكيف حظوظهم؟

فيا لله العجب! أي رعونة فيمن يجعل رجاءَ العبدِ ربَّه، وطمعَه في بره وإحسانه وفضله، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه. فإذا كان العبد دائماً مستشرفاً بقلبه، سائلا بلسانه، طالباً لفضل ربه. فأي رعونة هاهنا؟ وهل الرعونة كل الرعونة إلا خلاف ذلك.

---

(١) في أ، ب، لمعاوضة وفي غ: بمعارضة.

(٢) في د: أعطاه.

(٣) في ش: يمنعه.

(٤) في ط، غ، أ: أو عدم.

(٥) كما في الحديث: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» رواه مسلم ٤/ ٢٢١٦ في كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ح٢٨٩٠، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٤٠.

(٦) في ط والجميع سوى ش: وأصحاب.

(٧) في ط، غ، أ، ب، ش: الطريقة.

ومن العجب : دعواهم[١] خروجهم عن نفوسهم ، وهم أعظم الناس عبادة لنفوسهم . وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حبسا علىٰ مراد الله الديني الأمري النبوي ، وبذلها لله في إقامة دينه ، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي ، فانغمس فيهم يمزقون أديمه[٢] ، ويرمونه بالعظائم ، ويخيفونه بأنواع المخاوف ، ويتطلبون[٣] دمه[٤] بجهدهم[٥] ، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم . يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه ، قد زهد في مدحهم وثنائهم[٦] ، وتعظيمهم وتشييخهم له ،[٧] وتقبيل يده ، وقضاء حوائجه . يصيح فيهم بالنصائح جهاراً ، ويعلن لهم بها ، ويسر لهم إسراراً . وقد[٨] تجرد عن الأوضاع والقيود والرسوم ، وتعلق بمراضي الحي القيوم . مقامه ساعة في جهاد أعداء الله . ورباطه ليلة علىٰ ثغر الإيمان ، آثر عنده وأحب إليه من فناء ومشاهدات[٩] وأحوال هي أعظم عيش النفس ، وأعلىٰ قوتها ، وأوفر حظها .

---

(١) «دعواهم» ساقطة من ب .

(٢) الأديم : الجلد ، والأدمة باطن الجلد الذي يلي اللحم ، والبشرة ظاهره .
انظر : لسان العرب ١/ ٩٦ ، مادة : (أدم) .

(٣) في ب : ويطلبون .

(٤) في د : دينه .

(٥) في ق زيادة : وجدهم وحديدهم .

(٦) «وثنائهم» ساقطة من ق .

(٧) «له» ساقطة من ق .

(٨) في ط والجميع سوى ش : قد .

(٩) في ح٢ : أو مشاهدات .

ويزعم أنه قد خرج عن نفسه فكيف حظها؟ ولعله قد خرج عن مراد ربه من عبوديته إلىٰ عين[١] مراده هو[٢]، وحظه. ولو فتش نفسه لرأىٰ ذلك فيها عياناً.

وهل الرعونة كل الرعونة إلا دعواه: أنه يحب ربه لعذابه لا لثوابه؟ وأنه إذا أحبه وأطاعه للثواب كان ذلك حظا وإيثاراً لمراد النفس بخلاف ما[٣] إذا أحبه وأطاعه ليعذبه، فإنه لا حظ للنفس في ذلك؟.

فوالله ليس في أنواع الرعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمج. وماذا يلعب الشيطان بالنفوس؟ وإن نفساً وصل بها تلبيس الشيطان إلىٰ هذه الحالة، لمحتاجة إلىٰ سؤال المعافاة.

فنزل[٤] أحوال الأنبياء والرسل والصديقين، وسؤالهم ربهم، علىٰ أحوال هؤلاء الغالطين[٥]. ثم قايس بينها[٦]، وانظر التفاوت.

فأين هذا من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك[٧]»**[٨].

---

(١) في ح٢: غير، وفي ق: غيره.

(٢) في ط: وهو حظه، وفي الجميع: هو حظه.

(٣) «ما» ساقطة من الجميع سوى ش، د، ط.

(٤) في ط، أ، غ، ب: فزن.

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة: الذين مرجت بهم نفوسهم.

(٦) في ط، أ، ب، غ: بينهما.

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة في الحديث وهي: **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**.

(٨) رواه مسلم ١/ ٣٥٢ في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح٤٨٦، وأحمد في مسنده ١/ ٩٦.

وقوله لعمه[١] : «يا عباس[٢][٣] ، يا عم رسول الله ، سل الله العافية»[٤] .

وقوله للصديق الأكبر وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته : «قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً . ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لي مغفرة من عندك . وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[٥] .

وقوله لصدِّيقة النساء[٦] - وقد سألته دعاء تدعو به، إن[٧] وافقت ليلة القدر-

---

(١) في ط زيادة : العباس رضي الله عنه .

(٢) «يا عباس» ساقطة من ش .

(٣) أبو الفضل العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، سديد الرأي ، واسع العقل ، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه ، وأقام بمكة ، يكتب إلى رسول الله أخبار قريش ، ثم هاجر إلى المدينة ، شهد مع النبي ﷺ حنين ، وكان فيمن ثبت حين انهزم الناس ، وشهد فتح مكة ، وكان عمر رضي الله عنه يجله ويكرمه ، توفي رضي الله عنه سنة ٣٢هـ . ترجمته في : التاريخ الكبير ٧/ ٢ ، السير ٢/ ٧٨ ، الإصابة ٢/ ٢٦٣ .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٤٥ ح٧٢٦ ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٠٩ ، والترمذي ٥/ ٥٣٤ في كتاب الدعوات باب (٨٥) ح٣٥١٤ وقال : حديث صحيح ، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٧٥ وقال : رواه الطبراني بأسانيد رجال بعضها رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث ، وصححه الألباني . انظر : صحيح الأدب المفرد ص٢٦٩ ح٥٥٨ ، والصحيحة ٤/ ٢٨- ٢٩ .

(٥) رواه البخاري ٢/ ٣١٧ في كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام ، ح٨٣٤ ، ومسلم ٤/ ٢٠٨٧ في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ، ح٢٧٠٥ .

(٦) يعني : أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٧) في د ، ق زيادة : هي .

فقال : «قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[1] .

وقوله في دعائه الذي كان لا يدعه : وإن دعا بدعاء أردفه به[2] : «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة . وقنا عذاب النار»[3] .

وقد أثنىٰ تعالىٰ علىٰ خاصته[4] أولي الألباب بأنهم سألوه : أن يقيهم عذاب النار . فقال : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقال ﷺ لأم حبيبة[5] ـ رضي الله عنها ـ : «لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيراً لك»[6] ، و«كان

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٧١ ، والترمذي ٥/ ٥٣٤ في كتاب الدعوات ، باب (٨٥) ح٣٥١٣ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ٢/ ١٢٦٥ في كتاب الدعاء ، باب الدعاء بالعفو والعافية ، ح٣٨٥٠ والحاكم في المستدرك ١/ ٧١٢ ح١٩٤٢ وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني . انظر : صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٨ ح٣١٠٥ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : إياه .

(٣) رواه البخاري ١١/ ١٩١ في كتاب الدعوات ، باب قول النبي ﷺ : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة»، ح٦٣٨٩ ، ومسلم ٤/ ٢٠٧٠ في كتاب الدعاء والذكر ، باب فضل الدعاء باللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة . . . ، ح٢٦٩٠ ، وأحمد في مسنده ٣/ ١٠١ .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : وهم .

(٥) هي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية ، هاجرت إلى الحبشة وعقد عليها النبي ﷺ وهي هناك وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربعمائة دينار ، توفيت رضي الله عنها سنة ٤٤هـ .

ترجمتها في : السير ٢/ ٢١٨ ، الإصابة ٤/ ٢٩٨ ، شذرات الذهب ١/ ١٠ .

(٦) رواه مسلم ٤/ ٢٠٥٠-٢٠٥١ في كتاب القدر ، باب بيان أن الأجال والأرزاق لا تزيد ولاتنقص عما سبق به القدر ، ح٢٦٦٣ ، وأحمد في مسنده ١/ ٣٩٠ ، وقد جاء في الحديث

يستعيذ كثيراً من عذاب النار ، و[1]«عذاب القبر»[2] ، و «أمر المسلمين : أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب النار، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال»[3] . حتىٰ قيل : إن هذا الدعاء واجب في الصلاة . لا تصح إلا به[4] . وهذا أعظم من أن نستقصيه[5] .

أن أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ قالت : اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال لها النبي ﷺ : «قد سألتِ الله لآجال مضروبة وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، لن يعجل الله شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألتِ الله أن يبعدك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل» .

(١) في ط والجميع سوى ش : ومن .

(٢) رواه البخاري ٢/ ٣١٧ في كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام ، ح٨٣٢ ، ومسلم ١/ ٤١٢ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ح٥٨٩ ، وأحمد في مسنده ٢/ ١٨٥ .

(٣) رواه مسلم ١/ ٤١٢ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ح٥٨٨ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٧٧ .

(٤) قال الإمام مسلم بعد أن ذكر روايات الحديث السابق بلغني أن طاوساً قال لابنه : أدعوت بها في صلاتك؟ فقال : لا . قال : أعد صلاتك ، لأن طاوساً رواه عن ثلاثة أو أربعة . أو كما قال . انظر : صحيح مسلم ١/ ٤١٣ .

قال النووي ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر قول طاوس لابنه ـ رحمه الله تعالى ـ أنه حمل الأمر به على الوجوب فأوجب إعادة الصلاة لفواته، وجمهور العلماء على أنه مستحب ليس بواجب. ولعل طاوساً أراد تأديب ابنه ، وتأكيد هذا الدعاء عنده ، لا أنه يعتقد وجوبه والله أعلم . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ٨٩ .

(٥) في ق : يستعصيه .

ودخل رسول الله ﷺ على مريض يعوده ، فرآه مثل الفرخ فقال : « ما كنت تدعو به؟ » فقال : كنت أقول : اللهم [١] ما كنت معاقبني به في الآخرة فعاقبني به في الدنيا . فقال : « **سبحان الله إنك لا تطيق ذلك . ألا سألت الله العفو والعافية؟** »[٢] .

وفي المسند عنه : «**ما سئل الله شيئا أحب إليه من سؤال العفو والعافية**»[٣] . وقال لبعض أصحابه : «**ما تقول إذا صليت؟**» قال[٤][٥] : أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة[٦] معاذ . فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) «اللهم» ساقطة من د .

(٢) رواه مسلم ٤/ ٢٠٦٨ في كتاب الدعاء باب كراهية الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا ، ح٢٦٨٨ ، والترمذي ٥/ ٥٢١ في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد ، ح٣٤٨٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥٥٢ في كتاب الدعوات ، باب (٨٥) ، ح٣٥١٥ وفي باب في دعاء النبي ﷺ ، ح٣٥٤٨ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي ، وهو ضعيف في الحديث . ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه . وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٢٧٢ في كتاب الجنائز ، باب الترغيب في سؤال العفو والعافية ، وقال : رواه الترمذي ، وقال : حديث غريب ، وابن أبي الدنيا ، والحاكم في حديث ، وقال : صحيح الإسناد .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، م : فقال .

(٥) في أ ، ب زيادة : إني .

(٦) في ش : ودندنة . والدندنة : كلام الرجل بصوت يسمع ولا يفهم . انظر : المعجم الوسيط ٢٩٨ مادة : (دندن) .

«[١] حولها ندندن»[٢] .

فأين هذا من حال من قال : لا أحبك لثوابك ؛ لأنه عين حظي . وإنما أحبك لعقابك . لأنه لا حظ لي فيه[٣] . والرجاء عين الحظ . ونحن قد خرجنا عن نفوسنا ، فما لنا وللرجاء؟ فهذا وأمثاله أحسن ما يقال فيه[٤] : إنه شطح قد[٥] يعذر فيه صاحبه إذا كان مغلوباً علىٰ عقله ، كالسكران ونحوه . ولا تهدر محاسنه ومعاملاته وأحواله وزهده .

ولكن الذي ينكر[٦] كون هذا من الأحوال الصحيحة ، والمقامات العلية ، التي يتعاطاها العبد ، ويشمر إليها[٧] . فهذا الذي لا تلبس عليه الثياب ، ولا تصبر عليه نفوس العلماء . وحاشا سادات القوم وأئمتهم من هذه الرعونات ؛ بل هم أبعد الناس منها .

نعم قد يعرض لأحدهم حال يحدث نفسه فيه بأنه لو عذبه لكان راضياً بعذابه ، كرضا صاحب الثواب بثوابه . ويعزم علىٰ ذلك بقلبه ، ولكن هذا عزم وأمنية ، وعند الحقيقة لا يكون لذلك أثر البتة . ولو امتحنه بأدنىٰ محنة لصاح

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : إنا .

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢٧.

(٣) انظر : ما سبق ص١٤٤٠.

(٤) في ط : فيهم .

(٥) في د : وقد .

(٦) «ينكر» ساقطة من د ، وفي ش : تنكر .

(٧) في ق : إليه .

واستغاث، وسأل العافية كما جرىٰ للقائل[1][2].

وليس لي من هـواك بُدٌّ فكيفمـا شئتَ فامتحنّي

فامتحنه بعسر البول. فطاحت هذه الدعوىٰ عنه، واضمحل خيالها[3]، وجعل يطوف علىٰ صبيان المكاتب، ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب[4].

فالعزم علىٰ الرضا لون. وحقيقته لون آخر.

وأما قوله: «أنَّ التَّنزِيلَ نَطَقَ بِهِ[5] لِفَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ[6]، وَهِيَ كَونُه يُبَرِّدُ حَرَارَةَ الخَوفِ».

فيقال: بل لفوائد[7] كثيرة أخر سوىٰ هذه[8].

منها: إظهار العبودية، والفاقة، والحاجة إلىٰ ما يرجوه من ربه. ويستشرفه

---

(١) القائل: سمنون بن حمزة الخواص - أبو الحسن - كان يسمى سمنون المحب وسمى نفسه سمنون الكذاب، صحب سرياً السقطي، وأبا أحمد القلانسي وغيرهما، وهو من كبار مشايخ العراق، مات بعد الجنيد وذلك سنة ٢٩٨هـ. ترجمته في: طبقات الصوفية ص١٩٥ حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٩، وتاريخ بغداد ٩/ ٢٣٤، البداية والنهاية ١١/ ١٢٣.

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة: وهو سمنون.

(٣) «خيالها» ساقطة من غ، ب، أ وفي ط، م: حالها.

(٤) انظر: الحلية ١٠/ ٣١٠، والقشيرية ٨٠، وجاء البيت فيهما: وليس لي في سواك حظ.

(٥) في ط والجميع سوى ش: وإنما نطق به التنزيل.

(٦) «واحدة» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٧) في غ: الفوائد.

(٨) في ط زيادة: مشاهدة.

من إحسانه ، وأنه لا يستغني عن فضله [1] طرفة عين .

ومنها : أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ، ويسألوه من فضله ؛ لأنه الملك الحق الجواد ، أجود من سئل ، وأوسع من أعطىٰ . وأحب ما إلىٰ الجواد : أن يرجىٰ ، ويؤمل ويسأل . وفي الحديث : «من لم يسأل الله يغضب عليه» [2] ، والسائل راجٍ وطالب . فمن لم يرج الله يغضب عليه .

فهذه فائدة أخرىٰ من فوائد الرجاء ، وهي التخلص به من غضب الله .

ومنها : أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلىٰ الله ، ويطيب له المسير ، ويحثه عليه ، ويبعثه علىٰ ملازمته . فلولا الرجاء لما سرىٰ [3] أحد . فإن الخوف وحده لا يحرك العبد ، وإنما يحركه الحب ، ويزعجه الخوف ، ويحدوه الرجاء .

ومنها : أن الرجاء يطرحه علىٰ عتبة المحبة ، ويلقيه في دهليزها [4] . فإنه كلما

---

(١) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : وإحسانه .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ص٢٢٤ ح٦٥٨ ، ورواه أحمد ٢/ ٤٤٣ بلفظ : «من لم يدع الله سبحانه غضب عليه»، وابن ماجه كذلك ٢/ ١٢٥٨ في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ح٣٨٢٧ ، والترمذي ٥/ ٤٥٦ في كتاب الدعوات ، باب (٢) ح٣٣٧٣ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٦٨ ح١٨٠٧ ، وقال : حديث صحيح الإسناد ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٥ ح١٠٩٩ وحسنه الألباني . انظر : الصحيحة ٦/ ٣٢٣ ح٢٦٥٤ .

(٣) في ط ، ب ، غ ، أ : سار .

(٤) في ش «على دهليزها» والدهليز: المدخل بين الباب والدار. انظر: المعجم الوسيط ص٣٠٠ .

اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ، ازداد حباً لله وشكراً له ، ورضاً عنه[١] .

ومنها : أنه يبعثه علىٰ أعلىٰ المقامات ، وهو مقام الشكر ، الذي هو خلاصة العبودية . فإنه إذا حصل له مرجوه كان ذلك[٢] أدعىٰ لشكره .

ومنها : أنه يوجب له المزيد من معرفته بأسمائه[٣] ومعانيها ، والتعلق بها . فإن الرجاء تعلق بأسماء الإحسان ، وتعبد بها ، ودعاء بها[٤] ، وقد[٥] قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] فلا ينبغي أن يُعطل دعاؤه بأسماء الإحسان[٦] ، التي هي أعظم ما يدعوه بها الداعي . فالقدح في مقام الرجاء ، تعطيل لعبودية هذه الأسماء والدعاء بها[٧] .

ومنها : أن المحبة لا تنفك عن الرجاء - كما تقدم - فكل واحد منهما يمد[٨] الآخر ويقويه .

ومنها : أن الخوف مستلزم للرجاء ، والرجاء مستلزم للخوف . فكل راج خائف ، وكل خائف راج ؛ ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن

---

(١) في ط والجميع سوى ش : ورضاً به وعنه .

(٢) «ذلك» ساقطة من ط .

(٣) في ط والجميع سوى ش : معرفة الله وأسمائه .

(٤) في ط والجميع سوى ش : فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى متعبدٌ بها داع بها .

(٥) «قد» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) في ط ، غ ، أ ، ب ، ق : بأسمائه الحسنى ، وفي ح٢ ، د : بأسمائه الحسان .

(٧) في ط : وتعطيل للدعاء بها .

(٨) في أ ، ب : يمدح .

فيه وقـوع الخـوف[1] . قـال الله تعـالىٰ : ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نـوح : ١٣] ، قال[2] كثير من المفسرين : المعنىٰ مالكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا : والرجاء بمعنىٰ الخوف[3] .

والتحقيق : أنه ملازم له ، فكل راج خائف من فوات مرجوه . والخـوف بلا رجاء ، يأس[4] وقنـوط . وقـال تعـالىٰ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثيـه : ١٤] ، قـالوا في تفـسيرها : لا يخـافون وقـائع الله بهـم ، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم[5] .

ومنها : أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه ، فأعطاه ما رجاه : كان ذلك ألطف موقعاً ، وأحلىٰ عند العبد ، وأبلغ من حصول ما لم يرجه . وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار ، فعلىٰ قدر

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «الخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ، كما أن الرجاء مستلزم للخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، فأهل الخوف لله والرجاء له ، هم أهل العلم الذين مدحهم الله» . انظر : الإيمان ٢١ .

(٢) في م ، ح٢ : وقال .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١٢/ ٢٤٩ – ٢٥٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٩٨ .

(٤) في م ، ح٢ : إياس .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١١/ ٢٥٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٨ ، وفسرت أيام الله بنعمه كما في تفسير ابن كثير ٦/ ٢٦٦ ، وكما في تفسير الآية الخامسة من سورة إبراهيم وهي قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾ . انظر : تفسير الطبري ٧/ ٤١٧ – ٤١٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٠٩ .

رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة(١)، بحصول مرجوِّهم واندفاع مخُوفِهم .

ومنها : أن الله سبحانه وتعالىٰ يريد من عباده(٢) تكميل مراتب عبوديته : [من الذل والانكسار ، والتوكل والاستعانة ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والرضا ، والإنابة وغيرها(٣) . ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به ، لتكميل(٤) مراتب عبوديته](٥) بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه ، فكذلك يكملها(٦) بالرجاء والخوف .

ومنها : أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره ، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته ، وتنقل(٧) القلب في رياضها الأنيقة ، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة - كما تقدم بيانه(٨)- فإذا فني عن ذلك وغاب عنه ، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات .

---

(١) في ح٢ ، م ، ق زيادة : بخوفهم .

(٢) في ط : عبده .

(٣) في ب ، ح٢ ، م ، أ : وغيره .

(٤) في ط ، ق ، ش ، ب ، أ : لتكمل ، وفي م ، ح٢ : لتتكمل .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٦) في ط ، غ ، أ ، ب ، د ، ق : تكميلها .

(٧) في ق : ونقل ، وفي ش : وميل .

(٨) انظر : ص ١٠٨٢ .

إلىٰ فوائد أخرىٰ كثيرة يطالعها، من حسن[1] تأمله وتفكره[2] في استخراجها. وبالله التوفيق .

والله يشكر لشيخ الإسلام[3] سعيه ، ويعلي درجته ، ويجزيه أفضل جزائه ، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته . فلو وجد مريده[4] سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل . كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحه يقظة ومناماً؟

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضع . فمن كان عنده فضل علم فليجد به، أو فليعذر[5] ، ولا يبادر إلىٰ الإنكار . فكم بين الهدهد وبين سليمان نبي الله[6] ﷺ ؟ وهو يقول[7] : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل : ٢٢] ، وليس[8] شيخ الإسلام أعلم من نبي الله ، ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد . وبالله المستعان .

---

(١) في ط والجميع سوى غ ، ح٢ : أحسن .

(٢) في ق : وتفكر .

(٣) يعني: الهروي .

(٤) يعني ابن القيم بالمريد هنا نفسه .

(٥) في ش : وليعذر .

(٦) في ط والجميع سوى ش : ونبي الله سليمان .

(٧) في ط ، غ ، ب ، أ زيادة : له .

(٨) في م ، ح٢ : فليس .

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

درجات الرجاء الدرجة الأولى

«وَالرَّجَاءُ عَلىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : رَجَاءٌ يَبعَثُ العَامِلَ عَلىٰ الاجتِهَادِ ، وَيُولِّدُ التَّلَذُّذَ بِالخِدمَةِ ، وَيُوقِظُ الطِّبَاعَ للسَّمَاحَةِ بِتَركِ المنَاهِي»[1] .

أي ينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه . فإن من عرف قدر مطلوبه ، هان عليه ما يبذل فيه .

وأما توليده للتلذذ[2] بالخدمة : فإنه كلما طالع قلبُه ثمرها[3] ، وحسن عاقبتها الْتذَّ بها . وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره ، ويقاسي مشاق السفر لأجلها . فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والْتذَّ بها . وكذلك المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه[4] ، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه ، وقبوله سعيه ، وقربه منه : تلذذ بتلك المساعي . وكلما قوىٰ علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلىٰ المسبب المطلوب ، وقوي علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه : ازداد التذاذاً بتعاطيه .

وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهي : فإن الطباع لها معلوم ورسوم

---

(١) انظر : المنازل ٢٦ .

(٢) في ب ، ح٢ : التذذ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : ثمرتها .

(٤) « الشاقة عليه » : ساقط من د .

تتقاضـاها مـن العبـد ، ولا تـسمح لـه بتركهـا إلا بعـوض هـو أحـب إليهـا[١] مـن معلومها ورسومها ، وأجل عنده[٢] منه ، وأنفع لها ، فإذا قوي تعلق الرجاء بهـذا العـوض الأفـضل والأشرف[٣] : سـمحت الطبـاع بـترك تلـك الرسـوم وذلـك المعلوم . فإن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب هو أحب إليها منه ، أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بـذلك المحبـوب . وفي الحقيقة ففرارهـا مـن ذلـك المخـوف إيثـار لـضده المحبـوب لهـا ، فـما تركـت محبوباً إلا لما هو أحب إليها منه . فإن من قدم إليه طعـام[٤] يـضره ويوجـب لـه السقم ، فإنما يتركه محبة للعافية ، التي هي أحب إليه من ذلك الطعام .

قال صاحب المنازل[٥] :

الدرجة الثانية « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : رَجَاءُ أَرْبَابِ الرِّيَاضَاتِ : أَن يَبلُغُوا مَوقِفاً تَصْفُو فِيهِ هِمَمُهُـم ، بِرَفضِ الملذُوذَاتِ ، وَلُزُومِ شُرُوطِ العِلمِ ، وَاستِقصَاءِ حُدُودِ الحَمِيَّةِ »[٦] .

أرباب الرياضات[٧] : هـم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفها[٨] ، والاسـتبدال

---

(١) في ش : إليه .

(٢) في ط ، ح٢ ، ق ، د : عندها .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ ، ح٢ : الأشرف .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : لذيذ .

(٥) «صاحب المنازل» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٦) انظر : المنازل ٢٦ .

(٧) في د : البصائر .

(٨) في ط والجميع سوى ش : مألوفاتها .

بها مألوفات هي خير [١] وأكمل . فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت والهمة ، من تعلقها بالملذوذات . وتجريد الهم عن الالتفات إليها . وبلزوم [٢] شروط العلم ، وهو الوقوف عند حدود الأحكام الدينية . فإن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم ، واستقصاء حدود الحمية .

و«الحمية» هي [٣] : العصمة والامتناع من تناول ما يخشىٰ ضرره آجلاً أو عاجلاً [٤] . ولها [٥] حدود متىٰ خرج العبد عنها انتقض عليه مطلوبه ، والوقوف علىٰ حدودها [٦] بلزوم شروط العلم .

والاستقصاء في تلك الحدود بأمرين : بذل الجهد في معرفتها علماً ، وأخذ النفس بالوقوف عندها طلباً وقصداً .

الدرجة الثالثة

قال : « **الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : رَجَاءُ أَرْبَابِ القُلُوبِ . وَهُوَ رَجَاءُ لِقَاءِ الحَقِّ** [٧] ، **البَاعِثُ عَلَىٰ الاشتِيَاقِ ،** [٨] **المنَغِّصُ لِلعَيشِ ، المزَهِّدُ فِي الخَلقِ** » [٩] .

---

(١) في ط والجميع زيادة : منها .

(٢) في ش : ولزوم .

(٣) «هي» ساقطة من ط .

(٤) انظر : لسان العرب ٣/ ٣٤٨ ، مادة : (حما) ، والمعجم الوسيط ٢٠١ .

(٥) في ط ، ب ، أ ، غ : وله .

(٦) في ح٢ : حدوده .

(٧) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : الخالق .

(٨) في ط والجميع سوى ش ، د زيادة : المبغض .

(٩) انظر : المنازل ٢٦، لكن قال : رجاء أرباب طيب القلوب .

هذا الرجاء أفضل أنـواع الرجـاء وأعلاها . قـال تعـالىٰ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [1] [الكهـف : ١١٠] ، وقـال تعـالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ﴾ [العنكبوت : ٥] .

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته ، وإليه شخصت أبصار المشتاقين . ولذلك سلاهم الله بإتيان أجل لقائه ، وضرب لهـم أجـلاً لـه[2] يـسكن نفوسـهم ويطمئنها .

و«الاشتياق» هو سفر القلب في طلب محبوبه .

واختلف المحبون : هل يبقىٰ عند لقاء المحبوب أم يزول؟ علىٰ قولين :

فقالت طائفة : يزول ؛ لأنه إنما يكون مع الغيبة . وهـو سـفر القلـب إليـه[3] ، فإذا انتهىٰ السفر[4] ، وضع[5] الاشتياق عن عاتقه ، وصار الاشتياق أنساً بـه ولـذة بقربه[6] .

وقالت طائفة : بل يزيد ولا يزول[7] باللقاء[8] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش الآية مكملة .

(٢) «له» ساقطة من ط .

(٣) في ط والجميع سوى ش : إلى المحبوب .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : واجتمع بمحبوبه .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : عصا .

(٦) انظر : القشيرية ٣٣١ .

(٧) في ب : فلا يزول .

(٨) انظر : القشيرية ٣٢٩ .

قالوا : لأن الحب يقوىٰ بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته . وإنما يواري سلطانه فناؤه ودهشته بمعاينة محبوبه ، حتىٰ إذا توارىٰ عنه ظهر سلطان شوقه إليه ، ولهذا قيل :

وأعظمُ ما يكون الشَّوقُ يوماً إذا دَنَت الخيامُ مِن[1] الخيامِ[2]

وقد[3] ذكرنا هذه المسألة مستقصاة ، وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة[4] . وفي كتاب سفر الهجرتين[5] .

وسنعود إليها إذا انتهينا إلىٰ منزلتها إن شاء الله تعالىٰ[6] .

وقوله : «المَنَغِّصُ لِلعَيَشِ» فلا ريب أن عيش المشتاق منغص حتىٰ يلقىٰ محبوبه ، فهناك تقر عينه ، ويزول عن عيشه تنغيصه . وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه ، فهو أزهد شيء في الخلق ، إلا من أعانه علىٰ هذا المطلوب لقاه[7] منهم وأوصله إليه . فهو أحب

---

(١) في د : إلى .

(٢) ذكره ابن القيم في كتابه روضة المحبين ٣٢ ولم ينسبه إلى أحد ، وكذلك القشيري في الرسالة ٣٣٢ مبدوءاً بلفظ : وأبرح . لكن جاء عند ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ١٤١ لفظ غريب منه منسوباً إلى إسحاق بن إبراهيم وهوقوله :

وكل مسافر يزداد شوقاً إذا دنت الديار من الديار

(٣) في ش : ولقد .

(٤) انظر : كتابه روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣١-٣٢ .

(٥) انظر : كتابه : طريق الهجرتين ٥٣٥ وما بعدها .

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٥١ وما بعدها .

(٧) «لقاه» ساقطة من ط ، ب ، غ ، أ .

خلق الله إليه ، ولا يأنس من الخلق بغيره ، ولا يسكن إلىٰ سواه . فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك ، فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحباً ، ودع الناس كلهم جانباً .

مت بداء الهوىٰ وإلا فخاطر ... واطرق الحي والعيون نواظر
لا تخف وحشة الطريق إذا جئـ ... ـت وكن في خفارة الحب سائر
واصبر النفس ساعة عن سواهم ... فإذا لم تجب لصبر فصابر
وصم اليوم واجعل الفطر يوما ... فيه تلقىٰ الحبيب بالبشر شاكر
وافطم النفس عن سواه فكل[1] الـ ... ـعيش بعد الفطام نحوك صائر
وتأمل سريرة القلب واستحـ ... ـي من الله يوم تبلىٰ السرائر
واجعل الهم واحداً يكفك الله ... هموما شتىٰ فربك قادر
وانتظر يوم دعوة الخلق إلىٰ الله[2] ... ربهم من بطون المقابر
واستمع ما الذي به أنت تدعىٰ ... به[3] من صفات تلوح وسط المحاضر
وسمات تبدو علىٰ أوجه الخلـ ... ـق عيانا تجلىٰ علىٰ[4] كل ناظر
يا أخا اللب إنما السير عزم ... ثم صبر مؤيد بالبصائر
يالها من[5] ثلاثة[6] من ينلها ... يرق يوم المزيد فوق المنابر

---

(١) في ق : وكل .

(٢) «الله» ساقط من الجميع سوى ش ، ط .

(٣) «به» ساقطة من ق

(٤) في د : عن .

(٥) «من» ساقطة من م ..

(٦) في ب ، أ ، غ : ثلاث ، وفي ش : بلية .

فاجتهد في الذي يقال لك الـ ـبشرىٰ بذا يوم ضرب البشائر
عمل خالص بميزان وحي مع سر هناك في القلب حاضر(١)

* * *

(١) لم أقف على قائل هذه الأبيات ولعلها من نظم ابن القيم.

فصل

منزلة الرغبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرغبة»[١] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] والفرق بين «الرجاء» و«الرغبة»[٢] ، أن الرجاء طمع ، والرغبة طلب ، فهي ثمرة الرجاء ، فإنه إذا رجا الشيء طلبه . والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف ، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه ، ومن خاف شيئا هرب منه[٣] .

قال صاحب المنازل :

تعريف الهروي للرغبة

«الرَّغبَةُ : هِيَ مِنَ الرَّجَاءِ بِالحَقِيقَةِ ؛ لِأَنَّ الرَّجَاءَ طَمَعٌ يَحتَاجُ إِلَىٰ تَحقِيقٍ ، وَالرَّغبَةُ سُلُوكٌ عَلَىٰ التَّحقِيقِ»[٤] .

---

(١) الرغبة في اللغة : الحرص على الشيء والطمع فيه : انظر : المعجم الوسيط ٣٥٦ مادة : «رغب» .
وهي عند الصوفية : عبارة عن تحقيق السلوك ، وهي أحق من الرجاء ، لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق ، وأما الرغبة في السلوك على التحقيق ، وهي أقسام :
الأول : رغبة النفس وهي : تحققها بالسلوك بسبب ما وعدت به من الثواب على أعمال البر .
الثاني : رغبة القلب وهي : التحقيق بالحقيقة ، فيصونه ذلك عن الالتفات إلى غير ما هو المقصود من وجوده .
الثالث : رغبة السر وهي : التحقق بالحق . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٩٤ ، المعجم الصوفي ١٠٩ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : بين الرغبة والرجاء .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : والمقصود أن الراجي طالب ، والخائف هارب .

(٤) انظر : المنازل ٢٧ ، لكن قال : «الرغبة ألحق بالحقيقة من الرجاء وهي فوق ؛ لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق ، والرغبة سلوك على التحقيق» .

أي «الرغبة» تتولد من الرجاء، لكنه طمع. وهي سلوك وطلب.

وقوله: «الرَّجَاءُ طَمَعٌ يحتَاجُ إلَىٰ تحَقِيقٍ» أي طمع في مغيب عنه مشكوك[١] في حصوله له[٢]، وإن كان متحققا[٣] في نفسه، كرجاء العبد دخول الجنة. فإن الجنة متحققة لا شك فيها، وإنما الشك في دخوله إليها، وهل[٤] يوافي ربه بعمل يمنعه منها أم لا؟ بخلاف «الرغبة» فإنها لا تكون إلا بعد تحقيق[٥] ما يرغب فيه. فالإيمان في الرغبة أقوىٰ منه في الرجاء، فلذلك قال «والرغبة سلوك علىٰ التحقيق».

هذا معنىٰ كلامه، وفيه نظر.

فإن «الرغبة» أيضا طلب مغيب، هو علىٰ شك من حصوله. فإن المؤمن[٦] يرغب في الجنة وليس بجازم بدخولها[٧]. فالفرق الصحيح: أن «الرجاء» طمع، و«الرغبة» طلب، فإذا قوي الطمع صار طلبا.

درجات الرغبة الدرجة الأولى

قال: «وَالرَّغبَةُ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: رَغْبَةُ أَهلِ الخَبَرِ»[٨]

---

(١) في ق: زيادة: فيه.

(٢) «له» ساقطة من ط، م، غ، أ، ب.

(٣) في ش: محققاً.

(٤) في غ: وهو.

(٥) في ط والجميع: تحقق.

(٦) في ب: فالمؤمن.

(٧) في م: دخولها.

(٨) في ح٢، م: الخير.

تَتَولَّدُ مِن العِلْمِ ، فَتَبعَثُ عَلىٰ الاجتِهَادِ المَنُوطِ بِالشُّهُودِ ، وَتَصُونُ[1] السَّالِكَ عَن وَهنِ الفَتْرةِ ، وَتمَنَعُ[2] صَاحِبَهاَ مِن الرُّجُوعِ إِلىٰ غثَاثَةِ[3] الرُّخَصِ»[4] .

أراد «بالخبر»[5] ها هنا الإيمان[6] الصادر عن الأخبار ، ولهذا جعل تولدها من العلم . ولكن هذا الإيمان متصل بمنزل[7] «الإحسان» منه يشرف عليه ، ويصل إليه . ولهذا قال : «المنوط بالشهود» أي المقترن بالشهود ، وذلك الشهود : هو مشهد مقام الإحسان . وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلىٰ من هذا .

وعند كثير من الصوفية أن فوقه مشهداً أعلىٰ منه ، وهو شهود الحق مع غيبته عن كل ما سواه . وهو مقام الفناء ، وقد عرفت ما فيه .

ولو كان فوق[8] مقام «الإحسان» مقام آخر لذكره النبي ﷺ لجبريل .

---

(١) في ح٢ ، م : ويصون .

(٢) في ح٢ ، م : ويمنع .

(٣) الغَثُّ : الرديء من كل شيء . يقال : غَثَّ اللحم غثاثة وغُثُوثةً فسد ، وغثت الشاة : نحفت وهزلت ، وغث حديث القوم : رَدُؤ وفسد . انظر : لسان العرب ١٠/ ١٨ ، والمعجم الوسيط ٦٤٤ مادة : غَثَّ .

(٤) انظر : المنازل ٢٧ لكن قال : من وهن الفترة .

(٥) في ح٢ ، م : بالخير .

(٦) «الإيمان» ساقطة من ش .

(٧) في ط ، ح٢ ، م ، غ ، ق : منزله .

(٨) «فوق» ساقطة من غ .

ولسأله[1] عنه . فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والإيمان والإحسان[2] .

تعريف الفناء المحمود

نعم الفناء المحمود : هو[3] تحقيق مقام الإحسان[4] ، أن يفنىٰ بحبه وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه وعبادته ، والتبتل إليه[5] عن[6] غيره . وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق .

قوله : «وَتَصُونُ[7] السَّالِكَ عَن وَهَنِ الفَتْرَةِ» أي: تحفظه[8] عن ضعف[9] فتوره وكسله ، الذىٰ سببه عدم الرغبة أو قلتها .

وقوله : «وَتمَنَعُ[10] صَاحِبَهَا مِن الرُّجُوعِ إِلىٰ غثَاثَةِ الرُّخَصِ» .

---

(١) في ش : وسأله وفي ط : ويسأله جبريل .

(٢) ففي الحديث الصحيح أن جبريل أتى النبي ﷺ يوماً في صورة رجل ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وعن الساعة وأماراتها .

الحديث رواه البخاري ١/ ١١٤ في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . . . (ح٥٠) ، ومسلم ١/ ٣٦-٣٧ في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان . . . . (ح٨) .

(٣) «هو» ساقط من ش .

(٤) في ح٢ ، أ ، ب ، د ، م زيادة : هو ، وفي ط : وهو .

(٥) «إليه» ساقطة من : د .

(٦) في أ ، ح٢ ، م : من .

(٧) في الأصل والجميع سوى ط : ويصون ، وما أثبته منهما والسياق يقتضيه .

(٨) في الأصل والجميع سوى ط : يحفظ ، وما أثبته من ط .

(٩) في ط ، أ ، ب ، غ : وهن .

(١٠) في الأصل ، أ ، ق : يمنع ، وما أثبته من ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

أهل العزائم بناء[1] أمرهم على الجد والصدق . والسكون[2] منهم إلىٰ الرخص رجوع وبطالة .

وهذا موضع يحتاج إلىٰ تفصيل . ليس على إطلاقه . فإن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، وفي المسند مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتىٰ معصيته»[3] . فجعل الأخذ بالرخص قبالة إتيان المعاصي ، وجعل حظ هذه[4] : المحبة . وحظ هذه[5] : الكراهية ، و«ما عرض للنبي ﷺ أمران إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً»[6] ،

---

(١) في د : بنوا .

(٢) في ط والجميع : فالسكون .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٠٨ بلفظ : «إن الله يحب أن تؤتى . . . » والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٤٠٣ ح٣٨٩٠ ، وأورده الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٤٧ ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٧٣ ح٩٥٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٧٦ وذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ١٦٢ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .
وصححه الألباني . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٤٤ ح١٠٥١ ، وصححه محققو مسند الإمام أحمد (المسند ١٠/ ١١٢ ح٥٨٧٣) .

(٤) في ط والجميع : هذا .

(٥) في ط والجميع : هذا .

(٦) رواه البخاري ٦/ ٥٦٦ في كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، ح٣٥٦٠ ، ومسلم ٤/ ١٨١٣ في كتاب الفضائل ، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله ، ح٢٣٢٧ ، وأحمد في مسنده ٦/ ٣١-٣٢ .

والرخصة[١] أيسر من العزيمة[٢] ، وهكذا كانت[٣] حاله في فطره وفي سفره[٤] وجمعه[٥] بين الصلاتين ، والاقتصار من الرباعية علىٰ شطرها[٦] وغير ذلك .

الرخص نوعان

فنقول :

النوع الأول

الرخصة نوعان : أحدهما : الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصاً ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، عند الضرورة وإن قيل لها : عزيمة باعتبار الأمر والوجوب ، فهي رخصة باعتبار الإذن والتوسعة . وكفطر المريض

---

(١) الرخصة في اللغة : مشتقة من الرخص وهو ضد الغلاء ، فهي عبارة عن اليسر والسهولة . انظر: لسان العرب ٥/ ١٧٨ مادة : (رخص) .

وفي الاصطلاح : تعددت عبارات الأصوليين في تعريفها ، قال الغزالي : هي عبارة عما وسع للمكلف في فعله لعذر ، وعجز عنه ، مع قيام السبب المحرم . انظر : المستصفى ١٠/ ٩٨ . وقال الآمدي : هي ما شرع من الأحكام لعذر مع قيام الدليل المحرم . انظر : الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٨٨ .

(٢) العزيمة في اللغة : مشتقة من العزم وهو الجد ، وما عقد عليه القلب من الأمر . انظر : لسان العرب ٩/ ١٩٣ . مادة : عزم .

وفي الاصطلاح : تعددت عبارات الأصوليين في تعريفها . قال الغزالي : هي ما لزم العباد بإيجاب الله تعالى . انظر : المستصفى ١/ ٩٨ .

وقال القرافي : هي طلب الفعل مع عدم اشتهار المانع الشرعي . انظر : شرح تنقيح الفصول للقرافي ص٨٧ .

(٣) في ط والجميع سوى ش : كان .

(٤) في ط ، غ ، أ ، ب : فطره وسفره .

(٥) في د : وفي جمعه .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، ق ، د : ركعتين .

والمسافر ، وقصر الصلاة في السفر، وصلاة المريض إذا شق عليه القيام قاعداً، وفطر الحامل والمرضع خوفاً[١] علىٰ ولديهما ، ونكاح الأمة خوفاً من العنت ، ونحو ذلك . فليس في تعاطي هذه الرخص ما يوهن[٢] رغبته ، ولا يرده[٣] إلىٰ غثاثة ، ولا ينقص طلبه وإرادته البتة . فإن منها ما هو واجب ، كأكل الميتة عند الضرورة [٤][٥] . ومنها ما هو راجح المصلحة[٦] ، كفطر المريض[٧][٨] ، وقصر المسافر وفطره[٩] . ومنها ما مصلحته للمترخص وغيره ، ففيه مصلحتان قاصرة ومتعدية ، كفطر الحامل والمرضع [١٠] .

ففعل هذه الرخص أرجح وأفضل من تركها[١١] .

---

(١) في ش : إذا خافتا .

(٢) في غ : مما يوهن .

(٣) في ط والجميع سوى ش : لا يرد .

(٤) في غ : الضرر .

(٥) هذا أحد الوجهين في مذهب أحمد وغيره ، وقيل: لا يجب . انظر : المغني ١٣/ ٣٣١ .

(٦) في ش : للمصلحة .

(٧) في ط ، غ ، د ، ب ، أ ، ق : الصائم المريض ، وفي ح٢ ، م : الصائم والمريض .

(٨) قال ابن قدامة : أجمع أهل العلم على إباحة الفطر للمريض في الجملة . انظر : المغني ٤/ ٤٠٣ .

(٩) انظر : المغني ٣/ ١٠٥ ، ١٢٥ و ٤/ ٤٠٦ .

(١٠) انظر : المرجع السابق ٤/ ٣٩٣ .

(١١) انظر : المرجع السابق ٣/ ١٢٥ و ٤/ ١٠٧ .

النوع الثاني

النوع الثاني : رخص التأويلات ، واختلاف المذاهب . فهذه تتبعُها حرام ينقص الرغبة ، ويوهن الطلب ، ويرجع بالمترخص إلىٰ غثاثة الرخص [١] .

فإن من ترخص بقول أهل مكة في الصرف[٢] ، وأهل العراق في الأشربة[٣] ،

---

(١) انظر : نماذج لهذه الرخص في كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) الصَّرْف : فضل الدرهم على الدرهم ، والدينار على الدينار ؛ لأن كل واحد منهما يصرف عن قيمة صاحبه . انظر : لسان العرب ٧/ ٣٢٩ مادة : (صرف) .

يعني : بقول أهل مكة في الصرف ، وهو قول ابن عباس ومن تبعه من المكيين في بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة متفاضلاً ، ومنعوه نسيئة .

وقد ذكر ابن رشد إجماع العلماء على أن بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة لا يجوز إلا مثلاً بمثل يداً بيد ؛ لدلالة الأحاديث الصحيحة على ذلك إلا ما روي عن ابن عباس ، ومن تبعه من المكيين فإنهم أجازوا بيعه متفاضلاً ، إذا تم التقابض في المجلس ، ومنعوه نسيئة .

وكان اجتهاد ابن عباس - هنا - مستنداً إلى ما رواه عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال : «لا ربا إلا في النسيئة» . والجمهور على تحريم التفاضل مقبوضاً أو نسيئة لدلالة الأحاديث الصريحة على ذلك . انظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢/ ١٩٥-١٩٦ . وقد روى الطبراني أن ابن عباس رضي الله عنه رجع عن قوله في الصرف ونهى عنه . انظر : المعجم الكبير ١/ ١٧٦ باب (البيان في نسخ ذلك ورجوع ابن عباس عن الصرف ونهيه عنه رضي الله عنه) .

(٣) يعني بأهل العراق: قول إبراهيم النخعي ، وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلى ، وشريك ، وابن شبرمة ، وأبي حنيفة ، وسائر فقهاء الكوفة ، وأكثر علماء البصرة .

قال ابن رشد : أما الخمر فإنهم اتفقوا على تحريم قليلها وكثيرها ، أعني التي هي من عصير العنب . وأما الأنبذة فإنهم اختلفوا في القليل منها الذي لا يسكر ، وأجمعوا على أن المسكر منها حرام ، فقال جمهور فقهاء الحجاز وجمهور المحدثين : قليل الأنبذة وكثيرها المسكرة حرام ، وقال العراقيون : إن المحرم من سائر الأنبذة المسكرة هو السكر نفسه لا العين . وسبب اختلافهم تعارض الآثار والأقيسة في هذا الباب . انظر : بداية المجتهد ١/ ٤٧١ .

وأهـل المدينـة في الأطعمـة[1]، وأصـحاب الحيـل في المعـاملات[2]، وقـول ابـن عبـاس في المتعـة[3]، وإباحـة

(١) يعني بأهل المدينة مالك بن أنس ومن تبعه. قال ابن قدامة: ما حرم الله في كتابه فهو حرام وما عدا هذا فما استطابته العرب، فهو حلال، وما استخبثه العرب فهو محرم. والذي تعتبر استطابتهم واستخباثهم هم أهل الحجاز من أهل الأمصار؛ لأنهم الذين نزل عليهم الكتاب، وخوطبوا به وبالسنة.. وما وُجد في أمصار المسلمين مما لا يعرفه أهل الحجاز، رُدَّ إلى أقرب ما يشبهه في الحجاز، فإن لم يشبه شيئاً منها، فهو مباح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً...﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥] إذا ثبت هذا، فمن المستخبثات الحشرات، كالديدان والجعلان، وبنات وردان، والخنافس، والفأر، والأوزاغ والحرباء، والعظاة، والجرذان، والعقارب، والحيات. وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي. ورخص مالك، وابن أبي ليلى، والأوزاعي، في ذلك كله، إلا الأوزاغ، فإن ابن عبدالبر قال: هو مجمع على تحريمه. وقال مالك: الحية حلال إذا ذكيت. واحتجوا بعموم الآية المبيحة. انظر: المغني ١٣/ ٣١٦ - ٣١٧، وانظر: تفسير القرطبي ٧/ ١١٥ - ١١٦.

والأوزاغ: جمع وزغة، وهي حيوان سام أبرص، وسميت الوزغة بذلك لخفتها وسرعة حركاتها. انظر: القاموس المحيط ٣/ ١١٩ مادة: (وزغ).

(٢) خصص ابن القيم -رحمه الله- جزءاً كبيراً من كتابه إعلام الموقعين للحديث عن الحيل. انظر: إعلام الموقعين ٣/ ١٧١ وما بعدها و ٤/ ١-٢٢٢.

(٣) انظر تفسير الطبري ٤/ ١٤. قال ابن رشد: إن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ بتحريم نكاح المتعة، وإن اختلف في الوقت الذي وقع فيه التحريم، ففي بعض الروايات أنه حرمها يوم خيبر، وفي بعضها أن ذلك وقع يوم فتح مكة، أو في غزوة تبوك، أو في حجة الوداع، أو عام أوطاس، وأكثر الصحابة وفقهاء الأمصار على تحريمها، واشتهر عن ابن عباس تحليلها، وتبع ابن عباس على القول بها أصحابه من أهل مكة وأهل اليمن، انظر: بداية المجتهد ٢/ ٥٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١٢٩-١٣١.

لحوم الحمر[1][2]، وقول من جوز نكاح البغايا المعروفات بالبغاء[3]، وجوّز أن يكون زوج قحبة[4]، وقول من أباح آلات اللهو والمعازف: من اليراع والطنبور[5]، والعود والطبل والمزمار. وقول من أباح الغناء[6]، [وقول من

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن ابن عباس رضي الله عنه أفتى بجواز المتعة للضرورة، فلما توسع الناس فيها، ولم يقتصروا على موضع الضرورة أمسك عن فتياه، ورجع عنها. انظر: زاد المعاد ٣/ ٣٤٥، ٤٦١، وتفسير القرطبي ٥/ ١٣٢-١٣٣.

قلت: لكن الشيعة لا يرون في نكاح المتعة بأساً على الرغم من ثبوت نسخ هذا النوع من النكاح. انظر: الاستبصار فيما اختلف من الأخبار لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٣/ ١٤١-١٥٤.

(١) في ط والجميع زيادة: الأهلية.

(٢) انظر: المغني ١٣/ ٣١٨، وتفسير القرطبي ٧/ ١١٧ قال ابن رشد: جمهور العلماء على تحريم لحوم الإنسية إلا ما روي عن ابن عباس وعائشة أنهما كانا يبيحانها، وعن مالك أنه كان يكرهها. ورواية ثانية له مثل قول الجمهور. انظر: بداية المجتهد ١/ ٤٦٩.

(٣) العجب أنه مع بعد هذا القول ومصادمته لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [النور: ٣] إلا أنه قول لبعض أهل العلم. انظر: المغني ٩/ ٥٦٢، وزاد المعاد ٤/ ٧، ومحاسن التأويل ١٢/ ١٢٧-١٣١.

(٤) القَحْب: سعال الشيخ، وسعال الكلب. ومن أمراض الإبل القُحاب وهو السعال. والقحاب: فساد الجوف، وقيل للبغي قحبة: لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها وهو سعالها. انظر: لسان العرب ١١/ ٤١ مادة: (قحب).

(٥) الطنبور: آلة من آلات اللعب واللهو والطرب، ذات عنق وأوتار. انظر: المعجم الوسيط ٥٦٧.

(٦) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٣- ١٤٩٤، ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٢٦٠-

جوز استعارة الجواري الحسان للوطء[١]][٢]، وقول من جوز للصائم أكل البرد. وقال: ليس بطعام ولا شراب[٣]، وقول من جوز الأكل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس[٤] للصائم[٥]. وقول من صحح الصلاة بـ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن:

٢٧٢، وانظر كذلك رد ابن القيم على من أباحه في كتاب السماع، وفي المدارج ص٣٧٦ من هذا القسم المحقق.

(١) ما بين المعقوفين ساقط من: م، ح٢.

(٢) قال ابن قدامة: وإذا استأجر امرأة لعمل شيء، فزنى بها، أو استأجرها ليزني بها وفعل ذلك... فعليهما الحد. وبه قال أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة: لا حد عليهما في هذه المواضع. انظر: المغني ١٢/ ٣٧٨، وبداية المجتهد ٢/ ٤٣٤.

(٣) قال ابن قدامة: وأجمع العلماء على الفطر بالأكل والشرب لما يتغذى به، فأما ما لا يتغذى به، فعامة أهل العلم على أن الفطر يحصل به، وقال الحسن بن صالح: لا يفطر بما ليس بطعام ولا شراب، وحكى عن أبي طلحة الأنصاري، أنه كان يأكل البرد في الصوم، ويقول: ليس بطعام ولا شراب.. ثم قال ابن قدامة: ولم يثبت عندنا من نقل عن أبي طلحة فلا يعد خلافاً. انظر: المغني ٤/ ٣٥٠.

(٤) في ش: الفجر.

(٥) الصيام: هو الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس لقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل...﴾ [البقرة: ١٨٧].

واختلف أهل العلم في الحد الذي بتبينه يجب الإمساك، فقال الجمهور: ذلك الفجر المعترض في الأفق يمنة ويسرة، وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار. وقال بعض أهل العلم: إن ذلك إنما يكون بعد طلوع الفجر وتبينه في الطرق والبيوت وعلى رؤوس الجبال، ورووا ذلك عن عمر وحذيفة، وابن عباس، وطلق بن علي، وعطاء بن أبي رباح،

٦٤] بالفارسية[1] وركع كلحمة[2] الطرف ، ثم فصل كحد السيف[3] ، ثم هوىٰ من غير اعتدال. [وفصل بين السجدتين بارتفاع[4] كحد السيف ولم يتشهد[5]][6] ، ولم يصل علىٰ النبي ﷺ، وخرج من الصلاة بحبقة[7][8] ، وقول من جوز وطء

والأعمش وغيرهم . وقال مسروق : لم يكونوا يعدون الفجر فجركم ، إنما كانوا يعدون الفجر الذي يملأ البيوت . انظر لهذه المسألة : المغني ٤/ ٣٢٥ ، وتفسير الطبري ٢/ ١٧٧ - ١٨٣ ، وتفسير القرطبي ٢/ ٣١٨-٣٢١ .

(١) قال ابن قدامة : ولا تجزئه القراءة بغير العربية ، ولا إبدال لفظها بلفظ عربي ، سواء أحسن قراءتها بالعربية أو لم يحسن . وبه قال الشافعي ، وأبو يوسف ، ومحمد ، وقال أبو حنيفة : يجوز ذلك . وقال بعض أصحابه إنما يجوز ذلك لمن لم يحسن العربية . انظر : المغني ٢/ ١٥٨ ، وقال الكاساني الحنفي : إن في تعيين القدر المفروض الذي يتعلق به أصل الجواز عن أبي حنيفة ثلاث روايات : إحداها: أنه قدر أدنى المفروض بالآية التامة ، طويلة كانت أو قصيرة كقوله تعالى : ﴿مدهآمتان﴾ ، وقوله : ﴿ثم نظر﴾ [المدثر : ٢١] ، وقوله : ﴿ثم عبس وبسر﴾ [المدثر : ٢٢] ، ثم قال : ثم الجواز كما يثبت بالقراءة العربية يثبت بالقراءة الفارسية عند أبي حنيفة ، سواء كان يحسن العربية أو لا يحسن . . . . » انظر : بدائع الصنائع ١/ ١١٢ .

(٢) في ط والجميع : كلخطة .

(٣) «ثم فصل كحد السيف» ساقط من ط .

(٤) «بارتفاع» ساقطة من ط ، وفي ح٢ ، م : باعتدال .

(٥) «لم يتشهد» ساقط من ط .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من : غ ، أ ، ب ، وهو في هامش أ .

(٧) في غ ، أ ، ب : بحقبة .

(٨) الحِبقَّةُ : القصير ، والحِبِقَّى : السير السريع . والحَبْقَة : الضرطة . انظر : القاموس المحيط

النساء في أعجازهن[1]، ونكاح بنته المخلوقة من مائه، الخارجة من صلبه حقيقة[2]، إذا كان ذلك الحمل من زنى[3][4]، وأمثال ذلك من رخص المذاهب،

٣/ ٢٢٦، والمعجم الوسيط ص١٥٢-١٥٣ مادة: (حبق).

ولعل مقصوده - والله أعلم - الانصراف عن الصلاة بوقت قصير وسرعة.

(١) الذي عليه جمهور الصحابة والتابعين وأئمة الفقهاء تحريم ذلك.

قال ابن قدامة: ولا يحل وطء الزوجة في الدبر، في قول أكثر أهل العلم، منهم علي، وعبدالله، وأبو الدرداء، وابن عباس، وعبدالله بن عمر، وأبو هريرة. انظر: المغني ١٠/ ٢٢٦. وقال القرطبي: وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه... ثم ذكر بعد ذلك أنه روي عن ابن عمر خلاف القول بالجواز، وأن نافعاً كذَّب من أخبر عنه بذلك، وأن مالكاً أنكر ذلك، واستعظمه، وكذب من نسب ذلك إليه. انظر: تفسير القرطبي ٣/ ٩١ وما بعدها.

وانظر لهذه المسألة كذلك: أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٧٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٥٨، وزاد المعاد لابن القيم ٤/ ٢٥٦، ونيل الأوطار ٦/ ٢٢٥.

(٢) «حقيقة» ساقطة من ش.

(٣) في ش: الزنى.

(٤) تحريم هذا النكاح قول عامة الفقهاء خلافاً لمالك والشافعي في المشهور من مذهبه.

قال ابن قدامة: «ويحرم على الرجل نكاح بنته من الزنى...» وهو قول عامة الفقهاء.

وقال مالك، والشافعي في المشهور من مذهبه: يجوز ذلك كله؛ لأن الحرام لا يحرم الحلال، ولأنها أجنبية منه، ولا تنسب إليه شرعاً ولا يجري التوارث بينهما ولا تعتق عليه إذا ملكها، ولا تلزمه نفقتها فلم تحرم كسائر الأجانب» المغني ٩/ ٥٢٩. وانظر: تفسير القرطبي ٥/ ١١٤.

وأقوال العلماء المرجوحة[1] ، فهذا الذي ينقص[2] ترخصه[3] رغبته ، ويوهن طلبه ، ويلقيه في غثاثة الرخص . فهذا لون والأول لون .

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : رَغْبَةُ أَرْبَابِ[4] الحَالِ . وَهِيَ رَغْبَةٌ لاَ تُبْقِي مِن المجهُودِ مَبْذُولاً ، وَلاَ تَدَعُ لِلهِمَّةِ ذُبُولاً ، وَلاَ تَتْرُكُ غَيرَ المقْصُودِ[5] مَأْمُولاً»[6] .

يعني: أن الرغبة الحاصلة لأرباب الحال : فوق رغبة أصحاب[7] الخبر . لأن صاحب الحال كالمضطر إلىٰ رغبته وإرادته ، فهو كالفراش الذي إذا رأىٰ النور ألقىٰ نفسه فيه ، ولا يبالي ما أصابه . فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورا له إلا بذله . ولا تدع لهمته[8] وعزيمته فترة[9] ولا خموداً ، فهمته[10] وعزيمته في مزيد بعدد الأنفاس . ولا تترك في قلبه نصيباً لغير مقصوده ، وذلك لغلبة سلطان الحال .

---

(١) «المرجوحة» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٢) في الجميع سوى ش : تنقص .

(٣) في ط ، أ ، غ ، د ، ق : بترخصه ، وفي ح٢ : برخصه ، وفي ش : برخصته .

(٤) في د : أصحاب .

(٥) في ط والجميع : القصد .

(٦) انظر : المنازل : ٢٧ لكن قال فيها : ... لا تبقى من المجهود إلا مبذولاً ...

(٧) في ش : أرباب .

(٨) في د : همته .

(٩) في ش : قوة .

(١٠) «فهمته» ساقطة من ط .

وصاحب هذه الحال لا يقاومه إلا حال مثل حاله أو أقوىٰ[١] منه . ومتىٰ لم تصادفه[٢] حال تعارضه فله من النفوذ والتأثير بحسب حاله .

الدرجة الثالثة

قال[٣] : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : رَغْبَةُ أَهلِ الشُّهُودِ . وَهِيَ تَشَرُّفٌ تَصْحَبُهُ[٤] تَقِيَّةٌ ، وَتحمِلُهُ[٥] عَلَيهَا[٦] همَّةٌ نَقِيَّةٌ . لاَ تُبقِي مَعَهُ مِن التَّفَرُّقِ بَقِيَّةٌ»[٧] .

يشير الشيخ -رحمه الله- بذلك إلىٰ حال[٨] الفناء التي يحمله[٩] عليها همة نقية من أدناس الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الحق ، بحيث لا يبقىٰ معه بقية من تفرقة[١٠] . بل قد اجتمع شاهده كله وانحصر في مشهوده . وأراد بالشهود هاهنا شهود الحقيقة .

وقوله : «تَشَرُّفٌ» أي : استشراف[١١] للغيبة[١٢] في الفناء .

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : وأقوى .

(٢) في ط والجميع سوى ش : يصادفه .

(٣) «قال» ساقطة من الجميع سوى ط .

(٤) في ط والجميع شوى ش ، د : يصحبه .

(٥) في ط والجميع سوى ش : تحمله .

(٦) في ش : على .

(٧) انظر : المنازل ٢٧ لكن قال فيها : . . . . وتحمله همة نقية . . . .

(٨) في ط والجميع سوى ش حاله .

(٩) في ش : الذي تحمله .

(١٠) في ش زيادة : كله .

(١١) في ط : استشرف .

(١٢) في ط والجميع سوى د ، ق : الغيبة .

ويحتمل أن يريد به تشرفا عن التفاته إلىٰ ما سوىٰ مشهوده .

و«التقية» التي تصحب هذا التشرف : يحتمل أن يريد [١] التقية من إظهار الناس علىٰ حاله ، وإطلاعهم عليها ، صيانة [٢] لها وغيرة عليها.

ويحتمل أن يريد بها[٣] الحذر من التفاته في شهوده إلىٰ ما سوىٰ حضرة مشهوده . فهو يتقي[٤] ذلك الالتفات ويحذره[٥] كل الحذر .

ثم ذكر الحامل له[٦] علىٰ هذه الرغبة[٧] . وهي اللطيفة المدركة المريدة التي قد تطهرت قبل وصولها إلىٰ[٨] هذه الغاية . وهي الهمة النقية . ولو لم يحصل لها كمال[٩] الطهارة لبقيت عليها بقية منها تمنعها من وصولها إلىٰ هذه الدرجة . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

* * *

---

(١) في الجميع زيادة : به وفي ط ، وق : بها .

(٢) في ب : وصيانة .

(٣) في الجميع سوى ط : به .

(٤) في ط ، م ، ب ، أ ، غ : فهي تتقي .

(٥) في ط ، م ، ب ، غ ، أ : تحذره ، وفي ش : ويحذر .

(٦) «له» ساقط من : غ ، أ .

(٧) في أ ، ب ، غ : الغاية .

(٨) «إلى» ساقط من غ ، ب ، م ، ح٢ .

(٩) في م : إكمال .

فصل

منزلة الرعاية

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرعاية»[١] .

تعريف الرعاية

وهي مراعاة العلم ، وحفظه بالعمل . ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص ، وحفظه من المفسدات . ومراعاة الحال بالموافقة ، وحفظه بقطع التفرق[٢] ، فالرعاية[٣] ، صيانة وحفظ .

مراتب العلم والعمل

ومراتب العلم والعمل ثلاثة : «رواية» وهي مجرد النقل وحمل المروي . و«دراية» وهي فهمه وتعقّل معناه . و«رعاية» وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه .

فالنقلة همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية .

---

(١) الرعاية في اللغة : الحفظ والملاحظة ، يقال : رعى لفلان عهده أو حرمته : لاحظها وحفظها .

انظر : المعجم الوسيط ٣٥٦ مادة : (رعى) .

وعند الصوفية : هي صون بالعناية ، وفي الدعاء : رعاك الله ، أي : اعتني بصونك عما فيه يشينك .

ورعاية الأعمال : سلامتها من النقص ، وذلك بتحقيرها ، إذ كان فيه توفيرها ، وألا يداخلك تيه يفسد عليك نيتك .

ورعاية الأحوال : سلامتها عن الاستحسان لها .

ورعاية الأوقات : الوقوف مع كل خطرة بتصحيحها ، والغياب عن حظ النفس : انظر : لطائف الإعلام ١/ ٤٩٢-٤٩٣ .

(٢) في ط : التفريق .

(٣) في ق : والرعاية .

وقد ذم الله تعالىٰ من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته . فقال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ[1] وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد : ٢٧]، و«رهبانية»[2] منصوب «بابتدعوها» علىٰ الاشتغال[3] . إما بنفس الفعل المذكور [علىٰ قول الكوفيين - وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور][4] علىٰ قول البصريين - أي وابتدعوا رهبانية ، وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه[5] . فالوقف التام عند[6] قوله : ﴿رَأْفَةً[7] وَرَحْمَةً﴾ ثم يبتدئ : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي لم يشرعها[8] لهم . [بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم يكتبها[9] عليهم][10]

(١) أول الآية ليس في ط والجميع سوى ش .

(٢) في ط ، ح٢ ، م ، أ ، غ : رهبانية .

(٣) انظر : إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ٦٧ .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ب وهو في هامشها .

(٥) وهذا من الإمام ابن القيم ردٌ على الزمخشري الذي أجاز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وهي قوله تعالى : ﴿رأفة ورحمة﴾ انظر الكشاف ٤/ ٦٨ .

(٦) في د : على .

(٧) «رأفة» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٨) في ط والجميع سوى ش : لم نشرعها .

(٩) في ط والجميع سوى ش : نكتبها .

(١٠) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ب ، أ وهو في هامش : أ .

وفي نصب قوله[1] : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ [ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه مفعول له ، أي: لم يكتبها[2] عليهم إلا لابتغاء رضوان الله][3] [4] .

وهذا فاسد . فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه . كيف[5] وقد أخبر : أنهم هم[6] ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة . وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه. فيتحد السبب والغاية ، نحو : قمت إكراما له[7]، فالقائم هو المكرم وفعل الفاعل المعلل هاهنا هو «الكتابة» و«ابتغاء رضوان الله» فعلهم ، لا فعل الله . فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل .

وقيل : هو[8] بدل من مفعول «كتبناها» أي: ما كتبنا[9] عليهم إلا ابتغاء رضوان الله[10] .

---

(١) «قوله» ساقطة من ح٢ ، م .

(٢) في الجميع سوى ش ، ط : نكتبها .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من م ، وهو في هامشها .

(٤) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٣٠

(٥) في م : فكيف .

(٦) «هم» ساقطة من ح٢ .

(٧) «له» ساقطة من ط والجميع سوى ش ، د .

(٨) «هو» ساقطة من ط والجميع سوى ش ، د .

(٩) في ط والجميع سوى ش ، ق ، د : ما كتبناها .

(١٠) انظر : تفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨ .

وهو أيضاً فاسد[1]، إذ ليس[2] ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية، فيكون[3] بدل الشيء من الشيء. ولا بعضها فيكون[4] بدل بعض من كل ولا أحدهما مشتمل علىٰ الآخر، فيكون[5] بدل اشتمال وليس ببدل[6] غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع[7]. أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله. ودل علىٰ هذا قول[8] «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث علىٰ ابتداع هذه الرهبانية، وأنه طلب رضوانه تعالىٰ[9].

ثم ذمهم بترك رعايتها، إذ من التزم لله شيئا لم[10] يُلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتىٰ ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قاله[11]: أبو حنيفة،

---

(١) في ط: وهو فاسد أيضاً.

(٢) «ليس» ساقطة من غ، ب.

(٣) في ط والجميع سوى ش، د: فتكون.

(٤) في ط: فتكون.

(٥) في ط: فتكون.

(٦) في ط: بدل.

(٧) انظر: تفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧، والكشاف للزمخشري ٤/ ٦٧.

(٨) في ط والجميع سوى ش: قوله.

(٩) في ط والجميع سوى ش: وأنه هو طلب رضوان الله.

(١٠) في ب، أ، غ: ولم.

(١١) في ط والجميع سوى ش: قال.

ومالك ، وأحمد في إحدىٰ الروايتين عنه[1] ، وهو إجماع - أو كالإجماع - في أحد النسكين[2] .

---

(١) اختلف أهل العلم في وجوب إتمام النوافل التي يشرع بها الإنسان . فبعضهم قال بوجوب إتمامها قياساً على النذر ، وبعضهم جعل ذلك عائداً إلى الإنسان نفسه إن شاء أتمها ، وإن شاء عدل عن إتمامها ، وبعضهم جعل ذلك في بعض النوافل دون بعض ، وقد ذكر الإمام النووي هذه الآراء عند شرحه لقوله ﷺ ذات يوم لعائشة ـ رضي الله عنها ـ : «هل عندكم شيء؟» فقالت لا . قال : «إني إذن صائم» ثم أتاها يوماً آخر فقالت له : يا رسول الله أهدي لنا حيس ، فقال : «أرنيه فلقد أصبحت صائماً» قالت : فأكل .
قال - رحمه الله - في الرواية الثانية - يعني هذا الحديث - التصريح بالدلالة لمذهب الشافعي ، وموافقته في أن صوم النافلة يجوز قطعه ، والأكل في أثناء النهار ، ويبطل الصوم لأنه نفل فهو إلى خيرة الإنسان في الابتداء ، وكذا في الدوام . وممن قال بهذا جماعة من الصحابة ، وأحمد ، وإسحاق وآخرون ، ولكنهم كلهم ، والشافعي معهم متفقون على استحباب إتمامه . وقال أبو حنيفة ومالك : لا يجوز قطعه ويأثم بذلك ، وبه قال الحسن البصري ، ومكحول ، والنخعي ، وأوجبوا قضاءه على من أفطر بلا عذر .
انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ٣٥ ، كتاب الصيام ، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال ، وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر . . .
وقال ابن قدامة : «إن من دخل في صيام تطوع استحب له إتمامه ، ولم يجب . فإن خرج منه فلا قضاء عليه : ثم ذكر أن ذلك مروي عن ابن عمر ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأحمد والثوري ، والشافعي ، وإسحاق . . . ، وذكر عن الإمام أحمد رواية أخرى تقول بوجوب إتمام صيام التطوع ، إذا شرع فيه ، فإذا أفطر من غير عذر فإن عليه أن يعيد يوماً مكانه . ثم قال بعد ذكره هذه الرواية : وهذا محمول على أنه استحب ذلك ، أو نذره ليكون موافقاً لسائر الروايات عنه . انظر : المغني ٤/ ٤١٠ .

(٢) قال ابن رشد : وأجمعوا - أي الفقهاء - على أن من دخل في الحج والعمرة متطوعاً ، ثم خرج منهما أن عليه القضاء . بداية المجتهد ١/ ٣١٢ ، وقال ابن قدامة : وسائر النوافل من

قالوا : والالتزام بالشروع أقوىٰ من الالتزام[1] بالقول . فكما يجب عليه رعاية ما التزمه [بالنذر وفاء[2] ، يجب عليه رعاية ما التزمه][3] بالفعل إتماما .

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة .

والقصد[4] : أن الله سبحانه ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله حق رعايتها ، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله ورضيها لعباده[5] .

فصل

درجات الرعاية

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

«الرِّعَايَةُ : صَونٌ بِالعِنَايَةِ ، وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : رِعَايَةُ الأَعْمَالِ . وَالثَّانِيَةُ : رِعَايَةُ الأَحْوَالِ . وَالثَّالِثَةُ : رِعَايَةُ الأَوْقَاتِ .

الدرجة الأولى

الأعمال حكمها حكم الصيام ، في أنها لا تلزم بالشروع ، ولا يجب قضاؤها إذا خرج منها ، إلا الحج والعمرة ، فإنهما يخالفان سائر العبادات في هذا ، لتأكد إحرامهما . . . » انظر : المغني ٤/ ٤١٢ ، وتفسير القرطبي ٢/ ٣٦٥ .

(١) في د : بالالتزام .

(٢) قال النووي : أجمع المسلمون على صحة النذر ووجوب الوفاء به إذا كان الملتزم طاعة ، فإن نذر معصية أو مباحاً كدخول السوق ، لم ينعقد نذره ، ولا كفارة عليه عندنا ، وبه قال جمهور العلماء . وقال أحمد وطائفة : فيه كفارة يمين . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ١١/ ٩٦ كتاب النذر .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، وهو في هامشها .

(٤) في م : المقصود .

(٥) في ط ، غ ، أ ، ب : شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها ، وفي د ، م ، ح٢ : وأمر بها ورضيها وحث عليه .

فَأَمَّا رِعَايَةُ الأَعْمَالِ : فَتوفِيرُهَا[1] بِتَحقِيرِهَا ، وَالقِيَامُ بِهَا مِن غَيرِ نَظَرٍ إِلَيهَا ، وَإِجرَاؤُهَا عَلَىٰ[2] مجرَىٰ العِلْمِ ، لاَ عَلَىٰ التَّزَيُّنِ بِهَا»[3] .

أما قوله : «صَونٌ بِالعِنَايةِ» أي : حفظ بالاعتناء ، والقيام بحق الشيء الذي يرعاه ، ومنه راعي الغنم .

أما قوله[4] : «رِعَايَةُ الأَعْمَالِ : فَتَوفِيرُهَا بِتَحْقِيرِهَا»[5] ، فالتوفير[6] : سلامةٌ من طرفي التفريط بالنقص ، والإفراط بالزيادة علىٰ الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها .

وأما تحقيرها : فاستصغارها في عينه ، واستقلالها . وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله[7] وحقوق عبوديته أمر آخر ، وأنه لم[8] يُوفِه حَقَّه ، وأنه لا يرضىٰ لربه بعمله ، ولا بشيء منه .

وقد قيل : علامة رضا الله عنك : سخطك[9] علىٰ نفسك . وعلامة قبول

---

(١) في ح٢ ، م : فتوفرها .

(٢) «على» ساقطة من د .

(٣) انظر : المنازل ٢٨ لكن قال فيها : وإجراؤها مجرى العلم . . . .

(٤) في ط : وقوله : أما رعاية الأعمال .

(٥) في ح٢ ، م زيادة : من غير نظر إليها .

(٦) التوفير : الاستيفاء والتمام والكمال . انظر : لسان العرب ١٥/ ٣٥٤ مادة : (وفر) .

(٧) في م : وإجلاله .

(٨) «لم» ساقطة من ب .

(٩) في ط والجميع سوى ش : إعراضك عن نفسك .

عملك : احتقاره واستقلاله ، وصغره[١] في قلبك . حتىٰ إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعاته[٢] ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر[٣] ثلاثاً[٤] ، وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج[٥] ، ومدحهم علىٰ الاستغفار عقيب قيام الليل[٦] بالأسحار[٧] ، وشرع النبي ﷺ للأمة[٨] عقيب الطهور التوبة والاستغفار[٩] .

---

(١) «وصغره» ساقطة من أ ، وهو في هامشها .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : طاعته .

(٣) في ط ، ح٢ ، م ، د ، ق زيادة : الله .

(٤) رواه مسلم ١/ ٤١٤ في كتاب الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، ح٥٩١ ، والترمذي ٢/ ٩٧-٩٨ في كتاب الصلاة ، باب ما يقول إذا سلم من الصلاة ، ح٣٠٠ وقال : حديث حسن صحيح .

(٥) كما قال تعالى : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ الآية [البقرة : ١٩٩] .

(٦) «بالأسحار» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٧) كما قال تعالى : ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] .

(٨) «للأمة» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٩) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ سورة الكهف . . . ومن توضأ فقال : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . كتب له في رق ، ثم طبع بطابع فلم يكسر إلى القيامة» . رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ص١٧٣ ح٨١ وقال: إنه موقوف ، ورواه الحاكم ١/ ٧٥٢-٧٥٣ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب

فمن شهد واجب ربه ، ومقدار عمله ، وعيب نفسه : لم يجد بُدّاً من استغفار ربه منه[١] ، واحتقاره إياه واستصغاره .

وأما «القِيَامُ بِهَا» فهو توفية[٢] حقها ، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة ، والصلاة القائمة[٣] ، والشجرة القائمة علىٰ ساقها التي ليست ساقطة [٤] .

وقوله : «مِن غَيرِ نَظَرٍ إِلَيهَا» أي من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها . فيسقط من عين الله ، وتحبط أعماله[٥] .

وقوله : «وَإِجرَاؤُهَا[٦] عَلَىٰ مجْرَىٰ العِلْمِ»[٧] أن يكون العمل علىٰ مقتضىٰ

١/ ١٧٢ وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورواته رواة الصحيح واللفظ له، ورواه النسائي. وذكره ابن القيم في زاد المعاد ١/ ١٩٦ وعزاه إلى النسائي في السنن ، وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ٢٣٩ وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٩٤ ح٢٢٠ وفي الصحيحة ٥/ ٤٣٨ ح٢٣٣٣ وقال : والخلاصة أن الحديث صحيح بمجموع طرقه المرفوعة ، والموقوف لا يخالفه ؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأي كما قال الحافظ ، ولعله من أجل ذلك ساقه ابن القيم في زاد المعاد مساق المسلمات ، ولكن عزاه إلى سنن النسائي وهو وهم .

(١) «منه» ساقطة من ب وهو في هامشها .

(٢) في ط ، غ ، ب ، أ ، م : توفيتها ، وفي ح٢ : توفيها .

(٣) «والصلاة القائمة» ساقط من غ ، أ ، ب .

(٤) في ط والجميع سوى ش : بساقطة .

(٥) في ط ، أ ، غ ، ب : ويحبط عمله .

(٦) «وإجراؤها» ساقطة من ح٢ ، م .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : هو .

العلم المأخوذ من مشكاة النبوة ، إخلاصاً[1] ، وإرادة لوجهه ، وطلبا لمرضاته ، لا علىٰ وجه التزين بها عند الناس .

الدرجة الثانية

قال : «وَأَمَّا رِعَايَةُ الأَحْوَالِ : فَهُوَ[2] أَن يَعُدَّ الاجتِهَادَ مُرَاءَاةً ، وَاليَقِينَ تَشَبُّعاً ، وَالحَالَ دَعْوَىٰ»[3] .

أي: يتهم نفسه في اجتهاده: أنه رياء للناس[4]، فلا يطغىٰ به، ولا يسكن إليه ، ولا يعتد به .

وأما عده اليقين تشبعاً . [التشبع[5] : افتخار الإنسان بما لا يملكه ، ومنه قول النبي ﷺ : «**المتشبع بما لم يعط كلابسِ ثوبي زور**»[6] .

وعد اليقين تشبعاً][7] : يحتمل وجهين : أحدهما : أن ما حصل له من اليقين لم يكن به ، ولا منه ، ولا استحقه بعوض . وإنما هو فضل الله وعطاؤه ،

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : لله .

(٢) في ش : فهي .

(٣) المنازل ٢٨ ، لكن قال : «والنفس تشبعاً» وفي بعض نسخ المنازل كما في هامشها : «واليقين» كما هي عند ابن القيم .

(٤) في ط والجميع سوى ش : راءى الناس .

(٥) في ط : فالتشبع .

(٦) رواه البخاري ٩/ ٣١٧ في كتاب النكاح ، باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى عنه من افتخار الضرة ، ح٥٢١٩ ، ومسلم ٣/ ١٦٨١ في كتاب اللباس ، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره ، والتشبع بما لم يعط ، ح٢١٢٩ ، وأحمد في مسنده ٦/ ١٦٧ .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ .

وو ديعته عنده ، ومجرد منته عليه ، فهي[١] خلعة خلعها علىٰ عبده[٢] . والعبد وخلعته[٣] ، كل ملكه وله [٤][٥] . فما للعبد في اليقين [٦] مدخل ، وإنما هو متشبع بما هو ملك لله ، وفضل منه ، [٧] ومنته علىٰ عبده .

والوجه الثاني : أن يتهم يقينه[٨] ، وأنه لم يحصل له اليقين علىٰ الوجه الذي ينبغي ؛ بل ما حصل له منه [٩] كالعارية غير[١٠] الملك المستقر ، فهو متشبع به تزعم نفسه[١١] أن اليقين ملكة له[١٢] ، وليس كذلك . وهذا لا يختص باليقين ، بل بسائر الأحوال. فالصادق يعد صدقه تشبعاً، وكذا[١٣] المخلص[١٤]، وكذا العالم،

---

(١) في ط والجميع سوى ش : فهو .

(٢) في الجميع سوى ش : عليه ، وفي ط : خلعها سيده عليه .

(٣) في أ ، غ : جعلته .

(٤) «وله» ساقط من م ، ح٢ .

(٥) في د زيادة : وعطاؤه ووديعته .

(٦) في الأصل ، ش، م، ق، د: البين ولا يستقيم المعنى بها، وما أثبته من ط والباقي وهو أقرب للمعنى.

(٧) في ط والجميع سوى ش : وفضله ومنته على عبده .

(٨) في د : نفسه .

(٩) في ط زيادة : هو .

(١٠) في ط ، أ : لا الملك المستقر ، وفي ب : والملك المستعير ، وفي ق : والملك المستقرض ، وفي غ د ، ح٢ : والملك المستقر .

(١١) في ط والجميع سوى ش : فهو متشبع بزعم نفسه .

(١٢) في ط والجميع سوى ش : ملكه وله .

(١٣) في ش : فكذا .

(١٤) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق زيادة : يعد إخلاصه .

لاتهامه لصدقه وإخلاصه وعلمه[1] . وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك ولم يحصل[2] له فيه ملكة ، فهو كالمتشبع به[3] .

ولما كان «اليقين» روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها : خصه بالذكر ، تنبيها علىٰ ما دونه .

والحاصل : أنه يتهم نفسه في حصول اليقين ، فإذا حصل فليس[4] به ، ولا منه ، ولا له فيه شيء . فهو يذم نفسه في عدم حصوله ، ولا يحمدها عند حصوله .

وأما عد الحال دعوىٰ أي : دعوىٰ كاذبة ، اتهاماً لنفسه ، وتطهيراً لها من رعونة الدعاوىٰ[5] ، وتخليصا للقلب من نصيب الشيطان . [فإن الدعوىٰ من أنصباء[6] الشيطان منه[7]][8][9] .

(١) في ش ، غ : وعمله .

(٢) «يحصل» ساقطة من ش .

(٣) «به» ساقطة من ش .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : حصوله .

(٥) في ط ، أ ، ب ، غ : الدعوى .

(٦) في ط والجميع سوى ش : نصيب .

(٧) «منه» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان .

(٩) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، وهو في هامشها .

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «وَأَمَّا رِعَايَةَ الأَوْقَاتِ : فَأَن يَقِفَ[1] مَعَ كُلِّ خُطْوةٍ . ثُمَّ أَنْ يَغِيبَ عَنْ خَطْوِهِ[2] بِالصَّفَاءِ مِن رَسْمِهِ . ثُمَّ أَنْ يَذْهَبَ عَنْ شُهُودِ صَفْوِهِ[3]»[4] .

أي: يقف[5] مع كل[6] حركة ظاهرة وباطنة بمقدار ما يصححها[7]، نية وقصداً وإخلاصا ومتابعة ، فلا يخطو همجاً[8] ؛ بل يقف قبل الخطوة[9] حتىٰ يصحح الخطوة ، ثم ينقل قدم عزمه . فإذا صحت له ونقل قدمه انفصل عنها . وقد صحت بالغيبة[10] عن شهودها ورؤيتها ، فيغيب عن شهود تقدمه بنفسه . فإن رسمه هو نفسه . فإذا غاب عن شهوده[11] نفسه [وتقدمه بها في كل خطوة[12] ،

(١) في ش : تقف .

(٢) في ط ، أ ، ب ، غ : حضوره .

(٣) في ط زيادة : عن شهود صفو صفوة .

(٤) انظر : المنازل ٢٩ ، لكن قال : أن يقف مع خطوة .

(٥) في ش : تقف .

(٦) «كل» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

(٧) في ط ، غ ، ب ، أ : تصحيحها .

(٨) في ط والجميع سوى ش : هجماً وهمجاً . والهَمَج : الحمقى والرعاع من الناس الذين لا نظام لهم . انظر : المعجم الوسيط ٩٩٣ ، مادة : همج ، مختار الصحاح ٢٩١ .

(٩) في ط ، د ، ح٢ ، م ، أ ، ب ، غ : قبل الخطو : وفي ش : قبل كل خطوة .

(١٠) في ط الغيبة .

(١١) في ط ، ح٢ ، م ، غ ، أ ، ب : شهود نفسه .

(١٢) «في كل خطوة» ساقط من أ ، ب ، غ .

فذلك عين الصفاء من رسمه الذي هو نفسه][1] [2] .

ولما كانت النفس محل الأكدار[3] . سمي انفصاله عنها : صفاء . وهذه الأمور تستدعي لطف إدراك ، واستعداداً من العبد ، وذلك عين المنة عليه .

وأما ذهابه عن شهود صفوه : أي: لا يستحضر[4] في قلبه ، ويشهد ذلك الصفو المطلوب[5]، ويقف عنده. فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها، وهو نوع[6] كدر[7] . فإذا تخلص من الكدر[8] ، لا ينبغي له الالتفات والرجوع إليه . فيصفو من الرسم ، ويغيب عن الصفو بمشاهدة المطلب الأعلىٰ ، والمقصد[9] الأسنىٰ .

* * *

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ق .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : فعند ذلك يشاهد فضل ربه .

(٣) قال القشيري : «نَفْسُ الشيء في اللغة وجوده ، وعند القوم : ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القالب الموضوع ، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله» .

انظر : القشيرية ص٨٦-٨٧ ، وانظر : التعريفات ٢٧١ .

(٤) في ط ، م ، د ، ح٢ ، ق : يستحضره .

(٥) «المطلوب» ساقطة من م .

(٦) «نوع» ساقطة من ط .

(٧) «كدر» ساقطة من غ ، ب .

(٨) في ش : من كدر .

(٩) في ش : والمسند .

فصل

منزلة المراقبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «المراقبة»(١) .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقره : ٢٣٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤](٢) .

وفي حديث جبريل ـ عليه السلام ـ : أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال(٣) : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٤) .

تعريف المراقبة

«المراقبة» دوام علم العبد(٥) ، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه علىٰ ظاهره

---

(١) الرَّقيبُ : الحفيظ ، ورَقَبَ الشيء يرقُبُه وراقَبه مُراقَبَةً ورِقاباً : حرسه . انظر: لسان العرب ٥/ ٢٧٩ مادة : (رَقَب) .

والمراقبة عند الصوفية : دوام الملاحظة لما هو المقصود بالتوجه إلى الحق ظاهراً وباطناً .

فمراقبة العامة : محافظتهم على القيام بما فرض الله عليهم ، والوقوف عند حده لهم .

ومراقبة المريدين : هي دوام ملاحظة القلب بالحضور مع الرب .

ومراقبة الواصلين : حفظ الحق لهم عما يفرق جمعيتهم عليهم ، فهم يراقبونه به لا بهم .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٨٦ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٤٠ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال تعالى : ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ [العلق : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر : ١٩] إلى غير ذلك من الآيات .

(٣) في ط ، غ ، ب ، أ زيادة : له .

(٤) سبق تخريجه ص ١٤٦٢ .

(٥) في د ، ق : القلب .

وباطنه . فاستدامته لهذا العلم واليقين ، هي المراقبة . وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب[١] عليه ، ناظر إليه ، سامع لقوله[٢] مطلع علىٰ عمله[٣] كل وقت ، وكل لحظة[٤] . والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات . فكيف بحال المريدين؟ فكيف[٥] العارفين[٦]؟

قال الجريري - رحمه الله - : من لم يحكم بينه وبين[٧] الله التقوىٰ والمراقبة[٨] لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة[٩] .

وقيل : من راقب الله في خواطره ، عصمه في[١٠] جوارحه[١١] .

وقيل لبعضهم : متىٰ يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال : إذا علم أن عليه رقيباً[١٢] .

---

(١) «رقيب» ساقطة من غ ، ب ، أ وهي في هامش أ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : وهو .

(٣) في أ ، ب ، د : علمه .

(٤) في ط ، ح٢ ، م ، غ د ، ق زيادة : وكل نفس وكل طرفة عين .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : حال .

(٦) انظر : القشيرية ١٨٩ .

(٧) «وبين» ساقطة من غ ، ب ، أ ، وهي في هامشها .

(٨) في ق : وبالمراقبة .

(٩) انظر : القشيرية ١٨٩ .

(١٠) في ط والجميع سوى ش زيادة : حركات .

(١١) انظر : القشيرية ١٩٠ .

(١٢) نسب هذا القول إلى أبي الحسين بن هند . انظر : القشيرية ١٩٠ .

قال الجنيد(١) : من تحقق في المراقبة، خاف علىٰ فوت حظه(٢) من ربه لا غير(٣) .

وقال ذو النون - رحمه الله - : علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظم الله(٤) ، وتصغير ما صغر الله(٥) .

وقيل : الرجاء يحركك(٦) إلىٰ الطاعة ، والخوف يبعدك(٧) عن المعاصي ، والمراقبة تؤديك إلىٰ طريق الحقائق(٨) .

وقيل : المراقبة : مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة(٩) .

قال(١٠) الجريري : أمرنا هذا مبني علىٰ فصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله ويكون(١١) العلم علىٰ ظاهرك قائماً(١٢) .

---

(١) في ط : وقال الجنيد .

(٢) في ط والجميع سوى ش : لحظه .

(٣) انظر : القشيرية ١٩١ .

(٤) لفظة «الله» ساقطة من د .

(٥) انظر : القشيرية ١٩١ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : يحرك .

(٧) في ط والجميع سوى ش : يبعد .

(٨) ينسب هذا القول إلى إبراهيم النصر آباذي . انظر : القشيرية ١٩١ .

(٩) جاء في القشيرية ١٩١ سئل جعفر بن نصر عن المراقبة ، فقال : مراعاة السر لملاحظة الحق سبحانه مع كل خطرة .

(١٠) في ط : وقال .

(١١) في ط : وأن يكون .

(١٢) انظر : القشرية ١٩١ .

وقال إبراهيم الخواص [١] -رحمه الله- : المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل [٢] .

وقيل : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق : المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم [٣] .

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري رحمهما الله : إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ونفسك . ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك . والله يراقب باطنك [٤] .

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله [٥] في الخواطر : سبب لحفظه [٦] في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره [٧]، حفظه الله [٨] في حركاته [٩]

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص كان من أجل مشايخ الصوفية في وقته ، وهو من أقران الجنيد ، والنُّوري . له في السياحات والرياضات مقامات يطول شرحها كما يقول السلمي ، توفي سنة ٢٩١ . ترجمته في : طبقات الصوفية ٢٨٤ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٥ ، تاريخ بغداد ٦/ ٧ .

(٢) انظر : القشيرية ١٩١ .

(٣) نسب هذا القول إلى أبي عثمان المغربي . انظر : القشيرية ١٩٢ .

(٤) انظر : القشيرية ١٩٢ .

(٥) في م : مراقبته تعالى .

(٦) في ط والجميع سوى ش : حفظها .

(٧) في ش : سيره .

(٨) «الله» ساقطة من ش .

(٩) في ط والجميع سوى ش ، ق زيادة : في سره ، وفي ق : في حركاته وسره وعلانيته .

وعلانيته[١] .

و«المراقبة» هي التعبد باسمه «الرقيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير» فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبد بمقتضاها : حصلت له المراقبة .

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

درجات المراقبة

الدرجة الأولى

«المرَاقَبَةُ : دَوَامُ[٢] مُلاَحَظَةِ المقْصُودِ ، وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : مُرَاقَبَةُ الحَقِّ تَعَالَىٰ فِي السَّيرِ إِلَيهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ ، بَينَ تعظِيمِ مُذهِلٍ ، وَمُدَانَاةٍ حَامِلَةٍ ، وَسُرُورٍ بَاعِثٍ»[٣] .

فقوله : «دَوَامُ مُلاَحَظَةِ المقْصُودِ» أي: دوام حضور القلب معه .

وقوله : «بَينَ تَعظِيمِ مُذهِلٍ» وهو[٤] امتلاء القلب من عظمته[٥] ، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره ، وعن الالتفات إليه . فلا ينسىٰ هذا التعظيم عند حضور

---

(١) قال النبي ﷺ في وصيته لابن عمه عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - : «يا غلام إني أُعلِّمُك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك . . . » الحديث رواه أحمد ١/ ٢٩٣ ، والترمذي ٤/ ٦٦٧ في كتاب : صفة القيامة باب (٥٩) ح٢٥١٦ وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) انظر : المنازل ٢٩ .

(٣) «دوام» ساقطة من غ .

(٤) في ط : فهو .

(٥) في ط والجميع سوى ش : من عظمة الله عز وجل .

قلبه مع الله ، بل يستصحبه دائماً . فإن الحضور مع الله يوجب أُنساً ومحبة ، إن لم يقارنهما تعظيم ، أورثاه خروجا عن حق العبودية(١) ورعونة . فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب : كان سبباً(٢) للبعد عنه ، والسقوط من عينه .

فقد تضمن كلامه خمسة أمور : سير إلىٰ الله ، واستدامة للسير(٣) ، وحضور القلب معه ، وتعظيمه ، والذهول بعظمته عن غيره .

وأما قوله : «وَمُدَانَاةٍ حَامِلَةٍ» يريد(٤) دنوا وقربا حاملا علىٰ هذه الأمور الخمسة . وهذا الدنو يحمله علىٰ التعظيم الذي يذهله عن نفسه ، وعن غيره . فإنه كلما ازداد قربا من الحق ازداد تعظيماً له(٥) ، وذهولاً عن سواه(٦) ، وبعداً عن الخلق .

وأما «السُّرور الباعث» فهو الفرحة(٧) ، واللذة التي يجدها في تلك المداناة، فإن سرور القرب من الله(٨) وفرحه(٩) ، وقرة العين به ، لا يشبهه شيء من نعيم

---

(١) في ط : حدود العبودية ، و في : غ ، ب : من حد العبودية .

(٢) في ط والجميع سوى ش : فهو سبب .

(٣) في ح٢ ، أ ، غ ، ب ، م : واستدامة السير ، وفي ط : واستدامة هذا السير .

(٤) في ط : فيريد .

(٥) في ط : ازداد له تعظيماً .

(٦) في ش : عما سواه .

(٧) في ط ، ح٢ ، غ ، ب ، أ ، م : التعظيم .

(٨) في ط ، م ، ب ، أ ، غ : فإن سرور القلب بالله ، وفي ش : سرور القلب مع الله .

(٩) في ط زيادة : به .

الدنيا البتة ، وليس له نظير يقاس [١] به . وهو حال من أحوال أهل الجنة . حتىٰ قال بعض العارفين : إنه[٢] ليمر[٣] بي أوقات أقول فيها[٤] : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب[٥] .

ولا ريب أن هذا السرور ، يبعثه علىٰ دوام السير إلىٰ الله ، وبذل الجهد في طلبه ، وابتغاء مرضاته . ومن لم يجد هذا السرور ، ولا شيئاً منه ، فليتهم إيمانه وأعماله . فإن للإيمان حلاوة ، من لم يذقها فليرجع ، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان .

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ، ووجد حلاوته . فذكر الذوق والوجد ، وعلقه بالإيمان . فقال : **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً»** [٦] . وقال : **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما**

---

(١) في د ، ح٢ ، م : يقايس .

(٢) «إنه» ساقطة من ش .

(٣) في ط والجميع : لتمر .

(٤) «فيها» ساقطة من د ، ب ، أ ، ح٢ ، غ ، م ، ق .

(٥) انظر : السلوك لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٤٧ .

(٦) رواه مسلم ١/ ٦٢ في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، ح٣٤ ، وأحمد في مسنده ١/ ٢٠٨ ، والترمذي ٥/ ١٤ في كتاب الإيمان باب (١٠) ، ح٢٦٢٣ .

يكره أن يلقىٰ في النار»(١) .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً ، فاتهمه . فإن الرب تعالىٰ شكور . يعني أنه لابد أن يثيب العامل علىٰ عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه . وقوة وانشراح(٢) وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول . والقصد : أن السرور بالله وقربه وقرة العين به، تبعث علىٰ الازدياد من طاعته وتحث علىٰ السير إليه .

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : مُرَاقَبَةُ نَظَرِ الحَقِّ إِلَيكَ(٣) بِرَفْضِ المعَارَضَةِ ، بِالإِعْرَاضِ(٤) عَنِ الاعتِرَاضِ ، وَنَقْضِ رُعُونَةِ التَّعَرُّضِ»(٥) .

هذه مراقبة لمراقبة الله لك . فهي مراقبة لصفة(٦) خاصة معينة ، وهي توجب صيانة الباطن والظاهر . فصيانة الظاهر : بحفظ(٧) الحركات الظاهرة . وصيانة الباطن : بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة ، التي منها رفض معارضة

---

(١) رواه البخاري ١/ ٦٠ في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، ح١٦ ، ومسلم ١/ ٦٦ في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، ح٤٣ ، وأحمد في مسنده ٣/ ١٠٣ .

(٢) في ط وش : وقوة انشراح .

(٣) «إليك» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٤) في ح٢ ، د : بالاعتراض .

(٥) انظر : المنازل ٢٩ .

(٦) في ش : لطيفة .

(٧) في ش : تحفظ .

أمره [وخبره فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره][1] ، وإرادة[2] تعارض إرادته . ومن كل شبهة تعارض خبره[3] . ومن كل محبة تزاحم محبته . وهذا[4] حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتىٰ الله به[5][6] . وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين . وكل[7] تجريد سوىٰ هذا فناقص ، وهذا تجريد أرباب العزائم .

ثم بين الشيخ سبب المعارضة ، وبماذا يرفضها العبد . فقال : «بِالإِعرَاضِ[8] عَنِ الاعْتِرَاضِ» فإن المعارضة تتولد من الاعتراض .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ب ، أ ، وهو في هامش أ .

(٢) في ط : ومن كل إرادة .

(٣) أقسام الواردات على القلوب مرض شبهة ، ومرض شهوة .

قال ابن القيم : «وجماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين . ففيه من البينات والبراهين القطعية ما بُين الحق من الباطل ، فتزول أمراض الشبه ... وأما شفاؤه لمرض الشهوات ، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع الصبر والاستبصار . انظر : إغاثة اللهفان ١/ ٧٣-٧٥ .

(٤) في ط والجميع سوى ش : وهذه .

(٥) كما قال تعالى : ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

(٦) «به» ساقطة من د .

(٧) في ح٢ ، م : فكل .

(٨) في د : بالاعتراض .

الاعتراض ثلاثة أنواع

و«الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية[١] في الناس . والمعصوم من عصمه الله[٢] منها :

النوع الأول

النوع الأول : الاعتراض علىٰ أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة ، التي يسميها أربابها قواطع عقلية . وهي في الحقيقة خيالات جهلية ، ومحالات ذهنية[٣] اعترضوا بها علىٰ أسمائه عز وجل وصفاته . وحكموا بها عليه ، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه ، وأثبته[٤] له رسوله ﷺ ، وأثبتوا ما نفاه[٥] ووالوا بها أعداءه ، وعادوا بها أولياءه ، وحرفوا بها الكلم عن مواضعه . وتركوا لها[٦] نصيباً كثيراً مما ذُكّروا به[٧] ، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون .

---

(١) سارية في الناس : أي ماضية فيهم ، يقال: سرى يسري إذا مضى ، والسُّرَى : سير الليل كله أو عامته . انظر : لسان العرب ٦/ ٢٥٢ ، مادة : سرى .

(٢) «الله» ساقطة من ق .

(٣) كما هي شبه المعتزلة والأشاعرة التي ظنوها حججاً ، وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ، وجعل ذلك منهم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجحداً للعلوم الضروريات .. فهم من أهل المجهولات المشبهة بالمعقولات ، يسفسطون في العقليات ، ويقرمطون في السمعيات . انظر : التدمرية ص١٧-١٩ .

(٤) في ش : وأثبتها .

(٥) مما أثبته هؤلاء أسماء محدثة ، وصفات تنافي كماله كالسلوب والنفي المحض . انظر : التدمرية ١٥ .

(٦) في ط : ونسبوا بها و في ش ، ب : وتركوا بها .

(٧) في ق : بها .

والعاصم من هذا الاعتراض : التسليم المحض[1] للوحي[2] . فإذا سلم له القلب[3] : رأىٰ صحة ما جاء به[4] ، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة . فاجتمع له السمع والعقل والفطرة ، وهذا أكمل الإيمان ، ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته .

النوع الثاني : الاعتراض علىٰ شرعه وأمره ، وأهل هذا الاعتراض ، ثلاثة أنواع : النوع الثاني

أحدها : المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم ، المتضمنة تحليل ما حرمه الله[5] ، وتحريم ما أباحه[6] ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما أسقطه ، وإبطال ما صححه ، وتصحيح ما أبطله ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وتقييد ما أطلقه ، وإطلاق ما قيده .

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة علىٰ ذمها ، والتحذير منها . وصاحوا علىٰ أصحابها من أقطار الأرض . وحذروا عنهم[7][8] .

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : التسليم لمحض .

(٢) التسليم المحض : إشارة إلى عدم الاعتراض إذ تطلب العلل لما لم يكن له ، فيه نوع من التحكم والاعتراض .

(٣) في ط : فإذا سلم القلب له .

(٤) في ح٢ : ما جاؤوا به .

(٥) في ط ، أ ، ب ، أ ، ح٢ ، غ : ما حرم الله سبحانه وتعالى .

(٦) في ش : ما أباهه الله .

(٧) في ش : منهم ، وفي ط والباقي : وحذروا منهم ونفروا عنهم .

(٨) وهم : العقلانيون والمتكلمون ولقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في معرض

النوع الثاني[١] : الاعتراض علىٰ حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات ، والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذي شرعه علىٰ لسان رسوله ﷺ ، والتعوض[٢] عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان ، وحظوظ النفوس[٣][٤][٥] .

والعجب أن أربابها ينكرون علىٰ أهل الحظوظ . وكل ما هم فيه فحظ ، ولكن حظ[٦] تضمن مخالفة مراد الله ، والإعراض[٧] عن دينه ، واعتقاد أنه قربة إلىٰ الله . أين هذا من حظوظ أصحاب[٨] الشهوات، المعترفين بذمها[٩]

الرد على الطوائف التي انحرفت في باب الأسماء والصفات قائلاً : «فهذا اصطلاح اصطلحت عليه الفلاسفة المشاؤون ، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلاً على نفي الحقائق العقلية» إلى أن قال : «وتسمية ذلك تشبيهاً وتجسيماً تمويه على الجهال . . . وبهذه الطريقة أفسدت الملاحدة على طوائف من الناس عقولهم ودينهم حتى أخرجوهم إلى أعظم الكفر والجهالة ، وأبلغ الغي والضلال» . انظر : التدمرية ص٣٧-٤٠ .

(١) في غ : النوع الثالث وهو خطأ .

(٢) في د : التعويض .

(٣) في ش ، ح٢ ، م ، د : النفس .

(٤) في ط زيادة : الجاهلة .

(٥) وهذا مسلك الصوفية الغلاة .

(٦) في ط والجميع سوى ش : حظهم متضمن ، وفي ش : حظ تضمنه .

(٧) في د : والاعتراض .

(٨) في ش : أرباب .

(٩) في ش : بذنبها .

المستغفرين منها، المقرين بنقصهم وعيبهم، وأنها منافية للدين؟

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها دينا، وقدموها علىٰ شرع الله ودينه، واجتالوا[١] بها القلوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد، لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من كاده[٢].

النوع الثالث: الاعتراض علىٰ ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها علىٰ حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها[٣] شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل[٤].

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس: قدمنا القياس[٥].

---

(١) في ط، أ: واغتالوا.

(٢) في ط: من يكيد.

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة: وبها.

(٤) كالمعتزلة ومن وافقهم من الأشاعرة.

(٥) كأهل الكلام، ولقد ضل في هذا الباب خلق كثير ممن لم يؤتوا علماً. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن هذا الباب الشبه التي يضل بها بعض الناس، وهي ما يشتبه فيه الحق بالباطل... والقياس الفاسد إنما هو من باب الشبهات» إلى أن قال: «والقياس الفاسد لا ينضبط كما قال الإمام أحمد: أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس، فالتأويل في الأدلة السمعية والقياس في الأدلة العقلية». انظر: التدمرية ص١٠٦-١٠٧.

وقال أصحاب الذوق [١] : إذا تعارض الذوق والكشف والوجد ، وظاهر الشرع : قدمنا الذوق [٢] والكشف [٣] .

وقال أصحاب السياسة : إذا تعارضت السياسة والشرع ، قدمنا السياسة .

فجعلت [٤] كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه .

فهؤلاء يقولون : لكم النقل ، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب أخبار وآثار ، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار . وأولئك يقولون : أنتم أرباب الظاهر ، ونحن أهل الحقيقة [٥] . والآخرون يقولون : لكم الشرع ولنا السياسة . فيا لها [٦] من بلية ، عمت فأعمت ، ورزية رمت فأصمت ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون ، وأهوية عصفت ، فصمت منها الآذان ، وعميت منها العيون . عطلت لها - والله - معالم الأحكام ، كما نفيت لها [٧] صفات ذي الجلال والإكرام . واستند لأجلها [٨] كل قوم إلىٰ ظلم [٩] آرائهم ،

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : والوجد .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : الوجد .

(٣) كالصوفية الغلاة .

(٤) في د ، ق : وجعل .

(٥) في ط والجميع سوى ش : الحقائق .

(٦) «من» ساقطة من الأصل والجميع ، وما أثبته من ط .

(٧) «لها» ساقطة من غ .

(٨) «لأجلها» ساقطة من ط ، ب ، غ ، وفي د ، ق ، أ ، ح٢ : لها .

(٩) في ط زيادة : وظلمات .

وحكموا علىٰ الله وبين[1] عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم . وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل ، والدين وقفا[2] علىٰ كل إفساد وتبديل .

النوع الثالث

النوع الثالث[3] : **الاعتراض علىٰ أفعاله وقضائه وقدره** . وهذا اعتراض الجهال .

وهو ما بين جلي وخفي ، وهو أنواع لا تحصىٰ ، وهو سار في النفوس سريان الحمىٰ في بدن المحموم . ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لرأىٰ ذلك في قلبه عياناً . فكل نفس معترضة[4] علىٰ قدر الله وقسمه وأفعاله ، إلا نفساً قد اطمأنت إليه ، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها ، فتلك حظها التسليم والانقياد ، والرضا كل الرضاء[5] .

وأما «**نَقضُ رُعُونَةِ[6] التَّعَرُّضِ**» فيشير به إلىٰ معنىً آخر ، لا تتم المراقبة عنده إلا بنقضه ، وهو إحساس العبد بنفسه وخواطره وأفكاره حال المراقبة ،

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : بين .

(٢) في ح٢ ، م : واقفاً .

(٣) في ط ، ح٢ ، د ، ق : النوع الرابع وهو خطأ .

(٤) في د : متعرضة .

(٥) قال النبي ﷺ : «**قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه**» رواه مسلم ٢/ ٧٣٠ في كتاب الزكاة ، باب في الكفاف والقناعة ، ح١٠٥٤ ، وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٨ .

(٦) الرعونة : الحمق والاسترخاء ، والرعونة عند الصوفية : هي الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها .

انظر : مختار الصحاح ١٠٤ مادة: رعن ، ومعجم مصطلحات الصوفية ، ١٠٩ .

والحضور[١] مع الله . فإن ذلك تعرض منه ، لحجاب الحق له عن كمال الشهود[٢] ؛ لأن بقاء العبد مع مداركه[٣] ، وحواسه ومشاعره ، وأفكاره وخواطره، عند الحضور[٤] والمشاهدة[٥] : هو تعرض للحجاب ، . فينبغي أن تتخلص[٦] مراقبة[٧] نظر الحق إليك من هذه الآفات . وذلك يحصل بالاستغراق في الذكر، فتذهل به عن نفسك وعما منك[٨] ، لتكون بذلك

(١) في الأصل وش : الخضوع ولا يستقيم المعنى بها وما أثبته من ط وباقي النسخ .

(٢) الشهود : هو الحضور مع المشهود ، وهو بمعنى الإدراك وهو اجتماع الحواس الظاهرة ، والباطنة . والموجب لاتحادها ، نور من جناب المشهود محى ظلمة حجابها ، فيرى الحق بنوره ، ويعني كل ما سواه بظهوره ، وهو أيضاً : رؤية حظوظ النفس بالله لا بها .
انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٤٢ ، والتعرف ١٣٧ .

(٣) في ق ، ح٢ ، غ ، أ ، ب : تداركه .

(٤) الحضور : هو حضور القلب بالحق في تجلياته الذاتية والوصفية والفعلية عند غيبته بالحق عن الخلق ، أو بالخلق عن الخلق ، وهو ناتج عن صفاء اليقين ، فهو كالحاضر عنده ، وإن كان غائباً عنه قال النوري : إذا تغيبت بَدَا ، وإن بدا غيبني .
انظر : القشيرية ٦٩ ، ورشح الزلال ٧٨ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٧٨ .

(٥) المشاهدة : هي المعاينة ، وعند الصوفية هي المحاضرة والمواناة ، وقيل هي رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة ، وتطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، وتطلق بإزاء التوحيد ، وتطلق بإزاء رؤية الحق في الأشياء ، والمشاهدة حال تقتضي اليقين . انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٣٠٦ ، ومعجم مصطلحات الصوفية ٢٣٢ .

(٦) في ش : تخلص .

(٧) أي : مراقبة المراقبة كما سبق .

(٨) في ق : وعن مأمنك .

متهيئاً[1] . مستعدًّا للفناء عن وجودك ، وعن وجود كل ما سوىٰ المذكور سبحانه .

وهذا التهيؤ والاستعداد : لا يكون إلا[2] بنقض تلك الرعونة . والذكر يوجب الغيبة عن الحس . فمن كان ذاكراً لنظر الحق إليه من إقباله عليه ، ثم أحس[3] بشيء من حديث نفسه وخواطره وأفكاره : فقد تعرض واستدعىٰ عوالم نفسه ، واحتجاب المذكور عنه ؛ لأن حضرة الحق سبحانه[4] لا يكون فيها غيره .

وهذه الدرجة لا يقدر عليها العبد إلا بملكة قوية من الذكر ، وجمع القلب فيه بكليته علىٰ الله عز وجل .

فصل

الدرجة الثالثة قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مُرَاقَبَةُ الأَزَلِ[5] ، بِمُطَالَعَةِ عَيْنِ السَّبْقِ ، اسْتِقْبَالاً لِعَلَمِ التَّوحِيدِ، وَمُرَاقَبَةُ ظُهُورِ إِشَارَاتِ الأَزَلِ عَلَىٰ أَحَايِينِ الأَبَدِ[6]، وَمُرَاقَبَةُ الإِخْلَاصِ[7]

(١) في د : منتهياً .

(٢) «إلا» ساقطة من ق .

(٣) في ح٢ ، م : ثم حسن شيئاً ، وفي د : ثم حسن .

(٤) «حضرة الحق» كلمة محتملة يحسن أن يقال : استحضار عظمة الله .

(٥) الأزل : سبق ص١٢٨٢ .

(٦) الأبد : سبق ص١٢٨٢ .

(٧) في ش : الخلاص .

مِن وَرْطَةِ[١] المُرَاقَبَةِ»[٢] .

قوله : «مُرَاقَبَةُ الأَزَلِ» أي شهود معنىٰ الأزل ، وهو : القدم الذي لا أول له . «بمطالعة عين السبق» أي بشهود سبق الحق تعالىٰ لكل ما سواه . إذ هو الأول الذي ليس قبله شيء . فمتىٰ طالع القلب[٣] عين هذا السبق، شهد معنىٰ «الأزل» وعرف حقيقته ، فبدا له حينئذ علم التوحيد ، فاستقبله كما تستقبل[٤] أعلام البلد ، وأعلام الجيش . ورفع له فَشَمَّر [٥] إليه . وهو شهوده[٦] انفراد الحق بأزليته وحده ، وأنه كان ولم يكن شيء غيره البتة [٧] ، فكل[٨] ما سواه فكائن بعد عدمه[٩] . فإذا عدمت الكائنات من شهوده[١٠] كما كانت معدومة في الأزل .

---

(١) الورطة : الهلكة . يقال : أوْرَطَه في كذا أي: أوقعه فيما لا خلاص له منه . انظر : لسان العرب ١٥/ ٢٧١ مادة : (ورط) .

(٢) انظر : المنازل ٢٩ لكن قال : من ربطة وفي أحد نسخها : ورطة . كما هو في الهامش .

(٣) في ط والجميع سوى ش : العبد .

(٤) في ط والجميع : يستقبل .

(٥) شَمَّر ، التَّشْمير : الجدُّ والاجتهاد ، والإرسال . انظر : لسان العرب ٧/ ١٩٠ مادة : شمر .

(٦) في ط والجميع سوى ش : شهود .

(٧) كما في الحديث الصحيح : «كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ...» الحديث رواه البخاري ١٣/ ٤٠٣ في كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ، ح٧٤١٨ .

(٨) في ط ، د ، ب ، أ ، غ : وكل .

(٩) في الجميع سوى ش : فكائن بتكوينه ، وفي ط : فكائن بعد عدمه بتكوينه .

(١٠) إشارة إلى النوع الثاني من أنواع الفناء ، وهو الفناء عن شهود السوى وهو مذموم .

فطالع[1] عين السبق ، وفني بشهود من لم يزل عن شهود من لم يكن ، فقد استقبل علم التوحيد .

وأما «**مُرَاقَبَةُ ظُهُورِ إِشَارَاتِ الأَزَلِ عَلَىٰ أَحَايِينِ الأَبَدِ**» فقد تقدم أن ما يظهر في الأبد : هو عين ما كان معلوماً في الأزل ، وأنه إنما تجددت[2] أحايينه ، وهي أوقات ظهوره . فقد ظهرت إشارات الأزل ، وهي ما يشير إليه العقل بالأزلية من المقدرات[3] العلمية علىٰ أحايين الأبد . هذا معناه الصحيح عندي . والقوم يريدون به معنىٰ آخر : وهو اتصال الأبد بالأزل في الشهود . وذلك بأن يطوىٰ بساط الكائنات عن شهوده طياً كلياً . ويشهد استمرار وجود الحق سبحانه وحده ، مجردا عن كل ما سواه ، فيتصل[4] - بهذا الشهود - الأزل بالأبد . ويصيران شيئا واحداً ، وهو دوام وجوده سبحانه ، بقطع النظر عن كل حادث[5] .

---

(١) في ب ، غ ، أ : طالع ، وفي د ، ح٢ ، م ، ق : وطالع .

(٢) في الجميع سوى ش ، د ، ط : اتحدت .

(٣) في ش ، م : المقدورات .

(٤) في ط ، ب ، ح٢ ، أ : فيصل ، وفي م : ليصل .

(٥) هذا الكلام يشعر بالقول بوحدة الوجود ، وهو أن يرى وجود الله في كل شيء فما ثم إلا الله ، حيث تلاشى وجود كل شيء بوجوده .

والشهود الأول أكمل وأتم . وهو متعلق بأسمائه وصفاته ، وتقدم علمه بالأشياء ، ووقوعها في الأبد مطابقة لعلمه الأزلي . فهذا الشهود يعطي إيماناً ومعرفة ، وإثباتاً للعلم والقدرة ، والفعل والقضاء والقدر (١) .

وأما الشهود الثاني : فلا يعطي صاحبه معرفة ولا إيماناً ، ولا إثباتاً لاسم ولا صفة ، ولا عبودية نافعة . وهو أمر مشترك ، يشهده كل من أقر بالصانع ، من مسلم وكافر . فإذا استغرق في شهود أزليته ، وتفرده بالقدم ، وغاب عن الكائنات : اتصل في شهوده الأزل بالأبد ، فأي كبير أمر في هذا؟ وأي إيمان ويقين يحصل به؟ ونحن لا ننكر ذوقه (٢) ، ولا نقدح في وجوده . وإنما نقدح في مرتبته وتفضيله علىٰ ما قبله من المراقبة ، بحيث يكون لخاصة الخاصة (٣) . وما قبله لمن هم دونهم ، فهذا عين الوهم . والله الموفق .

فإذا اتصل في شهود الشاهد : الأزل الذي لا بداية له ، بالأزمنة التي تُعقل (٤) لها بداية -وهي أزمنة الحوادث - ثم اتصل ذلك بما لا نهاية له ، بحيث صارت الأزمنة الثلاثة واحداً . لا ماضي فيه ، ولا حاضر ، ولا مستقبل ، وذلك لا يكون إلا إذا شهد فناء الحوادث فناءً مطلقاً (٥) ، وعدمها عدما كليا . وذلك

---

(١) في ق : القدرة .

(٢) الذوق : سبق ص ١٢٢١ .

(٣) في ب ، أ ، غ : للخاصة .

(٤) في ط والجميع سوى ش ، د : يعقل .

(٥) وهذا هو الفناء عن وجود السوى وهو أقبح أنواع الفناء .

تقدير وهميٌّ مخالف للواقع . وهو تجريد خياليٌّ ، يوقعه[1] في بحر طامس لا ساحل له ، وليل دامس لا فجر له .

فأين هذا من مشهد تنوع الأسماء والصفات وتعلقها بأنواع الكائنات ، وارتباطها بجميع الحادثات وإعطاء كل اسم منها وكل[2] صفة حقها من الشهود والعبودية والنظر إلىٰ سريان آثارها في الخلق والأمر ، والعالم العلوي والسفلي ، والظاهر والباطن ، ودار الدنيا ودار الآخرة؟ وقيامه بالفرق[3] والجمع[4] في ذلك علماً ومعرفة وحالاً؟ والله المستعان .

قوله : « وَمُرَاقَبَةُ الإِخْلَاصِ[5] مِن وَرْطَةِ المُرَاقَبَةِ » .

يشير إلىٰ فناء شهود المراقب[6] نفسه وما منها[7] ، وأنه يفني بمن يراقبه عن نفسه وما منها . فإذا كان باقياً بشهود مراقبته: فهو في ورطتها لم يتخلص منها ؛ لأن شهود المراقبة لا يكون إلا مع بقائه[8] ، والمقصود : إنما هو الفناء

---

(١) في ط والجميع سوى ش : يوقع صاحبه .

(٢) «كل» ساقطة من ط والجميع سوى ش .

(٣) الفرق : سبق ص ١٢٢٠ .

(٤) الجمع : سبق ص ١٢٢٠ .

(٥) في ش : الخلاص .

(٦) في ط ، ب ، أ ، غ زيادة : من .

(٧) إشارة إلى رؤية العامل عمله وغفلته عن فضل الله عليه فيه ، وهو الذي أشار إليه بقوله : (مع بقائه) أي : بنفسه لا بربه .

(٨) في ش : بعد فائه .

والتخلص من نفسه ومن صفاتها وما منها .

وقد عرفت أن فوق هذا درجة أعلىٰ منها[1] ، وأرفع وأشرف . وهي مراقبة مواقع[2] رضىٰ الرب ، ومساخطه في كل حركة . والفناء عما يسخطه بما يحب ، والتفرق له وبه وفيه ، ناظراً إلىٰ عين جمع[3] العبودية ، فانياً عن مراده من ربه[4] - ولو علا[5] - بمراد ربه منه .

* * *

(١) في ط والجميع سوى ش : منه .

(٢) في د : مواضع .

(٣) في ش : عين الجمع .

(٤) إشارة إلى عدم التطلع إلى العوض والجزاء وهذا غير ممكن .

(٥) في ط : مهما علا .

فصل

منزلة تعظيم حرمات الله

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «تعظيم حرمات الله»[١].

تعريف الحرمات

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] قال جماعة من المفسرين - رحمهم الله -: «حرمات الله» هاهنا معاصيه[٢] وما نهىٰ عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها[٣]. قال الليث - رحمه الله-: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها[٤][٥]. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي[٦] وقال

---

(١) تعظيم الحرمات: التعظيم في اللغة: مصدر عظَّمَ، يُقَالُ: عَظَّم فلان الأمر تعظيماً بمعنى فَخَّمَه وكبَّره، وبَجَّلَه. انظر: لسان العرب ٩/ ٢٧٩، والمعجم الوسيط ٦١٠ مادة: (عظم).
والحرمات: في اللغة جمع حرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه. وهي مأخوذة من مادة: (حرم). التي هي المنع والشدة. انظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٨٥، ولسان العرب ٣/ ١٣٦ مادة: (حرم).
وتعظيم الحرمات عند الصوفية: يطلق ويراد به معرفة عظمة الحق مع التذلل لها، بحيث لا تعصيه في أمره، ولا تنازعه في قضائه.
فتعظيم العامة للحرمات: الوقوف عند المراسم، رغبة في الوعد، وهبة من الوعيد.
وهو للمتوسطين: حياءً من الله تعالى لا طلباً للمثوبة، ولا رهبة من العقوبة.
وهو للخاصة: أن يحفظهم الله في أوقات المشاهدة عن الخروج عن حد الأدب.
انظر: لطائف الإعلام ١/ ٣٣٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٩/ ١٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) في ط، أ، ب، غ: مغاضبه.

(٤) في د: انتهاء كلها، ولعله تصحيف.

(٥) انظر: تفسير البغوي ٣/ ٢٨٦.

(٦) انظر: تفسير القرطبي ١٢/ ٥٤.

الزجاج[1] : الحرمة ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه[2] . وقال قوم : الحرمات هاهنا المناسك ، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً[3] .

والصواب : أن «الحرمات» تعم هذا كله . وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه ، وحفظه : من الحقوق ، والأشخاص ، والأزمنة ، والأماكن . فتعظيمها : توفيتها حقها ، وحفظها من الإضاعة .

تعريف الهروي للحرمة

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

«الحُرمَةُ : هِيَ التَّحَرُّجُ عَن[4] المُخَالَفَاتِ وَالمجَاسَرَاتِ»[5] .

«التحرج» الخروج من حرج المخالفة[6] . وبناء تفعُّل يكون للدخول في الشيء[7] ، كتمنَّى إذا دخل في الأمنية ، وتولَّج في الأمر[8] ونحوه . وللخروج

---

(١) أبو إسحاق هو إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، الإمام ، نحوي زمانه ، له مؤلفات جمة ، وكان من ندماء المعتضد ، ومن أهل الأدب والفضل والدين ، توفي سنة ٣١١هـ .

انظر ترجمته في : السير ١٤/ ٣٦٠ ، بغية الوعاة ١/ ٤١١ .

(٢) انظر : معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٦ .

(٤) في ح٢ ، م : من .

(٥) انظر : المنازل ٣٠ .

(٦) «المخالفة» : ساقطة من ب ، غ ، أ ، وفي ش : المخالفات .

(٧) «في الشيء» ساقط من غ .

(٨) في ط زيادة : دخل فيه .

منه، كتحرج[١] وتحوب وتأثم . إذا أراد الخروج من الحرج ، والحوب[٢] والإثم[٣] .

أراد أن الحرمة هي الخروج من حرج المخالفة ، وجسارة الإقدام عليها .

ولما كان المخالف قسمين جاسرا وهائبا ، قال عن المخالفات والمجاسرات .

درجات الحرمة

قال[٤] : «وَهُوَ[٥] عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ :

الدرجة الأولى

الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : تَعظِيمُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ . لاَ خَوفاً مِن العُقُوبَةِ ، فَيَكُونُ[٦] خُصُومَةً لِلنَّفسِ . وَلاَ طَلَباً لِلْمَثُوبَةِ ، فَيَكُونُ مُستَشْرِفاً لِلأُجْرَةِ ، وَلاَ مُشَاهِداً لِأَحَدٍ ، فَيَكُونُ مُتَزَيِّناً بِالمرَاءَاةِ ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ[٧] الأَوصَافَ كُلَّهَا شُعَبٌ مِن عِبَادَةِ النَّفْسِ[٨]»[٩] .

---

(١) في أ ، ب ، غ : التحرج .

(٢) الحُوب : بضم الحاء هو : الإثم . قال تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾ [النساء : ٢] .

أما الحَوب بفتح الحاء وسكون الواو فهو : الوحشة والحاجة والمسكنة . انظر : المعجم الوسيط ، ٢٠٤ مادة : (حوب) .

(٣) في ط ، والجميع سوى ش ، ق : هو الإثم .

(٤) «قال» ساقطة من د ، ب ، أ ، غ .

(٥) في ط والجميع سوى ش ، ق : وهي .

(٦) في ط والجميع سوى ش : فتكون .

(٧) في ق : فهذه .

(٨) في ط ، أ ، ب : من شعب عبادة النفس .

(٩) انظر : المنازل ص٣٠ لكن قال : «ولا شاهداً للجد» ، وفي بعض نسخ المنازل : لأحد .

هذا الموضع يكثر في كلام القوم . والناس بين معظم له ولأصحابه ، معتقد أن هذا أرفع درجات العبودية : أن لا يعبد[1] الله ، ويقوم بأمره ونهيه ، خوفاً[2] من عقابه ، ولا طمعا في ثوابه .

فإن هذا[3] واقف[4] مع غرضه وحظ نفسه ، وأن المحبة تأبىٰ ذلك ، فإن المحب لا حظ له مع محبوبه . فوقوفُه مع حظِّه علةٌ في محبته ، وأن طمعه في الثواب : تطلع إلىٰ أنه يستحق بعمله علىٰ الله أجرة . ففي هذا آفتان : تطلعه إلىٰ الأجرة ، وإحسان ظنه بعمله . إذ[5] تطلعه إلىٰ استحقاق[6] الأجر[7] ، وخوفه من العقاب : خصومة للنفس ، فإنه لا يزال يخاصمها إذا خالفت[8] . ويقول : أما تخافين النار ، وعذابها ، وما أعد الله لأهلها؟ فلا تزال الخصومة بذلك بينه وبين نفسه .

---

(١) في ، أ ، ب ، غ : أن لا يعبد إلا الله .

(٢) في أ ، ب ، غ : لا خوفاً .

(٣) الإشارة هنا إلى من يعبد الله خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ، وهذا - عند بعض الصوفية والزهاد - واقف مع غرضه وحظ نفسه . وقد رد ابن القيم على قول الهروي : «الرجاء أضعف منازل المريدين» ص١٤٢٠ .

(٤) في أ ، ب : وقف .

(٥) في ق : إذا .

(٦) في ط : استحقاقه .

(٧) في ق زيادة : به .

(٨) في ش : خافته .

ومن وجه آخر أيضاً : وهو أنه كالمخاصم عن نفسه ، المدافع[1] عنها خصمه الذي يريد هلاكه . وهو عين الاهتمام بالنفس ، والالتفات إلىٰ حظوظها ، مخاصمة لها واستدعاء ما تلتذ به[2] .

ولا يخلصه من هذه المخاصمة ، وذلك الاستشراف : إلا تجريد القيام بالأمر والنهي من كل علة ، بل يقوم به تعظيماً[3] للآمر الناهي . وأنه أهل أن يعبد ، وتعظم حرماته[4] ولو لم يخلق جنة ولا ناراً ، [فهو يستحق العبادة[5] ، والتعظيم والإجلال لذاته ، كما في الأثر الإسرائيلي : «لو لم أخلق جنة ولا نارا ، أما كنت أهلاً أن أعبد»][6] .

ومنه قول القائل :

هب البعث لم تأتنا رسله ... وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحـ ... ـق علىٰ ذي الورىٰ الشكر للمنعم[7][8]

---

(١) في ط : الدافع .

(٢) في ط : مخاصمة عنها واستدعاء لما تلتذ به .

(٣) «تعظيماً» ساقط من ط .

(٤) «ولو لم يخلق جنة ولا ناراً» ساقطة من ط .

(٥) «العبادة» ساقطة من ح٢ ، م .

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، أ ، ب .

(٧) في أ ، ب ، غ جاء الشطر الثاني بلفظ : حياء العباد من المنعم .

(٨) ذكرهما الثعالبي في يتيمة الدهر ٥٢٧ ، ولم ينسبهما لأحد ، وذكر البطليوسي في شرحه لهذين البيتين قوله : وقد قال بعض المحدثين في نحو من هذا المعنى :

فالنفوس العليّة الزكية تعبده ، لأنه أهل أن يعبد ، ويُجَلَّ ويحب ويعظم . فهو لذاته مستحق للعبادة . قالوا(١) : ولا يكون العبد كأجير السوء ، إن أُعطي أجره عمل ، وإلا لم يعمل(٢) ، فهذا عبد الأجرة لا عبد المحبة والإرادة .

قالوا : والعمال شاخصون إلىٰ منزلتين : منزلة الأجرة(٣) ، ومنزلة(٤) القرب من المطاع .

تفسير «الزيادة» بالنظر إلى وجه الله

قال تعالىٰ في حق نبيه داود ﷺ : ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص : ٢٥] فالزلفىٰ(٥) منزلة القرب ، وحسن المآب : حسن الثواب والجزاء ، وقال تعالىٰ : ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦] ، فـ«الحسنىٰ» الجزاء ، و«الزيادة» منزلة(٦) القرب(٧) . ولهذا فُسرت بالنظر إلىٰ وجه الله عز وجل(٨)

هب البعث لم يأت نذر به وجاحمة النار لم تضرم
أليس بكاف لذي نهية حياء المسيء من المنعم

انظر : شرح المختار من لزوميات أبي العلاء المعري . القسم الأول ص٢٦٦ .

(١) «قالوا» ساقطة من ح٢ ، م ، ب ، أ ، غ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : وإن لم يعط لم يعمل .

(٣) في ط ، أ ، ب ، غ : الآخرة .

(٤) «ومنزلة» ساقطة من م .

(٥) في ش : والزلفى .

(٦) «منزلة» ساقطة من غ .

(٧) في د : القربة .

(٨) تفسير «الزيادة» : بالنظر إلى وجه الله تعالى هو الذي فسرها به رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، والتابعون لهم بإحسان ، فقد روى مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ

وهذان[1] هما اللذان[2] وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسىٰ ، فقالوا له : ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف : ١١٣ ، ١١٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة : ٧٢] .

قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وفي رواية أخرى عند مسلم وزاد : ثم تلا هذه الآية : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ . انظر : صحيح مسلم ١/ ١٦٣ ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ، ح١٨١ . وانظر : تفسير السلف لها بهذا في تفسير الطبري ٦/ ٥٤٩ ، والشريعة للآجري ص٢٥٧ ، والسنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ٢٥٦ ، والتوحيد لابن خزيمة ١/ ٤٤٤ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥١ .

قلت : وفسرت الزيادة كذلك بأنها تضعيف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقيل إنها المغفرة والرضوان ، وقيل : هي غرفة من لؤلؤة لها أربعة أبواب ، وقيل : هي ما أعطاهم الله في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة . انظر : تفسير الطبري ٦/ ٥٥٢ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥١ وتفسير القرطبي ٨/ ٣٣٠ . وقد أورد الشوكاني في تفسيره ٢/ ٤٤١ عدداً من الأحاديث والآثار التي تدل على أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم قال : وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات تفسر الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله ، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال .

(١) في ش : وهذا .

(٢) في ط : اللذان .

قالوا : والعارفون عملهم علىٰ المنزلة والدرجة ، والعمال عملهم علىٰ الثواب والأجرة (١) ، وشتان ما بينهما .

فصل

وطائفة ثانية تجعل (٢) هذا الكلام من شطحات القوم ورعوناتهم . وتحتج بأحوال الأنبياء والرسل (٣) والصديقين ، ودعائهم وسؤالهم (٤) ، والثناء عليهم (٥) بخوفهم من النار ، ورجائهم للجنة (٦) ، كما قال تعالىٰ في حق خواص عباده الذين عبدهم المشركون : إنهم : «يرجون رحمته ويخافون عذابه» (٧) - كما تقدم (٨)(٩) - وقال عن أنبيائه ورسله : ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾

(١) في أ ، ب : الآخرة .

(٢) في ق : تجُلّ .

(٣) «الرسل» ساقطة من غ ، أ ، ب ، وفي ش : المرسلين .

(٤) «وسؤالهم» ساقطة من غ ، ب ، أ .

(٥) «والثناء عليهم» ساقط من د .

(٦) في ح٢ : الجنة .

(٧) قال تعالى : ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ [الإسراء : ٥٧] .

(٨) «كما تقدم» ساقط من ش .

(٩) انظر : ص١٤١٤ (منزلة الرجاء) .

[الأنبياء: ٨٩-٩٠]، أي: رغباً فيما عندنا، ورهبا من عذابنا. والضمير في قوله: «إنهم» عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين(١).

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة والخوف من النار عندهم أجمعين(٢).

وذكر سبحانه عباده الذين هم خواصه(٣)، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦] وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار [فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه، وسيلة الإيمان أن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن(٤) العارفين أولي الألباب والفكر(٥): أنهم كانوا يسألونه(٦)

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٣/ ٢٦٧، وتفسير الشوكاني ٣/ ٤٢٥ وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى. انظر: تفسير الطبري ٩/ ٧٩، وتفسير الشوكاني ٣/ ٤٢٥.

(٢) وذكر بعض المفسرين معاني أخرى للرغب والرهب كالتضرع إلى الله في حال الرخاء وحال الشدة، وقيل: الرغب رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهب رفع ظهورها ... انظر: تفسير القرطبي ١١/ ٣٣٦.

(٣) في ط والجميع سوى ش: خواص خلقه.

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة: سادات.

(٥) «والفكر» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٦) في ح٢: يسألون.

جنته . ويتعوذون به من ناره][1] فقال تعالىٰ : ﴿[2] إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩٤] ، ولا خلاف أن الموعود به علىٰ لسان[3] رسله : الذين سألوه هو الجنة[4] .

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء : ٨٢-٨٧][5] ، فسأل الله الجنة واستعاذ به من خزي يوم البعث[6] .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ .

(٢) في ط والجميع سوى ش : الآيات لم تكمل .

(٣) في ط والجميع سوى ش : ألسنة .

(٤) في ط والجميع سوى ش : هي الجنة التي سألوها .

(٥) في ط والجميع سوى ش الآيات إلى قوله : ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ .

(٦) في ط والجميع سوى ش : من النار وهو الخزي يوم البعث .

وأخبر[١] سبحانه عن الجنة : أنها كانت[٢] وعداً عليه مسئولاً[٣] ، أي يسأله إياها عباده وأولياؤه .

وأمر النبي ﷺ أمته[٤] : أن يسألوا له في وقت الإجابة - عقيب الأذان- أعلىٰ منزلة في الجنة . وأخبرهم[٥] : أن من سألها له[٦] «حلت عليه شفاعته»[٧] .

---

(١) في ط : وأخبرنا .

(٢) في ش : أنه كان .

(٣) قال تعالى : ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً * لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً﴾ [الفرقان : ١٥ ، ١٦] .

(٤) «أمته» ناقصة من ق .

(٥) في ط والجميع سوى ش : وأخبر .

(٦) في م : حالت .

(٧) روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول . ثم صلوا عليَّ . فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة . فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل الوسيلة حلت له الشفاعة» .

انظر : صحيح مسلم ١/ ٢٨٨-٢٨٩ كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ، ح٣٨٤ ، ورواه البخاري ١/ ٩٤ في كتاب الأذان ، باب الدعاء عند النداء ، ح٦١٤عن جابر - رضي الله عنه - بلفظ : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة» .

ورواه أحمد في مسنده كذلك ٣/ ٣٥٤ .

وقال له سليم الأنصاري[1] : أمَا إني[2] أسأل الله الجنة وأعوذ به[3] من النار ، لا[4] أحسن دندنتك ولا دندنة[5] معاذ ، فقال : « أنا ومعاذ حولها ندندن»[6] .

وفي الصحيح - في[7] حديث الملائكة السيارة[8] الفُضّل عن كتاب الناس: «إن الله تعالىٰ يسألهم عن عباده[9] ، فيقولون[10] : أتيناك من عند عباد لك[11] يهللونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك . فيقول عز وجل : وهل رأوني؟ فيقولون : لا يا رب ، ما رأوك . فيقول عز وجل : فكيف[12] لو رأوني؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تمجيداً . قالوا : يا رب . ويسألونك جنتك .

---

(١) سليم بن الحارث بن ثعلبة السلمي الأنصاري شهد بدراً ، وهو الذي اشتكى معاذاً عند النبي ﷺ ، بأنه يطول عليهم الصلاة . قتل شهيداً يوم أحد .
ترجمته في : أسد الغابة ٢/ ٢٩١ ، والإصابة ٢/ ٧٢ .

(٢) في ق : أنا .

(٣) في ط والجميع سوى ش : وأستعيذه .

(٤) في غ ، أ : ولا .

(٥) في ش : ودندنة .

(٦) سبق تخريجه ص١٢٢٧ .

(٧) في ش : من .

(٨) «السيارة» ساقطة من م ، وفي ح٢ : السارة .

(٩) في ط ، غ ، أ ، ب زيادة : وهو أعلم تبارك وتعالى .

(١٠) «فيقولون» ساقطة من د .

(١١) في ح٢ ، م ، غ : عبادك .

(١٢) في ط والجميع سوى ش : كيف .

فيقول : هل رأوها؟ فيقولون : لا . وعزتك ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشد طلباً . قالوا : ويستعيذونك[1] من النار ، فيقول عز وجل : وهل رأوها؟ فيقولون : لا وعزتك ما رأوها فيقول : فكيف[2] لو رأوها؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها هرباً . فيقول أشهدكم أني[3] قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعذتهم مما استعاذوا منه»[4] .

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء علىٰ عباده وأوليائه بسؤاله[5] الجنة ورجائها ، والاستعاذة من النار ، والخوف منها .

قالوا[6] : وقد قال النبي ﷺ لأصحابه : «استعيذوا بالله من النار»[7] ، وقال لمن سأله مرافقته في الجنة : «أعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»[8] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : يستعيذون بك .

(٢) في ح٢ : وكيف .

(٣) في ط ، أ ، ب : إني أشهدكم .

(٤) رواه البخاري ١١/ ٢٠٨ -٢٠٩ في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل ، ح٦٤٠٨، ومسلم ٤/ ٢٠٦٩-٢٠٧٠ في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل مجالس الذكر ، ح٢٦٨٩ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٥١ .

(٥) في ط والجميع : بسؤال .

(٦) «قالوا» ساقطة من ش .

(٧) سبق تخريجه ص ١٤٤٣ .

(٨) رواه مسلم ١/ ٣٥٣ في كتاب الصلاة ، باب فضل السجود ، ح٤٨٩ ، وأحمد في مسنده ٤/ ٥٩ ، وأبو داود ٢/ ٧٨ في كتاب الصلاة ، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل ، ح١٣٢٠ ،

قالوا : والعمل علىٰ طلب الجنة والنجاة من النار مقصود للشارع[1] من أمته، ليكونا دائما علىٰ ذكر منهم فلا ينسونهما[2] ، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل علىٰ حصول الجنة والنجاة من النار: هو محض الإيمان[3].

قالوا : وقد حض النبي ﷺ عليها أصحابه وأمته ، بوصفها[4] . وجلّاها لهم ليخطبوها ، وقال : «**ألا مشمر للجنة؟ فإنها - ورب الكعبة - نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وزوجة حسناء ، وفاكهة نضيجة ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد**» الحديث - فقال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ : يا رسول الله : نحن المشمرون[5] لها ، فقال : «**قولوا : إن شاء الله**»[6] .

والنسائي ٢/ ٢٢٧-٢٢٨ في كتاب الافتتاح ، باب فضل السجود ، ١١٣٨ ، والسائل هو : ربيعة بن كعب السلمي رضي الله عنه .

(١) في ط والجميع سوى د : الشارع .

(٢) في ش : فلا ينسوهما وفي د : فلا ينسوها .

(٣) «هو محض الإيمان» ساقط من ش وهو في هامشها .

(٤) في ط والجميع سوى ش : فوصفها .

(٥) في د : مشمرون .

(٦) رواه ابن ماجه ٢/ ١٤٤٨ في كتاب الزهد ، باب صفة الجنة ، ح٤٣٣٢ ، وابن حبان في صحيحه ٩/ ٢٣٨ ح٧٣٣٧ ، والطبراني مختصراً في الكبير ١/ ١٦٢-١٦٣ ح٣٨٨ ، والبغوي في شرح السنة ١٥/ ٢٢٣ ح٤٣٨٦ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥١٤ ، قال البوصيري : إسناده فيه مقال ، والضحاك المعافري ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي عنه مجهول ، وسليمان بن موسى مختلف فيه ، وباقي رجال الإسناد ثقات . انظر : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٤/ ٢٦٥ ، وقال المنذري : الضحاك لم يخرج له من أصحاب الكتب الستة

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله : «**من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة**» تحريضا علىٰ عمله لأجلها[1] ، وأن تكون هي الباعثة علىٰ العمل ، لطال ذلك جدا ، وذلك في جميع الأعمال .

قالوا : فكيف يكون العمل لأجل الثواب ، وخوف العقاب معلولاً؟ ورسول الله ﷺ يحرض عليه ، ويقول : «**من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية**»[2] . و«**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[3] ،

غير ابن ماجه ولم أقف له على جرح ولا تعديل لغير ابن حبان ، بل هو في عداد المجهولين . انظر : الترغيب والترهيب ٤/ ٥١٥ والحديث ضعفه الألباني . انظر : الضعيفة ٧/ ٣٧٠ ح٣٣٥٨ .

(١) في ط والجميع سوى ش : لها .

(٢) ورد ذلك في أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**» .
انظر : صحيح مسلم ١/ ٥٧ ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، ح٢٨ . وما رواه مسلم كذلك عن عقبة بن عامر عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال : «**ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» انظر : صحيح مسلم ١/ ٢٠٩-٢١٠ ، كتاب الطهارة ، باب الذكر المستحب عقب الوضوء ، ح٢٣٤ ، وغير ذلك من الأحاديث .

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥١١ في كتاب الدعوات ، باب (٦٠) ، ح٣٤٦٤ بلفظ : «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده . . .**» وقال : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن

و «من كسا مسلما علىٰ عري كساه الله من حلل الجنة»[1]، و«عائد المريض في خرفة[2] الجنة»[3]. والحديث مملوء من ذلك؟ أفتراه يحرض الأمة[4] علىٰ

جابر، ورواه وابن حبان في صحيحه ٢/ ٩٦-٩٧ ح٨٣٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٨٠ ح١٨٤٧ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي لكن قال: على شرط البخاري. وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٢٢ وقال: رواه الترمذي وحسنه واللفظ له والنسائي إلا أنه قال: «غرست له شجرة في الجنة» وابن حبان في صحيحه، والحاكم في موضعين بإسنادين قال في أحدهما: على شرط مسلم وقال في الآخر على شرط البخاري، وذكره أيضاً عن عبدالله بن عمرو وقال: رواه البراز بإسناد جيد. والحديث صححه الألباني انظر: الصحيحة ١/ ٩٥ ح٦٤.

(١) رواه أبو داود ٢/ ٣١٤ في كتاب الزكاة، باب في فضل سقي الماء، ح١٦٨٢ بلفظ: «أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة...» ورواه الترمذي ٤/ ٦٣٣ في كتاب صفة القيامة، باب (١٨)، ح٢٤٤٩ بلفظ: «... وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عري كساه الله من خضر الجنة» وقال: حديث غريب وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوف، وهو أصح عندنا وأشبه.

ورواه أحمد ٣/ ١٣-١٤ كذلك عن أبي سعيد الخدري وقال: أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ، وذكره التبريزي في مشكاة المصابيح ١/ ٥٩٧، وضعف الألباني إسناده. وقال محققو المسند ١٧/ ١٦٧: إسناده ضعيف لضعف عطية بن سعد العوفي.

(٢) في د، ق: غرفة.

(٣) رواه مسلم ٤/ ١٩٨٩ في كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، ح٢٥٦٨، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٧٦، والترمذي ٣/ ٢٩٩ في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عيادة المريض، ح٩٦٧ وقال: حسن صحيح.

(٤) في ط والجميع سوى ش: المؤمنين.

مطلب معلول ناقص ، ويدع المطلب العالي البريء من شوائب العلل لا يحرضهم عليه؟

قالوا : وأيضا فإنه [١] سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته . ويستعيذوا به [٢] من ناره . فإنه يحب أن يسأل . ومن لم يسأله يغضب عليه [٣] . وأعظم ما سئل [٤] «الجنة» وأعظم ما استعيذ به منه «النار» [٥] .

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب ، مرضي له . وطلبها عبودية للرب ، والقيام بعبوديته كلها أولىٰ من تعطيل بعضها .

قالوا : وإذا خلا العامل [٦] ملاحظة الجنة والنار ، وطلب الجنة ورجائها [٧] فترت عزائمه ، وضعفت همته ، ووهىٰ باعثه . وكلما كان أشد طلباً للجنة ، وعملاً لها ، كان الباعث له أقوىٰ ، والهمة أشد ، والسعي أتم ، وهذا أمر معلوم بالذوق .

قالوا : ولو [٨] لم يكن هذا مطلوبا للشارع ، لما وصف الجنة للعباد ، وزينها

---

(١) في ط والجميع سوى ش : فالله .

(٢) في ش : ويستعيذونه وفي باقي النسخ : ويستعيذون به .

(٣) سبق تخريجه ص١٤٤٧ .

(٤) في م : سُئله .

(٥) في ط والجميع سوى د ، ق : من النار .

(٦) في ط والجميع سوى ش : خلال القلب من ، وفي ش : خلا العامل عن .

(٧) في ط والجميع سوى ش : ورجاء هذه والهرب من هذه .

(٨) في ش : لو .

لهم ، وعرضها عليهم ، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها ، وما عداه ، أخبرهم به مجملاً . كل هذا تشويقاً لهم إليها ، وحثاً لهم علىٰ السعي لها سعيها .

قالوا : وقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس : ٢٥] وهذا حث علىٰ إجابة هذه الدعوة ، والمبادرة إليها ، والمسارعة في الإجابة .

والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه ، والطعام والشراب ، والحور العين ، والأنهار والقصور ، وأكثر الناس يغلطون في مسمىٰ الجنة . فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل . ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلىٰ وجه الرب(١) الكريم ، وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه ورضوانه(٢) . فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور ، إلىٰ هذه اللذة أبداً . فأيسر يسير من رضوانه : أكبر من الجنان وما فيها من ذلك . كما قال تعالىٰ : ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة : ٧٢] ، وأتىٰ به منكراً في سياق الإثبات . أي(٣) : أي شيء كان من رضاه عن عبده : فهو أكبر من الجنة .

قليل منك يقنعني ولكن   قليلك لا يقال له قليل(٤)

---

(١) في ط والجميع سوى ش : الله .

(٢) في ط : وبرضوانه .

(٣) (أي) ساقطة من الجميع سوى ش ، د ، ط .

(٤) ذكره السبكي في طبقات الشافعية ٥/ ٩١ في ترجمة العز بن عبدالسلام .

وفي الحديث الصحيح - حديث الرؤية - : «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلىٰ وجهه»(١) . وفي حديث آخر : «أنه سبحانه إذا تجلىٰ

---

(١) رواه مسلم ١/ ٦٧ في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، ح١٨١، وأحمد في مسنده ٦/ ١٥-١٦، والترمذي ٤/ ٦٨٧ في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى، ح٢٥٥٢، وابن ماجه ١/ ٦٧ في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ح١٨٧ .

قلت : مذهب أهل السنة والجماعة إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة، كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، قال تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى : ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [المطففين : ١٥] لما حجب أعداءه فلم يروه، دل على أن أولياءه -وهم المؤمنون- يرونه . قال الشافعي -رحمه الله- : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه في الرضا، وقال تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ فالحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله عز وجل وغير ذلك من الآيات .

وأما الأحاديث : فقد بلغت حد التواتر . يقول الإمام الدارمي - رحمه الله - بعد أن ساق بضعة وعشرين حديثاً وأثراً : فهذه الأحاديث كلها وأكثر منها قد رويت في الرؤية . على تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه، والبصر من مشايخنا، ولم يزل المسلمون قديماً وحديثاً يروونها ويؤمنون بها، لايستنكرونها ولا ينكرونها . انظر : الرد على الجهمية للدارمي ص٦٣ .

وقال ابن أبي العز : وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . . وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها . انظر : شرح الطحاوية ص٢٠٩-٢١٠ فمن هذه الأحاديث :

١ - ما رواه البخاري عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «إنكم سترون =

= ربكم عياناً».

انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤١٩ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ح٧٤٣٥.

٢ - ومنها: ما رواه البخاري عن جرير أيضاً قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامُّون في رؤيته ...»

انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤١٩، كتاب التوحيد، باب قول الله عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، ح٧٤٣٤.

٣ - ومنها: ما رواه البخاري كذلك عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا يا رسول الله؟ قال: «فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك...» الحديث. انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤١٩، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، ح٣٤٣٧، ورواه مسلم كذلك ١/ ١٦٣ -١٦٤، في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، ح١٨٢ وغير ذلك من الأحاديث.

وقد أنكر رؤية الله عز وجل: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والرافضة. انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص٨٥، ومقالات الإسلاميين للأشعري، ص١٥٧ وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٢٣٢، ومنهاج السنة، ٣/ ٣٤٠، وشرح الطحاوية ص٢٠٤.

ولا شك أن قولهم باطل مخالف لنصوص الكتاب والسنة، وما أجمع عليه سلف الأمة، ولقد كفر السلف من أنكر الرؤية وردوا عليهم. روى الآجري عن الفضل بن زياد قال: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل وبلغه عن رجل أنه قال: إن الله عز وجل لا يُرى في الآخرة، فغضب غضباً شديداً ثم قال: من قال: إن الله عز وجل لا يُرى في الآخرة فقد كفر، عليه لعنة الله وغضبه، من كان من الناس ... انظر: كتاب التصديق بالنظر إلى وجه الله عز وجل ضمن =

لهم . ورأوا وجهه عياناً : نسوا ما هم فيه من النعيم ، وذهلوا عنه ، ولم يلتفتوا إليه »[١] . ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور[٢] في الخيال» . ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة ، فإن المرء مع من أحب . ولا تخصيص في هذا الحكم ، بل هو ثابت شاهداً وغائباً .

فأي نعيم ، وأي لذة ، وأي قرة عين ، وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها ، وقرة العين بها؟

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب ، الذي لا شيء أجَلَّ منه ، ولا أكمل ولا أجمل : قرة[٣] البتة؟

= كتاب الشريعة ص٢٥٤ ، وانظر : لهذه المسألة كتاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد ١/ ٢٢٩ ، والتوحيد لابن خزيمة ١/ ٤٣٧ ، والسنة لابن أبي عاصم ١/ ١٩٣ ، وشرح أصول السنة للالكائي ٢/ ٤٥٤ ، وكتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل للآجري ضمن كتاب الشريعة ص٢٥١ ، وحادي الأرواح لابن القيم ص٢٦٧ ، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٤١٩ ، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ٢٠٤ .

(١) لم أجد حديثاً بهذا اللفظ فيما وقفت عليه من مصادر ، لكن وجدته موقوفاً على الحسن رواه الآجري بسنده عن الحسن ، قال : إن الله عز وجل ليتجلى لأهل الجنة ، فإذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة» . انظر : كتاب التصديق بالنظر إلى وجه الله عز وجل ضمن كتاب الشريعة ص٢٥٣ . وقد عزاه ابن القيم في كتاب حادي الأرواح ص٣١١-٣١٢ إلى هشام ابن حسان، لا إلى الحسن . قال الدكتور عبدالله الدميجي - محقق كتاب الشريعة - إسناده ضعيف . انظر : كتاب الشريعة ٢/ ٩٨٢ .

(٢) في ح٢ ، م ، غ : ويدور .

(٣) في ط : قرة عين .

وهذا - والله - هو العلم الذي شمَّر إليه المحبون ، واللواء الذي أمه العارفون[1] ، وهو روح مسمىٰ «الجنة» وحياتها . وبه طابت الجنة ، وعليه قامت .

فكيف يقال : لا يعبد الله طلباً لجنته ، ولا خوفا من ناره؟

وكذلك «النار»[2] ، فإن ما لأربابها[3] من عذاب الحجاب عن الله وإهانته ، وغضبه وسخطه ، والبعد عنه : أعظم من [التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم][4] ؛ بل التهاب هذه النار في قلوبهم[5] : هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم ، ومنها سرت إليها[6] .

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين ، والشهداء والصالحين : هو الجنة ، وهربهم[7] : من النار . والله المستعان ، وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا به[8] ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومقصد القوم : أن العبد يعبد ربه بحق العبودية . والعبد إذا طلب من سيده

---

(١) في ط : العافون .

(٢) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : أعاذنا الله منها .

(٣) في ط والجميع سوى ش : فإن لأربابها .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من د ، وهو في هامشها .

(٥) «في قلوبهم» ساقط من غ ، أ ، ب .

(٦) في ب : إليهم .

(٧) في ط والجميع سوى ش : ومهربهم .

(٨) في ط والجميع سوى ش ، د : ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله .

أجرة علىٰ خدمته له كان أحمق ، ساقطاً من عين سيده ، إن لم يستوجب عقوبته . إذ عبوديته تقتضي خدمته له . وإنما يخدم بالأجرة من لا عبودية للمخدوم عليه . إما أن يكون حراً في نفسه ، أو عبدا لغيره . وأما من[١] الخلق عبيده حقاً[٢] ، وملكه علىٰ الحقيقة ، ليس فيهم حر ولا عبد لغيره : فخدمتهم له بحق العبودية . فاقتضاؤهم للأجرة خروج عن محض العبودية .

وهذا[٣] لا ينكر علىٰ الإطلاق ، ولا يقبل علىٰ الإطلاق ، وهو موضع تفصيل وتمييز .

وقد تقدم في أول الكتاب : ذكر طرق الخلق في هذا الموضع[٤] . وبينا طريقة[٥] أهل[٦] الاستقامة[٧] .

فالناس[٨] أربعة أقسام :

أحدهم : من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه ، فهؤلاء أعداؤه حقاً ، وهم أهل العذاب الدائم . وعدم إرادتهم لثوابه : إما لعدم تصديقهم به ، وإما لإيثار

---

(١) «مَنْ» ساقطة من د .

(٢) في ح٢ ، م : حقه .

(٣) في ق : وهكذا .

(٤) «الموضع» ساقطة من ش .

(٥) في ط والجميع سوى ش : طريق .

(٦) «أهل» ساقطة من ب ، وهي في هامشها .

(٧) انظر : ص٢١٤ ، ٢١٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : في هذا المقام .

العاجل عليه، ولو كان فيه سخطه.

والقسم الثاني: من يريده ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه. قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩]، فهذا خطابه(١) لخير نساء العالم(٢) أزواج نبيه. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة.

وأصرح من هذا(٣) قوله لخواص أوليائه - وهم أصحاب نبيه ﷺ في يوم أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فقسمهم إلىٰ هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله وثوابه، فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله.

والقسم الثالث: من يريد من الله، ولا يريد الله، فهذا ناقص غاية النقص. وهو حال الجاهل(٤) بربه، الذي سمع أن ثم(٥) جنة ونارًا. فليس في قلبه غير

---

(١) في ش: خطاب.

(٢) في ط: العالمين.

(٣) في ط والجميع سوى ش: منها، وفي ح٢: منه.

(٤) في غ: الجهل.

(٥) في د: ثمة.

إرادة نعيم الجنة المخلوقة[١] ، ولا يخطر[٢] بباله سواه البتة ؛ بل هذا حال أكثر المتكلمين ، المنكرين رؤية الله [والتلذذ بالنظر إلىٰ وجهه في الآخرة ، وسماع كلامه وحبه . والمنكرين علىٰ من يزعم أنه يحب الله ، وهم عبيد الأجرة المحضة ، فهؤلاء لا يريدون الله تعالىٰ][٣] .

ومنهم من يصرح بأن إرادة الله محال .

قالوا[٤] : لأن الإرادة إنما تتعلق بالحادث . فالقديم لا يراد . فهؤلاء منكرون لإرادة الله غاية الإنكار . وأعلىٰ الإرادة عندهم : إرادة الأكل والشرب والنكاح واللباس في الجنة ، وتوابع ذلك . فهؤلاء في شق ، وأولئك - الذين قالوا : لم نعبده طلبا لجنته ، ولا هربا من ناره - في شق . وهم[٥] طرفا نقيض ، بينهما أعظم من بعد المشرقين . وهؤلاء من أكثف[٦] الناس[٧] حجاباً ، وأغلظهم[٨] طباعاً ، وأقساهم قلوباً[٩] ، وأبعدهم عن روح المحبة والتأله ، ونعيم الأرواح

---

(١) في ط والجميع سوى ش : المخلوق .

(٢) في ط والجميع ش : لا يخطر .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من أ ، ب ، غ .

(٤) في غ ، ب ، أ ، د ، ق : قال .

(٥) في ط : وهما .

(٦) كَثُف الشيء كثافةً : غَلُظ وثَخُن ، وكَثُر . انظر : المعجم الوسيط ص٧٧٧ ، مادة : كثف .

(٧) «الناس» ساقطة من د .

(٨) في ق : وأغلظ .

(٩) في ش : وأقسى الناس قلوباً .

والقلوب . وهم يكفرون أصحاب المحبة ، والشوق إلىٰ الله ، والتلذذ بحبه ، والتصديق بلذة النظر إلىٰ وجهه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة .

وأولئك لا يعدونهم من البشر إلا بالصورة ، ومرتبتهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم . وهم عندهم في حجاب كثيف عن معرفة نفوسهم وكمالها ، ومعرفة معبودهم ، وسر عبوديته .

وحال الطائفتين عجب لمن اطلع عليه .

والقسم الرابع - وهو محال - : أن يريد الله ، ولا يريد منه . فهذا هو الذي يزعم هؤلاء : أنه[1] مطلوبهم ، وأن من لم يصل إليه ففي[2] سيره علة ، وأن العارف ينتهي إلىٰ هذا المقام :[3] أن يكون الله مراده ، ولا يريد منه شيئا ، كما يحكىٰ عن أبي يزيد - رضي الله عنه - أنه قال : قيل لي : ما تريد؟ فقلت : أريد ألا[4] أريد[5] .

وهذا في التحقيق عين المحال الممتنع : عقلاً وفطرة ، وحساً وشرعاً . فإن الإرادة من لوازم الحي . وإنما يعرض له التجرد عنها بالغيبة عن عقله وحسه ، كالسكر والإغماء والنوم . فنحن لا ننكر التجريد عن إرادة ما سواه من

---

(١) في ب ، غ : وأنه .

(٢) في ق : في .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وهو .

(٤) في : أن لا .

(٥) انظر : ص١١٩٣.

المخلوقات التي تزاحم إرادتها إرادته . أفليس(١) صاحب هذه الحال(٢) مريدًا لقربه(٣) ورضاه ، ودوام مراقبته ، والحضور معه؟ وأي إرادة فوق هذه؟

نعم : قد زهد في مراد لمراد(٤) أجلّ منه وأعلىٰ ، فما خرج(٥) عن الإرادة . وإنما انتقل من(٦) إرادة إلىٰ إرادة ، ومن مراد إلىٰ مراد . وأما خلوه عن(٧) صفة الإرادة بالكلية ، مع حضور عقله وحسه : فمحال . وإن حاكمنا في ذلك محاكم إلىٰ ذوق مصطلم(٨) مأخوذ عن نفسه ، فانٍ عن عوالمها : لم(٩) ننكر

---

(١) في ح٢ ، م ، غ : فليس .

(٢) في ط والجميع سوى ش : هذا المقام .

(٣) في ح٢ ، م : يريد القربة .

(٤) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : هو .

(٥) في ط ، ب ، غ ، أ : فلم يخرج .

(٦) في ش : عن .

(٧) في أ ، ب ، غ : من .

(٨) الاصطلام في اللغة : الاستئصال . يُقال صلمه صلماً : قطعه واستأصله . واصْطُلِم القوم : أبيدوا ، من الصلم وهو القطع . انظر : لسان العرب ٧/ ٣٩٥ ، والمعجم الوسيط ص٥٢١ مادة : (صلم) .

ومعناه عند الصوفية : هو نعت ولهٍ يرد على القلب ، فيسكن القلب تحت غلبته وسلطانه ، وهو قريب من الهيمان . وهو عندهم ولهٌ يسلب النفس والحس ، فهو بهذه الحالة ممحو الآثار ، لا تجري عليه أحكام التكليف .

انظر : لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٩ ، المعجم الصوفي ص٣٤ ، رشح الزلال ص١١٣ .

(٩) «لم» ساقطة من م .

ذلك ، لكن هذه حال عارضة غير دائمة ، ولا هي غايةٌ مطلوبة للسالكين ، ولا مقدورة للبشر ، ولا مأمور بها ، ولا هي[1] أعلىٰ المقامات ، فيؤمر باكتساب أسبابها . فهذا فصل الخطاب في هذا الموضع . والله أعلم .

فصل

قوله[2] : «وَلاَ مُشَاهِداً لِأَحَدٍ . فَيَكُونُ مُتَزَيِّناً بِالمُرَاءَاةِ» .

المشاهدة في العمل لغير الله نوعان

هذا فيه تفصيل أيضاً . وهو أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان :

مشاهدة تبعث عليه ، أو تقوي[3] باعثه . فهذه مراءاة خالصة أو مشوبة . كما أن المشاهدة القاطعة عنه أيضاً من الآفات والحجب .

ومشاهدة لا تبعث عليه ولا تعين الباعث ؛ بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها ، فهذه لا تدخله في التزين بالمراءاة . ولا سيما عند المصلحة الراجحة في هذه المشاهدة :

إما حفظاً له[4] ورعاية ، كمشاهدة مريض ، أو مشرف علىٰ هلكة يخاف وقوعه فيها ، أو مشاهدة عدو يخاف هجومه كصلاة الخوف عند المواجهة ، أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم منك ، فتكون محسناً إليه بالتعليم ، وإلىٰ نفسك بالإخلاص . أو قصدا منك للاقتداء ، وتعريف الجاهل .

---

(١) «هي» ساقطة من ش ، د .

(٢) في غ ، أ ، ب : قال .

(٣) في م : وتقوي .

(٤) «له» ساقطة من ط ، غ ، ب ، أ .

فهذا رياء محمود ، والله عند نية القلب وقصده .

فالرياء المذموم : أن يكون الباعث : قصد التعظيم والمدح ، والرغبة فيما عند من يرائيه[١] ، أو الرهبة[٢] منه . وأما ما ذكرنا - من قصد رعايته ، أو تعليمه ، أو إظهار السنة ، وملاحظة[٣] هجوم العدو . ونحو ذلك - : فليس في هذه المشاهدة[٤] رياء ؛ بل قد يتصدق العبد رياءً مثلاً وتكون صدقته فوق صدقة صاحب السر .

مثال ذلك : رجل مضرور سأل قوماً ما هو محتاج إليه ، فعلم رجل منهم : أنه إن أعطاه سراً ، حيث لا يراه أحد : لم يقتد به أحد ، ولم يحصل له سوىٰ تلك العطية ، وأنه[٥] إن أعطاه جهراً : اقتدي به واتبع ، وأنف الحاضرون من تفرده عنهم بالعطية ، فجهر له بالعطاء فكان[٦] الباعث له علىٰ الجهر : إرادة سعة العطاء عليه من الحاضرين ، فهذه مراءاة محمودة . حيث لم يكن الباعث عليها قصد التعظيم والثناء ، وصاحبها جدير بأن يحصل له مثل أجور أولئك المعطين[٧] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش : ترائية .

(٢) في م : أو لرهبة .

(٣) في أ ، ب ، غ : أو ملاحظة .

(٤) في م : المشاهد .

(٥) «وأنه» ساقطة من ش .

(٦) في ط والجميع : وكان .

(٧) يدل لذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبدالله أنه قال : أتى إلى النبي ﷺ قوم

قوله : «فَإِنَّ هَذِهِ الأَوصَافَ كُلَّهَا مِن شُعَبِ عِبَادَةِ النَّفْسِ» .

يعني أن الخائف مشتغل[1] بحفظ نفسه من العذاب . ففيه عبادة لنفسه . إذ هو متوجه إليها ، وطالب المثوبة [2] . متوجه إلىٰ طلب حظ نفسه ، وذلك شعبة من عبوديتها . والمشاهد للناس في عبادته ، فيه شعبة من عبودية نفسه ، إذ هو طالب لتعظيمهم ، وثنائهم ومدحهم . فهذه شعب[3] من شعب عبادة[4] النفس . والأصل الذي هذه الشعب فروعه ، هي النفس . فإذا ماتت بالمجاهدة ، والإقبال علىٰ الله ، والاشتغال به ، ودوام المراقبة له : ماتت هذه الشعب .

حفاة عراة ، فتمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة . فأمر بلالاً فأذن وأقام ، فصلى ثم خطب الناس وحثهم على الصدقة ، حتى قال : « ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادَتْ كفُّه تعجز عنها . بل قد عجزت قال : ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة . فقال رسول الله ﷺ : «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ...» الحديث .

انظر : صحيح مسلم ٢/ ٧٠٤-٧٠٥ ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، ح١٠١٧ ، والنسائي ٥/ ٧٥-٧٦ في كتاب الزكاة ، باب التحريض على الصدقة ، ح٢٥٥٤ .

(١) في ط ، ب ، غ ، أ : يشتغل .

(٢) في ش : التوبة .

(٣) في ش : شعبة .

(٤) في ط والجميع سوى ش : عبودية .

فلا جرم أن[١] بناء أمر هذه الطائفة علىٰ ترك[٢] النفس .

وقد علمت أن الخوف وطلب الثواب ، ليس من عبادة النفس في شيء .

نعم : التزين بالمراءاة عين عبادة النفس والناس[٣] . والكلام في أمر أرفع من هذا[٤] . فإن حال المرائي أخس ، ونفسه أسقط ، وهمته أدنىٰ من أن يدخل في شأن[٥] الصادقين[٦] .

فصل

قال[٧] : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : إِجْرَاءُ الخَبَرِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ أَن تَبْقَىٰ أَعْلَامُ تَوحِيدِ العَامَّةِ الخَبَرِيَّةِ عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا[٨]» . وَلاَ يَتَحَمَّلُ البَحْثَ عَنهَا تَعَسُّفاً . وَلاَ يَتكَلَّفُ لهَا تَأوِيلاً . وَلاَ يَتَجَاوَزُ ظَوَاهِرَهَا تمَثِيلاً . وِلاَ يَدَّعِي عَلَيهَا إِدْرَاكاً أَوْ تَوَهُّماً»[٩] . الدرجة الثانية

(١) «أن» ساقطة من الأصل وش وما أثبته من ط والجميع .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : عبادة .

(٣) «والناس» ساقطة من ط ، د .

(٤) في ق : هذه .

(٥) في م ، ح٢ : ثناء .

(٦) في ط والجميع سوى ش زيادة : ويذكر مع الصالحين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٧) في ط والجميع : قال صاحب المنازل .

(٨) في ح٢ ، م : ظاهرها .

(٩) انظر : المنازل ص٣٠ لكن قال : أن يبقي أعلام التوحيد لا يتحمل البحث عنها .

يشير الشيخ - رحمه الله - بذلك إلىٰ أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات ، بإجراء أخبارها علىٰ ظواهرها . وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلىٰ أذهان[1] العامة ، ولا يعني بالعامة الجهال ؛ بل عامة الأمة ، كما قال مالك - رحمه الله - وقد سئل عن : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] «كيف استوىٰ[2]»؟ فأطرق مالك . حتىٰ علاه الرحضاء[3] . ثم قال : الاستواء معلوم ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[4] .

فَرْق[5] بين المعنىٰ المعلوم من هذه اللفظة . وبين « الكيف » الذي لا يعقله البشر. وهذا الجواب من مالك - رحمه الله - شاف عام في جميع مسائل الصفات .

---

(١) في ش : أفهام .

(٢) «كيف استوى» ساقطة من م وهو في هامشها .

(٣) الرَّحْضُ : الغسل ، ورُحِضَ الرجل رحضاً : عرق حتى كأنه غسل جسده ، والرحضاء : عرق يغسل الجسد لكثرته ، أو : العرق من أثر الحُمَّى .

انظر : لسان العرب ٥/ ١٦٨ ، والمعجم الوسيط ص٣٣٤ مادة : رحض .

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٣٩٨ ، والأصفهاني في الحلية ٦/ ٣٢٥-٣٢٦ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٠-١٥١ بسندين ، وقد جود ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٠٦-٤٠٧ طريق ابن وهب حيث قال : وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبدالله بن وهب فذكره .

قلت : وروي هذا القول أيضاً عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، وربيعة - شيخ الإمام مالك - باختلاف يسير بينهما . انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٣٩٧ ، والأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ١٥١ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : ففرق .

فمن سأل عن قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] كيف يسمع ويرىٰ؟ أجيب بهذا الجواب بعينه . فقيل له : السمع والبصر معلوم ، والكيف غير معقول .

وكذلك من سأل عن العلم ، والحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والنزول ، والغضب ، والرضا ، والرحمة ، والضحك ، وغير ذلك . فمعانيها كلها مفهومة[1] ، وأما كيفيتها ، فغير معقولة ، إذ تعقل الكيف[2] ، فرع العلم[3] بكيفية الذات وكنهها . فإذا كان ذلك[4] غير معقول للبشر ، فكيف تعقل[5] لهم كيفية الصفات[6]؟

---

(١) في ش : معلومة .

(٢) في ط ، ق ، ح٢ : الكيفية .

(٣) في ب ، م ، د ، أ ، غ : إذ لا يُعقل فرع العلم .

(٤) «ذلك» ساقطة من ب .

(٥) في ط والجميع سوى ش : يعقل .

(٦) هذا هو مذهب السلف وهو إثبات نصوص الصفات وإمرارها كما جاءت بلا كيف ، قال الإمام الترمذي - رحمه الله- بعد ذكر أحاديث فيها إثبات صفات الله عز وجل : وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات . ونزول الرب تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا . قالوا : قد تثبت الروايات في هذا ، ويؤمن بها ولا يتوهم ، ولا يقال : كيف؟ هكذا روي عن مالك ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث : أمروها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

انظر : سنن الترمذي ٣/ ٤١-٤٢ ، كتاب الزكاة ، باب ما جاء في فضل الصدقة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : فقولهم - رضي الله عنهم - أمروها كما جاءت : ردّ

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن نصف[1] الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف[2] ولا تمثيل. بل تثبت[3] له الأسماء والصفات. وينفى[4] عنه مشابهة المخلوقات. فيكون إثباتك منزها عن التشبيه، ونفيك منزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطل، ومن شبهه[5] باستواء المخلوق على المخلوق[6] فهو ممثل[7]، ومن قال

على المعطلة وقولهم: بلا كيف، رد على الممثلة.

وأيضاً: فقولهم: أمروها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال: أمروا لفظها، مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة، وحينئذ فلا تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يقال حينئذ بلا كيف، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول.

انظر: الفتوى الحموية ضمن مجموع الفتاوى ٥/ ٣٩ و ٤١-٤٢.

(١) في ط والجميع سوى ش: يوصف.

(٢) التكييف: هو تعيين كنه الصفة، يقال: كيَّف الشيء، أي: جعل له كيفية معلومة. وكيفية الشيء: صفته وحاله. فالتكييف تعيين كنه الصفة وكيفيتها، وهذا مما استأثر الله به، فلا سبيل إلى الوصول إليه، إذْ الصفة تابعة للموصوف، فكما لا يعلم كيف هو إلا هو، فكذلك صفاته، فالصفات يحذى فيها حذو الذات. انظر: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية للرشيد ص٢٤.

(٣) في أ، ب، غ: يثبت.

(٤) في ط، ح٢، م: وتنفى.

(٥) في ح٢، غ: شبه.

(٦) «على المخلوق» ساقط من م، د.

(٧) في ق: متمثل.

هو[1] استواء ليس كمثله شيء ، فهو الموحد المنزه .

وهكذا الكلام في السمع ، والبصر ، والحياة ، والإرادة ، والعلم[2] ، والقدرة ، واليد ، والوجه ، والرضا ، والغضب ، والنزول والضحك ، وسائر ما وصف[3] به نفسه .

والمنحرفون في هذا الباب وقد[4] أشار الشيخ إليهم بقوله : «لاَ يَتَحَمَّلُ[5] البَحْثَ عَنهَا تَعَسُّفاً» أي: لا يتكلف التعسف عن البحث عن كيفياتها[6] .

و«التعسف» سلوك غير الطريق . يقال : ركب فلان التعاسيف في سيره ، إذا كان يسير يميناً وشمالاً ، حائراً[7] عن الطريق .

«وَلاَ يَتَكَلَّفُ لَهَا تَأوِيلاً» ، أراد[8] بالتأويل هاهنا : التأويل الاصطلاحي : وهو صرف اللفظ عن ظاهره عن[9] المعنىٰ الراجح إلىٰ المفهوم[10]

---

(١) «هو» ساقطة من ط .

(٢) «والعلم» ساقط من ط .

(٣) في ط زيادة : الله .

(٤) في ط والجميع سوى ق : قد .

(٥) في أ : يحتمل .

(٦) في ش : كيفيتها .

(٧) في ط والجميع : جائراً .

(٨) في ح٢ ، م : وأراد .

(٩) في ط : وعن .

(١٠) في ط ، د : المعنى .

المرجوح[1] .

وقد حكىٰ غير واحد من العلماء : إجماع السلف علىٰ تركه .

وممن حكاه البغوي[2] ، وأبو المعالي الجويني[3] في رسالته «النظامية»[4] ، بخلاف ما سلكه في «شامله» و «إرشاده»[5] . وممن حكاه : سعد بن علي

---

(١) هذا التأويل هو الذي قال به المتأخرون الذين خالفوا مذهب السلف ، وهو تأويل باطل ، وقد رد عليهم أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن مفهومه إلى غير مفهومه ، فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف ، اللهم إلا أنه إذا عُلم أن المتكلم أراد المعنى الذي يقال: إنه خلاف الظاهر جعلوه من التأويل الذي هو التفسير ، لكونه تفسيراً للكلام ، وبياناً لمراد المتكلم به ، أو جعلوه من النوع الآخر الذي هو الحقيقة الثابتة في نفس الأمر التي استأثر الله بعلمها لكونه مندرجاً في ذلك لا لكونه مخالفاً للظاهر .

وكان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله ، التي هي من نوع تحريف الكلم عن مواضعه ، فكانوا ينكرون التأويل الباطل الذي هو التفسير الباطل ، كما ننكر قول من فسر كلام المتكلم بخلاف مراده .

انظر : الصدفية ١/ ٢٩١ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٢/ ١٦٥ .

(٣) أبو المعالي عبدالملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين ، من أئمة أهل الكلام ، ولد في جوين - من نواحي نيسابور - سنة ٤١٩هـ ، وتوفي سنة ٤٧٨ هـ .

ترجمته في : ذيل تاريخ بغداد ١٦/ ٨٥ ، السير ١٨/ ٤٦٨ ، العبر ٢/ ٣٣٩ .

(٤) انظر : العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ص٣٢-٣٤ .

(٥) انظر : الشامل للجويني ١/ ٥٤٣-٥٧٠ ، والإرشاد ص٤٠-٤٢ و ١٥٥-١٦٤ .

الزنجاني[1].

وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لا يحصيهم إلا الله[2].

«وألا[3] يتجاوز[4] ظواهرها[5] [6] [تمثيلاً» أي: لا يمثلها بصفات المخلوقين. وفي قوله: «لا يَتَجَاوَزُ ظَوَاهِرَهَا»[7]] إشارة لطيفة. وهي[8] أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل، كما يظنه[9] المعطلة النفاة، وأن التمثيل تجاوز[10] لظواهرها

(١) أبو القاسم سعد بن علي بن محمد بن علي بن الحسين الزنجاني العالم العابد، الصوفي، جاور بمكة مدة، صار شيخ الحرم، وكان ثقة حافظاً زاهداً، توفي سنة ٤٧١هـ.

ترجمته في: السير ١٨/ ٣٨٥، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٧، شذرات الذهب ٣/ ٣٣٩.

(٢) أشار إلى عدد منهم الترمذي في سننه ٣/ ٤١-٤٢، في كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة ٥/ ٢٥١، وابن عبدالبر في التمهيد ٧/ ١٤٨-١٤٩، كما ذكر عدداً كبيراً منهم ونقل نصوصهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله. ومنها: الفتوى الحموية، وكذلك ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

(٣) في الجميع سوى ش، د: ولا.

(٤) في ح٢: يتجاوزه.

(٥) في ط والجميع سوى ش، د: ظاهرها.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من أ، ب، غ.

(٧) في ش: ظاهرها.

(٨) في ح٢، م: وهو.

(٩) في ط والجميع سوى ش: تظنه.

(١٠) في أ، ب، غ، ح٢، م: تجوُّز.

إلىٰ ما لا تقتضيه(١) ، كما أن تأويلها(٢) تكلّفٌ ، وحملٌ لها علىٰ ما لا تقتضيه(٣) ، فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلاً ، ولا تحتمل(٤) تأويلاً ، بل إجراء(٥) علىٰ ظاهرها(٦) بلا تأويل ولا تمثيل(٧) . فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل .

وأما قوله : « وَلاَ يَدَّعِي عَلَيهَا إِدرَاكاً » أي: لا يدعىٰ عليها استدراكاً ولا فهماً، ولا معنىٰ غير فهم العامة ، كما يدعيه أرباب الكلام الباطل ، المذموم بإجماع السلف(٨) .

وقوله : «وَلاَ تَوَهُّماً» أي : لا يعدل عن ظواهرها إلىٰ التوهم .

أنواع التوهم

و«التوهم» نوعان : توهم كيفية . لا يدل(٩) عليه ظواهرها ، أو توهم(١٠) معنىٰ

---

(١) في الجميع سوى ش ، ط : تقتضي .

(٢) في د : التأويل .

(٣) في ب : ما يقتضيه .

(٤) في الجميع سوى ط : لا تحمل .

(٥) في ش : إجراؤها .

(٦) في ط والجميع سوى ش ، ح٢ : ظواهرها .

(٧) كما قال تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى : ١١] .

(٨) ذكر اللالكائي آثاراً كثيرة عن السلف في ذم أهل الكلام .

انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٢٧ وما بعدها .

(٩) في ط والجميع سوى ش : لا تدل .

(١٠) في غ : وتوهم .

غير ما تقتضيه ظواهرها . وكلاهما[1] توهم باطل . وهما توهم تشبيه وتمثيل ، أو تحريف وتعطيل .

وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبين مرتبته من السنة ، ومقداره في العلم ، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه[2] الجهمية من التشبيه والتمثيل ، علىٰ عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك . كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب[3] ، والمعتزلة بأنهم نوابت حشوية[4] . وذلك

(١) في أ ، ب ، غ : فكلاهما .

(٢) في أ : من الجهمية .

(٣) النواصب أو الناصبة : قوم يتدينون ببغض عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، وقد خرج عليه الخوارج وناصبوه العداء ، كما في موقعة الجمل ، وصفين .
وسموا نواصب ؛ لأنهم نصبوا له أي: عادوه وأظهروا له الخلاف ، وبالجملة فكل من يؤذي أهل البيت بقول أو عمل فهو منهم .
انظر : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٣/ ١٥٤ ، وشرح الطحاوية ٥٤٩ .

(٤) هذه ألقاب يطلقها أهل البدع على أهل السنة والحديث تشويهاً وتنفيراً عن مذهب الحق . كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر: الفتاوى الكبرى ٥/ ١٤٩ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٤/ ١٤٨ .
والنوابت في اللغة : من نبت . والنابت من كل شيء الطري حين ينبت صغيراً ، والنوابت من الأحداث : الأغمار ، ويقال : إن بني فلان لنابتة شر .
انظر : لسان العرب ١٤/ ١٢ مادة : (نبت) .
والحشوية : الحشو من الكلام والناس : الفَضْلُ الذي لا يُعتمد عليه ، وحشوة الناس : رُذَالَتُهم . انظر : لسان العرب ٣/ ١٩٤ . مادة : (حشا) .

ميراث[1] من أعداء رسول الله ﷺ . في رميه ورمي أصحابه بأنهم صبأة[2] . قد ابتدعوا ديناً محدثاً . وميراث لأهل الحديث والسنة من نبيهم وأصحابه[3] ، بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة . وقدس الله روح الشافعي ، حيث يقول ، وقد نسب إلىٰ الرفض :

إن كان رفضاً حب آل محمــد فليشهد الثقلان أني رافضي[4]

ورضي الله عن شيخنا أبي العباس[5] بن تيمية حيث يقول :

---

(١) «ميراث» : ساقطة من ش .

(٢) الصابىء في اللغة : من خرج ومال من دِينٍ إلى دِينٍ آخر ، ولهذا كان المشركون يسمون النبي ﷺ ، ومن أسلم معه من أصحابه بهذا الاسم ؛ لأنهم خالفوا دين الآباء والأجداد . والصابئون سُمُّوا بذلك ؛ لأنهم فارقوا دين التوحيد وعبدوا النجوم وعظموها ، ولما بعث إبراهيم كان الناس على دين الصابئة .

وهم يقولون : إن مدبر العالم وخالقه هذه الكواكب السبعة والنجوم ، وهم أقدم من عباد الأصنام ؛ لأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها ، ولما أرادوا أن يعبدوها عند غروبها لم يكن لهم بد من أن يصوروا الكواكب صوراً ، فصنعوا أصناماً واشتغلوا بعبادتها ، فظهرت من هنا عبادة الأصنام .

انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ١٤٣ ، الملل والنحل ٢/ ٩٥ ، البرهان في عقائد أهل الأديان للسكسكي ٥٩ .

(٣) «وأصحابه» ساقطة من ش .

(٤) انظر : ديوان الشافعي ص٥٥ .

(٥) في الأصل ، ش ، ق ، ح٢ ، د : أبو عبدالله ، وما أثبته من ط وباقي النسخ ولم أقف على من كنى شيخ الإسلام بأبي عبدالله .

إن كان نصباً حب صحب محمد فليشهد الثقلان : أني ناصبي [١]

وعفا الله عن الثالث حيث[٢] يقول :

فإن كان تجسيما ثبوت صفاته وتنزيهها عن كل تأويل مفتـري

فإني بحمد الله ربي مجســم هلموا شهوداً واملئوا كل محضر[٣]

* * *

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٤٠ .

(٢) «حيث» ساقطة من د ، ق .

(٣) ذكر ابن القيم قريباً منها في مقدمة القصيدة النونية ص٧ ، ولم ينسبها لأحد .

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : صِيَانَةُ الانبِسَاطِ : أَن تَشُوبَهُ[1] جُرأَةٌ .

وَصِيَانَةُ السُّرُورِ : أَنْ يُدَاخِلَهُ أَمْنٌ .

وَصِيَانَةُ الشُّهُودِ : أَنْ يُعَارِضَهُ سَبَبٌ»[2] .

لما كانت هذه الدرجة عنده مختصة بأهل المشاهدة - والغالب عليهم الانبساط والسرور ، فإن صاحبها متعلق باسمه «الباسط» - حَذَّره[3] من شائبة الجرأة . وهي[4] ما يخرج به[5] عن أدب العبودية ، ويدخله في الشطح ، كشطح من قال «سبحاني»[6] ونحو ذلك من الشطحات المعروفة المخرجة عن أدب العبودية ، التي نهاية صاحبها : أن يعذر بزوال عقله ، وغلبة سكر الحال عليه . فلا بد من مقارنة التعظيم والإجلال ، لبسط المشاهدة ، وإلا وقع في الجرأة ولا بد ، فالمراقبة تصونه عن ذلك .

قوله : «وَصِيَانَةُ السُّرُورِ : أَنْ يُدَاخِلَهُ أَمْنٌ» .

---

(١) في ش : يشوبه .

(٢) انظر : المنازل ٣٠ .

(٣) أي : الهروي .

(٤) في ح٢ ، م : وهو .

(٥) في ط والجميع سوى ش : ما يخرجه .

(٦) ينسب مثل هذا القول لأبي يزيد البسطامي . انظر : اللمع ص٣٩٠ .

يعني: أن صاحب الانبساط والمشاهدة يداخله(١) سرور لا يشبهه سرور البتة. فينبغي له(٢) أن لا يأمن في هذه(٣) الحال المكر، بل يصون سروره وفرحه(٤) بخوف العاقبة، المطوي عنه(٥) علم غيبها، ولا يغتر(٦).

وأما «وَصِيَانَةُ الشُّهُودِ: [أَنْ يُعَارِضَهُ سَبَبٌ» يريد(٧): أن صاحب](٨) الشهود؛ قد يكون ضعيفا في شهود حقيقة التوحيد، فيتوهم أنه قد حصل له ما حصل بسبب الاجتهاد التام، والعبادة الخاصة(٩). فينسب حصول ما حصل له من الشهود إلىٰ سبب منه، وذلك نقص في توحيده ومعرفته؛ لأن الشهود لا يكون إلا موهبة، ليس كسبيًا ولو كان(١٠) كسبيًا، فشهود سببه نقص في التوحيد، وغيبة عن شهود الحقيقة.

---

(١) في د: يدخله.

(٢) «له» ساقطة من ش.

(٣) في ط والجميع سوى ش: هذا.

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة: عن خطفات المكر.

(٥) في أ، ب: عنها.

(٦) «ولا يغتر» ساقطة من: م.

(٧) في ط: فيريد.

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من م وهو في هامشها.

(٩) في ط والجميع سوى ش: الخالصة.

(١٠) في ط والجميع زيادة: هو.

ويحتمل أن يريد بالسبب(١) المعارض(٢) للشهود: ورود خاطر علىٰ الشاهد، يكدر عليه صفو(٣) شهوده ، فيصونه عن ورود سبب يعارضه : إما معارض إرادة، وإما معارض(٤) شبهة ، وقد يعم كلامه الأمرين . والله أعلم .

* * *

(١) في ح٢ ، م : السبب .

(٢) في ح٢ : العارض .

(٣) في د : صفوة .

(٤) في ط ، ب ، غ ، أ : أو معارض .

فصل

منزلة الإخلاص

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : الإخلاص»[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر ٢ ، ٣] ، وقال[2] : ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر : ١٤ ، ١٥] ، وقال له :[3] ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ

---

(١) الإخلاص لغة : مصدر أَخْلَص يُخْلص ، وهو مأخوذ من مادة: (خَلَصَ) التي تدل على تنقية الشيء وتهذيبه ، والإخلاص لله في الطاعة : ترك الرياء .

انظر : معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٧٣ ، ولسان العرب ٤/ ١٧٣ مادة : (خلص) .

وفي الاصطلاح : هو تصفية العمل بصالح النية عن جمع شوائب الشرك .

انظر : معارج القبول للحكمي ١/ ٣٨٢ .

وعند الصوفية : هو تصفية كل عمل قلبي أو قالبي من كل شوب ، بحيث يكون العمل لله وحده ، من غير تزين للناس ، أو طلب محمدة أو جاه وحرمة ، وهذا إخلاص العوام .

ثم إخلاص الخواص فهو : إخراج رؤية العمل من العمل ، فلا تفتخر به ، ولا تعتقد أنك تستحق ثواباً عليه ، ولا تراه لائقاً بجناب العزيز تعالى ، بل هو منة وهبة منه لك ، وبهذا خلاص من طلب الأعواض .

ثم إخلاص خاصة الخاصة هو: الخلاص من رؤية الإخلاص، إذ هي علة تحتاج إلى خلاص منها . انظر : لطائف الإعلام ١/ ١٧٨ ـ ١٨٠ ، والتعرف ١١٧ ، المعجم الصوفي ١٦ .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : لنبيه ﷺ .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : له .

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفضيل ابن عياض - رضي الله عنه -: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صوابا: لم يقبل وإذا[1] كان صوابا ولم يكن خالصا: لم يقبل، حتى يكون خالصا[2] صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة[3].

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجه لله تعالى[4]: إخلاص القصد والعمل له[5]. والإحسان فيه[6]: متابعة رسوله[7] وسنته، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله. وقال[8]

(١) في ب: وإن.

(٢) «خالصا» ساقطة من د.

(٣) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩، وجامع العلوم والحكم ١/ ٧٢.

(٤) «لله تعالى» ساقطة من ط والجميع سوى ش.

(٥) في ط، أ، ب، غ: لله.

(٦) في ش: منه.

(٧) في ح٢، م: رسول الله.

(٨) في ط والجميع سوى ش، د: قال.

النبي[١] ﷺ لسعد[٢][٣] : «إنك لن تخلف، فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به[٤] درجة ورفعة»[٥] .

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاث لا يغل[٦] عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[٧] .

---

(١) «النبي» ساقطة من م، ح٢ .

(٢) في ط : لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٣) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي - أبو إسحاق بن أبي وقاص -، أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتاً، كان كثير الرواية مجاب الدعوة، وهو أول من رمى السهم في سبيل الله، توفي رضي الله عنه سنة ٥٦ هـ . ترجمته في : حلية الأولياء ١/ ٩٢، السير ١/ ٩٢، الإصابة ٢/ ٣٠ .

(٤) في ط، أ، د، ق زيادة : خيراً .

(٥) رواه البخاري ٣/ ١٦٤ في كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، ح ١٢٩٥ بلفظ: «تعمل عملاً صالحاً» رواه مسلم ٣/ ١٢٥٠-١٢٥١ في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ح ١٦٢٨، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٦ .

(٦) الغِلُّ بالكسر، والغليل : الغش والعداوة والضِّغْنُ، والحقد والحسد.

انظر : لسان العرب ١٠/ ١٠٦ مادة : (غلل) .

(٧) جزء من حديث رواه أحمد في مسنده ٤/ ٨٠ و ٥ / ١٨٣، والترمذي ٥/ ٣٤ - ٣٥ في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ح ٢٦٥٨، وابن ماجه ١/ ٨٤ في المقدمة باب من بلغ علماً، ح ٢٣٠، وابن حبان في صحيحه ١/ ١٤٣ ح ٦٧ و ٢/ ٣٥ ح ٦٧٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦، والطبراني في الكبير ٧/ ٣٥٩، وابن عبد البر في

أي: لا يبقىٰ فيه غل ، لا يحمل (١) الغل مع هذه الثلاثة ؛ بل ينفي (٢) عنه غله (٣) ويخرجه . فإن القلب يغل علىٰ الشرك أعظم غل . وكذلك يغل علىٰ الغش ، وعلىٰ خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة . فهذه الثلاثة تملؤه (٤) غِلاً ودغلاً (٥). ودواء هذا الغل ، واستفراغ (٦) أخلاطه ، بتجريد الإخلاص والنصح ، ومتابعة السنة .

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل : يقاتل رياء ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل

جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٠-٤٢ ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٠٩ وقال: رواه أحمد وابن ماجه والطبراني في الكبير مختصراً ومطولاً ، ورووه كلهم عن محمد بن إسحاق عن عبد السلام عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري وإسناده حسن . وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ١٣٩ ، وقال : رواه ابن ماجه باختصار ، ورواه الطبراني في الكبير ، وأحمد وفي إسناده ابن إسحاق عن الزهري وهو مدلس وله طريق عن صالح عن الزهري ورجالها موثوقون ، وصححه الألباني . انظر : الصحيحة ١/ ١٤٥ .

(١) في ق : ولا عمل إلا الغل .

(٢) في ط والجميع سوى ش : تنفي .

(٣) في ط والجميع سوى ش زيادة : وتنقيه منه وتخرجه عنه ، وفي ط : وتخرجه منه .

(٤) «تملؤه» ساقطة من د ، وفي م : تملأ القلب .

(٥) الدَّغَلُ بالتحريك : الفساد ، مثل الدَّخَل . والدَّغَل : دَخَلٌ في الأمرِ مفسد ، يقال : أدغل الأمر ، وفيه : أفسده ، أو أدخل فيه ما يفسده ويخالفه ، وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه . انظر : لسان العرب ٤/ ٣٦٥ ، والمعجم الوسيط ٢٢٨ مادة : دغل .

(٦) في ط ، أ ، ب ، د ، م ، غ ، ح٢ : واستخراج .

حمية : فأي[1] ذلك في سبيل الله؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2] .

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارئ القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين[3] فعلوا ذلك ليقال : فلان قارئ[4] ، وشجاع ، ومتصدق ، لم تكن أعمالهم لله[5] .

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله عز وجل : «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء»[6] .

---

(١) في ب ، غ : أي .

(٢) رواه البخاري ٦/ ٢٧ ـ ٢٨ في كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ح ٢٨١٠ ، ومسلم ٣/ ١٥١٢ ـ ١٥١٣ في كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، ح ١٩٠٤ ، وأحمد في مسنده ٤/ ٣٩٧ .

(٣) في د ، ق : الذي .

(٤) في ط والجميع سوى ش : فلان شجاع وفلان متصدق .

(٥) رواه مسلم ٣/ ١٥١٣ ـ ١٥١٤ في كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار : ح ١٩٠٥ ، والترمذي ٤/ ٥٩١ ـ ٥٩٣ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الرياء والسمعة ، ح ٢٣٨٢ ، والنسائي في سننه ٦/ ٢٣-٢٤ في كتاب الجهاد ، باب من قاتل ليقال : فلان جريء، ح ٣١٣٧ .

(٦) رواه مسلم ٤/ ٢٢٨٩ في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله ، ح ٢٩٨٥ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٠٤ ، وابن ماجه ٢/ ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ في كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة ، ح ٤٢٠٢ .

وفي أثر آخر : يقول له يوم القيامة : «اذهب فخذ أجرك ممن عملت له . لا أجر لك عندنا»(١) .

وفي الصحيح عنه : «إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن (٢) ينظر إلىٰ قلوبكم» (٣) . وقال تعالىٰ : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] . وفي أثر مروي إلهي : «الإخلاص سر من سري، استودعته قلب من أحببته من عبادي» (٤) .

---

(١) جاء بمعناه عند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٦ عن أبي سعيد بن أبي فضالة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ ، من كان أشرك في عمل عمله لله تبارك وتعالى أحداً ، فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل ، فإن الله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك » ورواه الترمذي ٥/ ٣١٤ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة الكهف ، ح ٣١٥٤ ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر ، ورواه ابن ماجه ٢/ ١٤٠٦ في كتاب الزهد ، باب (الرياء والسمعة) ، ح ٤٢٠٣ ، وابن حبان في صحيحه ١/ ٣١٠ ـ ٣١١ ، ح ٤٠٥ ، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٣٠٧ ، ح ٧٧٨ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٣٠ ، ح ٦٨١٧ . وحسنه الألباني . انظر : صحيح الترغيب ص ١٨ ، ح ٣٠ ، وقال محققو المسند ٢٥/ ١٦١ صحيح لغيره ، وهذا إسناد حسن .

(٢) في د : وإنما .

(٣) رواه مسلم ٤/ ١٩٨٦ - ١٩٨٧ في كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ... ، ح ٢٥٦٤ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، وابن ماجه ٢/ ١٣٨٨ في كتاب الزهد ، باب القناعة ، ح ٤١٤٣ .

(٤) ذكره القشيري في الرسالة ٢٠٨ ، والغزالي في الإحياء ٤/ ٤٩٧ عن الحسن . قال العراقي : حديث الحسن مرسل رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من

تعريف الإخلاص

وقد تنوعت عبارتهم في «الإخلاص[1]» والقصد واحد .

فقيل : هو إفراد الحق[2] سبحانه بالقصد في الطاعة[3] .

وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين[4] .

وقيل : التوقي من[5] ملاحظة الخلق[6] و «الصدق» التنقي[7] من مطالعة النفس . فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له[8] . ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ، ولا الصدق إلا بالإخلاص ، ولا يَتِمَّان إلا بالصبر .

وقيل : من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه[9] إلىٰ إخلاص[10].

رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص ، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة ، عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء ، وعبد الواحد كلاهما متروك ، وهما من الزهاد ، ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف . انظر : المغني عن حمل الأسفار بهامش الإحياء ٤/ ٤٩٧ ، وضعفه الألباني : ضعيف . انظر : الضعيفة ٢/ ٩٢ ح ٦٣٠ .

(١) في ط ، د : زيادة والصدق .

(٢) في ق : الخالق .

(٣) انظر : القشيرية ٢٠٧ .

(٤) القشيرية ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٥) في أ ، غ : عن .

(٦) في ط والجميع سوى ش زيادة : حتى عن نفسك .

(٧) في ش المتنفي .

(٨) ينسب لأبي علي الدقاق . انظر : القشيرية ٢٠٨ .

(٩) في ق : إخلاص .

(١٠) ينسب لأبي يعقوب السوسي . انظر : القشيرية ٢٠٨ .

فنقصان كل مخلص في إخلاصه :[1] رؤية إخلاصه . فإذا سقط[2] عن نفسه رؤية إخلاصه[3] ، صار مخلِصاً مخْلَصاً .

وقيل : الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن [4] . والرياء : أن يكون ظاهره خيراً من باطنه . والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره .

وقيل : الإخلاص نسيان رؤية الخلق [بدوام النظر إلىٰ الخالق][5][6] . ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله[7] .

ومن كلام الفضيل ـ رحمه الله ـ : ترك العمل من أجل الناس : رياء . والعمل من أجل الناس : شرك . والإخلاص : أن يعافيك الله منهما [8] .

وقال[9] الجنيد ـ رضي الله عنه ـ : الإخلاص[10] سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوىً فيميله[11] .

---

(١) في ط والجميع سوى ش زيادة : بقدر .

(٢) في ق : أسقط .

(٣) في ط والجميع سوى ش : الإخلاص .

(٤) ينسب لحذيفة المرعشي . انظر : القشيرية ٢٠٩ .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من غ ، ب ، أ .

(٦) ينسب لأبي عثمان الحيري . انظر : القشيرية ٢٠٩ .

(٧) هذا الكلام ينسب للسري السقطي . انظر : القشيرية ٢٠٩ .

(٨) انظر : القشيرية ٢٠٩ ، والبداية والنهاية ١٠/ ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٩) في ط : قال .

(١٠) «الإخلاص» ساقطة من م .

(١١) انظر : القشيرية ٢٠٩ .

وقيل لسهل : أي شيء أشد علىٰ النفس؟ فقال : الإخلاص ؛ لأنه ليس لها فيه نصيب[١] .

وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب علىٰ عملك شاهداً غير الله ، ولا مجازياً سواه[٢] .

وقال مكحول[٣] : ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قبله علىٰ لسانه[٤] .

وقال يوسف بن الحسين[٥] : أعز شيء في الدنيا : الإخلاص . وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي ، فكأنه ينبت[٦] علىٰ[٧] لون آخر[٨] .

---

(١) المرجع السابق ٢٠٩ .

(٢) في القشيرية ٢٠٩ وسئل بعضهم عن الإخلاص فقال : أن لا تشهد على عملك غير الله عز وجل .

(٣) أبوعبدالله مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل الهذلي بالولاء، أصله من فارس، التابعي ، المحدث ، فقيه الشام في عصره ، توفي سنة ١١٢ هـ . ترجمته في: التاريخ الكبير ٨/ ٢١ ، حلية الأولياء ٥/ ١٧٧ ، السير ٥/ ١٥٥ .

(٤) انظر : القشيرية ٢١٠ .

(٥) أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي شيخ الري والجبل في وقته ، زاهد صوفي ، صحب ذا النون المصري ، اتهم بالزندقة ، توفي سنة ٣٠٤ . ترجمته في : طبقات الصوفية ١٨٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٨ ، والبداية والنهاية ١١/ ١٣٥ .

(٦) في أ : يثبت .

(٧) في ش : له .

(٨) انظر : القشيرية ٢١٠ .

وقال أبو سليمان الداراني : إذا أخلص العبد انقطع[١] عنه كثرة الوساوس والرياء[٢] .

فصل

تعريف الهروي للإخلاص

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«الإِخلاصُ : تَصفِيَةُ العَمَلِ مِن كُلِّ شَوبٍ»[٣] .

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات[٤] النفس : إما طلب[٥] التزين في قلوب الخلق ، وإما طلب مدحهم ، والهرب من ذمهم ، أو طلب تعظيمهم ، أو طلب أموالهم ، أو خدمتهم ، وقضائهم حوائجه أو طلب محبتهم له[٦] ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عقْد متفرقاتها : هو إرادة ما سوىٰ الله بعمله ، كائناً ما كان .

درجات الإخلاص الدرجة الأولى

قال : **«وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ . الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : إِخرَاجُ رُؤْيَةِ العَمَلِ مِنَ[٧] العَمَلِ ، وَالخَلَاصُ مِن طَلَبِ العِوَضِ عَلَىٰ العَمَلِ ، وَالنُّزُولُ عَنِ الرِّضَا**

---

(١) في ط والجميع سوى ش : انقطعت .

(٢) انظر : القشيرية ٢١٠ .

(٣) انظر : المنازل ٣١ .

(٤) في ح٢ ، م : إرادة .

(٥) في ق : لطلب .

(٦) في ط والجميع : أو خدمتهم و محبتهم ، وقضائهم حوائجه .

(٧) في ط ، أ ، ب ، غ : عن .

بِالعَمَلِ»[1] .

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات : رؤيته وملاحظته ، وطلب العوض عليه ، ورضاه به[2] وسكونه إليه .

ففي هذه[3] الدرجة يتخلص من هذه الثلاثة[4]. فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لمِنَّة الله عليه ، وفضله وتوفيقه له . وأنه بالله لا بنفسه ، وأنه إنما أوجب عمله ومشيئة الله لا مشيئته هو[5] ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[6] [التكوير : ٢٩] .

فها هنا[7] ينفعه شهود الجبر[8][9] ، وأنه آلة محضة ، وأن فعله كحركات

---

(١) انظر : المنازل ٣١ .

(٢) «به» ساقطة من م .

(٣) «هذه» ساقطة من د .

(٤) في ط والجميع سوى ش : البلية .

(٥) في ح٢ ، د ، ق : وهو .

(٦) الآية في ط مكملة .

(٧) في ط والجميع سوى د : فهنا .

(٨) في ش : الخبر .

(٩) لابد أن يعلم الفرق بين هذا الشهود للجبر ، وبين مشهد أصحاب الجبر الذين يقولون إنهم مجبورون على أفعالهم ، فالكفر والشرك ، وسائر الذنوب والمعاصي كلها قد أجبروا عليها . انظر : ما سبق عن مشهد أصحاب الجبر ٢٩٢ .

أما الشهود هنا فهو شهود أهل الإيمان الذين يجتهدون في عبادة ربهم ، ثم ينسبون الفضل فيها إليه سبحانه فإنه لولا فضل الله سبحانه ، وتوفيقه للعبد لما قام بهذه العبادة . انظر : ما سبق عن مشهد العجز والضعف ٣٣٩ .

الأشجار ، وهبوب الرياح ، وأن المحرك [١][٢] غيره ، والفاعل فيه سواه ، وأنه ميت ـ والميت لا يفعل شيئاً ـ وأنه لو خلي ونفسه ، لم يكن من فعله الصالح شيء البتة . فإن النفس جاهلة ظالمة ، طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة . وهي منبع كل شر ، ومأوىٰ كل سوء . وما كان هكذا لم يصدر منه خير ، ولا هو من شأنه .

فالخير الذي صدر [٣] منها: إنما هو من الله تعالىٰ وبه، لا من العبد ، ولا به . كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور : ٢١] ، وقال أهل الجنة : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٤] [الأعراف : ٤٣] ، وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[٥] [الحجرات : ٧] .

فكل[٦] خير في العبد فهو[٧] مجرد فضل الله ومنته ، وإحسانه ونعمته ، وهو

---

(١) في ش : والمحرك .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : له .

(٣) في ط ، أ ، ب ، م ، غ ، ح٢ : يصدر .

(٤) في ط الآية إلى قوله : ﴿ هدانا لهذا ﴾ .

(٥) في ط والجميع سوى ش الآية إلى قوله : ﴿وزينة في قلوبكم﴾ .

(٦) في ح٢ ، م : وكل .

(٧) في ش : هو .

المحمود عليه . فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة ، كرؤيته[١] لصفاته الخلقية[٢] : من سمعه وبصره ، وإدراكه وقوته ؛ بل من صحته ، وسلامة أعضائه ، ونحو ذلك . فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله .

فالذي[٣] يخلص العبد من هذه الآفة : معرفة ربه ، ومعرفة نفسه .

والذي يخلصه من طلب العوض على العمل : علمه بأنه عبد محض ، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة . إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته ، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه ، وإحسان إليه[٤] وإنعام عليه ، لا معاوضة[٥] . إذ الأجرة إنما يستحقها الحر ، أو عبدالغير . فأما عبده[٦] نفسه فلا .

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه : أمران :

أحدهما : مطالعة عيوبه وآفاته ، وتقصيره فيه ، وما فيه من حظ النفس ، ونصيب الشيطان . فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل ، وللنفس فيه حظ . سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال : «هو

---

(١) في ش : كرؤية العبد .

(٢) في أ ، ب : الخليقة .

(٣) في ح٢ ، م : والذي .

(٤) في ش : عليه .

(٥) في ب ، أ ، غ : ولا معاوضة .

(٦) في ط والجميع سوى ق : عبد نفسه .

اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»(١) .

فإذا كان هذا التفات طرفه ولحظه (٢) ، فكيف التفات قلبه إلىٰ ما سوىٰ الله؟ هذا (٣) أعظم نصيب الشيطان من العبودية .

وقال (٤) ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : «لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته ، يرىٰ أن حقا عليه : أن لا ينصرف إلا عن يمينه» (٥) ، فجعل هذا القدر اليسير النزر(٦) حظًّا ونصيباً للشيطان من صلاة العبد ، فما الظن بما فوقه؟

وأما حظ النفس من العمل : فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون .

الثاني : علمه بما يستحقه الرب جل جلاله : من حقوق العبودية ، وآدابها الظاهرة والباطنة ، وشروطها ، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن (٧) يوفيها

---

(١) رواه البخاري ٢/ ٢٣٤ في كتاب الأذان ، باب الالتفات في الصلاة ، ح ٧٥١ ، وأحمد في مسنده ٦/ ١٠٦ ، وأبو داود ١/ ٢٣٧ في كتاب الصلاة ، باب الالتفات في الصلاة ، ح ٩١٠ ، والنسائي في سننه ٣/ ٨ في كتاب السهو ، باب التشديد في الالتفات في الصلاة ، ح ١١٩٦ .

(٢) في ط والجميع سوى ش ، ق : أو لحظه .

(٣) في د : وهذا .

(٤) في غ ، أ ، ب : قال .

(٥) رواه البخاري ٢/ ٣٣٧ في كتاب الأذان ، باب الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال ، ح ٨٥٢ ، ومسلم ١/ ٤٩١ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جواز الانصراف من الصلاة عن اليمين والشمال ، ح ٧٠٧ .

(٦) في أ : الترك .

(٧) «أن» ساقطة من غ .

حقها[1] ، وأن يرضىٰ بها لربه . فالعارف لا يرضىٰ بشيء من عمله لربه ، ولا يرضىٰ نفسه لله تعالىٰ طرفة عين ، ويستحيي من مقابلة الله بعمله .

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها ، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلىٰ الله : يحول بينه وبين الرضا بعمله ، والرضا عن نفسه .

وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة ، ثم يقبض علىٰ لحيته ويهزها ، ويقول[2] : يا مأوىٰ كل سوء ؛ وهل رضيتك لله طرفة عين؟[3] .

وقال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه ، ومن نظر إلىٰ نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، ومن لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات فهو مغرور[4] .

فصل

قال[5] :

الدرجة الثانية «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الخَجَلُ مِنَ العَمَلِ ، مَعَ بَذْلِ المَجْهُودِ . وَتَوْفيرِ[6] الجُهْدِ بِالاحْتِمَاءِ مِنَ الشُّهُودِ . وَرُؤْيَةِ العَمَلِ في نُور[7] التَّوفيقِ مِنْ عَيْنِ الجُودِ»[8] .

---

(١) في ط : حقاً .

(٢) في ط والجميع سوى ش زيادة : لنفسه .

(٣) انظر : الحلية ٦/ ٢١١ .

(٤) ذكره ابن القيم في الإغاثة ١/ ١٤٠ عن أبي حفص .

(٥) في ط زيادة : صاحب المنازل .

(٦) في ح٢ ، م : وتوفر .

(٧) في ش : بنور .

(٨) انظر : المنازل ٣١ .

هذه ثلاثة أمور : خجله من عمله . وهو شدة حيائه من الله ، إذ لم ير ذلك العمل صالحا له [١] ، مع بذل مجهوده فيه . قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ، قال النبي ﷺ : «هو [٢] الرجل يصوم ، ويصلي ، ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه» [٣] [٤] ، فالمؤمن : جمع إحسانا في مخافة ، وسوء ظن بنفسه ، والمغرور : حسن الظن [٥] بنفسه مع إساءته .

الثاني : توفير الجهد باحتمائه من الشهود ، أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل ، محتمياً عن شهوده منك وبك .

الثالث : أن يحتمي [٦] بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد . فترىٰ في ضوء [٧] ذلك النور : أن عملك من عين جوده لا بك ، ولا منك .

فقد اشتملت هذه الدرجة علىٰ خمسة أشياء: عمل، واجتهاد فيه ، وخجل ،

---

(١) «له» ساقطة من أ ، ب ، ح٢ .

(٢) «هو» ساقطة من غ .

(٣) سبق تخريجه ١٣٠٠ .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : وقال بعضهم : إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني ، الذي يراه الناس ، حياءً من الله عز وجل .

قلت : ذكر القشيري في الرسالة ٢١٨ نحوه منسوباً لأبي بكر الوراق .

(٥) «الظن» ساقط من د .

(٦) في ط ، أ ، ب ، غ : تحتمي .

(٧) ««ضوء» ساقطة من م وهي في هامشها .

وحياء من الله فيه[1]، وصيانة عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله ومنته[2]. الدرجة الثالثة

[3] **الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : «إِخلاصُ العَمَلِ بِالخَلَاصِ مِن العَمَلِ ، تَدَعُه [4] يَسِيرُ سَيرَ العِلمِ [5] . وَتَسِيرُ أَنتَ مُشَاهِداً لِلْحُكمِ ، حُرًّا مِن رِقِّ الرَّسْمِ»[6] .**

قد فسر[7][8] مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله : « **تَدَعُه[9] يَسِيرُ سَيرَ العِلمِ، وَتَسِيرُ أَنتَ مُشَاهِداً لِلْحُكمِ** » .

ومعنىٰ كلامه : أنك تجعل عملك تابعا للعلم، موافقاً له ، مؤتمًا به[10] . تسير بسيره ، وتقف بوقوفه ، وتتحرك بحركته . نازلاً منازله ، مرتوياً من موارده ، فتكون[11] ناظرا إلىٰ الحكم الديني الأمري ، متقيِّدًا [12] به فعلاً وتركاً وطلبا وهربا ، ناظرا إلىٰ ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً . ومع ذلك فتسير

---

(١) «فيه» ساقطة من ط ، أ ، ب ، غ .

(٢) في ط ، ح٢ ، م ، د ، ق : من عين جود الله ومنه .

(٣) في ط زيادة : قال .

(٤) في ش : يدعه .

(٥) في م : العمل .

(٦) انظر : المنازل ٣١ لكن قال : تدعه يسير مسير العلم .

(٧) في ش : فسروا .

(٨) في ط ، أ ، ب ، غ زيادة : الشيخ .

(٩) في ش : يدعه .

(١٠) «به» ساقطة من د .

(١١) «فتكون» ساقطة من ط .

(١٢) في ش ، ق : مقيداً

أنت بقلبك، مشاهداً[1] للحكم الكوني القضائي، الذي ينطوي[2] فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات، ولا يبقىٰ هناك غير محض المشيئة وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فتكون[3] قائما بالأمر والنهي[4]: فعلاً وتركاً، سائراً بسيره. وبالقضاء والقدر: إيمانا وشهودا وحقيقة، فهو ناظر إلىٰ الحقيقة، قائم بالشريعة.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩: ٣٠].

فترك[5] العمل يسير سير العلم: مشهد «لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهدا للحكم: مشهد «وما تشاءون إلا أن يشاء الله»[6].

وأما قوله: « حُرًّا مِن رِقِّ الرَّسْمِ » الحرية[7] التي يشيرون[8] إليها:

---

(١) في م، ح٢: شاهداً.

(٢) في ط والجميع سوى ش: تنطوي.

(٣) في ط، د: فيكون.

(٤) «والنهي» ساقطة من أ، ب.

(٥) في م، ب: فترى.

(٦) في ط والجميع زيادة: رب العالمين.

(٧) في ط: فالحرية.

(٨) في أ، ب، غ، ح٢، ق: يشير.

[1] عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس ، والدخول تحت رق عبودية الحق وحده .

ومرادهم بالرسم[2] : ما سوىٰ الله فكله رسوم ، فإن الرسوم هي الآثار . ورسوم المنازل والديار : هي الآثار التي[3] تبقىٰ بعد سكانها . والمخلوقات بأسرها ـ في منزل الحقيقة ـ رسوم[4] وآثار للقدرة . أي فتخلص نفسك من عبودية كل ما سوىٰ الله . وتكون بقلبك مع القادر الحق وحده ، لا مع آثار قدرته التي هي رسوم . فلا تشتغل بغيره انشغالاً[5] بعبوديته ، ولا تطلب بعبوديتك له حالا ولا مقاما ، ولا مكاشفة ، ولا شيئا سواه .

فهذه أربعة أمور : بذل الجهد ، وتحكيم العلم ، والنظر إلىٰ الحقيقة ، والتخلص من الالتفات إلىٰ غيره . والله الموفق[6] .

فصل

«الإخلاص»[7] عدم انقسام المطلوب . و«الصدق» عدم انقسام الطلب . فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب. وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة حقيقة الإخلاص والصدق

(١) في ط زيادة : هي .

(٢) سبق ص ١٢٠٠.

(٣) «التي» ساقطة من ق .

(٤) في ط : ورسوم .

(٥) في ط : لتشغلها .

(٦) في ق ، ط زيادة : المعين .

(٧) «الإخلاص» ساقطة من ح٢ .

ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة .

فهذه الأركان الثلاثة : هي أركان السير ، وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع . وإن ظن أنه سائر ، فسيره إما إلىٰ(١) عكس جهة مقصوده ، وإما سير المقعد والمقيد(٢) .

فإن عدم الإخلاص والمتابعة : انعكس سيره إلىٰ خلف . وإن لم يبذل جهدَه ويوحِّد طلبَه : سار سير المقيد .

وإن اجتمعت له الثلاثة : فذلك الذي لا يجارىٰ في مضمار سيره . و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة : ٤] .

* * *

---

(١) في ش : على .

(٢) في ط ، والجميع سوى ش زيادة «وإما سير صاحب الدابة الجموح . كلما مشت خطوة إلى قُدَّام رجعت عشرة إلى خلف» .

فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «التهذيب[1] ، والتصفية»[2] منزلة التهذيب والتصفية

وهو سبك العبودية في كير[3][4] الامتحان ، طلبا لإخراج ما فيها من الخبث والغش .

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : تعريف الهروي للتهذيب

«التَّهذِيبُ : محِنَةُ أَربَابِ البِدَايَاتِ . وَهُوَ شَرِيعَةٌ[5] مِن شَرَائِعِ الرِّيَاضَةِ»[6] .

---

(١) التهذيب : مصدر هذب ، وهو من الرجال المُخَلَّصُ النقي من العيوب ، ورجل مُهذَّب أي : مطهر الأخلاق . انظر : لسان العرب ١٥/ ٦٣ مادة : هذب .

والتصفية : مصدر صفا والصفا نقيض الكدر . وصفو كل شيء : خالصه . انظر : لسان العرب ٧/ ٣٧٠ . مادة : صفا .

وعند الصوفية التهذيب هو : الإصلاح ، ويقال التطهير ، والتصفية ، يقصد بها تارة تهذيب القصد ، وأخرى الخدمة ، وأخرى الحال ، وأخرى التحقيق فيهذبها في القصد من كدر الإكراه .

وبالخدمة : أن لا تكون عن جهل ، أو عادة ، أو وقوف عند همة .

وبالحال : أن لا تجنح إلى علم ؛ بل إلى حال وذوق ووجدان .

وبالحقيقة : أن يرى شيئاً بغير الله . انظر : لطائف الإعلام ١/ ٣٥١ـ٣٥٢ .

(٢) «والتصفية» ساقطة من أ ، ب .

(٣) في ق : كبر .

(٤) الكير بالكسر : كير الحداد ، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات ينفخ فيه النار . انظر : لسان العرب ١٢/ ٢٠٠ مادة : كير .

(٥) «شريعة» ساقطة من أ ، غ ، ب .

(٦) انظر : المنازل ٣١ ، لكن قال : محنة أهل البدايات .

يريد : أنه صعب علىٰ المبتدي ، فهو له كالمحنة . وطريقة للمرتاض الذي قد مرَّن نفسه حتىٰ اعتادتْ قبوله ، وانقادتْ إليه .

درجات التهذيب

قال : « وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ :

الدرجة الأولى

الأُولَىٰ[1] : تَهذِيبُ الخِدْمَةِ ، أَن لَا يُخَالِجِها جَهَالَةٌ ، ولا تَشُوبَها[2] عَادَةٌ ، وَلَا تَقِفَ[3] عِندَهَا هِمَّةٌ »[4] .

أي : تخليص العبودية ، وتصفيتها[5] من هذه الأنواع الثلاثة . وهي : مخالجة الجهالة[6] ، وشوب العادة ، ووقوف همة[7] الطالب عندها .

[8] فإن الجهالة متىٰ خالطت[9] العبودية ، أوردها العبد غير موردها . ووضعها في غير موضعها . وفعلها في غير مستحقها . وفعل أفعالا يعتقد أنها صلاح ، وهي إفساد لخدمته وعبوديته ، بأن[10] يتحرك في موضع السكون ، أو

---

(١) في أ ، ب : الدرجة الأولى .

(٢) في ط ، د : يشوبها .

(٣) في ط ، ح٢ ، م ، غ : يقف .

(٤) انظر : المنازل ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٥) في ق : وتصفيها .

(٦) في أ ، ب : الجهال .

(٧) في أ ، ب ، غ : هذا .

(٨) في ط زيادة : النوع الأول : مخالطة الجهال .

(٩) في د ، ق : خالطه .

(١٠) في م : أن .

يسكن في موضع الحركة[1]، أو يفرق في موضع جمع، أو يجمع في موضع فرق[2] أو يطير في موضع سفون[3]، أو يُسفن[4] في موضع طيران، أو يقدم في موضع إحجام، أو يحجم في موضع إقدام، أو يتقدم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حق الخدمة: كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس.

فالخدمة ما لم يصحبها[5] علم ثان بآدابها[6] وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت في مظنة أن تُبعدَ صاحبَها، وإن كان مرادُه بها التقربَ. ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها، فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب، أبعدته عن المنزلة والقربة[7]. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، ومحبة تامة له، ومعرفة بالنفس وما منها.

---

(١) في ط والجميع سوى ش: التحرك.

(٢) في ق: تفرق.

(٣) السَّفْنُ هو القشر، ومنه الالتصاق بالأرض، كحال الصياد حين يحبو على الأرض لئلا ينفر منه الصيد، ومنه السفينة سميت بذلك؛ لأنها تسفن الرمل إذا قل الماء. وقيل: لأنها تسفن على وجه الأرض، أي تلزق بها.

انظر: لسان العرب ٦/ ٢٨٦ مادة: (سفن).

(٤) في ط والجميع سوى ش: في موضع سفون أو يُسَّفُ.

(٥) في ق: لم يصحبها وفي أ، ب: ما لم يصلحها.

(٦) في أ، ب، غ: بأدائها.

(٧) في أ، ب، غ: القرب.

النوع الثاني : شوب العادة . وهو أن يمازج [١] العبودية حكم من أحكام عوائد [٢] النفس، تكون منفذة لها، مُعِينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كم اعتاد الصوم - مثلاً - وتمرن عليه . فأَلِفَتْه النفس ، وصار لها عادة تتقاضاها أتم [٣] اقتضاء . فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية ، وإنما هو تقاضي العادة . وعلامة هذا : أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك ، وأيسر منه ، وأتم مصلحة : لم تؤثرها [٤] ، إيثاراً [٥] لما اعتادته [٦] وأَلِفَتْه . كما يحكىٰ [٧] عن بعض الصوفية [٨] قال : حججت كذا وكذا حجة علىٰ التجريد [٩] ، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوبا بحظي . وذلك : أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة [١٠] ماء ، فثقل

---

(١) في الجميع سوى ش ، د ، ط : تمازج .

(٢) «عوائد» ساقطة من غ ، أ ، ب .

(٣) في ط ، د : أشد .

(٤) في غ ، ب ، أ ، ش : يؤثرها .

(٥) في ط والجميع سوى ش : إيثارها .

(٦) في أ ، ب : اعتادها وفي ق : اعتاده .

(٧) في ط والجميع سوى ش : حكي .

(٨) في ط والجميع سوى ش : عن بعض الصالحين من الصوفية .

(٩) التجريد : يريد بذلك ما دل عليه السياق بعده من ترك الأخذ بالأسباب حيث قال : «إن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء «إذ ترك التزود بالماء تجرداً من فعل الأسباب ، ومما يدل على ذلك قول أبي سهل محمد بن سليمان عندما سئل عن قول أبي بكر حينما أتى بماله كله للرسول ﷺ فقال له الرسول : « ماذا أبقيت لأهلك» ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله».
قال أبوسهل : هو التجريد لله بالكلية . انظر : شعب الإيمان ٢/ ١٠٦ .

(١٠) في ح٢ : جرة .

ذلك علىٰ نفسي . فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كان بحظ[١] نفسي وإرادتها. إذ لو كانت نفسي فانية لم[٢] يصعب عليها ما هو يحق[٣] في الشرع[٤].

الثالث[٥] : وقوف همته عند الخدمة . وذلك علامة ضعفها وقصورها . فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمته[٦] ؛ بل همته أعلىٰ من ذلك ، إذ هي طالبة لرضا مخدومه . فهو دائما مستصغر خدمته له ، ليس واقفا عندها . والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع ، فإنها عين الحرمان . فالمحب لا يقنع[٧] بشيء دون محبوبه . فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها: سقوط فيها وحرمان .

الدرجة الثانية

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَهذِيبُ الحَالِ . وَهُوَ أَن لَا يَجْنَحَ الحَالُ إِلَىٰ عِلمٍ ، وَلَا يَخضَعَ لِرَسمٍ ، وَلَا يَلتَفِتَ إِلَىٰ حظٍّ »[٨] .

أما «جنوح الحال إلىٰ العلم» فهو نوعان : ممدوح[٩] ، ومذموم .

---

(١) في ش : كانت لحظ .

(٢) في ش زيادة : بالله .

(٣) في ش : لحق وفي ط والباقي : حق .

(٤) انظر : القشيرية ٩٩ ، لأبي محمد المرتعشي .

(٥) في ط : النوع الثالث .

(٦) في ش الخدمة ، وفي : أ ، ب ، غ : خدمة .

(٧) في غ : فالمحب يقنع .

(٨) انظر : المنازل ٢٢ .

(٩) «ممدوح ومذموم» ساقط من ب .

فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلىٰ ما يأمر به ، وتحكيمه عليه . فمتىٰ لم يجنح إلىٰ [١] هذا الجنوح كان حالا مذموماً ، ناقصاً ، مُبعِداً عن الله تعالىٰ . فإن كل حال لا يصحبه علم ؛ يُخاف عليه أن يكون من[٢] خدع الشيطان . وهذا القدر هو الذي أفسد علىٰ أرباب[٣] الأحوال أحوالهم[٤] ، وشردهم عن الله كل مشرد ، وطردهم عنه كل مطرد . حيث لم يحكموا عليه العلم ، وأعرضوا عنه صفحا ، حتىٰ قادهم إلىٰ الانسلاخ من حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام .

وهم[٥] الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد - رحمه الله - لما قيل له : أهل المعرفة يصلون إلىٰ ترك [٦] الحركات من باب البر والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ فقال الجنيد ـ رحمه الله ـ : «[٧] هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال[٨] وهو عندي عظيمة . والذي يسرق ويزني[٩] ، أحسن حالاً من الذي يقول هذا . فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف

(١) في ط والجميع سوى ش : إليه .

(٢) في أ ، ب : مع .

(٣) في غ ، أ ، ب ، ح٢ : أصحاب .

(٤) في ط والجميع سوى ش زيادة : وعلى أهل الثغور ثغورهم .

(٥) «وهم» ساقطة من م .

(٦) في ق : تلك .

(٧) في ط والجميع سوى ش زيادة : إن .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : عن الجوارح .

(٩) في ط والجميع سوى ش : والذي يزني ويسرق .

عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ، إلا أن يحال بي دونها »[١] .

وقال : الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق ، إلا [٢] من اقتفىٰ أثر الرسول ﷺ[٣].

وقال : من لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث : لا يقتدىٰ به في هذا الأمر[٤]؛ لأن علمنا [٥] مقيد بالكتاب والسنة [٦] .

وقال : علمنا هذا مشيد [٧] بحديث رسول الله ﷺ [٨] .

والبلية التي عرضت لهؤلاء : أن أحكام العلم تتعلق بالعمل [٩] ، وتدعو إليه وأحكام الحال تتعلق بالكشف . وصاحب الحال ترد عليه أمور ليست في طور العلم . فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره ، تعارض[١٠] عنده العلم والحال .

فلم يجد بُدًّا من الحكم علىٰ أحدهما بالإبطال . فمن حصلت له أحوال

(١) ذكره السلمي في الطبقات بسنده إلى الجنيد ١٥٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٧٨ ، والقشيري في الرسالة ٤٣٠ .

(٢) في الجميع سوى ش زيادة : على .

(٣) انظر : القشيرية ٤٣٠ .

(٤) في ط والجميع سوى ش : في طريقنا هذا .

(٥) «علمنا» ساقطة من ح٢ ، م ، وفي د ، غ ، ق : لأن طريقنا وعلمنا وفي أ ، ب : لأن طريقنا وعملنا .

(٦) انظر : القشيرية ٤٣١ .

(٧) في ش : مشبك .

(٨) انظر : القشيرية ٤٣١ .

(٩) في ط : بالعلم .

(١٠) في ق : وتعارض .

الكشف ، ثم جنح إلىٰ أحكام (١) العلم ، فقد رجع القهقرى ، وتأخّر في سيره إلىٰ وراء .

فتأمل هذا الوارد ، وهذه الشبهة التي هي سُمٌّ ناقع : تخرج (٢) صاحبَها من المعرفة والدين ، كإخراج (٣) الشعرة من العجين .

واعلم أن المعرفة الصحيحة : هي روح العلم . [والحال الصحيح : هو روح العمل المستقيم . فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم](٤) فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة . ولا ننكر (٥) أن تكون لهذه الروح أحوال ، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها . ومتىٰ (٦) عارض الحال حكم من أحكام العلم ، فذلك الحال إما فاسد وإما ناقص ، ولا يكون مستقيما أبداً .

فالعلم [الصحيح ، والعمل](٧) المستقيم هما (٨) ميزان (٩) المعرفة الصحيحة ، والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما .

---

(١) في أ ، ب ، غ : أحوال .

(٢) في غ زيادة : عن .

(٣) في ق : كإجناح وفي أ : كما تخرج .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من غ .

(٥) في ط والجميع سوى ش : ولا ينكر أن يكون .

(٦) في ط : فمتى .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من أ وهو في هامشها .

(٨) في أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ق : فهما .

(٩) في ش : ميدان .

فأحسن ما يحمل عليه قوله : «**أَن لا يَجنحَ الحَالُ إِلىٰ عِلمٍ**[(١)]» أن العلم يدعو إلىٰ الفرقة دائماً ، والحال يدعو إلىٰ الجمعية ، والقلب بين هذين الداعيين . فهو بحسب[(٢)] هذا مرة وهذا مرة .

فتهذيب الحال وتصفيته : أن يجيب داعي الحال لا داعي العلم . ولا يلزم من هذا ، إعراضه عن العلم، وعدم تحكيمه والتسليم له ؛ بل هو متعبد بالعلم ، محكم له ، مستسلم له ، غير مجيب لداعيه من التفرقة ؛ بل هو مجيب لداعي الحال والجمعية ، آخذ من العلم ما يصحح له حاله وجمعيته ، غير مستغرق فيه استغراق من هو مَطْرح[(٣)] همته ، وغاية مقصده ، لا مطلوب له سواه ، ولا مراد له إلا إياه. فالعلم عنده آلة ووسيلة ، وطريق توصله إلىٰ مقصده ومطلوبه. فهو كالدليل بين يديه . يدعوه إلىٰ الطريق ويدلُّه عليها ، فهو يجيب داعية للدلالة[(٤)] ومعرفة الطريق . وما في قلبه من ملاحظة مقصده ومطلبه ، من سيره وسفره وباعث همته علىٰ الخروج من أوطانه ومرباه ، ومن بين أصحابه وخلطائه . الحامل له علىٰ الاغتراب ، والتفرد في طريق الطلب ، هو[(٥)] المسير له ، والمحرك والباعث . فلا يجنح عن داعيه إلىٰ اشتغاله

---

(١) في ط والجميع سوى ش : العلم .

(٢) في ط والجميع سوى ش : يجيب .

(٣) مطرح : اسم مكان من طرحه ، ومنه قيل للمسكن والمجلس مَطْرح . انظر : المعجم الوسيط ٥٥٣ مادة : (طرح) .

(٤) في الجميع سوى ش ، ط : داعية الدلالة .

(٥) في ق : وهو ، وفي أ : فهو .

بجزئيات(١) أو أحوال(٢) الدليل ، وما هو خارج عن دلالته علىٰ طريقه .

فهذا مقصد شيخ الإسلام - إن شاء الله - لا الوجه الأول والله أعلم .

فصل

شرح قول الهروي «ولا يخضع لرسم»

وأما قوله : «وَلَا يَخْضَعَ(٣) لِرَسْمٍ» أي لا يستولي علىٰ قلبه شيء من الكائنات ، بحيث يخضع (٤) له قلبه . فإن صاحب الحال : إنما يطلب الحي القيوم لا يقف (٥) عند المعاهد والرسوم .

وأما قوله: «وَلَا يَلْتَفِتَ إِلىٰ حَظٍّ» أي إذا حصل له الحال التام: لم يشتغل بفرحه به، وحظه منه واستلذاذه . فإن ذلك حظٌّ من حظوظ النفس، وبقيّةٌ من بقاياها.

---

(١) في ق : بجزيات ، وفي أ : بحركات .

(٢) «في ط والجميع ش : وأحوال .

(٣) في ش : لا يخضع .

(٤) في ح٢ ، م : يضع .

(٥) في ط والجميع سوى ش : فلا ينبغي له أن يقف .

فصل

قال[١] :

الدرجة الثالثة

«الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : تَهذِيبُ القَصْدِ . وَهُوَ[٢] تَصفِيَتُه مِن ذُلِّ الإِكرَاهِ ، وَتحَفُّظُه مِن مَرَضِ الفُتُورِ ، وَنُصرَتُه عَلَىٰ مُنَازَعَاتِ العِلْمِ»[٣] .

هذه[٤] أيضاً ثلاثة أشياء ، تهذب قصده وتصفيه .

أحدها : تصفيته من ذلك الإكراه . أي لا يسوق نفسه إلىٰ الله كرهاً ، كالأجير المسخر المكلف ؛ بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلىٰ الله طوعاً ، و محبة وإيثاراً ، كجريان الماء في منحدره ، وهذه حال المحبين الصادقين . فإن عبادتهم طوعاً و محبةً ورضًا . ففيها قرة عيونهم ، وسرور قلوبهم ، ولذة أرواحهم . كما قال[٥] ﷺ : «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٦] .

---

(١) في ط زيادة : صاحب المنازل .

(٢) في أ ، ب : وهي .

(٣) انظر : المنازل ٣٢ .

(٤) في ش : هذا .

(٥) في ط والجميع سوى ش زيادة : النبي .

(٦) رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٢٨ ، والنسائي في سننه ٧/ ٦١ في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ح ٣٩٣٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٧٤ ، ح ٢٦٧٦ ، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٨ ، والطبراني في الكبير ٢٠/ ٤٢٠ ، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ٣٣١ . قال العراقي : إسناده جيد .

وكان يقول : «**يا بلال**[1] **أرحنا بالصلاة**»[2] .

فقرة عين المحب ولذته ، ونعيم روحه : في طاعة محبوبه . بخلاف المطيع كرهاً ، المتحمل للخدمة ثقلاً .

وفي قوله : « **ذُلّ الإِكرَاهِ** » لطيفة . وهي أن المطيع كرها يرىٰ أنه لولا ذل قهره ، وعقوبة سيده له لما أطاعه . فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي قد أَذَلَّه مكرِهُه وقاهرُه . بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيماً ، ولذة وسروراً ، فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه .

الثاني[3] : تحفظه من مرض الفتور . أي: توقيه من مرض فتور قصده ،

انظر : المغني بهامش الإحياء ٢/ ٤٤ ، وقال ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٤٥ : «رواه النسائي وغيره بسند صحيح ، وصححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ٣/ ٨٧ .

(١) أبو عبد الله بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ ، وخازنه على بيت المال ، أحد السابقين إلى الإسلام ، وممن عذبوا في الله ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبشره بالجنة ، توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٢٠ هـ .

ترجمته في : حلية الأولياء ٢/ ١٠٦ ، أسد الغابة ١/ ٢٤٣ ، السير ١/ ١٤٧ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٦٤ ، والطبراني في الكبير ٦/ ٢٧٧ ، وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ١٤٥ ، ورواه أبو داود ٤/ ٢٩٦ في كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة ، ح ٤٩٨٥ بلفظ: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**» ، والطبراني في الكبير كذلك ٦/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

قال العراقي في المغني ـ بهامش الإحياء ١/ ٢٣٢ ـ : إسناده صحيح وذكره التبريزي في المشكاة ١/ ٣٩٣ وقال الألباني : صحيح .

(٣) في ط والجميع سوى ش : والثاني .

وخمود نار طلبه . فإن العزم هو روح القلب[1] ونشاطه ، كالصحة له . وفتوره مرض من أمراضه . فتهذيب قصده وتصفيته بحميته[2] من أسباب هذا المرض ، الذي هو[3] فتوره . وإنما يتحفظ منه بالحمية من أسبابه . وهي[4] أن يلهو عن الفضول من كل شيء ، ويحرص علىٰ ترك ما لا يعنيه . ولا يتكلم إلا[5] فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله تعالىٰ ، ولا يصحب إلا من يعينه علىٰ ذلك فإن بُلِيَ بِمَنْ[6] لا يعينه فليدرأه عنه ما استطاع ، ويدفعه دفع الصائل .

الثالث : نصرة قصده علىٰ منازعات العلم . ومعنىٰ ذلك : نصرة[7] خاطر العبودية المحصنة والجمعية فيها ، والإقبال علىٰ الله فيها بكلية القلب ، علىٰ حوادث[8] العلم ، والفكرة في دقائقه ، وتفاريع مسائله وفضلاته . أو أن[9] العلمَ يطلبُ من العبد العملَ للرغبة[10] والرهبة ، والثواب وخوف العقاب .

---

(١) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : القصد .

(٢) في ش ، م : تحميه .

(٣) «هو» ساقط من م .

(٤) في ط والجميع سوى ش : وهو .

(٥) «إلا» ساقطة من ع .

(٦) في ق : بما .

(٧) في أ ، ب : نصر .

(٨) في ط والجميع سوى ش ، د ، ق : جواذب .

(٩) في ب ، غ ، أ : وأن العلم .

(١٠) (للرغبة) ساقطة من الأصل ، ش ، وما أثبته في ط وباقي النسخ والسياق يقتضيه .

فتهذيب القصد [1] : تصفيته من ملاحظة ذلك . وتجريده : أن يكون قصده وعبوديته محبة لله [2] بلا علة ، وأن لا يحب الله لما يعطيه ويحميه منه . فتكون محبته لله[3] محبة الوسائل ، و محبته بالقصد الأول : لما يناله من الثواب المخلوق ، فهو المحبوب له بالذات . بحيث إذا حصل له محبوبه تسلىَّ [4] به عن محبة من أعطاه إياه . فإن من أحبك لأَمْرٍ وَلّىٰ [5] عند حصوله ، وملّك عند انقضائه .

فالمحب [6] الصادق يخاف أن تكون محبته لغرض من الأغراض ، فتنقضي محبته عند انقضاء ذلك الغرض . وإنما مراده : أن محبته تدوم ولا [7] تنقضي أبدا ، وأن لا يجعل محبوبه وسيلة له إلىٰ غيره ؛ بل يجعل ما سواه وسيلة له إلىٰ محبوبه .

وهذا القدر هو الذي حام عليه القوم[8] ، وتكلموا فيه ، وشمَّروا إليه .

---

(١) في م ، ح٢ ، أ : القلب .

(٢) في ش : ربه .

(٣) «لله» ساقطة من ش .

(٤) في د : لسلي .

(٥) في ط ، ح٢ ، م : والاك .

(٦) في ط والجميع سوى ش : والمحب .

(٧) في ش : وألا تنقضي ، وفي ق : فتنقضي .

(٨) في ط والجميع سوى ش زيادة : وداروا حوله .

فمنهم من أحسن التعبيرَ عنه .

ومنهم من أساء العبارةَ ، وقصدُه وصدقُه يصلح فسادَ عبارتِه .

ومن الناس : من لم يفهم هذا كما ينبغي ، فلم يجد له ملجأً غير الإنكار .

والله يغفر لكل من قصده الحق واتباع مرضاته . فإنه واسع المغفرة .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده ، وبعد :

لقد كانت فرصة قيمة منَّ الله بها عليَّ في هذه الفترة الزمنية من العمر ، لتقديم خدمة لبعض ميراث عَلَم من أعلام أهل السنة ، كانت نافذة لي للاطلاع علىٰ عدد من المصادر والمراجع ، ومجالاً لاستخلاص عددٍ من النتائج سواء فيما يخص الدراسة أو النص المحقق أجملتها فيما يلي :

١ - تبين من خلال الدراسة أن الحكم علىٰ الصوفية لابد أن يسبق بمعرفة أقسام الصوفية ودرجاتها ، لاختلاف الحكم تبعاً لذلك .

٢ - تأثر أقسام الصوفية بالمواقف الفردية ، والسير الذاتية ، فأحياناً يأخذ الحكم الشمول علىٰ الفرقة أو الخصوص علىٰ الفرد .

٣ - أن سبب الانحراف عند الصوفية يرجع إلىٰ الخلل في مصادر التلقي عندهم .

٤ - أن القول الفصل في مسألة تقسيم الذنوب ، أنها صغائر وكبائر .

٥ - أهمية التوازن بين الخوف والرجاء في حياة المسلم ، وأن ما دخل علىٰ الصوفية من الخلل في هاتين المنزلتين إنما هو بسبب التصور الفاسد .

٦ - تميز ابن القيم -رحمه الله- بالاستيعاب لمعظم مسائل الدين في العقيدة والمعاملة والسلوك ، مع قوة فائقة، وحجة حاضرة في الرد والمناظرة .

٧ - كان لابن القيم منهج فريد في الاعتذار عما يقتضيه المقام ، وموقف

حازم مما لا يحتمل الاعتذار علىٰ كل حال .

٨ - تضمن كتاب المدارج الرد علىٰ من شرح المنازل من غلاة الصوفية كعفيف الدين التلمساني وغيره ، وفي هذا تبرئة للهروي ممن يدعيه منهم .

٩ - أن عامة ضلال الناس من الألفاظ الموهمة أو المبهمة ، ففيها مداخل لمريد الباطل ، ويصعب قبولها لمن يريد الحق .

١٠ - أنه ما من خلل في الاعتقاد إلا ويتبعه خلل في السلوك ، يتجلىٰ ذلك في موقف الصوفية من الأسباب وشهود الحقيقة الكونية .

١١ - ظهور التحكم في ترتيب المقامات ، والتكلف في الاستدلال عند الصوفية في رسم معالم الطريق للسالكين .

١٢ - أنه ليس بالضرورة كون النسخ الخطية متعددة قوةً للتحقيق ، إذ يرجع معظمها إلىٰ نسخة واحدة ، فتكون أخطاء النُّسَّاخ عبئاً يضاف علىٰ المحقق .

وفي الختام أسأل الله عز وجل أن يحسن لنا الختام ، وأن يرزقنا خشيته وتقواه ، ويمنّ علينا برحمته ورضاه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلىٰ الله وبارك علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية

محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

مكتبة المسجد النبوي الشريف

رقم الكتاب ١٢١٧٦٥

تاريخ التسجيل ١٤٢٣/٣/١هـ

دراسة وتحقيق

د. صالح بن عبد العزيز التويجري

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

الجزء الثالث

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – بالرياض

تمت مناقشة الأطروحة بتاريخ: ٢٦/ ١١ / ١٤٢٢هـ

وقد حصل الباحث علىٰ درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولىٰ

المقدمة

وتشمل :

١- خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ورموزها .

٣- منهج التحقيق .

مقدمة الجزء الثالث

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فهذا هو الجزء الثالث من دراسة وتحقيق كتاب: «مدارج السالكين» لابن القيم - رحمه الله -، والذي يبدأ من أول منزلة الاستقامة، إلىٰ آخر منزلة الأنس.

واكتفاء بالمقدمة العامة في أول الكتاب فإني أقتصر في هذه المقدمة لهذا الجزء علىٰ ذكر: خطة البحث، وموضوعات الدراسة، والنسخ الخطية، ورموزها التي اعتمدتها في هذا القسم، مع ذكر منهج التحقيق الذي سرت عليه.

خطة البحث:

قسمت العمل في هذا البحث إلىٰ مقدمة، وقسمين:

المقدمة وتشمل:

أ- خطة البحث.

ب- وصف النسخ الخطية، وذكر رموزها.

جـ- منهجي في التحقيق.

القسم الأول: الدراسة، وتشمل:

أولاً: ترجمة الهروي: وتشمل:

١ ـ حياته الشخصية :

أ ـ اسمه ونسبه .

ب ـ مولده ونشأته ووفاته .

٢ ـ حياته العلمية :

أ ـ طلبه العلم وشيوخه.

ب ـ تلامذته ومؤلفاته .

ج ـ عقيدته .

ثانياً : منهج الهروي في كتابه منازل السائرين .

ثالثاً : تقويم كتاب الهروي إجمالاً مع مدخل في التقويم (المقدمات).

القسم الثاني : التحقيق ، ويتضمن :

تحقيق الكتاب ويشتمل علىٰ :

١ ـ المقابلة بين النسخ الخطية .

٢ ـ عزو الآيات القرآنية .

٣ ـ تخريج الأحاديث النبوية .

٤ ـ عزو الآثار .

٥ ـ عزو النقول إلىٰ مصادرها .

٦ ـ بيان معاني الكلمات الغريبة .

٧ ـ التعريف بالبلدان .

٨ ـ ترجمة الأعلام .

٩ ـ التعريف بالملل والطوائف والفرق .

١٠ ـ شرح المصطلحات الصوفية ، وتعريفها من كتب الصوفية.

١١ ـ الخاتمة .

* * *

النسخ الخطية :

لُوحِظ في ترتيب النسخ حسب الأهمية والجودة .

النسخة الأولىٰ : نسخة سوريا وهي في معهد التراث العربي بحلب ، والنسخة الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب وتحمل الرقم [٦٩٦] تصوف ، ورمزت لها بالحرف (س) ، وهي التي اخترتها لتكون أصلاً للتحقيق تقابل عليها بقية النسخ للأمور الآتية :

١. أن تاريخ كتابتها في حياة المؤلف .

٢. أنها سليمة من الخرم والتصحيف إلا ما ندر .

٣. أنها قوبلت علىٰ نسخ أخرىٰ يدل علىٰ ذلك وجود الدائرة المنقوطة عند نهاية بعض المقاطع .

٤. جودة الخط وهو رقعة .

النسخة الثانية : نسخة تشستربتي وهي مصورة علىٰ فيلم في جامعة الإمام وتحمل رقم [٣٦٢٧] ، ورمزت لها بالحرف (ش) .

النسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [٨٧٤] تصوف ، وقد رمزت لها بالحرف (أ).

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [١٠٣] تصوف قولة ، وقد رمزت لها بالحرف (ق).

النسخة الخامسة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [٢٠٥٣١] ، وقد رمزت لها بالحرف (ب) .

النسخة السادسة : في جامعة الإمام ، مصورة من مكتبة أحمد الراشد في مدينة الغاط ، ورقمها [١٠٨٧٤/ ف] ، وقد رمزت لها بالحرف (غ).

النسخة السابعة : نسخة أصلية في جامعة الإمام ولكنها ناقصة رقمها [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨] ، وقد رمزت لها بالحرف (م).

النسخة الثامنة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [١٥٢٢] وقد رمزت لها بالحرف (د).

النسخة التاسعة : نسخة مكتبة حمود بن حسين الشغدلي بحائل ، رقمها [٦٤٩] ، رقم الحفظ [١٣/ ٢/ ز] ، وقد رمزت لها بالحرف (ح٢).

النسخة العاشرة : نسخة المعهد العلمي بحائل رقمها [٨] ، وقد رمزت لها بالحرف (ح١).

علماً أن هناك نسخاً للكتاب لكنها لا تتعلق بنصيبي من التحقيق إما لكونها انتهت قبل أن تصل إليه ، أو بدأت بعد النصيب المخصص.

وبعد المقابلة ظهر لي اتفاق بعض النسخ وقد يصل الاتفاق في بعض الفروق إلىٰ خمس أو ثلاث. وهو مدارج السالكين بتحقيق وتعليق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولىٰ ، ثلاثة

أجزاء ، ١٤١٠هـ . ورمزت للمطبوع بالحرف (ط).

ولقد تبين لي بعض الأمور أثناء المقابلة وهي :

أولاً : موافقة النسخ (ق ، أ) للمطبوع بتحقيق الفقي غالباً .

ثانياً : توافق (ق ، د) غالباً .

* * *

منهجي في التحقيق :

١- اعتمدت نسخة [سوريا] أصلاً للكتاب ، للأسباب السابقة .

٢- قابلت عليها جميع النسخ التسع إضافة إلىٰ المطبوع .

٣- أي اختلاف في النسخ - بزيادة أو تصحيف - عن النسخة التي اعتمدتها أصلاً أثبتُّه في الهامش مبتدئاً برمز النسخ ، ثم أذكر اللفظ وأضعه بين قوسين. مثال : في أ ، غ ، ب ، د (كذا) .

٤- إذا كان هناك سقط من أي نسخة من النسخ بدأت به أولاً ووضعته بين قوسين ، ثم ذكرت النسخ. مثال : (كذا) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

٥- إذا كان السقط من الأصل أو من بعض النسخ وهو أكثر من كلمة جعلته بين معقوفين [ ] ، وقلت في الهامش ما بين المعقوفين سقط من كذا .

٦- إذا كان السقط حرفاً أو كلمة جعلت الأقواس في الهامش؛ لئلا تشغل القارئ بكثرتها .

٧- إذا كان هناك سقط أو خطأ في الأصل واستقرّ لدي قطعاً – بعد المقارنة والتأمل إثبات خلاف الأصل جعلت الصواب في المتن ، وقلت

في الهامش : الأصل : « كذا وكذا » والصواب أو الأقرب ما أثبته من نسخة : «كذا وكذا» .

٨- عرّفت كل منزلة من المنازل في بداية شرحها ، معتمداً في ذلك علىٰ كتب الصوفية ومصنفاتهم المطبوعة؛ لأن ابن القيم عرف بها من كلام السلف، واستدل بآيات وأحاديث تغني عن التكرار ، ولتمكين القارئ من معرفة الفرق بين التعريفين .

٩- قمت بشرح المصطلحات الصوفية الأخرىٰ ، والمصطلحات الكلامية والغريبة.

١٠- خرّجت الأحاديث ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك ، وربما أضيف مسند أحمد إليهما ، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما خرجته من غيرهما ما أمكن ، وذكرت ما وقفت عليه من كلام أهل العلم في الحديث تصحيحاً أو تضعيفاً ، وهذا كله عند أول ورود له فقط ، ثم أحيل إذا تكرر مرة أخرىٰ إلىٰ الموضع الأول.

١١- ترجمت لجميع الأعلام من المشهورين ومن غيرهم؛ وذلك لأن الشهرة نسبية.

د. صالح بن عبد العزيز التويجري

القصيم - بريدة

القسم الأول

الدراسة

وتتضمن:

أولاً: ترجمة الهروي (حياته الشخصية، حياته العلمية).

ثانياً: منهج الهروي في كتابه «منازل السائرين».

ثالثاً: تقويم كتاب الهروي إجمالاً مع مدخل في التقويم «المقدمات».

المسألة الأولى : الهروي : حياته الشخصية والعلمية

الهروي حياته الشخصية

أولاً : حياته الشخصية :

أ – اسمه ونسبه :

هو أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن علي بن جعفر بن منصور بن متَّ الأنصاري الهروي[1].

ونسبته للأنصاري لأنه من ذرية أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - حيث استقر أحد أبناء أبي أيوب وهو (متَّ) في بلاد خراسان أيام الفتح الإسلامي، واستقر بمدينة هراة التي هي مكان ولادته، وإليها ينسب الهروي[2]، ومن ألقابه شيخ الإسلام[3]، وخطيب العجم، لما تميز به من فصاحة وبيان[4].

ب – مولده ونشأته ووفاته :

ولد أبو إسماعيل الهروي في مدينة – هراة – من بلاد خراسان وهي تابعة الآن لأفغانستان قرب الحدود مع إيران[5]، وذلك سنة ست وتسعين وثلاثمائة للهجرة، وهذا أصح الأقوال في ذلك كما يذكره الهروي عن

---

(١) انظر : السير ١٨/ ٥٠٣، ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٥٠ .

(٢) انظر : شيخ الإسلام للأفغاني ١٨، ٢٣.

(٣) انظر : الفتاوى ١٠/ ٣٥، ٣٤١.

(٤) انظر : شيخ الإسلام ٢٠.

(٥) انظر : معجم البلدان ٢/ ٣٥٠، شيخ الإسلام ١٣ ـ ١٥.

نفسه[١] ، وقيل سنة خمس وتسعين وثلاثمائة[٢] ، وهناك من قال سنة سبع وتسعين وثلاثمائة[٣] ويذكر بعضهم أن مولده كان سنة إحدىٰ وأربعمائة [٤].

ونشأ في بيت تدين وصلاح حيث كان والده موصوفاً بالورع والتصوف الذي كان منتشراً في معظم تلك البلاد ، وكان لصلاح والده ورغبته في العلم - حيث سافر في طلبه أول أمره - أثر ظاهر علىٰ نشأة الهروي حمله علىٰ الاتصال بحلق العلم منذ الصغر ، فتعلم القراءة والكتابة في سن مبكرة[٥] ، وأتقن عدداً من العلوم وهو في التاسعة من العمر ، وكان له اهتمام بالأدب ، واشتهر بالحفظ والفطنة والذكاء ، لم تطل عناية والده به حيث رحل إلىٰ (بلخ) فترك ذلك فراغاً في حياة الهروي ، سارع في درء ضرره أقاربه ومعلموه وأصدقاء والده ، خفف من مخاطر النشأة بعيداً عن الوالد ، تجاوز الهروي تلك المرحلة الصعبة ، فواصل الطلب حتىٰ أصبح من أهل العلم والصلاح ، كان من العباد الزهاد ، مناصراً للسنة ، شديداً علىٰ أهل البدع ، عفيفاً عن أموال السلاطين ، كريماً حليماً يحب العفو والصفح عن حقوق نفسه[٦].

---

(١) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥٠ ، الأعلام ٤/ ٢٦٧ ، معجم المؤلفين ٥/ ١٢٢ ، هامش شيخ الإسلام ٢٣ .

(٢) انظر : المنتظم ٩/ ٤٤ ، الكامل ٨/ ١٤٨ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٣٥ ، شيخ الإسلام٢٤.

(٣) انظر : هدية العارفين ١/ ٤٥٢.

(٤) انظر : العبر ٢/ ٣٤٣ ، شذرات الذهب ٣/ ٣٦٥.

(٥) انظر : شيخ الإسلام ص٢٦ ، ٢٩.

(٦) انظر : السير ١٨/ ٥١٤ ، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٦٤ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٩.

وفاته : كانت وفاته - رحمه الله - سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة للهجرة في بلدة (هراة) بلد مولده ، ودفن في (كازياركاة)[1] عن عمر ينيف علىٰ ثمانين سنة ، والله أعلم.

حياته العلمية

ثانياً : حياته العلمية :

أ - طلبه العلم وشيوخه : للنشأة الصالحة أثر في التحصيل والمحافظة علىٰ الوقت ، وعدم التعلق بالصوارف عن العلم ، لذا كانت نشأة الهروي كذلك كما سبق في نشأته مما جعله شغوفاً بطلب العلم بعد أن أخذ عن علماء بلده ما أمكن ، رحل في سبيل التحصيل والطلب وعمره قرابة العشرين سنة إلىٰ مدينة نيسابور ، وكانت مركزاً للعلم تضم عدداً من العلماء في مختلف الفنون ، التقىٰ فيها بالمحدث محمد بن موسىٰ الصيرفي ، وعلي بن محمد الطرازي ، والمفسر منصور بن الحسين ، والفقيه أبي الفتح المروزي ، والنحوي أحمد بن محمد السليطي ، والمتصوف ابن باكويه الشيرازي ، رجع بعدها إلىٰ بلده هراة.

ثم رحل إلىٰ الحج وفي الطريق التقىٰ في بغداد بالمحدث أبي محسن الخلال ، ثم لم يتيسر له وصول مكة فقفل راجعاً إلىٰ بلده مروراً بطوس وبسطام ونيسابور ، فسمع من علماء تلك البلاد.

ثم رحل سنة أربع وعشرين وأربعمائة إلىٰ الحج ، وكانت بعض العوائق

---

(١) قرية قرب هراة . انظر : معجم البلدان ٤/ ٤٢٩.

حائلاً دون وصوله إلىٰ مكة؛ لكن استثمر تلك الرحلة بالطلب علىٰ علماء البلاد التي يمر بها ، وكان من أشهر من أثَّر في حياته أبو الحسن الخرقاني الصوفي ، وفي الري زار أبا حاتم بن خاموش ثم رجع إلىٰ نيسابور واتصل مرة أخرىٰ بابن باكويه الصوفي كما اتصل بأبي سعيد بن أبي الخير من أئمة التصوف ،ثم رجع إلىٰ بلاده سنة خمس وعشرين وأربعمائة[(١)].

وكان له عدد من الشيوخ في مختلف الفنون ، في الفقه والحديث والتفسير واللغة ، ذكر جملة منهم الإمام الذهبي في السير من أشهرهم : أحمد بن علي الأصبهاني ، وإسحاق بن إبراهيم السرخسي الهروي ، وإسماعيل بن إبراهيم السرخسي الهروي ، وعبدالجبار بن محمد المروزي ، وعلي بن محمد الطرازي الحنبلي ، وعمر بن إبراهيم الهروي ، و محمد بن أحمد الجارودي الهروي ، و محمد بن محمد الأزدي الهروي ، و محمد ابن موسىٰ الصيرفي ، ويحيىٰ بن عمار السجستاني[(٢)] ، وغيرهم كثير[(٣)].

ب - تلامذته ومؤلفاته : تلامذته ومؤلفاته

١ - تلامذته : بعد تلك الرحلات العلمية ، والأخذ عن شيوخ البلاد التي رحل إليها عاد إلىٰ بلده ، واستقر فيها للتدريس والتعليم والتأليف ، طلب العلم عليه جمع غفير من الطلاب من أشهرهم : المتصوف الزاهد عبد الأول

---

(١) انظر : السير ١٧/ ٥٩٣.

(٢) انظر : السير ٨/ ٥٠٥.

(٣) لقد اعتنى الأستاذ الشبل في حصرهم وترتيبهم في مقدمة تحقيق ذم الكلام ١/ ١٠٨ ـ ١١٦.

ابن عيسىٰ بن شعيب السجزي الهروي ، وعبدالجليل بن منصور الهروي الفامي ، وعبد الرحمن بن عبد الجبار الهروي الفامي ، وعبدالله بن مرزوق الهروي ، وعبدالملك بن عبدالله الكرخي الهروي ، وعبيدالله ابن الحسن الأصفهاني الحداد[1] ، وغيرهم[2].

٢ - مؤلفاته : إضافة إلىٰ التعليم والتدريس والوعظ اشتغل الهروي بالتأليف فكانت له مؤلفات في التفسير والحديث والعقائد والتراجم والتصوف ، كما ذكر ذلك الإمام ابن رجب[3] منها : الأربعين في دلائل التوحيد[4] ، الأربعين في السنة[5] ، وهو غير الكتاب السابق - وقد رد الشبل علىٰ السبكي في وهمه أنهما كتاب واحد[6] - ، أنوار التحقيق في المواعظ[7] ، الفتوة[8] ،

---

(١) انظر : ذيل الطبقات ٣/ ٥١ ، السير ١٨/ ٥٠٥ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٥ .

(٢) جمع الشبل جملة منهم وترجم لمشاهيرهم ، في مقدمة تحقيق ذم الكلام ١/ ١١٧ - ١٢٢ .

(٣) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١ .

وابن رجب هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي المشهور بابن رجب الحنبلي ، محدِّث حافظ فقيه أصولي مؤرخ ولد ببغداد سنة ٦٣٧ هـ ، رحل إلى مكة وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧ هـ : شذرات الذهب (٦/ ٣٣٢) ، معجم المؤلفين (٥/ ١١٨) ، البدر الطالع (١/ ٣٢٨).

(٤) انظر : السير ١٨/ ٥٠٩ ، الأعلام للزركلي ٤/ ٢٦٧.

(٥) انظر : السير ١٨/ ٥٠٩ ، الأعلام ٤/ ٢٦٧.

(٦) انظر : ذم الكلام بتحقيق الشبل ١/ ١٢٤ .

(٧) انظر : هدية العارفين ١/ ٤٥٢.

(٨) انظر : شيخ الإسلام ١٠٢.

تكفير الجهمية(١)، شرح كل بدعة ضلالة(٢)، ذم الكلام وأهله(٣)، شرح التعرف لمذهب التصوف(٤)، طبقات الصوفية(٥)، علل المقامات(٦)، الفاروق(٧) وسماه بعضهم بالصفات(٨)، منازل السائرين إلىٰ الحق المبين(٩)، مناقب الإمام أحمد بن حنبل(١٠)، وله مؤلفات في اللغة الفارسية منها: قلندرنامه(١١)، صد ميدان(١٢).

---

(١) ذكره الشبل في تحقيق ذم الكلام ١/ ١٢٦ قال: إن الهروي أحال إليه في ثنايا كتاب ذم الكلام.

(٢) انظر: كشف الظنون ١/ ٧٢٠، هدية العارفين ١/ ٤٥٢.

(٣) انظر: كشف الظنون ١/ ٤٢٠.

(٤) انظر: كشف الظنون ١/ ٤١٩، هدية العارفين ١/ ٤٥٣.

(٥) انظر: شيخ الإسلام ١٠٦.

(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١، المنهج الأحمد ٢/ ١٥٤، هدية العارفين ١/ ٤٥٣، الاستقامة ١/ ١٨٦.

(٧) انظر: منهاج السنة ٥/ ٣٥٨، السير ١٨/ ٥٠٩، ٥١٤.

(٨) انظر: الذهبي في العلو ١٨٩.

(٩) ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى ١٣/ ٢٢٩، السير ١٨/ ٥٠٩ وهو الكتاب الذي نحن بصدد تحقيق أحد شروحه.

(١٠) انظر: تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٥، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١، كشف الظنون ٢/ ١٨٣٦، ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى ٦/ ١٧٧ وفي الدرء ٢/ ٧٦.

(١١) انظر: هدية العارفين ١/ ٤٥٣.

(١٢) انظر: شيخ الإسلام ١٠٨ وقال إنه أصل كتاب منازل السائرين، ثم اختصره في المنازل.

ج - عقيدة الهروي :

عقيدة الهروي

الكلام عن عقيدة أحد من الناس يحتاج من المتحدث إطالة في التحري والتأمل لمؤلفاته ، وأقوالِ الشخص المتحدَّث عنه ، خاصة إذا كان الحديث يتناول شخصية مثل أبي إسماعيل الهروي ، تتنازعه طوائف متقابلة ، ويدعيه المحق والمبطل بسبب ما أحاط بحياته ومواقفه ومؤلفاته من تداخل وإشكال وغموض ؛ لذا يصعب تصنيفه إجمالاً وإلحاقه بطائفة معينة ؛ لأن من نظر إلىٰ جهاده ومواقفه وامتحانه في سبيل الرد علىٰ المبتدعة في زمانه من الأشاعرة والجهمية ، ومؤلفاته مثل ذم الكلام والفارق وتكفير الجهمية ونحوها سيلحقه بأهل السنة وسلف الأمة ، ومن اطلع علىٰ أقواله ومؤلفاته مثل منازل السائرين وزلاته في كتبه الأخرىٰ كعلل المقامات ونحوها وتفسير غلاة الصوفية كلامه بما يوافق مذهبهم كاد يُلحقه بهم ، وأمام هذه الأقوال المتعارضة والمواقف المتباينة أجدني مضطراً للتفصيل في الكلام عن عقيدة الهروي حتىٰ لا نبخس العقيدة الصحيحة السليمة حقها فيلحق بها من وقع في مخالفتها ، وكذلك لا نبخس الهروي حقه في مواقفه وأقواله التي وافق فيها الحق ، وقد جاءت أقوال الأئمة بمثل هذا الميزان ، فشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم والذهبي وابن رجب وغيرهم يذكرون الصفات ، ويبينون الموقف منها بما يقتضيه الحق والعدل ، ويشيدون بالمواقف الحسنة والمؤلفات الجيدة بحسب ما تقتضيه حالها.

وحيث إن الانحراف عن الحق في توحيد الأسماء والصفات عند بعض

الفرق اتسعت دائرتهُ وعمَّ ضررُه ، تحول الحكم علىٰ الآخرين من زاويته ، فمن صحَّ منهجه فيه ألحقه بعضهم بالسلف الصالح دون النظر إلىٰ مخالفاته في أبواب أخرىٰ مثل توحيد الألوهية والقضاء والقدر ونحو ذلك.. ولعل من أطلق سلفية الهروي وأنَّ منهجه موافق لأهل السنة والجماعة ممن وقع في شيء من هذا ، وعليه فإنني سوف أذكر عقيدة الهروي علىٰ حسب أقواله فيما تعرّض له من أبواب العقيدة ، وهي علىٰ النحو الآتي :

توحيد الربوبية ، توحيد الأسماء والصفات ، توحيد الألوهية.

أولاً : توحيد الربوبية[1] :

لقد تغلغل الفناء عند الهروي في جوانب الطريق الصوفي كله ، مقدمات ومراتب وغايات ، وحديثه فيه قويُّ الصلة بحديثه عن التوحيد ومراتبه ، وما يتعلق بذلك من نظرته للسببية وأفعال العباد ، وبتحديد مفهومُ الفناء عند الهروي يتحدد مفهومُ التوحيد.

وسيأتي الحديث عن الفناء عند الهروي في مبحث تقويم المنازل وهو باختصار : «أن تذهب المحدثات في شهود العبد ، وتغيب في مواقف العدم ، ثم تغيب صورة المشاهد ، ثم يغيب شهوده ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه ، وحقيقته أن يفنىٰ من لم يكن ويبقىٰ من لم يزل»[2]؛ لذا قال ابن القيم عند قول الهروي : «الفكرة في عين التوحيد اقتحام بحر

---

(١) التوحيد عند الهروي ومن سلك سبيله مسألة دراسية ستأتي في القسم الخامس من الكتاب.

(٢) المدارج ١/ ١٤٨.

الجحود» قال : «لقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع ، وجاء بما يرغب عنه الكُمّل من سادات السالكين الواصلين إلىٰ الله ، وهذا بناءً علىٰ أصله الذي أصّله ، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء[١]..».

فالتوحيد عند الهروي له وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : توحيد العامة الذي يصح بالشواهد.

الوجه الثاني : توحيد الخاصة وهو الذي يثبت الحقائق.

والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة[٢].

وفسّر الأول بأنه ما يثبت بالرسالة والوحي والصنائع ، والثاني في إسقاط الأسباب الظاهرة ، وعدم التعلق بها فلا يشهد في التوحيد دليلاً ولا في التوكل سبباً ولا في النجاة وسيلة ، وإنما تشهد سبق الحكمة ، وهو يصح بعلم الفناء ويصفو في علم الجمع.

أما الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه بقدره ، وألاح منه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته ، وأخرسهم عند نعته ، وأعجزهم عن بثه[٣].

ولما شرح ابن القيم كلام الهروي ، وما يحتمله من الباطل الذي دخل فيه الملاحدة قال : «فرحمة الله علىٰ أبي إسماعيل فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد ، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم إنه لمنهم وما هو منهم ،

---

(١) المدارج ١/١٤٩.

(٢) انظر : منازل السائرين ١١٠.

(٣) انظر : منازل السائرين ١١٢.

وغرّه سراب الفناء فظن أنه لجة بحر المعرفة وغاية العارفين، وبالغ في تحقيقه وإثباته فقاده قسراً إلىٰ ما ترىٰ»[1].

وقال في كلام الهروي عن الفناء: «.. وها هنا دخل الاتحادي وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد وإن كانت عبارته موهمة بل مفهمة ذلك»[2].

وعند قول الهروي: «شائماً برق العين»[3] قال ابن القيم: «يعني بالجمع الحقيقة الكونية القدرية التي يجتمع فيها جميع المتفرقات، وتشمير القوم إلىٰ شهودها والاستغراق فيها هو غاية السلوك والمعرفة عندهم - إلىٰ قوله - فإن هذا شهود مشترك لأمر أقر به عبّاد الأصنام وسائر الملل»[4]، إذ الاستغراق والفناء في شهود القدر غايته التحقيق لتوحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون - وقال عنهم - لأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكر، إذ الفكرة تدل علىٰ بقاء الرسم - إلىٰ قوله - والتوحيد التام عنده لا يكون مع بقاء رسم أصلاً»[5].

ومما عبر به عن التوحيد قوله:

---

(١) المدارج ١/ ١٤٨.

(٢) المدارج ١/ ١٤٩.

(٣) منازل السائرين ١٠٤.

(٤) المدارج ١/ ١٥٣.

(٥) المدارج ١/ ١٤٧.

ما وحّد الواحدَ من واحد إذ كل من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد[١]

إذ التوحيد الخالص عنده هو فناء الرسوم واضمحلال الحادثات ، فإن الموحد إذا وحده دل ذلك علىٰ شهوده رسم نفسه وهذا جحود لحقيقة التوحيد الذي تفنىٰ فيه الرسوم.. وهذا أحسن ما يحمل عليه كلامه ، وقد فسّره أهل الوحدة بصريح كلامهم في مذهبهم[٢] .

وقال ابن القيم في موطن آخر عند كلامه عن هذه الأبيات وفَرَحِ أهل الوحدة بها قال : «وبالغوا في استحسانها وقالوا هي ترجمة أهل التحقيق»[٣] ، وقال في مواطن أخرىٰ : «إن فيها من الإجمال والحق والباطل والإلحاد ما لا يخفىٰ[٤] ، وإن بعض عباراته موهمة وحدة الوجود بل مفهمة ذلك»[٥] .

وقال : «وإن كلامه لا حاصل له ولا كمال فيه وأنه لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد ، ولا تضمنه القرآن الذي أعلىٰ مراتب التوحيد بل القرآن من أوله إلىٰ آخره يدل علىٰ خلافه»[٦] ، ووصف كلامه في التوحيد أنه من أبطل الباطل ،

---

(١) منازل السائرين ١٣٩.
(٢) انظر المدارج ١/ ١٤٧.
(٣) المدارج ٣/ ٥١٩.
(٤) المدارج ٣/ ٥١٥.
(٥) المدارج ١/ ١٤٩.
(٦) المدارج ٣/ ٥١٦.

وأنه لا معنىٰ صحيح ولا لفظ مليح؛ بل المعنىٰ أبطل من اللفظ ، واللفظ أقبح من المعنىٰ[1].

وموقف شيخ الإسلام من الهروي في التوحيد أشد من موقفه منه في تقسيم المنازل[2] ، حيث جعله بناءً علىٰ تعريف التوحيد عنده أنه ممن يقول بنوع من الحلول وهوْ الذي يسميه ابن تيمية بالحلول الخاص[3].

وقال في موضع آخر: «وقد وقع في ذلك طائفة من الصوفية حتىٰ صاحب منازل السائرين في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذه الحلول»[4]. وقال أيضاً : «أنه مع علمه وسنته ومعرفته ودينه قد ظن أن ما تحدث به هو نهاية التوحيد ولكنه ينتهي في كتابه إلىٰ الفناء في توحيد الربوبية ثم إلىٰ التوحيد الذي هو حقيقة الاتحاد»[5].

وقال في شرحه للأبيات التي وصف بها الهروي توحيده : « وحقيقة الأمر - أي عندهم - أن كل من تكلم بالتوحيد وتصوره وهو يشهد غير الله فليس بموحد ، وإذا غاب وفني عن نفسه بالكلية فتم له مقام توحيد الفناء الذي يجذبه إلىٰ توحيد أرباب الجمع ، صار الحق هو الناطق المتكلم بالتوحيد

---

(١) انظر المدارج ٣/ ٥١٨.

(٢) انظر الفتاوى ١٣/ ٢٢٩ ، ١٠/ ٤٩٧.

(٣) انظر الفتاوى ٥/ ٢٣٠.

(٤) الفتاوى ٥/ ٢٣٠ ، ٤٨٥.

(٥) منهاج السنة ٥/ ٣٤١-٣٤٢.

وكان هو الموحِّد والموحَّد لا موحِّد غيره ، وحقيقة هذا القول لا يكون إلا بأن يصير الرب والعبد شيئاً واحداً وهو الاتحاد فيتحد اللاهوت والناسوت كما يقول النصارىٰ»[١] .

وبعد كلام طويل شرح فيه تعريف الهروي للتوحيد : «وألاح فيه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته وأخرسهم عن نعته وأعجزهم عن بثه»[٢] ، قال : «فيقال: أفضل صفوته الأنبياء.. وما ألاحه الله علىٰ أسرار هؤلاء فهو أكمل توحيد عرفه العباد ، وهم قد تكلموا بالتوحيد ونعتوه وبثوه ، وما يقدر أحد أن ينقل عن نبي من الأنبياء ولا وراث نبي أنه يدعي أنه يعلم توحيداً ، لا يمكنه النطق به؛ بل كل ما علمه القلب أمكن التعبير عنه لكن قد لا يفهمه إلا بعض الناس..»[٣].

ثم قال : «والاتحاد والحلول الخاص وقع فيه كثير من العباد والصوفية وأهل الأحوال ، فإنه يفجؤهم ما يعجزون عن معرفته وتضعف عقولهم عن تمييزه ، فيظنونه ذات الحق»[٤].

وفي آخر كلامه عن التوحيد عند الهروي قال : «وأبو إسماعيل لم يرد هذا فإنه قد صرح في غير موضع من كتبه بتكفير هؤلاء الجهمية الحلولية الذين

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢.

(٢) المنازل ١٣٧ ، منهاج السنة ٥/ ٣٧٥.

(٣) منهاج السنة ٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٤) منهاج السنة ٥/ ٣٨٣.

يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، وإنما يشير إلىٰ ما يختص به بعض الناس»[1]، «وهو اللبس الذي يحصل عند بعضهم كما سبق وهو في الحقيقة إنما هو ما في قلوبهم من المثال العلمي الذي حصل بحسب إيمانهم به»[2].

وبمثل هذه النهاية التي ظهرت من كلام شيخ الإسلام ينتهي كلام ابن القيم عن الهروي بقوله: « وإذا كانت بعض عباراته مجملة بحيث يتشبث بها طائفة الاتحادية والحلولية فإن سنته المفصلة مبطلة لظنهم»[3].

وعلىٰ مثل هذه الكلمات الاعتذارية التي محصلتها تبرئة الهروي من القول بالحلول والاتحاد اعتمد من ألحق الهروي بعقيدة السلف أهل السنة والجماعة[4]، وغاية ما تدل عليه تلك الكلمات من أئمة أهل الإسلام أنه ليس من أهل الحلول والاتحاد، وبسبب الخلط بين الفناء والتوحيد عندهم قال

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٣٨٣.

(٢) منهاج السنة ٥/ ٣٨٤.

(٣) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٤) قال الشيخ عبد الرحمن الشبل: إن عقيدة ذلك الإمام هي عقيدة السلف أهل السنة والجماعة ولله الحمد والشكر.. وقال: شهد بذلك عدد من أئمة أهل السنة ذكر منهم شيخ الإسلام، والذهبي في العلو.

قلت: أما قول الذهبي عنه في العلو فهو: «كان أبو إسماعيل آية في التفسير، رأساً في التذكير، عالماً بالحديث وطرقه، بصيراً باللغة، صاحب أحوال ومقامات فيا ليته لا ألف كتابه المنازل ففيه أشياء منافية للسلف وشمائلهم» العلو، ١٨٩، فالذي يظهر من عبارة الذهبي خلاف ما فهمه الشبل.

شيخ الإسلام ابن تيمية : «وهذا الذي ابتدعوه أعظم - عندهم - مما وافقوا فيه الرسل» . كما في الفتاوىٰ (١٣/ ٢٢٩)(١٠/ ٤٩٧).

ثانياً : توحيد الأسماء والصفات :

أُفرد توحيد الأسماء والصفات وهو جزء من توحيد الربوبية لما حدث الانحراف في فهمه وتحقيقه عند بعض الطوائف كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الطوائف.

وعقيدة أبي إسماعيل الهروي في توحيد الأسماء والصفات ظاهرة في كتابه (الأربعين في دلائل التوحيد) موافقاً بها ما يعتقده السلف الصالح أهل السنة والجماعة ، ومواقفه من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية شاهد آخر لصحة عقيدته في هذا الباب ، وتحذيره من علم الكلام ومن خاض فيه ، وهو ما أوضحه في كتابه (ذم الكلام) كانت هذه الجهود العلمية والمواقف الجهادية حجة قوية لمن دافع عنه كما مرَّ قريباً من كلام ابن القيم وقبله كلام الذهبي حين يقول عن الهروي : «بل هو رجل أثري لهج بإثبات نصوص الصفات منافر للكلام وأهله جداً»[1].

وفي هذا الشأن يقول ابن القيم : «وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف في إثبات الصفات..»[2] ، وقال مدافعاً عما يحتمله كلام الهروي من

---

(١) سير الأعلام ١٨/ ٥٠٩.

(٢) المدارج ١/ ٢٧٣.

نفي الصفات في قوله : «غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد»(١).

قال : «وقد يريد بالشواهد الأسماء والصفات والغيبة عنها بشهود الذات ولكن هذا ليس بكمال ولا هو أعلىٰ من شهود الأسماء والصفات؛ بل هذا شهود المعطلة المنكرين لحقائق الأسماء والصفات ، فإنهم ينتهون إلىٰ شهود ذات مجردة ، ومن هاهنا دخل الملاحدة القائلون بوحدة الوجود.. تعالىٰ الله عن كفرهم وإلحادهم علواً كبيراً ، وشيخ الإسلام براء من هؤلاء ومن شهودهم»(٢) ، «قد يكون لفهمه للصفات أثر علىٰ الأسباب ومنها التوكل حيث إن التوكل الحق لا يصح إلا من أهل الإثبات للأسماء والصفات أما الذين يؤولون الصفات أو ينفونها فلا يصح توكلهم»(٣) ، ومما يكشف هذا التداخل ما يقوله ابن القيم وقد عرف الهروي ودافع عنه من منطلق سنته المفصلة فيقول : «إنه كان راسخاً في إثبات الصفات ونفي التعطيل ومعاداة أهله ، وله في ذلك كتب مما يخالف طريقة المعطلة والحلولية والاتحادية»(٤).

وبسبب قلق العبارة وسوء التعبير(٥) قد يطلق الهروي عبارات غامضة تجد من يفسرها بما لا يتفق مع سيرته (٦) ، من ذلك قوله في التوحيد هو : «تنزيه الله

(١) منازل السائرين ٩٠.

(٢) المدارج ٣/ ٢١٣.

(٣) المدارج ٢/ ١١٧ـ ١١٨.

(٤) المدارج ٣/ ٥٢١.

(٥) المدارج ٢/ ٢٧ ، ٣/ ١٥٦.

(٦) المدارج ٣/ ١٦٦ ، ١٧٣ ، ٢٤٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٥٢١.

عن الحدث»[١] ، ذكر ابن القيم المعاني المحتملة التي دخل منها المخالفون للصواب[٢] ثم بين قول الهروي والجنيد سابق له في ذلك وأن من معانيه إفراده سبحانه بصفات الكمال وإثباتها له علىٰ وجه التفصيل... فيباين صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الباطل[٣] والقدر الذي فهمه الحلولية والاتحادية والمعطلة لا يخفىٰ علىٰ شيخ الإسلام الهروي ومحله من العلم والمعرفة محله[٤].

ومن نفائس التقويم ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية عن الهروي : إن عمله خير من علمه[٥] ، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار ، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله[٦].

ثالثاً : توحيد الألوهية :

سبق أن النوع الثاني من التوحيد عند الهروي - توحيد خاصة الخاصة - وهو يقوم علىٰ إسقاط الأسباب[٧]؛ لأن ملاحظتها تقدح في فهمه للتوحيد

---

(١) منازل السائرين ١١٠.

(٢) المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٣) المدارج ٣/ ٤٤٦.

(٤) المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٥) المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٦) المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٧) انظر: المنازل ١١١، وانظر منزلة التوكل في هذا البحث، والمدارج ٣/ ٤٩٤.

الذي تسقط معه آثار الأسباب ، ومن غلو الهروي في نظرته للأسباب جعل تعليق الكوائن بالأسباب نوعاً من التلبيس في العبادة ؛ لأن نسبتها إلىٰ الأسباب تفريق ينافي شهود الحقيقة الكونية(١) ، لذا قال ابن القيم عن كلام الهروي: إنه من أبطل الباطل(٢) ، وأنه جاء بما يرغب عنه الكمل من العارفين(٣) ، وقال في موضع آخر : «إنه شنيع جداً» (٤) ، وبين صلة هذا الكلام بمن ينكر السببية مثل الجهم بن صفوان ومن سار علىٰ منهجه ، فقال : وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد ؛ بل القيام بها واعتبارها هو محض التوحيد والعبودية ، والقول بإسقاطها هو توحيد القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر فإنه كان غالياً فيه (٥).

ومبنىٰ هذا عند الهروي علىٰ محو الأسباب ، والصحيح أن الدين هو إثبات الأسباب فالحقيقة والشريعة مبناهما علىٰ إثباتها لا علىٰ محوها(٦) ، ولا يتم الإسلام ولا الإيمان إلا بذلك ، فالأسباب عُرف الله بها وبها عُبِد وبها أُطيع ، وبها أرسل الرسل ، فهي واجبة شرعاً واقعة قدراً ، قال ابن القيم : «ويا لله ما

---

(١) انظر : المنازل ١٣٠ ، المدارج ٣/ ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) المدارج ٣/ ٣٩٥.

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٤٧

(٤) المدارج ٣/ ٤٠٤.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

أجهل كثيراً من أهل الكلام والتصوف حيث لم يكن عندهم تحقيق التوحيد إلا بإلغائها و محوها وإهدارها بالكلية.. فهذا توحيدهم الذي يحومون حوله ويبالغون في تقريره ، فلعمرُ الله لقد أضحكوا عليهم العقلاء ، وأشمتوا بهم الأعداء»(١).

وقال شيخ الإسلام بعدما تحدث عمن عطل الأسباب ، وأشار إلىٰ كلام الهروي (في علل المقامات) قال : «فإن غلط هذا في ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله تعالىٰ : ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود :١٢٣] كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به»(٢).

وقد فصَّل ابنُ القيم القول في الرد علىٰ منكري الأسباب ، وعلىٰ من قال باستقلالها بذاتها في طريق الهجرتين ، ومفتاح دار السعادة(٣) ، وفي مواضع مت عددة من المدارج(٤) ، وفَصْم العلاقة بين الأسباب ومسبباتها مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين؛ بل ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة(٥) ، ومن آثار إهمال الأسباب التهوين من شأن التوكل ،

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٩.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٣٥ـ٣٦.

(٣) طريق الهجرتين ٢٨٩ ـ ٢٩١ ، مفتاح دار السعادة ٢/ ٤٠.

(٤) المدارج ١/ ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢/ ١١٧ ، ١١٨ ، ٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٨٢ ـ ٤٨٥ ، ٥٠٥ وغيرها.

(٥) المدارج ٣/ ٤٩٧ ، الفتاوى ٥/ ٦٢ ـ ٦٨.

وإسقاط الحسن والقبح لمشاهدة العبد الحكم[1] ، فإن نفاة التعليل والأسباب والحِكَم وحسن الأفعال وقبحها يقولون ما ثم إلا محض المشيئة فليس للأفعال علل غائية[2]؛ لذا غلط من غلط من أرباب السلوك والإرادة في هذا الباب حيث ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية والفناء في توحيد الربوبية من مقامات العارفين[3] ، فالعارف عندهم لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر ، وهذا من أقبح الجهل[4].

وبعد سياق ابن القيم لأوجه الشبه بين هؤلاء والجبرية نفاة الأسباب والحكم والتعليل ، قال : «وبالجملة فلهذا السلوك لوازم عظيمة البطلان ، منافية للإيمان ، جالبة للخسران»[5] ، ثم قال : «فتركب من اعتقادهم كونها محبوبة للرب ، وكونهم مأمورين بالرضا بها والتسوية بين الأفعال ، وعدم استقباح شيء منها أو إنكاره ، وانضاف إلىٰ ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها وأنها ليست فعله فلزم من ذلك رفع الأمر والنهي ، وطي بساط الشرع ، والاستسلام للقدر ، والذهاب معه حيث كان»[6].

(١) المدارج ٣/ ٢٢٧.

(٢) المدارج ٣/ ٢٤٢.

(٣) المدارج ٣/ ٢٤٤.

(٤) المدارج ٣/ ٢٤٥.

(٥) المدارج ٣/ ٢٤٧.

(٦) المدارج ٣/ ٢٥٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الصنف من الصوفية : «فهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلاً عن عامتهم ، ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له..» .

وبعد ذلك ذكر أقسامهم ، قال عن أكثرهم ضلالاً : «وهؤلاء ينظرون إلىٰ الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي»(١) ، وقال : «وأما من جعل حكمه مجرد القدر كما فعل صاحب (منازل السائرين) ، وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه أن يستحسن حسنةً أو يستقبح سيئة ، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه في غير هذا الموضع»(٢).

أما علاقة ذلك بالتوكل، فإن التوكل عند الهروي من أوهىٰ سبل الخاصة(٣) ، وعند هذا نقل ابن القيم كلام ابن تيمية فقال : «قال شيخنا ـ رَضي الله عنه ـ : لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة ، ولا من الجهمية النفاة لصفات الرب»(٤).

ومن نفىٰ الأسباب فتوكله مدخول ، قال ابن القيم : «فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ؛ لأن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكل

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٨٧.

(٣) المنازل ٣٣.

(٤) المدارج ٢/ ١١٨.

فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به»[1]، فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه توكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، فلا يستقيم التوكل حتىٰ يصح التوحيد، وحقيقة التوكل توحيد القلب[2].

ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضىٰ التوحيد والعقل والشرع[3].

مما سبق من اضطراب الهروي في مسألة الأسباب، وأثر ذلك علىٰ التوكل والرجاء، نفهم تنوع كلمات الأئمة عن الهروي؛ فمنها ما ينزَّل علىٰ صريح كلماته التي لا تقبل الاحتمالات، ومنها ما يمكن حمله علىٰ الحق ما أمكن، ومنها ما يرجع فيه إلىٰ سيرته وعمله دون ما يجري علىٰ لسانه من شطح وغموض.

من ذلك قول ابن القيم: «ولكنه - رحمه الله - كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات»[4]، وقال عن التلمساني شارح المنازل:

---

(١) المدارج ٢/ ١١٨.

(٢) انظر: المدارج ٢/ ١٢٠.

(٣) انظر: الفتاوى ١٠/ ٣٥.

(٤) المدارج ١/ ٢٦٤.

«ولكن الألفاظ مجملة وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد ، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد»[١].

وقال شيخ الإسلام : «وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع ، فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهي عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية.. إلىٰ قوله : حتىٰ يفضي الأمر بغلاتهم إلىٰ عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي ، وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي تجري علىٰ أيدي الكفار والفجار»[٢] ، فيشهدون الجمع دون الفرق.

وفيما يجري علىٰ ألسنتهم من الأقوال المنكرة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يُسْقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان... فيصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارىٰ ، وهي شطحات بعض المشايخ - كمن زال عقله بسبب غير محرم - ، فكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وفعالهم علىٰ الصحة؛ بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة»[٣].

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٥.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٣٣٩ ـ ٣٤١.

وخاتمة التفصيل في تقويم عقيدته في هذا الباب إليك قول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وأما الفناء الذي يذكره صاحب (المنازل) ، فهو الفناء في توحيد الربوبية لا في توحيد الألوهية ، وهو مثبت توحيد الربوبية مع نفي الأسباب والحكم كما هو قول القدرية المجبرة كالجهم بن صفوان ومن اتبعه والأشعري وغيره ، وشيخ الإسلام وإن كان - رحمه الله - من أشد الناس مباينة للجهمية في الصفات ، وقد صنف كتابه (الفاروق في الفرق بين المثبتة والمعطلة) ، وصنف كتاب (تكفير الجهمية) ، وصنف كتاب (ذم الكلام) ، وزاد في هذا الباب حتىٰ صار يوصف بالغلو في الإثبات للصفات؛ لكنه في القدر علىٰ رأي الجهمية نفاة الحكم والأسباب ، والكلام في الصفات نوع ، والكلام في القدر نوع»[1].

فهذه بعض أقوال الأئمة في الموازنة بين الجرح والتعديل بما يتفق مع قول الهروي وفعله ، وانظر إلىٰ جملة منها في كتب التراجم والسير[2].

* * *

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٣٥٨ـ ٣٥٩ ، الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ١٠٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٥ ، اجتماع الجيوش الإسلامية ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٥٤ـ ٥٥ ، منهاج السنة ٥/ ٣٤١ ، ٣٨٣ ، سير الأعلام ١٨/ ٥١٠ ، ٥١٤ ، العلو للذهبي ٢٦٠ ، الاستقامة ١/ ١٨٦.

المسألة الثانية : منهج الهروي في كتابه « منازل السائرين »

أولاً - المنهج الذي صرح به في مقدمة المنازل :

١ - تخلية الكتاب من كلام غيره واختصاره.

٢ - رتبه فصولاً وأبواباً ، فجعله مائة مقام مقسومة علىٰ عشرة أقسام.

٣ - لاحظ في ترتيبها أنه لا يصح للعبد مقام حتىٰ يرتفع عنه ثم يشرف عليه فيصححه[1] ، وأن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات[2].

٤ - أن جميع تلك المقامات يجمعها ثلاث رتب :

الرتبة الأولىٰ : أخذ القاصد في السير.

الرتبة الثانية : دخوله في الغربة.

الرتبة الثالثة : حصوله علىٰ المشاهدة الجاذبة إلىٰ عين التوحيد في طريق الفناء.

٥ - اعتمد في رسمه لتلك الرتب علىٰ ثلاثة أحاديث :

الأول : قوله ﷺ : «سيروا سبق المفردون» ، وقال هذا حديث حسن وذكر

---

(١) هذا القول تبع فيه الجنيد كما صرح بذلك في المقدمة.

(٢) التمكين شرح منازل السائرين ٤.

تخريج مسلم لبعض طرقه[١].

الثاني : قوله ﷺ : «**طلب الحق غربة**»[٢] وقال حديث غريب.

الثالث : قوله ﷺ في حديث سؤال جبريل ما الإحسان : «**قال أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» صحيح غريب أخرجه مسلم[٣].

٦ - ثم فصل المقام إلىٰ درجات ثلاث : الأولىٰ للعامة ، والثانية للسالك ، والثالثة للمحقق.

---

(١) حديث « سبق المفردون.. » : أخرجه مسلم. الذكر والدعاء من حديث أبي هريرة (٤/ ٢٠٦٢) رقم (٢٦٧٢) ، أحمد (٢/ ٣٢٣) ، الترمذي من حديث أبي هريرة (٥/ ٥٧١) رقم(٣٦١١) وقال حسن غريب.

(٢) أورده الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٤٤٣) رقم (٣٩٢٠) ، وقال محققه : الحديث في تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٤٥٤) ، وأخرجه أيضاً من طريق كلهم صوفية عن علي بن أبي طالب ، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٣) ، أخرجه الهروي في ذم الكلام ومنازل السائرين بسند صوفي إلى علي رفعه : «**طلب الحق غربة**» قال ابن حجر في لسان الميزان : «علاف بن زيد الصوفي لعله واضع هذا الحديث الذي في منازل السائرين :«**طلب الحق غربة**» رواه عنه عبدالواحد بن أحمد الهاشمي ولا أعرف الآخر ، لسان الميزان (٤/ ١٨٧) ، والمناوي في فيض القدير رقم (٥٢٧٠) ، من رواية ابن عساكر عن علي ورمز له بالضعف وعزاه لابن عساكر عن علي صاحب كنز العمال (١/ ٢٣٩) رقم (١١٩٦) ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٢٤٩) رقم (٨٥٦) : موضوع رواه ابن عساكر ، وسنده مظلم مسلسل بالصوفية.

(٣) مسلم. الإيمان (١/ ٣٧) ح(٨) ، وانفرد مسلم بإخراج الحديث بطوله دون البخاري ، أحمد من حديث عمر (١/ ٥١) أخرجه من حديث أبي هريرة : البخاري/ الإيمان مختصراً (١/ ٣٣) ح(٥٠).

٧ - ثم سرد الأقسام العشرة وهي : البدايات ، الأبواب ، المعاملات ، الأخلاق ، الأصول ، الأدوية ، الأحوال ، الولايات ، الحقائق ، النهايات.

ثانياً - منهجه حسب الاستقراء :

١ - الرمزية والاشتباه والإجمال والإشارة والإلغاز(١).

٢ - الاستدلال الإشاري بالآيات في مقدمة كل منزلة.

٣ - عدم الاستشهاد بالأحاديث إلا في مواضع قليلة كما في منزلة الأنس.

٤ - تأسيس الكتاب على قاعدة [عدم صحة البدايات إلا بصحة النهايات].

٥ - تفاوت كلامه من حيث الاختصار والبسط ، فهو يطيل في بعضها ، ويختصر في بعض.

*** نقد المنهج :**

١ - استدلاله بالأحاديث التي ذكرها مستنداً لتقسيم المراتب الثلاث ، يرجع إلى التفسير الإشاري ، والتكلف في الاستشهاد.

٢ - التكلف في الاستدلال للمنازل بآيات بعيدة عن مراده ، كما في الدهش والهيمان والبسط والقلق.

٣ - استعمل الرمز والإشارة والغموض مما فتح باباً لحيرة الموحد ودخول

---

(١) أشار بعض شراح المنازل إلى أن هدفهم من الشرح حل الرُّموز والمصطلحات التي أحاطت مقاصد الهروي بالغموض ، انظر : التمكين ٣.

الملحد[1].

٤ - تفاوت كلامه علىٰ المنازل فقد بسط القول في الفناء والتوحيد، واختصره في الدهش والإلهام. حدَثَ عن ذلك بقاء بعض المنازل غامضة إذ لا يفهم مراده بها.

٥ - أكثر من تقسيم المنازل وهي متداخلة إذ يمكن أن تندرج ببعضها لتصبح أقل من ذلك، مثل: المكاشفة والمشاهدة، السر والسرور، السكينة والطمأنينة، البصيرة والفراسة، القلق والعطش، وغيرها.

٦ - قدّم ما حقه التأخير والعكس، كما في منزلة المحاسبة والتوبة والقصد، التوحيد، البصيرة، مما يدل علىٰ أن الترتيب الذي سار عليه كل من رتب المنازل فيه تحكم كما أشار إلىٰ ذلك ابن القيم في المدارج (١/ ١٦٦، ١٦٨).

٧ - التكلف في تقسيم بعض المقامات والأحوال، كما في التوكل، والصبر، والرضىٰ، انظر المدارج (٢/ ١٣٧، ١٦٨، ١٨٣).

٨- خطؤه في تسمية بعض العوارض بالأحوال والمقامات مثل: الحزن والدهش والهيمان، انظر المدارج (١/ ٥٠٥) (٣/ ٧٢، ٧٥، ٧٩).

* * *

(١) ومن أمثلة ذلك انظر المدارج ١/ ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣/ ٦١، ١٧٦، ٢٩٢، ١٣٢، ١٥٠، ١٥٢.

المسألة الثالثة : تقويم المنازل إجمالاً مع مدخل في التقويم

(مقدمات) في تقويم المنازل

مقدمات في تقويم المنازل

أولاً ـ نشأة المصطلح الصوفي وأطواره :

قال ابن خلدون : « وصار علم الشريعة علىٰ صنفين . . صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهو الأحكام العامة في العبادات والمعاملات . . وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة و محاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجيد العارضة في طريقها وكيفية الترقي فيها من ذوق إلىٰ ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم »(١).

ويقول السلمي عن شقيق البلخي : « وأظنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان »(٢) .

وقال السراج : « اعلم أيدك الله بالفهم وأزال عنك الوهم أن أبناء الأحوال وأرباب القلوب ، فإن لهم أيضاً مستنبطات في معاني أحوالهم وعلومهم وحقائقهم .. »(٣) .

وقال عرفان فتاح : « والمعروف الثابت عن السلاسل الروحية لهذه الطرق

---

(١) المقدمة لابن خلدون ٤٢٩.

(٢) طبقات الصوفية ٦١.

(٣) اللمع ١٠٧.

الصوفية الكبرىٰ أنها تلتقي جميعاً في نسبتها الروحية عند الشيخ أبي القاسم الجنيد البغدادي (ت ٢٩٨هـ) بتوسط معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) والسري ابن المغلس السقطي (ت ٢٥٣ هـ)»[١].

ثم يذكر سلسلة الاتصال التي أوردها ابن النديم[٢]، وهي: جعفر الخلدي عن أبي القاسم الجنيد عن السري عن معروف الكرخي عن فرقد السبخي عن الحسن البصري.

والسلسلة التي أوردها القشيري هي: (أبو علي الدقاق عن أبي القاسم إبراهيم النصر أباذي عن الشبلي عن الجنيد عن سري عن معروف عن داود الطائي عن التابعين).

ولقد ذكر الكلاباذي عدداً ممن نطق بعلوم القوم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقالاتهم ومقاماتهم، بدأهم بـ (علي بن الحسين زين العابدين) وختمهم بـ(علي بن يزدانيار) هذا من حيث الأقوال والأفعال، أما من نشر علمهم كتباً ورسائل فقد سرد طائفة منهم بداية بالجنيد ونهاية بالشبلي[٣].

أما تعريف الأحوال والمقامات فإن التعريف يرجع إلىٰ التجربة الشخصية كما سبق، ومع هذا فإن هناك شبه إجماع يفصل الحال عن المقام.

---

(١) دراسات في الفكر العربي الإسلامي ٢٣٠.

(٢) الفهرست ٢٦٠.

(٣) انظر التعرف ٢١ ـ ٢٧.

فالمقام : هو مقام العبد بين يدي الله فيما يقوم به من العبادات والمجاهدات والرياضات ، مثل : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل؛ فهي مما يُتوصل إليه بالكسب والطلب ، وبذل المجهود[١].

والحال[٢] : هي ما يحل بالقلب من صفاء الأذكار ، وهي أمور لا تدرك ، مثل المراقبة والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس . . لكنها ليست عن طريق المجاهدات فهي مواهب[٣] ، إذاً هي معنىٰ يرد علىٰ القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب ولا تعمد ، فهي من عين الجود ، والمقام من بذل المجهود[٤].

وقد يكون هناك تداخل بين المقامات من حيث كون كل منهما كسب وموهبة[٥] وهي عند ابن القيم متلازمة[٦] ، فهو يرىٰ أن الترتيب الذي صنعه كل

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٤٧.

(٢) اللمع ٤٠.

(٣) اللمع ٤١.

(٤) المدارج ٢/ ٤٤٧.

(٥) انظر : عوارف المعارف بهامش إحياء علوم الدين ٥/ ٣٢٠ ، الرسالة القشيرية ١/ ١٩٣ ، اللمع ٤١١ ، إحياء علوم الدين ٤/ ١٧٧ . ولقد أثنى ابن القيم على طريقة سهل التستري وأبي طالب المكي والجنيد وأبي عثمان النيسابوري ويحيى بن معاذ ، ويرى أنهم تكلموا في أعمال القلوب كلاماً جامعاً مطلقاً عن الترتيب وعن حصر المقامات بعدد معلوم ، مدارج السالكين ١/ ٥٧ ، ولعنايته بأعمال القلوب زاد منزلة المروءة ، وليست في المنازل .

(٦) المدارج ١/ ٧٣ ، ١٣٣.

مرتب للمنازل لا يخلو من تحكم ودعوىٰ من غير مطابقة ، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ودخل فيه كله فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ومقاماته وأحواله وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات . . وقد يعرض له أعلىٰ المقامات والأحوال في بداية سيره فيحصل له ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته[1] ، وهو بهذا يرد علىٰ مقالتهم وتأسيسهم أنها لا تصح النهايات إلا بصحة البدايات .

وظهر عدم موافقة ابن القيم علىٰ تلك التقسيمات ، وبيان أنه في مدارج السالكين ليس شارحاً لمنازل السائرين علىٰ مراد الهروي ، فهو لم يصرح بأنه شارح ، ومن ذلك قوله : « ونحن بعون الله ننبه علىٰ هذا بالكلام علىٰ فاتحة الكتاب وأم الفرقان ، وعلىٰ بعض ما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبها ، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ، ولا يسد مسدها »[2].

فهو بهذا يعد كتابه شرحاً للفاتحة واستخراج المنازل والمقامات منها دون التقيد بأي مصطلح أو ترتيب مسبق ، وهذا ظاهر في عدم تقيده بترتيب منازل السائرين .

وانطلاقه من القرآن الكريم إذ يقول : « نذكر منازل العبودية الواردة في

---

(١) المدارج ١/ ١٣٨.

(٢) المدارج ١/ ٤٣.

القرآن والسنة ، ونشير إلىٰ معرفة حدودها ومراتبها . . ونذكر لها ترتيباً غير مستحق بل مستحسن ، بحسب ترتيب السير الحسي ليكون ذلك أقرب إلىٰ تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس ، فيكون التصديق أتم ، ومعرفته أكمل ، وضبطه أسهل »[1].

فهو يقدم ويؤخر دون تقيد بمنازل الهروي؛ بل بإشارة مجملة لبعضها دون الالتزام بترتيب الهروي ، فيبدأ بالبصيرة وهي عند الهروي برقم (٥٤) ، ثم تحدث عن القصد وهو عند الهروي برقم (٤١) ، وقدم المحاسبة علىٰ التوبة[2] ، ويعلل لهذا الفعل بعدم مطابقة تقسيمهم للواقع كما سبق ، « وبأن من تكلم علىٰ أعمال القلوب والأحوال كلاماً مفصلاً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد »[3] ، وجعل الهروي التوحيد آخر المقامات ، ورد عليه ابن القيم بقوله : «فلا وجه لجعله آخر المقامات وهو مفتاح دعوة الرسل »[4].

ومن مخالفته لها من حيث الترتيب ، فإنه يخالفهم من حيث تداخل المقامات والمنازل كما في منزلة الحزن والدهش[5].

وكذلك حديثه عن الإلهام والإفهام ، والرؤيا الصالحة في المقدمة عند

---

(١) المدارج ١/ ١٦٨.

(٢) المدارج ١/ ٧١ ، ٧٢.

(٣) المدارج ١/ ١٦٧.

(٤) المدارج ١/ ٢١٣ ، ٢٨٥.

(٥) المدارج ١/ ٥٠٥ ، ٣/ ٧٥ .

مراتب الهداية وهي عند صاحب المنازل متأخرة جداً رقمها (٥٧).

وجمع ابن القيم القلق مع الشوق والعطش من دون التزام بتقسيم صاحب المنازل ، وخالفه في مسألة الصبر والمحبة وأن التوحيد الفكر ، وكون الحزن منزلة والمشاهدة والمكاشفة[1].

وفي ترتيب الهروي للمنازل مستند اقتبسه من الأحاديث كما ذكر ذلك في مقدمته (ص٦٥) ، وأن المقامات تجمعها ثلاث رتب ، الأولىٰ : القاصد في السير ، والثانية : دخوله في الغربة ، والثالثة حصوله علىٰ المشاهدة[2].

وقد سُبِق إلىٰ ترتيب المنازل حيث يقول : « وإني خفت إن أخذت في شرح قول أبي بكر الكتاني : « إن بين العبد والحق ألف مقام من نور وظلمة «طوَّلت عليَّ وعليهم »[3] .

ولئن كانت عبارة المنازل غامضة فهناك من سبق لهذا الغموض ، إذ يعد المواقف لأبي عبدالله النفري نمطاً خاصاً من أنماط التعبير الصوفي ، ويختلف عنه من حيث الغاية والمضمون ، فهي سلم للترقي المعروف بالأحوال والمقامات ، لا تستعير المصطلح الصوفي المعروف ، وإذا كانت المقامات

---

(١) المدارج ١/ ٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢/ ٨٦ ـ ٩١ ، ٣/ ١٤٦ ، وقد أنكر على الصوفية القول بوحدة الوجود وسقوط التكليف ، والتفرقة بين الحقيقة والشريعة ، والقول بتحكيم الذوق وطرح العلم مع المحاولة الجادة في تخليص التصوف مما شابه من انحرافات .

(٢) المنازل ص٤ .

(٣) المنازل ص٢ .

والأحوال والمنازل عند الهروي مائة ، فهي عند النفري سبعة وسبعون موقفاً ، وقد شرحها التلمساني كما شرح المنازل(١).

وممن أفاض في الكلام عن المقامات والأحوال ، وأقسامها والفروق بينها الهجويري في كشف المحجوب ، السراج في اللمع ، وأبو طالب في قوت القلوب ، والغزالي في الإحياء ، والسهروردي في عوارف المعارف ، والسهروردي المقتول في التلويحات والمقامات والمطارحات وحكمة الإشراق(٢).

ثانياً ـ الرمز والإشارة عند الصوفية :

قال السراج : «.. وهذا العلم أكثرهُ إشارة لا تخفىٰ علىٰ من يكون من أهله ، فإذا صار إلىٰ الشرح والعبارة يخفىٰ ويذهب رونقه . . »(٣) ، ثم يمثل لذلك بتعريف التوحيد عند (رويم) . الرمز والإشارة عند الصوفية

وقال : « ولمشايخنا في التوحيد مصنفات ، وقد قصدنا إلىٰ القليل المشكل من ألفاظهم ليستدرك به ما لم يشكل . . »(٤).

---

(١) انظر : المتواليات . د/ يوسف زيدان ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) انظر : في ذلك الحركة الصوفية في الإسلام . د/ محمد أبو ريان ١١١ ـ ١١٦ ، وأصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي للمؤلف السابق ص٦٠ وما بعدها ، وانظر في ذلك أيضاً مقدمة شرح المنازل للتلمساني ١٧ ـ ١٨ ، ٦٦ ، الرسالة القشيرية ٢٣٤ ، نشأة الفلسفة الصوفية لعرفان فتاح ١٣-١٤ ، ٢٢ -٢٤ -٢٥ ، الفتاوى ١٠/ ٤٩٧ ٤٩٨ ، ١٣/ ٢٢٩ .

(٣) اللمع ٣١ .

(٤) اللمع ٣٥ .

ثم بوَّب باباً في شرح الألفاظ المشكلة الجارية في كلام الصوفية[١].

وقال أبو الوفاء التفتازاني : « إنهم أسرفوا في الرمزية إسرافاً إلىٰ حد بدأ معه كلامهم غير مفهوم للغير »[٢].

وقال الدكتور يوسف زيدان : « . . وعلىٰ هذا النحو كانت الغوثية إحدىٰ الحلقات التي من خلالها تطورت اللغة الصوفية التي عرفت باسم لغة الإشارة»[٣].

وقال السراج : والرمز معنىٰ باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله.

قال القناد: إذا نطقوا أعجزك مرمىٰ رموزهم وإن سكتوا هيهات منك اتصاله[٤].

وكما أنهم يستخدمون الرمز والإشارة في التعبير عن مرادهم ، كذلك يستخدمونه في الفهم من النصوص ، ومن أمثلة ذلك تأليف القشيري كتاب (لطائف الإشارات) .

وكذلك ما ذكره في مقدمة تفسيره الموسوم بـ (حقائق التفسير) ، وقد نقد

---

(١) اللمع ٣٣٣ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي ١٩٢.

(٣) المتواليات ٤٢.

(٤) اللمع ٣٣٨.

ابن الصلاح والذهبي وابن تيمية ذلك الكتاب ، وما تضمنه من تفسير يوافق إشارات أصحاب الحقائق الصوفية[١].

وقال ابن القيم معقباً علىٰ استعمالهم الألفاظ والمصطلحات الموهمة المحيرة : « لم يأت له ذكر في القرآن ولا في السنة ، ولا يعرفه إلا النادر من الناس ، ولا يتصوره أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة ، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه ، ولا عرفوا المراد منه إلا بترجمة ـ إلىٰ قوله ـ فصار المتأخرون أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة أعرف بمقامات السالكين ومنازل السائرين وغاياتهم من أعلم الخلق بالله بعد رسله هذا من أعظم الباطل » ، ثم قال : « فلا تجد هذا التكلف الشديد والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلاً »[٢].

وقال ابن خلدون : « وكلامهم بوجه عام لا يقتدر أهل النظر علىٰ تحصيل مقتضاه؛ لغموضه وانغلاقه »[٣].

وقال ابن القيم تعقيباً علىٰ استدلال الهروي : « ليته ـ قدس الله روحه ـ لم يقل فلا والله ما عنىٰ الله هذا المعنىٰ ، ولا هو مراد الآية ، ولا تفسيرها عند أحد

---

(١) انظر : تذكرة الحفاظ ٣/ ٢٤٩، منهاج السنة ٤/ ١٥٥، وانظر : مقدمة محقق لطائف الإشارات ، د/ ابراهيم بسيوني ١/ ٣ـ٧ .

(٢) المدارج ٣/ ٤٣٦ .

(٣) المقدمة ٤٧١ .

من السلف ولا من الخلف »[1].

وقال: « وهذا ليس معنىٰ الآية قطعاً، وإنما القوم مولعون بالإشارات »[2].

*** نماذج من استعمالهم الرمز والإشارة:**

قول الهروي في التوحيد: « ونعت من ينعته لاحد ».

نماذج من استعمالهم الرمز والإشارة

قال ابن القيم: « في هذا الكلام من الإجمال والحق والإلحاد ما لا يخفىٰ »[3].

وقال عنه أيضاً: « فلا معنىٰ صحيح ولا لفظ مليح؛ بل المعنىٰ أبطل من اللفظ، واللفظ أقبح من المعنىٰ »[4].

وقال: « هذا الكلام الذي اشتملت عليه الأبيات لا يستقيم علىٰ مذهب الملحدين، ولا علىٰ مذهب الموحدين »[5].

وفي بيان كونهما مجالاً لأهل الباطل في تسويق باطلهم، انظر الإحالات الآتية في المدارج[6].

---

(١) المدارج ٢/ ٤٣١.

(٢) المدارج ٣/ ٦١، ٣/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٨.

(٥) المدارج ٣/ ٥١٩.

(٦) انظر: المدارج ٣/ ٢٩٠، ٢١١، ٢١٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٣٢، ٣٣٣.

* اختصاصهم بتفسير المراد من مصطلحاتهم ورموزهم :

اختصاصهم بتفسير المراد من مصطلحاتهم ورموزهم

وقد يكون من أسباب ذلك تفردهم بتحديد المراد منها ، ولئلا يدخل فيهم من ليس منهم ، ولئلا يتجرأ أحدهم علىٰ رميه بالكفر والزندقة .

قال ابن خلدون : « . . ولقد أغمضوا في العبارة ؛ لأن كلامهم أولاً من قبيل الأذواق والمواجيد بحيث إن من لم يشاركهم طريقتهم لا يفهم شيئاً من مرامي كلامهم ، وهذه الأذواق بطبيعتها غير خاضعة للدليل والبرهان فهي وجدانيات، ولأنهم تعمدوا الإلغاز باستخدام اصطلاحات فلسفية لا يشاركهم فيها غيرهم »[1].

وحيث إن اصطلاحات الصوفية وتعبيراتهم ترجع إلىٰ تجاربهم الذاتية وتصوير إحساسهم الوجداني ، أصبح من الصعب العثور علىٰ مرجعية لغوية تفي بمعرفة مرادهم لذا يقول السهروردي : « . . فعلمهم الله ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقائق الإشارات - إلىٰ قوله نقلاً عن الواسطي - وأراد منهم من مقتضىٰ الآيات ما لم يرد من غيرهم »[2] .

ويقول القشيري : « وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإجمال والتستر علىٰ ما باينهم في طريقتهم لتكون معاني الألفاظ مستبهمة علىٰ الأجانب غيرة منهم علىٰ أسرارهم من أن

---

(١) انظر : المقدمة ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٢) عوارف المعارف ٢٤٨ .

تشيع في غير أهلها »[1] .

وقال السراج : « وكذلك من غلط في شيء من علم الحقائق والأحوال فلا يسأل عن غلطه إلا عالماً منهم كاملاً في معناه . . »[2].

وقال : « قال بعضهم : من أراد أن يقف علىٰ رموز مشايخنا فلينظر في مكاتباتهم ومراسلاتهم ، فإن رموزهم فيها لا في مصنفاتهم »[3] .

وقال السراج معللاً شرحه للمقامات والمصطلحات : « رأيت الناس قد أكثروا الخوض في معانيها فواحد قد جعله حجة لباطله ، وآخر قد اعتقد في قائلها الكفر ، والجميع قد غلطوا فيما ذهبوا إليه »[4].

يتضح مما سبق أنه لا يمكن البحث عن تعريف محدد يكفي لوصف المقامات والمنازل والأحوال والمصطلحات الصوفية؛ لأنها تستمد تعريفها من المواجيد الشخصية والتجارب الفردية والحدس الصوفي للفرد ذاته ، فتعبيره يكفي لوصف حاله فقط ولهذا الغموض مخاطر منها : وضع أنفسهم مواضع التهم ؛ لعدم فهم المراد ، ولصعوبة تعدد المحامل التي يحمل عليها الكلام[5].

---

(١) الرسالة القشيرية ١٢١.

(٢) اللمع ٣٧٩.

(٣) اللمع ٣٣٨.

(٤) اللمع ٣٨١.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩ .

ومنها استغلال هذا الغموض لأغراض فاسدة، وقد علّق ابن القيم علىٰ شرح التلمساني في المنازل قائلاً: «ولكن الألفاظ مجملة، وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤]»[1].

وذكر ابن القيم مقالات لمشاهيرهم في المقام، ذكروا فيها التبرؤ من تلك الإشارات والعبارات، والرجوع إلىٰ صحة الاعتقاد وحسن العمل[2].

ثالثاً: صلة التصوف بالمذاهب الأخرىٰ:

صلة التصوف بالمذاهب الأخرى

مما تقدم من الحديث عن استخدام الصوفية للرمز والإشارة، واعتماد الإلغاز في المصطلحات وأسباب ذلك، إذ بدا لبعض أعلام التصوف ضيق اللغة والمصطلح المعروف عن الوفاء بمرادهم، أو التعبير عنه لمن يخاطبون.. وغرابة وصف الأحوال التي يعيشها الفرد منهم؛ لما شابها من تأثر بالفلسفات الأجنبية.. قال د/ عرفان فتاح: «ولقد اعتمد غلاة الصوفية في هذا الخصوص - تأويل القرآن تأويلاً يلائم أغراضهم - علىٰ الفكر الأجنبي المتمثل في النظرة الأفلاطونية ومذهب الغنوصيين، فكما أن رجال الأفلاطونية لم يروا في الألفاظ إلا ظلالاً شاحبة للحقيقة المجردة، وقالوا: إن المعرفة

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٥، وانظر بيان صعوبة فك مصطلحات الصوفية: المعرفة الصوفية د/ ناجي جودة ١٤٥، ١٤٦.

(٢) المدارج ٢/ ٤٠.

اليقينية لا تُدرَك إلا بالتأمل الباطني العميق، والمجاهدة النفسية في درجات الكشف العليا، حين تتضح خلالها للمتأمل الحقائق علىٰ ما هي عليه، كذلك اعتمد فلاسفة الصوفية هذه الدعوىٰ وزعموا أن الوقف علىٰ ظاهر نصوص الشرع حجاب يمنع الوصول إلىٰ حقائق الأمور، وأن العلم الظاهر يدخله الظن والشك، والمشاهدة ترفع الظن وتزيل الشك، وهكذا أحلوا علم القلوب المبني علىٰ التأمل الباطن محل العلم المستمد من كتب الفقهاء ..»[1].

ثم ينقل كلام ابن عربي في التشنيع علىٰ علماء الرسوم والظاهر قائلاً: «فغلاة الصوفية متفقون أيضاً مع الغنوصية في الاعتراض علىٰ طريق المعرفة بالاستدلال والبرهان والشرع»[2].

ثم بين أن من المعروف لدىٰ المختصين بالدراسات الإسلامية أن التأويل الذي لا يلتزم بقواعد اللغة ودليل العقل - بل: «ودليل الشرع قبله» - بدأ فيه غلاة الشيعة ممن اتخذ التأويل وسيلة لهدم الدين وتحريف أصوله وقواعده وجعلوه طريقاً ينتهي إلىٰ إسقاط التكاليف الدينية واستحلال المحرمات وادعاء النبوة والألوهية وابتداع مذاهب ومعتقدات عن طريق الجمع والتلفيق والاختيار والانتخاب والمزج والخلط بين عقيدة الإسلام وعناصر الفكر الأجنبي المستمد من اليهودية والمسيحية والمجوسية والفيثاغورية والأفلاطونية، وصهر ذلك في مزيج ديني فلسفي عجيب من طرق

---

(١) نشأة الفلسفة الصوفية ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) نشأة الفلسفة الصوفية ٧٩.

الإسماعيلية وإخوان الصفا والحلاج ، ومن ربط التأويل الإشاري بألوان من العلوم ، فجعلوا ظاهر الشريعة قشوراً للعامة تداوي نفوسها ، وباطنها للعقول القوية ـ زعموا ـ التي لا تقنع إلا بالمعنىٰ المستور»[1] .

ويقول ناجي جودة : « يذهب الصوفية وهم في هذا يلتقون مع الأفلاطونية إلىٰ أن في الإنسان قوتين : الأولىٰ تشده إلىٰ أعلىٰ حيث الحقائق المطلقة ، والثانية تجذبه إلىٰ أسفل إلىٰ عالم الزوال والتغير ، ثم نقل كلام السهروردي والسراج ومشابهة ذلك لكلام الفلاسفة »[2].

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « التصوف نشأ إسلامياً خالصاً ، ولكنه في تطوره تأثر بعوامل أجنبية ، ثم ينقل كلام (رينولد نيكلسون) ـ من أكبر الباحثين في التصوف ـ قال نيكلسون : إننا إذا نظرنا إلىٰ الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق استحال علينا أن نرد أصله إلىٰ عامل هندي أو فارسي ، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية ، أو بمعنىٰ أدق : وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي ، نعم من المحتمل أن يكون اثنان علىٰ الأقل من هذه المصادر الثلاثة ، قد تأثر بأفكار فارسية أو هندية.. »[3].

ثم يجمل خلاصة من العوامل التي شاركت في صياغة التصوف ، منها :

---

(١) نشأة الفلسفة الصوفية ٨٠ .

(٢) المعرفة الصوفية ١٤٦ .

(٣) تاريخ التصوف ٤٥ ، ٤٦ .

التأمل المتواصل للقرآن والحديث ، ثم مع تطور الصوفية اتصل بالأفكار الأجنبية ، ثم تأثر بالنزعات الفردية والعوامل الاجتماعية والأزمات السياسية والنفسية ، ثم استمداد المصطلحات الفلسفية اليونانية [١].

وبتأمل حالات الاتصال عند غلاة الصوفية يظهر التشابه والتأثر المباشر بالديانات الأخرىٰ والمذاهب المنحرفة ، هذا ما تم بيانه وكشف وجه الحقيقة عنه في رسالة [نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام] إعداد / سارة بنت عبدالمحسن آل سعود ، الفصل الرابع ، ص٣١٥ حتىٰ ص٣٧١ .

وتأثر الصوفية في أبواب العشق واستماع الألحان إنما هو من الصابئة وغيرهم [٢].

وفي مباحث متعددة في كتاب أصول الفلسفة الإشراقية يذكر المؤلف محمد أبو ريان مدىٰ تأثر السهروردي والفارابي وابن سينا في الفلسفة الأفلاطونية سواء بنظرية الفيض والعقول العشرة ، أم في مدلولات التراث الإشراقي وما يوافقه عند اليونان ، ونظرية المُثُل والمعرفة وغيرها [٣].

وهو مما يعد رصداً جيداً لمصادر التلقي عند الفلاسفة الإسلاميين الصوفيين ، وعقم محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين ، وعرض أهم آراء

---

(١) تاريخ التصوف ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة ٢/ ١٧٧ .

(٣) انظر : ٦٧ ، ٧٧ ، ١٥٨ ـ ٢٠٠ من كتاب أصول الفلسفة الإشراقية .

الفلاسفة الصوفية ، وأوجه الشبه بينهم وبين الفلاسفة ، أما تأثر الصوفية بالمتكلمين فهذه بما لا تحتاج معه إلىٰ تمثيل.

رابعاً : نقد الصوفية :

نقد الصوفية

قبل تقويم الهروي في كتابه منازل السائرين أُقدِّم بهذه السطور ما يمثل أنموذجاً لنقد الصوفية أنفسهم ، ثم تصنيف الناس في موقفهم من الصوفية .

أولاً : نقد الصوفية لأنفسهم .

نقد الصوفية لأنفسهم

من أوائل من كتب في هذا الباب أبو نصر السراج المتوفىٰ سنة ٣٧٨هـ ، وذلك في كتابه (اللمع في التصوف) إذ يقول :

« وقد صنف الغالطين في التصوف إلىٰ ثلاث طبقات :

١ ـ طبقة غلطوا في الأصول : من قلة إحكامهم لأصول الشريعة ، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص ، وقلة معرفتهم بذلك ، كما قال بعض المشايخ : « إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول » ، ثم ذكر نماذج لذلك كالحلولية ، والقائلين بالفناء والرؤية بالقلوب في الدنيا ، ومن غلط في الأنوار للمعرفة والتوحيد والعظمة . . ومن غلط في عين الجمع مما حملهم علىٰ الخروج عن الملة ، وترك حدود الشريعة ، وكذلك الأنس والبسط وترك الخشية والفناء عن أوصافهم[1].

٢ ـ وطبقة ثانية منهم غلطوا في الفروع وهي الآداب والأخلاق والمقامات

---

(١) انظر : اللمع ٤١٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .

والأحوال والأفعال والأقوال ، فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع . . فمثلهم في ذلك كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج ، فالذي يفسده أكثر مما يصلحه ، وكلما ظن أنه ظفر بجوهر نفيس لم يجد معه إلا خزفاً خسيساً ، لأنه لم يتبع أهل البصيرة . . فعند ذلك يقع لهم الغلط ، وتكثر فيهم الهفوة والشطط ؛ فهم متحيرون ومتفرقون بين منهزم ومفتون ، ومتجبر و محزون ، ومتمنٍ للمنون فسبحان من قسم لهم بذلك ، وهو العالم بدائهم ودوائهم ، وسقمهم وشفائهم.

ومن أمثلة ذلك ، غلط من تحدث بالمفاضلة بين الفقر والفناء ، وفي التكسب وترك الاكتساب ، ومن ترك المجاهدات وسكن إلىٰ الراحات ، وترك الطعام والعزلة ونحوها[1].

٣ ـ وطبقة ثالثة : كان غلطهم فيما غلطوا فيه : زلة وهفوة لا علة وجفوة؛ فإذا تبين ذلك عادوا إلىٰ مكارم الأخلاق ومعالي الأمور فسدوا الخلل ، وأذعنوا للحق وأقروا بالعجز ، فلم تنقص مراتبهم هفوة ...

وكل طبقة من هذه الطبقات علىٰ أحوال شتىٰ من التفاوت والمقاصد والنيات ، فمن غلط في الأصول فلا يسلم من الضلالة ولا يُرجىٰ لدائه دواء إلا أن يشاء الله ذلك ، والغلط في الفروع أقل آفة ... »[2] .

---

(١) انظر : اللمع ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ .

(٢) اللمع ٤١١ .

ثانياً : نقد الآخرين من غير الصوفية :

نقد الآخرين من غير الصوفية

وهو ما أجمله ابن القيم في ثلاث طوائف :

أ ـ **أحدها** : حجبت عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار وأساؤوا الظن بها مطلقاً ، ويعلق علىٰ هذا الموقف : « بأن هذا عدوان وإسراف ، فلو كان كل من أخطأ وغلط ترك جملة ، وأُهْدِرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها » .

ب ـ **الطائفة الثانية** : تجاهلت أخطاء هؤلاء وأغلاطهم ، وركزت نظرها علىٰ ما لدىٰ الصوفية من مزايا و محاسن من مثل : صفاء القلوب ، وصحة العزائم ، وحسن المعاملات. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

ج ـ **والطائفة الثالثة** : هم أهل العدل والإنصاف ، الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزل منزلته ، فلم يحكموا الصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا المعلول السقيم بحكم الصحيح؛ بل قبلوا ما يقبل ، وردوا ما يرد .

وهذا هو العدل والحق والإنصاف بعيداً عن التعميمات الخاطئة ودوافع الهوىٰ والتعصب ، وهذا المعيار قال به شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مواطن كثيرة حين الحديث عن المخالفين والموافقين .

وهذا الموقف المعتدل من ابن القيم ظهر جلياً في مواقفه حين الموافقة

والمخالفة، فموقفه صريح من غلاة الصوفية القائلين بإسقاط التكاليف[1].

* * *

(١) انظر: المدارج ٣/ ١٦٥، ١٦٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٣١٦، ٣١٧، وانظر المخالفة والاعتذار في مسائل شطح فيها المتصوفة قوّم فيها الموقف وبيَّن الصواب ورد الخطأ انظر: المدارج ٢/ ٤٩، ٨٨، ١٠٣، ١٣٣، ٤٦٤، ٣/ ١٥، ٢٩، ٤٥، ٤٧، وفي التفريق بين القاصد والمخطئ ومن حصل عنده لبس وانغلاق التعبير انظر: ٢/ ١٠٣، ٣/ ٤٣، ٨٥، ١٥٤، ١٦٥، ٢١٣، ٢٣٢، ٢٤٥، ٢٦٩، وانظر في البحث عن محامل تليق بالكلام والمتكلم، والنظر إلى مجمل السيرة دون الزلة والهفوة، انظر: ٢/ ٥٧، ٥٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٦٤، ٢١٤، ٢١٦، ٣/ ٥، ٣٦١، ٤٢٩، ٤٣٠، ٥٢٠، ويكون صريحاً في الموقف فيما لا مجال له ولا احتمال. انظر: ٢/ ٣٥٤، ٤٣١، ٣/ ٦١، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٣٩، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٣، وانظر ذلك في موقف شيخ الإسلام في المنهاج ٥/ ٣٤١، ٣٤٢، ٣٦١، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٨٣، الفتاوى ١٠/ ٣٥، وفي تقويم شيخ الإسلام لتقسيم الهروي المنزلة إلى ثلاث درجات انظر: الفتاوى ١٠/ ٤٩٧، ١٣/ ٢٢٩.

تقويم المنازل إجمالاً

تقويم المنازل إجمالاً

أولاً : إيجابيات المنازل :

حيث إن المنازل من جملة كتب الصوفية كما هو ظاهر في سبب تأليفه وطريقة تصنيفه وتبويبه ، فهو موافق في الغالب لمن ألف فيه ممن لهم عناية بهذا الشأن ، مثل : ابن العريف في محاسن المجالس ، والسراج في اللمع ، والنهرجوري[1] في كشف المحجوب ، والسهروردي في عوارف المعارف ، والنفري[2] في المواقف ، والغزالي في الإحياء ، وغيرهم[3] ، مما جعل إبراز محاسنه في صعوبة بالغة ولولا أن ابن القيم اجتهد في توضيح بعض ما يمكن أن يحمل عليه كلامه لما وجد له ميزة ، ولعل مما يمكن ذكره منها ما يلي :

١ - بيان علل المقامات وهي رؤية العمل في كل منزلة.

٢ - الاجتهاد في تصحيح القصد في العبادة حسب ما بلغه علمه وبيانه.

٤ - التقسيم البديع (الأخلاق ، الآداب ، المعاملات) ونحوها.

---

(١) النهرجوري ، علي بن عثمان النهرجوري من كبار أئمة الصوفية في القرن الرابع ، من كتبه (كشف المحجوب) ذكر فيه عقائد الصوفية وآدابهم توفي سنة ٤٩٣هـ.

(٢) النفري ، محمد عبد الجبار النفري الصوفي ، صاحب كتاب (المواقف) وهو من كبار سادات القوم ، نقل عنه ابن عربي وأثنى عليه ، توفي سنة ٣٥٤هـ/ كشف الظنون (ص١٨٩) ، الكواكب الدرية (٢/ ١٥٢) ، هدية العارفين (٤٥) ، معجم المؤلفين (١٠/ ١٢٥).

(٣) التعرف/ باب من نشر علوم الإشارة كتباً ورسائل ص٢٧ ، ٢٩.

٥ - التقسيم المفيد لبعض المنازل كما في التوبة.

ثانياً : السلبيات والمآخذ علىٰ المنازل :

السلبيات والمآخذ على المنازل

سبق في مقدمة البحث الغموض الذي يحيط بعبارات الصوفية ومصطلحاتها ، وما اجتهاد ابن القيم في شرح المنازل إلا محاولة منه لقطع الطريق علىٰ غلاة الصوفية من أن يفيدوا من كلمات الهروي ويحملوها علىٰ مذهبهم ، وهم بذلك يعرفون منزلة الهروي وموقفه من أهل الكلام ، ومنزلته عند أهل السنة ، فلئلا تكون تلك الشهرة والمنزلة سنداً لهم في ترويج باطلهم من خلال عباراته الموهمة والمبهمة والمفهمة ، وبعد الاطلاع علىٰ شروح أخرىٰ للمنازل مثل : شرح التلمساني ، والإسكندري ، والحسيني في التمكين علىٰ اختلاف بينهم في تناول متن المنازل إلا أن القاسم المشترك بينهم هو الموافقة علىٰ جل ما ينادي به الهروي وأحياناً حملها فوق ما يظهر منها تبين وجه تقسيم ابن القيم واستطراده في بيان الاحتمالات ، والتي يدرأ فيها أضرار تلك الشروح مما يدل علىٰ أنه اطلع عليها صراحة في ما يخص شرح التلمساني وبفحوىٰ كلامه في ما يخص كل من تناول العبارات الغامضة والمجملة.

وحيث إن المقامات والأحوال بينها تداخل في المعاني بحسب حال السالك أصبح من الصعب اتخاذ طريقة واضحة المعالم لتصنيف التقويم والنقد ، لذا رأيت جمع المتماثلات من كلامه ، ومن ثَم ضمها إلىٰ بعض ثم تقويمها ، واخترت لها عنواناً تندرج تحته وهي علىٰ النحو الآتي :

١ - مصادر التلقي في منازل السائرين.

٢ - توحيد المعرفة والإثبات.

٣ - توحيد القصد والطلب.

٤ - القضاء والقدر.

٥ - الأخلاق والسلوك.

*** مصادر التلقي في منازل السائرين [١] :**

مصادر التلقي في منازل السائرين

قال ابن القيم: «وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسيره علىٰ جادة الذوق والوجد، ذاهبة به كل مذهب فهـذه فتنته، والفتنة به شديدة وبالله التوفيق»[٢]، وقد تكرر في مقامات متعددة وصف الهروي للعلم بأنه قيد ورسم وظلمة[٣]، واستبداله بالكشف والوجد والذوق ونحوها[٤].

فمن بدل مصادر التلقي المشروعة (الكتاب والسنة) سوغ لنفسه الانحلال مما يسميه رق القيود والرسوم، وحيث بالغ بعض المتصوفة في هذا الجانب؛ فقد تصدىٰ لهم بعض قومهم ومن ينتسب إلىٰ طائفتهم وهو القشيري براءة من

---

(١) ومما اطلعت عليه بخصوص مصادر التلقي عند الصوفية رسالة الأستاذ صادق سليم صادق (المصادر العامة عند الصوفية عرضاً ونقداً).

(٢) المدارج ١/ ١٥٨.

(٣) انظر: المدارج ٢/ ٤٢٠، ٣/ ٩٧، ٣٩٥.

(٤) انظر: المدارج ٢/ ٣٦١، ٣/ ٧٣، ١٦٥، ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

أدعياء الصوفية الذين كانت لهم صلات بالفلاسفة[1] أثرت علىٰ عقولهم وسلوكهم ، فهو يقول عن الصوفية المتفلسفة : «وادعوا أنهم تحرروا من رق الانحلال ، وتمتعوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه ، وهم (محو) ليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية وبقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية»[2].

ولهذا تم تتبع المقامات والمنازل التي صرح فيها الهروي بشيء من هذا أو قال عبارة موهمة أو مفهمة يفسرها مقام آخر ، وهي كما يلي :

منزلة العلم : قال : «الدرجة الثانية : علم خفي ينبت في الأسرار الظاهرة ، من الأبدان الزاكية وهو علم يظهر الغائب»[3].

فقوله : خفي أي علىٰ أهل الدرجة الأولىٰ وهم أصحاب العلم الجلي المتعلق بالشواهد ، والعلم الخفي يوافق المعرفة عند الصوفية[4] ، وإظهار الغائب هو الكشف للعارف[5].

---

(١) الفلاسفة : جمع فيلسوف ، يدل اللفظ في الأصل اليوناني على (محب الحكمة) ، وكأن فيثاغورس وهو الذي استعمل الكلمة لأول مرة فيما يقال : آثر أن يكون محباً للحكمة بدل أن يسمى حكيماً ؛ لأن الحكمة مقصورة على الآلهة. المعجم الفلسفي ١٤٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١٧.

(٣) منازل السائرين ٦١.

(٤) انظر : التعرف ٨٢ ، مقدمة ابن خلدون ص٥٨٦، ٥٨٧ ، المعرفة الصوفية ١٢٥، ٢٢٦ - ٢٢٧، نشأة الفلسفة الصوفية ١٢٤ ، المدارج ٢/ ٤٧٢.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٤٧٤.

ثم قال : «الدرجة الثالثة : علم لَدُني.. ليس بينه وبين الغيب حجاب»[١].

والعلم اللّدُني هو ما يحصل بغير واسطة وإنما إلهام ، وقد قال ابن القيم عن هذا الكلام : «وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم»[٢].

وقال أيضاً : «والبلية التي عرضت لهؤلاء أن أحكام العلم تتعلق بالعلم وتدعو إليه ، وأحكام الحال تتعلق بالكشف ، وصاحب الحال ترد عليه أمور ليست في طور العلم ، فإن أقامها علىٰ ميزان العلم ومعياره تعارض عنده العلم والحال ، فلم يجد بداً من الحكم علىٰ أحدهما بالإبطال - إلىٰ قوله - فتأمل هذه الشبهة التي هي سم ناقع ، تخرج صاحبها من المعرفة والدين كإخراج الشعرة من العجين»[٣].

والمراد بالحال هنا ما أشار إليه في منزلة التهذيب بقوله : «وهو لا يجمع الحال إلىٰ علم ولا يخضع لرسم»[٤] ، والحال موهبة وليست مكتسبة وهي نظيرة الإلهام.

وقد قال عنه الجرجاني : «هو ما يلقىٰ في الروع بطريق الفيض[٥] ، وقيل هو

---

(١) منازل السائرين ٦٢.

(٢) المدارج ٢/ ٤٧٦ وقد بسط الرد عليهم في ٢/ ٣٤٦، ٣٤٨، ٣/ ٤٣١-٤٣٣ .

(٣) المدارج ٢/ ١٠٠.

(٤) منازل السائرين ٣.

(٥) الفيضيون: نسبة إلى القول بالفيض وهو مقولة فلسفية دالة على قابلية الأشياء والظواهر

ما وقع في القلب من علم ، وهو يدعو إلىٰ العمل من غير استدلال بآية ، ولا نظر في حجة»[1] فالإلهام عندهم أحد مصادر المعرفة ، وهناك ألفاظ مشتركة في هذا المعنىٰ : (الإشراق ، الشهود ، التجلي ، المكاشفة ، الحدس ، النور الإلهي ، الفيض)[2].

وقال : «الأنس بنور الكشف.. وحل عنهم قيود العلم»[3].

قال ابن القيم : «أحسن ما يحمل عليه ، أن العلم يقيد صاحبه ، والمعرفة تطلقه ، وتريه حقائق الأشياء ، فليتقيد العالم بظواهر العلم وأحكامه ، والعارف لا يراها قيوداً ، ومن هنا تزندق من تزندق.. فهؤلاء هم المقطوعون عن الله ، القطاع لطريق الله، وهم معاطب الطريق وآفاتها»[4]، وهذا إحدى صور

للتحول ، وهي ترتبط بالنظرة الجدلية للعالم ، وتتفق مع نظرة النشوء والارتقاء ، وقد ظهرت نظرية الفيض عند فلاسفة الأفلاطونية المحدثة ولا سيما عند أفلوطين ، وهي محاولة منهم لتجاوز قولهم بصدور الكثرة عن الواحد ، فالجزئيات صدرت ضرورة وفاضت بتوسط سلسلة في المبادىء العقلية ، وقد دخلت هذه النظرية في الإسلام عن طريق الإسماعيلية ، ثم إلى الفارابي وابن سينا في محاولة لترتيب الوجود في صورة فيض متدرج هرمي. الموسوعة الفلسفية ٣٦٣ ، أصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي ١٦٩ ، نشأة الفلسفة الصوفية ٢٤٦ ، الوجود الإلهي ١١٣-١١٤.

(١) التعريفات ٣٥.

(٢) انظر : المعرفة الصوفية ١٩٩-٢٠١.

(٣) منازل السائرين ٥٤.

(٤) المدارج ٢/ ٤٢٠.

التشابه بين الصوفية والغنوصية[1] في مصدر التلقي[2].

وقال : «العزم إباء الحال علىٰ العلم»[3].

فإن الحال أعلىٰ درجة من العلم يصعب علىٰ صاحبه الانحطاط إلىٰ رتبة أقل ، والحال إذا لم يطع العلم وينقاد له فهو مبعد عن الله ، فمن زعم أن العلم غيبة وحجاب ، والحال أنس وكشف وحضور فهو باطل[4].

وقال في الفتوة : «أن لا تتعلق في السير بدليل»[5].

هذا يدل علىٰ أن المعرفة عندهم ضرورية لا استدلالية ، وهي إشارة إلىٰ

---

(١) الغنوص : في أساسه معرفة أشياء دينية تسمو على مستوى العامة ، وكان للمسيحية غنوصها في القرنين الثاني والثالث الميلادي ، ثم تحول الغنوص إلى المعتقدات السرية والخفية ؛ بل الملحدة أحياناً.

والغنوصية : مذهب تلفيقي يجمع بين الفلسفة والدين ، ويقوم على أساس فكرة الصدور ، ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض ، والأفلاطونية القبلية بالمحدثة والتعاليم الشرقية كالمزوكية والمانوية ، والبحث والنظر والتأمل والكشف والذوق ، فهي تجمع بين الفلسفة والدين والتصوف ، وزعموا أنها طريقة لمعرفة الحق بنوع من الكشف والحدس. انظر : الموسوعة الفلسفية ٣٢١ ، المعجم الفلسفي ١٣٣ ، النشأة الفلسفية الصوفية ٢٤٢ ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ١٨٦ ، تاريخ الفلسفة اليونانية ٢٤٤.

(٢) انظر المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ٨١.

(٣) منازل السائرين ٥١.

(٤) المدارج ٢/ ٣٦١.

(٥) منازل السائرين ٤٨ ، المدارج ٢/ ٣٤٦.

الكشف ومشاهدة الحقيقة ، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلاً ، لهذا سمىٰ أصحاب الطرق الصوفية أصحاب الاستدلال أصحاب قال ، وأصحاب الكشف أصحاب حال ، وهم عاملون علىٰ الكشف الذي يحصل بنور العيان لا علىٰ العلم الذي يُنال بالاستدلال والبرهان ، وهذا موضع اشتباه ، فمن خرج عن الدليل ضل عن السبيل ، وإن زعموا أن الدليل والاشتغال به تفرقة فهو خير من جمعية الخيال والأوهام[1].

وقال في الوجد : «الدرجة الثانية : وجد تستفيق له الروح بلمع نور أزلي ، أو سماع نداء أولي»[2].

هذا الكلام محتمل كما ذكر ابن القيم ، فإن أراد به ما سمعه في نفسه من الخطاب فهو خطاب وهمي وإن ظنه أزلياً ، فإياك والأوهام والغرور [3].

وقال في الدهش : «صولة شوق العيان علىٰ شوق الخبر»[4] وهذا سير المريد في البداية علىٰ شوق الخبر ثم يرتقي إلىٰ المعاينة.

وقال أيضاً : «دهشة المريد عند صولة الحال علىٰ علمه»[5] ، وهذا يدل علىٰ أن العلم يقتضي شيئاً والحال يصول عليه بخلافه ، والصحيح أن تكون حال

---

(١) المدارج ٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) منازل السائرين ٧٦ ، مدارج السالكين ٣/ ٧١.

(٣) انظر: المدارج ٣/ ٧٢.

(٤) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٨.

(٥) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٥.

الإنسان تابعة لعلمه.

وقال في الهيمان : «معاينة سلطان الأزل والغرق في بحر الكشف»(١) ، وهذا إشارة إلىٰ انكشاف الحقيقة لعين القلب كما سبق.

وقال في الذوق : «ذوق طعم الانقطاع طعم الاتصال»(٢) ، فالمنقطع محجوب ، والمتصل مشاهد بقلبه مكاشف بسره.

قال ابن القيم عنها : «عبارة غير سديدة يتشبث بها الزنديق الملحد ، والصديق الموحد ، فالموحد يريد القرب والبعد ، والملحد يريد الحلول والاتحاد»(٣).

وقال في السرور : «كشف حجاب العلم»(٤) ، فالعلم عندهم حجاب عن المعرفة الضرورية إذ العلم خبر والمعرفة عيان.

وقال في المكاشفة : «مهاداة السر بين متباطنين»(٥) ، فهي اطلاع أحد المتحابين المتصافين صاحبه علىٰ باطن أمره وسره ، والمتباطنين المكاشِف والمكاشَف ، فإذا بلغ العبد حدّ المعرفة فكأنه عندهم يطالع ما اتصف به الرب حتىٰ يشاهد رفع الحجاب(٦).

---

(١) منازل السائرين ٧٨ ، المدارج ٣/ ٨١.

(٢) منازل السائرين ٧٩ ، المدارج ٣/ ٩٦.

(٣) المدارج ٣/ ٩٧.

(٤) منازل السائرين ٨٤.

(٥) منازل السائرين ٩٢ ، المدارج ٣/ ٢٢١.

(٦) المدارج ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

وقال في المشاهدة أيضاً : «الدرجة الأولىٰ : مشاهدة معرفة تجري فوق حدود العلم»(١) ، وهذا جارٍ علىٰ أصول القوم في أن المعرفة فوق العلم ، ومن أقوالهم أن أعمال الأبرار بالعلم ، وأعمال المقربين بالمعرفة (٢).

وقال في التلبيس : «وتعليقه المعارف بالوسائط والقضايا بالحجج»(٣).

الكلام علىٰ التلبيس سوف يبسط في توحيد القصد والطلب ، وعلاقته هنا ببيان مقصودهم بالمعارف والوسائط أن المراد بها تعلق المعرفة بالأدلة السمعية والعقلية والفطرية ، ولقد عدّ هذا من التلبيس.

وكلامهم كما قال ابن القيم عنهم : «أضحكوا عليهم العقلاء ، وأشمتوا بهم الأعداء ، ونهجوا لأعداء الرسل طريق إساءة الظن بهم ، وجنوا علىٰ الإسلام والقرآن أعظم جناية»(٤).

وقال أيضاً عن الهروي : «لقد كان في غنية عن هذا الباب وعن هذه التسمية ولقد أفسد الكتاب بذلك»(٥).

وقبل ذلك قوله في الاعتصام : «اعتصام العامة بالخبر»(٦).

---

(١) منازل السائرين ٩٣ ، المدارج ٣/ ٢٣٦.

(٢) المدارج ٣/ ٢٣٧ ، ٣٧٢.

(٣) منازل السائرين ١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٤) المدارج ٣/ ٤٠٩.

(٥) المدارج ٣/ ٣٩٥ ـ ٤٠٠.

(٦) منازل السائرين ٢١ ، المدارج ١/ ٤٦٣ ومما يتصل بالعلم والحال ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ٣/ ١٣٤.

وقال في الوجود : «وجود علم لدني يقطع علوم الشواهد في صحة مكاشفة الحق إياك»[١] ، العلم اللدني - عندهم - هو المعرفة ، وعلم الشواهد هو علم الاستدلال ، فإذا حصل العلم اللدني - المعرفة - انقطع علم الشاهد بما تم من ذوق وحسٍ وباطن ، فإذا تم الكشف صحت المعرفة فلا حاجة إلىٰ الشواهد والأدلة ما دام مستغرقاً في الأدلة[٢] ، ونحواً مما سبق قوله في الصفاء[٣] والجمع[٤].

ولقد دُرست بعض هذه المصطلحات وصلتها بالمعرفة والكشف والاتصال ، من تلك الدراسات:

المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة). د/ ناجي حسين جودة.

ونظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام. سارة بنت عبد المحسن آل سعود.

نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها. د/ عرفان فتاح.

مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي. د/ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني[٥].

---

(١) منازل السائرين ١٠٧ ، المدارج ٣/ ٤١٦ ، ٤١٧.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٤١٦ ، ٤١٧.

(٣) انظر : منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٠.

(٤) انظر : منازل السائرين ١٠٩ ، المدارج ٣/ ٤٢٧.

(٥) محمد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، ولد سنة ١٩٣٠م بمصر ، حصل على شهادات آخرها

المصادر العامة للتلقي عند الصوفية. الأستاذ/ صادق سليم صادق ، ومدار الكتاب علىٰ مصادر (الكشف والذوق والوجد) وما يتصل بها ويتفرع عنها ، وهي مشابهة للمعرفة الذوقية كما يصورها الغزالي[1] ، أو النزعة الإشراقية[2] عند الفلاسفة[3].

توحيد المعرفة والإثبات في منازل السائرين

ثانياً : توحيد المعرفة والإثبات :

قال في الفناء : «اضمحلال ما دون الحق علماً ثم جحداً ثم حقاً»[4].

الدكتوراه ١٩٦١م وتدرج في عدد من المناصب منها تعيينه سنة ١٩٨٣م شيخاً لمشايخ الطرق الصوفية بمصر ، وله مؤلفات منها : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، علم الكلام وبعض مشكلاته وغيرهما ، انظر ترجمته في كتاب«أبو الوفا التفتازاني» للدكتور عاطف العراقي (ص٧-٨).

(١) الإحياء ١/ ١٣٨ ـ ٢/ ٣٧٦ ، التدبيرات الإلهية لابن عربي ١١٤ بواسطة تحقيق عبد الحميد مدكور ص٢/ ٧٢ لمدارج السالكين.

(٢) الفلسفة الإشراقية : مركب من عناصر متباينة معقدة كالغنوصية والأفلاطونية المحدثة ، وديانات الفرس القديمة ، ومذاهب الصابئة في الكواكب والنجوم وهي في النهاية محاولة للجمع بين الحكمة الشرقية المشرقة المتمثلة في الأفلاطونية المحدثة ، ومذهبه الفيضي وزعيمها «السهروردي المقتول» ، فهو يرمي إلى تأسيس فرع فلسفة تجمع بين الحكمة البحثية النظرية ، والتجربة الروحية الذوقية. انظر : نشأة الفلسفة الصوفية ٢٣٨-٢٣٩ ، أصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي ٤٣. مدخل إلى التصوف ٣٣.

(٣) الإشارات لابن سينا القسم الرابع ، تحقيق د/ سليمان دنيا ، الطبعة الثانية ، ٨٦ ، بواسطة تحقيق عبد الحميد مدكور ٢/ ٧٢ ، وانظر الفلسفة الإشراقية عند السهروردي ، تأليف : د/ محمد علي أبو ريان.

(٤) منازل السائرين ١٠٤ ، المدارج ٣/ ٣٩٦.

قبل الشروع في بيان مؤدىٰ كلامه يحسن القول بأن الفناء هو المحور الجوهري الذي يدور عليه التصوف عند الهروي ، حيث جعله غاية يسعىٰ إليها وهذا ظاهر كلام ابن القيم حيث يقول عن الهروي : «لا يقدم علىٰ الفناء شيئاً ، ويراه الغاية التي يسعىٰ إليها السالكون ، والعلم الذي يؤمه السائرون ، واستولىٰ عليه ذوق الفناء وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده ، واتسعت إشارته إليه وتنوعت به الطرق الموصلة إليه علماً وحالاً وذوقاً»(١).

وقال : «إنه يدندن حول بحر الفناء»(٢).

وقال : «إنه ممن رفع له علم الفناء فشمر إليه»(٣) ، «ولا يصغي فيه إلىٰ عاذل»(٤).

لقد كانت المؤاخذة علىٰ الهروي قوية؛ لأنه لم يتضح تفريقه بين الفناء عن الشهود والفناء عن الوجود ، وهو موطن اشتباه والتباس ، جعل كلامه مجالاً للتنازع بين من يجعله سنداً له في الإلحاد ، ومن يحاول تبرئة الهروي من هذا القصد، ومن أبرز من وظف عبارات الهروي الموهمة (العفيف التلمساني)(٥) ،

---

(١) المدارج ١/ ٢٧٣.

(٢) المدارج ٣/ ٣٢٧.

(٣) المدارج ١/ ٤٦٤ ، ٣/ ٣٨٣.

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٦).

(٥) العفيف التلمساني ، سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني ، ولد سنة ٦١٠هـ صوفي شاعر ، شرح منازل السائرين والمواقف وفصوص الحكم، قال الذهبي عنه: «أحد زنادقة الصوفية»،

قال ابن القيم: «وتولىٰ شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفِرَق: العفيف التلمساني»(١)، وقال أيضاً: «ولكن الألفاظ مجملة، وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد ولساناً فصيحاً متمكناً عن التعبير عن المراد»(٢).

وبالرغم من الإبهام الذي أحاط بعبارات الهروي عن الفناء فقد حمله شيخ الإسلام في بعض المواطن علىٰ أنه يريد الفناء عن شهود السوىٰ(٣)، وفي مواطن أخرىٰ يقول إن هذا نوع من الحلول الخاص(٤)، وكذلك الذهبي بعد أن تمنىٰ أنه لم يؤلف هذا الكتاب الذي استند إليه أهل الاتحاد ثم نزّهه عن مقاصدهم(٥)، وكذلك أشاد ابن رجب في جهود ابن القيم في تبرئة الهروي من حمل كلامه علىٰ قواعد الاتحاد(٦).

ولعل الناظر في تلك المواقف من أعلام السلف يدرك مدىٰ الحرج الذي

ونسب إلى الحلول والاتحاد، توفي سنة ٦٩٠هـ/ العبر (٣/ ٣٧٢)، البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٦)، شذرات الذهب (٥/ ٤١٢)، معجم المؤلفين (٤/ ٢٧٠)، الكواكب الدرية (٢/ ٤٢٠).

(١) المدارج ١/ ٢٧٤.

(٢) المدارج ١/ ٢٧٤، ١/ ٢٧٣.

(٣) انظر: الفتاوى ١٠/ ٣٤١.

(٤) انظر: منهاج السنة ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٨٣، ٣٨٧، الفتاوى ٥/ ٢٣٠، ٤٨٥.

(٥) انظر: السير ١٨/ ٥٠٩.

(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٦٧.

لحق بابن القيم ومن عذر الهروي في محاولة حمل كلامه على أحسن المحامل بطريقة فيها شيء من التكلُّف أحياناً خاصة في مسألة الفناء والتوحيد، وقد حصل من ابن القيم - بالرغم من العلاقة بكتب الهروي - مخالفات صريحة فيما لا مجال للاعتذار عنه ، فقد قال : «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه»(١) ، وقال : «ولولا أن حقَّ الحقِّ أوجب من حق الخلق لكان في الإمساك فسحة ومتسع»(٢).

أما مؤدىٰ كلامه في الفناء فأقل ما يحمل عليه الفناء عن شهود السوىٰ ، وهي مرتبة ناقصة ، و محطة هابطة بالنسبة للبقاء ، فإن من شهد الفرق بين الطاعة والمعصية ، وشهد الفرق بين الأمر والنهي ، وشهد الأسباب وأثرها والحكم والعلل مع شهوده أن الكل بأمر الله وقدره ومشيئته وحكمته؛ فهو أكمل ممن لم يشهد ذلك ، ولقد بسط الكلام فيها شيخ الإسلام في معرض حديثه عن الفناء عند الهروي وأعلام الصوفية(٣) ، وعند تأمل تقسيمه المنازل والمقامات تظهر الإشارة إلىٰ الفناء في كل ما عدّه الدرجة الثالثة من كل منزلة غالباً.

وما يتعلق بالتوحيد(٤) قريب من كلامه عن الفناء؛ بل لعله متصل بفهمه

---

(١) المدارج ٢/ ٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٤٣ـ ٤٤ وقد تتبع هذه المواطن وألف بينها بطريقة نافعة الأستاذ/ عبد الحميد مدكور في تحقيقه لجزء من مدراج السالكين ٢/ ١٥ ـ ٣٠.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٢١٨ ـ ٢٢٥.

(٤) انظر أقوال أعلام الطائفة في التوحيد والصفات : التعرف ٣١ ـ ٤٠ ، اللمع ٢٨ ـ ٣٥.

للفناء ، فالتوحيد عنده ألا يكون إلا بعد فناء الفكرة والمتفكر ، والفكرة تدل علىٰ بقاء الرسم؛ لاستلزامها مفكراً وفعلاً قائماً به ، والتوحيد التام - عنده - لا يكون مع بقاء رسم أصلاً[1] ، وعلىٰ هذا فالموقف منه في التوحيد متصل بموقفه من الفناء.

وقد عرَّف الهروي التوحيد : «بأنه تنزيه الله عن الحدث»[2] ، ومع هذا التعريف قد يوجهه بعضهم إلىٰ أن مقصدهم الرد علىٰ من زعم الحلول في الحادثات وعدم مباينته للمخلوقات ، فإن ابن القيم بيَّن أن هذا الحد للتوحيد لا يدل علىٰ التوحيد الذي أُنزِلت به الكتب ، وأُرسِلت به الرسل ، وينجو به العبد من النار ، ويدخل به الجنة ويخرج من الشرك ، وأن هذا المعنىٰ مشترك بين الفِرَق التي تقر بوجود الله ، حتىٰ أن المشركين لا ينكرون ذلك[3] ، وعلىٰ هذا فليس تعريف الهروي للتوحيد مُبَيِّناً للتوحيد الصحيح الذي هو أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق وأول مقام السالكين[4] ، ثم أطال ابن القيم الحديث عن تقرير التوحيد ، وأنكر علىٰ من استطال الحديث عنه[5].

ثم قسم الهروي التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام كما هو منهجه في كل منزلة.

---

(١) المدارج ١/ ١٧٤.

(٢) منازل السائرين ١١٠ ، المدارج ٣/ ٤٤٤ ، ٥٠٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٤) انظر : مدارج السالكين ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٤٤ ، ٤٤٧.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٤٧٦.

فقال : «توحيد العامة وهو ما يصح بالشواهد»(١) ، ومراده بذلك ما يصح بالأدلة والآيات والبراهين ، لذا أشاد ابن القيم بهذا التوحيد الذي يسميه الهروي توحيد العامة ، وقال : «قد تبيَّن أن هذا توحيد خاصة الخاصة الذي لا شيء فوقه ولا أخص منه ، وأن الخليلين أكمل الناس فيه توحيداً ، فليهْنَ العامة نصيبهم منه»(٢) ، فهذا مما يدل علىٰ شرفه وكماله أن قامت الأدلة عليه ، ونادت عليه الشواهد ، وأوضحته الآيات والبراهين ، وما عداه فدعاوىٰ مجردة لا يقوم عليها دليل ، ولا تصح بشاهد ، والقرآن من أوله إلىٰ آخره يقرر التوحيد»(٣) بكل وضوح وبيان بعيداً عن التعقيد والألغاز والإشارات التي يتعذر فهمها علىٰ العامة (٤).

وعن طريق ثبوت هذا التوحيد بالشواهد السمعية تعرض ابن القيم لآراء الفرق في وجوب التوحيد هل يكون بالعقل أم بالشرع أم بهما؟ وعلاقة ذلك بالحسن والقبح(٥).

ثم ذكر الدرجة الثانية توحيد الخاصة وهو «ما يثبت بالحقائق وإسقاط الأسباب الظاهرة»(٦) ، وذلك لأنه يرىٰ أن ملاحظة الأسباب والشواهد تقدح

---

(١) منازل السائرين ١١٠ ، المدارج ٣/ ٤٨٥.

(٢) المدارج ٣/ ٤٨٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٨٥.

(٤) انظر : المدارج ٣/ ٤٧٦ ، ٣/ ٤٥٠ ونحوه في الفتاوى ١٤/ ١٦٨.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٤٨٨ ـ ٤٩٢ ، وفي مفتاح دار السعادة ٣٢٨ ـ ٣٦٩.

(٦) منازل السائرين ص ١١٠ ـ ١١١.

في فهم التوحيد ، وهم يسقطون الأسباب فلا يرون فاعلاً إلا الله ، فاعتبار الأسباب يعطيها استحقاقاً ينافي تحقيق التوحيد[١].

وهذا مبني علىٰ قاعدتهم أن ثبوت الحقائق مقدم علىٰ صحة الشواهد؛ لأن صحة الشواهد تابعة للأدلة العلمية ، فهي قيود ورسوم تخص العامة أما ثبوت الحقائق فهي تابعة للكشف والذوق والاتصال تخص الخاصة[٢] ، وهذا له علاقة بهفوته في التلبيس حيث جعل تعليق الكوائن بالأسباب تلبيساً[٣]؛ بل لشدة موقف ابن القيم من هذا الكلام الشنيع في بيان التوحيد ألحق ذلك بقول الجهمية[٤] ، ثم نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة حيث قال حول إسقاط الأدلة والشواهد والأسباب : «وهذا الأصل فاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ، بل ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة»[٥] ، وأنكر ابن القيم ما يوجد عند الهروي من تعمية وإلغاز في الحديث عن أعظم أصل من أصول الدين ودعوة المرسلين[٦] ،وهي التوحيد عند خاصة الخاصة ، والذي أشار إليه الهروي بقوله :

---

(١) انظر : : المدارج ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٥.

(٤) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥.

(٥) المدارج ٣/ ٥٩٧ وانظر : الفتاوى ٥/ ٦٢ ـ ٦٨ وقد بسط ابن القيم الرد على منكري الأسباب في هذا الموضع من المدارج ٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٩ في مفتاح دار السعادة كما سبق.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٥١٢ ـ ٥١٣.

«توحيد اختصه الحق لنفسه وأخرسهم عن نعته وأعجزهم عن بثه»(١) إذ كيف يكون التوحيد الذي جاءت به الرسل، وأُنزلت به الكتب واضحاً صريحاً لا يستطيع أن ينطق به لسان أو تشير إليه عبارة، وقد تكلم به الرسل وبيَّنوه وأوضحوه، فتعلقت به القلوب، ونطقت به الألسن، وقامت عليه الشواهد، وترتبت عليه أحكام دينية ودنيوية، وغير مستغرب هذا الشطح عند الهروي، وهذه الدعاوىٰ والوساوس. إذ الغاية عنده الفناء الذي لا يصح إلا بإسقاط الإشارات التي تقتضي وجود مشير ومشار إليه، وتعني الإثنينية التي يسعىٰ لإسقاطها»(٢).

وقد أمعن في وصف توحيده بالأبيات التي ذكرها في آخر المنازل(٣) ص١١٣.

وفي ختام كلامه عن التوحيد والأبيات المنسوبة للهروي فيه قال: إن فيها ميلاً للاتحاد أو وحدة الوجود، وأنه وَجَدَ فيها دعاةُ ذلك المذهب ما يؤيدهم(٤)،

---

(١) منازل السائرين ١١٢، المدارج ٣/ ٥١١.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٢، ٥١٧ وانظر ما يدل على ذلك من عبارة الهروي في المنازل ولم ينقلها ابن القيم ١١٢ حيث قال: «على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها».

(٣) وقد شكك محمود الحسيني في نسبة تلك الأبيات للهروي في التمكين في شرح منازل السائرين ٣٥٣ وذكر نسبتها للحلاج صاحب رسالة مظاهر الانحرافات العقدية ١/ ٣٢٧.

(٤) المدارج ١/ ١٧٤ ـ ١٧٩.

وبالغوا في استحسانها[١]، وأن فيها من الإجمال والحق والإلحاد ما لا يخفىٰ[٢]، وأن بعض عباراته توهم وحدة الوجود، وفي النهاية قال: لا حاصل له من كلامه إذ لا كمال فيه؛ بل فيه ما لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد[٣]؛ بل هي من أبطل الباطل، فالمعنىٰ أبطل من اللفظ واللفظ أقبح من المعنىٰ[٤]، وأنه فتح باباً للزنادقة، وغرَّه سراب الفناء، وظنه لجة بحر المعرفة وغاية العارفين[٥]، وقد علق شيخ الإسلام علىٰ تقسيم الهروي للتوحيد؛ بل وعلىٰ تقسيمه لكل منزلة إلىٰ ثلاث درجات، وقال كلمة رائعة يحسن ذكرها هنا وهي قوله: «يذكر في كل باب ثلاث درجات، فالأولىٰ وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر، والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق، والثالثة في الأغلبية تخالف، لا سيما في التوحيد والفناء والرجاء، ونحو ذلك، وهذا الذي ابتدعوه أعظم - عندهم - مما وافقوا فيه الرسل»[٦].

لقد كان هذا الاستطراد والبسط لهاتين المنزلتين - الفناء والتوحيد - لأنهما مدار كتاب المنازل، وما يأتي من المقامات والأحوال يرجع في أغلب

---

(١) المدارج ٣/ ٥١٩.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٣) المدارج ٣/ ٥١٦.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٨.

(٥) المدارج ١/ ١٥٧.

(٦) الفتاوى ١٠/ ٤٩٧-٤٩٨، ١٣/ ٢٢٩.

مباحثه ومقاصده في الدرجة الثالثة إلىٰ مفهوم الفناء والتوحيد عند الهروي ، وقوله : «الفكرة في عين التوحيد اقتحام بحر الجحود»(١) ، ينتهي إلىٰ أصله الذي أصله في الفناء؛ لأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والمفكر ، والفكرة بقاء رسم ، والتوحيد التام لا يكون معه بقاء رسم ، ثم قال ابن القيم : «وحاشا شيخ الإسلام من حلول أهل الاتحاد وإن كانت عبارته موهمة بل مفهمة ذلك»(٢).

وقال في التوبة : «إن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة»(٣) وذلك لأن من كان في مقام التفرقة فإنه يشهد حسن الأشياء وقبحها ، أما من فني عن شهود الأشياء وشاهد عين الحكمة والمشيئة فلا فرق عنده بين الأشياء ، وهذا أصل قول الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب وتحسين العقل وتقبيحه ، ومثل هذا ما ذكره في مشاهدة العبد الحكم(٤).

وقال في الشوق : «صولة نور القرب علىٰ نور العطف»(٥) ، هذه المسألة ترجع إلىٰ الاتصال الذي سبق ذكره مصدراً من مصادر التلقي عندهم ، وهو بهذا يشير إلىٰ منزلة القرب والاتصال مما يتوهمه بعض ملاحدة الطريق

---

(١) المدارج ١/ ١٤٧ ، منازل السائرين ١٨ .

(٢) المدارج ١/ ١٤٩ .

(٣) منازل السائرين ١١ ، المدارج ١/ ٢٢٧ .

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٨٨ ، ٢٢٨ .

(٥) منازل السائرين ٧٣ ، المدارج ٣/ ٧٧ .

وزنادقتهم، وأكثر آفات القوم من الألفاظ ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها تصور الحق علىٰ ما هو عليه والتعبير المطابق فيتولد من ضعف التصور وقصور التعبير نوع تخبيط»[1].

وقال في الطمأنينة: «طمأنينة شهود الحضرة إلىٰ اللطف، وطمأنينة الجمع إلىٰ البقاء، وطمأنينة المقام إلىٰ نور الأزل»[2].

وهذه المسألة راجعة إلىٰ الفناء والبقاء، فمن وصل إلىٰ شهود الحضرة فهو مطمئن، وحضرة الجمع تُفني الشهود الذاتي، وهذا العارض يعطل العمل عند بعضهم؛ لحصول الطمأنينة[3].

وقال في المشاهدة: «مشاهدة جمع تجذب إلىٰ عين الجمع»[4]، قال ابن القيم: «وهذا أيضاً مورد للملحد والموحد، فالملحد يجعل هذا طريقه إلىٰ القول بوحدة الوجود، والموحد يشاهد بإيمانه ويقينه ذاتاً جامعة للأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، فيجذبه إلىٰ جمع همه علىٰ الله، والقيام بفرائضه»[5].

وقال في المحبة: «أول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها علىٰ منازل المحو»[6]، ومراده بالمحو أي لا يرىٰ لنفسه ولا لغيره فعلاً، ورؤيته صفات

---

(١) المدارج ٣/ ٧٨.

(٢) منازل السائرين ٦٨، المدارج ٢/ ٥١٨.

(٣) المدارج ٢/ ٥١٨.

(٤) منازل السائرين ١١٥، المدارج ٣/ ٢٤١.

(٥) المدارج ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، والإشارة هنا بقوله: الملحد إلى التلمساني شارح منازل السائرين.

(٦) منازل السائرين ٧١، المدارج ٣/ ٣٣.

نفسه عارية وهبة ، وهذا بداية الفناء عنده عن شهود السوىٰ ، كما سبق في مسألة الفناء[1].

وقال في العطش : «لا يغطيها حجاب تفرقة ، ولا يعرج دونها علىٰ انتظار»[2].

هذا الكلام له صلة بالرؤية والمشاهدة ، وهي لا تمكن لأحد في هذه الدنيا، ومن زعم ذلك فهي أوهام وخيالات ، أما كونه لا يعرج دونها علىٰ انتظار فإن هذا غير ممكن حتىٰ لمن رأىٰ الله تعالىٰ ، فإنه لا يحيط به فيبقىٰ من كماله وجماله وجلاله ما لا يطلع عليه أحد[3].

وقال في الوجد : «صولة نور القرب علىٰ نور العطف»[4] ، هذا الكلام له علاقة قوية بالاتصال والقرب نفسه ، وهذا يقود إلىٰ توهم ملاحدة الطريق وزنادقتهم[5].

وقال في الهيمان : «هيمان عند الوقوع في عين القدم»[6].

يعني به اضمحلال الرسوم وفنائها في شهود القدم ، فيفنىٰ من لم يكن

---

(١) المدارج ٣/ ٣٣.

(٢) منازل السائرين ٧٥ ، المدارج ٣/ ٦٤.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٦٦.

(٤) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٨.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٧٨.

(٦) منازل السائرين ص٧٨ ، المدارج ٣/ ٨١.

ويبقىٰ من لم يزل ، وهذه اللوائح التي تحصل لهم ليست من خارج ذواتهم وإنما هي من تعبير بواطنهم وتجاربهم الشخصية ومواجيدهم ، ولا تدل علىٰ شيء في الخارج.

وقال في اللحظ : «ملاحظة عين الجمع»[1] ، فيه إشارة إلىٰ استيلاء عين الجمع علىٰ مشاهدة الأحوال والمقامات والتفرق في أودية الإرادات ، والنظر إلىٰ الواحد الفرد ، وفيه فتور عن العمل والمشاق بعد ما حصل له من مقام الجمع علىٰ الله[2].

وقال في الوقت : «الوقت الحق»[3] ، وهو استغراق رسم الوقت في وجود الحق، وتلاشي الرسوم كشفاً لا وجوداً محضاً، ومنه يشرف علىٰ مقام الجمع، والرسوم هنا ما سوىٰ الله ، فينعدم الإحساس بما حوله لشدة استغراقه بشهوده، ومن نتائج ذلك أن تخف عليه أثقال العمل - عندهم - وفهمها الملحد علىٰ أنها ترك المعاملات الجسمية إلىٰ المعاملات القلبية.

وقال في الصفاء : «صفاء اتصال يدرج حظ العبودية في حق الربوبية»[4].

قال ابن القيم : «وفي هذا اللفظ قلق وسوء تعبير ، يجبره حسن حال صاحبه وصدقه وتعظيمه لله ورسوله، ولكن أبىٰ الله إلا أن يكون الكمال إلا له،

---

(١) منازل السائرين ١٠١ ، المدارج ٣/ ١١٢.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ١١٣ ، ١٤٠.

(٣) منازل السائرين ٨٢ ، المدارج ٣/ ١٣٧ ـ ١٤١.

(٤) منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٠.

ومراد القوم بالاتصال : اتصال العبد بربه ووصوله إليه ، لا بمعنىٰ اتصال ذات العبد بذات الرب ، وتوهم غير ذلك عين المحال»[١] ، وفي هذا مدخل للملاحدة أهل وحدة الوجود أو الاتحاد ، ولهذا قال ابن القيم : «فإياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها فإنها أصل البلاء ، وهي مورد الصدِّيق والزنديق..»[٢].

وقال في السر : «ألاح لهم لائحاً أذهلهم عن إدراك ما هم فيه»[٣] ، يريد بذلك أن ما ظهر لهم من المعرفة جعلهم يغابون عن إدراك ما حولهم وأذهلهم عن الشعور بالغير ، وهذا يرجع إلىٰ الفناء عن شهود السوىٰ علىٰ أقل الأحوال[٤].

وقال في الغيبة : «غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد والدرجات في عين الجمع»[٥] ، حيث إن الجمع يمحو أثر الرسوم والفناء غاية الطلب عندهم ، وحضرة الجمع أكمل من المقامات ، تلاشىٰ وجودها وغاب عن شهودها ، بعدما وصل العارف إلىٰ عين الجمع.

وقال في المكاشفة : «ولا تنزل علىٰ رسم»[٦] ، ومعناه أن المكاشفة لا تنزل

---

(١) المدارج ٣/ ١٥٠ .

(٢) المدارج ٣/ ١٥١.

(٣) منازل السائرين ٨٤ ، المدارج ٣/ ١٨٢.

(٤) المدارج ٣/ ١٨٣.

(٥) منازل السائرين ٨٩ ، المدارج ٣/ ٢١٢ ، ٢١٣.

(٦) منازل السائرين ٩٢ ، المدارج ٣/ ٢٣٠.

علىٰ من بقي فيه رسم حجاب بينه وبين هذه المكاشفة ، والرسم هو النفس وأحكامها وصفاتها ، وهذا يرجع إلىٰ قولهم بالفناء.

وقال في المعاينة : «عين الروح وهي التي تعاين الحق عياناً محضاً»[١].

هذا الكلام محتمل فإن أراد بالحق ما هو ضد الباطل فهو صحيح ، وإن كان مراده بالحق الرب تعالىٰ فهو باطل؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يعاينه في هذه الدار ، علىٰ أنه قد يريد بذلك قوة اليقين ومزيد الإيمان؛ لكن هذا التعبير في دلالته علىٰ المراد غموض.

وقال في الحياة : «حياة الجمع من موت التفرقة»[٢] ، الجمع عندهم هو أن تسقط كل الإشارات والفروق فلا يرىٰ إلا جمعها في توحيد الربوبية ، وهذا أبلغ درجات الفناء عندهم.

وقال في الصحو : «أودية الجمع ولوائح الوجود»[٣] ، الجمع ينقسم إلىٰ جمع وجود ، وجمع شهود ، وجمع إرادة. فالأول منها: لأهل الإلحاد ، والثاني جمع أهل الفناء ، والثالث جمع الرسل وأتباعهم.

وقال في الاتصال : «ثم اتصال وجود»[٤] ، وهو الظفر بحقيقة الشيء فيصير

---

(١) منازل السائرين ٩٤ ، المدارج ٣/ ٢٥٦.

(٢) منازل السائرين ٩٥ ، المدارج ٣/ ٢٨٩.

(٣) منازل السائرين ٩٨ ، المدارج ٣/ ٣١٩.

(٤) منازل السائرين ٩٩ ، المدارج ٣/ ٣٢٣.

الوجود واحداً ، وهذا من مداخل التلمساني إلىٰ القول بأن هذا شاهد لوحدة الوجود والحلول عند الهروي ، وقد برأه ابن القيم من قصد ذلك علىٰ منهجه في الاعتذار عنه إذا أمكنه ذلك [1].

وقال في الوجود : «وجود مقام اضمحلال رسم الوجود فيه بالاستغراق في الأولية»[2] ، قال ابن القيم : هذا كلام فيه قلق وتعقيد ، وهو باللغز أشبه منه بالبيان»[3] وهي راجعة إلىٰ مقام الفناء عن شهود السوىٰ كأحد مقامات القوم ، والأولية إما شهود الأول واضمحلال ما دونه من الحادثات ، أو شهود سابقة المشيئة والحكم الأول ، فاضمحل كل فرق عنده بين الأشياء.

وقال في الجمع : «ما أسقط التفرقة وقطع الإشارة ، والخلاص من شهود الثنوية»[4] ، إن كان قصده في ذلك جمع الوجود فهو جمع الملاحدة أصحاب وحدة الوجود ، ويقابله عندهم التفرقة الفرق بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق ، فالجمع عندهم ما أسقط هذا الفرق ، وإن أُريد بالجمع الجمع بين الإرادة والطلب علىٰ المراد المطلوب وحده ، وبالتفرقة تفرقة الهمة والإرادة فهو صحيح ، ولهذا قال ابن القيم في هذا المقام : «وبمثل هذه

---

(١) المدارج ٣/ ٣٢٤.

(٢) منازل السائرين ١٠٧ ، المدارج ٣/ ٤١٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) منازل السائرين ١٠٩ ، المدارج ٣/ ٤٢٧.

المجملات دخل على أصحاب السلوك والإرادة ما دخل»[١]، وقوله: «قطع الإشارة» مثل سقوط التفرقة، وكذلك الخلاص من الثنوية لانقطاع الإشارة؛ لأنه ما ثم عندهم مشار ولا مشار إليه.

توحيد القصد والطلب في منازل السائرين

ثالثاً: توحيد القصد والطلب:

قال ابن القيم في مواضع متعددة إن الهروي بالغ في تقرير توحيد الربوبية دون الألوهية [٢].

قال في التوبة: «إن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة»[٣]، وهذا من آثار الفناء وشهود الحقيقة الكونية التي لا يرى فيها الإنسان فرقاً بين الأشياء، وهو أصل عقيدة القدرية الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب، ثم قال ابن القيم - رحمه الله -: «وهذا عند القوم من الأسرار التي لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم وأهل الوصول منهم»[٤]، وعلاقة ذلك بتوحيد الألوهية - مع أنه ظاهر الصلة بالقدر - أن من اعتقد ذلك فإنه لا يشهد طاعة ولا معصية ولا أمراً ولا نهياً، فيتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ الكل في نظره جارٍ وفق المشيئة فهو مطيع، ثم إن النفوس إذا زال عنها الفرق مالت إلى ما تهوى من الشهوات لولا وازع الأمر

---

(١) المدارج ٣/ ٤٢٨.

(٢) انظر: المدارج ٣/ ٣٨٧، ٤٤٤، ٤٨٨.

(٣) منازل السائرين ٩، المدارج ١/ ٢٢٧.

(٤) المدارج ١/ ٢٢٩.

والنهي والخوف والرجاء والوعد والوعيد، وفي معرض دفاع ابن القيم عن الهروي ينقل عنه تكفير من قال بذلك - مطالعة الإرادة الأزلية - ويخرجهم من جملة الأديان[١].

ثم قال الهروي : «فتوبة العامة : الاستكثار من الطاعة»[٢]، لقد اجتهد ابن القيم في تفسير مراده من هذا الكلام بما يخفف لازم عبارته، ومهما كان فإن شاهد الحال عند غلاتهم يدل علىٰ زهدهم بالعمل كما حكىٰ ذلك ابن القيم عن حال ابن سبعين[٣]، وقال شيخ الإسلام : العامة يعبدون الله وهؤلاء يعبدون نفوسهم[٤]، ثم أشاد بالعمل وأهميته[٥].

وقال في الزهد : «وللعامة خسّة»[٦] إذا جرينا علىٰ ما في نسخ المنازل فهذا

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٩.

(٢) منازل السائرين ١١، المدارج ١/ ٢٥٧.

(٣) ابن سبعين، عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الإشبيلي المرسي، أحد الفلاسفة المتصوفين القائلين بوحدة الوجود ولد سنة ٦١٤هـ، عالم بفلسفة أرسطو والأفلاطونية المحدثة، ومن القائلين بالصدور الفيضي، توفي سنة ٦٦٩هـ/ العبر (٣/ ٣٢٠)، شذرات الذهب (٥/ ٣٢٨)، الأعلام (٣/ ٢٨٠)، معجم المؤلفين (٥/ ٩٠).

(٤) المدارج ١/ ٢٦٠.

(٥) المدارج ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٩ وذكر أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة، المدارج (١/ ١٨٤).

(٦) لفظ (خسّة) هكذا في المنازل الذي اعتمدته في التقويم تحقيق الأب/ س.دي لوجييه دي موركي الدومنكي، طبعة القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٦١م، ص٢٣، وفي النسخة الأخرى طباعة دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ. قلت ذلك لأنه في مدارج السالكين ضبطها (خشية) وهي في شرح المنازل لعبد المعطي الإسكندري ص٤٩

التعبير فيه ازدراء لمكانة الزهد ومنزلته في الدين ، وإن كان شراح المنازل ممن اعتمد هذا اللفظ فسَّرها بأن الزهد يدل علىٰ أن هناك مطالعة من الإنسان لشيء آخر غير الله ومن ثم زهد به ، فكان الأولىٰ به أن لا يكون عنده شيء يستحق الزهد[1] ، وهو أقرب للمعنىٰ والسياق من ضبطها (خشية) ، وتفسيرها بأنها إمعان في الخشية من المسؤولية أمام بارئهم[2] ، أو خوفهم من تكدير ما حصل لهم من الأنس والقرب بالتفاتهم إلىٰ ما سوىٰ الله[3].

وقال في الرجاء : «أضعف منازل المريدين ، وهو وقوع في الرعونة في مذهب الطائفة»[4] ، منزلة الرجاء معروفة عند عامة المسلمين وخاصتهم ، وكلامه هنا يهوِّن من شأن الرجاء، لذا قال ابن القيم: شيخ الإسلام - الهروي - حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه - ثم قال - : هذا ونحوه من الشطحات التي ترجىٰ مغفرتها بكثرة الحسنات.. ثم قال : وهذه الشطحات أوجبت فتنة علىٰ طائفتين من الناس[5] ، وهو يشير بهذا إلىٰ تقويم ونقد طوائف الصوفية

(خسَّة) ، وفي التمكين شرح منازل السائرين للحسيني ص٦٤ (خشية) ، وكل منهم شرحها حسب ضبطه لها ، وقد جاءت مثل هذه العبارة عن الهروي في منزلة الصفاء : «ويطوي خسّة التكاليف» منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٤ .

(١) شرح منازل السائرين للإسكندري ٤٧ .

(٢) التمكين ٦٦ .

(٣) المدارج ٢/ ١٥ .

(٤) منازل السائرين ٣٣ ، المدارج ٢/ ٣٧ .

(٥) المدارج ٢/ ٣٧ - ٣٩ .

عند من رفضهم جملة ومن قبلهم جملة ، وغفل عن التفصيل والعدل فيهم ، ثم رد علىٰ رعوناتهم في تفسير هذه المنزلة [١].

وقال في التوكل : «هو من أصعب منازل العامة عليهم»[٢]؛ لأنهم ما زالوا - عنده - يعيشون تحت رق الأسباب ، وقد تقدم موقفه من الأسباب قريباً ، وسوف يأتي له زيادة في مبحث منزلة التوكل.

ثم قال عن التوكل : «أوهىٰ السبل عند الخاصة»[٣] ، والصحيح أنه من أعظمها وأجلها وأفضلها كما بين ذلك ابن القيم في حديثه عن هذه المنزلة[٤].

ومثل ذلك قوله في الدرجة الثالثة : «التوكل.. الخلاص من علة التوكل»[٥]، وهي تعني قطع الأسباب والطلب كما هو مذهبه في الفناء عن رؤية الأشياء ، ثم اجتهد ابن القيم في البحث عن احتمالات أخرىٰ يراها تليق بما يعرفه من حال الهروي[٦].

وقال في الصبر : «وهو من أصعب المنازل علىٰ العامة ، وأوحشها في

---

(١) المدارج ٢/ ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) منازل السائرين ٣٣ ، المدارج ٢/ ١٢٧.

(٣) وقال عنه : «إن التوكل في طريق الخاصة عمى عن التوحيد ورجوع إلى الأسباب» ، مدارج السالكين ٣/ ٤٧٨ ونحوه في ٣/ ٤٩٤.

(٤) انظر : المدارج ٢/ ١١٢ ـ ١١٣.

(٥) منازل السائرين ٣٤ ، المدارج ٢/ ١٣٥.

(٦) انظر : المدارج ٢/ ١٣٧.

طريق المحبة ، وأنكرها في طريق التوحيد»[١] ، لما يشتمل عليه من دعوىٰ تصادم التوحيد - بزعمهم - فهو بهذا الاعتبار يرد الأشياء لنفسه والأصل أن يردها لله ، قال ابن القيم وهو منكر كلامه : «بل الصبر آكد المنازل في طريق المحبة وهم أحوج إليه من كل منزلة ، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد»[٢].

وقال في الشكر : «وهو أيضاً من سبل العامة»[٣] ، قال ابن القيم : يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل ، بل الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه صلىٰ الله عليهم وسلم أجمعين أخص خلقه وأقربهم إليه [٤].

وقال في المحبة : «إنها عقبة ينحدر منها علىٰ منازل المحو»[٥] ، المعروف أن المحبة منزلة يتنافس عليها المتنافسون وإليها شخص العاملون ، فهي غذاء الأرواح وقرة العيون ، وهي أحد أركان العبادة ، وقد بسط الحديث فيها ابن القيم في المدارج[٦] وغيره ، واعتبارها عقبة بخس لمنزلتها من الدين ، كيف

---

(١) منازل السائرين ٣٨ ، المدارج ٢/ ١٦١.

(٢) المدارج ٢/ ١٦٢.

(٣) منازل السائرين ٤١ ، المدارج ٢/ ٢٤٧.

(٤) المدارج ٢/ ٢٤٩.

(٥) منازل السائرين ٧١ ، المدارج ٣/ ٣٣ وتقدم التعليق عليها في الكلام عن توحيد المعرفة والإثبات.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٦ ـ ٣٠.

وقد ختم كلامه - بالمحو - الذي يعد في بعض احتمالاته زندقة واتحادية[١].

وقال في التلبيس : «تلبيس الحق سبحانه بالكون علىٰ أهل التفرقة ، وهو تعليقه الكوائن بالأسباب»[٢] ، لخطورة هذا الكلام وكونه غاية في النكارة قال ابن القيم : «ولعمر الله لقد كان في غنية عن هذا الباب وعن هذه التسمية ، ولقد أفسد الكتاب بذلك»[٣] ، ونقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول عن الهروي : (عمله خير من علمه) ، ثم قال - وصدق رحمه الله - : فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار - إلىٰ قوله -: وقد أخطأ في هذا الباب لفظاً ومعنىٰ ، أما اللفظ فتسمية حق الله سبحانه (تلبيساً) ، ومعاذ الله من الرضىٰ بها والإقرار عليها والذب عنها والانتصار لها ، ونحن نشهد أن هذا تلبيس علىٰ شيخ الإسلام فالتلبيس وقع عليه[٤] ، ثم شرع الإمام ابن القيم في بيان الحق ودحض الباطل صريحاً في موقفه من ذلك[٥] ، وصلة ذلك بالألوهية ، وما للأسباب من منزلة ، فبها عُرِف الله وبها عُبِد وأُطيع ، وتقرب إليه المتقربون ، وأقاموا دعوته ، وبها أرسل رسله وشرائعه[٦] ، وهنا قال

(١) انظر : المدارج ٣/ ٣٤.

(٢) منازل السائرين ١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٣) المدارج ٣/ ٤٠٠.

(٤) المدارج ٣/ ٣٩٤ ، وانظر : ٣/ ٤٠٠ ، ٤٠٦.

(٥) المدارج ٣/ ٣٩٨ ، ٤٠٩.

(٦) المدارج ٣/ ٤٠٨.

ابن القيم : «ويا لله ما أجهل كثيراً من أهل الكلام والتصوف حيث لم يكن عندهم تحقيق التوحيد إلا بإلغائها و محوها وإهدارها بالكلية ، وهذا غاية توحيدهم الذي يحومون حوله ويبالغون في تقريره»(١).

وقال في التوحيد عن إشارة المحققين أنهم قصدوا : «تصحيح التوحيد وما سواه من حال أو مقام ، فكله مصحوب بالعلل»(٢) ، قوله : مصحوب بالعلل إشارة إلىٰ الرجاء والخوف والتوكل وفيما مضىٰ إشارة إلىٰ نظرته لهذه المنازل، والجمع والفرق وصلته بترك الأسباب ، والجمع الصحيح وعلاقته بتوحيد الألوهية(٣) ، واليقين وصلته عنده بترك الأسباب(٤).

رابعاً : القضاء والقدر :

القضاء والقدر في منازل السائرين

لقد كان لمنزلة الفناء عند الهروي أثره علىٰ النظر إلىٰ الأسباب ، فهو يبالغ في نفيها وعدم التعلق بها ، والتأكيد علىٰ مشاهدة الحقيقة الكونية التي ينعدم فيها دور العقل في التفريق بين الحسن والقبيح ، وللقول بالفناء ونفي الأسباب لوازم شنيعة ، منها : القول بنفي الحكم ، والتعليل ، والقول بالجبر ، وإن كان الهروي لم يصرح بذلك؛ لكن من يوافقه من الجهمية(٥)

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٩.

(٢) منازل السائرين ١١٠ ، المدارج ٣/ ٤٤٣ ، ٤٧٩.

(٣) المدارج ٣/ ٥٠٩.

(٤) المدارج ١/ ٥١٩.

(٥) الجهمية : فرقة ضالة تنسب إلى الجهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته

والأشاعرة[١] هو مقتضىٰ ما توصلوا إليه من نفي الأسباب ، وإلغاء دور العقل ، ونفي الحكم والعلل والقول بالجبر ، وهذا ما سوف يتضح من ثنايا حصر مزالقه في المنازل والمقامات :

قال في التوبة : «إن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة»[٢] .

قال ابن القيم : «إن أُخِذَ علىٰ ظاهره فهو من أبطل الباطل الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين لنسب إلىٰ لازم هذا الكلام»[٣] ، والحكم يريد به المشيئة الشاملة العامة الموجبة ، وهذا أصل قول القدرية[٤] الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب ، وتحسين

بترمذ ، وقد قتله مسلم بن أحوز سنة ١٢٧هـ ، وهو تلميذ الجعد بن درهم ، وتتفق هذه الفرقة مع المعتزلة بنفي الصفات ، ومن أقوالهم القول بالقدرة الحادثة ، وأن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، والقول بفناء الجنة والنار ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط ، والكفر هو الجهل فقط.

انظر : : الملل والنحل ١/ ٨٦ ، الفصل ٤/ ٢٠٤ ، الفرق بين الفرق ١٢١.

(١) الأشعرية : إحدى الفرق التي ضلت في أبواب الاعتقاد كالقول بالجبر ونفي العلل والحسن والقبح ونفي الصفات سوى سبع ، وأن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وأن الأقوال والأعمال فروعه ، وهي تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي رجع عن تلك الأقوال. انظر : : الفصل ٥/ ٧٧ ، الملل والنحل ١/ ٩٤ ، رسالة المقدسي في الرافضة ١٦٦ ، الفرق بين الفرق ٢٣٩.

(٢) منازل السائرين ص٩ ، المدارج ١/ ٢٢٧.

(٣) المدارج ١/ ٢٢٧.

(٤) القدرية : سموا بذلك لقولهم بأن العبد يخلق فعله بنفسه ، حيث أثبتوا خالقاً مع الله فشابهوا

العقل وتقبيحه[1] ، ثم أطال ابن القيم في الرد علىٰ أصحاب هذا المذهب ، وأشار إلىٰ رده في بعض كتبه مع التعرض إلىٰ من يقابلهم من المعتزلة في الطرف الثاني ، وتوسُّط أهل الحق في ذلك[2] ، وقد أشار إلىٰ أن الهروي ممن يميل إلىٰ القدر ويفنىٰ في شهوده[3].

وقال في الصدق : «وإن كان العبد كسي ثوباً معاراً فأحسن أعماله ذنب ، وأصدق أحواله زور»[4] ، فيه إشارة إلىٰ ملاحظة المشيئة والحقيقة الكونية ، وأنه لا ينسب إلىٰ الإنسان فعل ، فأفعاله موافقة القدر طاعة كانت أو معصية ، وإن كان لابن القيم تأويل يوجِّه به كلام الهروي[5] ، مع أن كلام الهروي يشير إلىٰ أن الإنسان آلة ومجرىٰ للمشيئة ، وليس له اختيار أصلاً.

وقال في التلبيس : «تلبيس الحق علىٰ أهل التفرقة بتعليق الكوائن بالأسباب»[6].

المجوسية ، وزعموا أن الله لا يقدر على أفعال العباد ، وهذا هو مذهب المعتزلة ، وهم دركات أشدها نفاة العلم عن الله تعالى. انظر : : الملل والنحل ١/ ٤٣ ، الفرق بين الفرق ٢٠٢-٢٠٤

(١) انظر : المدارج ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر : المدارج ١/ ٢٣٠.

(٣) انظر: المدارج ١/ ١٨٨، وهذا الشهود مذموم ناقص لأن صاحبه يعذر أعداء الله في صنيعهم.

(٤) منازل السائرين ص٤٣ ، المدارج ٢/ ٢٨٣.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧.

(٦) منازل السائرين ص١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٤.

تقدم الكلام عن التلبيس فيما يتعلق بالربوبية والألوهية ، وعلاقته هنا بتسمية الأسباب تعمية وتلبيساً علىٰ الخلق ، فهو لا يرىٰ أن لها أثراً ولا فائدة ، وإنما يتعلق بها أهل التفرقة عن رؤية الحق ، وفي هذا من الخلط والتلبيس منه وعليه ما لا يخفىٰ ، ولقد سبقت الإشارة إليه في المواضع الآنفة الذكر(١).

وقال في التوحيد : «وهو توحيد الخاصة وهو إسقاط الأسباب الظاهرة»(٢).

وهو بهذا مشاهدٌ سبق الحكمة ، والصحيح أن هذا ليس توحيداً ، وإسقاط الأسباب هو توحيد الجبرية القدرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر ، فإنه كان غالياً فيه ، وعندهم أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ، ولا جعل في الأسباب قوىٰ وطبائع تؤثر(٣) ، ومثله قوله : «وعن التعلق بالشواهد»(٤) ، والشواهد هي الأدلة ، وإنكار الأسباب يؤدي إلىٰ الفناء في التوحيد(٥).

وقوله : «ويصفو في علم الجمع ويجذب إلىٰ توحيد أرباب الجمع»(٦) ، ويريد هنا النظر إلىٰ من صدرت عنه المتفرقات ، وأسوأ أنواع هذا الجمع جمع الوجود الذي هو جمع وحدة الوجود ، والذي يقابل الجمع الفرق ، وهو

---

(١) وانظر : المدارج ٣/ ٣٩٥ـ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧.

(٢) منازل السائرين ١١١ ، المدارج ٣/ ٤٩٤.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥ .

(٤) منازل السائرين ١١١ ، المدارج ٣/ ٥٠٢.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٥٠٢.

(٦) منازل السائرين ١١٢ ، المدارج ٣/ ٤٩٤.

يعني في بعض أقسامه الفرق المتعلق بمسائل القضاء والقدر ، والتمييز بين أفعال الله وأفعال العباد ، فمع الإيمان بأن كل شيء واقع بمشيئة الله وقدرته وخلقه فإن للعبد فعلاً على الحقيقة[1] ، أما من غابوا بأفعالهم وحركاتهم عن فعل الرب وقضائه وقدره فهم القدرية ، ومن غاب بفعل الرب وتفرده بالحكم والمشيئة عن أفعالهم وحركاتهم فهم الجبرية.

وقال في اليقين : «وعلىٰ اليقين أن يداخله سبب»[2] ، فهذا مبالغة في إنكار الأسباب والصحيح خلاف ذلك ، فقطع الأسباب عن أن تكون أسباباً والإعراض عنه زندقة وكفر محال[3].

خامساً : ما وقع فيه من أخطاء في بعض المقامات السلوكية والاستدلال :

الأخطاء الواقعة في تعريف المقامات والاستدلال بها

جعل الهروي ترتيب المقامات سُلَّماً يصعد عليه السالكون إلىٰ التربية الخلقية وتهذيب النفوس ، وهي تتحقق بجهد يبذله السالك ومعاناة ومجاهدات ، فلا يصح له الانتقال من مقام إلا بعد إكمال جميع المستويات التي يتضمنها المقام الذي قبله ، وعلىٰ هذا قال الهروي : «اتفقوا علىٰ أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات»[4] ، ولقد خالفه شيخ الإسلام في ذلك

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٥٠٧.

(٢) منازل السائرين ص٥٣، مدارج السالكين ٣/ ٥٠٨.

(٣) انظر : المدارج ١/ ٥١٩.

(٤) منازل السائرين ٦ ، وانظر : اللمع ٣٨٠.

واعترض علىٰ هذه القاعدة فقال: «العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية»[١]، وقد فرّقوا بين المقامات والأحوال ، فإن الحال عندهم معنىً يرد علىٰ القلب من غير اجتلاب واكتساب[٢] ، فهم يرون أن الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود[٣]، ويرىٰ بعضهم أنها تجمع بين الفضل الإلهي والكسب كما في عوارف المعارف[٤].

ويُعد كتاب المنازل أشهر كتاب عُني بهذا الترتيب الشامل ، ومع هذا خالف الصواب بجعل بعض المقامات معلولة ، مثل : الزهد والصبر والتوكل والشكر وغيرها ، وجعل بعض العوارض مقاماً ومنزلة وهي عوارض كالحزن ، والدهش ، والهيمان[٥] ، وتكلُّف في الاستدلال لبعض ما سماه مقاماً مثل : البسط ، الرضىٰ ، الذوق ، وحصل تداخل بين المنازل مثل الشوق والقلق والنفس والجمع والمشاهدة ، واعترض عليه ابن القيم في ترتيب المنازل بعامة[٦].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٣٠٤ ، ١٥/ ٥٥.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ١٢٤ ، اللمع ٦٦ ، ٤١١.

(٣) الرسالة القشيرية ١٢٤.

(٤) انظر : عوارف المعارف آخر الإحياء ٥/ ٣٢٠ ، اللمع ٤١١ ، المدارج ٢/ ١٧١.

(٥) انظر : مخالفة شيخ الإسلام له في الفتاوى ١٠/ ٣٥ ، وابن القيم في طريق الهجرتين ٣٠٥ - ٤٧٩.

(٦) انظر : المدارج ١/ ١٣٨ ٢/ ٣٥١-٣٥٤ ومن أظهر المخالفات زيادة ابن القيم لمنزلة المروءة

وبعد هذا الإجمال سوف يكون الحديث مفصلاً عن كل ما سبقت الإشارة إليه ، وقد تقدم أن المنزلة الواحدة قد يجتمع فيها الخطأ العقدي والسلوكي والاستدلال.

قال في الزهد : «وهو للعامة خسَّة»[1] ، هذا تعريفه عند الهروي ولكن منزلته من الشريعة فوق ذلك ، وأعلاها الزهد بما حرم الله ثم الزهد بالمتشابه بالكماليات الملهية التي من غرق في بحرها أثقلته عن السير إلىٰ الدار الآخرة[2].

وقال في الرغبة : «الرغبة سلوك علىٰ التحقيق»[3] ، فجعل الرغبة محققة ، والرغبة طمع في مغيب مشكوك فيه ، وهذا تفريق بين متماثلين ، فإن كلاًّ منهما طلب غائب غير مقطوع به ، ولا مجزوم بحصوله[4].

وقال في التفويض : «وهو أوسع معنىٰ من التوكل»[5] ، فإنه جعل التوكل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده ، وجعل التوكل شعبة من

وليست عند الهروي ، كما سبقه إلى هذا الاعتراض على تقسيم المنازل شيخ الإسلام في الفتاوى ١٣/ ٢٢٩ ، ١٠/ ٤٩٧-٤٩٨.

(١) منازل السائرين ٢٣ ، المدارج ٢/ ١٥ ، وتقدم التعليق على هذا اللفظ من حيث علاقته بالألوهية في توحيد القصد والطلب ١٦٨١.

(٢) انظر : المدارج ٢/ ١٥ وما بعدها.

(٣) منازل السائرين ٢٧ ، المدارج ٢/ ٥٦.

(٤) انظر : المدارج ٢/ ٥٦.

(٥) منازل السائرين ٣٥ ، المدارج ٢/ ١٣٧.

التفويض ، حيث قال : بأن التفويض في كل شيء والتوكل في المصالح ، والأقرب تقديم التوكل على التفويض ، حيث ورد في القرآن أمراً وإخباراً عن خاصة أولياء الله وصفوة المؤمنين بأن حالهم التوكل ، وإنما ورد التفويض فيما حكاه الله عن مؤمن آل فرعون : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر : ٤٤] ، واتخاذ الله وكيلاً هو محض العبودية وخالص التوحيد فهو أوسع من التفويض وأعلىٰ وأرفع[1].

واستدل للرضىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾[2][الفجر : ٢٧ - ٢٨] ، قال ابن القيم : «هذا تعلق بإشارة الآية لا بالمراد منها فإن المراد منها رضاها بما حصل لها من كرامته ، وبما نالته عند الرجوع إليه»[3].

وجعل الرضىٰ بداية في قوله : «وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص»[4].

والصحيح أنه غاية يُسعىٰ إليها وليس فوقه إلا الشكر فهو بمنزلة بين الصبر والشكر[5].

وقال في الشوق : «إنما الشوق يكون إلىٰ الغائب ، ومذهب هذه الطائفة

---

(١) المدارج ٢/ ١٣٩.

(٢) منازل السائرين ٣٩ ، المدارج ٢/ ١٧١.

(٣) المدارج ٢/ ١٧٨.

(٤) منازل السائرين ٤٠ ، المدارج ٢/ ١٨٠.

(٥) انظر : المصدر السابق.

إنما قام على المشاهدة»[1] ، والصحيح أن المشاهدة لا تزيل الشوق؛ لكن هذا على اعتقادهم بأن السائر لم يصل ، فإذا وصل سقط الشوق ، وهذا خلاف حال الواصلين إلى الجنة فهم في مزيد شوق ليوم الجمع - يوم المزيد - وهم في مزيد شوق إلى رؤية الله تعالى[2] ، أما استدلاله بالآية ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ﴾ [العنكبوت:٥] ، فهو بهذا جعل الرجاء شوقاً ، وهو خلاف التفسير[3].

وقال في الطمأنينة : «سكون يقويه أمن صحيح»[4] ، حيث جعل السكينة تولد الطمأنينة ، والذي أشار إليه ابن القيم أنه إن لم يكن بينهما تلازم فإن الطمأنينة أقوى في استلزامها للطمأنينة وليس العكس فإن الطمأنينة أعم[5].

وقال في الحزن : «حزن العامة... وحزن أهل الإرادة»[6] ، والملاحظ أنه لم يجعل للخاصة من نصيب ، والصحيح أن الحزن ليس من المنازل المطلوبة ولا المأمور بنزولها ، ولم يرد في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ، وقال : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) منازل السائرين ٧٣ ، المدارج ٣/ ٥٥.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٥٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) منازل السائرين ٦٨ ، المدارج ٢/ ٥١٤.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٥١٥.

(٦) منازل السائرين ١٩ ، المدارج ١/ ٥٠٨.

[النحل:١٢٧] ، وقوله : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] ، وذلك لأنه لا مصلحة فيه للقلب بل هو من أحب الأشياء إلىٰ الشيطان : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[المجادلة: ١٠] ، ونهىٰ رسول الله ﷺ عن النجوىٰ بين الاثنين دون الثالث لأن ذلك يحزنه[١].

ومثل ذلك قوله في الدهش : «دهشة السالك عن صولة الجمع علىٰ رسمه»[٢] ، واستدل لذلك بقصة يوسف لما دخل علىٰ النسوة : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف :٣١] ، وليست منزلة الدهش مما يعد مغنماً للسالك ، فهي ذهول وضعف ، فهي ليست من المقامات والمنازل؛ بل غيبة وفناء عن الذات[٣].

وقال في التلبيس: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٤] [الأنعام: ٩] ، قال ابن القيم : «ليته لم يستشهد بهذه الآية في هذا الباب ، فإن الاستشهاد بها علىٰ مقصوده أبعد شاهد عليه - أي قوله - فإن معنىٰ الآية غير ما عقد له الباب من كل وجه ، فالتلبيس ليس منزلة والاستدلال بهذه الآية غير وجيه»[٥].

---

(١) الحديث : أخرجه البخاري. الاستئذان ٤/ ١٥٠ ح ٦٢٩٠ ، مسلم. السلام ٤/ ١٧١٨ ح ٢١٨٤ ، أحمد ٢/ ٤٥.

(٢) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٧ .

(٣) انظر : المدارج ٧٥ .

(٤) منازل السائرين ١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٢.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٢-٣٩٨.

وقال في الصفاء : «ويطوي خسَّة التكاليف»(١) ، فهذا تعبير قبيح كما قال ابن القيم : «فوالله إنه لأقبح من شوكة في العين ، وشجىٰ في الحلق ، وحاشا التكاليف أن توصف بخسَّة أو تلحقها خسَّة ، وإنما هي قرة عين وسرور قلب»(٢).

وقال في الشوق : قال تعالىٰ : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾(٣) [طه:٨٤] ، فكأنه جعل حامل موسىٰ علىٰ العجلة القلق، وهذه مداخلة بين الشوق والقلق، والصحيح أن حامل موسىٰ علىٰ ذلك هو طلب الرضىٰ ، والعجلة في تحقيق أمره ، والمسارعة لعبادته(٤) ، ثم يدخل العطش علىٰ القلق(٥) ، فإنه إذا زاد القلق صار عطشاً ، واستشهد لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] ، فهو أخذه من الآية إشارة إلىٰ شدة العطش إلىٰ لقاء المحبوب ، وهم قوم مولعون بالإشارات(٦).

وقال في البسط : قال تعالىٰ : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾(٧) [الأعراف: ١٥٥] ، قال ابن القيم : «وقد غلط صاحب المنازل

---

(١) منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) منازل السائرين ٧٥ ، المدارج ٣/ ٥٩.

(٤) انظر : المدارج ٣/ ٥٩ .

(٥) انظر : منازل السائرين ٧٥ ، المدارج ٣/ ٦١.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٦١.

(٧) منازل السائرين ٩٦ ، المدارج ٢/ ٣٥٤.

حيث صدرها بهذه الآية ، وهو وهم وخلاف المقصود ، إذ الفتنة هنا الامتحان والاختبار ، فلا علاقة لها بالانبساط»(١).

وقال في الهيمان : «ذهاب عن التماسك تعجباً أو حيرة وهو أثبت دواماً من الدهش»(٢) ، وهو ما يحدث للسالك من الواردات لفرط التعجب ، والاستحسان يزيل تماسكه ، وهذا في الحقيقة ليس مقاماً ولا منزلاً للسائرين، فإن الثبات مقدم علىٰ الاضطراب ، وحيث إن هذا الاسم لم يرد في الشرع فقد تكلف له بالاستدلال إذ جعل قصة موسىٰ ﷺ لما خرَّ صعقاً شاهداً لهذا وهو يرجع إلىٰ منهجهم في الاستدلال الإشاري(٣).

وقال في الذوق : قال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌۚ﴾ [ص: ٤٩] ، قال ابن القيم : «في تنزيل هذه الآية علىٰ الذوق صعوبة»(٤).

وقال في الوقت : «حينُ وجدٍ صادق ، يكون متعلقه إيناس ضياء فضل»(٥) ، يريد بذلك صدق الواحد لرؤية فضل الله ومنته في ذلك الوقت ، ثم استدل لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩] ، وهذا كلف في الاستدلال.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) منازل السائرين ٧٨ ، المدارج ٣/ ٧٩.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٧٩.

(٤) منازل السائرين ٧٩ ، المدارج ٣/ ٨٩.

(٥) منازل السائرين ٨٢ ، المدارج ٣/ ١٣١.

وقال في الصفاء: «صفاء اتصال، يطوي خسَّة التكاليف في عين الأزل»[١]، قوله: «خسَّة التكاليف»، قد يكون له تفسير غير ما ظهر؛ لكن هذه الكلمة محصلتها التهوين من شأن العمل، وقوله في عين الأزل مدخل للجبرية الذين ينظرون إلىٰ عموم المشيئة عند تقويم الأعمال، فلا يرون طاعة ولا معصية فالكل مطيع للقدر، لذا قال ابن القيم: «في هذا اللفظ قلق وسوء تعبير... وقال: فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها»[٢]، وقال: «ليت الشيخ عبر عن هذه اللفظة بغيرها، فوالله إنها لأقبح من شوكة في العين»[٣].

وفي (النَّفَس[٤]، والجمع[٥]، والمشاهدة، والقبض[٦]، والسكر[٧]).

اشتملت هذه المقامات والأحوال علىٰ أخطاء في الاستدلال، وتداخل في الأسماء، وخلط بين العوارض والمقامات، والمنازل والأحوال، كان له أثر في سلوكهم وعباداتهم، لذا قال ابن القيم: «هم في الإرادة والسلوك نظير المعتزلة والجهمية، ومن سلك سبيلهم في باب العلم والخبر عن أسماء الله

---

(١) منازل السائرين ٨٣، المدارج ٣/ ١٥٠.

(٢) المدارج ٣/ ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) المدارج ٣/ ١٥٤.

(٤) منازل السائرين ٨٦، المدارج ٣/ ١٩٠.

(٥) منازل السائرين ١٠٩، المدارج ٣/ ٤٢١.

(٦) منازل السائرين ٩٦، المدارج ٣/ ٢٩٢.

(٧) منازل السائرين ٩٧، المدارج ٣/ ٣٠٥.

وصفاته»[١] ، ولعل من أسباب هذا الاضطراب والغموض والإيهام والرمزية في التعبير هو أنهم حاولوا أن ينقلوا تجربتهم النفسية إلىٰ الآخرين بلغة الأشياء المحسوسة؛ لذا بدا كلامهم غريباً علىٰ السامعين ، واشتد الإنكار عليهم من الآخرين[٢] ، وقال الدكتور إبراهيم بسيوني : ولكي تؤدي الكلمة وظيفتها عندهم حملوها من الشحنات النفسية ما جعلها بعيدة الغور ، مديدة الأبعاد ، حتىٰ تليق بالموقف الذي هم عليه في الوقت ، كالوجد والفقد والهيبة والأنس والتجريد والتفريد والوقفة والفترة والسحق والمحق واللوائح والطوالع واللوامع والبواده والرهبة والاصطدام والوله ، ونحو ذلك من المصطلحات التي يخلص الواحد منها موقف نفسي[٣].

فإن دلالتها تختلف عما يريدون ، وعليه فلا يستطيع تفسيرها كما يريدون إلا هم لخاصتهم ، أو من خاض نفس التجربة في مرحلة من المراحل ، ولعل ابن القيم وقع له شيء من ذلك ، كما في حديثه عن الخلوة والعزلة والوارد والأنس ، والبهجة والقبض والبسط والفناء والبقاء ، فقد استخدم لغة صوفية مليئة بالمصطلحات التي تُشعر القارئ أنه يقرأ في كتاب صوفي[٤] ، لذا لم تعد

---

(١) المدارج ٣/ ٤٣٦.

(٢) المدخل إلى التصوف ١٦٦ ، اللمع ٤١٤.

(٣) نشأة التصوف الإسلامي ١٧١.

(٤) انظر أمثلة ذلك في المدارج ٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، وانظر نهيه عن الاستعجال في الإنكار ٢/ ٤٠٥.

الحواس الطبيعية كافية في إيصال المراد للمخاطب فاللسان غير مجدٍ، وإنما يستبدل بمخاطبة الضمير للضمير بوسائل تعتمد الشفافية والرمزية والإشارة[1].

* * *

(١) انظر: المدخل إلى التصوف الإسلامي ١٧٦.

القسم الثاني

تحقيق كتاب مدارج السالكين

من أول منزلة الاستقامة إلىٰ آخر منزلة الأنس

فصل

منزلة الاستقامة

ومن منازل «إيَّاكَ نعبد وإيَّاكَ نستعين» منزلة: «الاستقامة»[١].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤] وقال لرسوله ﷺ[٢]: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ [إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ][٣]﴾ [هود: ١١٢].

فبيَّن أن الاستقامة بعدم[٤] الطغيان، وهو مجاوزة الحدود[٥].

---

(١) منزلة الاستقامة: معلومة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن ذلك ما نقله ابن القيم، وحيث إن المنازل يعدُّ من كتب الصوفية فإن التعريف بكل منزلة سوف يكون من كلامهم في مصادرهم. قال السلمي: «والاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده». وقال الواسطي: «الخصلة التي كملت بها المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن: الاستقامة». الرسالة القشيرية ٣١١، وانظر: لطائف الإعلام ١/ ٢٠١، معجم مصطلحات الصوفية ١٦.

(٢) (ﷺ) سقطت من ق.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٤) غ، ط (ضد).

(٥) في م، أ، غ، ح٢، ب زيادة (في كل شيء).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾[١] [فصلت :٦].

تعريف الاستقامة والأقوال المأثورة فيها

سُئل صدِّيق الأمّة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عن الاستقامة فقال: «أن لا تشرك بالله شيئاً»[٢] يريد الاستقامة علىٰ محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب[٣] - رَضي الله عنه - : «الاستقامة: أن تستقيم[٤] علىٰ الأمر والنهي، ولا تروغ[٥] روغان الثعالب»[٦].

وقال عثمان بن عفان[٧] - رضي الله عنه - : «استقاموا: أخلصوا العمل

---

(١) في م، أ، غ، ح٢، ب زيادة آية وهي قوله تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً * لِنفتنهُم فيه﴾ [الجن: ١٦-١٧] وفي ق إلى قوله: ﴿غدقاً﴾.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٤، الدر المنثور ٧/ ٣٢٢ ونحوه عند ابن كثير ٣/ ١١٦.

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل، يكنى أبا حفص، الملقب بالفاروق، صاحب رسول الله ﷺ، أول من جهر بالإسلام، والخليفة الثاني أمير المؤمنين رضي الله عنه، مناقبه ومواقفه لا تحصر توفي ٢٣هـ وخلافته كانت عشر سنين. حلية الأولياء ١/ ٣٨، الاستيعاب ٣/ ١١٤٤، البداية والنهاية ٧/ ١٣٠، الإصابة ٤/ ٢٧٩، أسد الغابة ٤/ ٥٢.

(٤) في ق (أن يستقيم).

(٥) في غ (و أن لا تروغ).

(٦) الرسالة القشيرية ٣١٢ بلفظ (لم يرغوا).

(٧) عثمان بن عفان الملقب بذي النورين رضي الله عنه وأرضاه، صاحب رسول الله ﷺ، مبشر بالمحن، كريماً سخياً، أحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي مقتولاً سنة ٣٥هـ/ طبقات

الله»[1].

وقال علي بن أبي طالب[2] رَضي الله عنه، وابن عباس[3] ـ رَضي الله عنهما ـ : «استقاموا: أدوا الفرائض»[4].

وقال الحسن[5] : «استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»[6].

ابن سعد ٣/ ٥٣، البداية والنهاية ٧/ ١٧٦، تاريخ البخاري ٦/ ٢٠٨، الإصابة ٤/ ٢٢٢، حلية الأولياء ١/ ٥٥ .

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٤.

(٢) علي بن أبي طالب الخليفة الرابع ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته، وأول من أسلم من الصبيان، إمام عادل ومجاهد صابر، توفي في رمضان سنة ٤٠ هـ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. الإصابة ٤/ ٢٦٩، البداية والنهاية ٧/ ٢٢٣، حلية الأولياء ١/ ٦١، الكواكب الدرية ١/ ٩٧، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣.

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، حبر الأمة، وفقيه العصر وإمام التفسير، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، صحب رسول الله ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، توفي سنة ٦٧هـ . طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥، التاريخ الكبير ٥/ ٣، حلية الأولياء ١/ ٣١٤ أسد الغابة ٣/ ٢٩٠، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١١٤، الدر المنثور ٧/ ٣٢٢، ابن كثير ٣/ ١١٦ .

(٥) الحسن البصري ابن أبي الحسن، يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري سيد زمانه في العلم والورع، توفي سنة ١١٠هـ/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ ونحوه في الدر المنثور ٨/ ٣٠٥.

وقال مجاهد[١]: «استقاموا علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله حتىٰ لحقوا بالله»[٢].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] يقول: استقاموا علىٰ محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة[٤].

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله[٥] قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم»[٦].

---

(١) مجاهد بن جبر شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، روى عن ابن عباس وأبي هريرة وغيرهم، وعنه عكرمة و عطاء وطاوس وغيرهم، توفي سنة ١٠٣هـ وقيل ١٠٨/ طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٦٥، حلية الأولياء ٣/ ٢٧٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩.

(٢) ذكر أوله السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٣٣٢، وعزاه البغوي في تفسيره لابن عباس ٤/ ١١٤.

(٣) في م، أ، غ، ح٢، ب، ق (قدس الله روحه). هو أحمد بن عبد الحليم ابن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن تيمية الحراني ولد سنة ٦٦١هـ وهو العالم المجتهد المعروف. كانت له جهود متعددة في التأليف والجهاد والدعوة، توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، فوات الوفيات (١/ ٦٢)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٦).

(٤) الفتاوى ٢٨/ ٣٢ وعزاه لأبي بكر الصديق.

(٥) في ط (رضي الله عنه).

(٦) مسلم الإيمان ١/ ٦٥ ح(٣٨)، الترمذي. الزهد ٤/ ٦٠٧ ح٢٤١٠ بلفظ «حدثني بأمر أعتصم به» وقال: حسن صحيح، الدارمي. الرقاق ٢/ ٢٠٩ ح ٢٧١٤.

وفيه عن ثوبان[١] عن النبي ﷺ قال: «استقيموا، ولن تحُصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ[٢] علىٰ الوضوء إلا مؤمن»[٣].

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر[٤] عليها فالمقاربة فإن نزل عنها[٥] فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من[٦] حديث أبي هريرة[٧] عن النبي ﷺ: «سددوا وقاربوا، واعلموا أنه[٨] لن ينجو أحد منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت [يا رسول الله][٩] قال: «ولا أنا إلا أن

---

(١) ق (رضي الله عنه).

(٢) في م، أ، غ، ح٢، ب (يواضب).

(٣) ذكر المؤلف أنه في مسلم، والحديث لم يخرجه مسلم وإنما خرجه الإمام أحمد ٥/ ٢٧٦، ٢٨٢، وابن ماجه في الطهارة ١/ ١٠٢ ح ٢٧٧، والحاكم في المستدرك ١/ ١٣٠ وقال على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٣١١، وقال ابن عبدالبر: الحديث يتصل مسنداً إلى النبي ﷺ، التمهيد (٢٤/ ٣١٨).

(٤) الأصل (تقدر) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق، ط.

(٥) في د (عليها).

(٦) في غ (عن).

(٧) في ق (رضي الله عنه) وهو أبو هريرة، عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الصحابي الجليل، من أكثر الصحابة رواية للحديث، توفي سنة ٥٧ هـ/ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٢)، الاستعاب ٤/ ١٧٦٨، حلية الأولياء ١/ ٣٧٦، صفة الصفوة ١/ ٦٨٥، البداية والنهاية ٨/ ١٠٣، سير أعلام ٢/ ٥٧٨.

(٨) في م، أ (أن لن).

(٩) ما بين المعقوفين سقط من م، ح٢، د، ق.

يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[١] ، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها ، فأمر بالاستقامة ، وهي السداد ، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا[٢] يطيقونها ، فنقلهم إلىٰ المقاربة ، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم ، كالذي يرمي إلىٰ الغرض، فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي[٣] يوم القيامة، فلا يركن أحد إلىٰ عمله[٤] ، ولا يرىٰ أن نجاته به ؛ بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله ، فالاستقامة كلمة جامعة ، آخذة[٥] بمجامع الدين ، وهي القيام بين يدي الله علىٰ حقيقة الصدق ، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال ، والأفعال ، والأحوال ، والنيات[٦] ،

---

(١) البخاري ، المرضى ٤/ ٣٠ ح ٥٦٧٣ ، مسلم ، صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٩) ح(٢٨١٦) ، أحمد ٢/ ٥٣٧ ، ٣/ ٣٦٢ ومطلعه «قال: قال رسول الله..».

(٢) في أ ، غ ، ب ، د (لن).

(٣) ق (لا ينجي).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د (ولا يعجب به).

(٥) (آخذة) سقطت من ق.

(٦) قال الكاشاني: الاستقامة «روح تحيا بها الأعمال ، وتزكو بها الأقوال ، وهي ثلاثة أقسام..» ، لطائف الإعلام ١/ ٢٠٠ .

فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلىٰ أمر الله.

قال بعض العارفين: «كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة»[1].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله تعالىٰ روحه - يقول: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[2].

فصل

قال صاحب «المنازل»[3] في قوله تعالى[4]: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟[5] إِلَيْهِ[6]﴾ [فصلت:٦] «إنَّه إشَارَةٌ إلىٰ عَينِ التَّفرِيدِ[7]»[8].

---

(١) عزاه القشيري لأبي علي الجوزجاني، الرسالة القشيرية ٣١٢ وانظر الفتاوى ١٠/ ٢٩.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٢٩، التحفة العراقية بتحقيق د/ يحيى الهنيدي ص٣٣٥.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د (قدس الله روحه).

(٤) (تعالى) سقط من ط.

(٥) ق (فليستقيموا).

(٦) ش (واستغفروه).

(٧) التفريد: قال الكلاباذي: «أن يتفرد عن الأشكال، ويتفرد في الأحوال، ويتوحد في الأفعال، وهو أن تكون أفعاله لله وحده فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مراعاة خلق، ولا مطالعة عوض»، التعرف ص١٣١، وانظر نحواً من هذا في رشح الزلال ص٩٧، ولطائف الإعلام ١/ ٣٣٧ وهذا له صلة بمبحث الفناء وقد فصل القول فيه شيخ الإسلام في الفتاوى ١٠/ ٣٣٧، وقد تقدم الحديث عنه في تقويم المنازل.

(٨) منازل السائرين ٣٢.

يريد: أنه أرشدهم إلىٰ شهود تفريده، وهو أن لا يروا[١] غير فردانيته.

وتفريده نوعان: تفريد في العلم والمعرفة والشهود، وتفريد في الطلب والإرادة، وهما نوعا التوحيد.

وفي قوله: «عَين التَّفرِيدِ» إشارة إلىٰ حال الجمع[٢] وأحديته، التي هي عنده فوق علمه ومعرفته، لأن التفرقة قد تجامع[٣] علم الجمع، وأما حاله فلا تجامعه التفرقة[٤][٥].

---

(١) ش (يريدوا).

(٢) الجمع : أوله جمع الهمة، وهو أن تكون الهموم كلها واحداً، والذي يعنيه أهله هو أن يصير ذلك حالاً له، وهو أن لا تتفرق همومه، انظر التعرف ١٣٨، وفي لطائف الإعلام قال: إنهم يشيرون بالجمع إلى حق بلا خلق، عكس الفرق، فهو رؤية خلق بلا حق ... وذكر جملة من الأقوال في ١/ ٣٩٢، ورشح الزلال ٧٥ ـ٧٦ قال الجنيد: «القرب بالوجد جمع، والغيبة بالبشرية تفرقة»، طبقات الصوفية للسلمي ١٥٧ .

(٣) ش (يجامع).

(٤) د (والله سبحانه أعلم).

(٥) التفرقة : مجامعتها لعلم الجمع ممكنة دون حال الجمع ؛ لأن الحال أثبت عندهم من العلم.
قوله: التفرقة قد تجامع علم الجمع دون حاله ... يتضح هذا عند بيان معنى التفرقة، فهي: عقيب الجمع، وهي أن يفرق بين العبد وبين همومه وبين طلب مرافقه وملاذه، فيكون مفرقاً بينه وبين نفسه التعرف ١٣٨، ولها معنى آخر عندهم وهي أنها قبل الجمع، فيكون التقرب إليه بالأعمال تفرقة، فإذا شاهدوه، مقرباً لهم، فهو الجمع، التعرف ١٣٩، وخلاصة ذلك أن صاحب الجمع مثل من على الرابية ينكشف له القريب والبعيد، وصاحب التفرقة مثل من في الوهاد حُجب عنه كل شيء كما سيأتي قريباً في المتن والتفرقة تفريق الخواطر جمعيَّة قلبه.

فصل

قال: «وَ[1] الاستِقَامَةُ: رُوحٌ تحيى[2] بِهَا[3] الأَحوَال، كَمَا تَرْبُو[4] لِلعَامَّةِ عَلَيهَا الأَعمَالُ، وَهِيَ بَرزَخٌ[5] بَيْنَ وِهَادِ[6] التَّفَرُّقِ[7][8] وَرَوَابِي[9] الجَمعِ[10]»[11].

شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد، وكما أن حياة الأحوال بها، فزيادة أعمال الزاهدين أيضاً وربوها[12] وزكاؤها بها،

---

(١) (الواو) ساقطة من ق.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د (يحيى) وفي لطائف الإعلام روح تحيا بها الأعمال (١/ ٢٠٠) وذكر المحقق أن الأصل (تحيى).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب (به).

(٤) ق (تربوا).

(٥) البرزخ: الحاجز بين الشيئين، وهو أيضاً ما بين الدنيا والآخرة، من الموت إلى البعث. مختار الصحاح ٤٨.

(٦) وهاد: المكان المطمئن. مختار الصحاح ٧٣٨ والوهدة: الهوة في الأرض. القاموس المحيط ٤١٨.

(٧) غ (التفرقة).

(٨) التفرق: سبق عند (التفرقة) ص١٧١٠.

(٩) روابي: ربأت الأرض رباء: زكت وارتفعت. لسان العرب ١/ ٨٢.

(١٠) الجمع: سبق ص١٧١٠.

(١١) منازل السائرين ٣٢ بلفظ (أوهاد).

(١٢) ربوُّها، أي: زيادتها، كما هو المعنى في الروابي، سبق.

فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها.

وأما كونها «بَرزَخاً بَينَ وِهَادِ التَّفرُّقِ[1] ، وَرَوَابِي الجَمعِ» فـ«البرزخ»[2] ، الحاجز بين شيئين متغايرين ، والوهاد[3] : الأمكنة المنخفضة من الأرض، واستعارها للتفرق ، لأنها تحجب من يكون فيها عن مطالعة ما[4] يراه مَنْ هو علىٰ الروابي ، كما أن صاحب التفرق محجوب عن مطالعة ما يراه صاحب الجمع ويشاهده.

وأيضاً فإن حاله أنزل من حاله ، فهو كصاحب الوهاد ، وحال صاحب الجمع أعلىٰ ، فهو كصاحب الروابي ، وشبه حال صاحب الجمع بحال من علىٰ الروابي لعلوه ؛ ولأن[5] «الروابي» تكشف لمن عليها القريب والبعيد ، وصاحب الجمع تكشف له الحقائق المحجوبة عن صاحب التفرقة.

إذا عرف هذا فمعنىٰ كونها برزخاً: أن السالك يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة[6] ، سائراً إلىٰ روابي الجمع ، فيستقيم في طريق سيره

---

(١) د (التفريق).

(٢) في ط (هو).

(٣) (الوهاد) سقط من د ، ش.

(٤) ح٢ (من).

(٥) الأصل (أن) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٦) ش (التفريق).

غاية الاستقامة ، ليصل باستقامته إلىٰ روابي الجمع ، فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التي كان فيها ، وبين الجمع الذي يؤمُّه ويقصده ، وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات ، فإذا عزم علىٰ السفر ، وخرج وفارق البلد ، واستمر علىٰ السير كان طريق سفره برزخاً بين البلد الذي كان فيه ، والبلد الذي يقصده ويؤمُّه.

فصل

درجات الاستقامة الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ[1] عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : الاستِقَامَةُ عَلىٰ الاجتِهَادِ فِي الاقتِصَادِ ، لَا عَادِياً رَسْمَ العِلْمِ ، وَلاَ مُتَجَاوِزاً[2] حَدَّ الإِخلاَصِ، وَلاَ مُخَالِفاً نَهْجَ السُّنَّةِ»[3].

هذه الدرجة[4] تتضمن ستة أمور: عملاً واجتهاداً فيه: وهو بذل المجهود ، واقتصاداً. وهو السلوك بين طرفي الإفراط ، وهو[5] الجور علىٰ النفوس ، والتفريط بالإضاعة ، ووقوفاً مع ما يرسمه العلم ، لا وقوفاً

---

(١) ح٢ (وهو).

(٢) في منازل السائرين ٣٣ (متجوزاً).

(٣) منازل السائرين ٣٣ .

(٤) غ ، أ (درجة).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (وهو) ساقطة من الأصل.

مع دواعي[1] الحال، وإفراد[2] المعبود بالإرادة: وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال علىٰ الأمر، وهو متابعة السنة.

فهذه[3] الأمور الستةُ تُتمُّ لأهل هذه الدرجة استقامتَهم، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كليًّا، وإما خروجاً جزئياً.

والسلف[4] يذكرون هذين الأصلين كثيراً وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة[5]، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره[6]، فإن رأىٰ فيه داعية للبدعة، وإعراضاً[7] عن كمال الانقياد للسنة [أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأىٰ فيه حرصاً عليها وشدة طلب لها][8]، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره[9] بالاجتهاد، والجور علىٰ النفس،

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (داعي).

(٢) ق (للمعبود).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ش، ق (فبهذه).

(٤) ش (رضي الله عنهم).

(٥) قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: السنة بين الغالي والجافي. سنن الدارمي (١/ ٨٣)، إغاثة اللهفان (١/ ١١٦) وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩).

(٦) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

(٧) د (اعتراضاً).

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ط وهو في جميع النسخ.

(٩) أ، غ، ب (أمره).

ومجاوزة حد الاقتصاد فيها ، قائلاً له: إن هذا خير وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أولىٰ ، فلا تفتر مع أهل الفتور ، ولا تنم مع أهل النوم ، فلا يزال يحثه ويحرضه ، حتىٰ يخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدِّها كما أن الأول خارج من[1] هذا الحد ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج الذين[2] يحقر[3] أهل الاستقامة صلاتَهم مع صلاتِهم ، وصيامَهم مع صيامِهم ، وقراءتَهم مع قراءتِهم[4] ، وكلا[5] الأمرين[6] خروج عن السنة إلىٰ البدعة ، لكن هذا إلىٰ بدعة التفريط ، والإضاعة ، والآخر إلىٰ بدعة المجاوزة والإسراف[7].

---

(١) ط (عن).

(٢) أ ، ح٢ (الذي).

(٣) أ ، ب (يحقرون) ، وفي ع (تحقرون).

(٤) فيه إشارة إلى الحديث «يخرج في آخر الزمان قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم.. » أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٣/ ٣٥٢ ح ٥٠٥٨ ، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٤١)ح ١٠٦٤ ، وأحمد ٣/ ٦٠.

(٥) م (كل).

(٦) أ ، ب ، غ (الأمران).

(٧) البدعة في اللغة من بدع ، وهو الاختراع على غير مثال سابق ، ولكن المقصود هنا المعنى الشرعي وملخصه ما قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ :«طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية تعريف البدعة

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان[1]، إما إلىٰ تفريط، وإما إلىٰ مجاوزة، وهي[2] الإفراط[3]، ولا يبالي بأيهما ظفر[4][5].

يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه»، وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة، وعلى رأي من أدخل العادات فيقول:«البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية» الاعتصام ١/ ٣٦، ٣٩، وفيها مؤلفات مفردة منها: «الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع» للسيوطي، «البدع والنهي عنها» لمحمد القرطبي، «البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها» د/ عزت علي عطية، «الإبداع في مضار الابتداع» علي محفوظ، «البدعة والمصالح المرسلة» توفيق الراعي.

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ معلقاً على قول من قسَّم البدعة إلى حسن وقبيح:«وقد كتبت في غير هذا الموضع أن المحافظة على عموم قول النبي ﷺ: «كل بدعة ضلالة» متعين وأنه يجب العمل بعمومه ...» الفتاوى ١٠/ ٣٧٠.

وأشار إلى أنه بحث المسألة في الاقتضاء في قاعدة السنة والبدعة، انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٧٠، ٢٨٠.

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق (نزغتان).

(٢) ق (وهو).

(٣) (الإفراط) سقط من ش.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن مخلد بن الحسن ٨/ ٢٦٦، وفي كشف الخفاء عن ابن عائشة ٢/ ٢٨٤ وعزاه للخطابي في العزلة ص١١١، وفي سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٣٦)، وعزاه ابن القيم في إغاثة اللهفان لبعض السلف ١/ ١٨٤.

(٥) أ، غ (زيادة لعلة أو نقص) وفي ب (لعلة أو نقصان)، ق (وزيادة)، ط (زيادة أو نقصان).

[1] فكل الخير في اجتهاد باقتصاد[2]، مقرون بالاتباع، كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة[3]، فاحرصوا علىٰ أن تكون أعمالكم علىٰ منهاج[4] الأنبياء عليهم السلام وسنتهم، وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة، والفتور والتواني يخرجه عنها[5].

* * *

(١) في بقية النسخ سوى الأصل، ش زيادة: (وقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: **«يا عبد الله بن عمرو إن لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر»** قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد بالعمل) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٨.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب (وإخلاص).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده ١/ ٢٥٣ عن أبي بن كعب، اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ٥٤، ٦٩ وفي الزهد لعبدالله بن المبارك ٢٢، الزهد لابن أبي عاصم تحقيق عبدالعلي حامد ٢/ ١٩٧، وعزاه ابن القيم للصحابة في المنار المنيف ص٣٠.

(٤) غ (مناهج).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (أيضاً).

فصـــل

الدرجة الثانية

قـال: «الدَّرَجَـةُ الثَّانِيَـةُ: استِقَامَةُ الأَحْـوَالِ، وَهِـيَ شُـهُودُ الحَقِيقَـةِ»[1] لَا كَسباً، وَرَفْضُ الدَّعْوَىٰ لَا عِلْماً، والبَقَاءُ مَعَ نُورِ اليَقْظَةِ لَا تَحَفُّظاً»[2].

يعني: أن استقامة الحال بهذه الثلاثة.

أمـا «شُـهُودُ الحقِيقَـةِ» فالحقيقـة حقيقتـان: حقيقيـة كونيـة، وحقيقـة دينية[3].

شهود الحقيقة (١) شهود الحقيقة، الشهود: أن يرى حظوظ نفسه بالله لا بنفسه، وهي تعني النظر إلى القدر والإرادة الكونية عند الصوفية.

الغيبة والغَيْبة: أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها، وقال بعضهم: الشهود أن تشهد ما تشهد مستصغراً له معدوم الصفة لما غلب عليك من شاهد الحق وقال بعضهم: هو الحضور مع المشهود، وهو عندهم درجات، ينظر في ذلك: التعرف ١٣٦، لطائف الإعلام ٢/ ٤٢.

أما الحقيقة: هي الربوبية بمعنى أنه هو الفاعل في كل شيء المقيم له، لأن هويته قائمة بنفسها مقيمة لكل شيء سواه، ينظر في ذلك وأقسامه، لطائف الإعلام ١/ ٤٢٤، وقال الحفني: هي إقامة العبد في محل الوصال إلى الله، ووقوف سره على محل التنزيه وقيل: هي سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت، معجم مصطلحات الصوفية ٧٩.

وهذه استقامة الخاصة عندهم، انظر لطائف الإعلام ١/ ٢٠١.

(٢) منازل السائرين ٣٣.

(٣) ينظر في ذلك لطائف الإعلام ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦، حيث تقدمت الإشارة إليها.

وقال شيخ الإسلام: «إن الحقيقة الكونية عند الصوفية أنهم لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية - إلى قوله -: وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور - ثم

يجمعهما[١] حقيقة ثالثة، وهي مصدرهما ومنشؤهما، وغايتهما، وأكثر أرباب السلوك من المتأخرين: إنما يريدون بالحقيقة[٢] الكونية، وشهودها هو شهود تفرد الرب بالفعل، وأن ما سواه محل جريان أحكامه وأفعاله، فهو كالحفير الذي هو محل لجريان الماء حسب[٣].

وعندهم أن[٤] شهود هذه الحقيقة والفناء، فيها غاية السالكين.

ومنهم: من يشهد حقيقة الأزلية والدوام، وفناء الحادثات وطيها في ضمن بساط الأزلية والأبدية، وتلاشيها في ذلك، فيشهدها معدومة، ويشهد تفرد موجدها بالوجود الحق[٥]، وأن وجود ما سواه رسوم وظلال.

قال - : ولعمري إنه حقيقة كونية، وقد عرفها عباد الأصنام»، الاستقامة ٢/ ٧٨ ـ ٧٩ الفتاوى ١٠/ ٢٨ ـ ٢٩، ومنشأ هذا أنهم لما شهدوا أن الله رب الكائنات وعلموا أنه قدّر كل شيء ظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره الله، ويقضيه.. فضلَّ هؤلاء حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، ملخص من الاستقامة ٢/ ٧٨ .

والحقيقة الدينية هي شهود الأمر والنهي كما سيأتي من كلام ابن القيم قريباً.

(١) م، ح٢ (تجمعهما).

(٢) (الحقيقة) سقطت من الجميع وهي مثبتة في ط.

(٣) انظر لطائف الإعلام ١/ ٢٠١ ـ ٤٢٤، حيث إن الكسب والحركة عمل النفس ورؤيته ظلمة والكشف ذهاب رؤية النفس وهو نور.

(٤) (أن) سقطت من ش.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (بالحق).

فالأول: يشهد(١) تفرده بالأفعال ، وهذا شهد(٢) تفرده بالوجود](٣).

وصاحب الحقيقة الدينية في طور آخر ، فإنه في مشهد الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والموالاة والمعاداة ، والفرق بين ما يحبه(٤) ويرضاه ، وبين ما يبغضه ويسخطه ، فهو(٥) في مقام الفرق الثاني(٦) الذي لا يحصل

---

(١) أ ، ب ، ق ، د (شهد).

(٢) غ (شهود).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ش.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (إثبات لفظ الجلالة).

(٥) م ، غ ، أ ، ب (فهي).

(٦) الفرق: ـ إشارة إلى رؤية خلق بلا حق ، ويطلق تارة ويراد به مشاهدة العبودية.. قال محقق لطائف الإعلام ، إن الفرق نقيض الجمع ، فالجمع وحدة والفرق كثرة ، وهذا مصطلح رئيسي عند أهل وحدة الوجود. والفرق ، فرقان :

الفرق: الأول والثاني

الأول: بقاء العبد بأحكام خلقيته ، وهو البقاء الذي يكون قبيل الفناء.

أما الفرق الثاني: فهو بقاء العبد بربه عندما يفنى عن نفسه فيكون الفرق الثاني هو جمع الجمع ، وهي رؤية الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة ؛ لأن الفرق الأول ، عبارة عن رؤية خلق بلا حق ، وهو حال من انحجب برؤية الكثرة عن رؤية الواحد المقيم لجمعها ، ملخص من لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٥ مع هامشه ، وانظر : معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥ .

والفرق ، ما نسب إليك ، والجمع ما سلب منك ، فما كان كسباً للعبد من إقامة العبودية فهو فرق ، وما كان من الحق من إسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فإثبات الخلق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع ، ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥ ، لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٥ .

للعبد درجة الإسلام - فضلاً عن مقام الإحسان - إلا به.

فالمعرض عنه صفحاً لا نصيب له في الإسلام البتة ، وهو[1] الذي كان الجنيد يوصي به أصحابه ، فيقول: «عليكم بالفرق الثاني»[2] وإنما سمي ثانياً ؛ لأن الفرق الأول[3] ، فرق بالطبع والنفس ، وهذا فرق بالأمر[4].

والجمع[5] أيضاً جمعان: جمع في الفرق ، وهو جمع أهل

وهذه المسألة لها علاقة بالفناء وأقسامه وسوف يأتي الحديث عنها ، وتقدم شيء من ذلك عند تقويم المنازل ، والفرق الثاني هو شهود الحقيقة الشرعية ، والفرق الأول شهود الحقيقة الكونية التي لا يفرق معها بين أمر ونهي ، ولا محبوب ولا مبغض وهو الجمع ، مدارج السالكين ١/ ٢٤٧ فأهل الفرق الأول هم أهل جمع ، المدارج ١/ ١٥٣ .

(١) أ ، غ ، ب (كالذي).

(٢) ذكر نحوه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٧٥ ، والفرق الثاني كما سبق هو شهود قيام الخلق بالحق ، وهو بقاء العبد بربه عندما يفنى عن نفسه ، لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٥ وانظر التعريفات للجرجاني ١٦٦ .

(٣) لأن الفرق الأول احتجاب بالخلق عن الحق ، وبقاء رسوم الخليقة بحالها ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥ ، والفرق بالطبع والنفس ، والفرق بالأمر ، انظر فيهما المدارج ١/ ٢٤٨ ، ٢٤٩.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (بالأثر).

(٥) الجمع: سبق ص١٧١٠ ، وقال الحفني: الجمع الصرف يورث الزندقة والإلحاد... كما أن التفرقة المحضة تقتضي تعطيل الفاعل المطلق ، والجمع مع التفرقة يفيد حقيقة التوحيد والتمييز بين أحكام الربوبية والعبودية ، ولهذا قالت المتصوفة: الجمع بلا تفرقة زندقة ، والتفرقة بلا جمع تعطيل ، والجمع مع التفرقة توحيد ، معجم مصطلحات الصوفية ٦٧ ، ومثل ذلك قال ابن القيم في المدارج ١/ ١٩٥ .

الاستقامة والتوحيد، وجمع بلا فرق، وهو جمع أهل الزندقة[1] والإلحاد[2][3].

فالناس ثلاثة: صاحب فرق بلا جمع، فهو مذموم ناقص مخذول.

وصاحب جمع بلا فرق فصاحبه ملحد زنديق.

وصاحب فرق وجمع، يشهد الفرق في الجمع، والكثرة في الوحدة، فهو المستقيم الموحد الفارق[4]، وهذا صاحب الحقيقة الثالثة، الجامعة

الزندقة (١) الزندقة: الزنديق من الثنوية فارسي معرب وجمعه زنادقة والاسم الزندقة، مختار الصحاح ٢٦٧ والزنديق من يقول ببقاء الدهر الملحد الدهري، لسان العرب ١٠/ ١٤٧، ويطلق على الوثنيين القائلين بالنور والظلمة أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وعلى الجاحد والمعطل، انظر في ذلك ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٤٨١، ومعجم ألفاظ العقيدة ص٢٠٧، قضية التكفير لسعيد القحطاني ١٦، ولقد ذكر السيوطي أن للإمام الغزالي كتاباً اسمه (التفرقة بين الإيمان والزندقة) صون المنطق ١٨٤، وانظر المدارج ١/ ٢٤٨.

الإلحاد (٢) الإلحاد: اللحد: الشق يكون في عرض القبر، ويقال: ألحد ومال وعدل، وجادل، ترك القصد فيما أمر به، القاموس ٤٠٤.

وهو في الاصطلاح: الميل عن الحق والصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو عند المصنفين في الملل والنحل خاص بمن جحد الخالق، وهو أعم من ذلك حيث إن هناك من ألحد في أسماء الله تعالى، ومن ألحد في صفاته تعالى، ومن ألحد في آياته الشرعية والكونية، انظر في ذلك بدائع الفوائد ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠ ومقدمة التوضيحات الأثرية على متن التدمرية ٣٣ فخر الدين المحسي.

(٣) (وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد) سقط من الأصل، ش.

(٤) انظر هذه التقسيمات، لطائف الإعلام ١/ ٣٩٢ وما بعدها ٢/ ٢٠٥ وما بعدها، ومعجم

للحقيقتين الدينية والكونية[1]، فشهود هذه الحقيقة الجامعة: هو عين الاستقامة.

وأما شهود الحقيقة الكونية، أو[2] الأزلية، والفناء[3] فيها: فأمر مشترك

مصطلحات الصوفية ٦٦، ٦٧، وقد فصل القول فيها شيخ الإسلام عند كلامه على مسألة الفناء ١٠/ ٣٣٨.

(١) سبق تقسيم الحقائق ص١٧١٨، وانظر: لطائف الإعلام ٢/ ٤٢٥.

(٢) (أو) سقطت من ش.

(٣) الفناء: هو أن يفنى عن الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناءً عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به.. فالحق يتولى تصريفه، التعرُّف ١٤٢، وقال القشيري الفناء في الرسالة القشيرية: هو سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء قيام الأوصاف المحمودة، الرسالة القشيرية (ص١٣٩)، والفناء أقسام، وهو مصطلح صوفي منتشر وهو يحتمل حقاً وباطلاً بحسب مرادهم به، ينظر في تلك التقسيمات، لطائف الإعلام ٢/ ٢١٨، رشح الزلال ٧٦، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٧، وقال ابن القيم: «ومعنى الفناء عند الزنادقة الفناء عن وجود السوى، وهو أن لا يشهد رباً ولا عبداً وخالقاً ومخلوقاً؛ بل الأمر كله واحد، فالسالك في البداية يشهد فرقاً بين الطاعة والمعصية ثم يرتفع هذا الفرق بالكشف حتى يشهد الأفعال كلها طاعة (وهو مشهد الحكم والقدر)، فهي طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة - الحقيقة الكونية - وهو ناقص عندهم إذ هو متضمن للفرق ثم يرتفع إلى أن لا يشهد طاعة ولا معصية؛ لأن الطاعة والمعصية تكون من غير لغير، وما ثم غير، فإذا تحقق ذلك فني عن وجود السوى، وهو غاية التحقيق ومن لم يصل فهو محجوب»، طريق الهجرتين ٢٩١ وفي أقسام الفناء عند السالكين ينظر: الفتاوى (١٠/ ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٣٤١) وصلة ذلك بالشهود والمشهود، طريق الهجرتين (٢٩١).

بين المؤمنين والكفار ، فإن الكافر مقر بقدر الله وقضائه ، وأزليته وأبديته ، فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن[1] سواه: فقد شهد الحقيقة ، وأما قوله: «لاَ كَسْباً» أي: تتحقق[2] عند مشاهدة الحقيقة: أن شهودها لم يكن بالكسب ، لأن[3] الكسب من أعمال النفس ، فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس ، إذ الحقيقة فردانية أحدية نورانية[4] ، فلا بد من زوال ظلمة النفس ، ورؤية كسبها ، وإلا لم يشهد الحقيقة.

وأما «رَفْضُ الدَّعوَىٰ لَا عِلْماً» فـ«الدعوىٰ» نسبة الحال وغيره إلىٰ نفسك وإنِّيتك[5].

فالاستقامة لا تصح[6] إلا بتركها ، سواء كانت حقاً أو باطلاً ، فإن

---

(١) ش (عمن).

(٢) ط (يتحقق) وفي بعض النسخ مهمل بلا نقط.

(٣) (لأن)سقطت من ش.

(٤) انظر لطائف الإعلام (١/ ٢٠١) وتقسيم شيخ الإسلام للفناء (١٠/ ٣٣٧).

(٥) الإنيَّة: اعتبار الذات من حيث مرتبتها الذاتية ، لطائف الإعلام (١/ ٢٤٧) .

والإنيَّة: عبارة عن الحقيقة التي يضاف إليها كل شيء من العبد ونفي الإنية هو عين معنى لا إله ، ثم إثبات الحق سبحانه في باطنك .

ثانياً: هو معنى إلا الله. وإنيَّة الحق: تحديه بما هو له [إنني أنا الله لا إله إلا أنا] معجم مصطلحات الصوفية (٢٦ ، ٢٧).

(٦) ش (لا يصح).

الدعوىٰ الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة؟[1].

وأما قوله: «لا علماً» أي لا يكون الحامل له علىٰ ترك الدعوىٰ مجرد علمه بفساد الدعوىٰ ، ومنافاتها للاستقامة ، فإذا تركها يكون تركها لكون العلم قد نهىٰ عنها ، فيكون تاركاً لها ظاهراً لا حقيقة ، أو تاركاً لها لفظاً ، قائماً بها حالاً ؛ لأنه يرىٰ[2] أنه قد قام بحق العلم في تركها ، فيتركها تواضعاً ؛ بل يتركها حالاً وحقيقة ، كما يترك من أحبَّ شيئاً تضره محبته حبَّه[3] حالاً وحقيقة ، وإذا تحقق أنه ليس له من الأمر شيء - كما قال الله عزَّ وجلَّ لخير خلقه علىٰ الإطلاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[آل عمران: ١٢٨] - ترك الدعوىٰ شهوداً وحقيقة وحالاً.

وأما «البَقَاءُ مَعَ[4] نُورِ اليَقَظَةِ» فهو[5] اليقظة ، وأن لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة ؛ بل يستديم يقظته ، ويرىٰ أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه ، حفظاً من الله له ، لا أن ذلك حصل بتحفظه واحترازه.

---

(١) قال ابن القيم عن الذنب: «.. إنه يرفع عنه حجاب الدعوى ويفتح له طريق الفاقة ، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق أقرب من العبودية » ، طريق الهجرتين ١٩٦ .

(٢) غ ، أ ، ب (لا يرى أنه قد قام) وهو خطأ.

(٣) أ سقط (حبه) ، وفي غ ، ب (محبة وحالاً وحقيقة).

(٤) (مع) سقطت من ق.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فهي).

فهذه ثلاثة أمور: يقظة، واستدامة لها، وشهود[1] أن ذلك بالحق سبحانه لا بك فليس سبب بقائه[2] في نور اليقظة بحفظه؛ بل بحفظ الله له.

وكأنّ الشيخ[3] يشير إلىٰ أن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل[4] بكسب، وإنما هو مجرد موهبة[5]، فإنه قال في الأولىٰ: **«الاستِقَامَةُ عَلىٰ الاجتِهَادِ»**، وفي الثانية: **«استِقَامَةُ[6] الأَحوَالِ، لاَ كَسباً وَلاَ تحَفُّظاً»**.

ومنازعته في ذلك متوجهة، وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسباً بتعاطي الأسباب التي تهجم[7] بصاحبها[8] علىٰ هذا المقام.

نعم الذي يُنفَىٰ في هذا المقام: شهود الكسب[9]، وأن هذا حصل[10] له

---

(١) ب (شهوده).

(٢) (بقائه) سقطت من ش.

(٣) ش (رحمه الله) ويريد به هنا الهروي صاحب المنازل.

(٤) الأصل (يحصل) والصواب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، د، ق.

(٥) جميع النسخ (موهبة الله) سوى الأصل، ش، وفي ط (موهبة من الله).

(٦) (استقامة) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٧) ش (يهجم).

(٨) ش (صاحبها).

(٩) ق (شهوداً لكسب السبب).

(١٠) في الأصل (فضل) والصحيح ما أثبته من جميع النسخ و ط.

بكسبه، فنفي[1] الكسب شيء، ونفي شهوده شيء[2][3].

ولعل أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى[4].

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: استِقَامَةٌ[5] بِتَركِ رُؤيَةِ[6] الاستِقَامَةِ، [وَبالغَيْبَةِ عَن تَطَلُّبِ الاستِقَامَةِ بِشُهُودِ إِقَامَةِ الحَقِّ وَتَقْوِيمِهِ[7]»[8].

هذه الاستقامة][9] معناها: الذهول بمشهوده[10] عن شهوده[11]، فيغيب

---

(١) د (مع) بدل (فنفي) وهو خطأ.

(٢) ش زيادة (آخر).

(٣) يعني بشهوده (رؤية العمل والإعجاب به) فهو المحبط للعمل.

(٤) (تعالى) سقطت من ق.

(٥) ش (استقامته).

(٦) (رؤية) سقط من الأصل، ب. والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، ش، وهو الموافق لمتن المنازل ٣٣.

(٧) في ش (عز اسمه) وهي في منازل السائرين، ولم تنقل في جميع النسخ.

(٨) منازل السائرين ٣٣ وانظر لطائف الإعلام ١/ ٢٠١.

(٩) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

(١٠) ب (بشهوده) وهو خطأ.

الشهود

(١١) الشهود: هو الحضور مع المشهود، وهو بمعنى الإدراك وهو اجتماع الحواس الظاهرة والباطنة، والموجب لاتحادها، نور من جناب المشهود محى ظلمة حجابها، فيرى الحق بنوره، ويفنى كل ما سواه بظهوره، لطائف الإعلام ٢/ ٤٢ وهو أيضاً: (رؤية حظوظ النفس

بالمشهود المقصود سبحانه عن رؤية استقامته في طلبه ، فإن رؤية الاستقامة تحجبه عن حقيقة الشهود[1].

وأما «الغيبة[2] عن تطلب[3] الاستقامة» فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد ، وتقويمه إياه ، فإنه إذا شهد أن الله هو المقيم له والمقوّم ، وأن استقامته وقيامه بالله ، لا بنفسه ولا بطلبه: غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها[4].

بالله لا بها) التعرف ١٣٧.

المشهود أما المشهود: فهو الكون ، قال الجنيد: «الشاهد الحق في ضميرك وأسرارك مطلع عليها ، والمشهود ما يشهده الشاهد». معجم مصطلحات الصوفية ٢٤٥ ، وللكاشاني كلام عن التجلي وتفسير لأنواع التجليات وهي وثيقة الصلة بالمشهود ، انظر لطائف الإعلام ١/ ٣٠٠- ٣١١ ، وتقدم الكلام عن الغيبة والشهود ص١٧١٨ ، ١٧٢٧ ، وانظر كلام شيخ الإسلام لمزيد إيضاح الأمر الفتاوى ١٠/ ٣٣٩.

(١) قال الحفني. وقيل: الحقيقة هي التوحيد وقيل : هي مشاهدة الربوبية . معجم مصطلحات الصوفية ٧٩-٢٤٤ ، الرسالة القشيرية ١٥٠ .

(٢) الغَيْبَة: سبق ص١٧١٨ .

(٣) م (عن طلب) وهي ساقطة من ق.

(٤) كأن ابن القيم - رحمه الله تعالى - اشتغل ببيان مراد الهروي عن التعليق على هذه المسألة ومن المعلوم أن طلب الاستقامة ، دعاء.. وهو امتثال لأمر الله تعالى حيث يقول جلّ شأنه ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] وقوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ، فليستجيبوا لي﴾ .. [البقرة: ١٨٦] ، وقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم﴾ [الأعراف: ٥٥] ، وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ .. [الفاتحة: ٦] وقوله ﷺ :

وهذا القدر من موجبات شهود معنىٰ اسمه «القيوم» (١) وهو الذي قام بنفسه ، فلم يحتج إلىٰ أحد ، وقام كل شيء به ، فكل (٢) ما سواه يحتاج (٣) إليه بالذات ، وليست حاجته إليه معللة (٤) بحدوث كما يقول

«الدعاء هو العبادة» الترمذي (٥/ ٢١١) ح(٢٩٦٩) وقال حسن صحيح ، أبو داود (٢/ ١٦١) ح(١٤٧٩) ، الحاكم (١/ ٤٩١) وصححه ، كلها أدلة للأمر بالدعاء والطلب ، ومن مهمات الطلب حضور القلب حال الدعاء فهو يسأل ربه ويطلب حاجته ، فلا بد من الدعاء والطلب وحضور القلب عند السؤال ، وشأن الدعاء عظيم فقد أفرده أصحاب السنن بكتب وأبواب وفيه مؤلفات مستقلة منها:

(١) شأن الدعاء للخطابي .

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة لجيلان العروسي .

(٣) تصحيح الدعاء د/ بكر أبو زيد.

(١) القيوم : اسم من أسماء الله تعالى حيث يقول جل شأنه:﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.. [البقرة: ٢٥٥]، قال: الزجاج ومعنى القيوم: الدائم، وهو القائم بنفسه، القائم على كل نفس ، المستغني عن خلقه ، ولا قوام لشيء إلا به ، والقيوم من أوصاف المبالغة في الفعل ، قال أبو عبيدة: القيوم القائم وهو الدائم الذي لا يزول، وذكر الزجاج ١٠٥ في الاشتقاق معان أخرى، ينظر في ذلك ، المقصد الأسنى ١٠٢ ، تفسير أسماء الله الحسنى ١٠٢ ، ولله الأسماء الحسنى ٦٣ ، النهج الأسمى ٢/ ٧٣ ، معتقد أهل السنة في أسماء الله تعالى ١٨٨ . اسم القيوم لله تعالى

(٢) في د (شيء).

(٣) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ش (محتاج).

(٤) معللة: الكلام عن العلة ، والمراد بها الحكمة ، يقود إلى بيان أنواع العلل وهي: صورية ، وهي ما يوجد الشيء بالفعل ، ومادية وهي ما يوجد الشيء بالقوة ، وفاعلية وهي ما يوجد الشيء بسببه، وغائية وهي ما يوجد الشيء لأجله ، ينظر في هذه الأقسام : التعريفات ١٥٥ ، = الكلام على العلل والأسباب

= معيار العلم ٢٨٩ المواقف في علم الكلام ٨٥، الفهرست ٢/ ١٥، أبجد العلوم ١/ ٤٩، ٢٠٠.

والقول الحق في هذه المسألة: أن الله تعالى «حكيم لا يفعل الأشياء عبثاً ولا بغير معنى ومصلحة وحكمة إذ هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى» شفاء العليل ٤٠٠.

وقد وقع الخلاف في هذه المسألة على خمسة أقوال، ذكرها الشيخ الدكتور عبد الرحمن المحمود، وقال في خلاصتها: «أنها تنتهي إلى قولين، أحدهما: نفاة الحكمة وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم، والثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة، وهؤلاء على أقوال أشهرها قول المعتزلة الذين يثبتون حكمة تعود إلى العباد ولا تعود إلى الرب، وقول جمهور السلف الذين يثبتون حكمة تعود إلى الرب تعالى» موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٢.

وقوله (.. معللة بحدوث) رداً لزعم الأشاعرة الذين نفوا الحكمة والتعليل، زعماً أن ذلك يستلزم التسلسل بأنه إذا فعل لعلة فتلك العلة أيضاً حادثة فتفتقر إلى علة وهكذا إلى غير نهاية وهذا باطل.. انظر المحصل في أفكار المتقدمين والمتأخرين ٢٠٩، ٢٦٥، ورد عليه شيخ الإسلام بأقوال ملخصها، من رسالة المحمود:

يقال لهم في الحكمة ما يقولونه هم في الفعل وذلك بأن يقال لهم: «لا يخلو إما أن يكون الفعل قديم العين أو قديم النوع، أو لا يمكن ذلك.. فإن جاز أن يكون قديم العين أو قديم النوع، جاز في الحكمة التي يكون الفعل لأجلها أن تكون قديمة العين أو قديمة النوع» ثم قال الشيخ المحمود.. ويلاحظ هنا أن القول بأن الفعل قديم (العين) هو قول الفلاسفة، ومعلوم أن الفلاسفة نفاة للحكمة، فهم موافقون للأشاعرة في هذا، فهذا الإلزام صالح لهم.. ومن قال إن هذا ممتنع أي قديم العين أو النوع في الفعل، قيل وكذلك الحكمة يمتنع تسلسلها، ويقال لهم في الحكمة ما يقال لهم في الأسباب، والتسلسل الذي يدعونه إنما هو =

المتكلمـــــون(١)، ولا بإمكـــــان(٢)، كـــــما يقـــــول الفلاســـــفة

= تسلسل في الحوادث المستقبلة لا في الحوادث الماضية...
والسبب في نفي المعلل بالحدوث، لزوم تأخير الشيء عن نفسه بمراتب، انظر شرح ذلك في محصلة أفكار المتقدمين والمتأخرين ١١٤، ووجه الشبه بين الفلاسفة والقدرية في هذه المسألة.. أن القدرية يقولون أن أفعال الحيوان تصدر بلا فاعل، والفلاسفة يقولون: أن الفلك وجميع الحوادث بلا فاعل. انظر منهاج السنة ٣/ ١٢٧ وانظر رسالة المحمود في موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٣ ومصادره في ذلك، شرح الأصفهانية ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ تحقيق السعوي/ مجموع الفتاوى ٨/ ٩٣ ـ ٩٧ ـ٩٨ ـ ٣٧٧، منهاج السنة ١/ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٧ ـ ٩٨، ٣/ ١٠٩، ١١٢، ١١٥، الفتاوى (٣/ ١٧٥)، ط/ دار العروبة المحققة، درء التعارض (٨/ ٥٤).

(١) المتكلمون.. تعددت الأقوال في سبب تسمية علم الكلام بهذا الاسم، ومن ثم إطلاق اسم (المتكلمين) على من خاض فيه.. منها أن مبناه على الكلام في المناظرات، وصله ذلك بالمنطق، أو لأن أهم قضية بحثت فيه (مسألة كلام الله) ينظر في هذا: مقدمة ابن خلدون ٤٢٩، ط الشعب، شرح المواقف ١/ ٦٠ وانظر ما لخصه الدكتور المحمود في رسالته من كلام الشهرستان وشيخ الإسلام ٢/ ٧٧٤، والأشاعرة متأثرون بالفلاسفة (وهم أهل الكلام) بنفي الحكمة والتعليل، ولقد استقصى السيوطي أقوال العلماء في ذم الكلام، انظر صون المنطق ١٤، ٣٣، ١٩٠. المتكلمون

(٢) قوله (ولا بإمكان).. يقول الفلاسفة المشاؤون إن علة الحاجة إلى المؤثر أو السبب هي (الإمكان)، لا الحدوث ـ كما يقوله المتكلمون ـ قال الرازي: «علة الحاجة إلى المؤثر الإمكان لا الحدوث»، لأن الحدوث كيفية في وجود الحادث، فيكون متأخراً عنه، والوجود متأخر عن تأثير القادر فيه المتأخر عن احتياج الممكن إليه المتأخر عن علة احتياجه إليه.. إلى أن قال: احتجوا بأن علة الحاجة لو كانت هي الإمكان لزم احتياج العدم الممكن إلى المؤثر وهو محال؛ لأن التأثير يستدعي حصول الأثر والعدم نفي محض فلا يكون

المشَّاؤون[1]؛ بل حاجته إليه ذاتية وما بالذات لا يُعلَّل، نعم الحدوث والإمكان دليلان على الحاجة، فالتَّعليل بهما من باب التعريف، لا من باب العِلل المؤثرة، والله أعلم.

* * *

مؤثراً، ثم أجاب بأن علة العدم عدم العلة وفيه ما فيه، محصل أفكار المتقدمين ١١٣ - ١١٤، وفي المسألة نفسها انظر المواقف ٧١- ٧٢، وقال شيخ الإسلام: «وما ثمّ علة تامة إلا مشيئة الله»، بيان التلبيس ٢/ ٤٥٧.

(١) الفلاسفة المشاؤون: «هم أتباع الفيلسوف اليوناني أرسطو، كان يعلم تلامذته الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس..» التحفة المهدية ٩٣ معجم ألفاظ العقيدة ٣٧٥، تاريخ الفلسفة يوسف كرم ١١٢، أبجد العلوم ١/ ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٦١، رحلة ابن بطوطة ٢/ ٤٥٧.

فصل

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة: «التوكل»(١). منزلة التوكل

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال(٢): ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وقال(٣): ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣، النساء: ٨١] وقال(٤): ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال له:

---

(١) التوكل: قال السقطي: «الانخلاع من الحول والقوة»، وقال مسروق التوكل: «الاستسلام لجريان القضاء والأحكام..»، وينظر في ذلك، قوت القلوب ٢/ ٣٨، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٣، التعرف ١١٨، عوارف المعارف ٤٤٩، الرسالة القشيرية ٢٦١، لطائف الأعلام ١/ ٣٦٢، معجم مصطلحات الصوفية ٥٣، تنبيه الغافلين ٤٦٥، ومن الرسائل التي أفردته بالبحث «التوكل على الله» للدميجي.

(٢) ط زيادة (لرسوله).

(٣) ط (له).

(٤) ط (له).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ [وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ][1]﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال عن أصحاب نبيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢][2].

وفي الصحيحين[3] حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب[4]: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلىٰ ربهم يتوكلون**»[5].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ، حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ، غ، ب.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (والقرآن مملوء من ذلك).

(٣) ق، م، ب (من).

(٤) ط (حسان) وهو خطأ.

(٥) البخاري الرقاق (٤/ ١٩٩)ح (٦٥٤١)، مسلم. الإيمان (١/ ١٩٧)ح (٢١٥) التمهيد (٥/ ٢٦٦)، مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠٨).

حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾»[١].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني**[٢] **أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلّني، أنت الحي الذي لا يموت**[٣]**، والجن والإنس يموتون**»[٤].

وفي الترمذي عن عمر - رضي الله عنه - مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون علىٰ الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[٥].

وفي السنن عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال - يعني إذا خرج من بيته - بسم الله، توكلت علىٰ الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت**[٦]**، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك**

---

(١) البخاري التفسير (١٣/ ٢١١) ح (٤٥٦٣)، الفتح (٨/ ٧٧)، الحاكم (٢/ ٨٩).

(٢) (إني) سقط من الأصل، ش، و مثبت في بقية النسخ، وهو الصحيح لموافقته ما في مسلم.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ش (لا تموت) وهو خلاف ما في مسلم.

(٤) مسلم، الذكر (٤/ ٢٠٨٦) ح(٢٧١٧).

(٥) أحمد (١/ ٣٠، ٥٢)، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٧٣) ح(٢٣٤٤) وقال حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، صحيح ابن ماجه، التوكل (٢/ ٤٠٤) ح(٤١٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح(٣١٠)، وقال بل هو صحيح على شرط مسلم.

(٦) (وُقيت وكُفيت) وهو خلاف ما في السنن والنسخ الأخرى.

برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟»[1].

التوكل نصف الدين ونصفه[2] الثاني «الإنابة» فإن الدين استعانة وعبادة[3].

فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال[4] معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار، والفجار، والطير والوحش[5] والبهائم، فأهل السماوات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته [متوكلون عليه في حصول ما

---

(١) أبو داود، الأدب (٥/ ٣٢٨) ح(٣٠٩٥)، الترمذي، الدعوات (٥/ ٤٩٠) ح(٣٤٢٦) وقال حسن غريب، النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩)، وأخرجه ابن حبان برقم (٨٢٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٧٥)، وأخرجه الحاكم (١/ ٥١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٩٦)، صحيح الترغيب (٢/ ٢٦٤)، والحديث أعله البخاري بأن ابن جريج لم يسمع من إسحاق ابن عبدالله فيما نقله عنه الترمذي في العلل الكبير ص٣٦٢، وابن علان في شرحه الأذكار (١/ ٣٣٥)، ومن طريق أبي هريرة في سنده عبدالله بن حسين وهو ضعيف، انظر تهذيب الكمال (٣٠/ ١١٩)، التاريخ الكبير (٥/ ١٨٥، ١٤/ ٤١٩).

(٢) ط (والنصف) خلاف الباقي.

(٣) انظر في الاستعانة والإنابة، الفتاوى ١٠/ ٣٠٤، التحفة العراقية ٣٠٩.

(٤) الأصل (يزال) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ش.

(٥) م، ح٢، ق، د (الوحوش).

يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق][1] فيتوكلون[2] عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلماته[3] وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته[4] في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً من[5] الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم[6] يناله منه، من رزق أو عافية، أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك[7]. ودون هؤلاء من يتوكل عليه[في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان][8] وحصول[9] الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها[10] غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه؛ بل قد يكون توكلهم[11] أقوى من توكل

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط وهو في جميع النسخ.

(٢) في ط (يتوكلون).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (كلمته).

(٤) م (استقامة).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب (عن).

(٦) ش (يحبه).

(٧) انظر هذا التقسيم بأسلوب آخر في طريق الهجرتين ٢٩٣، التحفة العراقية ٣١٤.

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ط ومثبت في جميع النسخ.

(٩) ط (في حصول).

(١٠) أ، غ، د، ق (ينالوها) وفي ب (لا ينالوه).

(١١) ب (عليهم).

كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين علىٰ الله أن يسلّمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكّل: التوكُّل في الواجب - أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس - وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينيّة، وهو توكّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكّل ورثتهم، ثمّ النّاس بعد في التوكّل علىٰ حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكّل[1] علىٰ الله في حصول الملك، و[2] متوكل[3] في حصول رغيف.

ومن صدق توكّله علىٰ الله في حصول شيء ناله، فإنْ كان محبوباً له مرضيّاً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به علىٰ طاعته[4][5].

---

(١) الأصل (يتوكل) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش.

(٢) في ط (ومن).

(٣) في الأصل (ويتوكل) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش.

(٤) د، ق (طاعاته) وفي ح٢، ش (طاعة).

(٥) ق (والله أعلم).

فصل

معنى التوكل والأقوال المأثورة فيه

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته وما قيل فيه:

قال الإمام أحمد[١] - رضي الله عنه -[٢]: التوكل عمل القلب[٣]، ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات[٤]، ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد[٥][٦].

ومنهم: من يفسِّره بالسُّكون، وخمود حركة القلب[٧]: فيقول التوكّل

---

(١) أحمد بن حنبل هو الإمام القدوة العالم الفاضل، أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني البغدادي، ولد سنة ١٦٤هـ، تتلمذ عليه أكثر من مائتين وثمانين طالباً، وقد حمل لواء الدين وصبر على المحن، توفي رحمه الله سنة ٢٤١هـ. تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢)، حلية الأولياء (٩/ ١٦١)، طبقات الحنابلة (١/ ٤٠٢).

(٢) (رضي الله عنه) في الأصل فقط.

(٣) ذكره شيخ الإسلام عن الجنيد في الاستقامة (١/ ٢٠٩) الفتاوى (٧/ ١٨٦)، وعزاه للإمام أحمد صاحب تيسير العزيز الحميد (٤٣٨)، وانظر تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٦)، فتح الباري (٦/ ٨٢).

(٤) ش (الإرادات).

(٥) ش (العبد للرب) وهو خطأ.

(٦) هذا القول ذكره الغزالي غير منسوب في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٥.

(٧) مجموعة الآثار للسلمي ٢/ ٣٨٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٥.

هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، أو[1] ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار[2].

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله على[3] ما يريد[4].

ومنهم: من يفسره بالرضىٰ ، فيقول: هو الرضىٰ بالمقدور[5].

قال بشر الحافي[6] - رحمه الله -[7] يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله.

---

(١) أ ، غ ، ب (وهو) وفي ق (أو هو).

(٢) قال سهل : «هو ترك التدبر» ، «وترك الاختيار» ، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦١- ٢٦٧ ، الرسالة القشيرية ٢٦٢ ، شعب الإيمان ٢/ ١٠٩ رقم ١٣١١ وفي ٢/ ١٠٥ رقم(١٢٩٥) عزاه للنهرجوري ، أخرجه السلمي في المقدمة في التصوف عن سهل ٣٠٧.

(٣) د (مع).

(٤) في التعرف ١١٩ قال سهل : « التوكل الاسترسال بين يدي الله تعالى » ، الرسالة القشيرية ٢٦٥.

(٥) قال: مسروق «التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام» ، التعرف ١١٨ ، الرسالة القشيرية ٢٦٥ ، وذكر نحوه أبو نعيم مرفوعاً ، حلية الأولياء ٥/ ٩٦. سئل الحسن عن التوكل فقال: «الرضا عن الله» ، موسوعة ابن أبي الدنيا (٤٥) رقم ١٧ ، وهو في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٢ وإحياء علوم الدين ٤/ ٦٩.

(٦) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المشهور بالحافي ، ولد سنة ١٥٢هـ ، محدث زاهد عالم قدوة ، قال الدارقطني: «زاهد جبل ثقة» ، توفي سنة ٢٢٧هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٣٤٢) ، حلية الأولياء (٨/ ٣٣٦) ، تاريخ بغداد (٧/ ٦٧) ، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٦٩).

(٧) (رحمه الله) في الأصل فقط.

يكذب علىٰ الله ،[1] لو توكل [علىٰ الله][2] رضي بما يفعل الله[3].

وسئل يحيىٰ بن معاذ[4]: متىٰ يكون الرجل متوكلاً؟ فقال[5]: إذا رضي بالله وكيلاً[6].

ومنهم من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه ، والسكون إليه[7].

قال ابن عطاء[8]: التوكّل أن لا يظهر فيك انزعاج إلىٰ الأسباب ، مع شدّة فاقتك إليها ، ولا تزول[9] عن[10] حقيقة السّكون إلىٰ الحق مع وقوفك

(١) في ط زيادة (و).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ح٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٦٣.

(٤) يحيي بن معاذ بن جعفر الرازي ، كان زاهدًا له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة ، توفي سنة ٢٥٨هـ/ طبقات الشعراني ١/ ٨١ ، حلية الأولياء ١٠/ ٥١ ، صفة الصفوة ٤/ ٨٣.

(٥) (الفاء) ساقطة من ح٢.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٦٣.

(٧) نحوه في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٦ .

(٨) أبو العباس بن عطاء ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي ، كان من ظراف المشايخ عند الصوفية ، صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني ، وكان الخزاز يعظم شأنه توفي ٣١١هـ حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٢ ، ٣٠٥) ، تاريخ بغداد (٥/ ٢٦) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٨٧) ، طبقات الصوفية (٢٦٥).

(٩) أ ، غ ، ب (ولا تزال).

(١٠) أ ، غ ، ب (على).

عليها[١].

و[٢]قال ذو النون[٣]: هو ترك النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وإنّما يقوىٰ العبد علىٰ التوكل إذا علم أنَّ الحق سبحانه يعلم ويرىٰ ما هو فيه[٤].

وقال بعضهم: التوكل[٥] التعلق بالله في كل حال[٦].

وقيل: التوكل هو أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلىٰ من إليه الكفايات[٧].

وقيل: نفي الشكوك، والتفويض إلىٰ مالك الملوك[٨].

---

(١١) الرسالة القشيرية (٢٦٣)، وانظر ما قاله الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣)، الفتاوى (١٠/ ٣٥).

(٢) (الواو) ساقطة من ط.

(٣) ذو النون المصري، ثوبان بن إبراهيم صوفي مبالغ في الزهد، له دور في تأسيس القواعد الصوفية، أحد كبار الورعين في وقته توفي سنة ٢٤٥هـ/ حلية الأولياء (٩/ ٣٤٥)، شذرات الذهب (٣/ ٢٠٦)، تاريخ بغداد (٨/ ٣٩٠)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٢).

(٤) مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٧، الرسالة القشيرية ٢٦٣، المقدمة في التصوف ٤١ .

(٥) ح٢ (هو).

(٦) عزاه الغزالي لأبي عبد الله القرشي، إحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٤).

(٧) لم أجده.

(٨) الرسالة القشيرية ٢٦٩.

وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب[(١)].

يريد قطعها من تعلّق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها[(٢)].

ومنهم من جعله مركباً من أمرين أو من أمور.

فقال أبو سعيد الخراز[(٣)] - رحمه الله -[(٤)]: التوكّل اضطراب بلا سكون، وسكون[(٥)] بلا اضطراب[(٦)].

يريد: حركة ذاته في الأسباب[(٧)] بالظاهر والباطن،

---

(١) مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٣، حلية الأولياء ٩/ ٣٨٠، مقدمة السلمي في التصوف ٣٨، الرسالة القشيرية ٢٦٤، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤، شعب الإيمان ح١٢٩١.

(٢) يشير بذلك إلى عدم الاعتماد عليها من دون الله وإلى عدم تركها وإهمالها بالكلية، انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٣، مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٥، وقوله هذا يدل على غفلتهم عن الأسباب أو إهمالها وإلغائها وهو خطأ كما سبق في تقويم المنازل في مقدمة هذا البحث ص١٦٨٣، ١٦٨٥، وسوف يأتي له مناسبة.

(٣) أبو سعيد الخراز، أحمد بن عيسى الخراز، من أهل بغداد، صحب ذو النون المصري وسرياً السقطي وبشر بن الحارث وغيرهم، وهو من أئمة الصوفية ومشايخهم، وقيل إنه أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفي سنة ٢٧٩هـ/ حلية الأولياء (١/ ٢٤٦)، صفة الصفوة (٢/ ٢٤٥)، تاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، طبقات الصوفية للسلمي (٢٢٨).

(٤) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٥) ط (سكوناً).

(٦) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٦، الرسالة القشيرية ٢٦٥، وانظر جملة من الأقوال بهذا المعنى لأئمة القوم في مقدمة السلمي في التصوف ٣٧-٣٩.

(٧) (الباء) ساقطة من (غ).

وسكون[1] إلىٰ المسبب، وركون[2] إليه، فلا[3] يضطرب قلبه معه، ولا تسكن[4] حركته من[5] الأسباب الموصلة إلىٰ رضاه.

وقال أبو تراب النَّخْشبي[6]: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلىٰ الكفاية، فإن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر[7].

فجعله مركّباً من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلىٰ قضائه وقدره، وطمأنينته بكفايته[8]، [9]وشكره

---

(١) الأصل (سكوناً) والصواب ما أثبته من بعض النسخ و ط.

(٢) الأصل (ركوناً) والصواب ما أثبته من بعض النسخ و ط.

(٣) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (ولا).

(٤) في الأصل (تستكين) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٥) الأصل (في) والأقرب ما أثبته من أ، غ، ب، ط.

(٦) أبو تراب النخشبي، عسكر بن حصين النخشبي، شيخ الطائفة، صاحب حاتم الأصم، كتب العلم وتفقه، توفى سنة ٢٤٥هـ/ حلية الأولياء ١٠/ ٤٥، تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٥، طبقات الحنابلة ١/ ٢٤٨، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥.

(٧) مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٧، المقدمة في التصوف ٤١ بزيادة «راضياً وموافقاً للقدر»، الرسالة القشيرية ٢٦٣، وعن رجل مبهم في الرسالة القشيرية ٢٦٤، وعزاه صاحب التعرف لأبي أيوب مولى بني هاشم ١١٩، ونحوه عن ذي النون في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤، وفي حلية الأولياء ٩/ ٣٨٠.

(٨) في ط (وكفايته).

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (له).

إذا أُعطي، وصبره إذا مُنع.

قال أبو يعقوب النهرجوري[١]: التوكل علىٰ الله بكمال الحقيقة، [٢] وقع لإبراهيم الخليل - عليه السلام - في الوقت الذي قال لجبريل - عليه[٣] السلام - : «أما إليك فلا» [٤]؛ لأنه غابت[٥] نفسه بالله فلم يَرَ مع الله غير الله[٦].

وأجمع القوم علىٰ أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب بل لا[٧] يصح إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد[٨].

قال سهل بن عبد الله - رضي الله عنه -[٩]: «من طعن في الحركة فقد

(١) أبويعقوب النهرجوري، إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجوري، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي، توفي سنة ٣٣٠هـ/ حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦ طبقات الشعراني ١/ ١٣٠، شذرات الذهب ٢/ ٣٢٥.

(٢) أ، غ، ب (كما).

(٣) عليه السلام سقط من (ق).

(٤) تفسير ابن جرير (١٧/ ٤٥)، البغوي في تفسيره (٤/ ٢٤٣)، البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٩، رقم ١٠٧٧، الرسالة القشيرية ٢٦٤.

(٥) أ، غ، ب، ط (غائب عن نفسه).

(٦) م (غيره).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (فلا يصح).

(٨) انظر طريق الهجرتين ٢٩٥.

(٩) الترضي في الأصل فقط.

طعن في السنة، ومن طعن في التوكل[١] فقد طعن في الإيمان[٢]، فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته[٣]، فمن عمل على[٤] حاله فلا يتركن سنته»[٥]. وهذا معنىٰ قول أبي سعيد: «هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب»[٦]، وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: [التوكل قطع علائق القلب بغير الله.

وسئل سهل عن التوكل؟ فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة][٧][٨].

وقيل: [التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق][٩][١٠].

---

(١) (التوكل) سقط من (أ).

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ١٩٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٧٠، الرسالة القشيرية (٢٦٦)، شعب الإيمان ٢/ ١٠٣، تلبيس إبليس ٢٨١، المقدمة في التصوف ٤٠.

(٣) لعله يشير بالحال إلى ما يقوم بالقلب من اليقين والثقة، والكسب ما يقوم بالجوارح من فعل الأسباب.

(٤) (على) سقطت من (م، أ، غ، ب).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٦٥ عزاه لسهل بن عبد الله، وعزاه في شعب الإيمان لابن سالم ٢/ ١٠٣، رقم ١٢٨٨.

(٦) سبق ص١٧٤٣، وأبو سعيد هو الخراز، ولعل المقصود بالحركة فعل الأسباب وطلب الرزق، والتوكل المقصود به الحال، والاضطراب: الحركة والسبب، والسكون: اليقين والتوكل.

(٧) ما بين المعقوفين سقط من (م، أ، غ، ح٢، ب).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٦٥، أي دون تعلق بالأسباب فرجاؤه معلق بالله.

(٩) ما بين المعقوفين سقط من (ش).

(١٠) نحوه عن ذي النون في شعب الإيمان ٢/ ١٠٤، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨١، ٩/ ٣٨٠.

وقيل: التوكل أن يستوي عندك الإكثار والإقلال[1].

وهذا من موجباته وآثاره، لا أنه[2] حقيقته.

وقيل: هو ترك كل سبب يوصلك إلىٰ مسبب، حتىٰ يكون الحق هو المتولي لذلك[3].

وهذا صحيح من وجه، باطل من وجه، فترك الأسباب المأمور بها: قادح في التوكل، وقد تولىٰ الحق إيصال العبد بها، وأما ترك الأسباب المباحة: فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح، وإلا[4] فمذموم.

وقيل: هو إلقاء النفس في العبودية، وإخراجها من الربوبية[5].

يريد استرسالها مع الأمر، وبراءتها من حولها وقوتها[6]، وشهود ذلك بها؛ بل بالربّ وحده.

---

(١) نحوه في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٠٦.

(٢) أ، غ، ط (لأنه).

(٣) عن أبي عبد الله القرشي في الرسالة القشيرية ٢٦٥ ونصه في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤ عن القرشي. وإذا كان معنى هذه العبارة (أن التوكل هو ترك التوكل) فهذا فاسد، انظر طريق الهجرتين (٢٩٤).

(٤) أ، غ، م (فهو).

(٥) ذي النون المصري، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤ الرسالة القشيرية ٢٦٤، مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٧ معزواً إلى النخشبي، وأثر النخشبي مضى قريباً.

(٦) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤ وفي الرسالة القشيرية عن سهل قريب منه ٢٦٤.

ومنهم من قال: التوكل هو التسليم لأمر الربِّ وقضائه[١].

ومنهم من قال: هو التفويض إليه في كل حال[٢].

ومنهم من جعل التوكل بداية، والتسليم واسطة[٣] والتفويض نهاية[٤].

قال أبو علي الدقاق[٥]: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلىٰ وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه[٦]، وصاحب التفويض يرضىٰ بحكمه، فالتوكل بداية، والتسليم واسطة[٧]، والتفويض نهاية، فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين[٨].

---

(١) نحوه في الرسالة القشيرية عن أبي عثمان الحيري ٢٦٥.

(٢) عن أبي عبدالله القرشي في الرسالة القشيرية بلفظ (التعلق بالله..) ٢٦٥.

(٣) في الأصل، ش (وساطة) والصحيح ما أثبته لموافقته ما في الرسالة، معزواً لأبي علي الدقاق ٢٦٦.

(٤) الرسالة القشيرية عن الدقاق ٢٦٦ ونحوه في إحياء علوم الدين عنه أيضاً ٤/ ٢٦٥.

(٥) أبو علي الدقاق، الحسن بن علي الدقاق النيسابوري، عالماً حليماً على منهج الجنيد في الطريقة توفي سنة ٤٠٥هـ/ الكواكب الدرية (٢/ ١٧٩)، البداية والنهاية (١٢/ ١٣)، معجم المؤلفين (٣/ ٢٦١).

(٦) د (بعمله).

(٧) في الأصل، ش (وساطة) والصحيح ما أثبته لموافقة ما أخرجه صاحب الرسالة عن أبي علي الدقاق (٢٦٦).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٦٦) عن أبي علي الدقاق.

التوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خاصة الخاصة[١].

التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ[٢][٣].

هذا كله كلام الدقاق، ومعنىٰ هذا أن[٤] التوكل: اعتماد علىٰ الوكيل، وقد يعتمد المتوكل[٥] علىٰ وكيله مع نوع اقتراح عليه، وإرادة وشائبة[٦] منازعة، فإذا سلم إليه زال عنه ذلك ورضي بما يفعله وكيله، وحالُ المفوِّضِ فوق هذا، فإنه طالب مريد ممن فوض إليه، ملتمس منه أن يتولىٰ أموره، فهو رضىٰ واختيار، وتسليم واعتماد فالتوكل يندرج في التسليم، وهو والتسليم يندرجان في التفويض[٧].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٦٧ بلفظ (خواص الخواص) وانظر فساد هذا القول في الفتاوى ١٠/١٨-٣٧، التحفة العراقية ص٣٤٦، وتقدم التعليق على هذا الكلام عند تقويم المنازل في مقدمة هذا البحث ص١٦٨٣.

(٢) في م، أ، غ، ح٢، ب (وعليهم أجمعين).

(٣) الرسالة القشيرية ٢٦٧.

(٤) (أن) سقطت من ط.

(٥) ش، ق (على الوكيل) في ط (يعتمد الرجل).

(٦) أ، ب (منه).

(٧) أ، غ، ب (والله سبحانه وتعالى أعلم)، في م، ط، ق، ح٢ (والله سبحانه أعلم).

فصـــل

حقيقة التوكل والأمور التي يحصل بها

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور، لا تتم[1] حقيقة التوكل إلا بها[2]، وكلّ أشار إلىٰ واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيُّومِيّته، وانتهاء الأمور إلىٰ علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا - رضي الله[3] عنه -: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف[4]، ولا من القدرية[5] النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لم

---

(١) ش (لا يتم).

(٢) م (بهما).

(٣) يعني به شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤) لأن الفلاسفة يرون الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب ومسبباتها تلازم بالضرورة كما هو في تهافت الفلاسفة ١٦٩ للغزالي، ولهذا يرون حتمية السبب وإبطال التوكل، قال ابن القيم: «هكذا سائر أفعاله سبحانه مع أنه أشهد عباده بذلك أنه مسبب الأسباب، وأن الأسباب خلقه، وأنه يملك تعطيلها عن مقتضياتها وآثارها»، طريق الهجرتين ١٨٦ ـ ١٨٧، قال أحدهم وهو [ليبنتز] لا شيء موجود بدون علة أو لا أثر بدون سبب، وهو مبدأ السببية والتعليل الضروري للقضايا، انظر مبدأ العلة: مارتن هيدغر، ترجمة د/ نظير جاهل ص٢٥ ـ ٣١.

(٥) لأن القدرية النفاة هم الذين يقولون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاء، وأن الإنسان يخلق فعله، وهذا له صلة بالسبب والمسبب، وهذه السببية واجبة عندهم بين ذات فاعلة (السبب) وذات مفعولة (المسبب) بحيث لا يكون هناك أي تأثير خارج نطاق القدرة الإنسانية، انظر

يشأ[١].

ولا يستقيم أيضاً من الجهمية[٢] النفات لصفاة الرب[٣]، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات. فأي توكل لمن يعتقد أن الله[٤] لا يعلم جزئيات العالم[٥] ولا هو فاعل باختياره ولا له إرادة ومشيئة، ولا يقوم[٦] به صفة فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله[٧] أصح وأقوىٰ[٨].

فلسفة القدر عند المعتزلة ١١٦ وما بعدها، الاستقامة ١/ ١٤٧، مجموع الفتاوى ٨/ ٢٥٨، المعتزلة وأصولهم الخمسة ١٥١، التعريفات ١٧٤.

(١) د (يشاء)، ق (يشاؤه).

(٢) وهو كذلك - التوكل - لا يصح من الجهمية الجبرية نفاة الأسباب والعلل والحكم، انظر طريق الهجرتين ص١٥٨، ولا يُتصور ممن نفى صفات الفعل عن الله والإرادة والمشيئة وعلم الله بالجزئيات فلا يستقيم توكل العبد إلا بإثبات الأسباب، والتوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، انظر طريق الهجرتين ٢٩٠، التوكل على الله د. عبد الله الدميجي ٢١، الفتاوى ١٧/ ٢٩٣، بينما المعتزلة علقوا ذات السبب بالفاعل في مجال الأفعال الإنسانية وهذا يعني رفض وقوعها من سبب غير الإنسان، وهذا تعميق لمفهوم المسؤولية عن الفعل بحيث يرتد مباشرة إلى الفاعل، وهذا يتفق مع قولهم بخلق الإنسان لفعل نفسه/ فلسفة القدر عند المعتزلة ١١٦ وما بعدها.

لا يصح التوكل من جهمي ولا من نفاة الأسباب والعلل والحكم

(٣) أ، ب، غ (جل جلاله).

(٤) (لفظ الجلالة) سقط من ش.

(٥) د (سفليه وعلويه)، ق (علويه وسفليه).

(٦) ش (تقوم).

(٧) غ (قوله) بدل (توكله).

(٨) أ، ب، غ (والله سبحانه وتعالى أعلم)، د (الله أعلم).

فصـــل

« الدرجة الثانية : إثبات[1] الأسباب والمسببات »[2].

التوكل وصلته بالأسباب

فإن من نفاها فتوكله مدخول ، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن[3] إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها[4] تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب[5] لا يستقيم لهم توكل البتة ، لأن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكل فيه[6] ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في

---

(١) غ ، ب ، ط (في).

(٢) السبب : هو ما يُتوصل به إلى غيره ، وللناس في الأسباب والمسببات مواقف متعددة ، فهناك من اعتمد عليها بالكلية ، وهناك من نفى الأسباب وأعرض عنها ، وهناك من نفى تأثيرها في المسبب ، فمن اعتمد عليها وقطع النظر إلى مسببها فهذا قدح في التوحيد وهو مذهب الفلاسفة والعقلانيين ، أما من أعرض عنها فهم غالبية الصوفية فتحقيق التوكل عندهم هو الإعراض عن الأسباب وهذا قدح في الشرع ، لأن الله تعالى أمرنا بالأسباب الشرعية ، وأما من نفى تأثيرها بالكلية فهو نقص في العقل وهو قول القدرية الجبرية ومن تابعهم من الأشاعرة .

مسألة الأسباب والمسببات

انظر في ذلك الفتاوى ١٠/ ٣٢ ـ ٣٥ ، طريق الهجرتين ٢٨٩ ـ ٢٩٤ ، رسالة التوكل على الله ١٦٣.

(٣) في ط (أي).

(٤) م ، ح ٢ ، د (بنفيها).

(٥) نفاة الأسباب: تقدم أنهم ينقسمون إلى قسمين: من أعرض عنها بالكلية وهم غلاة الصوفية ، والثاني من نفى أثرها بالكلية وهم القدرية الجبرية.

(٦) طريق الهجرتين (ص٢٩٠).

حصول المدعو به.

فإذا اعتقد العبد أن توكله(١) لم ينصبه الله سبباً ، ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء ، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله: إن كان(٢) قُدِّر حصل(٣) ، توكل أو(٤) لم يتوكل ، دعا أو لم يدع ، وإن لم يقدر لم يحصل، توكل أيضاً أو(٥) ترك التوكل.

وصرح هؤلاء: أن التوكل والدعاء عبودية محضة ، لا فائدة لهما إلا ذلك ولو ترك العبد التوكل والدعاء لما(٦) فاته شيء مما قدر له ، ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة علىٰ الخطأ والنسيان عديم الفائدة ، إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء - في كتاب له - لا يجوِّز الدعاء بهذا ، وإنما يجُوزه تلاوةً لا دعاءً ، قال لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه ؛ لأن الداعي بين الخوف والرجاء والشك في وقوع ذلك: شك في خبر الله ، فانظر إلىٰ ما قاد إنكار الأسباب من العظائم ، وتحريم الدعاء بما أثنىٰ الله علىٰ عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه، ولم يزل المسلمون - من عهد نبيهم ﷺ وإلىٰ الآن -

---

(١) ش (أن التوكل).

(٢) ح٢ ، د ، ش (قد).

(٣) ش (يحصل).

(٤) ح٢ (أم).

(٥) م (وترك).

(٦) أ ، غ ، ب (ما).

يدعون به في مقامات الدعاء، وهو من أفضل الدعوات.

وجواب هذا الوهم الباطل أن يقال: بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه، وهو الواقع، وهو أن يكون قضىٰ بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب، وقضىٰ[1] بحصوله إذا فعل العبد سببه.

فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب، وهذا كما قضىٰ بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يجامع لم يخلق منه[2] الولد.

وقضىٰ بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضىٰ بحصول الحج والوصول إلىٰ مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس[3] في بيته لم يصل إلىٰ مكة أبداً[4].

وقضىٰ بدخول الجنة إذا أسلم، وأتىٰ بالأعمال الصالحة[5] فإذا ترك الإسلام[6]: لم يدخلها أبداً[7].

---

(١) (لفظ الجلالة) في ط.

(٢) (منه) ساقطة من ط.

(٣) أ، غ، ب (حبس).

(٤) (أبداً) ساقط من ب، ط.

(٥) في الأصل (الصالح). والصحيح ما أثبته من جميع النسخ و ط.

(٦) في ط (ولم يعمل الصالحات).

(٧) (أبداً) سقط من أ، ح٢، د، ق.

وقضىٰ بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته.

وقضىٰ بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها، فما[1] لم يأت بذلك لم يحصد[2] إلا الخيبة.

فوازن[3] ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل[4]، ويقول: إن كان قضي لي وسبق[5] لي[6] في الأزل حصول الولد، والشبع، والري، والحج، ونحوها، فلا بدَّ أن يصل إليَّ[7]، تحركت أو سكنت، وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن[8] قضي لي أيضاً، فعلت أو تركت[9].

فهل[10] يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعىٰ[11] في السبب بالهداية العامة[12].

---

(١) م، ح٢ (لم يأت).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (لم يحصل).

(٣) الأصل (فوزان) والصحيح ما أثبته من أ، غ، ح٢.

(٤) ش (الموصول).

(٥) (سبق) سقط من أ، ب.

(٦) (لي) سقط من ط.

(٧) في م، أ، غ، ح٢، ب (إن) بدل (إليّ).

(٨) (قد) زائد في ط.

(٩) (سافرت أو قعدت) زائد في ط.

(١٠) ق (فهذا).

(١١) (تسعى) سقط من ش.

(١٢) وقد وصف شيخ الإسلام هذا الصنف من الناس (بالحمق) التحفة العراقية ٣٣٠.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه[1] بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا علىٰ ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا علىٰ قدم العبودية[2].

فصل

« الدّرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام التوحيد »[3].

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتىٰ يصح له توحيده؛ بل حقيقة التوكل: توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلىٰ قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله علىٰ الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، [وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا[4] عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض

---

(١) (قيامه) سقط من الأصل، ش وهو في بقية النسخ و ط.

(٢) (والله سبحانه وتعالى أعلم) في أ، ب، غ (والله أعلم) في ق.

(٣) أ، غ، ب (توحيد التوكل)، وسقط من ق (التوحيد).

(٤) الأصل (أو) والصحيح حذفها كما في م، أ، غ، ح٢، ب.

الأسباب][1] عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها[2] متصلاً بها[3].

فصل

« الدّرجة الرابعة: اعتماد القلب علىٰ الله، واستناده إليه، وسكونه إليه ».

بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها؛ بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه[4] السكون إلىٰ مسببها.

وعلامة[5] هذا: أنّه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره، لأن اعتماده علىٰ الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأىٰ حصناً مفتوحاً، فأدخله ربه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه منهم[6] في هذه الحال لا معنىٰ له.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ش، ق.

(٢) ب (عنها).

(٣) (والله سبحانه وتعالى أعلم) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٤) الأصل (تلبسه) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د.

(٥) أ، غ (وعلى هذا).

(٦) ط (من عدوه).

وكذلك من أعطاه ملك درهماً ، فسرق منه ، فقال له الملك: عندي أضعافه[1] ، لا تهتم ، متىٰ جئت إليَّ أعطيتك[2] من خزائني أضعافه ، فإذا علم صحة قول الملك ، ووثق به واطمأنّ إليه ، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك - لم يحزنه فوته.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه ، وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره ، وليس في قلبه التفات إلىٰ غيره ، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل ، لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلىٰ ربه[3] عز وجل.

فصل

« الدّرجة الخامسة: حسن الظنّ بالله[4] تعالىٰ » .

فعلىٰ قدر حسن ظنّك به[5] ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسَّر بعضهم التوكل بحسن الظن ، [فقال: التوكل حسن الظن بالله][6][7].

---

(١) ط (فلا).

(٢) أ (أعطيناك).

(٣) في غ ، ب ، ط (سبحانه).

(٤) في غ ، ب (سبحانه) وفي ط (عز وجل).

(٥) في غ ، ب (بربك).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من جميع النسخ.

(٧) القائل هو الخريبي عندما سأله محمد بن يحيى الذهلي عن التوكل، شعب الإيمان (٢/ ٩٧)،

والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلىٰ التوكل عليه ، إذ لا يُتصور التوكل علىٰ من تسيء[1] ظنك به ، ولا التوكل علىٰ من لا[2] ترجوه[3].

فصل

« الدّرجة السادسة: استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه ، وقطع منازعاته »[4].

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد[5] ، لا يكون له حركة ولا تدبير[6].

وهذا معنىٰ قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير[7] ، يعني الاستسلام لتدبير

سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٩) ، وهو عبدالله بن داود الخريبي ، أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٢٦) رقم(٢٧) ، وعن الإمام أحمد ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١/ ٣٤٨).

(١) غ ، ب (ساء).

(٢) (لا) ساقطة من غ.

(٣) في ق (والله أعلم).

(٤) غ (منازعته) وفي ب (منازعات).

(٥) ش (رأى).

(٦) شعب الإيمان ٢/ ١٠٩ رقم١٣١١ ، الرسالة القشيرية ٢٦٢ ، وانظر تعليق شيخ الإسلام على مسألة الرضى بالقضاء والرضى بالمقضي ، التحفة العراقية ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٧) عن ذي النون (ترك التدبير) ، مجموعة السلمي ٢/ ٣١٧ ، ونحوه في حلية الأولياء ١٠/ ١٦٩.

الرب لك ، وهذا في غير باب الأمر والنهي ؛ بل فيما يفعله بك ، لا فيما أمرك بفعله. فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده ، وانقياده له ، وترك منازعات نفسه وإراداتها(١) مع سيده(٢).

فصل

« الدرجة السابعة: التفويض » .

وهو روح التوكل ولُبُّهُ وحقيقته ، وهو إلقاء أموره كلها إلىٰ الله ، وإنزالها به طلباً واختياراً ، لا كرهاً(٣) واضطراراً ؛ بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب(٤) أموره إلىٰ أبيه ، العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرىٰ أن تدبيره(٥) له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه [لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها](٦) ، فلا يجد له أصلح ولا أرفق(٧) من تفويضه أموره كلها إلىٰ(٨) أبيه ، وراحته من

(١) ط (وإرادتها).

(٢) في غ ، ب (والله سبحانه وتعالى أعلم).

(٣) م ، ح٢ (كراهة).

(٤) في ط (على أمره كله).

(٥) ط (تدبير أبيه).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٧) الأصل (أوفق) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

(٨) في ب (إليه).

حمل كلفتها(١) وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال(٢) من فوض إليه، وقدرته وشفقته.

فصل

« **فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة، انتقل منها إلىٰ درجة «الرضا»**»(٣).

وهي ثمرة التوكل، ومن فسّر التوكل بها، فإنما فسّره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا(٤) - رضي الله عنه - يقول: المقدور يكتنفه(٥) أمران، التوكل قبله والرضىٰ بعده، فمن توكل علىٰ الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، أو معنىٰ هذا(٦).

(٧)قلت وهذا معنىٰ قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللهمّ إني أستخيرُك بعلمك وأستقدِرُك بقُدرتك، وأسألك من فضْلِك العظيم**(٨)»(٩)، فهذا توكل

(١) الأصل (كلها) والأقرب ما أثبته من ب و ط، وفي أ، غ (كلفها).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، د (علم).

(٣) سوف يأتي الحديث عن منزلة الرضى ضمن المدارج قريباً.

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الفتاوى ١٠/ ٣٧.

(٥) م (يلتقم).

(٦) التحفة العراقية ٣٤٨، ٣٤٩، وذكر حديث الاستخارة في نفس الموضع أيضاً.

(٧) في م (فصل).

(٨) لفظة (العظيم) ساقطة من الأصل وهي في صحيح البخاري وبقية النسخ و ط.

(٩) البخاري (١/ ٣٦١) ح(١١٦٦)، أحمد (٣/ ٣٤٤)، أبو داود. الصلاة (٢/ ١٨٧) ح(١٥٣٨)،

وتفويض، ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب»، فهذا تبرؤ إليه[1] من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، و[2] آجلاً، [وأن يصرفه عنه[3] إن كان فيه[4] مضرته عاجلاً أو آجلاً][5] فهذا[6] هو حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضىٰ بما يقضيه له، فقال: «واقْدُرْ ليَ الخيرَ حيث كان، ثمّ رضِّني به».

فقد اشتمل هذا الدعاء علىٰ هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض [قبل وقوع المقدور، والرضىٰ بعده، وهو ثمرة التوكل والتفويض][7] وعلامة[8] صحته، فإن لم يرض بما[9] قضي له، فتفويضه معلول فاسد.

الترمذي. صلاة الاستخارة (٢/ ٣٤٥) ح(٤٨٠)، وصححه الحاكم (١/ ٥٢٤) ووافقه الذهبي.

(١) في أكثر النسخ (إلى الله).

(٢) أ، ب، غ (أو).

(٣) (عنه) سقط من ش.

(٤) (فيه) سقط من غ، ب.

(٥) ما بين المعقوفين مقدم ومؤخر في (أ) أي (وإن كان فيه مضرة عاجلاً أو آجلاً أن يصرف عنه).

(٦) أ، ح٢ (فهذه هي).

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (ش).

(٨) (و) سقط من ط.

(٩) ط (لما).

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل ، وتثبت قدمه فيه وهذا معنىٰ قول[1] بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله ، يكذب علىٰ الله ، لو توكل علىٰ الله لرضي بما يفعله الله[2][3].

وقول يحيىٰ بن معاذ - وقد سئل متىٰ يكون الرجل متوكلاً؟ - فقال إذا رضي بالله وكيلاً[4].

فصل

مواضع الاشتباه بين التفويض والإضاعة

وكثيراً ما يشتبه في[5] هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص ، فيشتبه التفويض بالإضاعة ، فيضيع العبد حظه ، ظناً منه[6] أن ذلك تفويض وتوكل وإنما هو تضييع لا تفويض ، فالتضييع في حق الله ، والتفويض في حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة ، وإلقاء حمل الكلّ[7] ، فيظن صاحبه أنه متوكل وإنما هو عامل علىٰ قدم[8] الراحة.

---

(١) (قول) سقط من (ش).

(٢) ق (به).

(٣) سبق تخريجه ص١٧٤١ ، وهو في الرسالة القشيرية ٢٦٣.

(٤) سبق ص١٧٤١.

(٥) (في) سقط من (ش).

(٦) في الأصل وغيره لفظة (منه) قبل (تفويض) أي (ظناً أن ذلك منه تفويض والأقرب ما عدلته من ط.

(٧) الكل: العيال ، والثقل ، اليتيم ، والذي لا ولد له ولا والد ، مختار الصحاح ص٥٧٦.

(٨) أ ، ب ، غ ، ط (عدم).

وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد ، مستريح من غيرها لتعبه بها ، والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة ، وتسقط[1] به عنه[2] مطالبة الشرع ، فهذا لون ، وهذا لون.

ومنه: اشتباه خَلع الأسباب بتعطيلها ، فخلعها توحيد ، وتعطيلها إلحاد وزندقة ، فخلعها عدم اعتماد القلب عليها ، ووثوقه بها[3] وركونه إليها مع قيامه بها ، وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح[4].

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغِرَّة[5] والعجز ، والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره[6] به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميته وتزكيته[7] كغارس الشجر، وباذر الأرض ، والمغترُّ العاجز: قد فرَّط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح مع[8] بذل المجهود.

ومنه: اشتباه[9] الطمأنينة إلى الله والسكون إليه ، بالطمأنينة إلى المعلوم ،

---

(١) الأصل (ويسقط) والأقرب ما أثبته من غ ، ب ، ط.

(٢) في ط (عند).

(٣) (بها) سقط من ط ، وفي غ ، ب (توثقه).

(٤) انظر في معنى هذا: قول ابن حجر : « قطع النظر عن الأسباب ، بعد تهيئة الأسباب » ، فتح الباري ٣/ ٤٤٩.

(٥) في ط (الغرور).

(٦) في ط (لفظ الجلالة).

(٧) ق (تنميتها وتزكيتها).

(٨) ق (بعد).

(٩) أ ، غ ، ب سقط (اشتباه).

وسكون القلب إليه ، ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة ، كما يُذكَر عن أبي سليمان الداراني[١] : أنه رأىٰ رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم ، فمضىٰ عليه أيام ، فقال له أبو سليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم ؛ أيش[٢] كنت تشرب؟ فقام وقبَّل رأسه ، وقال جزاك الله خيراً ، حيث أرشدتني ، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام[٣] ، ومضىٰ[٤].

وأكثر المتوكّلين سكونهم وطمأنينتهم إلىٰ المعلوم ، وهم يظنون أنّه إلىٰ الله، وعلامة ذلك: أنه متىٰ انقطع معلوم أحدهم حضره همُّه وبثُّه[٥] وخوفه ، فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلىٰ الله.

ومنه: اشتباه الرضىٰ عن الله بكل ما يفعل بعبده - مما يحبه ويكرهه - بالعزم علىٰ ذلك[٦] ، وحديث النفس به[٧] ، وذلك شيء والحقيقة شيء آخر.

---

(١) أبو سليمان الداراني ، عبد الرحمن بن أحمد بن عطية من أهل (داريا) من قرى دمشق ، توفي سنة ٢١٥هـ، وقيل: سنة ٢٠٥هـ/ طبقات الصوفية للسلمي (٧٥) ، حلية الأولياء (٩/ ٢٥٤)، صفة الصفوة (٤/ ١٧٩) ، شذرات الذهب (٢/ ١٣) ، تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٨) ، الرسالة القشيرية (٥٩).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (أي شيء) والأصل موافق لما في الرسالة ٢٦٨.

(٣) ق (ثم تركه و) وهو مخالف لما في الرسالة.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٦٨.

(٥) بثه: ـ البث: الحال وأشدّ الحزن . مختار الصحاح ٤٠ ، ترتيب القاموس ١/ ٢١٢.

(٦) انظر ما قاله أبو عثمان حول حديث: (اللهم إني أسألك الرضى..) ، الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٧) (به) سقط من غ ، ب.

كما يُحكىٰ عن أبي سليمان أنّه قال: أرجو أن أكون أُعطيتُ طرفاً من الرضىٰ، لو أدخلني النار لكنت[1] بذلك راضياً[2].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة - رَحمه الله[3] - يقول هذا عزم منه علىٰ الرضىٰ وحديث نفس به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء، وفرْق بين العزم علىٰ الشيء وبين حقيقته[4].

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل[5]، فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله فيظنّ أنّه بذلك[6] متوكل، وليس من أهل التّوكّل، فحال التوكل: أمر[7] وراء العلم به، وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها.

---

(١) الأصل (كنت) والأقرب ما أثبته من الرسالة (٣٠٠) و ط.

(٢) حلية الأولياء عن سفيان بن عيينة (٧/ ٢٧٨، ٢٩٥)، صفة الصفوة (٤/ ٢٢٦)، الرسالة القشيرية (٣٠٠)، وذكره شيخ الإسلام في الاستقامة (٢/ ٨٥، ٨٦، ٩٥)، وعلّق عليه مبيناً الحق في ذلك وخلافه، والفرق بين الرضى والعزم على الرضى.

(٣) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٤) الفتاوى ١٠/ ٣٧، لما ذكر شيخ الإسلام هذا القول علق عليه بقوله: «إذا كان هذا عزم على الرضى فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ وما أكثر انفساخ عزائم الناس خصوصاً الصوفية ...» ثم ذكر قصة سمنون الذي قال: «ليس لي في سواك حظ * فكيف ما شئت فامتحني». الاستقامة ٢/ ٨٨ـ ٨٩، التحفة العراقية ٣٥٠.

(٥) ش (المتوكلين).

(٦) (بذلك) سقط من ط.

(٧) ق (آخر من).

وحال المحب العاشق وراء ذلك[1] ومعرفة[2] علم الخوف، وحال الخائف[3] وراء ذلك[4] وهو شبيه بمعرفة المريض ماهيّة الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوىٰ[5] فيه بالحقائق[6]، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

فصل

تعلق التوكل بالأسماء الحسنى

«و[7] التوكل» من أعمِّ المقامات تعلّقاً بالأسماء الحسنىٰ.

فإن له تعلقاً خاصاً بعامّة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات[8]، فله تعلق

---

(١) (وراء ذلك) سقط من الأصل والصحيح ما أثبته من ق و ط.

(٢) ق (وكمعرفة) و ط.

(٣) الأصل (الخوف) والأقرب ما أثبته من ق، غ، ب.

(٤) (وراء ذلك) سقط من الأصل والأقرب ما أثبته من ق، غ، ب.

(٥) ط (الدعاوي).

(٦) (الحقائق) ساقطة من أ.

(٧) (الواو) ساقطة من ط.

(٨) قال شيخ الإسلام: «أسماء الأفعال مثل العادل والخالق والرازق وهي أسماء حسنى تقتضي أن يكون بها محموداً مثنىً عليه بها وذلك يقتضي أنها من صفات الكمال»، وقال: «ولا يلزم من إثباتها القول بقدم مخلوقاته أو مفعولاته كما زعمت المعتزلة في ردها على الأشاعرة»، وقال: «إن أسماء الصفات بحسب ما تضاف إليه، إذ هي صفة حقيقية للموصوف بها وليست

أسماء الأفعال

جملة من الأسماء الحسنى

باسم: «الغفار[١]، والتواب[٢]، والعفو[٣]، [٤]والرحيم[٥]» وتعلقاً[٦] باسم: «الفتاح[٧]، والوهاب[٨]، والرزاق[٩]، والمعطي[١٠]»،

مجازاً» انتهى، ملخصاً من الأصفهانية ٢٢، الفتاوى ١٢/ ٤٣٦، ٢٠/ ٢١٩، بغية المرتاد ٣٥٣، وقال ابن القيم: «لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشتق له منه اسم مطلق.. مثل (الماكر) كما غلط بذلك بعض المتأخرين، فهي أفعال مخصوصة معينة لا يجوز أن يسمى بأسمائها» المدارج ٣/ ٤١٥، بدائع الفوائد ١/ ١٦٢.

(١) الغفار، قال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ [ص: ٦٦]، قال ابن القيم: «ومعرفته باسمه الغفار، ومشاهدة لهذه الصفة وتعبداً بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة» المدارج ١/ ٢٠٦.

(٢) التواب، قال تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ [البقرة: ٣٧].

(٣) العفو، قال تعالى: ﴿إنّ الله لعفو غفور﴾ [الحج: ٦٠].

(٤) أ، غ، ب (الرؤوف).

(٥) الرحيم، قال تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة: ٣]

(٦) ط (تعلق).

(٧) الفتاح، قال تعالى: ﴿وهو الفتاح العليم﴾ [سبأ: ٢٦].

(٨) الوهاب، قال تعالى: ﴿وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ [آل عمران: ٨].

(٩) الرزاق، قال تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨].

(١٠) قال رسول ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم»، البخاري. الجهاد (٢/ ٣٩٣) ح(٣١١٦)، وقال شيخ الإسلام: «الأسماء التي فيها ذكر للشر لا تذكر إلا مقرونة كقولنا: الضار النافع، المعطي المانع»، الفتاوى ١٤/ ٢٣٦، وهو من جملة الأسماء الواردة في رواية مسلم بن الوليد وقد ذكرها ابن حجر وعلق عليها وبيّن تداخل الروايات واختلاف العدد فيها وأشار إلى التكلف في الاستدلال لها وأخذها من القرآن، فتح الباري ١١/ ٢١٦، ولم يذكر ابن حجر أن المعطي من جملة أسماء الله تعالى، فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

والمحسن[1]» وتعلقاً[2] باسم: «المعز، المذل[3]،

(١) ممن أثبت اسم «المحسن» لله تعالى ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة ٣١٤، وعدد من العلماء ذكرهم الشيخ عبدالله الغصن في رسالته أسماء الله الحسنى ٣٦١، والمسألة فيها حديثان أحدهما: حديث شداد بن أوس أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٨٦٠٣)، والطبراني في الكبير (٧/ ٧١٢١)، وفيها «إن الله محسن يحب الإحسان»، إلا أن رواية عبدالرزاق شاذة، وقد رواه مسلم بلفظ «إن الله قد كتب الإحسان» برقم(١٥٤٨)، ومخرج الحديث واحد، وكذا رواه أحمد (٤/ ١٢٣)، النسائي (٧/ ٢٢٧)، والترمذي رقم (٢٨١١) وغيرهم، الحديث الثاني حديث أنس ابن مالك رواه ابن أبي عاصم في الديات (ص٩٤)، والطبراني في الأوسط رقم (٥٧٣١)، بلفظ: «إذا حكمتم فاعدلوا.. فإن الله محسن يحب المحسنين» من طريق عثمان بن طالوت ولم يعرف له ترجمة وتابعه سليمان ابن داود كما في أخبار أصبهان (٢/ ١١٣)، وسليمان بن داود متهم بالكذب، الميزان (٢/ ٢٠٥) ورواه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٣٣) بلفظ: «إن الله محسن يحب الإحسان»، ومدار الحديث على محمد بن بلال وعمران بن القطان، وهما إلى الضعف أقرب ولا يقبل ما انفردا به، انظر سؤالات الآجري لأبي داود (١٤٤٨)، الضعفاء للعقيلي (٤/ ٣٧)، الكامل لابن عدي (٦/ ١٣٣).

(٢) ط (تعلق).

(٣) **المعز، المذل**: فيه حديث أخرجه الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٣١) ح(٣٥٥٧)، وقال حديث غريب، روي من غير وجه عن أبي هريرة ولا يعلم له إسناد صحيح، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢)، وقال الحديث مخرج في الصحيحين دون ذكر الأسماء وعلته الوليد بن مسلم، ولقد أطال ابن حجر في الفتح في بيان تداخل الروايات والكلام على رجال أسانيدها، ثم قال عن قولهم إن الأسماء التي أثبتوها إنما هي من القرآن، قال: «وإنما تؤخذ من القرآن بضرب من التكلف لا أن جميعها ورد فيه بصورة الأسماء»، فتح الباري (١١/ ٢١٦، ٢١٨، ٢٦٢)، انظر رسالة الغصن في الأسماء الحسنى (ص٣٣٣)، وممن أثبته الوليد بن مسلم، وعبدالملك الصنعاني والبيهقي.

الحافظ[1]، [2] الرافع، المانع[3] من جهة توكله عليه في إذلال[4] أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصرة[5] وتعلقاً[6] بأسماء «القدرة، والإرادة» وله

---

(١) اسم (الحافظ) سقط من د، وفي م، أ، غ، ح٢، ب (الخافض).

(٢) الحافظ: الذين يرون أنه من أسماء الله تعالى يستدلون بقوله تعالى: ﴿فالله خيرٌ حافظاً﴾ [يوسف: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿وكنا لهم حافظين﴾ [الأنبياء:٨٢]، وقد ذكره الحافظ في جملة من الأسماء ثم أعقبها بنفس الكلام السابق، انظر فتح الباري ١١/ ٢١٩، وممن أثبته البيهقي وابن الوزير وعبدالملك الصنعاني وابن منده، انظر رسالة عبدالله الغصن في أسماء الله الحسنى ٣٤٣، ورواية عبدالملك الصنعاني عند ابن ماجه برقم (٣٨٦١)، والذي يظهر أن الآيات جاءت في سياق الإخبار والله أعلم.

(٣) الرافع، المانع: ذكرهما ابن حجر في الفتح من رواية الوليد بن مسلم، وقال في نهاية سردها وفي بعضها إنما تؤخذ من القرآن بضرب من التكلف، فتح الباري ١١/ ٢١٦، وعدَّ الأستاذ/ عبدالله الغصن في رسالته من أثبته، ومنهم البيهقي وابن الوزير والأصبهاني وابن العربي، أسماء الله الحسنى (ص٣٣٣)، وقد ذكر ابن تيمية آثاراً لبعض تلك الأسماء في الاستقامة ٢/ ٣٩، ٥٠، وقد ذكر ابن القيم أثر هذه الأسماء في المدارج ١/ ٢٠٦ وما بعدها، وممن ذكر جملة من هذه الأسماء محمد الحمود النجدي في النهج الأسنى ١/ ١٧٥، ١٨٧، ١٩٣، ٢٠٥، ٣٣٩، ٢/ ٢٠٥، وأجاد في بيان معانيها وشرح أثرها على السلوك، وكذلك د/ محمد التميمي في معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ١٧٣، ١٨٢، ١٨٣، ٢٦٩، ٢٧٠، ولم يذكره ابن حجر في أسماء الله تعالى، وإنما ذكر في مقابل «المعطي»، فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

(٤) ب (بإذلال).

(٥) ش (النصر).

(٦) ط (تعلق).

تعلق عام بجميع الأسماء الحسنىٰ ، ولهذا فسَّره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه[١] بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل ، وكلما[٢] كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوىٰ.

فصل

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكّله ، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلىٰ حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ، ويمكنه نيلها[٣] بأيسر شيء ، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيراً ، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ، ودعاءه إلىٰ وجع يمكن مداواته بأدنىٰ[٤] شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف [رغيف أو نصف][٥] درهم ، ويدع صرفه إلىٰ نصرة الدين ، وقمع المبتدعين[٦] ، ومصالح المسلمين[٧].

---

(١) ط (إراداته) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، د ، ق.

(٢) ش (فكلما).

(٣) ش (فعلها).

(٤) ش (بأيسر).

(٥) الأصل (بنصف درهم) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د.

(٦) جميع النسخ سوى ش (وزيادة الإيمان).

(٧) ق (والله أعلم).

فصل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله -[1]:

التوكل كلة الأمر إلى مالكه

«التَّوَكُّلُ: كِلَةُ الأَمرِ إِلىٰ مَالِكِهِ، وَالتَّعوِيلُ عَلىٰ وَكَالَتِهِ، وَهُوَ مِنْ أَصْعَبِ مَنَازِلِ العَامَّةِ عَلَيهِم[2]، وَأَوْهَىٰ السُّبُلِ عِندَ الخَاصَّةِ، لأَنَّ الحَقَّ[3] قَد وَكَلَ الأُمُورَ كُلَّهَا إِلىٰ نَفسِهِ، وَأَيْأَسَ العَالَمَ مِن مِلْك شَيءٍ مِنْهَا»[4].

قوله: «كِلَةُ الأَمرِ إِلىٰ مَالِكِهِ» أي تسليمه إلىٰ من هو بيده.

«والتَّعوِيل عَلىٰ وَكَالَتِهِ» أي الاعتماد علىٰ قيامه بالأمر، والاستغناء بفعله عن فعلك، وبإرادته عن إرادتك.

و«الوكالة» يراد بها أمران، أحدهما: التوكيل، وهو الاستبانة والتفويض، والثاني: التوكل، وهو التصرف[5] بطريق النيابة عن[6] الموكل، وهذا من الجانبين، فإن الله[7] عزَّ وجل يوكل العبد[8] ويقيمه في حفظ ما

(١) في الأصل (رحمه الله).

(٢) (عليهم) سقط من ش وهو في لطائف الإعلام ١/ ٣٦٢.

(٣) في ط (تعالى) وهو خلاف ما في المنازل أيضاً.

(٤) منازل السائرين ٣٣، لطائف الإعلام ١/ ٣٦٢، طريق الهجرتين ٢٨٦ - ٢٩٥.

(٥) في ط (التعرف).

(٦) أ، ب (عند).

(٧) في ق (تبارك وتعالى).

(٨) (العبد) ساقطة من أ.

وكّله[1] فيه، والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله[2]: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩]، قال قتادة[3]: وكّلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم[4] - يعني قبل هذه الآية - وقال أبو رجاء العطاردي[5]: معناه إن يكفر بها أهل الأرض، فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة[6]، وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار[7] وأهل المدينة[8].

---

(١) غ، ب (وكل فيه).

(٢) في ط (تعالى).

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي البصري، ثقة ثبت، حافظ مفسر، توفي سنة بضعة عشر. طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٩، المعرفة والتاريخ ٢/ ٢٧٧، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩.

(٤) تفسير البغوي (٢/ ١١٤)، الدر المنثور (٣/ ٣١٣).

(٥) أبو رجاء العطاردي، عمران بن ملحان، وقيل ابن سلمان التيمي البصري من المخضرمين، أدرك الجاهلية وأسلم بعد الفتح، ولم يرَ النبي ﷺ، حدث عن عمر وعلي - رضي الله عنهما - وغيرهما، توفي سنة ١٠٥هـ. طبقات ابن سعد ٧/ ١٣٨، المعارف ٤٢٧، تذكرة الحفاظ ١/ ٦٢، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٣.

(٦) تفسير البغوي (٢/ ١١٤)، الدر المنثور (٣/ ٤١٣).

(٧) (الواو) ساقطة من ط، والذي في الدر المنثور (أهل المدينة من الأنصار) (٣/ ٣١٣)، وبلفظ آخر (أهل المدينة والأنصار).

(٨)الدر المنثور (٣/ ٣١٣)، وورد بهذا اللفظ عن ابن عباس ومجاهد في تفسير أبي السعود (٣/ ١٥٩)، ابن كثير (٢/ ١٥٦)، الطبري (٧٢٦٤)، وفيه ألفاظ متعددة منها: «أهل المدينة

والصواب: أن المراد من قام بها إيماناً، ودعوة وجهاداً ونصرة، فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحداً وكيل الله؟.

قلت: لا فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة، والله[1] لا نائب له، ولا يخلفه أحد؛ بل هو الذي يخلف عبده.

كما قال النبي ﷺ: **«اللهم أنت الصاحِبُ في السّفر والخليفةُ في الأهل»**[2] علىٰ أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به[3].

وأما توكيل العبد ربه: فهو تفويضه إليه، وعزل نفسه عن التصرف، وإثباته[4] لأهله ووليه، ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية، وقيامها بالعبودية[5]، وهذا معنىٰ كون الرب وكيل عبده، أي كافيه، والقائم

والأنصار»، «أهل المدينة قد تبوّؤوا الدار..»، وفي الدر المنثور أيضاً: «أهل المدينة من الأنصار» (٣/ ٣١٣)، وعند الثعالبي «هم مؤمنو أهل المدينة» (١/ ٥٣٨).

(١) في ط (عزّ وجل).

(٢) أحمد (٢/ ١٥٠) مسلم. الحج (٢/ ٩٧٨) ح(١٣٤٢) الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٠١) ح(٣٤٤٧) وقال حسن غريب، أبو داود. الجهاد (٣/ ٧٥) ح(٢٥٩٩).

(٣) (به) سقط من ق.

(٤) غ (لإثباته).

(٥) سبق الأثر عن النخشبي ص١٧٤٤، وغيره وهو في الرسالة القشيرية (٢٦٣-٢٦٤)، ومعناه: قيام الإنسان بالأسباب وعدم الالتفات إليها في تحقق مسبّبها؛ لأن هذا من شأن الرب، والله أعلم.

بأموره ومصالحه ، لا أنه[1] نائبه في التصرف ، فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان إليه[2] ، وخلعة منه عليه ، لا عن حاجة منه ، وافتقار إليه كموالاته ، وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته ، وقيام بعبوديته[3].

وقوله: «**وَهُوَ مِن أَصعَبِ مَنَازِلِ العَامَّةِ عَليهِمْ**»[4] لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم ، ولم يشاهدوا الحقيقة التي شاهدها الخاصة ، وهي التي تشهد التوكل[5] ، فهم في[6] رق الأسباب ، فيصعب عليهم الخروج عنها ، وخلو القلب منها ، والاشتغال بملاحظة المسبب[7] وحده.

مخالفة ابن القيم للهروي في التوكل

وأما كونه «**أَوْهَىٰ السُّبُلِ عِندَ الخَاصَّةِ**» فليس[8] علىٰ إطلاقه ؛ بل هو من أجلِّ السُّبل عندهم[9] وأفضلها قدراً ، وقد تقدم في صدر الباب : أمر الله رسوله

---

(١) ط (لأنه) و ق (له).

(٢) ط (له).

(٣) أي القيام بالأسباب عبودية والتفويض إلى مالكه ومصرفه ربوبية.

(٤) ومن كلام شيخ الإسلام قوله: «.. فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً.. إلى قوله لكن يقال: من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة» ، الفتاوى ١٠/ ٣٥ـ ٣٦ ، التحفة العراقية ٣١٣ ، ومثله كلام ابن القيم في طريق الهجرتين ٢٨٦.

(٥) في ط (التوكيل).

(٦) (في) ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٧) م (السبب) وهو خلاف الصحيح.

(٨) ش (هو).

(٩) (عندهم) ساقط من ش.

بذلك، وحضه عليه هو والمؤمنين، ومن أسمائه ﷺ: «المتوكل»[1] وتوكله أعظم توكل، مع إخباره بأنه علىٰ الحق: دلالة علىٰ أن الدين بمجموعه[2] في هذين الأمرين: أن يكون[3] العبد علىٰ الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً علىٰ الله واثقاً به، فالدِّين كله في هذين المقامين، وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [ابراهيم: ١٢] فالعبد آفته[4]: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكل إلىٰ الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل علىٰ الله في معلوم الرزق المضمون، والاشتغال به عن التوكل في نصرة الحق والدِّين: من أوهىٰ منازل الخاصة، أما التوكل في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق، فهذا توكل الرسل والأنبياء[5]، فكيف يكون من أوهىٰ منازل الخاصة؟.

قوله: «**لأَنَّ الحَقَّ قَد وَكَّلَ بِهِ إِلىٰ نَفسِهِ، وَأَيْأَسَ مِنهُ العَالَمَ مِن مِلْكِ شَيءٍ مِنْهَا**».

---

(١) من أسماء الرسول ﷺ (المتوكل) كما في البخاري. البيوع (٢/ ٩٦) ح(٢١٢٥)، وطرفه (٤٨٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٤)، من قول عبدالله بن عمرو بن العاص عندما سئل عن صفة النبي ﷺ في التوراة، الدرامي (١/ ١٦).

(٢) الأصل (مجموعة) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق.

(٣) (يكون) ساقط من غ.

(٤) آفته من (أوف) الآفة: العاهة تصيب الشيء، مختار الصحاح ٣٣.

(٥) ق (عليهم السلام).

فجوابه: أن الذي[1] تولىٰ ذلك أسند إلىٰ عباده كسباً وفعلاً وإقداراً[2]، واختياراً وأمراً أو[3] نهياً استعبدهم به، وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه، وأمرهم[4] بتوكلهم عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به، وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين، وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين[5][6].

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه، وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام[7] من مقاماته جزاءً معلوماً.

وجعل نفسه[8] جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال[9]: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٥][10]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾[11] [النساء: ٦٩]، ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾

---

(١) م، ح٢، ش (الله).

(٢) ب (قدراً).

(٣) ط (وأمراً ونهياً).

(٤) ق (وأمر).

(٥) (الصابرين) ساقط من ش.

(٦) (وكما يحب التوابين) سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٧) (ومقام) ساقط من غ، ب.

(٨) أ، غ (لنفسه).

(٩) في ق (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً).

(١٠) في ق (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) تكرار.

(١١) في ق (من النبيين).

[الطلاق:٣].

فانظر إلىٰ هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل علىٰ أن التوكل أقوىٰ السبل عنده وأحبها إليه، وليس كونه وكل الأمور إلىٰ نفسه [بمناف لتوكل العبد عليه؛ بل هذا تحقيق كون الأمور موكولة إلىٰ نفسه](١)؛ لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً(٢) علىٰ من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها البتة(٣) فهو لا يجد بُداً من اعتماده عليه، وتفويضه إليه، [واستناده إليه](٤) وثقته به من الوجهين: من جهة الفقر، وعدم ملكه شيئاً البتة، ومن جهة كون(٥) الأمر كله(٦) بيده وإليه، والتوكل ينشأ من هذين العلمين(٧).

فإن قيل: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكل المالك علىٰ ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلىٰ العامة، وبقي

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ.

(٢) ب (قصد).

(٣) (البتة) ساقط من ط.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ط، وفي ح٢ (إسناده).

(٥) (كون) ساقط من غ.

(٦) م (لله).

(٧) ب، م (العملين).

الخطاب قيل: لما كان الأمر كله لله[1] وليس للعبد فيه شيء البتة، كان توكله علىٰ الله تسليم الأمر إلىٰ من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه بالتوكل لهم دون الخاصة؟.

عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلىٰ تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه، وهذا مقصود التوكل.

أما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل[2] لها عن حقيقة العبودية، وأما توجه الخطاب به إلىٰ العامة فيا سبحان[3] الله! هل خاطب الله بالتوكل إلا خواصَّ خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلَّق علىٰ الشرط يُعدم[4] عند عدمه.

وهذا يدل علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكُّل له، لا إيمان له قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] وقال[5]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠] وقال[6]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ

---

(١) ق (عز وجل).

(٢) في غ، ب (عزلها).

(٣) ط (فسبحان).

(٤) في الأصل (عدم) والأقرب ما أثبته من ط.

(٥) في ط (تعالى).

(٦) في ط (تعالى).

إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وهذا يدل علىٰ انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر[١] عن رسله بأن التوكل ملجؤهم ومعاذهم، وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه [وقال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ[٢] ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤-٨٥][٣] فكيف يكون من أوهىٰ السبل، وهذا شأنه؟[٤].

فصل

درجات التوكل الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، كُلُّهَا تَسِيرُ مَسِيرَ العَامَّةِ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: التَّوَكُّلُ مَعَ الطَّلَبِ، ومُعَاطَاةُ السَّبَبِ عَلَىٰ نِيَّةِ شُغلِ[٥] النَّفْسِ[٦]، وَنَفْعِ الخَلقِ[٧] وتَرْكِ الدَّعوَىٰ»[٨].

يقول: إن صاحب هذه الدرجة متوكل[٩] علىٰ الله، ولا يترك الأسباب؛ بل

---

(١) ط (تعالى).

(٢) الأصل (مؤمنين)، والصحيح ما أثبته من ط، ق.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ش.

(٤) في ق (والله سبحانه وتعالى أعلم).

(٥) أ، ب، غ (تشغل).

(٦) في د (بالسبب مخافة) وهو خلاف ما في المنازل.

(٧) (ونفع الخلق) سقط من د.

(٨) منازل السائرين ٣٤.

(٩) ط (يتوكل).

يتعاطاها علىٰ نية شغل النفس بالسبب ، مخافة أن تفرغ فيشتغل[1] بالهوىٰ والحظوظ ، فإن من[2] لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضره ، لا سيما إذا كان الفراغ مع حدة[3] الشباب ، وملك الجِدَة ،[4] كما قيل:

إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجِدَة مَفسَدةٌ للمَرءِ أيُّ مَفْسدَة[5]

ويكون أيضاً قيامه بالسبب علىٰ نية نفع النفس ، ونفع الناس بذلك ، فحصل له نفع نفسه ونفع غيره.

وأما تضمن ذلك لترك الدعوىٰ: فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلص من إشارة الخلق إليه ، الموجبة لحسن ظنه بنفسه ، الموجب لدعواه ، فالسبب ستر لحاله ومقامه ، وحجاب مسبل[6] عليه.

ومن وجه آخر ، وهو أنه[7] يشهد به فقره وذله ، وامتهانه امتهان العبيد والفَعَلة[8] ، فيتخلص من رعونة[9] دعوىٰ النفس ، فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة

---

(١) ق ، ط (فتشتغل).

(٢) (من) ساقطة من ط.

(٣) ق (حدث).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وميل النفس إلى الهوى وتوالي الغفلات).

(٥) القائل أبو العتاهية . انظر أبو العتاهية أشعاره وأخباره ٤٤٨ .

(٦) أسبل: أرخى وأرسل ، لسان العرب ٦/ ٦٣.

(٧) ط (أن).

(٨) الفَعَلة: صفة غالبة على عملة الطين والحفر ونحوه ، ترتيب القاموس ٣/ ٥٠٦ ، لسان العرب ١٠/ ٢٩٢.

(٩) رعونة : الأرعن: الأهوج ، والرعونة الحمق ، والاسترخاء . لسان العرب ٥/ ٢٥٠ مختار الصحاح ٢٤٨.

الأسباب: سلم من هذه الأمراض[١].

فيقال: إذا كانت الأسباب مأموراً بها ففيها فائدة أجلُّ من هذه الثلاث، وهي المقصودة بالقصد الأول، وهذه مقصودة قصد الوسائل، وهي القيام بعبودية الأمر[٢] الذي خُلق له العبد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وُجدت الجنة والنار.

فالقيام بالأسباب المأمور بها: محض العبودية، وحق الله علىٰ عبده الذي[٣] توجهت به نحوه المطالب، وترتب عليه الثواب والعقاب[٤].

فصل

الدرجة الثانية

قال[٥]: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: التَّوكُّل مَعَ إِسقَاطِ الطَّلَبِ، وَغَضِّ العَينِ عَن السَّبَبِ، اجتِهَاداً لِتَصحِيحِ التَّوَكُّلِ، وَقَمْعاً لِشَرَف[٦] النَّفْسِ، وَتَفَرُّغاً إِلَىٰ حِفْظِ

---

(١) ويخشى على ذلك أن يُدل على الخلق بعمله فيرى أن له عليهم حقاً واجباً لمقام اشتغاله ببعض أعمال القلوب التي تمنعه عن التكسب وفي هذا من رقة الدين، وإطلاق الألسن عليه ما فيه، ويوشك أن يصير إلى زلة تكسر شوكته وتطامن من تعاليه، انظر في ذلك الوابل الصيب ٢٢، طريق الهجرتين ١٩٤.

(٢) جميع النسخ (بالعبودية والأمر).

(٣) ط (الذين).

(٤) ق (والله سبحانه أعلم).

(٥) (قال) سقط من أ، ب، غ.

(٦) في المنازل ٣٤: (وقمع تشرف).

الوَاجِبَاتِ»[١].

قوله : «مَعَ إِسقَاطِ الطَّلَبِ» أي من الخلق لا من الحق ، فلا[٢] يطلب من أحد شيئاً وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد ، فإن الطلب من الخلق في الأصل محظور ، وغايته أن يباح للضرورة ، كإباحة الميتة للمضطر ، ونص أحمد - رَضي الله عنه -[٣] علىٰ أنه لا يجب ، وكذلك كان شيخنا يشير إلىٰ[٤] أنه لا يجب الطلب والسؤال.

وسمعته[٥] يقول في السؤال:[٦] ظُلْم في حق الربوبية، وظلم في حق الخلق، وظلم في حق النفس.

أما في حق الربوبية فلما فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين[٧].

---

(١) منازل السائرين ٣٤.

(٢) أ ، غ ، ب (ولا).

(٣) (رضي الله عنه) في الأصل فقط.

(٤) الأصل (إليه) والأقرب ما أثبته من د.

(٥) ترد لفظة سمعت شيخ الإسلام أو قال شيخ الإسلام في كلمات ابن القيم وقد لا توجد في كتب شيخ الإسلام وهذا يُفهم منه أنها سماع من لفظه ، قال ابن القيم: « .. وأنا أذكر ما حصلته من جوابه بخطه ولفظه وما فتح الله لي بيمن إرشاده وبركة تعليمه وحسن بيانه وتفهيمه » ، أعلام الموقعين ١/ ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، وسماعه له أثناء الطلب انظر تلك المواضع في المدارج ١/ ٥٣، ٥٧ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٢/ ١٠ ، ١٠٥ ، ١٥٤، ١٥٦ ، ٢٢٣، ٣/ ٣٠ ، ٥٩ ، ٦٩.

(٦) في ط ، غ ، ب (هو).

(٧) د (والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه).

وأما في حق الناس: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم.

وأبغض ما إليهم: من يسألهم[1]، وأحب ما إليهم: من لا يسألهم، فإنّ أموالهم محبوباتهم، ومن سألك محبوبك[2] تعرض لمقتك وبغضك.

وأما[3] ظلم السائل[4] نفسه حيث[5] امتهنها[6]، وأقامها في[7] مقام ذل السؤال، ورضي لها بذل الطلب [ممن هو مثله أو لعل السائل خير منه وأعلىٰ قدراً، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل][8] وأهانها بذلك، ورضي أن يكون شحّاذاً من شحّاذٍ مثله، فإن من تشحذه فهو أيضاً شحّاذ[9] مثلك، والله وحده هو الغني[10].

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالىٰ كلما سألته

---

(١) (ما في أيديهم) سقط من الأصل، ش.

(٢) (فقد) فيما عدا الأصل، ش.

(٣) في الأصل (في) والأقرب حذفها كما في جميع النسخ.

(٤) في الأصل (لـ) والأقرب حذفها كما في جميع النسخ.

(٥) ق (فلأنه).

(٦) امتهنها: المَهْنة، المِهْنة، المَهَنة: الحذق بالحرفة والعمل ونحوه، وامتهنه: استعمله للمهنة، وامتهن نفسه: ابتذلها، لسان العرب ١٣/ ٢١٣.

(٧) (في) سقط من أ، ب، غ.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وهو في جميع النسخ.

(٩) أ، ب، غ (يشحذ).

(١٠) في ط (الحميد).

كَرُمت عليه، ورضي عنك، وأحبك، والمخلوق كلما سألته هُنتَ عليه وأبغضك[١] وقلاك، كما قيل:

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبُنَيُّ آدم حِينَ يُسأل يَغْضب[٢]

وقبيح بالعبد المريد: أن يتعرض لسؤال العبيد، وهو يجد عند مولاه كل ما يريد.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه - قال: كنا[٣] عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية، أو سبعة - فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟** وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا قد[٤] بايعناك يا رسول الله، ثم قال: **ألا تبايعون رسول الله؟** فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، **فَعَلامَ نُبايعك؟** قال[٥]: **أَنْ تعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شَيئاً**، قال: ولقد رأيت بعض أولئك النفر[٦] يسقط سَوْطُ أحدِهم فما يسأل أحداً[٧] يناوله إياه»[٨].

---

(١) (ومقتك) في جميع النسخ سوى الأصل، ش، م.

(٢) بيت الشعر: شعب الإيمان ٢/ ٣٥، تفسير ابن كثير ١/ ٢١، تفسير القرطبي ١/ ١٠٦، حادي الأرواح ٦٣.

(٣) ق (ولنا).

(٤) (قد) سقط من ب.

(٥) ط (فقال).

(٦) (النفر) سقط من ش.

(٧) في ط وبعض النسخ (أن) وليس في مسلم.

(٨) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢١) ح(١٠٤٣)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٤) ح(١٦٤٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩٦) رقم(٧٦٥٤).

وفي الصحيحين عن ابن عمر - رَضي الله عنهما - عَن النبي ﷺ قال: «لا تزالُ المسألةُ بأحدِكم حتَّىٰ يلقىٰ الله وليس في وَجْهه مُزْعَةُ لَحْم»[١].

وفيهما أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ قال - وهو علىٰ المنبر، وذكر الصَّدَقة والتعفف عن المسألة -: «اليَدُ[٢] العُلْيا خَيْرٌ من اليَد[٣] السُّفلىٰ»[٤].

واليد العليا: هي المنفقة، والسفلىٰ: هي السائلة[٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «من سَألَ الناس[٦] أموالهم[٧] تكثراً فإنما يَسأل جَمْراً، فليستقلّ أو لِيَسْتكثر»[٨].

---

(١) مسلم الزكاة (٢/ ٧٢٠) ح(١٠٤٠) بلفظه، ونحوه البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٧) ح(١٤٧٥) أحمد (٢/ ١٥ ـ ٨٨).

(٢) ط (واليد).

(٣) (اليد) سقط من ش.

(٤) البخاري. الزكاة (١/ ٤٤٢) ح(١٤٢٩)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٦) ح(١٠٣٣) أحمد (٢/ ٤٨٠).

(٥) هذه الزيادة في البخاري. الزكاة (١/ ٤٤٢) ح(١٤٢٩) من حديث ابن عمر، في مسلم (٢/ ٧١٦) ح(١٠٣٣).

(٦) (الناس) سقط من م.

(٧) (أموالهم) الأصل ومن بعض النسخ ومن ط والمثبت من ق ومسلم.

(٨) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٠) ح(١٠٤١)، أحمد (٢/ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩٦) ح(٧٦٥١).

وفي الترمذي عن سُمْرة بن جندب[1] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ **«إن المسألة كَدّ يَكُدُّ بها الرجل وَجْهه، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمر[2] لا بُدَّ منه»** قال الترمذي: حديث صحيح[3].

وفيه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً **«من أصابَتْه فاقَة فأَنْزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشِكُ الله بِرزق عاجلٍ أو آجِل»**[4].

وفي السنن والمسند عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تَكَفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئاً، أتكفَّل له بالجنة، فقلت: أنا»**[5] فكان لا

---

(١) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، من علماء الصحابة، نزل البصرة وله أحاديث صالحة، توفي سنة ٥٨هـ/ طبقات ابن سعد (٦/ ٣٤)، التاريخ الكبير (٤/ ٧٦)، المعارف (٣٠٥)، أسد الغابة (٢/ ٣٥٤)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٣).

(٢) في النسائي و ط (الأمر الذي) وفي غ، ب (في الأمر لا بدَّ منه).

(٣) الترمذي. الزكاة (٣/ ٥٦) ح(٦٨١)، وقال حسن صحيح، صحيح النسائي للألباني (٢/ ٢٢٩) ح(٢٥٩٨)، أحمد (٥/ ١٠) بلفظ المسائل، الطبراني في الكبير (٧/ ١٨٢)، وقال الهيثمي في المجمع رجاله ثقاة(٣/ ٩٧)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة إسناده قوي (٦/ ١٢٢).

(٤) أحمد (١/ ٤٠٧)، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٦٣) ح(٢٣٢٦) وقال حسن صحيح غريب، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٦) ح(١٦٤٥)، المستدرك (١/ ٤٠٨) وقال صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الألباني حسن لطرقه، المشكاة (١/ ٥٨٠) ح(٨٥٢).

(٥) أحمد (٥/ ٢٧٦)، أبو داود (٢/ ٢٩٥) ح(١٦٤٣) بنحوه صحيح النسائي للألباني (٢/ ٢٢٥) ح(٢٥٨٩)، وصحيح ابن ماجه للألباني (١/ ٣٠٨) ح(١٨٣٧)، وقال الحاكم في المستدرك: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١/ ٥٧١).

يسأل أحداً شيئاً.

وفي صحيح مسلم عن قبيصة(١) ـ رَضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: **«أن المسألة لا تحِلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجلٌ تحمَّل حمالةً، فحلت له المسألة حتىٰ يُصيبَها ثم يُمْسك، ورجلٌ أصابته جائِحةٌ اجتاحَتْ ماله، فحلت له المسألة حتىٰ يصيبَ قِواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أَصَابَتْه فَاقَةٌ حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحِجَىٰ من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قِواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة فَسُحْتٌ يأكلها صاحبها سُحْتاً»**(٢).

فالتوكل مع إسقاط هذا الطلب والسؤال هو(٣) محض العبودية.

حديث آخر عن الأسباب وصلتها بالتوكل

قوله: **«وَغَضُّ العَينِ عَنِ السَّبَبِ(٤)، اجتِهَاداً فِي تَصحِيحِ التَّوَكُّلِ»**.

معناه: أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب، لتصحيح(٥) التوكل بامتحان النفس؛ لأن المتعاطي(٦) للسبب قد يظن أنه حَصَّل التوكل،

---

(١) قبيصة بن مخارق، قدم إلى الرسول ﷺ في وفد بني هلال بن عامر وله حديث في الصدقات/ البداية والنهاية (٥/ ٩٢)، الإصابة (٥/ ٢٢٧)، تهذيب التهذيب (٨/ ٣٠٥).

(٢) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٢) ح(١٠٤٤)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٠) ح(١٦٤٠)، صحيح النسائي. الزكاة (٢/ ٢٢١) ح(٢٥٧٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢١) رقم(١٢٩٦٣).

(٣) غ (عن) وهامش ب (لعله خروج).

(٤) (التسبب) والصحيح ما أثبته من المنازل (٣٤).

(٥) في أ، غ، ب (لصحيح).

(٦) الأصل، ش (التعاطي) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ و ط.

ولم يحصله[1] لثقته بعلومه ، فإذا أعرض عن السبب صح له التوكل.

وهذا الذي أشار إليه: مذهب قوم من العباد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ، ويرىٰ حمل الزاد قدحاً في التوكل ، ولهم في ذلك حكايات مشهورة[2] وهؤلاء في خفارة[3][4] صدقهم ، وإلا فدرجتهم ناقصة عند[5] العارفين ، ومع هذا فلا[6] يمكن بشراً البتة[7] ترك الأسباب جملة.

فهذا إبراهيم الخواص[8] - رحمه الله -[9] كان[10] مجرداً[11] في التوكل يدقق

---

(١) م (ولم يحصل له).

(٢) الحث على التجارة ص١٤٢ كتاب الثِّقات لابن حبان ٨/ ٢٦٩ ، التوكل على الله/ رسالة الدميجي ١٦٨ ، الرسالة القشيرية ٢٦٧.

(٣) ق (حقارة).

(٤) خفارة : (الخفير: المجير والمعين ، وأخفره نقض عهده) ومن معانيه بعث معه خفيراً ، مختار الصحاح (٨٢).

(٥) أ ، غ ، ب ، ط (عن).

(٦) ش (ذلك) بدل (فلا).

(٧) (البتة) سقط من أ ، ح٢

(٨) إبراهيم بن أحمد الخواص ، أبو إسحاق ، من أشهر المشايخ ، ومن أقران الجنيد والثوري ، له مقامات في التوكل وفعل الأسباب ، توفي سنة ٢٩١هـ تاريخ بغداد (٦/ ٧) ، حلية الأولياء (١٠/ ٣٤٧) ، طبقات الأولياء ٤٧.

(٩) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(١٠) (كان) سقطت من غ ، ب.

(١١) الأصل (محرراً) والأصل ما أثبته من بقية النسخ وهو موافق لما في الرسالة القشيرية (٢٦٦).

فيه ويدخل البادية بغير زاد، وكان لا تفارقه الإبرة[1] والركوة[2] والمقراض.

فقيل له: لم تحمل هذا، وأنت تمنع من كل شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقص[3] التوكل، لأن لله تعالىٰ[4] علينا فرائض، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد، فربما تخرق ثوبه، فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه[5] صلاته، وإذا لم يكن معه رَكْوة فسدت عليه طهارته، وإذا رأيت الفقير بلا[6] ركوة ولا إبرة ولا[7] خيوط فاتّهمه في صلاته[8].

أفلا تراه لم يستقم[9] له دينه إلا بالأسباب؟ أو[10] ليست حركة أقدامه ونقلها في الطريق والاستدلال علىٰ أعلامها - إذا خفيت عليه - من الأسباب؟.

فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً[11].

---

(١) في ط (الخيط).

(٢) الركوة التي للماء مختار الصحاح (٢٦٧).

(٣) في ط (من).

(٤) (تعالى) في الأصل فقط.

(٥) (عليه) سقط من غ، ب.

(٦) د (عار عن هذه الأشياء).

(٧) (لا) سقطت من ق.

(٨) الرسالة القشيرية ٢٦٧، وانظر قصة أبي سعيد الخراز في المقدمة في التصوف ٤٤ للسلمي.

(٩) ب (لا يستقيم).

(١٠) في الأصل (وليست) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط وفي ش (ولولا حركة).

(١١) انظر طريق الهجرتين ٢٩٠، الفتاوى ١٠/ ٣٦.

نعم[١] قد تعرض[٢] للصادق أحياناً قوة ثقة بالله ، وحال مع الله تحمله علىٰ ترك كل سبب غير[٣] مفروض عليه ، كما تحمله علىٰ إلقاء نفسه في مواضع الهلكة ، ويكون ذلك الوقت بالله لا به ، فيأتيه مدد من الله علىٰ مقتضىٰ حاله ، ولكن لا يدوم[٤] له هذا[٥] الحال ، وليست في مقتضىٰ الطبيعة فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها ، فإذا استدعىٰ مثلها وتكلفها لم يُجَب إلىٰ ذلك ، وفي تلك الحال: إذا ترك السبب يكون معذوراً لقوة الوارد ، وعجزه عن الاشتغال بالسبب[٦] ، فيكون في وارده عون له ويكون حاملاً له ، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال[٧][٨].

وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تحكىٰ عن القوم فهي جزئية حصلت لهم

---

(١) (نعم) سقط من م.

(٢) د (تعترض).

(٣) (غير) ساقطة من ط.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (تدوم).

(٥) ش ، ط (هذه).

(٦) (السبب) سقط من غ.

(٧) الأصل (الحال) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٨) قال شيخ الإسلام: « .. وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أُمر به فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى مما كان به من التوكل » ، الفتاوى ١٠/ ٤٩١. وقال ابن القيم في طريق الهجرتين: «..فالكمال مع قيامه ، هو تنزيل الأسباب منازل علمٍ وعملٍ لا الإعراض عنها و محوها.. » ، ٢٩٥ وقال شيخ الإسلام في الرد على من عطل الأسباب واحتج بالقدر: « ليس كون الأمور مقدرة يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة » ، الفتاوى ١٠/ ٢٢.

أحياناً، ليست طريقاً مأموراً بسلوكها، ولا مقدورة، وصارت فتنة لطائفتين.

طائفة ظنتها طريقاً ومقاماً، فعملوا عليها، فمنهم من انقطع، ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها[(١)].

وطائفة قَدحوا في أربابها، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل، مدعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه، إذ لم يكن فيهم أحد قط فعل[(٢)] ذلك، ولا أخل بشيء من الأسباب، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعين يوم أحد[(٣)]، ولم يحضر الصف قط عرياناً[(٤)]: كما يفعله من لا علم عنده[(٥)] ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه[(٦)]، يدله على طريق الهجرة وقد هدىٰ الله به العالمين[(٧)] وكان يدَّخر لأهله قوتَ سنة[(٨)] وهو سيد

---

(١) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (بل انقلب على عقبيه).

(٢) ط (يفعل) وفي ق (على).

(٣) أحمد (٣/ ٤٤٩)، أبو داود (٣/ ٧١) ح(٢٥٩٠)، الحاكم (٣/ ٢٨) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٠٨) رجاله رجال الصحيح.

(٤) المقصود من العري هنا: عدم أخذ الحيطة بالأسلحة.

(٥) ش (له).

(٦) البخاري. المناقب (٣/ ٦٨) ح(٣٩٠٥)، وعبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٩١)، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١١٨)، وفي سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٥).

(٧) جميع النسخ، ط (وعصمه من الناس أجمعين).

(٨) البخاري. النفقات (٣/ ٤٢٥) ح(٥٣٥٧)، مسلم. الجهاد والسير (٤/ ١٣٧٦) ح(١٧٥٦)، الترمذي. الجهاد (٤/ ٢١٦) ح(١٧١٩).

المتوكلين، وكان إذا سافر في جِهاد أو حج أو عمرة حمل معه[1] الزاد والمزاد[2]، وجميع أصحابه.

وهم أهل[3] التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم[4]: [5]من اشتم[6] رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثراً من غبارهم[7] فأحوال القوم[8] مِحكُّ الأحوال وميزانها، بها يعلم صحيحها من سقيمها، فإن هممهم[9] كانت في التوكل أعلىٰ من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح[10] القلوب[11] والبلاد، [وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق علىٰ قلوب العباد][12]، فملؤوا بذلك التوكّلِ القلوبَ هدىً وإيماناً.

---

(١) (معه) سقط من ط.

(٢) المزاد: الراوية. مختار الصحاح ٢٨٠.

(٣) جميع النسخ (أولوا) سوى الأصل، ش.

(٤) ش (من بعدهم).

(٥) في ط (هو).

(٦) ب (شم).

(٧) الأصل، ش (أثر غباره) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٨) بقية النسخ (فحال النبي ﷺ وحال أصحابه) سوى الأصل، ش.

(٩) الأصل (كانت هممهم) والأقرب ما عدلته من بقية النسخ.

(١٠) ط زيادة (بصائر).

(١١) في بقية النسخ (أن يعبد الله في جميع البلاد) سوى الأصل، ش.

(١٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل و ش، وهو في بقية النسخ.

وفتحوا به[١] بلاد الكفر وجعلوها ديار[٢] إيمان[٣] ، فكانت همم الصحابة - رضي الله عنهم - أعلىٰ وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده علىٰ الله في شيء يحصل بأدنىٰ حيلة وسعي ، فيجعله نُصب عَيْنيه ، ويَحمل عليه قِوىٰ توكُّله.

قوله: «وَقَمْعاً لِشَرَفِ النَّفْسِ» يريد: أنّ المتسبب بالولايات[٤] الشريفة في العبادة ، أو التجارات الرفيعة ، والأسباب التي له بها جاه وشرف في الناس ، فإذا تركها يكون تركها قمعاً لشرف نفسه ، وإيثاراً للتواضع.

وقوله: «وَتَفَرُّغاً لِحِفْظِ الوَاجِبَاتِ» أي يتفرغ بتركها لحفظ واجباته[٥] التي تزاحمها تلك الأسباب[٦].

* * *

(١) (به) سقطت من ق.

(٢) ط ، ق (دار)

(٣) بقية النسخ سوى الأصل ، ش (وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً)

(٤) ق (لِبولايات).

(٥) أ ، غ ، ب (واجباتها).

(٦) ق (والله أعلم).

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : التَّوَكُّلُ مَعَ مَعرِفَةِ التَّوَكُّلِ ، النَّازِعَةُ إِلىٰ الخَلَاصِ مِن عِلَّةِ التَّوكُّل[1] ، وَهُوَ[2] أَن يَعلَمَ أَنَّ مَلَكَةَ الحَقِّ تَعَالىٰ لِلأَشيَاءِ هِيَ مَلَكَةُ عِزَّةٍ لاَ يُشَارِكُهُ فِيهَا مُشَارِكٌ ، فَيَكِلُ شِرْكَتَهُ إِلَيهِ ، فَإِنَّ مِن ضَرُورَةِ العُبودِيَّةِ: أَن يَعلَمَ العَبدُ أَنَّ الحَقَّ[3] هُوَ مَالِكُ الأَشيَاءِ[4] وَحدَهُ»[5].

يريد أن صاحب هذه الدرجة متىٰ قطع الأسباب والطلب ، وتعدىٰ تلك[6] الدرجتين ، فتوكُّله فوق توكّل من قبله ، وهو إنما[7] يكون بعد معرفته بحقيقة التوكل، [وأنه دون مقامه، فتكون معرفته به وبحقيقته نازعة - أي باعثة وداعية - إلىٰ تخلصه من علة التوكل][8].

أي لا يعرف علة التوكل حتىٰ[9] يعرف حقيقته، فحينئذ يعرف التوكل[10]

---

(١) انظر توضيح ذلك في طريق الهجرتين (٢٩٢).

(٢) الأصل ، ش ، ط (وهي) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، وهو الموافق للمنازل (٣٤).

(٣) ق (سبحانه).

(٤) الأصل، ش (للأشياء) والصحيح ما أثبته من م، أ ، غ ، ح٢، ب و ط وهو موافق للمنازل ٣٤.

(٥) منازل السائرين ٣٤.

(٦) ط (تينك).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (أن يكون).

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٩) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (به).

(١٠) ش ، ق (المتوكل).

المعرفة التي تدعوه إلىٰ التخلص من عِلَّته.

ثم بيّن المعرفة التي يعلم بها علة التوكل ، فقال: «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَلَكَةَ الحَقِّ لِلأَشْيَاءِ مَلَكَةُ عِزَّةٍ**» أي ملكة امتناع وقوة وقهر ، يمنع[1] أن يشاركه في ملكه لشيء من الأشياء مشارك ، [فهو العزيز في ملكه ، الذي لا يشاركه غيره في ذرة منه ، كما هو المنفرد بعزته التي[2] لا يشاركه فيها مشارك][3].

فالمتوكل يرىٰ أن له شيئاً قد وكل الحق فيه ، وأنه سبحانه صار وكيله عليه ، وهذا مخالف لحقيقة الأمر ، إذ ليس لأحد من الأمر مع الله تعالىٰ[4] شيء ، فلهذا[5] قال: «**لاَ يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ ، فَيَكِلُ شِركَتَهُ إِلَيهِ**» فلسان الحال يقول: لمن جعل الربَّ تعالىٰ وكيله: في ماذا وكلت ربك؟ أفيما[6] له وحده؟ أو لك وحدك؟ أو بينكما؟ فالثاني والثالث ممتنع بتفرده بالملك وحده والتوكيل في الأول ممتنع ، فكيف توكله فيما ليس لك[7] منه شيء البتة؟.

فيقال هاهنا أمران: توكل ، وتوكيل ، فالتوكل: محض الاعتماد والثقة ،

---

(١) ش ، ط (تمنع) ، وفي أ (المنع).

(٢) ش (الذي).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٤) (تعالى) في الأصل فقط.

(٥) ق (ولهذا).

(٦) ق (فيما).

(٧) د ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (له).

والسكون إلىٰ من له الأمر كله، وعلم العبد بتفرد الحق سبحانه(١) بملك الأشياء كلها، وأنه(٢) ليس له مشارك في(٣) ذَرَّةٍ من ذرات الكون: من أقوىٰ أسباب توكله وأعظم دواعيه.

فإذا تحقق ذلك علماً ومعرفة وباشر قلبه حالاً: لم يجد بُداً من اعتماد قلبه علىٰ الحق وحده، وثقته به، وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده، لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته، وجميع مصالحه(٤) بيديه(٥) وحده، لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصاً من التوكل بعد هذا؟.

فعلَّة التوكل حينئذ: التفات قلبه إلىٰ من ليس له شركة في ملك الحق، ولا يملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، هذه علة توكله، فهو يعمل علىٰ خلاص(٦) توكله من هذه العلة.

نعم ومن علة أخرىٰ وهي(٧)رؤية توكله، فإنه التفات إلىٰ عوالم نفسه.

وعلة ثالثة: وهي صرف قوة توكله إلىٰ شيء غيره أحب إلىٰ الله منه.

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط (تعالى وحده).

(٢) ق (أو أنه).

(٣) (في) سقط من ش.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، ش، ق (كلها).

(٥) ق (بيده).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (تخليص).

(٧) ب (من).

فهذه العلل الثلاث[1]: هي علل التوكيل.

وأما التوكل: فليس المراد منه إلا مجرد التفويض، وهو[2] من أخص مقامات العارفين، كما كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك**»[3].

وقال تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤] فكان جزاء هذا التفويض قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر:٤٥] فإن كان التوكل معلولاً بما ذكره، فالتفويض أيضاً كذلك، وإنْ ليس[4] فليس.[5]

ولولا أن الحق لله ورسوله، وأن كل ما عدا الله ورسوله، فمأخوذ من قوله ومتروك، وهو عرضةُ الوهم والخطأ: لما اعترضنا علىٰ من لا نلحق غبارهم، ولا نجري معهم في مضمارهم، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان، ومنازل السائرين، كالنجوم الدراري، ومن كان عنده علم فليرشد[6] إليه، ومن رأىٰ

---

(١) ق سقط من (أ، غ، ب).

(٢) ش (وهي)، غ (وهذا).

(٣) البخاري. الدعوات (٤/ ١٥٥) ح(٦٣١١)، مسلم. الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٨١) ح(٢٧١٠)، الترمذي. الدعاء (٥/ ٤٦٨) ح(٣٣٩٤).

(٤) جميع النسخ و ط (وليس) والأقرب ما أثبته من ش.

(٥) انظر تعليق ابن القيم على هذه المسألة في طريق الهجرتين ٢٩٣.

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (فليرشدنا).

في كلامنا زيغاً وخطأً(١)، فليهد إلينا الصواب، نشكر له سعيه، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم، والله(٢) الموفق.

* * *

(١) د، ق (أو نقصاً أو خطأً).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (أعلم وهو).

فصل[1]

منزلة التفويض

و[2] من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «التفويض»[3].

قال صاحب «المنازل»:

«وَهُوَ أَلْطَفُ إِشَارَةٍ ، وَأَوْسَعُ مَعنَىً مِن التَّوكُّلِ ، فَإِنَّ التَّوكُّلَ بَعدَ وُقُوعِ السَّبَبِ ، وَالتَّفْوِيضَ قَبلَ وُقُوعِهِ وَبَعدَه ، وَهُوَ عَينُ الاستِسْلَامِ ، وَالتَّوكُّلُ شُعْبَةٌ مِنْهُ»[4].

تعريف التفويض وأدلته

يعني أن المفوض يتبرأ من الحول والقوة ، ويفوض الأمر لصاحبه ، من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه ، بخلاف التوكّل ، فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكل[5].

---

(١) في هامش الأصل ، ش (باب منزلة التفويض).

(٢) ق سقطت (الواو).

(٣) هو كلة الأمور كلها قبل الوقوع وبعده إلى مجريها ، علماً بأنه أعلم بمصالحنا وأرحم ، وفيها براءة من دعوى الملكية ، وفيها سكون القلب إلى المقضي ، وقال أبو عثمان الحيري: «التفويض: رد ما جهلت علمه إلى عالمه والتفويض مقدمة الرضا ، والرضا باب الله الأعظم ، وهو مع الكسب أفضل من خلوه منه ، وهو عندهم الانسلاخ عن التدبير والاختيار» ، انظر هذه الأقوال في: طبقات الصوفية ١٧٤ - ٣٦٩ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٣٨ ، معجم مصطلحات الصوفية ٤٦.

(٤) منازل السائرين ٣٤ و المطبوع ١٣٧ .

(٥) طريق الهجرتين ٢٤٤ ، وانظر ما سبق من مراجع تعريف التفويض عند أصحاب الطريق.

فالتفويض: براءة وخروج من الحول والقوة، وتسليم الأمر كله إلىٰ مالكه.

فيقال: وكذلك[١] التوكل أيضاً، وما قَدَحْتُمْ به في التوكل يرد عليكم نظيره في التفويض سواء، فإنّك كيف تفوض شيئاً لا[٢] تملكه البتة إلىٰ مالكه؟ وهل يصح أن يفوض واحد من آحاد الرعية المُلْك إلىٰ ملك[٣] زمانه؟.

فالعلة إذاً في التفويض أعظم منها[٤] في التوكل؛ بل لو قال قائل: التوكل فوق التفويض، وأجَلّ منه وأرفع، لكان مصيباً، ولهذا[٥] القرآن مملوء به أمراً، وإخباراً عن خاصة[٦] الله وأوليائه، وصفوة[٧] المؤمنين، بأن حالهم التوكل[٨]، وأمر الله به رسوله في أربعة مواضع من كتابه[٩].

---

(١) الأصل (لذلك) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٢) (لا) سقطت من ش.

(٣) ق (مالك).

(٤) أ، غ، ب (منه).

(٥) في ط (كان).

(٦) (خاصة) سقطت من ق.

(٧) في الأصل (وصفوته) والأقرب ما أثبته من أ، ح٢، د، ق و ط.

(٨) (التوكل) ساقطة من الأصل، ش وما أثبته من بقية النسخ.

(٩) بل في مواضع كثيرة منها ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ [آل عمران:١٥٩] وقوله: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله﴾ [النساء:٨١] وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [هود:١٢٣] وقوله: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ [الفرقان:٥٨].

وسماه «المتوكِّل» كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو[(١)] - رضي الله عنهما - قال: «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: محمد رسول الله، سميته المتوكل، ليس بِفَظٍّ، ولا غليظ، ولا سخَّاب[(٢)] في[(٣)] الأسواق»[(٤)].

وأخبر عن رسله بأن حالهم كان التوكل، وبه انتصروا علىٰ قومهم، وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم أهل مقام التوكل[(٥)].

ولم يجئ التفويض في القرآن إلا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون من قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤] وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتخذه وكيلاً، فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾][(٦)] [المزمل: ٩].

وهذا يبطل قول من قال من جهلة القوم: إن توكيل الرب فيه[(٧)] جَسارة علىٰ الباري؛ لأن التوكيل[(٨)] يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكل، وذلك عين

(١) ط (عمر) والصحيح ما أثبته من الأصل والبخاري وأحمد رحمهما الله.

(٢) سخاب: السخب هو الصياح لسان العرب (١/ ٤٦٢).

(٣) ق، ط (بالأسواق) والصحيح ما أثبته من الأصل وبقية النسخ وهو موافق لما في البخاري (٢/ ٩٦) ح(٢١٢٥).

(٤) تقدم تخريجه ص ١٧٧٦.

(٥) حديث السبعين ألفاً أخرجه البخاري. الطب (٤/ ٣٧) ح (٥٧٠٥)، مسلم. الإيمان (١/ ١٩٩) ح (٢٢٠)، أحمد (١/ ٢٧١)، وتقدم بعضه ص١٧٣٤.

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ح٢.

(٧) (فيه) سقطت من أ، ب، غ، م.

(٨) م، ب، غ، د، ق (التوكل)

الجسارة.

قال: ولولا أن الله أباح ذلك وندب إليه، لما جاز للعبد تعاطيه.

وهذا من أعظم الجهل، فإن اتخاذه وكيلاً هو محض العبودية، وخالص التوحيد، إذا قام به(١) صاحب الحقيقة.

ولله درُّ سيد(٢) القوم، وشيخ(٣) الطائفة سهل بن عبدالله التستري، إذ يقول: العلم كله بابٌ من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد(٤) كله باب من التوكل(٥) فالذي نذهب إليه: أن التوكل أوسع من التفويض، وأعلىٰ وأرفع.

قوله: «فَإِنَّ التَّوَكُّلَ بَعدَ وُقُوعِ السَّبَبِ، وَالتَّفوِيضَ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَبَعدَهُ».

يعني بالسبب(٦): الاكتساب، فالمفوض قد فوض أمره(٧) قبل اكتسابه وبعد اكتسابه(٨)، والمتوكل قد قام بالسبب، وتوكل فيه علىٰ الله، فصار التفويض أوسع.

---

(١) (به) سقطت من ق.

(٢) أ، ب (شيخ).

(٣) أ، ب (سيد).

(٤) (كله) سقطت من د، ق.

(٥) منارات السائرين ومقامات الطائرين ٢٦٦، عوارف المعارف ٥٤٠، ونحوه في حلية الأولياء ٢٠٦/١٠.

(٦) ش (الأسباب).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب (إلى الله).

(٨) ط (وبعده).

فيقال: والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده، فيتوكل علىٰ الله[1] أن يقيمه في سبب يوصله إلىٰ مطلوبه، فإذا أتمه توكل علىٰ الله في حصول ثمرته[2]، فيتوكل علىٰ الله قبله ومعه وبعده.

فعلىٰ هذا: هو أوسع من التفويض علىٰ ما ذكر.

قوله: «وَهُوَ عَيْنُ الاستِسْلامِ» أي: التفويض عين الانقياد بالكلية إلىٰ الحق سبحانه، ولا يبالي أكان ما يقضي له الخير، أم خلافه؟ والمتوكل يتوكل علىٰ الله في مصالحه.

وهذا القدر هو الذي لحَظَهُ[3] القوم في هضم مقام التوكل، ورفع مقام التفويض عليه، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن المفوض لا يفوض أمره إلىٰ الله إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له[4] في معاشه ومعاده، وإن كان المقضيُّ له خلاف ما يظنه خيراً، فهو راض به؛ لأنه يعلم أنه خير له، وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه وهكذا حال المتوكل سواء، بل[5] أرفع من المفوض؛ لأن معه من عمل القلب ما ليس

---

(١) (لفظ الجلالة) سقطت من أ.

(٢) ط (ثمراته).

(٣) (لحظه) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) (له) سقطت من أ، ب.

(٥) أ، ب، غ (هو).

مع المفوض[1]، فالمتوكل مفوض وزيادة، فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض، فإنه إذا فوَّض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوّض أمره إلىٰ رجل، وجعله إليه، فإنه يجد من نفسه - بعد تفويضه - اعتماداً خاصاً[2]، وسكوناً وطمأنينة إلىٰ المفوض إليه أكثر مما كان قبل التفويض، وهذا هو حقيقة التوكل.

الوجه الثاني: أن أهم مصالح المتوكل: حصول مراضي محبوبه ومحابه، فهو يتوكل عليه في تحصيلها له، فأي مصلحة أعظم من هذه[3].

وأما التفويض: فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلىٰ الله، فإنه لا يفوض إليه محابه، والمتوكل يتوكل عليه في محابه.

والوهم إنما دخل[4] حيث يظن الظان: أن التوكل مقصور علىٰ معلوم الرزق، وقوة البدن، وصحة الجسم، ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة إلىٰ التوكل في إقامة الدين والدعوة إلىٰ الله.

درجات التفويض: الدرجة الأولى

قال: «**وَهُوَ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ، الأُولىٰ**[5]: **أَن يَعْلَمَ**[6] **أَنَّ العَبدَ لَا يَملِكُ قَبلَ عَمَلِهِ**

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (فإن).

(٢) م (خالصاً).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (هذه).

(٤) ط (من).

(٥) ط (الأول) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ والمنازل ٣٥ وهي ساقطة من غ.

(٦) المنازل (تعلم).

استِطَاعَةً ، فَلَا يَأْمَنُ مِنْ مَكرٍ ، وَلَا يَيْأَسُ مِن مَعُونَةٍ وَلَا يُعَوِّلُ عَلَىٰ نِيَّةٍ»[1].

أي يتحقق أن استطاعته بيد الله ، لا بيده ، فهو مالكها دونه ، فإن[2] لم يُعْطِهِ الاستطاعة فهو عاجز ، فهو[3] لا يتحرك إلا بالله ، لا بنفسه ، فكيف يأمن المكر ، وهو ألا[4] يحركه من حركته بيده بل[5] يثبطه ويقعده مع القاعدين ، كما قال فيمن منعه من[6] هذا التوفيق: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[التوبة:٤٦].

فهذا مكر[7] الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه ، ويخلي بينه وبين نفسه ، ولا يبعث دواعيه ولا يحركه إلىٰ مرضاته[8] و محابه، وليس هذا حقاً عليه[9] يكون[10]

---

(١) منازل السائرين (٣٥).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فإنه إن لم).

(٣) ق (ولا يتحرك).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (وهو محرَّك لا محرِّك) و ط كذلك.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فإن شاء ثبطه وأقعده) وفي ق (وإن شاء).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب سقطت (من).

(٧) المكر: صفة من صفات الله تعالى الفعلية التي لا يوصف بها على جهة الإطلاق ؛ بل لا بد من التقييد ، انظر في بيان ذلك: غريب الحديث للحربي ١/ ٩٤ ، التدمرية ٢٦ ، مختصر الصواعق ٢/ ٣٢ ، المجموع الثمين لابن عثيمين ٢/ ٦٥.

(٨) أ (مراضيه).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (على الله).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فيكون).

ظالماً بمنعه ؛(١) بل هو مجرد فضله الذي يحمد(٢) علىٰ بَذْلِهِ لمَن بَذَلَه(٣) ، وعلىٰ مَنْعِهِ لمَن مَنَعَه إياه ، فله الحمد علىٰ هذا(٤) وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر ، وانجلت له إشكالات كثيرة ، فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه ، فيمنعه فعل نفسه به ، وهو توفيقه

لا أنه(٥) يكرهه ، ويقهره علىٰ فعل مساخطه ؛ بل يَكِلُه إلىٰ نفسه وَحَوْله وقوته ، ويتخلىٰ عنه فهذا هو المكر.

قوله: «وَلَا يَيْأَسُ مِن مَعُونَةٍ» يعني إذا كان المحرك له هو الرب جلّ جلاله ، وهو أقدر القادرين ، وهو الذي تفرد بخلقه ورزقه ، وهو أرحم الراحمين ، فكيف ييأس من معونته له؟.

قوله: «وَلاَ يُعَوِّلُ عَلىٰ نِيَّةٍ» أي لا يعتمد علىٰ نيته وعزمه ، ويثق بها ، فإن نيته وعزمه بيد(٦) الله(٧) لا بيده ، وهي إلىٰ الله لا إليه ، فلتكن ثقته بمن هي في يده

---

(١) في غ ، ب ، أ (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) و ط مع حذف (عن ذلك).

(٢) ط (يحمده).

(٣) ق (له).

(٤) ح٢ (وعلى هذا).

(٥) أ ، ب ، غ (لأنه).

(٦) غ (بيدي).

(٧) ق (تعالى).

حقاً[١]، لا بمن هي جارية عليه حكماً.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مُعَايَنَةُ الاضْطِرَارِ: فَلَا يَرَىٰ[٢] عَمَلاً مُنْجِياً، وَلاَ ذَنْباً مُهْلِكاً، وَلاَ سَبَباً حَامِلاً»[٣].

أي يعاين فقره وفاقته وضرورته التامة إلىٰ الله، بحيث[٤] يرىٰ في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة، وفاقة تامة إلىٰ الله، فنجاته إنما هي بالله لا بعمله.

وأما قوله: «وَلاَ ذَنْباً مُهْلِكاً» فإنْ أراد به أنّ هلاكه بالله، لا بسبب ذنوبه فباطِل، معاذ الله من ذلك، وإنْ أراد به: أنّ فضل الله وسعت[٥] مغفرته ورحمته، ومشاهدة شدة ضرورته وفاقته إليه: يوجب له[٦] أن لا يرىٰ ذنباً مهلكاً، فإن افتقاره وفاقته وضرورته إلىٰ الله[٧] يمنعه[٨] من الهلاك بذنوبه؛ بل تمنعه من

---

(١) (حقاً) سقطت من غ.

(٢) منازل السائرين ٣٥ (ترى).

(٣) منازل السائرين ٣٥.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د (إنه).

(٥) ط (وسعته ومغفرته).

(٦) (له) سقط من ش.

(٧) (إلى الله) سقط من ق، ط.

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (تمنعه) وفي د (تمنع).

اقتحام الذنوب المهلكة ، إذ صاحب هذا المقام لا يصر علىٰ ذنوب تهلكه ، وهذا حاله فهذا حق ، وهو من مشاهد أهل المعرفة.

وقوله: «وَلاَ سَبَباً حَامِلاً» أي يَشْهد: أن الحامل له هو الحق تعالىٰ ، لا الأسباب التي يقوم بها ، فإنه وإيّاها محمولان بالله وحده.

فصل

قال[1]: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: شُهُودُ[2] انفِرَادِ الحَقِّ بِمِلْكِ الحَرَكَةِ وَالسُّكونِ ، وَالقَبْضِ وَالبَسطِ ، وَمَعرِفَتِهِ بِتَصْرِيفِ التَّفْرِقَةِ وَالجَمعِ»[3].

هذه درجة تتعلق بشهود وصف الله[4] وشأنه ، والتي قبلها تتعلق بشهود حال العبد ووصفه ، أي يشهد حركات العالم وسكونه صادرة عن الحق تعالىٰ في كل متحرك وساكن ، فيشهد تعلق الحركة باسمه «الباسط» ، وتعلق السكون باسمه «القابض»[5] فيشهد تفرده سبحانه بالبسط والقبض.

---

(١) (قال)سقط من ق.

(٢) منازل السائرين (شهودك) ٣٥ .

(٣) منازل السائرين ٣٥ ، التفرقة والجمع: تقدم بحثها ص١٧١٠ ، وانظر الفتاوى ١٠/ ٢٨.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د (تبارك وتعالى) ، ح٢ (تعالى).

(٥) اسم الباسط القابض فيه حديث أنس « أن الله هو المسعر.. القابض الباسط.. » ، أحمد (١٥٦ ـ ٢٨٦) أبو داود. البيوع (٣/ ٧٣١) ح(٣٥٤) ، الترمذي. البيوع (٣/ ٥٩٦) ح(١٣١٤) ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه. التجارات (٢/ ٧٤١) ح(٢٢٠٠) وصححه الألباني انظر صحيح ابن ماجه (٢/ ١٤) ح(٢٢٠٠) ، وفي صحيح الجامع رقم (٨٤٦) وممن أثبته الوليد

وأما « مَعرِفَتُه بِتَصرِيفِ التَّفرِقَةِ وَالجَمعِ » أن[1] يكون المُشاهد[2] عارفاً بمواضع التفرقة والجمع ، والمراد بالتفرقة: نظر الاعتبار ، ونسبة الأفعال إلىٰ الخلق.

والمراد بالجمع: شهود[3] الأفعال منسوبة إلىٰ مُوجِدِها الحق[4].

وقد يريدون بالتفرقة والجمع: معنىٰ وراء هذا الشهود ، وهو حال التفرقة والجمع.

فحال التفرقة : تفرق القلب في أودية الإرادات وشعابها ، وحال الجمع: جمعيته علىٰ مراد الحق وحده. فالأول: علم التفرقة والجمع ، والثاني: حالهما[5].

* * *

ابن مسلم وعبدالملك الصنعاني وابن منده والأصبهاني وابن حزم وابن العربي والبيهقي وابن عثيمين ، انظر رسالة عبدالله الغصن في أسماء الله الحسنى ٣٣٣.

(١) ق (أي) ، و ط (فإن).

(٢) ق (الشهد).

(٣) أ ، ب ، غ (بشهود).

(٤) ط (تعالى).

(٥) م ، أ ، غ ، ب ، ق (والله أعلم) وفي د (والله تعالى أعلم) وفي ح٢ (والله سبحانه وتعالى أعلم).

فصل [1]

منزلة الثقة بالله

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الثقة[2] بالله[3]».

قال صاحب «المنازل» :

«الثِّقَةُ : سَوَادُ عَينِ التَّوَكُّلِ ، وَنُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ ، وَسُوَيدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ»[4].

وصدر الباب[5] بقوله تعالىٰ لأمّ موسىٰ : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص :٧] ، فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله[6]، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت ولدها[7] وفلذة كبدها في تيار الماء ، تتلاعب

---

(١) في حاشية ش (باب الثقة) ، وفي حاشية الأصل (الثقة).

(٢) الثقة لها معان يجمعها الإحكام والتوثق من الأمر ، والاطمئنان إليه ، لسان العرب ١٠/ ٣٧١، ترتيب القاموس ٤/ ٥٧٣ ، المعجم الوسيط ١/ ١٠١١ ، وهي في مصطلح أهل الطريق اعتماد العبد في كل شيء علىٰ الله وحده ، ويعرف الواثق بأنه إذا فاته شيء من الدنيا حسبه غنيمة ، وهي من التقلب في الرضا من أخص صفات الأولياء.

ينظر في هذه الأقوال : لطائف الإعلام ١/ ٣٧٨ ، طبقات السلمي ٦٥ ، ٩٤ ، ١١٠.

(٣) غ ، ب (تعالىٰ).

(٤) منازل السائرين ٣٥ ، وانظر المعنىٰ نفسه عند أبي بكر الواسطي ، شعب الإيمان ٢/ ١١٠.

(٥) (وصدر الباب) طمس من أ.

(٦) ط (تعالىٰ).

(٧) في ط (بولدها).

به أمواجه ، وجريانه[١] إلىٰ حيث ينتهي أو[٢] يقف.

ومراده : أن «الثقة» خلاصة التوكل ولبُّه ، كما أن سواد العين : أشرف ما في العين.

وأشار بأنه «نُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ[٣]» إلىٰ أنَّ مدار[٤] التوكل عليه ، وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة ، فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط ، ونسبة جهات المحيط إليها[٥] نسبة واحدة ، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها ، كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

وكذلك قوله : «سُوَيدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ» ، فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه ، وهي المهجة التي تكون[٦] بها الحياة ، وهي في[٧] وسطه ، فلو كان «التفويض» قلباً لكانت «الثقةُ» سويداءَه ، ولو كان عيناً لكانت سوادَها ، ولو كان دائرة لكانت نقطتَها.

---

(١) ق ، م ، ح٢ ، ط (جرياته).

(٢) (أو) سقطت من ب ، و (الألف) سقطت من ح٢.

(٣) الأصل ، ش ، ق (التوكل) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، وهذا هو الموافق للمنازل (٣٥).

(٤) ح٢ (هذا) بدل (مدار).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (إليه).

(٦) ق (بها تكون).

(٧) (في) سقطت من ش.

وقد تقدم أنّ كثيراً من الناس يفسر «التوكل» بالثقة ، ويجعله حقيقتها ، ومنهم من يفسره بالتفويض ، ومنهم من يفسره بالتسليم. صلة الثقة بالتفويض

فعلمت : أنّ مقام التوكل يجمع ذلك كله.

فكأنّ «الثقة» عند الشيخ هي روح التوكل ،[1] «والتوكل»[2] كالبَدَن الحامل لها ، ونسبتها إلىٰ التوكل كنسبة الإحسان إلىٰ الإيمان.[3]

فصــل

درجات الثقة

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : دَرَجَةُ الإِيَاسِ ، وَهِيَ[4] إِيَاسُ[5] العَبْدِ[6] عَنْ[7] مُقَاوَمَاتِ الأَحْكَامِ ، لِيَقْعُدَ عَنْ مُنَازَعَةِ[8] الأَقْسَامِ ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ قِحَةِ[9] الإِقْدَامِ»[10] .

الدرجة الأولى

---

(١) (التوكل) سقط من ط.

(٢) (والتوكل) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (والله أعلم).

(٤) ق ، ط ومنازل السائرين (وهو).

(٥) (إياس) ساقطة من الأصل ، والصحيح ما أثبته من أ ، ب ، غ وهو الموافق لمنازل السائرين ، و ط.

(٦) الأصل (البعد) والصحيح المثبت من ق ومنازل السائرين و ط.

(٧) أ ، ب ، غ (عند) بدل (عن).

(٨) ح٢ (منازعات).

(٩) قحة : رجل وقح الوجه ، قليل الحياء ، لسان العرب ١٥/ ٣٦٢.

(١٠) منازل السائرين ٣٦؛ لكن بلفظ (مقاواة الأحكام).

يعني أن الواثق بالله - لاعتقاده[١] ؛ أن الله تعالىٰ إذا[٢] حكم بحكم وقضىٰ أمراً، فلا مردّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه. فمن حكم الله له بحكم وقسم له بنصيب من الرزق ، أو الطاعة أو الحال ، أو العلم أو غيره : فلا بدّ من حصوله له[٣] ، ومن لم يقسم له ذلك : فلا سبيل له إليه البتة ، كما لا سبيل له[٤] إلىٰ الطيران إلىٰ السماء ، وحمل الجبال ، فبهذا القدر يقعد عن منازعة الأقسام ، فما كان له منها فسوف يأتيه علىٰ ضعفه ، وما لم يكن له منها فلن يناله بقوته[٥].

والفرق بين[٦] «مقاومة الأحكام» و «منازعة الأقسام» أنّ مقاومة الأحكام : أنْ تتعلق إرادته بغير[٧] ما في حكم الله وقضائه ، فإذا تعلقت إرادته بذلك جاذب الخلق الأقسام ونازعهم فيها.

وقوله : «يَتَخَلَّصُ[٨] مِنْ قِحَةِ الإِقْدَامِ» أي يتخلص بالثقة بالله من هذه القحة والجراءة[٩] علىٰ إقدامه علىٰ ما لم يحْكم[١٠] له به ولا قُسِم له[١١].

---

(١) ح٢ ، م (لاعتقاده من ...).

(٢) (إذا) سقطت من ق.

(٣) (له) سقطت من ح٢.

(٤) (له) سقطت من ح٢.

(٥) (بقوته) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) في ط (قوله).

(٧) أ ، ب ، غ (بغين) وبهامشها (لعلة بغير).

(٨) ق (ليتخلص).

(٩) ش (الحركة) ط (الجرأة).

(١٠) (يحكم) سقط من د.

(١١) في ب (والله سبحانه أعلم) وفي ق (والله أعلم).

فصـــل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : دَرَجَةُ الأَمْنِ ، وَهُوَ أَمْنُ العَبْدِ مِن فَوْتِ المقْدُورِ ، وَانتِقَاضِ[1] المَسطُورِ ، فَيَظفَرُ بِرُوحِ الرِّضَىٰ ، وَإِلاَّ فَبِعَينِ[2] اليَقِينِ ، وَإِلاَّ فَبِلُطفِ[3] الصَّبْرِ»[4]. الدرجة الثانية

يقول : من حصل له الإياس المذكور حصل له الأمن ، وذلك أنّ من تحقق بمعرفة الله ، و[5] أن ما قضاه الله فلا مرد له البتة : أمن من فوت نصيبه الذي قسمه[6] الله له ، ويأمن[7] أيضاً من نقصان ما كتبه الله له ، وسطّره في الكتاب المسطور ، فيظفر بروح الرضىٰ ، أي براحته ولذته ونعيمه؛ لأن صاحب الرضىٰ في راحة ولذة وسرور ، كما في حديث عبد الله بن مسعود[8] عن النبيِّ ﷺ «إنَّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضىٰ ، وجعل الهمَّ والحزن في الشّك والسَّخْط»[9].

---

(١) في منازل السائرين (انتقاص).

(٢) في منازل السائرين (فبغنىٰ).

(٣) منازل السائرين (فبظلف).

(٤) منازل السائرين ٣٦.

(٥) (لفظ الجلالة ، والواو) ساقطة من الأصل و ش ، وما أثبته من جميع النسخ.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (قسم).

(٧) ط (أمن).

(٨) (رضي الله عنه) في أ ، ب ، غ.

(٩) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٦) ح(١٠٥١٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢٢) ،

فإن لم يقدر العبد[1] علىٰ «روح الرضىٰ[2]» ظفر «بعين اليقين» وهو قوة الإيمان، ومباشرته للقلب، بحيث لا يبقىٰ بينه وبين العيان إلا كشف[3] الحجاب المانع من مكافحة البصر.

فإن لم يحصل له هذا المقام حصل[4] علىٰ «لطف الصبر» وما فيه من حسن العاقبة، كما في الأثر المعروف «إن استطعت أن تعمل لله بالرضىٰ مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن الصبر علىٰ ما تكره[5] خيراً كثيراً»[6].

وقال محمد بن مروان ضعيف، وروىٰ عن ابن مسعود مرة موقوفاً ومرة مرفوعاً، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٢١٢) وقال غريب من حديث الثوري ومن حديث الأعمش، تفرد به خالد بن يزيد العمري والموقوف علىٰ ابن مسعود في الزهد لهناد (٣٠٤)، والمرفوع في مسند الشهاب (٢/ ١٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١): فيه خالد بن يزيد العمري متهم بالوضع، ورقمه في كنز العمال (٥٩٦١)، وضعفه المنذري في الترغيب (٢/ ٥٤٠).

(١) الأصل (البعد) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٢) (الرضىٰ) سقط من د.

(٣) سوف يأتي الحديث عن الكشف قريباً.

(٤) أ، ب، غ (له).

(٥) أ، غ، ب (النفس).

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧) والترمذي رقم (٢٥١٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، وقال هذا حديث كبير عال من حديث عبدالملك بن عمير عن ابن عباس إلا أن الشيخين لم يخرجا لشهاب بن خراش ولا القداح في الصحيحين، وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣١٤)، وسنده ضعيف لأن فيه رجلان لم

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مُعَايَنَةُ أَزَلِيَّةٌ[1] ، [2] لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مِحَنِ القُصُودِ[3] ، وَتَكَالِيفِ الحِمَايَاتِ ، وَالتَّعْرِيجِ عَلىٰ مَدَارِجِ الوَسَائِلِ»[4].

قوله : «مُعَايَنَةُ أَزَلِيَّةِ الحَقِّ» أي متىٰ شهد قلبه تفرد الرب سبحانه[5] بالأزلية ، غاب بها عن الطلب ، لتيقنه فراغ الرب تعالىٰ من المقادير ، وسبق الأزل بها ، وثبوت حكمها هناك ، فيتخلص[6] من المحن التي[7] تعرض له دون المقصود[8]

يسمّيا ، وفي تاريخ بغداد (١٤/ ١٢٥) ، وذكره صاحب قوت القلوب (٢/ ٣٨ ـ ٣٩) ، وشيخ الإسلام في الاستقامة (٢/ ٧٤) ، وهو طرف من حديث ابن عباس وقد روي بأسانيد كثيرة وبألفاظ مختلفة وتكلم علىٰ طرقه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٥٩.

(١) منازل السائرين ٣٦ : (أولية) ، وفي ط (أزلية الحق).

(٢) أزلية : «هو ما لا نهاية له في الماضي ، والقديم المطلق..» الاعتقاد ٦٨ ، لوامع الأنوار ١/ ٣٨ ، وتطلق هذه الألفاظ من باب الإخبار عن الله تعالىٰ ، وليست من أسمائه الحسنىٰ هذا إن دلت علىٰ معان صحيحة ، فإنه يقر المعنىٰ دون اللفظ وإن كانت معانيها فاسدة وقف اللفظ والمعنىٰ ، ينظر في تقرير هذه المسألة ، الفتاوىٰ ٩/ ٣٠٠ ، شرح الطحاوية ٧٧ ، بدائع الفوائد ١/ ١٦٢.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ش ، ق (المقصود).

(٤) منازل السائرين ٣٦.

(٥) أ ، ب ، غ (تعالىٰ).

(٦) ح٢ ، د ، ش (يخلص).

(٧) ق (الذي).

(٨) ط (القصود).

ويتخلص أيضاً من تعريجه والتفاته، وحبس مطيته علىٰ طرق الأسباب التي يتوسل بها إلىٰ المطالب.

وهذا ليس علىٰ إطلاقه، فإن مدارج الوسائل قسمان: وسائل موصلة إلىٰ عين الرضىٰ، فالتعريج علىٰ مدارجها - معرفة وعملاً وحالاً وإيثاراً - هو محض العبودية، ولكن لا يجعل تعريجه علىٰ مدارجها بحيث ينسىٰ بها الغاية التي هي وسائل إليها.

وأما «**تخَلُّصُهُ**[1] **مِنْ تَكَالِيفِ الحِمَايَاتِ**» فهو تخلصه[2] من طلب ما حماه الله تعالىٰ عنه قَدَراً، فلا يتكلف طلبه وقد حُمي عنه.

ووجه آخر: وهو أن يتخلص[3] بمشاهدة سبق الأزلية من تكاليف احترازاته، وشدة احتمائه من المكاره، لعلمه بسبق الأزل بما كتب له منها، فلا فائدة في تكلف[4] الاحتماء، نعم يحتمي مما نُهي عنه، وما لا ينفعه في طريقه، ولا يُعينه علىٰ الوصول.

* * *

---

(١) أ، ب، غ (تخليته)، م (تخليصه).

(٢) غ، ش (تخليصه).

(٣) أ (يخلص).

(٤) د (تكليف).

فصل[1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «التسليم»[2]. منزلة التسليم

وهي نوعان : تسليم لحُكمه الديني الأمريّ ، وتسليم لحُكمه الكونيّ القدريّ[3].

فأما الأول : فهو تسليم المؤمنين العارفين ، قال[4] تعالىٰ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ[5] حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء :٦٥] .

فهذه ثلاث مراتب : التحكيم ، وسعة الصدر بانتفاء الحرج ، والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني : فمزلة أقدام ، ومضلَّة أفهام ، حيَّر الأنام ، وأوقع الخصام ، وهي مسألة الرضىٰ بالقضاء ، وقد تقدم الكلام عليها بما فيه

---

(١) حاشية الأصل (منزلة التسليم) وحاشية ش (باب التسليم).

(٢) التسليم : أن يكل العبد نفسه إلىٰ ربه في جميع أحواله.. وتسليم الحق : أن يسلم من دعوىٰ التسليم له فيما شرع وحكم وقضىٰ من الأحكام بمعاينتك تسليم الحق إياك إليه في جميع الأقسام.. والتسليم : الانقياد وترك الاعتراض فيما لا يلائم ، وقيل : هو الثبات عند نزول البلاء من غير تغير في الظاهر والباطن ، ينظر في ذلك : طبقات الصوفية ٥٩ ، لطائف الإعلام ١/ ٣١٩ ، معجم مصطلحات الصوفية ٤٤.

(٣) انظر في هذه المسألة في الفتاوىٰ ١٠/ ٢٤ ـ ٢٩.

(٤) د (لفظ الجلالة).

(٥) ح٢ ، م قال : (إلىٰ قوله : ﴿ويسلموا﴾.

كفاية[1] ، وبيَّنا أن التسليم للقضاء يُحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه[2] ، ولم يقدر علىٰ ذلك ، كالمصائب التي لا قدرة له علىٰ دفعها.

وأما دفع الأحكام التي أُمر بدفعها : فلا يجوز له[3] التسليم إليها[4]؛ بل العبودية : مدافعتها بأحكام أخر[5] ، أحب إلىٰ الله منها.

فصـــل

ما يعتري التسليم من العلل

قال صاحب «المنازل» : «**وَفِي التَّسْلِيمِ وَالثِّقَةِ وَالتَّفْوِيضِ : مَا فِي التَّوَكُّلِ مِن العِلَلِ**[6] ، **وَهُوَ مِن أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ سُبُلِ**[7] **العَامَّةِ**»[8].

يعني أن العلل التي في «التوكل» من[9] معاني الدعوىٰ ، ونسبته الشيء إلىٰ نفسه أولاً ، حيث يزعم[10] أنه وكَّل ربه فيه ، وتوكل عليه فيه ، وجعله وكيله ، القائم عنه بمصالحه التي كان يحصلها لنفسه بالأسباب والتصرفات ، وغير

---

(١) وسوف يأتي الحديث عنها في منزلة الرضىٰ ص١٨٧٩.

(٢) (ودفعه) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٣) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) أ ، ب ، غ (لها).

(٥) (أخر) سقطت من م.

(٦) منازل السائرين (الاعتلال).

(٧) (سبل) سقطت من أ ، ب ، غ ، وفي منازل السائرين (سبيل) ٣٦.

(٨) منازل السائرين ٣٦.

(٩) م ، ب ، أ ، غ (في).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (زعم).

ذلك : من العلل المتقدمة وقد عرفت ما في ذلك.

وليس في التسليم إلا عَلَّة واحدة : وهي أن لا يكون تسليمه صادراً عن محض الرضىٰ والاختيار؛ بل يشوبه كُره وانقباض، فيسلِّم علىٰ[1] نوع إغماض، فهذه علة التسليم[2] المؤثرة[3] فاجتهد علىٰ[4] الخلاص منها.

وإنما كان للعامة عنده ، لأن الخاصة في شغل عنه باستغراقهم في الفناء[5] في عين الجمع[6] وجعل الفناء غاية الاستغراق في عين الجمع[7] : هو الذي أوجب ما أوجب والله المستعان[8].

درجة التسليم

الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : تَسْلِيمُ مَا يُزَاحِمُ العُقُولَ مِمَّا سَبَقَ[9] عَلىٰ الأَوْهَامِ مِنَ الغَيبِ ، وَالإِذْعَانُ لِمَا يُغَالِبُ القِيَاسَ مِن سَيرِ

(١) أ ، ب ، غ (عن).

(٢) غ (تسليم).

(٣) ب (المؤثر).

(٤) ط (في).

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (بالفناء) وهي ساقطة من د.

(٦) تقدم الكلام عن هذه المسألة ص١٦٦٤ ، ١٧١٠ ، وانظر تفصيل شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١٠/ ٢٤٤ ، ٣٣٨.

(٧) قال الحفني (وعين الجمع) اسم من أسماء التوحيد ، معجم مصطلحات الصوفية ١٩١ ، والفناء في عين الجمع يتفق مع تعريفهم للفناء عن وجود السوىٰ وهو فناء الملاحدة الحلولية ، ينظر الفتاوىٰ ١٠/ ٢٢٢ ، معجم المصطلحات ٢٠٨.

(٨) (والله المستعان) سقطت من د.

(٩) في منازل السائرين ٣٧ (مما يشق).

الدُّوَلِ والقِسَم ، وَالإِجَابَةُ لمِاَ يُفزِعُ[١] المرُيدَ مِن رُكُوبِ الأَحْوَالِ»[٢].

اعلـم أن «التسليم»[٣] هـو الخلاص من شبهة تعارض الخبر ، أو[٤] شـهوة تعارض الأمر[٥] ، أو إرادة تعارض الإخلاص ، أو[٦] اعتراض يعارض القدر والشرع ، صاحب هذا التخلص : هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو[٧] إلا من أتىٰ الله به فإن التسليم ضد المنازعة.

والمنازعة : إما بشبهة[٨] فاسدة ، تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله تعالىٰ[٩] به نفسه من صفاته وأفعاله ، و[١٠] ما أخبر به عن[١١] اليوم الآخر ، وغير ذلك ، فالتسليم له : ترك منازعته بشبهات[١٢] المتكلمين الباطلة.

---

(١) ب (يفرغ).

(٢) منازل السائرين ٣٧.

(٣) أ : طمس (اعلم أن التسليم).

(٤) همزة الألف سقطت من أ ، ب ، غ.

(٥) ق (الأمران) .

(٦) (الألف) سقطت من م ، ق.

(٧) ط (يوم القيامة).

(٨) غ ، أ (بشهوة).

(٩) (تعالىٰ) سقطت من ط.

(١٠) ب زيادة (ألف قبل الواو).

(١١) الأصل (من) والصحيح ما أثبته من جميع النسخ.

(١٢) ب (وبشبهات).

وإما بشهوة تعارض أمر الله[1] ، فالتسليم للأمر : بالتخلص منها[2]. أو إرادة تعارض مراد الله من عبده ، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب ، فالتسليم : بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض[3] حكمته في خلقه وأمره ، بأن يظن أنّ مقتضىٰ الحكمة خلاف ما شرع ، وخلاف ما قضىٰ وقدر ، فالتسليم : التخلص من هذه المنازعات كلها.

وبهذا يتبين أنه من أجلِّ مقامات الإيمان ، وأعلىٰ طرق الخاصة ، وأن «التسليم» هو محض الصِّدِّيقية ، التي هي بعد درجة النبوة ، وأن أكمل الناس تسليماً : أكملهم صديقية.

فلنرجع إلىٰ شرح كلام الشيخ.

أما[4] قوله : **«تَسْلِيمُ مَا يُزَاحِمُ العُقُولَ مِمَّا سَبَقَ عَلَىٰ الأَوْهَامِ»**.

يعني[5] : أن التسليم يقتضي[6] ما ينهىٰ عنه العقل ويزاحمه ، فإنه يقتضي التجريد عن الأسباب ، والعقل يأمر بها ، فصاحب « التسليم » يسلم إلىٰ الله

---

(١) أ ، ب (عز وجل).

(٢) (منها) سقطت من ق.

(٣) غ (يعارضه).

(٤) ط (فأما).

(٥) ط (فيعني).

(٦) ش (نقيض).

عزَّ وجل ما هو غيب عن العبد ، فإن فعله سبحانه[1] لا يتوقف علىٰ هذه الأسباب التي ينهىٰ العقل عن التجرد[2] عنها ، فإذا سلم لله لم يلتفت إلىٰ السبب في كل ما غاب عنه.

فالأوهام يسبق إليها[3] : أن ما غاب عنها من الحكم لا يحصل إلا بالأسباب.

و«التسليم»[4] يقتضي التجرد[5] عنها ، والعقل ينهىٰ عن ذلك ، والوهم قد سبق عليه : أن الغيب موقوف عليها.

فهاهنا أمور[6] ستة : عَقْل[7] ، ومزاحم له ، ووهم ، وسائق[8] إليه ، وغيب ، وتسليم لهذا المزاحم.

فالعقل هو الباعث له علىٰ الأسباب ، الداعي له إليها ، التي إذا خرج الرجل عنها عُدَّ[9] قدحاً في عقله.

---

(١) أ ، ب ، غ (وتعالىٰ).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (التجريد).

(٣) الأصل (عليها) والأقرب ما أثبته من ق ، (عليها) سقطت من ش.

(٤) أ (بالتسليم والأسباب).

(٥) ، ح٢ (التجريد).

(٦) د (ستة أمور).

(٧) ق (بعقل).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (سابق).

(٩) ط (خروجه).

والمزاحم له : التجرد عنها بكمال التسليم إلىٰ من بيده أزِمَّة الأمور : مواردها[١] ومصادرها.

والوهم : اعتقاده توقف حصول السعادة والنجاة ، وحصول المقدور - كائناً ما كان - عليها ، وأنه لولاها لما حصل المقدور.

وهذا هو الوهم السابق[٢] إلىٰ الوهم.

والمغيب[٣] : هو الحكم الذي غاب عنه ، وهو فعل الله.

والتسليم : تسليم هذا المزاحم إلىٰ نفس الحكم.

مع أن في تنزيل عبارته علىٰ هذا[٤] وإفراغ[٥] هذا المعنىٰ في قوالب ألفاظه نظراً.

وفيه وجه آخر : و[٦] هو أن يكون المراد : التسليم لما يبدو للعبد من معاني الغيب مما يزاحم معقوله في بادئ الرأي ، ويسبق[٧] إلىٰ وهمه : أن الأمر بخلافه ، فيسبق علىٰ الأوهام من الغيب الذي أخبرت به شيء يزاحم معقولها ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وموردها).

(٢) ط (السائق).

(٣) ح٢ ، م ، ط (الغيب).

(٤) د (المعنىٰ).

(٥) أ (وفراغ).

(٦) (الواو) سقطت من غ.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (لما يسبق).

فتقع المنازعة بين حكم العقل وحكم الوهم ، فإن كثيراً من الغيب قد يزاحم العقل بعض المزاحمة ، ويسبق إلىٰ الوهم خلافه ، فالتسليم : تسليم هذا المزاحم إلىٰ وليه ، ومن[1] أخبر به ، والتجرد عما يسبق إلىٰ الوهم مما يخالفه.

وهذا أولىٰ المعنيين بكلامه ، إن شاء الله[2].

فالأولىٰ[3] : تسليم منازعات الأسباب لتجريد التوحيد العَمليّ القصديّ الإراديّ ، وهذا تجريدُ منازعات الأوهام المخالفة للخبر لتجريد التوحيد العلمي[4] الخبري[5] الاعتقادي ، وهذا حقيقة التسليم.

قوله[6] : «**والإِذْعَانُ لِمَا يُخَالِفُ[7] القِيَاسَ ، مِن سَيرِ الدُّوَلِ وَالقِسَمِ**».

أي الانقياد لما يقاوي عقله وقياسه ، مما جرىٰ به حُكم الله في الدول قديماً وحديثاً من طيٍّ دولة ، ونشر دولة وإعزاز هذه وإذلال هذه ، والقِسَم التي قسمها علىٰ خلقه ، مع شدة تفاوتها ، وتباين مقاديرها ، وكيفياتها وأجناسها ، فيذعن لحكمة الله في[8] ذلك ،

---

(١) د ، ق (هو).

(٢) أ ، ب (تعالىٰ).

(٣) الأصل (فالأول) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، ح٢.

(٤) ق (العملي).

(٥) (الخبري) سقطت من م.

(٦) (قوله) سقطت من أ.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (يغالب).

(٨) ط (كل).

ولا يعترض[1] علىٰ ما وقع منها بشبهة وقياس.

ويحتمل أن يكون مراده[2] بـ «الدول» و «القسم» الأحوال التي تتداول[3] علىٰ[4] السالك ويختلف سيرها[5]، و «القسم» التي نالته من الله: ما كان قياس سعيه واجتهاده أن يحصل له أكثر منها، فيذعن لما غالب[6] قياسه منها، ويسلم للقسام[7] المعطي بحكمته وعدله، فإن من عباده من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه لأفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه إلا الغِنَىٰ ولو أفقره لأفسده ذلك[8]، ومنهم من لا يصلحه إلا الصحة ولو أمرضه لأفسده ذلك[9].

---

(١) (علىٰ) ساقطة من الأصل والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ.

(٢) (مراده) سقطت من د.

(٣) أ، ب، غ (تداول).

(٤) الأصل (عليه) والأقرب ما أثبته من أ، ق، ط.

(٥) ب (سيره).

(٦) ش (غالت).

(٧) ط (للقاسم).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ش، د، ق (ومنهم من لا يصلحه إلا المرض ولو أصحه لأفسده ذلك).

(٩) هذا معنىٰ حديث أنس - رضي الله عنه -، قال عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٢)، عن أنس أخرجه أبو يعلىٰ والبزار والطبراني وفي سنده ضعف، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية ثم قال: هذا حديث لا يصح (١/ ٣١ ـ ٣٢) وهو عند الطبراني في الكبير بألفاظ مختلفة مشابهة له عن ابن عباس (١٢/ ١٤٥) رقم (١٢٧١٩)، وذكره في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠)، وقال فيه من لم يعرف، وضعفه الحافظ في الفتح (١١/ ٣٤٢)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣١٤).

قوله : «وَالإِجَابَةُ لِمَا يُفْزِعُ[1] المُرِيدَ مِن رُكُوبِ الأَحْوَالِ».

يقول : إن صاحب هذه الدرجة من قوة التسليم يهجم علىٰ الأمور المفزعة ، ولا يلتفت إليها ، ولا يخاف منها[2] من ركوب الأحوال ، واقتحام الأهوال؛ لأن قوة تسليمه تحميه من خطرها ، فلا ينبغي[3] أن يخاف ، فإنه في حصن التسليم ومنعته وحمايته[4].

فصل

الدرجة الثانية

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَسلِيمُ العِلمِ[5] إِلىٰ الحَالِ[6] ، [وَالقَصْدِ إِلىٰ

---

(١) ب (يفرغ له) ق (فرغ).

(٢) ط (معها) ولعله أقرب إلىٰ الصواب.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (له).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق [والله سبحانه وتعالىٰ الموفق بحوله وقوته] وسقطت (سبحانه وتعالىٰ) من م ، ق.

(٥) د (العبد).

(٦) الحال : هو ما يرد علىٰ القلب من غير تأمل ولا اجتلاب ، من طرب وحزن ، أو قبض وبسط وهو بخلاف المقام ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والحال من عين الجود والمقام من بذل المجهود ، ويسمىٰ بهذا لتحوله وزواله ، بخلاف المقام فقد سمِّي لإقامته واستقراره فإذا كان العبد بين المحاسبة والمراقبة تعود ثم تزول حتىٰ تثبت له هذه الصفة فيكون وطِناً لها ومستقراً ، وقد تسمىٰ بهذا لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية إلىٰ الصفات الحقيقية ورحاب القرب وذلك معنىٰ الترقي ، انظر التعرف ٩٧ ـ ٩٨ ، طبقات السلمي ٣١٠ ، ٣١٥ ، رشح الزلال ٤٩ ، لطائف الإعلام ١/ ٤٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٣ ، الرسالة

الحال

الكَشْفِ[1] ، وَالرَّسْمِ إِلىٰ الحَقِيقَةِ».

أما «تَسْلِيمُ العِلْمِ إِلىٰ الحَالِ][2]» فليس المراد منه : تحكيم الحال علىٰ العلم، حاشا الشيخ من ذلك ، وإنما أراد الانتقال من الوقوف عند صور العلم الظاهرة إلىٰ معانيها وحقائقها الباطنة ، وثمراتها المقصودة منها ، مثل الانتقال من محض التقليد والخبر إلىٰ العيان واليقين ، حتىٰ كأنه يرىٰ ويشاهد ما أخبر

القشيرية ١٢٤ ، وفي تعريفاتهم غموض وخفاء ومما ينفع ذكره في ذلك ما قاله شيخ الإسلام - رحمه الله - حيث يعلق علىٰ « الحال » فيقول : « وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها ، لا تُجعل طريقة ولا تُتَخذ سبيلاً - إلىٰ قوله - والرسل - صَلوات الله عليهم - أعلم بطريق سبيل الله وأهدىٰ وأنصح ، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً وإن لم يكن عاصياً أو فاسقاً أو كافراً » ، ويقول - رحمه الله - : «وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم؛ لكن ليست له عبارة تبين كلامه فيقع في غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده ، وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.. » ، الفتاوىٰ (١٠/ ٦٩٢-٦٩٩ ، ٤٤٣-٤٥٤ ، ٤٨٧-٤٨٨.

(١) الكشف مرتبة متوسطة بين المحاضرة والمشاهدة وهي عبارة عن كشف النفس لم غاب عن الحواس وإدراكه علىٰ وجه يرتفع الريب منه سواء حصل بحدس أو فيض ، فالشهود طريق إلىٰ العلم المحقق والكشف غاية ذلك الطريق ، فهو حصول العلم المحقق بالنفس.. وقال القشيري : « وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر إلىٰ تأمل دليل وتَطَلُّب سبيل » وهي منزلة سيتحدث عنها المؤلف في قسم الحقائق في آخر المدارج ، وينظر في هذا المصطلح : التعرف ١٠٤ ، الرسالة القشيرية ١٥٠ ، رشح الزلال ١٠٣ ، لطائف الإعلام ٢/ ٣٣٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٢٥، الفتاوىٰ ١٠/ ٦١٢-٦١٣ ، درء التعارض ٥/ ٣٥٢-٣٥٣. الكشف

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ ، غ ، ب.

به الرسول ﷺ كما قال تعالىٰ : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ : ٦] ، وقال[١] : ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد : ١٩] ، وينتقل الحجاب إلىٰ الكشف ، فينتقل من العلم إلىٰ اليقين ، ومن اليقين إلىٰ عين اليقين ، ومن علم الإيمان إلىٰ ذوق طعم الإيمان ، ووجد[٢] حلاوته ، فإن هذا قدر زائد علىٰ مجرد علمه ، ومن علم التوكل إلىٰ حاله ، وأشباه ذلك.

فيسلم العلم الصحيح إلىٰ الحال الصحيح ، فإن سلطان الحال أقوىٰ من سلطان العلم ، فإن[٣] كان الحال مخالفاً للعلم فهو مَلِك ظالم ، فليخرج عليه بسيف العلم ، وليحكمه عليه[٤].

وأما «**تَسْلِيمُ القَصْدِ إِلَىٰ الكَشْفِ**» فليس معناه : أن يترك القصد عند[٥] معاينة الكشف ، فإنه متىٰ ترك القصد خلع ربقة العبودية من عنقه ، ولكن يجعل قصده سائراً طالباً لكشفه يؤمّه ، فإذا وصل إليه سلمه[٦] إليه ، وصار الحكم للكشف ، إذ القصد آلة ووسيلة إليه ، فإن كان كشفاً صحيحاً مطابقاً للحق في

---

(١) ق ، ط (تعالىٰ).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ووجدان).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (فإذا).

(٤) ط (فيه).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (عن).

(٦) أ ، ب (وسلمه).

نفسه[1] : كشف له عن آفات القصد ، ومفسداته ، ومصححاته وعيوبه ، فأقبل علىٰ تصحيحه بنور الكشف ، لا أنّ[2] صاحب القصد ترك القصد لأجل الكشف فهذا سير أهل الإلحاد ، الناكبين عن سبيل[3] الحق والرشاد.

الرسم وأما «تَرْكُ الرَّسْمِ إِلىٰ الحَقِيقَةِ[4]» فيشير[5] به إلىٰ الفناء[6] ، فإن من جملة تسليم صاحب الفناء : تسليم ذاته ليفنىٰ في شهود الحقيقة ، فإن ذات العبد هي رسم[7] تُفنيه الحقيقة كما يفني النور الظلمة ، لأن عند أصحاب الفناء : أن الحق سبحانه لا يراه سواه ، ولا يشاهده غيره ، لا بمعنىٰ الاتحاد ، ولكن بمعنىٰ أنه[8] لا يشاهده العبد حتىٰ يفنىٰ عن إِنِّيته[9] ورسمه وجميع عوالمه ، فيفنىٰ من لم يكن ، ويبقىٰ من لم يزل و[10]هذا كالإجماع[11] من الطائفة ، بل هو

---

(١) ح٢ (بنفسه).

(٢) ح٢ ، ش (لأن).

(٣) م ، ح٢ (سبل).

(٤) الحقيقة سبق (ص١٧١٨ ـ وتأتي ص١٨٧٣) ، وينظر في ذلك الفتاوىٰ (١٠/ ٣٤ ـ ٥٢٨).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فإنه يشير).

(٦) الفناء سبق (ص١٦٦٤) ، وينظر في ذلك الفتاوىٰ (١٠/ ٢٢٢).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (والرسم).

(٨) م ، ح٢ (أن لا).

(٩) إنِّيته سبق ص١٧٢٤ .

(١٠) (الواو) ساقطة من ط.

(١١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (كإجماع).

إجماع منهم(١).

الدرجة الثالثة

(٢) «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : تَسْلِيمُ مَا دُونَ الحَقِّ إِلىٰ الحَقِّ ، مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ رُؤْيَةِ التَّسْلِيمِ ، بِمُعَايَنَةِ تَسْلِيمِ الحَقِّ إِيَّاكَ إِلَيْهِ»(٣) .

هذه الدرجة تكملة الدرجة(٤) التي قبلها ، [فإن التسليم في التي قبلها](٥) بداية لها ، وهي واسطة بين الدرجة الأولىٰ والثالثة ، فالأولىٰ : بداية ، والثانية : توسط(٦) ، والثالثة : نهاية.

قوله : «تَسْلِيمُ مَا دُونَ الحَقِّ إِلىٰ الحَقِّ» يريد به(٧) : اضمحلال رسوم الخلق

---

(١) لم يعلق الإمام ابن القيم علىٰ هذه المسألة ، وهي توافق النوع الثاني من الفناء وهو ما يقع لبعض السالكين لفرط انجذاب قلوبهم مع ضعفها ، لذا قال عنهم شيخ الإسلام : « فإذا قويَ علىٰ صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده ، حتىٰ يفنىٰ من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه ويبقىٰ من لم يزل وهو الرب تعالىٰ ، والمراد فناؤها عن مشهود العبد وذكره ـ إلىٰ قوله ـ وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنّه اتحاد وأنّ المحب يتحد بالمحبوب ـ إلىٰ قوله ـ هذا النمط مما فيه من غيبة العقل والتمييز.. وكذلك صار في شيوخ الصوفية مَنْ يعرض له مِنَ الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه ، حتىٰ يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه ». الفتاوىٰ ١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢١.

(٢) ش ، ط (قال).

(٣) منازل السائرين (٣٧).

(٤) غ (والدرجة).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٦) ط (وسط).

(٧) (به) سقط من ش.

في شهود الحقيقة[1]، وكل ما دون الحق رسوم[2] فإذا سلم رسمه الخاص[3] إلىٰ ربه : حصل له حقيقة الفناء.

وهذا التسليم نوعان.

أحدهما[4] : تسليم رسمه الخاص به.

والثاني : تسليم رسوم الكائنات، ورؤية تلاشيها واضمحلالها في عين الحقيقة، وهذا علم ومعرفة، والأول حال.

قوله : «**وَالسَّلَامَةُ مِن رُؤْيَةِ التَّسْلِيمِ**» أي ينسلب أيضاً من رسم[5] رؤية التسليم فإن «الرؤية» أيضاً رسم من جملة الرسوم، فما دام مستصحباً لها : لم يسلم التسليم التام، وقد بقيت عليه بقية من منازعات رسمه.

ثم عَرَّف كيفية هذا التسليم، فقال : «**بِمُعَايَنَةِ تَسْلِيمِ الحَقِّ إِيَّاكَ إِلَيهِ**» أي

---

(١) هذا قريب من الفناء الثاني وهو الفناء عن شهود السوىٰ، وقد سبق التعريف به ص١٦٦٤، وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ٢٢٢.

(٢) الرسم في اللغة : العلامة، وعند الصوفية : كل عبادة ليس فيها نية، وهو الخلق وصفاته؛ لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوىٰ الله آثاره الناشئة عن أفعاله، وهو نعت يجري في الأبد بما جرىٰ في الأزل.

لطائف الإعلام ١/ ٤٨٩ مع هامشه، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢.

(٣) الأصل (الحاضر) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق، ط.

(٤) (أحدهما) سقط من د، وفي ح٢ (أحدها).

(٥) ش (اسم).

ينكشف لك[١] - حين تسلِّم[٢] ما دون الحق إلىٰ الحق - أن الحق تعالىٰ هو الذي سلم إلىٰ نفسه[٣] ما دونه ، فالحق تعالىٰ هو الذي سلمك إليه ، فهو[٤] المسلِّم وهو المسلَّم إليه ، وأنت آلة التسليم فمن شهد هذا المشهد : وجد ذاته مسلَّمة إلىٰ الحق ، وما سلمها إلىٰ الحق غير الحق ، فقد[٥] سَلِمَ العبد من دعوىٰ التسليم ، والله أعلم[٦].

* * *

---

(١) (لك) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) ب (يُسلم).

(٣) ب (لنفسه).

(٤) (هو) سقطت من أ ، ب.

(٥) م (فمن).

(٦) أ ، ب (والله سبحانه أعلم).

فصــل[1]

منزلة الصبـر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الصبر»[2].

قال الإمام أحمد[3] : ذكر الله[4] الصبر في القرآن في نحو من[5] تسعين موضعاً[6][7].

وهو واجب بإجماع الأمة[8]، وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان :

---

(١) حاشية س (منزلة الصبر)، وحاشية ش (باب الصبر).

(٢) الصبر : هو عند الطائفة : حبس النفس علىٰ الطاعات، ولزوم الأمر والنهي، ثم علىٰ ترك رؤية الأعمال، وترك الدعوىٰ مع مطالبة الباطن بذلك، وعلىٰ الإعراض عن إظهار العلوم والأحوال، والصبر علىٰ مقامات البلايا حتىٰ تصير المحنة منحة، وحتىٰ يكون مقامه الشكر بدل الصبر، فالصبر أعم المقامات حكماً وأشملها أثراً، وقال بعضهم : هو أن تصبر في الصبر، انظر : التعرف ١١٠، الرسالة القشيرية ٢٨٦، لطائف الإعلام ٢/ ٥٣ ـ ٥٤، معجم مصطلحات الصوفية ١٤٧.
ونقل ابن القيم في عدة الصابرين وطريق الهجرتين جملة من أقوالهم في تعريف الصبر، ومنزلته من الدين، وفيهما كلام نفيس في هذه المنزلة، في ٤٤ من عدة الصابرين، طريق الهجرتين ٢٩٥.

(٣) ط (رحمه الله تعالىٰ).

(٤) (ذكر الله) سقطت من ط.

(٥) (من) سقطت من ق، ط.

(٦) (موضعاً) سقطت من أ، ب.

(٧) انظر هامش قوت القلوب ٢/ ٢٣٧، عدة الصابرين ٧١، الفتاوىٰ ١٠/ ٣٩، التحفة العراقية ٣٥٤.

(٨) عن الإجماع علىٰ وجوب الصبر، قال شيخ الإسلام : «... ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق

نصف صبر، ونصف شكر[1].

وهو في[2] القرآن علىٰ ستة عشر نوعاً:

أنواع الصبر في القرآن وأدلته

الأول: الأمر به، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة :١٥٣]، وقوله: [﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾][3] [البقرة :٤٥] وقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران :٢٠٠] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل :١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده، كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا

المسلمين علىٰ أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر علىٰ المصائب عن أن يجزع فيها والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهىٰ الله عنه ـ إلىٰ قوله ـ أما الرضىٰ فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضىٰ بالقضاء هل واجب أو مستحب، علىٰ قولين: فعلىٰ الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلىٰ الثاني يكون من أعمال المقربين» الفتاوىٰ ١٠/ ٣٩ـ ٤٠، التحفة العراقية ٣٥٣.

لكن الرضىٰ بما أمر الله به فأصله واجب وهو من الإيمان، الفتاوىٰ ١٠/ ٤١.

(١) لعل ذلك استناداً إلىٰ ما أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) موقوفاً علىٰ ابن مسعود، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٤٠)، وقال رواته رواة الصحيح وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم، وقد رجح عدم رفعه البيهقي في شعب الإيمان، وابن حجر كما في التعليق (٢/ ٢٢)، وضعفه الألباني مرفوعاً في الضعيفة (٤٩٩)، وقد علق البخاري قول ابن مسعود، انظر الفتح (١/ ٦٣).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (مذكور).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ق.

نَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف :٣٥] ، وقوله : ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] ، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد :٣٣] فإن إبطالها ترك للصبر[1] علىٰ إتمامها ، وقوله : ﴿وَلَا تَهِنُواْ[2]﴾ [آل عمران :١٣٩] فإن الوهن من[3] عدم الصبر.

الثالث[4] : الثناء علىٰ أهله ، كقوله[5] : ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ الآية [آل عمران :١٧] وقوله : ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة :١٧٧] وهو كثير في القرآن.

الرابع : إيجابه سبحانه محبَّته لهم ، كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران :١٤٦].

الخامس: إيجاب معيَّته لهم[6]، وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم ، ليست معية عامة ، وهي معية العلم ، والإحاطة ، كقوله : ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقوله : [﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾][7]

---

(١) ط (الصبر).

(٢) ط ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ﴿ولا تحزنوا﴾.

(٣) (من) سقطت من ش.

(٤) ح٢ (والثالث).

(٥) ط (تعالىٰ).

(٦) (لهم) سقطت من ش.

(٧) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

[البقرة:٢٤٩، الأنفال:٦٦].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل:١٢٦]، وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٩٦].

الثامن: إيجابه(١) الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

التاسع: إطلاق البُشرىٰ لأهل الصبر، كقوله(٢) تعالىٰ : [﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ](٣) و(٤) بَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة :١٥٥].

العاشر: ضمان النصر(٥) والمدد لهم، كقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

---

(١) ط (سبحانه) وفي أ، ب، غ (إيجاب).

(٢) (كقوله تعالىٰ) سقط من ق.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، وفي ق إلىٰ قوله ﴿والجوع﴾.

(٤) ق (كقوله تعالىٰ).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د (النصرة).

ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أنّ النّصر مع الصبر»[1].

الحادي عشر: الإخبار[2] أن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلَقَّىٰ الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ[3] إلا أهل الصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] وقوله: ﴿[ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾][4]وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالىٰ[5]: ﴿[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ][6] أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

---

(١) هذا جزء من حديث ابن عباس، وهو عند أحمد من طرق كثيرة في سياق واحد ولم يميز بين ألفاظ بعضهم من بعض، وأسانيد أحمد لا تخلو من مقال فعلىٰ هذا لا تصح هذه اللفظة (١/ ٣٠٧)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١، ٦٤٢)، وقال حديث كبير عال، ولم يخرجاه، الطبراني في الكبير (٢/ ٢٣٨)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ١٢٣)، والأحاديث المختارة للمقدسي (١٠/ ٢٤).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (منه تعالىٰ بأن).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (العظيمة).

(٤) ما بين المعقوفين في الأصل فقط.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (لموسىٰ).

(٦) ما بين المعقوفين في الأصل (ولقد أوحينا إلىٰ موسىٰ) وهو خطأ والمثبت من المصحف و ش، ق.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥]، [وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾](١) [سبأ:١٩]، وقوله في سورة الشورىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ(٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورىٰ:٣٢ - ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز بالمطلوب(٣)، والنجاة من المرهوب(٤)، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٤].

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه الإمامة ، [سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين(٥)](٦) ، ثم(٧) تلا قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ(٨) أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ، غ، ح٢، ب.

(٢) م، ح٢ قال: الآية ولم يكملها.

(٣) ط (المطلوب المحبوب).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب (المحبوب) و ط، د (المكروه).

(٥) الفتاوىٰ (١٠/ ٣٩) ، التحفة العراقية (٣٥٤) ، وقال ابن كثير في تفسيره قال بعض العلماء ، ثم ذكر هذا القول (٣/ ٤٦٤).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٧) أ ، ب (كقوله تعالىٰ).

(٨) (منهم) سقط من الأصل.

بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه[1] سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوىٰ والتوكل و[2] الشكر والعمل[3] والمرحمة[4].

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له[5]، قال[6] عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خيرُ عيشٍ أدركناه بالصبر»[7].

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنه ضياء»[8]، وقال: «من يتصبَّر»[9]

---

(١) ط (لفظ الجلالة).

(٢) ط (وبالشكر).

(٣) أ، غ، ب، ط (الصالح).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، س، ق (الرحمة).

(٥) أورد هذا القول عن علي رضي الله عنه عند أبي نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٦)، والقشيري في الرسالة القشيرية (١/ ٤٥٤).

(٦) ط (وقال).

(٧) علقه البخاري في كتاب الرقاق باب الصبر عن محارم الله (٤/ ٨٦) باب (٢٦)، وهو في الزهد للإمام أحمد (ص١٤٠) والزهد لابن المبارك (ص٢٢٢)، وفي حلية الأولياء (١/ ٥٠)، وأورده الديلمي في مسند الفردوس عن أنس (٢/ ٤١٤) رقم(٣٨٤٠).

(٨) مسلم. الطهارة (١/ ٢٠٣) ح(٢٢٣)، الترمذي في الدعوات (٤/ ٥٣٥) ح(٣٥١٧)، وصححه، صحيح النسائي للألباني (٢/ ١٧٤) ح(٢٤٣٦).

(٩) ش (من تصبر).

يُصبِّره الله»[١].

وفي الحديث الصحيح[٢]: «عجباً لأمر المؤمن! إنَّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له»[٣].

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع[٤]، فسألته: أن يدعو لها: «إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك، فقالت: إنِّي أتكشف فادْعُ الله: أنْ لا أتكشف، فدعا لها»[٥].

وأمر الأنصار[٦] بأن[٧] يصبروا علىٰ الأثرة التي يلقونها بعده، حتىٰ يلقوه علىٰ الحوض[٨].

---

(١) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٥) ح(١٤٦٩)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٩) ح(١٠٥٣)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٧٣) ح(٢٠٢٤).

(٢) ش، د، ق (عنه).

(٣) مسلم. الزهد (٤/ ٢٢٩٥) ح(٢٩٩٩)، أحمد (١/ ١٨٢) (٤/ ٣٣٣)، الدارمي. الرقاق (٢/ ٢٦٦) ح(٢٧٨٠) وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٥٥).

(٤) د (تضرع).

(٥) البخاري. المرضىٰ (٤/ ٢٥) ح(٥٦٥٢)، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٤) ح(٢٥٧٦)، أحمد (١/ ٣٤٧).

(٦) ط (رضي الله عنهم).

(٧) ش (أن).

(٨) البخاري. الجزية (٢/ ٤٠٨) ح(٣١٦٣)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٣٣) ح(١٠٥٩)، أحمد (٤/ ٣٥١).

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر[١]، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر «أنه[٢] عند الصدمة الأولىٰ»[٣].

وأمر[٤] المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب[٥]، فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفِّر أجره، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب بالأجر.

[وأخبر[٦] أن الصبر خير كله، فقال: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع من الصَّبر»[٧]][٨].

---

(١) كما في البخاري. الجهاد والسير (٢/ ٣٦٥) ح(٣٠٢٦)، ومسلم. الجهاد والسير (٣/ ١٣٦٢) ح(١٧٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٣).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (إنما يكون).

(٣) كما في البخاري. الجنائز (١/ ٣٩٥) ح(١٢٨٣)، ومسلم. الجنائز (٢/ ٦٣٧) ح(٩٢٦)، وأحمد (٣/ ١٤٣).

(٤) ط (ﷺ).

(٥) لعله يشير إلىٰ حديث أسامة بن زيد في البخاري. الجنائز (١/ ٣٩٦) ح(١٢٨٤)، ومسلم. الجنائز (٢/ ٦٣٥) ح(٩٢٣)، وعند الحاكم: «اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» (٣/ ٤٣٢)، والطبراني في الكبرىٰ (٢٤/ ٣٠٣)، وفي مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣) وقال رجاله ثقات.

(٦) ط (ﷺ).

(٧) في الصحيحين وتقدم تخرجه ص١٨٤٢ من قوله ﷺ... «ومن يتصبر يصبره الله».

(٨) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

فصـــل

تعريف الصبر

و«الصبر» في اللغة: الحبس والكَفّ[1]، ومنه: قُتل فلان صبراً، [2] إذا أُمسك وحُبس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي احبس نفسك معهم.

فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوىٰ، وحبس الجوارح عن التشويش[3].

وهو ثلاثة أنواع: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر علىٰ امتحان الله.

فالأولان: صبر علىٰ ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر[4] علىٰ ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز عن[5] شأنها: أكمل من صبره علىٰ إلقاء إخوته

---

(١) لسان العرب ٤/ ٢٣٩١.

(٢) أ، غ، ب (أي).

(٣) لشيخ الإسلام كلام نفيس وتقسيم بديع في الفتاوىٰ ١٠/ ٤٧ ـ ٦٧٣ ـ ٦٧٧ ولابن القيم في طريق الهجرتين ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٤) (صبر) سقط من د.

(٥) ط (علىٰ).

له في الجب ، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية : فصبر و[1] اختيار ورضىٰ ، و محاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي[2] المواقعة[3] فإنه كان شاباً ، وداعيةُ الشباب إليها قوية ، وعزَباً ليس له ما يعوضه ويبرد[4] شهوته ، وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه[5] بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكاً ، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيِّدته ، وقد غاب الرقيب ، وهي الداعية له إلىٰ نفسها ، والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص ، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعي[6] كلها : صبر اختياراً ، وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس من كسبه؟[7].

وكان يقول : الصبر علىٰ أداء الطاعات أكمل من الصبر عن[8] اجتناب

---

(١) (الواو) ساقطة من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٢) الأصل (داعي) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب لموافقته الفعل الذي قبله (تقوىٰ).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الموافقة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (يود).

(٥) ط (من).

(٦) م ، ب (دعاوىٰ) وبهامشها (لعله الدواعي).

(٧) ذكر نحوه شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١٠/ ١٢٣ ، ١٧/ ٣١.

(٨) ط (علىٰ).

المحرمات[1] وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة[2]: أحب إلىٰ الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة: أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله[3] في ذلك مصنف[4] قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً، ليس هذا موضع ذكرها.

والمقصود: الكلام علىٰ «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته [5].

فصل [6]

أنواع الصبر

وهو[7] ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١٠/ ٥٧٣ ـ ٥٧٧، وانظر نحواً من هذه التقسيمات في إحياء علوم الدين ٤/ ٦٩ ـ ٧٤، ولقد بسط الحديث عنها ابن القيم في طريق الهجرتين ٣٠٦ ـ ٣٠٧، وبين الأقوال والمرجحات والتفصيل في ذلك.

(٢) ب (الطاعات).

(٣) ط (رحمه الله).

(٤) المصنَّف الذي ذكر فيه شيخ الإسلام هذه المسائل هو التحفة العراقية في الأعمال القلبية وهي مطبوعة أكثر من مرة من أفضلها ما حققه د/ يحيىٰ الهنيدي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢١هـ وهي في الفتاوىٰ ١٠/ ٥ ـ ٩٠، وأفردت «منىٰ محمد الخراط» رسالة قاعدة أمراض القلوب وعلاجها، لشيخ الإسلام بتحقيق خاص، وفيها مباحث مشابهة لما في التحفة العراقية وهي ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٩١ ـ ١٤٨.

(٥) د (والله الموفق).

(٦) ط (أنواع الصبر).

(٧) م، أ، غ، ب، ش، ق (علىٰ).

فالأول الاستعانة[1] به، ورؤيته أنه هو المُصَبِّر، وأن صَبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، يعني إن لم يُصبِّرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو[2] أن يكون الباعث[3] علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا إظهار[4] قوة النفس، والاستحماد[5] إلىٰ الخلق، وغير ذلك من الأغراض[6].

والثالث: الصبر مع الله[7]، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلّت مضاربها[8].

---

(١) ط (صبر الاستعانة).

(٢) (الصبر لله وهو) سقط من الأصل، ش، والمثبت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق، ط.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (له).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (لا لإظهار).

(٥) الاستحماد: استحمد إلىٰ الناس بإحسان إليهم استوجب عليهم حمدهم له، المعجم الوسيط ١/١٩٦.

(٦) ط (الأعراض).

(٧) (الصبر مع الله) سقط الأصل، ش، والمثبت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، وفي د، ح٢، م (الثالث من الصبر الصبر..).

(٨) مضاربها: جمع مضراب وهو الفسطاط العظيم ومعناه في لسان العرب الحيل في الحروب ١/٥٥١، ولعل المراد هنا جهاتها ونواحيها.

فهذا معنىٰ كونه صابراً مع الله ، أي قد جعل نفسه وَقْفاً[١] علىٰ أوامره و محابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها ، وهو صبر الصديقين[٢].

الأقوال المأثورة في فضل الصبر ومعناه

قال الجنيد : المسير[٣] من الدنيا إلىٰ الآخرة سهل هيِّن علىٰ المؤمن ، وهجران الخلق في جنب الله شديد ، والمسير[٤] من النفس إلىٰ الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشد[٥].

وسئل عن الصبر؟ فقال : تجرع المرارة من غير تعبُّس[٦].

[٧] وقال ذو النون[٨] : الصبر التباعد من[٩] المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنىٰ مع حلول الفقر بساحات المعيشة[١٠].

وقيل : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[١١].

---

(١) (وقفاً) سقطت من د.

(٢) انظر عدة الصابرين في بيان أشق أنواع الصبر ١٥١ .

(٣) ب (السير).

(٤) ح٢ ، ب (السير).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٨٦.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٦ ، بلفظ «من غير تعبيس» ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(٧) أ ، غ ، ب سقطت (الواو).

(٨) غ ، ب (المصري).

(٩) ب ، ح٢ (عن).

(١٠) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(١١) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وعزاه لابن عطاء ، ولم أجده في الحكم العطائية ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

وقيل: هو الفناء في البلوىٰ، بلا ظُهور[1] شكوىٰ[2].

وقيل: تعويد النفس الهجوم علىٰ المكاره[3].

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية[4].

وقال عمرو بن عثمان[5]: هو الثبات مع الله، وتلقي بلاءه بالرحب والسعة.

وقال الخواص: هو الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة[6].

وقال يحيىٰ بن معاذ: صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، وا عجبي[7] كيف يصبرون[8]؟ وأنشد:

والصبر يَجْملُ في المواطن كلِّها ... إلا عليك فإنه لا يَجْمُلُ[9]

---

(١) الأصل (بلا ظهور شكوىٰ)، ط (ولا شكوىٰ) والصحيح ما أثبته من ق.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٨٧، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ص٣٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٨٧ وعزاه لأبي عثمان، وقال ابن القيم في عدة الصابرين: قال أبو عثمان: «الصبار هو الذي عود نفسه الهجوم علىٰ المكاره» ص٣٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٧، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(٥) عمرو بن عثمان المكي، كان ينتسب إلىٰ الجنيد في الصحبة، لقي أبا سعيد الخزاز وكان شيخ القوم في وقته، توفي سنة ٢٩١هـ بمكة/ طبقات الشعراني (١/ ٨٩)، صفة الصفوة (٢/ ٢٨٤)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٩١).

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٧، وانظر عدة الصابرين ٣٤.

(٧) ق، أ، ب (واعجباً).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٨٨ وذكره في إحياء علوم الدين ٤/ ٨٠، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين عن يحيىٰ بن معاذ الرازي ٧٥.

(٩) بيت الشعر: انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٨٠، الرسالة القشيرية ٢٨٨، عدة الصابرين ٧٥ تحقيق د/ بدير.

وقيل: الصبر هو الاستعانة بالله[١].

وقيل: هو ترك الشكوىٰ[٢].

وقيل:

الصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته[٣] لكنْ عواقبه أحلىٰ من العسل[٤]

وقيل: الصبر أن ترضىٰ بتلف نفسك في رضىٰ من تحبه كما قيل:

سأتلف كي ترضىٰ وأَتْلف حسرة وحسبي أن ترضىٰ ويُتلفني صبري[٥]

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومُصطبر، ومُتصبِّر، وصَبور وصَبَّار، فالصابر: أعمُّها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء[٦] به، والمتصبر: متكلف[٧] الصبر[٨] حامل نفسه عليه، والصبور: العظيم الصبر الذي

---

(١) الرسالة القشيرية (٢٨٨)، ونسبه إلىٰ ذي النون، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(٢) ذكره أبو نعيم بسنده إلىٰ رويم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٠١، وفي عدة الصابرين عن رويم ٣٤ ونحوه عن حسان بن أبي جبلة ١٥٥، قال: «فصبر جميل» لا شكوىٰ فيه.. وفي الدر المنثور أقوال عن عدد من السلف كلها حول هذا المعنىٰ ٤/ ١٧.

(٣) أ، ب، غ (مذاقه).

(٤) بيت الشعر: أورد نحوه صاحب جواهر الأدب ٧٠٩ من غير نسبة.

(٥) عزاه القشيري بسنده لابن عطاء، الرسالة القشيرية (٢٨٨).

(٦) (المليء به) سقط من ش.

(٧) أ، غ، ب (المتكلف).

(٨) ط سقط (الصبر).

صبره أشد من غيره ، والصبار : الشديد[1] الصبر ، فهذا في القدر والكمّ[2] ، والذي قبله في الوصف[3] والكيف.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : « الصبر مطية لا تكبو »[4].

ووقف[5] رجل على الشبلي[6] ، فقال : أيُّ صبر[7] أشدّ على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله ، قال السائل : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال السائل[8] لا ، فقال : الصبر[9] مع الله ، قال[10] : لا ، قال[11] فأيْش هو؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الكثير).

(٢) (الكم) سقط من أ ، غ ، ب.

(٣) أ ، غ ، ب (والكم).

(٤) الرسالة القشيرية (٢٨٨) ، عدة الصابرين (٩٥).

(٥) ط (وقف).

(٦) الشبلي ، دلف بن جحدر بغدادي المولد ، والنشأة وأصله من (أسروشنة) أو (إشبيلية) صحب الجنيد وكان شيخ وقته ، مالكي المذهب كتب الحديث عن طائفة من أهل العلم ، وتوفي سنة ٣٣٤هـ ، طبقات الصوفية (٣٣٧) ، حلية الأولياء (١٠/ ٣٦٦) ، الرسالة القشيرية (٩٧) ، تاريخ بغداد (١٤/ ٣٨٩) ، سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٦٧).

(٧) ش (الصبر).

(٨) (السائل) سقط من ق.

(٩) (الصبر) سقط من الأصل ، والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(١٠) ق ، ط (فقال).

(١١) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (الشبلي).

الشبلي صرخة كادت روحه تتلف[١].

وقال الجريري: « الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة وحال المحنة[٢]، مع سكون الخاطر فيهما، والتصبُّر: هو السكون مع البلاء، مع وجدان أثقال المحنة »[٣].

قال أبو علي الدقاق: « فاز الصابرون بعِزِّ الدارين، لأنهم نالوا من[٤] الله معيته، فإن الله مع الصابرين »[٥].

وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أنه انتقال من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، فـ «الصبر» دون المصابرة، و«المصابرة» دون «المرابطة»، و «المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد، وسمي المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط[٦]، ومنه قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٨٠، الرسالة القشيرية٢٨٨، عدة الصابرين ٧٥ تحقيق د/ بدير، وفي قوت القلوب أقوال بمعناه ١/ ٢٣٠، ٢٤٧.

(٢) ط (المحبة).

(٣) ذكره القشيري بسنده إلىٰ الجريري الرسالة القشيرية (٢٨٨)، وهو في عدة الصابرين (٣٤) عن أبي محمد الجريري.

(٤) الأصل (مع) والأقرب ما أثبته من أ، غ، ب، ق.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٨٨، وذكره في عدة الصابرين ٤٧ ـ ٧٢.

(٦) انظر مزيداً من الشرح والبيان في عدة الصابرين ٤٠ تحقيق د/ بدير.

به الخطايا ، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء[1] علىٰ المكاره ، وكثرة الخُطىٰ إلىٰ المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»[2].

[3] وقيل : « اصبروا بنفوسكم علىٰ طاعة الله ، وصابروا بقلوبكم علىٰ البلوىٰ في الله ، ورابطوا بأسراركم علىٰ الشوق إلىٰ الله » .

وقيل : اصبروا في الله وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله » .

[وقيل : «اصبروا علىٰ النعماء ، وصابروا علىٰ البأساء والضراء ، ورابطوا في دار الأعداء ، واتقوا إله الأرض والسماء][4]، لعلكم تفلحون في دار البقاء». «فالصبر» مع نفسك ، و«المصابرة» بينك وبين عدوك ، و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة ، وكما أنّ الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو ، فكذلك المرابطة[5] أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم عليه الشيطان ، فيملكه أو يُخربه

---

(١) (الوضوء) سقط من د.

(٢) مسلم. الطهارة (١/ ٢١٩) ح(٢٥١) ، الترمذي. الطهارة (١/ ٧٢) ح(٥١) ، ابن ماجه. الطهارة (١/ ١٨٤) ح(٤٢٧) ، صحيح الترغيب (١/ ٨٣) ح(١٨٧).

(٣) في د ، ش ، ق (وقال : « رباط يوم في سبيل الله : خير من الدنيا وما فيها ») قلت : أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢/ ٣٢٩) ح(٢٨٩٢) ، مسلم . الإمارة (٣/ ١٥٠٠) ح(١٨٨١) ، الترمذي (٤/ ١٨٠) ح(١٦٤٨).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، ش ، والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، لموافقته آخر العبارة الموجودة في الأصل وهي (لعلكم تفلحون في دار البقاء).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الرباط).

أو يُشعثه [١].

وقيل : « تَجَرَّع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً» .

وقيل : « الصبر لله غناء [٢] ، وبالله [٣] بقاء ، وفي الله بلاء ، ومع الله وفاء ، وعن الله جفاء ، والصبر علىٰ الطلب عنوان الظفر ، وفي المحن عنوان الفرج » .

وقيل : « حال العبد مع الله رباطه ، وما دون الله أعداؤه » .

وفي كتاب الأدب للبخاري : سُئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال : «الصَّبر والسَّماحة » [٤] ، ذكره عن موسىٰ بن إسماعيل ، قال : حدثنا سويد

---

(١) يُشعثه : من شعث الأمر إذا انتشر ، مختار الصحاح (٣٣٩) ، ويعني هنا تفرق الهم في أودية الشهوات.

(٢) أ ، ب ، غ ، م (فناء الصبر مع الله غنا)

(٣) ط (تعالىٰ).

(٤) حديث عمرو بن عبسة أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٨٥) ، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٠٠) ، وابن ماجه مختصراً جداً رقم(٢٧٩٤) بدون لفظ « الصبر والسماحة » ، وذلك من رواية محمد بن ذكوان الصاحي الجهضمي عن شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة وفيه ثلاث علل :

الأولىٰ : شهر بن حوشب ضعيف كما في تهذيب الكمال ١٢/ ٥٧٨.

الثانية : شهر لم يسمع من عمرو بن عبسة كما في المراسيل لابن أبي حاتم (ص٨٩).

الثالثة : محمد بن ذكوان ضعيف انظر تهذيب الكمال (٢٥/ ١٨٠) ، مصباح الزجاجة للبوصيري (٢/ ٤٠٣)

ورویٰ الحديث من طريق علي الأزدي عن عبيد بن عمير عن عبدالله بن حبشي ، وليس فيه (الصبر والسماحة) ، أخرجه أحمد (٣/ ٤١٢) ، وسنده قوي إلا أنه اختلف علىٰ عبيد بن

قال :[1] حدثنا عبدالله بن عمير عن أبيه عن جده - فذكره.

وهذا من أجمع الكلام ، وأعظمه برهاناً ، وأوعبه[2] لمقامات الإيمان من أولها إلىٰ آخرها.

فإن النفس يُراد منها شيئان : بذل ما أُمرت به ، وإعطاؤه ، فالحامل عليه : السماحة ، وترك ما نُهيت عنه ، والبعد منه ، فالحامل عليه الصبر.

وقد أمر الله سبحانه[3] في كتابه بالصبر الجميل ،[4] الذي لا شكوىٰ فيه ولا معه ، و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه ، و«الهجر الجميل»[5] الذي لا

عمير فقد روي أيضاً عنه عن أبيه مرسلاً وروىٰ موصولاً وقد أخرج هذه الروايات البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٥) وذكر الاختلاف في سنده ابن أبي حاتم كما في العلل (٢/ ١٤٩) وذكر عن أبيه ترجيح المرسل ، وما حصل من عمرو بن عبسة والرسول ﷺ من أسئلة لها طرق وألفاظ كثيرة أصح أسانيدها وألفاظها ما رواه مسلم برقم (٨٣٢) ، ورواه أحمد بطرق وألفاظ أُخر لا تخلو من ضعف (٤/ ١١٢ ، ١١٤) ، وذكر له الألباني شواهد ومتابعات حسنّه لها ورجح المرسل من حديث عبيد بن عمير عن أبيه ، الصحيحة (٣/ ٤٧٨ ـ ٤٨٣) ، وفي تهذيب الكمال (٦/ ١٢١) وحلية الأولياء (٢/ ١٥٦) جعلاه من كلام الحسن البصري ، والله أعلم.

(١) (قال حدثنا) سقط من ش.

(٢) أ ، ب ، غ (وأوعية).

(٣) ط (وتعالىٰ).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د ، ق (والصفح الجميل والهجر الجميل ، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : الصبر الجميل هو) ، ب سقط (والهجر الجميل).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (هو).

أذىٰ معه.

وفي أثر اسرائيلي: «أوحىٰ الله إلىٰ نبي من أنبيائه: أنزلت بعبدي بلائي، فدعاني، فماطلته بالإجابة، فشكاني، فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟»(١).

[وقال ابن عيينة في(٢) قوله(٣): ﴿وَجَعَلْنَا(٤) مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»(٥).

وقيل: صبر العابدين، أحسنه: أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين، أحسنه: أن يكون مرفوضاً كما قيل:](٦)

تبيَّن يومَ البيْن أنّ اعتزامَه
على(٧) الصبر من إحدىٰ الظُّنون(٨) الكواذب(٩)

---

(١) لم أجده.

(٢) (في) سقطت من أ، ب، غ، م.

(٣) ط (تعالىٰ).

(٤) الأصل (وجعلناهم) والمصحَّح من القرآن.

(٥) ابن كثير (٣/ ٥٧٢)، الرسالة القشيرية (٢٩١)، عدة الصابرين (١٥٤) تحقيق د/ بدير.

(٦) ما بين المعقوفين طمس من أ.

(٧) الأصل (محل) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٨) ب (العزوم).

(٩) الرسالة القشيرية (٢٩٢)، عدة الصابرين (٨٤) تحقيق د/ بدير.

والشكوىٰ إلىٰ الله عزّ وجل لا تنافي الصبر، فإن يعقوب - عليه السلام - وعد بالصبر الجميل، والنّبي إذا وعد لا يخُلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف :٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٣].

وإنما ينافي الصبر شكوىٰ الله، لا الشكوىٰ إليه[1]، كما رأىٰ بعضهم رجلاً يشكو إلىٰ آخر فاقةً وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلىٰ من لا يرحمك؟ ثمّ أنشد:

وإذا عرَتْك بليّة فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلمُ

وإذا شكوتَ إلىٰ ابنِ آدم إنما ... تشكو الرحيمَ إلىٰ الذي لا يرحمُ[2]

* * *

(١) ط (إلىٰ الله).

(٢) البيت الثاني ذكره ابن القيم في الفوائد (الجاهل يشكو إلىٰ الناس.. ص٨٧)، ونسبه صاحب كتاب لآلئ الشعر ٢٤٨ إلىٰ علي بن أبي طالب نقلاً عن كتاب الكامل وكتاب الأمثال والحكم ونص البيت:

لا تشكو إلىٰ العباد وإنما ... تشكو الرحيم إلىٰ الذي لا يرحم

وذكره ابن القيم في طريق الهجرتين ٨٣.

فصل[1]

قال : صاحب «المنازل» :

من معاني الصبر «الصَّبْرُ : حَبْسُ النَّفسِ عَلىٰ المَكْرُوهِ ، وَعقْلُ اللِّسَانِ عَن الشَّكْوَىٰ ، وَهُوَ مِن أَصْعبِ المَنَازِلِ عَلىٰ العَامَّةِ ، وَأَوحَشُهَا فِي طَرِيقِ المحَبَّةِ ، وَأَنْكَرُهَا فِي طُرُقِ التَّوحِيدِ»[2].

[3]إنما كان صعباً علىٰ العامة : لأنَّ العامي مبتدئ في الطريق ، وما له دُرْبَة[4] بالسلوك[5] ، ولا تهذيب المرتاض[6] بقطع المنازل ، فإذا[7] أصابته المحن[8] أدركه الجزع ، وصعب عليه احتمال البلاء ، وعَزّ عليه وجدان الصبر؛ لأنه ليس من أهل الرياضة ، فيكون مستوطناً للصبر ، ولا من أهل المحبة ، فيلتذ

---

(١) (فصل) طمس من أ.

(٢) في المنازل [حبس النفس علىٰ جزع كامن عن الشكوىٰ ، وهو أيضاً من أصعب..] ٣٨.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وإنما).

(٤) م (دراية).

(٥) ط (في السلوك).

(٦) المرتاض : ذكر في لسان العرب معانٍ متعددة يجمعها الاستيطان للشيء وفي آخره قال : إن الرَّيِّض من الدواب ضد الذلول وهو من التفاؤل ، وذللها علمها السير يُقال يروضها روضاً ورياضة واستراض المكان : فسح ، انظر لسان العرب ٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٧) ق (فإن).

(٨) (المحن) سقط من ش.

بالبلاء في رضىٰ محبوبه.

وأما وحشته(١) في طريق المحبة : فلأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوبه له ، والصبر يقتضي(٢) كراهيته لذلك ، وحبس نفسه عليه كرهاً ، فهو وحشة في طريق المحبة.

وفي الوحشة نكتة لطيفة؛ لأن الالتذاذ بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب بالمحبوب ، فإذا أحسَّ بالألم - بحيث يحتاج إلىٰ الصبر - انتقل من الأنس إلىٰ الوحشية ، ولولا الوحشة لما أحسَّ بالألم المستدعي للصبر.

وإنما أنكرها في طريق التوحيد : لأن فيه قوة الدعوىٰ؛ لأن الصابر يدَّعي بحالة قوة الثبات(٣) ، وذلك ادِّعاء(٤) منه لنفسه قوة عظيمة ، وهذا مصادمة لتجريد التوحيد ، إذ ليس لأحد قوة البتة؛ بل لله القوة جميعاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله(٥).

فهذا سبب كون الصبر منكراً في طريق التوحيد؛ بل من أنكر المنكر - كما قال - لأن التوحيد يرد الأشياء إلىٰ الله ، والصبر يرد الأشياء إلىٰ النفس ، وإثبات النفس في التوحيد منكر.

---

(١) د ، ط (كونه وحشة).

(٢) ق (تقتضي).

(٣) ق (الشباب).

(٤) ط (ادعاءه).

(٥) أ ، ب ، غ (العلي العظيم).

هذا حاصل كلامه محرَّراً مقرَّراً، وهو من مُنْكر كلامه [1].

بل الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، وهم أحوجُ إلىٰ منزلته [من كل منزلة][2] وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأَبْيَنِها.

وحاجة المحب إليه ضرورية.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية، مع منافاته لكمال المحبة، فإنه[3] لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟.

قيل: هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها وصادقها من كاذبها، فإن بقوة الصبر علىٰ المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته.

ومن هاهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالىٰ، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا[4] عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق، وتجشم المكاره بالصبر: لما ثبت[5] صحة محبتهم[6]،

---

(١) من مخالفات ابن القيم للهروي.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٣) غ (فلأنه).

(٤) انخلعوا: من خلع الشيء يخلعه خلعاً، كنزعه وطرحه، يقال خلع من الدين والحياء، وقوم خلعاء بيِّنُوا الخلاعة، لسان العرب ٨/ ٧٧.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د (ثبتت).

(٦) م، أ (صحبتهم).

و(١)تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالىٰ بالصبر خاصة أحبائه وأوليائه(٢) فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، ثمّ أثنىٰ عليه، فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر(٣) أن صبره به، وأثنىٰ علىٰ الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان - كما تقدم - فجعله قرين التوكل واليقين(٤)، والإيمان، والأعمال، والتقوىٰ.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو(٥) الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك.

وليس في استكراه النفوس لألم ما لم تصبر عليه، وإحساسها به، ما يقدح في محبتها ولا توحيدها، فإن إحساسها بالألم، ونفرتها منه: أمر طبعي(٦) لها،

---

(١) ط (قد).

(٢) ط (أوليائه وأحبائه).

(٣) أ، ب (وأخبره).

(٤) ق، ط (اليقين والتوكل).

(٥) الأصل، ش، د، م (لا ينتفع بها ألا الصبر) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، ق، ط.

(٦) أ، غ، ب، د، ش، ق (طبيعي).

كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب، وتألمها بفقده، فلَوَازم النفس لا سبيل إلىٰ إعدامها وتعطيلها بالكلية وإلا لم تكن نفساً[١] إنسانية وارتفعت[٢] المحبة[٣] وكانت عالماً آخر.

و«الصبر» و «المحبة» لا يتناقضان؛ بل يتواخيان ويتصاحبان[٤]، والمحب صبور بلىٰ[٥] علة الصبر في الحقيقة: المناقضة للمحبة، المزاحمة للتوحيد أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضىٰ المحبوب؛ بل إرادة غيره، أو مزاحمته بإرادة غيره، أو المراد منه، لا مراده، هذه هي وحشة الصبر ونكارته.

وأما من رأىٰ صبره لله، وصبر بالله[٦]، وصَبره مع الله، مشاهداً أن صبره به تعالىٰ لا بنفسه، فهذا لا يلحق[٧] محبتَه وحشةٌ، ولا توحيدَه نكارةٌ.

ثم لو استقام له هذا لكان في نوع واحد من أنواع الصبر، وهو الصبر علىٰ المكاره.

فأما الصبر علىٰ الطاعات - وهو حبس النفس عليها -، وعن المخالفات

---

(١) م، ح٢ (نفسانية) و (نفساً) سقطت من أ، غ، ب.

(٢) ط (ولا ارتفعت).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط (المحنة).

(٤) (يتصاحبان) سقط من ق.

(٥) ش (بل).

(٦) ق (صبره بالله وصبر لله)، وفي أ، غ، ح٢، ب (وصبر به) وفي م (وصبره به).

(٧) ط (تلحق).

- وهو منع النفس منها طوعاً واختياراً والتذاذاً - فأي وحشة في هذا؟ وأي نكارة فيه؟.

فإن قيل : إذا كان يفعل ذلك طوعاً و محبة ، ورضىٰ وإيثاراً : لم يكن الحامل له علىٰ ذلك الصبر ، فيكون صبره في هذه(١) الحال ملزوم الوحشة والنكارة ، لمنافاتها لحال المحب.

قيل : لا منافاة في ذلك بوجه ، فإن(٢) صبره حينئذ قد اندرج في رضاه ، وانطوىٰ فيه(٣) ، وصار الحكم للرضىٰ ، لا أن الصبر عُدم؛ بل لقوة وارد الرضىٰ والحب(٤)، وإيثار مراد المحبوب ، صار المشهد والمنزل للرضىٰ بحكم الحال، والصبر جزء منه ومنطوٍ فيه ، ونحن لا ننكر هذا القدر ، فإن كان هو المراد ، فحبذا(٥) الوفاق ، وليس المقصود القيل والقال ، ومنازعات الجدال.

وإن كان غيره : فقد عرف ما فيه(٦).

* * *

---

(١) ق (هذا).

(٢) ش (لأن).

(٣) (فيه) سقط من غ.

(٤) ق (المحب).

(٥) م ، أ ، غ (فحينئذ).

(٦) ق (والله أعلم) ، ط (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

فصـــل

درجات الصبر

الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : الصَّبرُ عَن المعصِيَةِ ، بِمُطَالَعَةِ الوَعِيدِ : إِبقَاءً عَلىٰ الإِيمَانِ ، وَحَذراً مِن الحرَامِ[1] ، وَأَحسَنُ مِنهَا : الصَّبرُ عَن المعصِيةِ حَيَاءً»[2].

ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين :

أما السببان : فالخوف من لحوق الوعيد المترتب[3] عليها.

والثاني «الحَياء» من الرب تبارك وتعالىٰ أن[4] يُستعان علىٰ مَعاصيه بِنِعَمه ، وأن يُبارز[5] بالعظائم.

وأما الفائدتان : فالإبقاء علىٰ الإيمان ، والحذر[6] من الحرام.

فأما مطالعة الوعيد ، والخوف منه : فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر ، والتصديق بمضمونه.

وأما الحياء : فيبعث عليه قوة المعرفة ، ومشاهدة معاني الأسماء والصفات.

---

(١) في منازل السائرين (الجزاء) (ص٣٨).

(٢) منازل السائرين (٣٨).

(٣) أ ، ب ، غ (المرتب).

(٤) (أن) سقط من ق.

(٥) ق (وأن يبارزه).

(٦) ق (الخدر).

وأحسن من ذلك : أن يكون الباعث عليه وازع الحب ، فيترك معصيته محبة له ، كحال الصُهيْبيين[1].

وأما الفائدتان : فالإبقاء علىٰ الإيمان : يبعث علىٰ ترك المعصية؛ لأنها لا بدّ أن تنقصه ، أو تذهب به ، أو تذهب رونقه[2] وبهجته[3] ، أو تطفئ نوره ، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته، و[4]هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان، يُعلم بالوجود والخبر والعقل كما صحَّ عنه ﷺ : «لا يزني الزّاني حين يزني

---

(١) في هذا إشارة إلىٰ ما ورد : «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».
أورده السيوطي في تدريب الراوي (٢/ ١٧٥) من الأحاديث المشتهرة علىٰ ألسنة النحاة ، وقال : قال العراقي وغيره : لا أصل له ولا يوجد بهذا اللفظ في شيء من كتب الحديث وذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (ص٤٤٩) وقال : ذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب ، قال : ثم رأيت بخط شيخنا أنه ظفر به في مشكل الحديث لابن قتيبة لكن لم يذكر إسناداً.
وقد روي عن عمر مرفوعاً نحوه لكنه في سالم مولىٰ أبي حذيفة : «لو كان لا يخاف الله عزّ وجل ما عصاه» ، حلية الأولياء (١/ ١٧٧) ، وضعفه السخاوي في المقاصد (٤٤٩) ، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٢٨) رقم (٢٨٣١) ، وقال علي بن سلطان القاري في المصنوع (٢٠٢) لا أصل له كما صرح به الحفاظ وكذلك الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٥٦ ، ٥٧) قال لا أصل له ، وكذلك الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٢) رونقه : الرونق رونق السيف ، ماؤه وصفاؤه وحسنه ، ورونق الشباب أوله وطراوته ، المعجم الوسيط (١/ ٣٧٦)

(٣) بهجته : البهجة الحسن والنظارة ، لسان العرب ٢/ ٢١٦.

(٤) (الواو) ساقطة من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق.

وهو مؤمن ، ولا يشربُ الخمرة حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نُهبةً ذات شرف - يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها - وهو مؤمن فإياكم إياكم ، والتوبة معْروضَة بَعد»[1].

وأما الحذر عن[2] الحرام : فهو الصبر عن كثير من المباح ، حذراً من أن يسوقه إلىٰ الحرام.

ولما كان «الحياء» من[3] شيم الأشراف ، وأهل الكرم والنفوس الزكية : كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف.

و[4]لأن في الحياء من الله ما يدل علىٰ مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف : قلبه حاضر مع العقوبة ، ومن وازعه الحياء : قلبه حاضر مع الله ، والخائف[5] مراع جانب نفسه وحمايتها ، والمستحي مراع جانب ربه ، وملاحظ[6] عظمته.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢/ ٢٠١) ح(٢٤٧٥) ، مسلم. الإيمان (١/ ٧٦) ح(٥٧) ، أحمد (٢/ ٣٧٦).

(٢) ش (من).

(٣) م ، ح٢ (هو) ، أ ، غ ، ب (الحياء شيم).

(٤) (الواو) سقطت من ق ، غ ، ب.

(٥) ق (الخايف).

(٦) د ، ش ، ح٢ (ملاحظة).

وكلا[1] المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلىٰ مقام الإحسان ، وألصق به فإنه إذا نزل[2] نفسه منزلة من كأنه يرىٰ الله ، فنبعت[3] ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الصَّبرُ عَلىٰ الطَّاعةِ ، بِالمحُافَظَةِ عَلَيهَا دَوَاماً ، وَبِرِعَايَتِهَا إخْلاصاً ، وَبِتَحسِينِهَا عِلْماً**»[4].

هذا يدل علىٰ أنَّ عنده : أنّ فعل الطاعة آكد من ترك المعصية ، فيكون الصبر عليها فوق الصبر علىٰ[5] ترك المعصية في الدرجة.

وهذا هو الصواب - كما تقدم - فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة، والنهي مقصود للأمر ، فالمنهي عنه لما كان يُضعف المأمور به ويَنْقُصه[6] : نهىٰ عنه حماية ، وصيانة لجانب[7] الأمر ، فجانب الأمر أقوىٰ وآكد ، وهو بمنزلة الصحة [والحياة ، والنهي بمنزلة الحِمية التي تراد لحفظ الصحة][8] و[9]أسباب

(١) أ ، ب ، غ (وكل).

(٢) ب ، أ (إذا أنزل).

(٣) أ ، ب ، غ (ينبعث).

(٤) منازل السائرين ٣٨.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (عن).

(٦) ش ، د ، ق (ويهجنه).

(٧) (لجانب الأمر) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من أ ، غ ، ب.

(٩) أ ، ب ، غ (في) بدل (الواو).

الحياة.

وذكر الشيخ : أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء : دوام الطاعة ، والإخلاص فيها ، ووقوعها علىٰ مقتضىٰ العلم ، وهو تحسينها علماً(١).

فإن الطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه الثلاثة ، فإنه(٢) إن لم يحافظ عليها دواماً عطلها ، وإن حافظ عليها(٣) دواماً عرض لها(٤) آفتان:

إحداهما(٥) : ترك الإخلاص فيها ، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله ، وإرادته والتقرب إليه ، فحفظها من هذه الآفة(٦) برعاية الإخلاص.

الثانية : ألا تكون مطابقة للعلم(٧) ، بحيث لا تكون علىٰ اتباع السنة ، فحفظها من هذه الآفة : بتجريد المتابعة ، كما أن حفظها من تلك الآفة(٨) بتجريد القصد والإرادة فلذلك قال : «**بِالمُحَافَظَةِ عَلَيهَا دَوَاماً ، وَرِعَايَتِهَا إِخْلَاصاً ، وَتحْسِينِهَا عِلْماً**(٩)».

---

(١) م ، ح٢ (عملاً).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (فإن العبد).

(٣) ط (عليه).

(٤) ب (له).

(٥) ق (أحدهما).

(٦) ط (الآية).

(٧) (للعلم) سقط من ش.

(٨) (الآفة) سقط من ق.

(٩) م ، ح٢ (عملاً).

فصل

قال : « الدَّرَجَـةُ الثَّالِثَـةُ : الصَّبرُ فِي البَـلَاءِ ، بِمُلاحَظَةِ حُسْنِ الجَزَاءِ ، وَانتِظَـارِ رَوحِ الفَـرَجِ ، وَتَهْوِينِ البَلِيَّـةِ بِعَدِّ أَيَادِي المِنَنِ ، وَتذَكُّرِ[١] سَوَالِفِ النِّعَمِ »[٢]. الدرجة الثالثة

هذه ثلاثة أشياء ، تبعث[٣] علىٰ الصبر في البلاء.

إحداها[٤] : ملاحظة حسن الجزاء وعلىٰ حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض ، وهذا كما يخف علىٰ كل متحمل مشقة عظيمة حملها ، لما يُلاحظ من لذة عاقبتها وظفره بها ، ولولا ذلك لتعطّلت مصالحُ الدنيا والآخرة ، وما أقْدَمَ أحدٌ علىٰ تحمّل مشقةٍ عاجلة إلا لثمرةٍ مؤجلة ، فالنفس موكلة[٥] بحب العاجل ، وإنما خاصة العقل : تلمح العواقب ، ومطالعة[٦] الغايات.

وأجمع العقلاء من كل[٧] أمة علىٰ أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من رافق

---

(١) ب ، ط (بذكر) وسقطت من د .

(٢) منازل السائرين (٣٩).

(٣) د ، هامش ق (المتلبس بها).

(٤) ق (أحدها).

(٥) ش (مولعة).

(٦) ب ، غ (مطالعات).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (عقلاء كل أمة).

الراحة فارق الراحة[1] وأن قدر[2] التعب تكون الراحة.

عليٰ قدر أهل العزم تأتي العزائـمُ وتأتي عليٰ قدر الكريم[3] الكرائمُ

[4]ويكبر في عين الصغير صغارُهـا[5] وتصغُر في عيـن العظيـم العظائـمُ[6]

والقصد : أن ملاحظة حسن العاقبة تعين عليٰ الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني : «انتِظَارُ رَوحِ الفَرَجِ».

يعني راحته ونسيمه ولذته ، فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة ، ولا سيما عند قوة الرجاء و[7]القطع بالفرج ، فإنه يجد في حشو[8] البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته : ما هو من خفي الألطاف[9] ، وما هو

---

(١) د ، ق (وحصل عليٰ المشقة وقت الراحة في دار الراحة).

(٢) كذا في الجميع ولعل الأقرب : «وأن عليٰ قدر التعب..» وهو المثبت في طبعة المنار وطبعة بشير عيون ٢/ ١٧٥.

(٣) في ديوان المتنبي (الكرام).

(٤) في ديوان المتنبي (وتعظم).

(٥) الأصل (صغيرها) والصحيح ما أثبته من الديوان ، ش ، ح٢.

(٦) القائل هو المتنبي/ شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢/ ٩٤ من الجزء الرابع.

(٧) ط ، ح٢ (أو).

(٨) حشو البلاء : لم أجد في اللسان ما يدل عليٰ استعمالها هنا ، انظر لسان العرب ١٤/ ١٧٨ ـ ١٨٣ ، المعجم الوسيط ٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٩) الألطاف : لطف الشيء : رقَّ ، ضد كثف ، واللطف : الرفق ، وما أكثر تحفه وإلطافه : أي أهدىٰ ، المعجم الوسيط ٢/ ٨٢٦.

فرج معجل، وبه - وبغيره - يفهم معنىٰ اسمه «اللطيف[1]».

والثالث: «تَهْوِينُ البَلِيَّةِ» بأمرين.

أحدهما: أن يعدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده، فإذا[2] عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه - بالنسبة إلىٰ أيادي الله ونعمه - كقطرة من[3] بحر.

والثاني: تذكر[4] سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي، وتعداد أيادي المنن: يتعلق[5] بالحال، وملاحظة حسن[6] الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء. ويحكىٰ عن امرأة من العباد[7] أنها عثرت، فانقطعت إصبعها، فضحكت،

---

(١) معنىٰ اللطيف: أنه هو الذي يسري لطفه الخفي في رفق ورأفة في جميع مخلوقاته من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، والله عزّ وجل.. لطيف عن أن تدركه الأبصار، ومن لطفِه: لطفُه بالأجنة في بطون الأمهات، واللطف لا يكون إلا عن علم وقوة وعزة، وحظ الإنسان من ذلك، أن يتخلق بالرفق واللين بالعباد. انظر. ولله الأسماء الحسنىٰ ٨٨، المقصد الأسنىٰ ٧٤، تفسير أسماء الله الحسنىٰ ٤٤، اشتقاق أسماء الله ١٣٨.

(٢) ق (وإذا).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب (في).

(٤) ق (يذكر).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د (تتعلق).

(٦) (حسن) سقط من ش.

(٧) م، غ، ح٢، ق، ب، د (العابدات)، أ، ب في المتن (المتعبدات) وفي الهامش (العابدات).

فقال لها بعض من معها : أتضحكين ، وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت : أخاطبك علىٰ قدر عقلك ، حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها[١] ، إشارة إلىٰ أن عقله لا يحتمل[٢] ما فوق هذا المقام ، من ملاحظة المبتلي ، ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء ، وتلذذها بالشكر له ، والرضىٰ عنه ، ومقابلة ما جاء من قبله بالحمد والشكر ، كما قيل :

لئن ساءني أن نلتني بمساءةٍ   فقد[٣] سرَّني أني خطرت ببالكا[٤]

فصل[٥]

قال : «وَأَضْعَفُ الصَّبرِ : الصَّبرُ لله ، وَهُوَ صَبرُ العَامَّةِ ، وَفَوقُهُ الصَّبرُ بالله ، وَهُوَ صَبرُ المرُيدِينَ[٦] ، وَفَوقُهُ الصَّبرُ عَلىٰ الله ، وَهُوَ صَبرُ السَّالِكِينَ»[٧].

معنىٰ كلامه : أن صبر العامة لله ، أي رجاء ثوابه ، وخوف عقابه ، وصبر المريدين بالله : أي بقوته ومعونته، فهم لا يرون لأنفسهم صبراً، ولا قوة[٨]

(١) هذه القصة عزاها الغزالي لامرأة فتح الموصلي. إحياء علوم الدين ٤/ ٧٣.

(٢) هامش ب (لعله لا يحتمل).

(٣) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لقد).

(٤) بيت الشعر : قائله عبدالصمد بن المعذل : في ديوانه ١٥٢.

(٥) (فصل) طمس في أ ، ق.

(٦) المنازل (المريد).

(٧) منازل السائرين ٣٩.

(٨) ط (لهم).

عليه؛ بل حاملهم التحقق[1] بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» علماً ومعرفة وحالاً.

وفوقهما الصبر علىٰ الله ، أي علىٰ أحكامه ، إذ صاحبه يشهد المتصرف فيه ، فهو يصبر علىٰ أحكامه الجارية عليه ، جالبة عليه ما جلبت من محبوب ومكروه ، فهذه درجة صبر السالكين.

وهؤلاء الثلاثة عنده من العوام، إذ هو في مقام الصبر، وقد ذكر أنه للعامة ، وأنه من أضعف منازلهم.

هذا تقرير كلامه.

والصواب : أن الصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلىٰ درجة[2] وأجل ، فإن الصبر لله متعلق بالإلهية[3] ، والصبر به : متعلق بربوبيته ، وما تعلق بإلهيته[4] أكمل وأعلىٰ مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له عبادة ، والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مُشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به [5].

---

(١) ق ، ش (التحقيق).

(٢) ط (منه).

(٣) ق ، ط (بإلهيته).

(٤) أ ، ب (بالإلهية).

(٥) الحقيقة الكونية والدينية تقدم الحديث عنهما ص١٧١٨، وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ١٦٤ - ٦٦٧ .

وأما الصبر له : فمنزلة الرسل والأنبياء والصدِّيقين ،[1] أصحاب مشهد : «إياك نعبد وإياك نستعين».

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له مَرضي[2] له ، والصبر به : قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون في مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا؟.

وأما تسمية «الصَّبر عَلىٰ أحَكَامِهِ» صبراً عليه ، فلا مشاحة في العبارة بعد معرفة المعنىٰ ، فهذا هو الصبر علىٰ أقداره ، وقد جعله الشيخ في الدرجة الثالثة ، وقد عرفت بما تقدم : أن الصبر علىٰ طاعته ، والصبر عن معصيته : أكمل من الصبر علىٰ أقداره - كما ذكرنا[3] -[4] فإن الصبر فيهما[5] صبر اختيار وإيثار و محبة ، والصبر علىٰ أحكامه الكونية : صبر ضرورة ، وبينهما من البون ما قد عرفت.

---

٤٨٥ ، والمراد به هنا : « شهود القدر ، وهو الجمع الذي تشترك فيه جميع المخلوقات - سعيدها وشقيها - مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر.. » ، الفتاوىٰ ١٠/ ٦٦٨.

(١) ط (وأصحاب).

(٢) ط (مرضىٰ).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (في صبر يوسف عليه السلام).

(٤) وقد أشار شيخ الإسلام إلىٰ صبر يوسف - عليه الصلاة والسلام - في أمراض القلوب ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ١٢٣ ، وفي جواب أهل العلم والإيمان. الفتاوىٰ ١٧/ ٣١.

(٥) غ ، ب (فيها).

وبذلك[1] كان صبر[2] إبراهيم وموسىٰ ونوح[3]،[4] عليهم الصلاة والسلام، علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً[5] عن فعله[6].

وكذلك[7] صَبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم[8] علىٰ تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف.

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (وكذلك).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (نوح).

(٣) ق (عيسىٰ).

(٤) الموضع الأول من الخلط في نسخة (ق) لما بلغ قوله: (وعيسىٰ)، قفز إلىٰ قوله: (ليس رجاءً مشوباً بشك) ص١٨٨٧، فلما بلغ قوله: (ولا يستبدل حالاً) ص١٩٠٠، رجع إلىٰ قوله (وعيسىٰ عليهم السلام علىٰ ما نالهم..) ص١٨٧٥، فلما بلغ قوله: (من كرامته دائماً لكنه) ص١٨٨٧، قفز إلىٰ قوله: (هذا الذي ذكره الشيخ) ص١٩٠٠، ومحصلة هذا الأمر تقديم وتأخير لا سقط فيه لكنه يحدث اضطراباً في المعلومات.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (سبباً).

(٦) انظر تعليق شيخ الإسلام علىٰ مسألة من ابتُلي ومن تعرض للبلوىٰ، الفتاوىٰ ١٠/ ٥٧٧. ولا يدخل في هذا من تعرض للبلوىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ الله فإن من سلك ذلك الطريق فلا بد له من ابتلاء.

وانظر تقسيم ابن القيم في هذه المسألة في عدة الصابرين ٦٦ وما بعدها، تحقيق د/ بدير أحمد بدير.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (كان).

(٨) ط (عليهما السلام).

فعلمت[1] أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله ، والصبر علىٰ طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر علىٰ قضائه وقدره ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإن قلت : الصبر بالله أقوىٰ من الصبر لله ، فإن ما كان بالله كان بحوله وقوته، وما كان به لم يقاومه شيء ، ولم يقم له[2] ، وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير، والصبر لله صبر أهل العبادة والزهد ، ولهذا هم - مع إخلاصهم[3] وصبرهم لله - أضعف من الصابرين به ، فلهذا قال : «وَأَضْعَفُ الصَّبرِ : الصَّبرُ لله».

قيل : المراتب أربع .

إحداها : مرتبة الكمال ،[4] مرتبةُ أُولي العزم ، وهي الصبر لله وبالله ، فيكون[5] في صبره[6] مبتغياً وجه الله ، صابراً به ، متبرئاً من حوله وقوته ، فهذا أقوىٰ المراتب[7] وأفضلها.

---

(١) ط (بهذا).

(٢) ط زيادة (شيء).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وزهدهم).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (وهي).

(٥) (فيكون) سقطت من أ ، غ ، ب.

(٦) (في صبره) سقط من أ ، غ ، ب.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وأرفعها).

الثاني[1] : أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا ، فهذا أخسُّ المراتب ، وأردأ الخلق ، وهو جدير بكل خذلان ، وبكل حرمان.

الثالث[2] : من فيه صبر بالله ، وهو[3] مستعين متوكل علىٰ حول الله وقوته[4] ، متبرئ من حوله وقوته ، ولكن صبره ليس لله ، إذ ليس[5] فيما هو مراد الله الديني منه ، فهذا ينال مطلوبه ، ويظفر به ، ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

وفي هذا المقام خفراء[6] الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية ، فإن صبرهم بالله لا لله ، ولا في الله ، ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم ، وهم من جنس الملوك الظلمة ، فإن الحال كالملك يُعطاه البر والفاجر ، والمؤمن والكافر.

الرابع : من فيه صبر لله؛ لكنه ضعيف النصيب من الصبر به ، والتوكل عليه ، والثقة[7] به ، والاعتماد عليه ، فهذا له عاقبة حميدة ،

---

(١) ط (الثانية).

(٢) ط (الثالثة مرتبة).

(٣) ق (فهو).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د (حوله وقوته).

(٥) ط زيادة (صبره).

(٦) أ ، م ، غ ، ب (صبراء).

(٧) (والثقة به) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، (به) سقطت من ق.

ولكنه ضعيف عاجز ، مخذول في كثير من مطالبه ، لضعف نصيبه من «إياك نعبد وإياك نستعين» فنصيبه من الله : أقوىٰ من نصيبه بالله ، فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصابر[١] بالله ، لا لله : حال الفاجر القوي ، وصابر[٢] لله وبالله : حال المؤمن القوي ، والمؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف[٣].

فصابر[٤] لله وبالله عزيز حميد ، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول ، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم ، ومن هو[٥] لله لا بالله عاجز محمود.

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذا الباب ، ويتبين فيه الخطأ من الصواب[٦].

* * *

(١) الأصل (صاحب) والصحيح ما أثبته من أ ، غ ، ب ، ط.

(٢) الأصل (صاحب) والصحيح ما أثبته من أ ، غ ، ب ، ط.

(٣) «المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» أخرجه مسلم. القدر (٤/ ٢٠٥٢) ح(٢٦٦٤) ، أحمد (٢/ ٣٧٠) ، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٦/ ١٥٩) رقم(١٠٣٧٥) ، ابن ماجه. الزهد رقم (٤١٦٨) ، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٩).

(٤) الأصل (صاحب) والصحيح ما أثبته من أ ، غ ، ب ، ط.

(٥) (هو) سقطت من د.

(٦) ق (والله أعلم) ، و أ ، ب (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

فصـــل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الرِّضىٰ»[1]. منزلة الرّضىٰ

وقد أجمع العلماء علىٰ أنه مُستحب، مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه[2] علىٰ قولين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يحكهما[3] قولين لأصحاب أحمد، وكان يذهب إلىٰ القول باستحبابه[4].

قال: ولم يجيء الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء علىٰ أصحابه ومدحهم.

---

(١) الرضىٰ: هو عند أهل الطريق اسم للوقوف الصادق، وهو الوقوف مع مراد الله وقوفاً بالحقيقة من غير تردد.. فلا يكره شيئاً أصلاً إلا ما كان مخالفاً للشرع، فهو ينكره ويكرهه امتثالاً للشرع.. وهو عندهم درجات، منها أن لا يجد العبد حرجاً مما قدر الحق وقضاه، وهو يعني الرضا في الدنيا تحت مجاري الأحكام، وهو عند بعضهم ليس أن لا تحس ولكنه أن لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء، وأكتفي بهذا لأن ابن القيم نقل جملة من تعريفاتهم للرضىٰ، وانظر ذلك في: التعرف ١٢٠ - ١٢١، عوارف المعارف ٥٠١، قوت القلوب ٢/ ٣٨، لطائف الإعلام ١/ ٤٩٠ - ٤٩١، الرسالة القشيرية ٢٩٧، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢، وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ٤٣ - ٤٧ - ٤٨٢.

(٢) (في وجوبه) سقط من أ، ب، غ.

(٣) ط (يحكيهما علىٰ).

(٤) الفتاوىٰ ١٠/ ٤٠ - ٤١، التحفة العراقية تحقيق د/ يحيىٰ الهنيدي ٣٥٦ - ٣٥٧.

قال: وأما ما يروىٰ من الأثر[١] «من لم يصبر علىٰ بلائي، ولم يرضَ بقضائي، فليتخذ رباً سواي» فهذا أثر إسرائيلي ، ليس يصح عن النبي ﷺ[٢].

قلت : ولا سيما عند من يرىٰ أنه من جملة الأحوال التي[٣] ليست بمكتسبة ، وأنه[٤] موهبة محضة ، فكيف يؤمر به ، وليس مقدوراً ؟[٥] .

وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك علىٰ ثلاث طرق.

فالخُراسانيون[٦] قالوا : إن[٧] الرضىٰ من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل،

---

(١) م (الإسرائيلي).

(٢) الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠) وضعف إسناده العراقي كما في تعليقه علىٰ إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٧) فيه سعيد بن زياد بن هند متروك ، وقال ابن حجر : فائد وولده ضعيفان ، الإصابة (٤/ ٢١٢) ، وأورده ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٢٧) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٣٣) ، وفي قوت القلوب (٢/ ٤٧) ، وفي تنبيه الغافلين نسبه لابن عباس (٢٦٣) ، وانظر تعليق شيخ الإسلام علىٰ مثل هذه الحكايات الإسرائيلية في الاستقامة (٢/ ٨٢) ، وذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة (٣/ ٢٠٤) ، من غير تعليق.

(٣) (التي) سقط من د.

(٤) ط (بل هو) بدل (وأنه).

(٥) ط زيادة (عليه).

(٦) الخراسانيون والشاميون والبغداديون والعراقيون أسماء لبعض المتصوفة لها صلة بالبلد والسلوك الذي يميز بعضهم عن بعض ، انظر في هذه المسألة عوارف المعارف ٦٦ ، دراسات في الفكر العربي الإسلامي للإستاذ عرفان فتاح ٣٢٥ ، وانظر المدارج ١/ ١٣٥ ، الرسالة القشيرية ٢٩٧.

(٧) (إن) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

اختلاف الخراسانيين والعراقيين في مسألة الرضا

فعلىٰ هذا[1] يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه.

والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال وليس، كسبياً[2] للعبد؛ بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال[3]: أن المقامات عندهم من المكاسب،

---

(١) (فعلىٰ هذا) سقطت من ش.

(٢) د (كسباً).

(٣) المقامات والأحوال: الحال مقدمة المقام فإن المبتدئ بالذكر يصل إلىٰ طمأنينة مؤقتة لا تلبث آن تزول فهذه حال، فإذا وصل إلىٰ طمأنينة دائمة للقلب فهذا مقام، فالحال ما يرد فجأة وهو أوائل المقام الذي هو الاستقرار والدوام، والمقامات تختلف عند أهل الطرق من حيث الأنواع والأعداد، فالمقامات تتراوح عندهم من السبعة إلىٰ التسعة ومنها التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضىٰ..، والأحوال مثل القبض والبسط، والهيبة والأنس، والصمود والسكر، والجمع والفرق، والفناء والبقاء، والمكاشفة والمشاهدة، وهذه الأسماء متداولة في أمهات كتبهم علىٰ تفاوت في الوضوح والترتيب كما في إحياء علوم الدين والرسالة القشيرية والتعرف وغيرها.

المقام: من الاصطلاحات التي تعددت تعريفاته عندهم مع عدم وضوح مرادهم به، لكن تعريف الحال عندهم يفهم منه المراد بالمقام والحال كما سبق تعريفه ص١٨٢٨ إنما هو لتحوله وزواله، والمقام لإقامته واستقراره فإذا كان الأمر غير مستقر فهو الحال فإذا استقر أصبح مقاماً، ولا يرتقي من مقام حتىٰ يستوفي أحكام ذلك المقام سواء من العبادات أو المجاهدات أو الرياضات، انظر لطائف الإعلام ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٣٢، ١/ ٤٠٣، معجم مصطلحات الصوفية ٢٤٨، عوارف المعارف ٥/ ٢٢٧ كشف المحجوب ٢/ ٤٠٩، الحركة الصوفية في الإسلام ١١٦، الكشف عن حقيقة الصوفية ٣٧٩، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ١٥٠.

والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين، منهم[1] - صاحب الرسالة[2] - وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما، بأن يقال: بداية «الرضىٰ» مكتسبة للعبد، وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال، وليست[3] مكتسبة: فأوله مقام، ونهايته حال.

واحتج من جعله من جملة المقامات: بأن الله مدح أهله، وأثنىٰ عليهم، وندبهم إليه، فدل[4]، [5]علىٰ أنه مقدور لهم.

وقال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً**»[6].

وقال: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً، غُفرت له ذنوبه**»[7].

---

(١) ط (القشيري) وفي هامش غ، ب، أ (هو أبو القاسم القشيري).

(٢) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري، وانظر تقسيمه في الرسالة القشيرية ص١٢٤ - ١٢٥.

(٣) (وليست) سقطت من ح٢.

(٤) أ، غ، ب (يدل).

(٥) ط (ذلك).

(٦) مسلم. الإيمان (١/ ٦٢) ح(٣٤)، أحمد (١/ ٢٠٨)، الترمذي. الإيمان (٥/ ١٤) ح(٢٦٢٣) وقال حديث حسن صحيح.

(٧) مسلم. الصلاة (١/ ٢٩٠) ح(٣٨٦)، أحمد (١/ ١٨١)، الترمذي. الصلاة (١/ ٤١١) ح(٢١٠)، أبو داود. الصلاة (١/ ٣٦٠) ح(٥٢٥).

ما يتضمنه الرضى بالوهيته وربوبيته سبحانه

وهـذان الحـديثان علـيهما مـدار مقامـات الـدين ، وإلـيهما[١] ينتهـي ، وقـد تضمنا[٢] الرضىٰ بربوبيتـه سبحانه وألوهيتـه ، والـرضىٰ برسـوله ، والانقيـاد لـه ، والرضىٰ بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة : فهو الصدّيق حقاً ، وهي سهلة بالـدعوىٰ واللسان ، وهـي[٣] مـن[٤] أصعب الأمـور عنـد الحقيقـة[٥] والامتحان ، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادها من ذلـك ، تبين أن الرضىٰ كان[٦] علىٰ لسانه لا علىٰ حاله.

فالرضىٰ بإلهيته يتضمن الرضىٰ بمحبته وحـده ، وخوفـه ، ورجائـه ، والإنابـة إليه ، والتبتل إليـه ، وانجـذاب قـوىٰ الإرادة والحـب كلهـا إليـه ، فعـل الـراضي بمحبوبه كل الرضىٰ وكل[٧] ذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضىٰ بربوبيته : يتضمن الرضىٰ بتدبيره لعبـده ، ويتـضمن إفـراده بالتوكـل عليه والاستعانة به ، والثقة بـه ، والاعـتماد عليـه[٨] ، وأن يكـون راضـياً بكـل مـا يفعل به.

---

(١) د ، ح٢ ، ق (وإليها).

(٢) ق (تضمنها).

(٣) (وهي) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ومن).

(٥) ط (حقيقة).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (لسانه به ناطقاً فهو)

(٧) (كل) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) الأصل سقطت (عليه) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش.

فالأول : يتضمن رضاه بما يؤمر به ، والثاني : يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضىٰ بنبيه رسولاً : فيتضمن كمال[1] الانقياد له ، والتسليم[2] المطلق إليه ، بحيث[3] يكون أولىٰ به من نفسه ، فلا يتلقىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره البتة ، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في[4] شيء من أحكام ظاهره وباطنه ، [لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره][5] ، ولا يرضىٰ إلا بحكمه ، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد[6] ما يقيته إلا من الميتة والدم ، وأحسن أحواله : أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور. وأما الرضىٰ بدينه : فإذا قال ، أو حكمَ ، أو أمرَ ، أو نهىٰ : رضي كل الرضىٰ ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه ، وسلَّم له[7] تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها ، أو قول مُقلِّده وشيخه وطائفته.

---

(١) (كمال) سقط من أ ، ب ، غ ، ح٢ ، م.

(٢) (التسليم) سقط من ش.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (أن).

(٤) (في) سقطت من ش.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٦) (يجد) سقط من غ.

(٧) (له) سقطت من أ.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد ، فإنه والله عين العزة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأنس به ، والرضىٰ به رباً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتنسَّم[1][2] روحه، قال: اللهم زدني اغتراباً ، ووحشة من العالم ، وأنساً بك ، وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب ، وهذا التفرد : رأىٰ الوحشةَ عينَ الأنس بالناس ، والذلَّ عينَ العزِّ بهم ، والجهل عين الوقوف مع آرائهم ، وزِبالة[3] أذهانهم ، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يؤْثِر بنصيبه من الله أحداً من الخلق ، ولم يبعْ حظَّه[4] من الله بموافقتهم فيما لا يُجدي عليه إلا الحرمان ، وغايته : مودّة بينهم في الحياة الدنيا ، فإذا انقطعت الأسباب ، وحقَّت الحقائق ، وبُعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور ، وبُليت السرائر ، ولم يجد من دون مولاه[5] الحق من[6] قوة ولا

---

(١) (تنسّم) سقط من أ ، غ ، ب.

(٢) تنسّم : يقال تنسم فلان العلم أو الخبر تلطف في التماسه شيئاً فشيئاً / المعجم الوسيط ٢/ ٩١٩.

(٣) زبالة : الزبل (السَّرجين) ، وموضعه (مَزبلة) ، مختار الصحاح ٢٦٨ ، المعجم الوسيط ١/ ٣٨٨.

(٤) (حظه) سقط من د.

(٥) أ ، غ ، ب (موالاة).

(٦) (من) سقطت من ش.

ناصر : تبين له حينئذ مواقع الربح من[١] الخسران ، وما الذي يَخِفُّ به الميزان ، والله المستعان ، وعليه التكلان.

التحقيق في مسألة الرضى هل هو كسبي أم موهبي

والتحقيق في المسألة : أن «الرضىٰ» كَسبي باعتبار سببه ، موهبيٌّ باعتبار حقيقته ، فيمكن أن يقال[٢] بالكسب لأسبابه ، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته : اجتنىٰ منها ثمرة الرضىٰ ، فإن الرضىٰ آخر التوكل ، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض : حصل له الرضىٰ ولا بدّ ، ولكن لعزّته وعدم إجابة أكثر النفوس له ، وصعوبته عليها لم يوجبه الله علىٰ خلقه ، رحمة بهم وتخفيفاً عنهم ، لكن نَدَبهم إليه وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أن ثوابه[٣] رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنات[٤] وما فيها ، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه ؛ بل رضىٰ العبد عن الله من نتائج رضىٰ الله عنه ، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده : رضىٰ قبله ، أوجب له أن يرضىٰ عنه ، ورضىٰ بعده، هو ثمرة رضاه عنه ، ولذلك كان الرضىٰ باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبين ، ونعيم العابدين ، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضىٰ : أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلىٰ مقام الرضىٰ ولا بدَّ.

---

(١) (من) ساقطة من الجميع وما أثبته من ش وبه يتم المعنىٰ.

(٢) ش (ينال).

(٣) غ (ثواب).

(٤) ط ، ش ، ب (الجنان).

قيل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ يبلغ العبد إلىٰ مقام الرضىٰ؟ فقال : إذا أقام نفسه علىٰ أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتني قَبِلت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عَبدت ، وإن دعوتني أجبت(١).

وقال الجنيد(٢)(٣) : « الرضىٰ هو صحة العلم الواصل إلىٰ القلب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلىٰ الرضىٰ »(٤).

وليس الرضىٰ والمحبة كالرجاء والخوف ، فإن الرضىٰ والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة ، لا يفارقان [المتلبس بهما](٥) في الدنيا ، ولا في البرزخ ، ولا في الآخرة ، بخلاف الخوف والرجاء ، فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول(٦) ما كانوا يرجونه ، وأمنهم مما كانوا يخافونه ، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً، لكنه ليس(٧) رجاء مشوباً بشكٍ؛

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٦٦.

(٢) الجنيد بن محمد الجنيد ، أبو القاسم الخزاز القواريري ، أصله من نهاوند ونشأته في بغداد ، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي ، توفي سنة ٢٩٨هـ . حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٥) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٧٠) ، طبقات الشعراني (١/ ٨٤).

(٣) (رضي الله عنه) سقط من ط.

(٤) قال في حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٤ ، والمعرفة صحة العلم بالله واليقين والنظر بعين القلب إلىٰ ما وعد الله ، وفي مفتاح دار السعادة زيادة تفصيل لهذه المسألة وبيان أثرها علىٰ القلب ١/ ١٤٠.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، ش والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٦) ش (لحصول).

(٧) هنا الموضع الثاني من الخلط في ق حيث قال هنا [هذا الذي ذكره الشيخ ص١٩٠٠] فقفز نحواً من فصلين.

بل[١] رجاء واثق بوعد صادق ، من حبيب قادر ، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

وقال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ : « الرضىٰ سُكُون القلب إلىٰ قدم[٢] اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل ، فيرضىٰ به »[٣].

قلت : وهذا رضىٰ بما منه ، وأما الرضىٰ به ، فأعلىٰ من هذا وأفضل ، ففرق بين من هو راض بمحبوبه ، وبين من هو راضٍ فيما[٤] يناله من محبوبه من حظوظ نفسه[٥].

فصل

أمور لا تنافي الرضى

وليس من[٦] شرط « الرضىٰ » ألا يحُس بالألم والمكاره ؛ بل[٧] ألاّ يعترض[٨] علىٰ الحكم ولا يتسخَّطه ، ولهذا أشكل علىٰ بعض الناس الرضىٰ بالمكروه ،

---

(١) ط زيادة (هو).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (قديم).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٠ ، وأورده بدون عزو في قوت القلوب ٢/ ٤٦ ، وعزاه لبعض الحكماء في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٤٢ ، وفي شعب الإيمان ٢/ ٩٧ ، قال الجنيد التوكل سكون القلب إلىٰ موعود الله ، وانظر فائدة ذلك في الفوائد ١/ ٩٩.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (بما).

(٥) ق ، غ ، ط (والله أعلم).

(٦) (من) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق.

(٧) أ ، ب ، غ ، ش ، ق (بل أن لا).

(٨) ق (تعترض).

وطعنوا فيه ، وقالوا هذا ممتنع علىٰ الطبيعة ، وإنما هو الصبر ، وإلا فكيف يجتمع الرضىٰ والكراهية؟ وهما ضدان.

والصواب : أنه لا تناقض بينهما ، وأن وجود التألم[١] وكراهة النفس له لا ينافي الرضىٰ ، كرضىٰ المريض بشرب الدواء الكريه ، ورضىٰ الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ، ورضىٰ المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح ، وغيرها.

وطريق الرضىٰ طريق مختصرة ، قريبة جداً ، موصلة إلىٰ أجلّ غاية ، ولكن فيها مشقة ، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب[٢] من مشقة طريق الجهاد ، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها ، وإنما عقبتها همة عالية ، ونفس زكية ، وتوطين النفس علىٰ كل ما يرد عليها من الله.

ويسهل ذلك علىٰ العبد : علمه بضعفه وعجزه ورحمة ربه[٣]، وشفقته عليه ، وبره به ، فإذا شهد هذا وهذا ، ولم يطرح نفسه بين يديه ، ويرضىٰ به وعنه ، وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه : فنفسه نفس مطرودة عن الله ، بعيدة عنه ، ليست مؤهلة لقربه وموالاته ، أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضىٰ والمحبة : تُسيِّر العبد وهو مستلق علىٰ فراشه ، فيصبح أمام

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (البلاء).

(٢) ح٢ (أعظم).

(٣) د ، ط (رحمته به).

الركب بمراحل.

وثمرة الرضىٰ الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالىٰ. من ثمار الرضى

ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في المنام، وكأني ذكرتُ له شيئاً من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - فقال: أما أنا فطريقتي[1]: الفرح بالله، والسرور به،[2] نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك[3] علىٰ ظاهره، وينادي به عليه حاله. لكن قد[4] قال الواسطي[5]: استعمل الرضىٰ جهدك، ولا تدع الرضىٰ يستعملك، فتكون[6] محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع[7].

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو[8] عقبة عظيمة عند القوم، ومقطع لهم، فإن مساكنة الأحوال، والسكون إليها، والوقوف عندها؛ استلذاذاً و محبة: حجاب بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم،

---

(١) أ، غ، ب، ح٢ (طريقي).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش زيادة (أو).

(٣) (ذلك) سقط من ش.

(٤) (قد) سقطت من ح٢، م.

(٥) ق (رحمه الله) وهو محمد بن موسىٰ، أبو بكر الواسطي أحد أصحاب الجنيد والثوري، صوفي مشهور، توفي سنة ٣٢٠هـ/ حلية الأولياء.

(٦) الأصل (فيكون) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٧) الرسالة القشيرية (٢٩٩).

(٨) (هو) سقطت من ح٢.

وهي عقبة لا يجوزها إلا أولو العزائم.

وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة، شديد التنبيه عليها.

ومن كلامه: إياكم واستحلاء الطاعات، فإنها سموم قاتلة(١).

فهذا معنىٰ قوله: «استعمل الرضىٰ(٢) ولا تدع الرضىٰ يستعملُك» أي لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرضىٰ، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه(٣)؛ بل اجعله آلة لك وسبباً موصلاً إلىٰ مقصودك(٤) ومطلوبك، فتكون مستعملاً له، لا أنه مستعمل لك.

وهذا لا يختص بالرضىٰ؛ بل هو عام في جميع الأحوال والمقامات القلبية، التي يسكن إليها القلب، حتىٰ إنه أيضاً لا يكون عاملاً علىٰ المحبة لأجل المحبة، وما فيها من اللذة والسرور والنعيم(٥)؛ بل يستعمل المحبة في مراضي(٦) المحبوب، لا يقف عندها، فهذا من علل المحبة.

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضىٰ: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان

---

(١) الرسالة القشيرية (٢٩٩).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (جهدك).

(٣) (عليه) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (مقصدك).

(٥) ط زيادة (به).

(٦) ط (مراضاة).

المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء[1].

وقيل للحسين بن علي - رضي الله عنهما - : إن أبا ذر[2] يقول : الفقر أحب إليَّ من الغنىٰ والسقم أحب إليَّ من الصحة، فقال : رحم الله أبا ذر، أما أنا، فأقول : من اتكل علىٰ حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له[3].

وقال الفُضَيل بن عياض[4] لِبِشْر الحافي : الرضىٰ أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته[5].

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ «**أسألك الرضىٰ بعد القضاء**»[6]، فقال : لأن الرضىٰ قبل القضاء عَزم علىٰ الرضىٰ، والرضىٰ بعد القضاء هو الرضىٰ[7].

---

(١) الرسالة القشيرية بسنده ٣٠٠، حلية الأولياء ٩/ ٣٤٢، قوت القلوب ولم يعزه لأحد ٢/ ٤٦.

(٢) ط (رضي الله عنه).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٤) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي أحد كبار المشايخ المشهورين وأحد العلماء الأعلام، ولد بسمرقند وطلب العلم ورُحِل إليه، توفي سنة ١٨٧هـ/ حلية الأولياء (٨/ ٨٤)، شذرات الذهب (١/ ٣١٦).

(٥) الرسالة القشيرية ٣٠٠، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٦٦، شعب الإيمان ٢٧٧، موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٣٠.

(٦) أحمد (٤/ ٢٦٤)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤) وقال صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، صحيح النسائي للألباني (١/ ٤١٦) ح(٢٩٩)، صحيح ابن ماجه للألباني (٢/ ٣٢٩) ح(٣٨٥٨). وأوله «اللهم بعلمك الغيب...» وذكره المصنف بتمامه ص٣٥٧.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٠ وهو أبو عثمان الحيري، وعلق علىٰ كلامه شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ٨٦، وذكره في التحفة العراقية ٣٥٠.

وقيل : الرضىٰ ارتفاع الجزع في أي حكم كان[١].

وقيل : رفع الاختيار[٢].

وقيل : استقبال الأحكام بالفرح[٣].

وقيل : سكون القلب تحت مجاري الأحكام[٤].

وقيل: نظر القلب إلىٰ قديم اختيار الله تعالىٰ[٥] للعبد ، وهو ترك السخط[٦][٧] .

وكتب عمر ابن الخطاب إلىٰ أبي موسىٰ[٨] رضي الله عنه[٩] « أما بعد ، فإنَّ الخير كله في الرضىٰ ، فإن استطعت أنْ ترضىٰ وإلا فاصبر»[١٠].

وقال أبو علي الدقاق : الإنسان خزف[١١] ، وليس للخزف من الخطر ما

---

(١) عزاه في الرسالة القشيرية لأبي عمر الدمشقي ٣٠٠.

(٥) القائل هو الجنيد ، الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٣) القائل هو رويم في الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٤) عزاه في الرسالة القشيرية للمحاسبي ٢٩٩ ونحوه عن أبي خفيف.

(٥) (تعالىٰ) سقط من ط.

(٦) ب (التسخط).

(٧) القائل ابن عطاء ، الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٨) د ، ش (الأشعري).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (عنهما).

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٠١ ، ونحوه عن عمر بن عبد العزيز في عدة الصابرين ٩٨.

(١١) خزف: الخزف (الجرُّ) مختار الصحاح ١٧٤، ما عمل من الطين وشُوي بالنار فصار فخاراً، المعجم الوسيط ١/ ٢٣٢.

يعارض فيه حكم الحق تعالىٰ[١].

وقال أبو عثمان الحيري[٢] : مُنذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، وما نقلني إلىٰ غيره فسخطته[٣].

والرضىٰ ثلاثة أقسام : رضىٰ العوام بما قسمه[٤] الله وأعطاه ، ورضىٰ الخواص بما قدره الله[٥] وقضاه ، ورضىٰ خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

فصل

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ[٦] :

« قال الله عزَّ وجل[٧] : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ [٨]ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

(١) الرسالة القشيرية ٣٠١.

(٢) أبوعثمان ، سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري ، أصله من الري ، صحب شاه الكرماني ، وهو في وقته أول المشايخ في سيرته ومنه انتشر التصوف بنيسابور/ طبقات الصوفية للسلمي (١٧٠) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٤) ، صفة الصفوة (٤/ ٨٥) ، الرسالة القشيرية (٧٣).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠١ ، صفة الصفوة ٤/ ١٠٦ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (قُسم).

(٥) (لفظ الجلالة) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٦) (رحمه الله) سقط من جميع النسخ.

(٧) ط ، ق (تعالىٰ).

(٨) في م ، ح٢ (إلىٰ آخر الآية).

مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر :٢٧ - ٢٩] لم يَدَعْ فِي هَـذِهِ الآيَـةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيْـهِ[١] سَبِيلاً ، وَشَرْطُ القَاصِـدِ[٢] الدُّخُولُ فِي الـرِّضَىٰ ، وَ«الرِّضَىٰ»[٣] اسْمٌ لِلْوقُوفِ الصَّادِقِ ، حَيْثُمَا وَقَفَ العَبْدَ ، لاَ يَلْتَمِسُ مُتَقَدِّماً وَلاَ مُتَأَخِّراً ، وَلاَ يَسْتَزِيدُ مَزِيداً ، وَلاَ يَسْتَبْدِلُ حَالاً ، وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الخُصُوصِ ، وَأَشَقِّهَا عَلَىٰ العَامَّةِ»[٤].

أما قوله : «لَمْ يَدَعْ فِي هَذِهِ الآيَةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيهِ[٥] سَبِيلاً» فلأنه قيَّد رجوعها إليه سبحانه بحال ، وهو وصْف الرضىٰ ، فلا سبيل إلىٰ الرجوع إليه مع سلب ذلك الوصف عنها ، وهذا نظير قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ[٦] ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل :٣٢] فإنما[٧] أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بقيد ، وهو وفاتهم طيبين، فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلاً لهذه[٨] البشارة.

والحاصل أن الدخول في الرضىٰ شرط في رجوع النفس إلىٰ ربِّها ، فلا

---

(١) (إليه) سقط من د.

(٢) منازل السائرين (للقاصد).

(٣) في غ (هو).

(٤) منازل السائرين ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) (إليه) سقط من د.

(٦) م ، ح٢ (الآية) ولم يكمل بقية الآية المذكورة هنا.

(٧) أ ، غ ، ب (وإنما).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (إلىٰ هذه).

ترجع إليه إلا إذا كانت راضية [١].

قلت : هذا تعلق بإشارة الآية ، لا بالمراد منها ، فإن المراد منها : رضاها بما حصل لها من كرامته ، ونالته [٢] عند الرجوع إليه ، فحصل لها رضاها ، والرضىٰ عنها ، وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا ، وقدومها علىٰ الله.

قال عبدالله بن عمرو [٣] - رَضي الله عنهما - : «إذا تُوفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين ، وأرسل بتحفة من الجنة ، فيقال : اخرجي أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلىٰ روحٍ وريحان ، وربٍّ عنك راضٍ [٤]» [٥].

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف.

أقوال الأئمة في قوله تعالى: ﴿ارجعي إلى ربك ..﴾

أحدها : أنه عند الموت ، وهو الأشهر ، قال الحسن - رَضي الله عنه - : إذا أراد الله [٦] قبضها اطمأنت إلىٰ ربها ، ورضيت عن الله ، فيرضىٰ الله [٧] عنها [٨].

---

(١) في هذا إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلىٰ ربك راضية مرضية﴾ [الفجر :٢٧-٢٨] وهو المنهج الصوفي في طريقة الاستدلال بإشارة الآية دون المراد منها.

(٢) ط (وبما نالته منها).

(٣) الأصل (ابن عمر) والصحيح ما أثبته ممن خرج الأثر عنه رضي الله عنه ومن نسخة ق.

(٤) ق (غير غضبان).

(٥) تفسير الطبري عن عمرو بن العاص ٢٠/ ٥٨ ، مجمع الزوائد ٢/ ٣٢٨ ، وعزاه للطبراني في الكبير وقال رجاله ثقات ، البغوي في التفسير ٤/ ٤٨٦.

(٦) (لفظ الجلالة) سقط من ط ، وكذلك (الترضي).

(٧) (لفظ الجلالة) سقط من د.

(٨) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٢ ، البغوي في التفسير ٤/ ٤٨٦ ، الدر المنثور ٨/ ٥١٤ ، وقال أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن.

وقال آخرون : إنما يُقال لها ذلك عند البعث ، هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة[١].

وقال آخرون : الكلمة الأولىٰ – وهي : ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ – يقال[٢] لها عند الموت ، والكلمة الثانية – وهي : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ – إنما يقال[٣] لها يوم القيامة ، قال أبو صالح : ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ هذا عند خروجها من الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لها[٤] : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾[٥].

والصواب : أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ، ويوم القيامة ، فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا ، وحينئذ فهي في الرفيق الأعلىٰ ، إن كانت مطمئنة إلىٰ الله ، وفي جنته ، كما دل[٦] عليه الأحاديث الصحيحة[٧] ، فإذا كان

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس والضحاك ١٠/ ١٢٢ ، وقال : وهو أولىٰ القولين بالصواب وذكره عنهم البغوي في التفسير ٤/ ٤٨٧.

(٢) بقية النسخ (تقال).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (يقال) و ط (تقال) ، كلاهما بدون (إنما).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لها).

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٢ ، الدر المنثور ٨/ ٥١٥.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (دلت).

(٧) فيه إشارة إلىٰ حديث البراء – رضي الله عنه – : «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار..» وهو في المسند (٤/ ٢٨٧) ، وأبي داود. الجنائز (٣/ ٥٤٦) ح(٣٢١٢) ، الحاكم في المستدرك (١/ ٣٧ ، ٣٨ ، ١٢٠) وقال صحيح ولم يخرجاه ، صحيح النسائي للألباني.

يوم القيامة قيل لها ذلك ، وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلىٰ الله ودخول الجنة.

فأول ذلك عند الموت ، وتمامه ونهايته : يوم القيامة ، فلا اختلاف في الحقيقة.

ولكن الشيخ أخذ من إشارة الآية : أن رجوعها إلىٰ الله من الخلق في هذا العالم إنما يحصل برضاها ، ولكن لو استدل بالآية في مقام الطمأنينة لكان أولىٰ ، فإن هذا[1] الرجوع الذي حصل لها[2] فيه رضاها ، والرضىٰ عنها : إنما نالته بالطمأنينة[3] ، وهو حظ الكسب من هذه الآية ، وموضع التنبيه علىٰ موقع الطمأنينة ، وما يحصل لصاحبها ، فلنرجع إلىٰ شرح كلامه.

قوله : « **الرِّضَىٰ هُوَ الوُقُوفُ الصَّادِقُ** » : يريد به الوقوف مع مراد الرب تبارك[4] وتعالىٰ الديني حقيقة ، من غير تردُّد في ذلك ولا معارضة ، وهذا مطلوب القوم السابقين ، وهو الوقوف الصادق مع مراد الحق[5] ، من غير أن

الجنائز (٢/ ٥٨) ح(٢٠٠٠) ، صحيح ابن ماجه. الجنائز (١/ ٢٥٨) ح(١٥٤٨) ، والحديث من رواية زاذان عن البراء وقد أعله البعض بعدم سماع زاذان من البراء ، إلا أن سماعه منه صحيح ، انظر صحيح ابن حبان (٧/ ٣٨٧) وغيره.

(١) (هذا) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٢) الأصل (له) والأقرب ما أثبته من أ ، غ ، ب ، ط.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (لكان أولىٰ).

(٤) (تبارك) سقط من ق.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (محاب الرب تعالىٰ) ، بدل (مراد الحق).

يشوب ذلك تردد ، ولا يُزاحمه[١] مراد.

قوله : «**حَيثُمَا وَقَفَ العَبْدَ**» يصح أن يكون «العبد[٢]» فاعلاً ، أي حيث ما وقف بإذن ربه لا يلتمس تقدماً ولا تأخراً ، ويصح أن يكون مفعولاً ، وهو أظهر ، أي حيثما وقف الله العبدَ - فإن «وقف» يستعمل لازماً ومتعدياً - أي حيثما وقفه ربه ، لا يطلب تقدماً ولا تأخراً ، وهذا إنما يكون فيما يقفه[٣] فيه من مُراده الكوني الذي لا يتعلق بالأمر والنهي ، وأما إذا وقفه في مراد ديني ، فكماله بطلب[٤] التقدم فيه دائماً ، فإنه إن لم تكن همته التقدم إلىٰ الله في كل لحظة : رجع من حيث لا يدري ، فلا وقوف في الطريق[٥] ولكن إذا وقف في مقام - من الغنىٰ والفقر ، والراحة والتعب ،[٦] والسقم ، والاستيطان ومفارقة الأوطان - يقف حيث وقفه ، فلا[٧] يطلب غير تلك الحالة التي أقامه[٨] فيها ، وهذا لتصحيح[٩] رضاه باختيار الله له ، والفناء به عن اختياره لنفسه.

---

(١) ش (مزاحمة).

(٢) (العبد) سقط من غ.

(٣) أ ، ب ، غ (يقضيه).

(٤) أ ، ب ، غ (أن يطلب).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (البتة).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (والعافية).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لا) من غير فاء.

(٨) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٩) أ ، ب ، غ (تصحيح).

وكذلك قوله : «لاَ يَستَزِيدُ مَزِيداً ، وَلَا يَسْتَبدِل حَالاً[١]».

هـذا[٢] الـذي ذكـره الـشيخ فـرد مـن أفـراد الـرضىٰ ، وهـو الـرضىٰ بالأقـسام والأحكام الكونية التي لم يؤمر[٣] بمدافعتها.

وقوله : «وَهُوَ[٤] مِن أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الخصُوصِ» يعني أن سلوك أهـل الخـصوص : هـو بـالخروج عـن الـنفس ، والخـروج عـن الإرادة : هـو مبـدأ الخروج عن النفس ، فإذا[٥] الرضىٰ بهذا الاعتبار من أوائل مسالك الخاصة.

وهذا علىٰ أصله في كون الفناء غاية مطلوبة[٦] فوق الرضىٰ[٧].

والصواب : أن «الرضىٰ» أجلّ منه وأعلىٰ ، وهو غاية لا بداية.

نعم فوقه مقام «الشكر» فهو منزلة بينه وبين منزلة[٨] الصبر.

وقوله : «وَأَشَقُّهَا عَلَىٰ العَامَّةِ» وذلك لمشقة الخروج عن الحظوظ علىٰ

---

(١) هذا هو الموضع الثالث من الخلط والتقديم والتأخير في نسخة (ق) حيث رجع هنا إلىٰ قوله: وعيسىٰ علىٰ ما نالهم ص١٨٧٥ إلىٰ أن بلغ (دائماً لكنه) في صفحة ١٨٨٧.

(٢) ط زيادة (المعنىٰ).

(٣) أ ، ب ، غ (لم تؤمر).

(٤) (هو) سقط من ق.

(٥) أ ، ب ، غ (فإن).

(٦) الأصل (مطلوبة) والأصح ما أثبته من م ، غ ، ح٢ ، ط.

(٧) تقدم بيان موقف ابن القيم من الفناء عند الهروي وذلك في مقدمة هذا البحث ص١٦٦٤.

(٨) (منزلة) سقطت من أ ، غ ، ب.

العامة « والرضىٰ » أول ما فيه: الخروج عن الحظوظ [١].

فصـــل [٢]

درجات الرضى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: رِضَىٰ العَامَّةِ، وَهُوَ الرِّضَىٰ بِالله رَبّاً، وَتَسَخُّطُ [٣] عبادَةِ مَا دُونه، وَهَذَا قُطْبُ رَحَىٰ الإِسلَامِ، وَهُوَ يُطَهِّرُ مِن الشِّركِ الأَكْبَرِ» [٤].

الدرجة الأولى

الرضىٰ بالله رباً: أن لا يتخذ رباً غير الله تعالىٰ يسكن إلىٰ تدبيره، وينزل به حوائجه، قال [٥] تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ [٦] أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلهاً» [٧]، يعني فكيف أطلبُ رباً غيره، وهو ربُّ كلِّ شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، يعني معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي

(١) أ، غ، ب (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم)، ق (والله أعلم).

(٢) (فصل) طمس من أ.

(٣) أ، غ، ش، ح٢، م، ب (بسخط) وهو متفق مع ما في منازل السائرين ص٤٠.

(٤) منازل السائرين ٤٠.

(٥) ط (لفظ الجلالة).

(٦) الأصل ﴿الله تأمروني أعبد﴾. وهو خطأ فكأن الناسخ سبق إلىٰ ذهنه قوله تعالىٰ: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ [الزمر: ٦٤].

(٧) تفسير الطبري ١/ ١٤٢ دون عزو ١٢/ ٢٨٦، و البغوي في التفسير ٢/ ١٤٧.

حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام[1]، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً، مبيناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضىٰ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد[2] رسولاً، ورأيت الحديث مترجماً[3] عنها[4]، ومشتقاً[5] منها، فكثير من الناس يرضىٰ به[6] رباً، و[7] لا يبغي رباً سواه، لكنه[8] لا يرضىٰ به وحده ولياً[9]؛ بل يوالي من دونه أولياء[10]، ظناً منه أنهم يقربونه إلىٰ الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم

---

(١) ب (الأحكام).

(٢) ط (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (يترجم).

(٤) أ، ب، ش (عليها).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (مشتق).

(٦) ط (بالله).

(٧) ق (فلا).

(٨) غ (لكن).

(٩) ط زيادة (وناصراً).

(١٠) أ، م (ولياً) بدل (أولياء).

اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا عين[1] موالاة أنبيائه ورسله ، وعباده المؤمنين فيه ، فإن هذا من تمام الإيمان و[2] تمام موالاته ، فموالاة أوليائه لون ، واتخاذ الولي من دونه لون ، ومن يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من رأس[3] فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً ، يحاكم[4] إليه ، ويُخاصم إليه ، ويَرضىٰ بحكمه ، وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد : أن[5] لا يتخذ سواه رباً ، ولا إلهاً ، ولا غيره حكماً.

وتفسيره الرضىٰ بالله رباً : أن تسخط[6] عبادة ما دونه ، [وهذا هو الرضىٰ بالله إلهاً ، وهو من تمام الرضىٰ بالله رباً ، فمن أعطىٰ الرضىٰ به رباً حقه سخط عبادة ما دونه][7] قطعاً ؛ لأن الرضىٰ بتجريد[8] ربوبيته يستلزم تجريد عبادته ، كما أن

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش (غير).

(٢) ط زيادة (من).

(٣) ط (أساسه).

(٤) ط (يتحاكم).

(٥) (أن) سقطت من ح٢.

(٦) ط (يسخط).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٨) غ ، ق (تجريد).

العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الألوهية.

وقوله : «وَهُوَ قُطبُ رَحَىٰ الإِسْلاَمِ» يعني أن مدار رحىٰ الإسلام علىٰ أن يرضىٰ[١] بعبادته[٢] وحده ، [٣] يسخط عبادة غيره ، وقد تقدم أن العبادة هي الحُبّ مع الذل ، فكل من ذللت له وأطعته وأحببته[٤] دون الله ، فأنت عبد[٥] له.

وقوله : «وَهُوَ يُطَهِّرُ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ» يعني أن الشرك نوعان : أكبر وأصغر، فهذا الرضىٰ يطهر صاحبه من الأكبر ، وأما الأصغر : فيطهره[٦] نزوله[٧] منزلة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

* * *

---

(١) ط زيادة (العبد).

(٢) ط (بعبادة ربه).

(٣) ط زيادة (وأن).

(٤) غ ، ح٢ زيادة (من).

(٥) ط (عابد).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (منه).

(٧) م (نزول).

فصل

قال : « وَهُوَ يَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ : أَنْ يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَل أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَىٰ العَبْدِ[1] ، وَأَوْلىٰ الأَشياءِ بِالتَّعْظِيمِ ، وَأَحَقَّ الأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ»[2].

[يعني أن هذا النوع][3] من الرضىٰ إنما يصح بثلاثة أشياء أيضاً:

أحدها : أن يكون الله عز وجل أحب شيء إلىٰ العبد ، وهذه[4] تعرف بثلاث[5] أشياء أيضاً[6]:

أحدها : أن تسبق محبَّته إلىٰ القلب كل محبة ، فتتقدم[7] محبتُه المحابَّ كلها.

الثاني : أن تقهر محبته كل محبة [فتكون محبته[8] غيره[9] مقهورة مغلوبة منطوية في محبته.

---

(١) ش (إليه).

(٢) منازل السائرين ٤٠ ، لكن بلفظ (شرائط) بدل (شروط).

(٣) ما بين المعقوفين طمس من أ.

(٤) م (ولهذه).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (بثلاثة).

(٦) (أيضاً) سقطت من ق.

(٧) الأصل (فيتقدم) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٨) ط ، أ ، غ ، ب ، ح٢ (إلىٰ القلب سابقة قاهرة ومحبة).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (متخلقة).

الثالث : أن تكون محبة](١) غيره(٢) تابعة لمحبته ، فيكون هو المحبوب بالذّات والقصد الأول ، وغيره محبوباً تبعاً لحبِّه ، كما يطاع تبعاً لطاعته ، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب.

وهذه الثلاثة في كونه أولىٰ الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضاً.

فالحاصل : أن يكون(٣) وحده المحبوب المعظم المطاع ، فمن لم يحبه ولم يعظِّمْه(٤) ولم يُطعْه : فهو متكبِّر عليه، ومتىٰ أحبَّ معه سِواه ، وعظَّم معه سواه ، وأطاع معه سواه : فهو مشرك ، ومتىٰ أفرده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد(٥).

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الرِّضَىٰ عَن الله ، وَبِهَذَا الرِّضَىٰ(٦) نَطَقَتْ آيَاتُ التَّنْزِيلِ ، وَهُوَ الرِّضَىٰ عَنْهُ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ وَقَدَّرَ(٧) ، وَهَذَا مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٢) (غيره) سقط من ش.

(٣) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، (ولم يطعه ولم يعظمه).

(٥) ط ، ب ، غ (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم) و أ ، ح٢ ، م ، ق (والله أعلم).

(٦) (الرضىٰ) سقط من أ ، ب ، ط.

(٧) (قدّر) ليست في منازل السائرين.

الخُصُوصِ»[١].

الشيخ جعل هذه الدرجة أعلىٰ من الدرجة التي قبلها.

ووجه قوله : أنه لا يدخل في الإسلام إلا بالدرجة الأولىٰ ، فإذا استقرّ قدمه عليها دخل في مقام الإسلام.

وأما هذه الدرجة : فمن معاملات القلوب ، وهي لأهل الخصوص ، وهي الرضىٰ عنه في أحكامه وأقضيته.

وإنما كان من أول مسالك أهل الخصوص؛ لأنه مقدمة للخروج عن النفس، والذي هو طريق أهل الخصوص ؛ فمقدمته بداية سلوكهم ؛ لأنه يتضمن خروج العبد عن حظوظه ، ووقوفه[٢] مع مراد الله[٣] لا[٤] مع مراد نفسه.

هذا تقرير كلامه ، وفي جعله هذه الدرجة أعلىٰ من التي قبلها نَظَر لا يخفىٰ، وهو[٥] نظير جعله الصبر بالله أعلىٰ من الصبر لله.

والذي ينبغي : أن يكون[٦] الدرجة الأولىٰ[٧] أعلىٰ شأناً وأرفع قدراً ، فإنها

---

(١) منازل السائرين ٤٠.

(٢) ش (ووقوعه).

(٣) ش ، ق زيادة (عزّ وجلّ).

(٤) (لا) سقطت من ق.

(٥) (وهو) سقطت من م ، ح٢ ، ق.

(٦) ط ، ق (تكون).

(٧) (الأولىٰ) سقطت من د.

مختصة وهذه الدرجة مشتركة، فإن الرضىٰ بالقضاء يصح من المؤمن والكافر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره ، فأين هذا من الرضىٰ به رباً وإلهاً ومعبوداً وحكماً[١]؟ فالرضىٰ به رباً فرض ؛ بل هو آكد الفروض باتفاق الأمة ، فمن لم يرض به رباً لم يصح له إسلام ولا عمل[٢] [٣].

وأما الرضىٰ بقضائه : فأكثر الناس علىٰ أنه مستحب ، وليس واجباً ، وقيل : بل هو واجب ، وهما قولان في مذهب أحمد[٤].

فالفرق ما[٥] بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب ، وفي الحديث الإلهي الصحيح «**يقول الله عزّ وجلّ : ما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**»[٦] ، فدل علىٰ أن التقرب إليه سبحانه بأداء الفرض[٧] أفضل وأعلىٰ من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضاً : فإن الرضىٰ به رباً[٨] يتضمن الرضىٰ عنه ، ويستلزمه ، فإن الرضىٰ

---

(١) (وحكماً) سقطت من أ ، ط ، ب ، غ ، د وفي م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (وأيضاً) ح٢ ، م (حكماً وأيضاً).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ولا حالاً).

(٣) انظر التحفة العراقية ٣٥٧.

(٤) (وهما قولان في مذهب أحمد) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٥) (ما) سقطت من ط.

(٦) البخاري. الرقاق (٤/ ١٩٢) ح(٦٥٠٢) ، وهو المعروف بحديث الولي.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فرائضه).

(٨) (رباً) سقطت من ش.

بربوبيته : هو رضىٰ العبد بما يأمره به ، وينهاه عنه ، ويقسمه له ويقدره عليه[١] ، ويعطيه إيّاه ، ويمنعه منه ، فمتىٰ لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به رباً من جميع الوجوه، وإن كان راضياً به رباً[٢] من بعضها، فالرضىٰ به رباً من كل وجه: يستلزم الرضىٰ عنه ، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضاً : فالرضىٰ به رباً يتعلق[٣] بذاته ، وصفاته وأسمائه ، وربوبيته العامة والخاصة فهو[٤] الرضىٰ به خالقاً ومدبراً ، وآمراً وناهياً ، وملكاً ومعطياً ومانعاً ، وحكماً ، ووكيلاً وولياً ، وناصراً ومعيناً ، وكافياً وحسيباً ورقيباً ، ومبتلياً ، ومعافياً ، وقابضاً وباسطاً ، إلىٰ غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضىٰ عنه : فهو رضىٰ العبد بما يفعله به ، ويعطيه إيّاه ، ولهذا إنما جاء[٥] في الثواب والجزاء ، كقوله تعالىٰ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر :٢٧ ، ٢٨] فهذا رضاها[٦] عنه لما حصل لها من كرامته ، و[٧]كقوله تعالىٰ : ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

---

(١) ق (إليه).

(٢) (رباً) سقطت من أ ، ب.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (متعلق).

(٤) ق (هو).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لم يجئ إلا) وفي ق (المجي) مع سقوط (إلا).

(٦) ق (برضاها له) ، وفي م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (برضاها بالله) ، وفي م ، ط (برضاها).

(٧) (الواو) سقطت من ط.

﴿خَالِدِينَ[1] فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة :٨].

والرضىٰ به : أصل الرضىٰ عنه ، والرضىٰ عنه : ثمرة الرضىٰ به.

وسر المسألة : أن الرضىٰ به متعلق[2] بأسمائه وصفاته ، والرضىٰ عنه : متعلق بثوابه وجزائه.

وأيضاً : فإن النبي علّق ذوقَ طعم[3] الإيمان بمن رضي بالله رباً ، ولم يعلقه بمن رضيَ عنه[4]، كما قال: «ذاق طَعمَ الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد[5] رسولاً» [6] ، فجعل الرضىٰ به قرين الرضىٰ بدينه ونبيه ، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام ، التي لا يقوم إلا بها[7][8].

وأيضاً : فالرضىٰ به رباً يتضمن توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه[9] وخوفه ورجاءه ومحبتَه ، والصبر له وبه[10] ، والشكر علىٰ نعمه ؛

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (بدايتها من قوله تعالىٰ : ﴿خالدين فيها..﴾).

(٢) ق (يتعلق).

(٣) (طعم) سقطت من ش.

(٤) انظر كلام شيخ الإسلام عن هذه المسألة في التحفة العراقية ٣٧٢.

(٥) ط (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٦) سبق تخريجه ص١٨٨٢.

(٧) ط (وعليها).

(٨) انظر التحفة العراقية ٣٧٢.

(٩) م (إليه).

(١٠) (وبه) سقطت من ب.

بل[1] رؤية كل ما منه نعمة وإحساناً ، وإن ساء عبدَهُ ، فالرضىٰ به رباً[2] يتضمن «شهادة أن لا إلـه إلا الله» ، والرضىٰ بمحمد رسولاً ، يتضمن « شهادة أن محمداً رسول الله » ، والرضىٰ بالإسلام ديناً : يتضمن التزام عبوديته ، وطاعته وطاعة رسوله ، فجمعت الثلاثة الدين كله.

وأيضاً فإن الرضىٰ[3] به رباً[4] يتضمن اتخاذه معبوداً دون ما سواه ، واتخاذه ولياً ومعبوداً[5] وقد قال تعالىٰ لرسوله : ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام : ١١٤] وقال : ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام : ١٤] ، وقال : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٦٤] فهذا هو عين الرضىٰ به رباً.

وأيضاً : فإنه جعل حقيقة الرضىٰ به رباً[6] : أن يسخط[7] عبادة ما دونه ، فمتىٰ سخط العبد[8] عبادة ما سواه[9] من الآلهة الباطلة ، حباً وخوفاً ، ورجاءً وتعظيماً ، وإجلالاً – فقد تحقق بالرضىٰ به[10] الذي هو قطب رحىٰ الإسلام.

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (يتضمن) بدل (بل) ، ق (بل يتضمن).

(٢) (رباً) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ (فالرضىٰ).

(٤) (رباً) سقط من ق.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وإبطال كل ما سواه) وفي ط (وإبطال عبادة كل ما سواه).

(٦) (رباً) سقطت من أ ، غ ، ب.

(٧) ق (تسخط).

(٨) (العبد) سقط من أ ، ب ، غ.

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (سوىٰ الله).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (رباً).

وإنما كان قطب رحىٰ الدين : لأن جميع العقائد والأعمال ، والأحوال : إنما تنبني علىٰ توحيد الله عزّ وجلّ في العبادة ، وسخط عبادة ما سواه ، فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحىٰ يدور عليه ، ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحىٰ التي تدور عليه[1] فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلىٰ دائرة الإسلام ، فتدور رحىٰ إسلامه وإيمانه علىٰ قطبها الثابت اللازم.

وأيضاً : فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضىٰ موقوفاً علىٰ كون المرضي به رباً - سبحانه - أحبُّ إلىٰ العبد من كل شيء ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحق الأشياء بالطاعة ، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية ، وينظم فروعها وشُعَبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلىٰ المحبوب : كان ذلك الميل حاملاً علىٰ طاعته وتعظيمه ، وكلما كان الميل أقوىٰ : كانت الطاعةُ أتمَّ ، والتعظيمُ أوفرَ ، وهذا الميل يلازم الإيمان ؛ بل هو روح الإيمان ولُبُّه ، فأي شيء يكون أعلىٰ من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلىٰ العبد ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة؟.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان ، كما في الصحيح عنه أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن[2] حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ودارت علىٰ ذلك القطب).

(٢) (بهن) سقط من ط.

ومن كان يحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، ومن كان يكره أن يعود[١] في الكفر - بعد إذ أنقذه[٢] الله منه - كما يكره أن يُلقىٰ في النار» [٣].

فعلق ذوق الإيمان بالرضىٰ بالله رباً ، وعلّق وَجد[٤] حلاوته بما هو موقوف عليه ، ولا يتم إلا به ، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلىٰ العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام ، والإخلاص - الذي هو ثمرته - أعلىٰ من مجرد الرضىٰ بربوبيته سبحانه : كانت ثمرته أعلىٰ ، وهي[٥] وَجْد حلاوة الإيمان ، وثمرة الرضىٰ : ذوق طعم الإيمان ، فهذا وجد لحلاوة[٦] ، وذاك[٧] ذوق لطعم[٨].

والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا علىٰ الرضىٰ به وحده رباً ، والبراءة[٩] من عبودية ما

---

(١) الأصل (يرجع في الكفر) و أ ، ح٢ ، ط (يرجع إلىٰ الكفر) والصحيح ما أثبته من البخاري ومسلم.

(٢) ق (أنقذ الله).

(٣) البخاري. الإيمان (١/ ٢٢) ح(١٦) ، مسلم. الإيمان (١/ ٦٦) ح(٤٣) ، أحمد (٣/ ١٠٣) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ١٥) ح(٢٦٢٤) ، ابن ماجه. الفتن (٢/ ١٣٣٨) ح(٤٠٣٣).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (وجود).

(٥) ط (وهو).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (حلاوة).

(٧) (وذاك) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط.

(٨) ط ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (طعم).

(٩) ب (بالبراءة).

سواه، ميل القلب بكليته إليه[١]، وانجذاب قُوىٰ المحب[٢] كلها إليه، ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضىٰ، فمن رضي بالله[٣] رباً[٤] رضيه الله له عبداً، ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة[٥] رضىٰ الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنبيه رسولاً، وبالإسلام ديناً، فإن العبد قد يرضىٰ عن[٦] الله[٧] فيما أعطاه[٨] ومنعه، ولم[٩] يرضىٰ به وحده معبوداً وإلهاً، ولهذا إنما ضمن رضىٰ العبد يوم القيامة لمن رضي به رباً، كما قال النبي: «**من قال كلّ يوم: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً علىٰ الله أن يرضيه يوم القيامة**»[١٠].

---

(١) ب (عليه)، ش (إلىٰ الله).

(٢) أ، م، ح٢، غ، د، ق (الحب).

(٣) ط (الله) فالباء ساقطة.

(٤) (رباً) سقط من الأصل والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

(٥) (درجة) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٦) أ، ب، غ (عنه).

(٧) ط (ربه).

(٨) ط زيادة (فيما).

(٩) ط (ولكن لا) بدل (ولم).

(١٠) أحمد (٤/ ٣٣٧)، أبو داود. الأدب (٥/ ٣١٤) ح(٥٠٧٢)، ابن ماجه. الدعاء (٢/ ١٢٧٣) ح(٣٨٧٠) وقال محققه إسناده صحيح ورجاله ثقات، السنن الكبرىٰ للنسائي (٢/ ١٤٥) ح(١٠٣١٨)، وفي مسلم. الصلاة (١/ ٢٩٠) ح(٣٨٦): «**من قال حين يسمع المؤذن: رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً؛ غفر له ذنبه**».

فصل

(١) إذا عرف هذا فلنرجع(٢) إلىٰ شرح كلامه، قال:

«وَبِهَذَا الرِّضَىٰ نَطَقَ التَّنزِيل».

الآيات الواردة في منزلة الرضى

يشير إلىٰ قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالىٰ(٣): ﴿[لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ](٤) وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ(٥)﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال(٦)(٧): ﴿[جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ](٨) خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب (فإذا).

(٢) ق (فليرجع).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ط، د، ق (في آخر سورة المجادلة).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من بقية النسخ وهو في الأصل، ش.

(٥) في بقية النسخ ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.

(٦) (وقال) سقطت من ق.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، ط، د، ق (في آخر سورة لم يكن) و(سورة) سقطت من ق.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من الجميع سوىٰ الأصل.

أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة :٨].

فتضمنت هذه الآيات : جزاءهم على صدقهم وإيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، ومجاهدة أعدائه ، وعدم ولايتهم ، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه ، وإنما[1] حصل لهم[2] هذا بعد الرضىٰ به رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالإسلام ديناً.

قوله : «**وَهُوَ الرِّضَىٰ عَنْهُ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ**».

ههنا ثلاثة[3] أمور : الرضىٰ بالله[4] ، و الرضىٰ عن الله ، وا الرضىٰ بقضاء الله.

فالرضىٰ به فرض ، والرضىٰ عنه[5] - وإن كان من أجلّ الأمور وأشرف أنواع العبودية - فلم يطالب به العموم ، لعجزهم عنه[6] ، ومشقته عليهم ، وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضىٰ به [7] ، واحتجوا بحجج.

---

(١) ق زيادة (هو).

(٢) (لهم) سقط من أ ، ب ، غ ، ش.

(٣) ش (ثلاث).

(٤) أ ، غ ، ب زيادة (رباً).

(٥) م (سنة).

(٦) (عنه) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) سبقت الإشارة إلىٰ كلام شيخ الإسلام في ذلك ص١٩٠٨، ١٩١٠ ، وهو أيضاً في الفتاوىٰ ١٠/ ٣٨ـ ٣٩) ، وقد أنكر شيخ الإسلام علىٰ الهروي مشاهدة القدر وحده ، وبيّن أنه غلط عظيم . انظر الفتاوىٰ (١٠/ ٤٨٧).

منها : أنه إذا لم يكن راضياً عن(١) ربه فهو ساخط عليه ، إذ لا واسطة بين الرضىٰ والسخط ، وسخط العبد علىٰ ربه مناف لرضاه به رباً.

قالوا : وأيضاً فعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به(٢) ، ومنازعته(٣) في اختياره لعبده وأن الرب تبارك(٤) وتعالىٰ يختار شيئاً ويرضاه ، فلا(٥) يختاره لعبده ، ولا يرضىٰ(٦) به وهذا مناف للعبودية.

قالوا : وفي بعض الآثار الإلهية : «من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر علىٰ بلائي فليتخذ رباً سواي» (٧) ، ولا حجة في شيء من ذلك.

أما قولهم(٨) : «إنه(٩) لا(١٠) يتخلص من السخط علىٰ ربه إلا بالرضىٰ عنه ، إذ لا واسطة بين الرضا والسخط» فكلام مدخول(١١) ؛ لأن السخط بالمقضي لا

---

(١) م ، ش (من).

(٢) (به) سقطت من (م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (له).

(٤) (تبارك) سقط من ق.

(٥) أ ، ب ، غ (ولا).

(٦) ط (يرضاه).

(٧) تقدم ص١٨٨٠.

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (قوله).

(٩) (إنه) سقط من أ ، ب ، غ.

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (لم) بدل (لا).

(١١) من مخالفات ابن القيم للهروي.

يستلزم السخط علىٰ من قضاه، كما أن كراهة المقضي وبغضه والنفرة عنه لا تستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره، فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راضٍ عمن قدره وقضاه[1]؛ بل[2] يجتمع تسخطه والرضىٰ بنفس القضاء[3]،

---

(١) ط (قضاه وقدره).

(٢) ط زيادة (قد).

(٣) مسألة الرضىٰ بالقضاء دون المقضي: فصل الكلام فيها شيخ الإسلام في معرض الحديث عن الرسالة القشيرية والشرح لبعض ما ورد عن أعلام الطرق ممن زل في هذا الباب علىٰ النقيض من المعتزلة، انظر الاستقامة ٢/ ٧٣ ـ ١٢٧، الفتاوىٰ ١٠/ ٤٨٢ ـ ٤٨٩، وهذه المسألة مباحثها تدور حول الرضا هل هو متعلق بالقدر والمقدور أم بالقدر دون المقدور؟، قال ابن القيم: «ومرجع هذا إلىٰ معرفة الفرق بين القضاء الكوني والقضاء الديني.. فإن الديني يجب الرضا به؛ لأنه من لوازم الإسلام، والكوني ينقسم إلىٰ قسمين: ما يجب الرضا به كالنعم التي يجب شكرها ومن تمام شكرها الرضا بها، ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعايب والذنوب التي يسخطها الله وإن كانت بقضائه وقدره، ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب علىٰ اختلاف في الوجوب»، وهذا يتعلق بالقضاء الذي هو المقضي، أما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله، كعلمه وكتابته وتقديره ومشيئته فإن الرضا به من تمام الرضا بالله رباً وإلهاً ومالكاً ومدبراً، وبهذا التفصيل يزول الإشكال واللبس الذي كان مفرق طرق بين الناس. ا. هـ ملخصاً من شفاء العليل ٢٧٨، مكتبة الرياض الحديث، وساق نحوه ابن أبي العز في شرح الطحاوية في معرض الرد علىٰ المعتزلة ٢٥٨ ط/ المكتب الإسلامي، والسفاريني في لوامع الأنوار ١/ ٣٦١ ـ ٣٦٣ ط/ المكتب الإسلامي، ونقل شرح الطوفي لتائية ابن تيمية، وبتلخيص مفصل ذكر ذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين في المجموع الثمين من فتاوىٰ ابن عثيمين ١/ ١٥٥ ومن نفائس كلام شيخ الإسلام قوله: «يخاف علىٰ صاحب الإرادة من ضعف العلم وعلىٰ صاحب العلم من ضعف الإرادة»، الفتاوىٰ

تعلق الرضى هل بالقدر أم بالمقدور؟

كما سيأتي [١].

وأما قولكم: «إنه يستلزم سوء ظنِّ العبد بربه ومنازعته له في اختياره» فليس كذلك؛ بل هو حسن الظن بربه في الحالتين، فإنه إنما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه، فينازع قدر الله بقدر [٢] الله بالله و [٣] لله، كما يستعيذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، ويستعيذ به منه.

وأما «كونه يختار لنفسه ما يختاره الرب» فهذا [٤] موضع تفصيل، لا يُسحب عليه ذيل النفي والإثبات، فاختيار الرب [٥] لعبده نوعان:

أحدهما [٦]: **اختيار ديني شرعي**، فالواجب علىٰ العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فاختيار العبد خلاف

١٠/ ٤٨٩ فالأول وصف الصوفية والثاني وصف القدرية والمعتزلة، وانظر تفصيل الخلاف في المسألة في التحفة العراقية ٣٥٩ وما بعدها.

(١) أ، ب، غ، ط (إن شاء الله).

(٢) (بقدر) سقطت من أ، ب، غ، م.

(٣) (الواو) ساقطة نم أ، ب، غ، ط.

(٤) غ (فهو).

(٥) ق (تعالىٰ).

(٦) (أحدهما) سقطت من ش.

ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني: اختيار كوني قدري، لا يسخطه الرب، كالمصائب التي[1] يَبتلي اللهُ بها عبده[2]، فهذا لا يضره فِراره منها إلىٰ القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارة واجباً، وتارة يكون[3] مستحباً، وتارة يكون مباحاً مستوي الطرفين، وتارة يكون حراماً، وتارة يكون مكروهاً[4].

وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه - مثل قدر المعائب والذنوب - فالعبد مأمور بسخطها، منهي عن الرضىٰ بها.

وهذا هو التفصيل الواجب في الرضىٰ بالقضاء[5].

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطراباً عظيماً، ونجا منه أصحاب الفِرَق والتفصيل، فإن لفظ «الرِّضىٰ بالقضاء» لفظ محمود مأمور به، وهو من

---

(١) الأصل (الذي) والأقرب ما أثبته من جميع النسخ.

(٢) ق (عبده بها).

(٣) (يكون) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش (وتارة يكون مكروهاً، وتارة يكون حراماً).

(٥) ق (بالقدر) بدل (القضاء).

مقامات الصديقين ، فصار[١] له حرمة أوجبت لطائفة[٢] قبوله من غير تفصيل ، وظنوا أن كل[٣] ما كان [مقضياً للرب تعالىٰ مخلوقاً ينبغي الرضا به][٤] ثم انقسموا[٥] فرقتين :

فقالت فِرقة : إذا كان القضاء والرضىٰ متلازمين[٦] ، فمعلوم أنّا مأمورون ببغض المعاصي ، والكفر والظلم ، فلا تكون مقضية مقدرة[٧][٨].

وفرقة قالت : قد دلّ العقل والشرع علىٰ أنها واقعة بقضاء الله وقدره ، فنحن نرضىٰ بها[٩].

---

(١) أ ، ب ، م ، ح٢ (فصارت).

(٢) ش (الطائفة) ، وهي إشارة إلىٰ الصوفية القائلين بهذا القول كما سيأتي قريباً.

(٣) (كل) سقطت من ش.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (مخلوقاً للرب تعالىٰ فهو مقضي مرضي ينبغي له الرضىٰ به) ، وكلمة (فهو) سقطت من ح٢ ، د ، م ، ق ، وكلمة (مقضي) سقطت من أ ، ب ، غ ، وكلمة (مرضي) سقطت من د ، ق ، و(له) سقطت من ق.

(٥) ط زيادة (علىٰ).

(٦) من قال بالتلازم فقد جمع بين النقيضين ، انظر الاستقامة ٢/ ١٣٨ ، وهو حمق وجهل وانظر بدائع الفوائد ١/ ٥.

(٧) أ ، ب ، غ (مقدورة).

(٨) وهذا قول المعتزلة القدرية ، انظر الاستقامة ٢/ ٧٧ ـ ١٣٨ ، شرح الطحاوية ٢٥٨ ، لوامع الأنوار ١/ ٣٦١.

(٩) الجبرية والصوفية ، الاستقامة ٢/ ٧٧ ـ ٧٨ ، ٢/ ١٣٨.

والطائفتان منحرفتان جائرتان[١] عن قصد السبيل ، فأولئك أخرجوها عن قضاء الرب وقدره ، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها ، هؤلاء خالفوا الرب تعالىٰ في رضاه وسخطه ، وخرجوا عن شرعه ودينه ، وأولئك أنكروا تعلق قضائه وقدره بها[٢].

واختلفت طرق أهل الإثبات للقدر والشرع في جواب الطائفتين :

فقالت طائفة : لم يقم دليل من الكتاب والسنة ولا الإجماع علىٰ جواز الرضىٰ بكل قضاء ، فضلاً عن وجوبه واستحبابه ، فأين أمر الله عباده ورسوله : أن يرضوا بكل ما قضاه الله وقدره؟[٣].

وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم ، وبه أجاب القاضي أبو يعلىٰ وابن الباقلاني[٤].

قال : فإن قيل : أفترضون بقضاء الله وقدره؟.

---

(١) جائرتان : الجور الميل عن القصد والجور في الحكم.. مختار الصحاح ١١٦.

(٢) انظر كلام شيخ الإسلام عن الطائفتين في الفتاوىٰ ٦/ ١١٥ ـ ١١٦ ، منهاج السنة ١/ ٣٥٨ ط. مكتبة الرياض الحديثة.

(٣) قال شيخ الإسلام : « وأما الرضىٰ بالكفر والفسوق والعصيان فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضىٰ بذلك ، فإن الله لا يرضاه كما قال تعالىٰ : ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾ » ، الاستقامة ٢/ ٧٥ ـ ١٢٣.

(٤) ذكره شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ١٢٥ ، والفتاوىٰ ١٠/ ٧٠٩ ، ونسبه للقشيري في الرسالة القشيرية.

قيل له : نرضىٰ بقضاء الله الذي هو خلقه[1] ، الذي أمرنا أن نرضىٰ به ، ولا نرضىٰ من ذلك ما نهانا عنه أن نرضىٰ به ، ولا نتقدم بين يدي الله تعالىٰ ، ولا نعترض علىٰ حكمه.

وقالت طائفة أخرىٰ : يطلق الرضىٰ بالقضاء في الجملة ، دون تفاصيل المقضي المقدر ، فنقول : نرضىٰ بقضاء الله جملة ولا نسخطه ، ولا نطلق الرضىٰ علىٰ كل واحد من تفاصيل المقضي ، كما يقول المسلمون : كل شيء يَبيد ويهلك، ولا يقولون : حُجَجُ الله تبيد وتهلك، ويقولون : الله رب كل شيء، ولا يضيفون ربوبيته إلىٰ الأعيان المستخبثة المستقذرة[2] بخصوصها.

وقالت طائفة أخرىٰ : نرضىٰ بها من جهة إضافتها إلىٰ الرب خلقاً ومشيئة[3]، ونسخطها من جهة إضافتها إلىٰ العبد كسباً[4] وقياماً به[5].

وقالت طائفة أخرىٰ : بل نرضىٰ بالقضاء ونسخط المقضي ، فالرضىٰ والسخط لم يتعلقا بشيء واحد.

---

(١) قال شيخ الإسلام : « وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله وفعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام ، فإن الكلام ليس في الرضىٰ فيما يقوم بذات الرب تعالىٰ من صفاته وأفعاله ، وإنما الكلام في الرضا بمفعولاته.. » الفتاوىٰ ١٠/ ٤٢-٤٣.

(٢) (المستقذرة) سقطت من أ ، م ، ب.

(٣) الأصل (ومشيئها) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٤) ق زيادة (له).

(٥) ح٢ (وقيامه بها).

وهذه الأجوبة لا يتمشىٰ شيء(١) منها علىٰ أصول من يجعل محبة الرب تعالىٰ ورضاه ومشيئته واحدة ، كما هو أحد قولي الأشعرية(٢) ، وأكثر(٣) أتباعه(٤).

فإن هؤلاء يقولون : إن كل ما شاءه وقضاه فقد أحبه ورضيه ، وإذا كان الكون محبوباً له مرضياً ، فنحن نحب ما أحبه ، ونرضىٰ ما رضيه(٥).

---

(١) (شيء) سقطت من ش.

(٢) ق (الأشعري).

(٣) الأصل (من) والأقرب حذفها كما في بقية النسخ.

(٤) القول : (بأن الإرادة تستلزم الرضىٰ هو قول الجهمية والمعتزلة وأغلب الأشاعرة) وهو مرتبط بمسألة تعليل أفعال الله ، إذ توهم التعارض بين الأمر والقدر ، حدا بالأشاعرة إلىٰ إنكار التعليل ، إذ كيف يريد أمراً إرادة كونية كالكفر ، ثم لا يحبها ولا يرضاها ولا يريدها ديناً ، فرأوا أن الخروج من هذا المأزق يكون بإنكار الحكمة والتعليل في أفعال الله وأوامره.. انظر أقوالهم في : المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ٦ ، قسم٢ ص٥١ - ٥٦ ، الإنصاف للباقلاني ص٦٩ - ٧٠ ، لباب العقول للمكلاتي ٢٨٨ ، وانظر فيما لخصته أعلاه رسالة د/ المحمود ، موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٥ - ١٣١٦ .

وقال شيخ الإسلام : «.. وإنما ضل هنا فريقان من الناس : قوم من أهل الكلام المنتسبين إلىٰ السنة في مناظرة القدرية ، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلىٰ إرادته.. وقالوا هو محب لها مريد لها ، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه..» ، الاستقامة ٢/ ٧٦ - ٧٧ . وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ٦٨٣ - ٦٨٥ ، بدائع الفوائد ١/ ٥ ، ولبعض الأشاعرة قول أخف عبارة من السابقين ، انظر فيه الإرشاد للجويني ٢٣٩ ، شرح المواقف ٢٨٨ جزء مستقل محقق ، ولباب العقول ٢٨٨ ، بدائع الفوائد ١/ ٥ .

(٥) ق (ما رضي به).

وقولكم : إن الرضىٰ بالقضاء يطلق جملة ، ولا يطلق تفصيلاً [لا مخلص في هذا المقام ، فإنه وإن لم يطلق تفصيلاً][1] فذلك في جملة المرضي به ، فيعود[2] الإشكال.

وقولكم : نرضىٰ بها من جهة كونها[3] خلقاً لله ، ونسخطها من جهة كونها كسباً للعبد : فكسب العبد إن كان أمراً وجودياً فهو خلق لله فنرضىٰ[4] به ، وإن كان أمراً عدمياً فلا حقيقة له ترضي ولا تسخط[5].

وأما قولكم : نرضىٰ بالقضاء دون المقضي : فهذا إنما يصح علىٰ قول من جعل[6] القضاء غير المقضي ، والفعل غير المفعول ، وأما من لم يُفرِّق بينهما : فكيف يصح هذا علىٰ أصله؟.

وقد أورد القاضي[7] الباقلاني[8] علىٰ نفسه هذا السؤال ، فقال :

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٢) م زيادة (له).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق زيادة (أنها).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ش ، ق (فيرضىٰ).

(٥) الأصل (برضىٰ ولا بسخط) ، ش (يرضىٰ ولا يسخط) ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (يرضىٰ ولا تسخط) والأقرب ما أثبته من د ، ق ، ط.

(٦) ط (يجعل).

(٧) ق زيادة (أبو بكر).

(٨) (الباقلاني) سقط من ق.

فإن قيل: القضاء عندكم هو المقضي[1]، أو غيره؟.

قيل: هو علىٰ ضربين، فالقضاء - بمعنىٰ الخلق - هو المقضي؛ لأن الخلق هو المخلوق، والقضاء - الذي هو الإلزام والإعلام والكتابة -: غير المقضي؛ لأن الأمر غير المأمور، والخبر غير المخبر عنه[2][3].

وهذا الجواب لا يخلصه أيضاً؛ لأنّ الكلام ليس في الإلزام والإعلام والكتابة، وإنما في نفس الفعل المقدر[4] المعلم به المكتوب: هل مقدره وكاتبه سبحانه راض به أم لا؟ وهل العبد مأمور بالرضىٰ به نفسه أم لا؟ هذا[5] حرف المسألة.

وقد أنكر الله سبحانه[6] علىٰ من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمين[7] لمحبته ورضاه فكيف بمن جعل ذلك شيئاً واحداً؟ قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن

---

(١) ق (القضاء).

(٢) م، ح٢ (به) بدل (عنه).

(٣) انظر الإنصاف للباقلاني ٢٢٧ - ٢٢٩ تحقيق عماد الدين أحمد حيدر.

(٤) د، ط (المقدور).

(٥) ط زيادة (هو).

(٦) ط (وتعالىٰ).

(٧) الأصل (مستلزماً) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام :١٤٨] وقال تعالىٰ : ﴿[وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟](١) لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ(٢) فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾[النحل : ٣٥] وقال تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ [الزخرف :٢٠] .

فهم استدلوا علىٰ محبته ورضاه لشركهم(٣) بمشيئته لذلك ، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه ، وفيه أَبْيَنُ(٤) الرد لقول من جعل مشيئته عين(٥) محبته ورضاه، فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة ، ثم زادوه(٦) بجعلهم الفعل نفس المفعول ، والقضاء عين المقضي ، فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالىٰ راضياً محباً لذلك ، والتزام رضاهم به.

والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، وينجي من هـذه الورطة(٧) :

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٢) (كذلك) سقطت من ش.

(٣) ق ، ط زيادة (ورضاه عنه).

(٤) ق ، ط (أن بين).

(٥) غ (غير) وهو خطأ يغيِّرُ المعنىٰ ، ومع ذلك اتفقت عليه جميع الطبعات حتىٰ طبعة رشيد رضا - رحمه الله - كما في ٢/ ١٠٧.

(٦) الأصل (زاده) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٧) الورطة : أرض منخفضة لا طريق فيها، والهوة العميقة في الأرض، وكل أمر تعسر النجاة منه ، المعجم الوسيط ٢/ ١٠٢٥.

[١] التفريق[٢] بين ما فرق الله بينه ، وهو المشيئة والمحبة فليسا[٣] واحداً ، ولا هما متلازمين ؛ بل قد يشاء ما لا يحبه ، ويحب ما لا يشاء كونه.

فالأول : كمشيئة لوجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

والثاني : كمحبته[٤] إيمان الكفار ، وطاعات[٥] الفجار ، وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين ، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه ، فإنه ما شاء الله[٦] كان ، وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل ، وأن الفعل غير المفعول ، والقضاء غير المقضي ، وأن الله لم يأمر عباده بالرضىٰ بكل ما خلقه وشاءه : زالت الشبهات ، وانحلَّتْ الإشكالات ، ولله الحمد ، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض ، بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر :[٧] ؛ بل القدر ينصر الشرع ، والشرع يصدق القدر ، وكل منهم يحقق الآخر.

---

(١) ط (إنما هو).

(٢) ق (التفرقة).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فإنهما ليسا).

(٤) ط ، ق ، ح٢ (كمحبة).

(٥) ح٢ (وطاعة).

(٦) (لفظ الجلالة) سقط من ق.

(٧) ش (الآخر).

إذا عُرف[1] هذا فالرضىٰ بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب علىٰ العبد أن يكون راضياً به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتىٰ يحكموا رسوله، و[2]يرتفع الحرج[3] من نفوسهم من حكمه، و[4]يسلّموا لحكمه[5]، وهذا حقيقة[6] الرضىٰ بحكمه.

فالتحكيم: في مقام الإسلام، [وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان][7]، والتسليم في مقام الإحسان.

ومتىٰ خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحَيِيَ بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقىٰ أحكام الرب تعالىٰ بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضي كل

---

(١) ق (عرفت).

(٢) ط زيادة (حتىٰ).

(٣) ب (الجزع) بدل (الحرج).

(٤) ط زيادة (حتىٰ).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (تسليماً).

(٦) ش (حقيقته).

(٧) أ، ب، غ (والرضىٰ في مقام الإيمان) بدلاً عما بين المعقوفين.

الرضىٰ بهذا القضاء الديني المحبوب لله ورسوله[1][2].

والرضىٰ بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة، والغنىٰ، والعافية، واللذة - أمر لازم بمقتضىٰ الطبيعة؛ لأنه[3] ملائم للعبد، محبوب له، فليس في[4] الرضىٰ به عبودية؛ بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب[5] الله أن توضع فيها، وأن لا يعصي المنعم بها[6].

والرضىٰ بالقضاء الكوني القدري، الجاري علىٰ خلاف مراد العبد و محبته

---

(١) ط (ولرسوله).

(٢) شاهد ذلك ما جاء في قصة أبي سفيان مع هرقل عظيم الروم حين سأله هل يرجع أحد عن الإسلام سخطه عليه، قال: «وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد»، أخرجه البخاري. بدء الوحي (١/ ١٦ ـ ١٧) ح(٧)، ابن حبان في الثقات (٢/ ٣١)، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٧٨)، ابن منده في الإيمان (١/ ٢٩٠)، اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٩٢).

وقال القاضي عياض في معنىٰ حديث «ذاق طعم الإيمان»: «صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه؛ لأن من رضي أمراً سهل عليه، فهكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهلت عليه الطاعة..»، الديباج علىٰ صحيح مسلم (١/ ٥١) لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

(٣) الأصل (فلأنه) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٤) م، ش زيادة (هذا).

(٥) د (يحبها).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (ويرىٰ التقصير في جميع ذلك) و ط (وأن..).

مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره - مستحب ، وهو من مقامات[1] الإيمان ، وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر ، وأذىٰ الخلق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك[2].

والرضىٰ بالقدر الجاري عليه باختياره - مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهىٰ عنه - كأنواع الظلم والفسوق والعصيان : حرام يُعاقب عليه ، وهو مخالف لربه تعالىٰ ، فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضىٰ ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضىٰ بالقضاء[3].

فإن قلت : كيف[4] يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟.

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (أهل).

(٢) سبقت الإشارة إلىٰ هذين القولين (ص ١٩٠٨، ١٩١٧).

وقال شيخ الإسلام : «النوع الثاني : الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل ، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء ، وليس بواجب ، وقد قيل إنه واجب ، والصحيح أن الواجب هو الصبر كما قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : الرضىٰ عزيز ولكن الصبر معوَّل المؤمن» الاستقامة ٢/ ٧٤ ، التحفة العراقية ٣٥٦.

(٣) بعد ما ذكر شيخ الإسلام أقسام الناس في ذلك وفصل القول فيها قال : «.. ولكن يرضىٰ بما أصابه من المصائب لا بما يفعله من المعايب ، فهو من الذنوب يستغفر وعلىٰ المصائب يصبر» ، الاستقامة (٢/ ٧٩) ، الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٣ ـ ٦٨٥).

(٤) أ ، ب (فكيف).

قيل : هذا السؤال[١] هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت عنه[٢] طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن «المُراد» نوعان : مُراد لنفسه ، ومُراد لغيره.

فالمراد لنفسه : مطلوب لذاته وما[٣] فيه من الخير ، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره : قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلىٰ ذاته ، وإن كان وسيلة إلىٰ مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلىٰ مراده، فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما[٤] ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة ، [إذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وكقطع العضو][٥] المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاءَ جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جدًّا إذا علم أنها توصله[٦] إلىٰ مراده و محبوبه؛ بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته ، وطُويت عنه مغبَّتُه ، فكيف بمن لا تخفىٰ عليه

---

(١) ق (هذا هو السؤال الذي).

(٢) ط (عنده).

(٣) ط (ولما).

(٤) غ (تعلقهما)

(٥) العبارة في ق (أنه فيه جداً إذا علم متناوله إذ فيه شفاؤه وكقطع العضو..).

(٦) ش (توصل).

العواقب؟ فهو سبحانه وتعالىٰ يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً إلىٰ أمر[1] هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يُغضب الرب تبارك وتعالىٰ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل[2] حيلة، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالىٰ مسْخوط له، لعنه الله ومقته، وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلىٰ محاب كثيرة للرب تعالىٰ ترتبت علىٰ خلقه، وجودها أحبُّ إليه من عدمها.

[3]منها: أن تُظهر للعباد قدرة الرب تعالىٰ علىٰ خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات - التي هي من[4] أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر - في مقابلة ذات جبريل[5] التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك[6] الله خالق هذا وهذا، كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء،

---

(١) أ، ب، غ (إلىٰ ما هو) بدل (أمر).

(٢) د، ق (وبكل).

(٣) ق (ومنها).

(٤) (من) سقطت من ط.

(٥) د، ق (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٦) د، غ (تبارك).

والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء[١]، والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من[٢] أدل الدلائل علىٰ كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلَّط بعضها علىٰ بعض، وجعلها محال[٣] تصرفه وتدبيره وحكمته، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

آثار أسماء الله تعالى

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: «القهار[٤]، والمنتقم[٥]، والعدل[٦]، والضار، وشديد العقاب[٧]، وسريع الحساب[٨]، وذي البطش الشديد،

---

(١) ط زيادة (والذكر والأنثىٰ).

(٢) (من) سقطت من ب، أ.

(٣) ط (محل).

(٤) القهار: قال الله تعالىٰ: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ [يوسف:٣٩].

(٥) المنتقم، الضار، الخافض: ما ورد من هذه مقيداً أو مضافاً فإنه لا يكون اسماً لمجرد هذا الورود مثل قوله تعالىٰ: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾، ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾، ﴿سريع الحساب﴾، وإن أخذ من غيرها كما في قوله تعالىٰ: ﴿وهو الولي الحميد﴾، انظر: الفتاوىٰ ٨/ ١٩٦، معارج القبول للحكمي ١/ ٧٦، وانظر رسالة عبدالله الغصن «أسماء الله الحسنىٰ» ١٣٦ - ١٣٧.

(٦) اسم العدل: ممن أثبته البيهقي، وابن العربي، وابن منده، والوليد بن مسلم، كما في رسالة الغصن ٣٣٤.

(٧) لم أجد لأحد قولاً في إثباته اسماً لله تعالىٰ.

(٨) ممن أثبته اسماً لله تعالىٰ: ابن منده، والبيهقي كما في رسالة الغصن ٣٥٠.

والخافض[1] ، والمذل»[2] فإن هذه الأسماء والأفعال كمال ، فلا بد من وجود متعلقها ، ولو كان الخلق كلهم علىٰ طبيعة المَلَك : لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها : ظهور آثار[3] أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ، ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلقُ ما يكرهه[4] من الأسباب المفضية إلىٰ ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد ، وقد أشار النبي إلىٰ هذا[5] بقوله : «لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم

---

(١) غ ، ب (الخافظ).

(٢) ما ورد هنا من الإخبار فإنه لا يسمىٰ به الله تعالىٰ إذ الإخبار عنه أوسع باباً من الاسم ولا يلزم فيه التوقف ، فمن أنكر وجود الله فإنه يقال له موجود ، وذات .. كما في الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ٩/ ٣٠١ ، وابن القيم في بدائع الفوائد ١/ ١٦٢ ، ١٧٠ ، وأسماء الله تعالىٰ كلها حسنىٰ كاملة الحسن ، أما الخبر فلا يلزم أن يكون كامل الحسن مثل ذات وشيء وموجود ، قال ذلك شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ٦/ ١٤٢ .

والأسماء يدعىٰ بها دون الأخبار ، فإنه لا يدعىٰ بها فيقال : يا حي ، يا قيوم ، ولا يقال يا ذات ، يا شيء . انظر درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ١/ ٢٩٧ ، ٤/ ١٤٠ ، مجموع الفتاوىٰ ٦/ ١٤٢ ، ٩/ ٣٠١ ، وانظر رسالة الشيخ عبدالله الغصن «أسماء الله الحسنىٰ» ص١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) (آثار) سقطت من ب.

(٤) ط (يكره).

(٥) (هذا) سقطت من ش.

يُذنبون فيستغفرون(١) الله(٢)، فيغفر لهم»(٣).

ومنها: ظهور آثار أسماء(٤) الحكمة والخبرة، فإنه(٥) «الحكيم الخبير(٦)» الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته، التي(٧) يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العقاب والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهىٰ عما ينبغي الأمر به(٨).

فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره علىٰ

---

(١) الأصل (ويستغفرون) المثبت من صحيح مسلم وبقية النسخ.

(٢) (لفظ الجلالة) سقط من ق.

(٣) مسلم. التوبة (٤/ ٢١٠٦) ح(٢٧٤٩)، أحمد (٢/ ٣٠٩)، الترمذي. صفة الجنة (٤/ ٦٧٢) ح(٢٥٢٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٧٢).

(٤) (أسماء) طمس من ح٢.

(٥) ق (سبحانه).

(٦) قال الله تعالىٰ: ﴿هو الله العزيز الحكيم﴾ [سبأ: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إنّ الله لطيف خبير﴾ [الحج: ٦٣].

(٧) د (الذي).

(٨) مفتاح دار السعادة ١/ ١٠، عدة الصابرين ٤١٦.

انتهائها إليه ووصوله ،[1] وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله ، وأحكم من أن يمنعها أهلها ، و[2]يضعها عند غير أهلها.

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ، ولم تظهر لخَلقه ولفاتت الحِكَم[3] والمصالح المترتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب.

فلو عُطِّلت تلك الأسباب - لما فيها من الشر - لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها - لئلا يحصل منها ذلك الشر الجُزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

فصل[4]

ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، ولكان الحاصل بعضها ، لا كلَّها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولو كان الناس

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ووصولها).

(٢) ط زيادة (أن).

(٣) أ ، ب ، غ ، م (الحكمة).

(٤) (فصل) طمس من ح٢ ، أ.

كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه ، والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوىٰ، وإيثار محاب الرب علىٰ محابِّ النفس.

ومنها[١] : عبودية[٢] التوبة ، والرجوع إليه واستغفاره ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويحب توبتهم ، فلو عُطلت الأسباب التي يُتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها : عبودية مخالفة عدوِّه ، ومراغمته في الله ، وإغاظته فيه ، وهي من أحب أنواع العبودية إليه ، فإنه سبحانه يحب من وليِّه أن يُغيظ عدوَّه ويراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس[٣].

ومنها : أن يُتعبَّد له بالاستعاذة من عدوِّه ، وسؤاله أن يجيره منه ، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها : أن عبيده يشتدُّ خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلّ بعدوه بمخالفته ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلىٰ المرتبة الشيطانية[٤] ، فلا يخلدون إلىٰ غرور

---

(١) ش (منها).

(٢) ق (عود).

(٣) الأكياس : (الكيْس) ضد الحمق ، مختار الصحاح ٥٨٥ ، لسان العرب ٦/ ٢٠١.

(٤) مسألة هل إبليس من الملائكة أم من الجن : نقل المفسرون أقوال الصحابة والعلماء من بعدهم فيها ، ومحصلة الأقوال : أن منهم من ذهب إلىٰ أنه من الجن مستنداً إلىٰ صراحة الآية

هل إبليس من الملائكة أم من الجن ؟

الأمل بعد ذلك.

ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته ، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة ، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة علىٰ مخالفته.

ومنها : أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر :٦] ، فاتخاذه عدواً(١) أنفع شيء للعبد ، وهو محبوب للرب.

ومنها : أن الطبيعة البشرية مُشْتملة علىٰ الخير والشر ، والطيب والخبيث ،

في ذلك وأن علة عدم سجوده هذا الوصف الذي به افترق عن الملائكة ، الذين امتثلوا الأمر فسجدوا ، وعلىٰ هذا جماعة من أهل العلم قالوا إنه كان يتعبد معهم فأطلق عليه ذلك ؛ لأنه تبع لهم ومن حجتهم أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم بنص القرآن ، وذهب جماعة من أهل العلم إلىٰ أنه ملك في الأصل ، واستدلوا لذلك بتكرار وروده في جملة الملائكة ، وقالوا بأن إخراجه بالاستثناء دليل علىٰ أنه منهم وأجاب هؤلاء علىٰ حجة أصحاب القول الأول بأن هناك قبيلة من الملائكة تسمىٰ (الجن) خلقوا من نار السموم وممن جزم بهذا القول : ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وقتادة ونقله الطبري والزمخشري وابن عطية والبغوي ، مؤيدين له ، وأشار إليه الشنقيطي في تفسيره وقال بخلافه مؤيداً من يرىٰ أنه من الجن لقوة حجتهم ، وهي نص الوحي في ذلك وصراحته ، وقد سبقه إلىٰ ذلك شيخ الإسلام حيث قال في آخر حديثه عنها (والتحقيق أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ، ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة) الفتاوىٰ ٤/ ٣٤٦ وانظر المسألة في تفسير الطبري ١/ ١٥٨ ، تفسير القرطبي (١/ ٢٩٥) ، درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٤٦ ، تفسير البغوي ١/ ٦٣ ، تفسير ابن عطية ٨/ ٣١٠ ـ ٣١١ ، أضواء البيان للشنقيطي ٤/ ١٢١.

(١) أ ، غ ، ب (من).

وذلك كامن فيها كمون(١) النار في الزناد، فَخُلِق الشيطان مستخْرجاً لما(٢) في طبائع أهل الشر من القوة إلىٰ الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلىٰ الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوىٰ هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه [آثاره، وما في قوىٰ أولئك من الشر، ليترتب(٣) عليه(٤) آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين](٥)، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق.

وهذا هو السؤال الذي سألته الملائكة حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولىٰ من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

الحكمة من خلق ما لا يحبه ولا يرضاه

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة(٦) الظالمة كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك

(١) ب (ككمون).

(٢) (لما) سقطت من د، و (اللام) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، ش.

(٣) أ، ب (ليرتب).

(٤) ش (عليها).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٦) ط (الكفارة).

ثمود وقوم لوط ، وآية انقلاب النار علىٰ إبراهيم برداً وسلاماً ، والآيات التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يد موسىٰ ، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها(١) : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الشعراء :١٣٩- ١٤٠] ، فلولا كفر الكافرين ، وعناد الجاحدين ، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة ، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلىٰ الأبد.

ومنها : أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً ، ويكسر بعضها بعضاً : هو من شأن كمال الربوبية ، والقدرة النافذة ، والحكمة التامة ، والملك الكامل - وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه ، ولو لم يخلق(٢) هذه الأسباب - لكن خلقها من لوازم كماله وملكه ، وقدرته وحكمته ، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة : تحقيق لذلك الكمال ، وموجب من موجباته ، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة : فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت علىٰ خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته : أحب إليه(٣) سبحانه وتعالىٰ من فواتها ، وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

---

(١) ط زيادة (في سورة الشعراء).

(٢) م ، ح٢ (تخلق).

(٣) أ ، ب ، غ (إلىٰ الله).

فإن قلت : فهل كان يمكن وجود الحكم بدون هذه الأسباب؟.

قلت(١) : هذا(٢) سؤال باطل ، إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الابن بدون الأب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة دون التائب.

فإن قلت : فإذا(٣) كانت هذه الأسباب مرادة ، لما تفضي(٤) إليه من الحكم ، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه ، أم مسخوطة من جميع الوجوه؟.

قلت : هذا السؤال يُورد(٥) علىٰ وجهين :

أحدهما : من جهة الرب سبحانه وتعالىٰ ، وهل يكون محباً لها من جهة إفضائها إلىٰ محبوبه ، وإن كان يبغضها لذواتها(٦).

الثاني : من جهة العبد ، وهو أنه هل يسوغ له الرضىٰ بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلىٰ العدم - أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه - وهو من هذه الجهة شر ، وأما من جهة وجوده المحض : فلا شرَّ فيه.

---

(١) (قلت) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فهذا).

(٣) (فإن قلت فإذا) طمس من أ.

(٤) ق (يقضي).

(٥) ق (مورد).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (لذاتها).

مثاله : أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة ، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فإنها[1] خلقت في الأصل[2] متحركة لا تسكن ، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به[3] وإن تُركت تحركت بطبعها[4] إلىٰ خلافه ، وحركتها من حيث هي حركة خير ، وإنما تكون شراً بالإضافة ، لا من حيث هي حركة ، والشر كله ظلم ، وهو وضع الشيء في غير موضعه ، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً.

فعلم أن جهة الشر فيه : بمشيئة[5] إضافية ، ولهذا كانت العقوبات ، الموضوعة[6] في محالها خيراً في نفسها ، وإن كانت شراً بالنسبة إلىٰ المحل الذي حلت به ، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة ، مستعدة له ، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها ، وهو خير بالنسبة إلىٰ الفاعل ، حيث[7] وضعه موضعه، فإنه سبحانه لا يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه[8]

---

(١) أ ، ب ، غ (به).

(٢) ب (فهي).

(٣) أ ، ب (في الخير) ، و (به) سقطت من ط.

(٤) د (تحركت).

(٥) الأصل ، ش (بمشيئة إضافة) ، م (نسبية بمشيئة) ، ط (نسبة إضافته) والأقرب ما أثبته من د ، ق.

(٦) ط (الموضوعات).

(٧) (حيث) سقط من ح ٢.

(٨) ب (وجوه الاعتبارات).

والاعتبارات ، فإن حكمته تأبىٰ ذلك ؛ بل قد يكون ذلك المخلوق شراً ومفسدة ببعض الاعتبارات ، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر ، أرجح من اعتبارات مفاسده ؛ بل الواقع منحصر في ذلك ، فلا يمكن في جناب الحق - جلّ جلاله - أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه وبكل[1] اعتبار ، لا مصلحة في خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال ، فإنه سبحانه بيده الخير ، والشر ليس إليه ؛ بل كل ما إليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه ، فلو كان إليه لم يكن شراً ، فتأمله ، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيّره شراً.

فإن قلت : لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟.

قلت : هو من هذه الجهة ليس بشر ، فإن وجوده هو المنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذي فيه : من عدم إمداده بالخير وأسبابه ، والعدم ليس بشيء ، حتىٰ ينسب إلىٰ من بيده الخير.

فإن أردت مزيداً من إيضاح لذلك ، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة : الإيجاد والإعداد ، والإمداد فهذه هي الخيرات وأسبابها.

فإيجاد هذا[2] السبب خير ، وهو إلىٰ الله ، وإعداده خير ، وهو إليه أيضاً ، وإمداده خير ، وهو إليه[3].

---

(١) أ ، ب ، غ (بكل).

(٢) (هذا) سقطت من ط.

(٣) ط زيادة (أيضاً).

فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب(١) هذا العدم الذي ليس إلىٰ الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قلت: فهلا أمدّه إذ أوجده؟.

قلت(٢): ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، فإنه - سبحانه - يُوجده، ويمدُّه، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده: أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته، فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قلت: فهلا أمَدّ الموجودات كلها؟.

قلت: هذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل؛ بل الحكمة كل الحكمة: في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها(٣)، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت، والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية، لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت.

فإن اعتاص(٤) ذلك عليك، ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل:

---

(١) م (لسبب).

(٢) (قلت) سقطت من م، د، ب، ش، ق.

(٣) أ، ب (بينهما).

(٤) ق (اعتاض).

إذا لم تستطع شيئاً فدعه[١] وجاوزه إلىٰ ما تستطيع[٢]

كما ذكر : أن الأصمعي اجتمع بالخليل[٣] ، وحرص علىٰ فهم العروض منه[٤] : فأعياه ذلك فقال له الخليل يوماً : قطِّع لي هذا البيت ، وأنشده : «إذا لم تستطع[٥].. البيت» ففهم ما أراد ، فأمسك عنه ولم يشتغل به.

وسر المسألة : أن الرضىٰ بالله يستلزم الرضىٰ بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ، ولا يستلزم الرضىٰ بمفعولاته كلها ؛ بل حقيقة العبودية : أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه ، فيرضىٰ منها بما رضي[٦] به ، ويسخط منها ما سخطه.

فإن قيل : فهو سُبحانه يرضىٰ عقوبة من يستحق العقوبة ، فكيف[٧] يمكن العبد أن يرضىٰ بعقوبته له؟.

قيل : لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسروراً ، ولكن لا يقع منه[٨] ذلك.

---

(١) ط (دعه).

(٢) بيت الشعر : ـ القائل : عمرو بن معد يكرب ، البداية والنهاية (٧/ ١٦٠) (١٠/ ١٦١) ، الإصابة (٤/ ٢٩٢) ، الشقائق النعمانية لطاش كبرىٰ زاده (٢/ ٢٤٠).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (ابن أحمد).

(٤) (منه) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٥) د زيادة (شيئاً فدعه) ، ط (شيئاً).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (يرضىٰ).

(٧) ب زيادة (بمن).

(٨) (منه) سقطت من أ ، ب ، غ.

فإن لم يوافقه في محبته وطاعته ، التي هي سرور النفس ، وقرة العين ، وحياة القلب ، فكيف يوافقه في محبته للعقوبة ، التي هي أكره شيء إليه ، وأشق شيء[1] عليه؟ بل كان كارهاً لما يحبه من طاعته وتوحيده ، فلا يكون راضياً بما يختاره من عقوبته ، ولو فعل[2] ذلك لارتفعت عنه العقوبة.

فإن قلت : فكيف يجتمع الرضىٰ بالقضاء الذي يكرهه العبد - من المرض والفقر والألم - مع كراهته؟.

قلت : لا تنافي في ذلك ، فإنه يرضىٰ به من جهة إفضائه إلىٰ ما يحب ، ويكرهه من جهة تألمه به ، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه ، فإنه يجتمع فيه رضاه به ، وكراهته له.

فإن قلت : كيف يرضىٰ لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟.

قلت : لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة ، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة ، ومفوتاً لمصلحة راجحة ، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ ذلك في قوله : ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

---

(١) د (وأشقه عليه).

(٢) ط (قبل) بدل (فعل).

خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦ - ٤٧]، فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله[1] للغزو، وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به، فلما كرهه منهم ثبّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت تترتب[2] علىٰ خروجهم لو خرجوا مع رسوله[3] ﷺ، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً[4] وشراً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم، فتولّد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة: أنْ مَنَعَهُم من الخروج، وأقْعدَهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب، وقِسْ عليه.

فإن قلت: قد تصور[5] لي هذا[6] في رضىٰ الرب تعالىٰ لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر[7]، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقي بالنسبة إلىٰ المعاصي والفسوق؟.

---

(١) أ، ب، غ (رسول الله).

(٢) ط (ستترتب).

(٣) ط (رسول الله).

(٤) (فساداً) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٥) ط (يتصور).

(٦) (هذا) سقطت من د.

(٧) (آخر) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

قلت : هو متصوَّر ممكن ؛ بل واقع ، فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ، ويكرهه من حيث هو[١] فعل له ، [٢] وواقع[٣] بكسبه[٤] وإرادته ، واختياره ، ويرضىٰ بعلم الله وكتابته ومشيئته ، وإذنه الكوني[٥] ، فيرضىٰ بما من الله ، ويسخط ما هو منه ، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان.

وطائفة أخرىٰ رأوا كراهة ذلك مطلقاً ، وعدم الرضىٰ به[٦] من كل وجه.

وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك ، فإن العبد إذا كرهها مطلقاً ، فإن الكراهة إنما تقع علىٰ الاعتبار المكروه منها ، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيئته ، وإلزامه[٧] حكمه[٨] الكوني ، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها[٩] الرب وأبغضها لأجله.

وَسِرُّ المسألة : أن الذي إلىٰ الرب منها غير مكروه ، والذي إلىٰ العبد منها

---

(١) (هو) سقطت من د.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (سببه) ، ط (بسببه).

(٣) ق (واقع).

(٤) (بكسبه) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (فيه).

(٦) (به) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) ش (والتزامه).

(٨) ق (وحكمه) بزيادة (الواو).

(٩) ش ، ح٢ (يسخطها).

هو المكروه والمسخوط[1][2].

فإن قلت: ليس إلىٰ العبد شيء منها؟.

قلت: هذا هو الجبر الباطل، الذي لا يمكن صاحبه التخلُّص من هذا المقام[3] الضيِّق، والقدريُّ أقرب إلىٰ التخلص منه من الجبري، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية: هم أَسْعدُ بالتخلُّصِ منه من الفريقين.

أثر شهود الحقيقة الكونية على معتقد الصوفية في القدر

فإن قلت: فكيف[4] يتأتَّىٰ النَّدمُ والتوبةُ، مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟.

قلت: هذا هو[5] الذي أوقع من عَمِيت بصيرته في شهود الأمر علىٰ خلاف ما هو عليه، فرأىٰ تلك الأفعال طاعات، لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال

---

(١) د (المسخوط) بدون (واو).

(٢) قال شيخ الإسلام: «.. وقالت طائفة ترضىٰ من جهة كونها مضافة إلىٰ الله خلقاً، وتسخط من جهة كونها مضافة إلىٰ العبد فعلاً وكسباً.. إلىٰ أن قال: وهو سبحانه إنما قدر الأشياء لحكمة، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية وقد تكون في نفسها مكروهة مسخوطة..» الفتاوىٰ ١٠/ ٤٢.

(٣) أ، ب، غ (المكان).

(٤) أ، ب، غ، ش (كيف).

(٥) (هو) سقطت من أ، ب، غ.

إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك[1] ، قيل[2] :

أصبحتُ منفعلاً لما تختارُه منِّي ففعلـــي كلُّه طاعـــات[3]

وهؤلاء أعمىٰ الخلق بصائر ، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية ، فإن الطاعة هي موافقة الأمر ، لا موافقة القدر والمشيئة ، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله ، وكان قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مُطيعين له[4] ، فيكون قد عذبهم أشد العذاب علىٰ طاعته ، وانتقم منهم لأجلها ، وهذا غاية الجهل بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله.

---

(١) وهذا هو قول غلاة الصوفية ، قال شيخ الإسلام في معرض الرد علىٰ من شهد الحقيقة الكونية : « وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلىٰ أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور ، وأولياء الله وأعداء الله ، والأنبياء والمتقين ، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويجعلون المتقين كالفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويعطلون الأمر والنهي والوعد والوعيد والشرائع.. » الاستقامة ٢/ ٧٨ ، وقال أيضاً : « .. وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهىٰ عنه ، ويجعل ذلك من التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية - إلىٰ قوله - حتىٰ يفضي الأمر بغلاتهم إلىٰ عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي.. وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي علىٰ أيدي الكفار والفجار.. » الفتاوىٰ ١٠/ ٢٧-٢٨ ، ٣٤.

(٢) ح٢ ، م (كما قيل) و ط (وقيل).

(٣) بيت الشعر : لم أجده ، وانظر تعليق شيخ الإسلام علىٰ هذا البيت وما وقع فيه بعض الصوفية من الاشتباه ، الفتاوىٰ (١١/ ٢٤٥).

(٤) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

فإن قلت : ومع ذلك ، فاجمع لي بين الندم والتوبة ، وبين مشهد القيومية والحكمة؟.

قلت : العبد إذا شهد عجز نفسه ، ونفوذ الأقدار فيه ، وكمال فقره إلىٰ ربه ، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله في هذه الحال ، لا بنفسه ، فوقوع الذنب منه لا يتأتىٰ في هذه الحال البتة ، فإن عليه حصناً حصيناً من : « فبي يسمع ، وبي يُبصر ، وبي يبْطش ، وبي يمشي »[1] ، فلا يُتصور منه الذنب في هذه الحال ، فإذا حُجب عن هذا المشهد ، وسقط إلىٰ وجوده الطبعي ، وبقي بنفسه[2] : استولىٰ عليه حكم النفس والطبع والهوىٰ ، وهذا الوجود الطبعي[3] قد نُصبت فيه الشباك والأشراك ، وأرسلت عليه الصيادون ،

---

(١) لهذا الكلام صلة بحديث الولي المشهور ، الذي أخرجه البخاري في الرقاق (٤/ ١٩٢) ح(٦٥٠٢) ، وفي سنده خالد بن مخلد القطواني شيخ البخاري وقد تُكُلّم فيه ، انظر في ذلك ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٦٤١) ، فتح الباري (١١/ ٣٤٤ ، ٤١٥) ، والألباني كما سيأتي ، أما اللفظ الموجود هنا « فبي يسمع.. » فقد جمع فيه الألباني كلاماً طويلاً خلاصته ، أما سياق الحديث بلفظ « فبي يسمع وبي يبصر.. » فقد أورده شيخ الإسلام في عدة أماكن من الفتاوىٰ (٥/ ٥١١ ، ١٠/ ٥٨ ، ١١/ ٧٥ ـ ٧٦ ، ١٧/ ١٣٣ ـ ١٣٤) من رواية البخاري بزيادة « فبي يسمع.. » ولم أر هذه الزيادة عند البخاري ولا عند غيره ممن ذكرنا من المخرجين وقد ذكرها الحافظ أثناء شرحه للحديث نقلاً عن الطوفي ولم يعزها لأحد ، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٨٣ ـ ١٩١) ، وقد ذكرها ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٠).

(٢) ح٢ ، م (نفسه).

(٣) الأصل (الطبيعي) وما أثبته من ش وهو الصحيح.

فلا بد أن يقع في شبكة من تلك الشباك[1]، وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه[2]. فيقع الحجاب، ويقوىٰ المقتضىٰ، ويضعف المانع، وتشتد الظلمة، وتضعف القوىٰ، فأنىٰ له بالخلاص من تلك الأشراك والشباك؟ فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبعي، وانجاب[3] ظلامه، وزال قَتامه، وصرت بربك ذاهباً عن نفسك وطبعك.

بدا لك سرٌّ طال عنك اكتتامُه ... ولاح صباحٌ كنت أنت ظلامُه
فإن غِبْتَ عنه حلّ فيه وَطَنَّبت ... علىٰ منكب الكشف المصون خيامُه
فأنت حجاب القلب عن سرِّ غيبه ... ولولاك لم يُطبع عليه ختامُه
وجاء حديثٌ لا يُملّ سماعُه ... شهيٌّ إلينا نثرُه ونظامُه
إذا ذَكَرتْه النفسُ زَالَ عَنَاؤُها ... وزَالَ عن القلب المُعَنَّىٰ قتامُه[4]

فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية بنفسه، محجوباً فيها عن ربه، وعن طاعته، فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر: بقي بربه لا بنفسه.

وإذا عرف هذا، فالتوبة والندم يكونان[5] في هذا الوجود الذي هو فيه بربه

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د (وشرك من تلك الأشراك)، و ق (أو شرك..).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (فعند ذلك يقع).

(٣) انجاب: من جاب الشيء جوباً (خرقه) وجاب الصخرة: نقبها، لسان العرب ١/ ٢٨٥.

(٤) أبيات الشعر: ذكره أبو طريف الشيبي في الشعر المنسوب للحلاج ١٠٣، وبهامشه نسبه لابن العريف الصنهاجي المتوفىٰ سنة ٥٣٦هـ، انظر ١٠٤ من الكتاب نفسه.

(٥) الأصل (يكون)، ق (تكون) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية، بل يجامعه ويستمد منه، وبالله التوفيق.

قوله: «وَيَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شَرَائِط: بِاسْتِوَاءِ الحَالَاتِ عِندَ العَبْدِ[1]، وَسُقُوطِ الخُصُومَةِ مَع الخَلْقِ، وَبِالخَلَاصِ[2] مِن المَسْأَلَةِ وَالإِلحاحِ»[3].

يعني: أن الرضىٰ عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة[4]، فإن الراضي[5] الموافق يستوي[6] عنده الحالات - من النعمة والبلية - في رضاه بحسن اختيار الله له[7].

[وليس المراد استواءها عنده في ملاءمته ومنافرته، فإن هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني][8].

الفرق بين استواء النعمة والبلية وبين استواء الطاعة والمعصية

وليس المراد أيضاً استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه، وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضىٰ بهما لوجوه:

---

(١) ش (العجز) وبهامشها (والقدرة).

(٢) ط (الخلاص).

(٣) منازل السائرين (٤٠).

(٤) (أ، غ، ب) سقطت من ش.

(٥) ق (الرضىٰ).

(٦) ق، ط (تستوي).

(٧) (له) سقطت من ح٢.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من ش.

أحدها : أنه مفوض ، والمفوض راض بكل ما اختاره له [من فوض إليه ، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ، ولطفه وحسن اختياره له](١).

الثاني : أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله ، ولا راد لحكمه ، وأنه ما شاء الله(٢) كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو(٣) يعلم أن كُلاً من البلية والنعمة سابق ، وقدر حتم.

الثالث : أنه عبد محض ، والعبد المحض لا يسخط(٤) جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن ، بل يتلقاها(٥) كلها بالرضىٰ به وعنه.

الرابع : أنه محب ، والمحب الصادق : من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس : أنه جاهل بعواقب الأمور ، وسيده أعلم بمصلحته وما(٦) ينفعه.

السادس : أنه لا يريد مصلحته(٧) من كل وجه ، ولو عرف أسبابها ، فهو جاهل ظالم ، وربه تعالىٰ يريد مصلحته ، ويسوق إليه أسبابها(٨) ، ومن أعظم

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٢) (لفظ الجلالة) سقط من ش.

(٣) (فهو) سقط من ق.

(٤) م ، ش ، ح٢ ، د (يتسخط) وفي ب (يسخطه).

(٥) ق (تلقاها).

(٦) ط (بما).

(٧) ط (مصلحة نفسه).

(٨) ش (أسبابه).

أسبابها : ما يكرهه العبد ، فإن مصلحته فيما يكره[١] أضعاف[٢] مصلحته فيما يحب ، قال[٣] تعالىٰ : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :٢١٦] وقال تعالىٰ : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء :١٩].

السابع : أنه مسلم ، والمسلم من قد سلَّم نفسه لله ، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه[٤] ، ولم يتسخط[٥] بذلك[٦].

الثامن : أنه عارفٌ بربه ، حسن الظن به ، لا يتهمه فيما يُجريه عليه من أقضيته وأقداره ، فحُسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده ، ورضاه بما يختاره له سيده[٧].

التاسع : أنه[٨] يعلم أن حظَّه من المقدور[٩] ما يتلقَّاه به من رضي أو سخط[١٠] ،

---

(١) (فيما يكره) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) أ ، ب ، غ ، ش ، ق (أضعاف) مكررة.

(٣) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) (عليه) سقطت من أ ، ب ، غ ، ش.

(٥) ط (يسخط).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ذلك).

(٧) ط زيادة (سبحانه).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (أن).

(٩) ق (بالمقدور).

(١٠) ط (وسخط).

فلا بُدّ له منه ، فإن رضي فله الرضىٰ ، وإن سخط فله السخط[1].

العاشر : علمه بأنه إذا رضي به[2] انقلب في حقه نعمة ومنحة ، وخفّ عليه حمله ، وأعين عليه ، وإذا سخطه[3] تضاعف عليه ثقله وكَلُّه[4] ، ولم يزدد إلا شدة ، فلو أن السخط يُجدي عليه شيئاً لكان له فيه راحة فلا[5] أنفع له من الرضىٰ به.

ونكتة المسألة : إيمانه بأن قضاء الرب تعالىٰ خير له ، كما قال النبي : «**والذي نفسي بيده ، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[6].

الحادي عشر : أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام

---

(١) فيه إشارة إلىٰ الحديث : « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم.. » ، أخرجه أحمد من حديث محمود ابن لبيد (٥/ ٤٢٧) ، الترمذي. الزهد من حديث أنس (٤/ ٦٠١) ح(٢٣٩٦) ، وقال حسن غريب ، ابن ماجه. الفتن (٢/ ٣٨٨) ح(٤٠٣١) ، وقال حسن غريب ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٩١) ، رواه أحمد ورجاله ثقات وحديث أنس فيه ابن لهيعة وفيه كلام.

(٢) (به) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٣) غ ، ش ، ح٢ (سخط).

(٤) كَلُّه : - الكَلُّ : المصيبة تحدث والأصل : من كَلَّ عنه أي نبا وضعف. لسان العرب ٥٩٢/١١.

(٥) (فلا) سقطت من ط.

(٦) الحديث : سبق ص١٨٤٢.

عليه[١] ، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبوديته ربه ، فلا تتم له عبوديته - من الصبر ، والتوكل ، والرضىٰ ، والتضرع ، والافتقار والذل ، والخضوع ، وغيرها - إلا بجريان القدر له بما يكرهه ، وليس الشأن[٢] في الرضىٰ بالقضاء [الملائم للطبيعة ، إنما الشأن في الرضىٰ[٣] بالقضاء[٤]][٥] المؤلم المنافر للطبع[٦].

الثاني عشر : أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالىٰ في جميع الحالات يثمر له[٧] رضىٰ ربه عنه[٨] ، فإذا رضي عنه بالقليل[٩] من الرزق : رضي الله[١٠] عنه بالقليل من العمل ، وإذا رضي عنه في جميع الحالات ، واستوت عنده ، وجده أسرع شيء إلىٰ رضاه إذا ترضّاه وتملَّقه[١١].

---

(١) (عليه) سقط من ش.

(٢) ب زيادة (إلا).

(٣) (في الرضىٰ) سقطت من ط.

(٤) ط (في القضاء).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ .

(٦) ح٢ (للطبيعة).

(٧) (له) سقطت من ط.

(٨) (عنه) سقطت من م.

(٩) الأصل (بالقليل عنه) والأقرب ما أثبته من ق ، ط.

(١٠) (لفظ الجلالة) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش ، وفي ش ، ط (ربه).

(١١) تملَّقه : - الملق : الود واللطف الشديد ، وأصله التليين ، والترفق والمداراة وهو تودد فوق ما ينبغي ، لسان العرب ١٠/ ٣٤٧.

الثالث عشر : أن أعظم راحته ، وسروره ونعيمه : في الرضىٰ عن ربه[١] في جميع الحالات ، فإن الرضىٰ باب الله الأعظم ، ومستراح العارفين ، وجنة الدنيا ، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد[٢] رغبته فيه ، [٣]لا يستبدل بغيره منه.

الرابع عشر: أن السخط باب الهمِّ والغمِّ والحَزَن وشتات القلب وكسْف[٤][٥] البال ، وسوء الحال والوسواس[٦] ، والظن خلاف ما هو أهله ، والرضىٰ يخلِّصه من ذلك كله ، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر : أن الرضىٰ يوجب له الطمأنينة ، وبَرد القلب ، وسكونه وقراره ، والسخط يوجب[٧] اضطراب قلبه ، وريبه[٨] وانزعاجه ، وعدم قراره[٩].

السادس عشر : أن الرضىٰ يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها ، ومتىٰ نزلت عليه السكينة : استقام ، وصلحت أحواله ، وصلح باله ، والسخط ، يبعده منها

---

(١) د ، ط (تعالىٰ وتقدس).

(٢) الأصل (يشتد) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٣) ط زيادة (وأن).

(٤) ش (كشف).

(٥) كسف : يقال رجل كاسف الوجه : عابسه من سوء الحال ، وهو الصفرة والتغير ، ورجل كاسف مهموم/ لسان العرب ٩/ ٢٩٩.

(٦) (الوسواس) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش.

(٧) ش زيادة (له).

(٨) أ ، ب ، غ ، ط (ريبته).

(٩) غ (إقراره).

بحسب قلته وكثرته ، وإذا ترحَّلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة[١] ، وطيب العيش ، فمن أعظم نعم الله علىٰ عبده: تنزيل[٢] السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها : الرِّضىٰ عنه في جميع الحالات.

السابع عشر : أنَّ الرضىٰ يفتح له باب السلامة ، فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدَّغل[٣] والغلِّ[٤] : ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتىٰ الله بقلب سليم ، [٥] وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضىٰ ، وكلَّما كان[٦] أشد رضىٰ كان قلبه أسلم ، فالخبث والدغل والغش : قرين السخط ، وسلامة القلب وبِرّه[٧] ونصحه : قرين الرضىٰ ، وكذلك الحسد[٨] : هو من ثمرات السخط ، وسلامة القلب من ثمرات الرضىٰ.

الثامن عشر : أن السخط يوجب تلّون العبد ، وعدم ثباته مع الله ، فإنه لا يرضىٰ إلا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا

---

(١) الدّعة : الخفض في العيش والراحة . لسان العرب ٨/ ٣٨١.

(٢) ط (تنزل).

(٣) الدّغل : الفساد مثل الدّخل . لسان العرب ٨/ ٣٨١.

(٤) الغِلّ : الغش والحقد . مختار الصحاح ٤٧٩.

(٥) ط زيادة (كذلك).

(٦) ط زيادة (العبد).

(٧) أ ، ب ، غ (برده).

(٨) أ ، ب ، غ (الخبث).

يلائمه ، وكلما جرىٰ عليه منها ما لا يلائمه سخطه[1] ، فلا تثبت له علىٰ العبودية قدم[2] فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات ، استقرت قدمه في مقام العبودية ، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضىٰ.

التاسع عشر : أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله ، وقضائه وقدره[3] ، وحكمته وعلمه ، فقلَّ أن يسلم[4] الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل[5] فيه ، وإن كان لا يشعر به ، فلو فتش[6] غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً[7] مدخولاً ، فإن الرضىٰ واليقين أخوان مصطحبان ، والشك والسخط قرينان ، وهذا معنىٰ الحديث الذي في الترمذي - أو غيره[8] «إن استطعت أن تعمل بالرضىٰ مع اليقين[9] فافعل، فإن لم تستطع فإن في[10] الصبر علىٰ ما تكره النفس خيراً كثيراً»[11].

---

(١) ط (أسخطه).

(٢) ش ، ط (قدم علىٰ العبودية).

(٣) (وقدره) سقط من أ ، ب.

(٤) الأصل (سلم) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٥) م (يتعلل).

(٦) ط زيادة (نفسه).

(٧) ح٢ (معولاً).

(٨) غ ، ش (وغيره).

(٩) (مع اليقين) سقطت من غ.

(١٠) (في) سقطت من د.

(١١) تقدم تخريجه ص١٨١٦.

العشرون[١] : أن الرضىٰ بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سعادة ابن آدم: استخارة الله عزّ وجلّ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضىٰ الله، ومن شِقوة ابن آدم: سخطه بما قضىٰ الله عز وجل**[٢] **ومن شقاوة ابن آدم**[٣] **ترك استخارة الله**»[٤]. فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتسخط[٥] علىٰ القضاء من أسباب الشقاوة.

الحادي والعشرون: أن الرضىٰ يوجب له أن لا يأسىٰ علىٰ ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل خصال[٦] الإيمان.

أما عدم أساه[٧] علىٰ الفائت: فظاهر، وأما عدم فرحه بما آتاه[٨]: فلأنه يعلم

---

(١) (العشرون) طمس من أ.

(٢) (عزّ وجلّ) سقطت من ط.

(٣) ق (سخطه بما قضىٰ الله، ومن شقاوة ابن آدم استخارة الله) وهذا خلط فاسد.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٦٨)، الترمذي. القدر (٤/ ٤٥٥) ح(٢١٥١)، وقال حسن غريب، الحاكم في المستدرك (١/ ٥١٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه صاحب فيض القدير (٦/ ١٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٩)، بعض رواته ليس بالقوي، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٩)، وله طريق آخر عند ابن حبان رقم(٤٠٣٢)، وفي الباب عن نافع بن الحارث رواه أحمد (٣/ ٤٠٧).

(٥) م (والسخط).

(٦) (خصال) سقطت من ط.

(٧) غ (أساءة).

(٨) (آتاه) سقطت من د.

أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله ، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة(١) ولا بدّ؟.

الثاني والعشرون : أن من ملأ قلبه من الرضىٰ بالقدر : ملأ الله صدره غنىٰ وأمناً وقناعة ، وفَرَّغ قلبه لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، ومن فاته حظُّه من الرضىٰ امتلأ قلبُه بضد ذلك ، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضىٰ يفرغ القلب لله ، والسخط يفرغ(٢) القلب من الله.

الثالث والعشرون : أن الرضىٰ يثمر الشكر ، الذي هو من أعلىٰ مقامات الإيمان ؛ بل هو حقيقة الإيمان ، والسخط يثمر ضده ، وهو كفر النعم ، وربما أثمر له كفر المنعم ، فإذا رضي(٣) عن ربه في جميع الحالات : أوجب له ذلك شكره ، فيكون من الراضين الشاكرين ، وإذا فاته الرضىٰ : كان من الساخطين ، وسلك سبيل الكافرين.

الرابع والعشرون : أن الرضىٰ ينفي عنه آفات الحرص والكَلَب(٤) علىٰ الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة ، وأصل كل بلية ، وأساس كل رزية ، فرِضاه عن ربِّه في جميع الحالات ينفي عنه(٥) هذه الآفات.

---

(١) ح٢ ، م زيادة (فينتظرها).

(٢) (يفرغ) سقطت من د.

(٣) ط زيادة (العبد).

(٤) الكَلَبُ : من التكالب : أي يتواثبون عليه ، والحرص ، حتىٰ كأنهم كلاب من شدة حرصهم ، لسان العرب ١/ ٧٢٤.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (مادة).

الخامس والعشرون : أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان[1] غالباً عند السخط والشهوة ، فهناك يصطاده ، ولا سيما إذا استحكم سخطه ، فإنه يقول ما لا يرضي الرب ، ويفعل ما لا يرضيه ، وينوي ما لا يرضيه ، ولهذا قال النبي عند موت ابنه إبراهيم : «**يحزن القلب وتدمع العين ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب**»[2] ، فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد التسخط[3] علىٰ القدر ، فأخبر النبي : أنه لا يقول في مثل هذا المقام - الذي[4] يسخطه[5] أكثر الناس ، فيتكلمون بما لا يرضي الله ، ويفعلون ما لا يرضيه[6] - إلا ما يرضىٰ ربه تبارك وتعالىٰ، ولهذا لما مات ابنُ الفضيل بن عياض رُئي في الجنازة ضاحكاً، فقيل له : أتضحك[7] وقد مات ابنك؟ فقال : إن الله قضىٰ بقضاء فأحببت أن أرضىٰ بقضائه [8].

---

(١) (الإنسان) سقطت من م.

(٢) البخاري. الجنائز (١/ ٤٠١) ح(١٣٠٣) ، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨٠٧) ح(٢٣١٥) ، أحمد (٣/ ١٩٤) ، أبو داود. الجنائز (٣/ ٤٩٣) ح(٣١٢٦).

(٣) أ ، ب ، س ، ط (السخط).

(٤) (الذي) سقطت من د.

(٥) (يسخطه) سقطت من أ ، ب ، غ ، م.

(٦) د (يرضاه).

(٧) غ (تضحك).

(٨) حلية الأولياء ٨/ ١٠٠ ، الرسالة القشيرية ٤٠ ، وذكره شيخ الإسلام وعلق عليه بقوله : «حاله حال حسن بالنسبة إلىٰ أهل الجزع وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالىٰ كحال النبي ﷺ فهذا أكمل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر

فأنكرت طائفة هذا[1] علىٰ الفضيل، وقالوا: رسول الله ﷺ قد[2] بكىٰ يوم موت[3] ابنه، وأخبر أن «القلب يحزن، والعين تدمع»، وهو في أعلىٰ مقامات الرضىٰ، فكيف يعد هذا من مناقب الفضيل؟.

اتساع قلب الرسول ﷺ لتكميل المراتب

والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتَّسع لتكميل[4] المراتب، من الرضىٰ عن الله، والبكاء رحمة للصبي، فكان له مقام الرضىٰ، ومقام الرحمة ورقة القلب، والفضيل لم يتسع [لذلك فغيَّبه مقام الرضىٰ عن مقام الرحمة][5] فلم يجتمع له الأمران[6]، والناس في ذلك علىٰ أربع مراتب.

الرضى بالمقدور والرحمة بالصغير

أحدها: من اجتمع له الرضىٰ بالقضاء ورحمة الطفل، فدمعت عيناه رحمة[7]، [8] والقلب راض.

وتواصوا بالمرحمة﴾ فذكر سبحانه التواصي بالصبر وبالمرحمة»، الفتاوىٰ ١٠/ ٤٧، فالبكاء علىٰ الميت إذا لم يقترن به ما يكرهه الله وإنما علىٰ وجه الرحمة فهو مستحب، انظر المصدر السابق والتحفة العراقية ٣٧٠.

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (هذه المقالة).

(٢) (قد) سقطت من ط.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (مات).

(٤) ط زيادة (جميع).

(٥) ط (قلبه لمقام الرضىٰ ومقام الرحمة)، وسقط (لذلك فغيّبه) من أ، ب، غ.

(٦) انظر الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ١٠/ ٤٧.

(٧) (رحمة) سقطت من أ، ب.

(٨) ق زيادة (بالطفل).

الثاني : من غيَّبه الرِّضىٰ عن الرحمة فلم يتسع للأمرين(١).

الثالث : من غيّبته الرحمة والرِّقة(٢) عن الرضىٰ فلم يشهده(٣).

الرابع : من لا رضىٰ عنده ولا رحمة ، وإنما كان(٤) حزنه لفوات حظه من الميت ، وهذا حال أكثر الخلق ، فلا إحسان ، ولا رضىٰ عن الرحمن ، والله المستعان(٥)(٦).

السادس(٧) والعشرون : أن الرضىٰ هو اختيار ما اختاره الله لعبده ، والسخط كراهة ما اختاره الله(٨) ، وهذا نوع محادة ، فلا يتخلص منه إلا بالرضىٰ عن الله في جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرضىٰ يخرج الهوىٰ من القلب، فالراضي(٩) تبع لمراد

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (بل غيبه أحدهما عن الآخر).

(٢) ب (الرأفة).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (بل فنىٰ عن الرضىٰ).

(٤) ط (يكون).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (فالأولىٰ في أعلىٰ مراتب الرضىٰ ، والثاني دونه والثالث دون الثاني والرابع).

(٦) في الفتاوىٰ تقسيم آخر خلاصته : صبر بقسوة ، رحمة بجزع ، قسوة بجزع ، صبر برحمة وهو أكملها ١٠/ ٤٧.

(٧) (السادس) طمس من أ.

(٨) ط زيادة (له).

(٩) أ ، ب ، غ زيادة (هواه).

ربه منه ، أعني الذي يحبه[١] ويرضاه ، فلا يجتمع الرضىٰ واتباع الهوىٰ في قلب[٢] أبداً ، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا ، فهو للغالب عليه منهما.

[**الثامن والعشرون** : أن الرضىٰ عن الله في جميع الحالات يُثمر للعبد رضىٰ الله عنه - كما تقدم بيانه في الرضىٰ به رباً[٣]- فإن الجزاء من جنس العمل ، وفي أثر إسرائيلي أن موسىٰ[٤] : سأل ربه[٥] : عما[٦] يدني من رِضاه؟ فقال : إن رضاي في رضاكَ بقضائي»][٧][٨].

التاسع[٩] والعشرون : أن الرضىٰ بالقضاء أشق شيء علىٰ النفس ؛ بل هو

---

(١) ط (ربه).

(٢) ط (القلب).

(٣) (رباً) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) ط (ﷺ).

(٥) ط (عزّ وجلّ).

(٦) أ ، ب ، غ ، ط (ما يدني) ، ح٢ (عن ما).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٨) قوت القلوب ٢/ ٢٥٩ ، ٢/ ٤٧ ، الرسالة القشيرية ٢٩٨ ، إحياء علوم الدين ٢/ ٣٤٥ ، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥١٨ ، ولم يذكر العراقىٰ فيه شيء.. وعزاه للقوت أيضاً ، وأورده شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ٨٢ ، وفي الفتاوىٰ ١٠/ ٦٨٧ ثم قال : «.. فهذه الحكايات فيها نظر.. ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد ولا تقوم بها حجة في شيء من الدين.. وقال منها ـ أي القصص ـ ما يُعلم كذبه مثل هذه ، فكيف يُقال إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضىٰ الله به عنه.. » .

(٩) في د (الثامن والعشرون).

ذبحها في الحقيقة ، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها ، ولا تصير مطمئنة قط حتىٰ ترضىٰ بالقضاء ، فحينئذ تستحق أن يقال لها : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠].

الثلاثون : أن الراضي[1] متلق أوامر الرب[2] - الدينية والقدرية - بالانشراح والتسليم ، وطيب النفس ، والاستسلام ، والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه ، وإرادته منها.

وقد بيَّنا أن الرضىٰ بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه ، فإنه لم يرض به لكون الله عزّ وجلّ[3] قدّره وقضاه وأمر به ، وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه ، فهو إنما رضي بنفسه[4] وعن نفسه ،[5] لا عن ربه.

الحادي والثلاثون : أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضىٰ ، والطاعات كلها أصلها من الرضىٰ ، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه ، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي.

---

(١) ق (الرضىٰ).

(٢) أ ، غ (أمر ربه) ، ط (أوامر ربه) ، وفي هامش أ ، ب (لعله الأوامر).

(٣) (عزّ وجلّ) سقطت من ط.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط (لنفسه).

(٥) ط زيادة (لا بربه).

الثاني[1] **والثلاثون** : أنّ عدم الرضىٰ يفتح باب البدعة ، والرضىٰ يغلق عنه ذلك الباب[2] ، ولو تأملت بدع الروافض[3] ، والنواصب[4] ، والخوارج[5] ، لرأيتها ناشئة من عدم الرضىٰ بالحكم الكوني ، أو الديني ، أو كليهما[6].

الثالث والثلاثون : أن الرضىٰ معقد نظام الدين ظاهره وباطنه ، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع[7].

---

(١) (الثاني) طمس من أ.

(٢) (الباب) سقط من ق.

(٣) **الرافضة** : سموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي ـ رضي الله عنه ـ ، وقال شيخ الإسلام : لكن لفظ الرافضة إنما ظهر لما رفضوا زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١ هـ ، وهنا افترقوا إلىٰ رافضة وزيدية ، وهم أهل أهواء وزنادقة وحماقة ، ثم تطورت الطائفة إلىٰ فرق ومذاهب شتىٰ فيها افتراق واجتماع ، وكلها علىٰ ضلالة. انظر : الفَرق بين الفِرَق ٢١ ، الملل والنحل ، ١/ ١٤٦ ـ ١٩٨ ، ومنهاج السنة ١/ ١٠ ـ ١١ ، الفتاوىٰ ١٣/ ٣٥.

(٤) **الناصبة** : قوم يتدينون ببغض علي ـ رضي الله عنه ـ ، وقد خرج عليه الخوارج وناصبوه العداء كما في موقعة الجمل ، وصفين. وهم في الجملة : كل من يؤذي أهل البيت بقول أو عمل. الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ٣/ ١٥٤ ، شرح الطحاوية ٥٤٩.

(٥) **الخوارج** : هم الذين خرجوا علىٰ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حين جرىٰ أمر التحكيم، واجتمعوا (بحروراء) ورأسهم عبد الله بن سبأ ، وهم القائلون بتكفير أصحاب الكبائر ، والقول بالخروج علىٰ الأئمة ، وأن صاحب الكبيرة مخلد في النار.
انظر أقوالهم ومشاهيرهم : الملل والنحل ١/ ١١٥ ، ٢/ ١١٣ ، مقالات الإسلاميين ١٢٧ ، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ١٧ ، فتاوىٰ شيخ الإسلام ١٣/ ٣٢.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (كلاهما).

(٧) الأصل (أنعام) وش (أقسام) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

فتنقسم قسمين : دينية ، وكونية ، وهي مأمورات ، ومنهيات ، ومباحات ، ونعمٌ مُلِذّة ، وبلايا مؤلمة.

فإن[1] استعمل العبد[2] الرضىٰ في[3] ذلك كله ، فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام ، وفاز بالقدح[4] المعلَّىٰ.

الرابع[5] والثلاثون : أن الرضىٰ يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالىٰ في أحكامه وأقضيته ، فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد ، وأصل مخاصمة إبليس لربه : من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية ، فلو رضي لم يُمسخ من الحقيقة الملكية[6] إلىٰ الحقيقة[7] الإبليسية[8].

الخامس والثلاثون : أن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة[9] الله ، وحكمته ، وملكه ، فهو موجب أسمائه وصفاته[10] ، فمن لم يرض بما قضىٰ[11] به ربه ، لم

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (فإذا).

(٢) (العبد) سقط من أ ، ب ، غ.

(٣) ح٢ (بذلك).

(٤) أ ، ب ، غ (القدم).

(٥) (الرابع) طمس من أ.

(٦) د (المكية).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الشيطانية) بدل (الحقيقة).

(٨) سبق التعليق علىٰ هذه المسألة ص١٩٣٨.

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (مشيئة) من غير (لفظ الجلالة).

(١٠) (وصفاته) سقط من أ.

(١١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (رضي).

يرض بأسمائه وصفاته فلم يرض به رباً.

السادس والثلاثون : أن كل قدر[1] يكرهه العبد ولا يلائمه ، لا يخلو : إما[2] أن يكون عُقوبةٌ علىٰ ذنب[3] ، فهو دواء المرض[4] لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامىٰ به المرض إلىٰ الهلاك ، أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه ، فالمكروه ينقطع ويتلاشىٰ ، وما ترتب[5] عليه من النعمة دائم لا ينقطع ، فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضىٰ عن ربه في كل ما يقضيه[6] ، [7]ويقدره.

السابع والثلاثون : أن حُكم الرب[8] ماضٍ في عبده ، وقضاؤه عدل فيه ، كما في الحديث «ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك»[9] ، ومن لم يرض بالعدل

---

(١) أ ، ب ، غ (قد) سقطت الراء.

(٢) (إما) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٣) ط (الذنب).

(٤) ط (المرض).

(٥) ط ، ق ، ح٢ (يترتب) ، أ ، ب ، غ (نزل) بدل (ترتب).

(٦) ش (يقتضيه).

(٧) ط زيادة (له).

(٨) ط زيادة (تعالىٰ).

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٢) ، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٩) ، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ، وصحح سنده أحمد شاكر في شرح المسند (٥/ ٢٦٧) رقم(٣٧١٢) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦) ، وقال رجاله

فهو من أهل الظلم والجور.

وقوله: «عدل فيَّ قضاؤك» يَعُم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه عزّ وجل، وهو من[1] أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة فظاهر، وأما عدله في قضائه بالذنب: فلأن الذنب عقوبة على غفلته[2]، وإعراض قلبه[3] عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه:[4] وإلا فمع كمال الإخلاص[5] والإقبال على الله سبحانه[6] وذكره، يستحيل[7] صدور الذنب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وإن قلت: قضاؤه[8] على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخلاصه:

رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثّقه ابن حبان، وصححه ابن القيم في شفاء العليل (٢٧٤)، والألباني في الصحيحة (١/ ١٨٠) رقم(١٩٩).

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ق سقطت (من).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (عن ربه).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (عنه فإنه إذا غفل قلبه).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (استحق أن يضرب بهذه العقوبة؛ لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب والعقوبات واردة عليها من كل جهة).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (والذكر).

(٦) ط زيادة (وتعالى).

(٧) (يستحيل) سقطت من ش.

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (فقضاؤه).

عقوبة علىٰ ماذا؟.

قلت : هذا طبع النفس وشأنها ، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلَّىٰ بينه وبين نفسه وطبعه وهواه ، وذلك يقتضي[1] أثرها من الغفلة والنسيان ، وعدم الإخلاص واتباع الهوىٰ ، وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام ، وفوات الخيرات واللذات ، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

فإن قلت : فهلا خلقه علىٰ غير تلك الصفة؟.

قلت هذا سؤال فاسد ، ومضمونه : هلا خلقه ملكاً لا إنساناً؟.

فإن قلت : فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه ، وظلم[2] طبعه؟.

قلت : مضمون هذا السؤال: هلا سوىٰ بين[3] خلقه؟ ولم خلق[4] المتضادات والمختلفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة ، وقد تقدم بيان اقتضاء حِكمته وربوبيته ومُلكه لخلق[5] ذلك.

الثامن[6] والثلاثون : أن عدم الرضىٰ إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده ، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه ، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن

---

(١) ق (تقتضي).

(٢) د ، ق ، ش (ظلمة).

(٣) ط زيادة (جميع).

(٤) ب (تُخلق) بدل (خلق).

(٥) ب (لخلقه).

(٦) (الثامن) طمس من أ.

ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه : فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضرُّه.

التاسع والثلاثون : أن الرضىٰ من أعمال القلوب ، نظير الجهاد من أعمال الجوارح ، فإن[1] كل واحد منهما ذِروة سنام الإيمان ، قال أبو الدرداء : «ذروة سنام الإيمان : الصبر للحكم ، والرضىٰ بالقدر»[2].

الأربعون : أن أول معصية عُصي الله بها في هذا العالم : إنما نشأت من عدم الرضىٰ ، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً ، من تفضيل آدم وتكريمه ، ولا بحكمه الديني ، من أمره بالسجود له[3] ، وآدم لم يرضَ بما أبيح له من الجنة ، حتىٰ يضمَّ[4] إليه الأكل من شجرة الحِمىٰ[5][6] ، ثم

---

(١) ق (في أن) بدل (فإن).

(٢) الزهد لابن المبارك ٣١ ، الرضىٰ عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا ١/ ٨٥ ، حلية الأولياء ١/ ٢١٦ ، اعتقاد أهل السنة للالكائي ٤/ ٦٧٦ شعب الإيمان ١/ ٢١٩ ، قوت القلوب ٢/ ٤٥ ، ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٦ ، فيض القدير ٣/ ٥٦١.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (لآدم).

(٤) ط (ضم).

(٥) الحمىٰ : في لسان العرب الحمىٰ ما حُمِيَ من شيء ، وكلأ حمىٰ : محمي ، وحَمَيْت الحمىٰ : منعته ، لسان العرب ١٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، أما تسمية هذه الشجرة فقد قال ابن جرير الطبري بعد ذكر الأقوال في تسميتها ، قال : « والصواب في ذلك أن يقال : لا علم عندنا بأي شجرة كانت علىٰ التعيين ؛ لأن الله تعالىٰ لم يضع لعباده دليلاً علىٰ ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة.. إلىٰ قوله : وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله » ، تفسير الطبري ١/ ١٨٥ بتصرف.

(٦) غ (الحمد).

ترتب[1] معاصي الذرية علىٰ عدم الصبر و[2] الرضىٰ.

الحادي[3] والأربعون : أن الراضي واقف[4] مع اختيار الله له ، معرض عن اختياره لنفسه ، وهذا من[5] قوة معرفته بربه[6] ، ومعرفته بنفسه.

و[7]اجتمع وهيب بن الورد[8] ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط[9] ، فقال الثوري : قد[10] كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، فأما[11] اليوم : فوددت أني ميت.

---

(١) ق زيادة (علىٰ).

(٢) ط زيادة (عدم).

(٣) (الحادي) طمس من أ.

(٤) م ح٢ (وقف).

(٥) ش (مع) بدل (من).

(٦) ق ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٧) ط زيادة (قد).

(٨) وهيب بن الورد العابد الرباني أبو أمية مولىٰ بني مخزوم ، ويقال اسمه عبد الوهاب روىٰ عن محمد بن المنكدر وغيره ، وعنه بشر السلمي وابن المبارك وغيرهم وثّقه ابن معين ، وقال النسائي ليس به بأس ، توفي سنة ١٥٣هـ/ طبقات ابن سعد (٥/ ٤٨٨) ، حلية الأولياء (٨/ ١٤٠) ، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٩٨).

(٩) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ ، يروي عن سفيان الثوري وغيره وثقه ابن معين/ ميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٨) ، حلية الأولياء (٨/ ٢٣٧) ، صفة الصفوة (٤/ ٢١٩) ، طبقات الشعراني (١/ ٦١) ، طبقات الصوفية للسلمي (ص٣٦).

(١٠) (قد) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(١١) ط (وأما).

فقال له[١] يوسف[٢] : ولم؟ قال[٣] : لما[٤] أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف : لكني أكره طول البقاء.

فقال الثوري : ولم تكره الموت؟.

قال : لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل عملاً صالحاً.

فقِيل لوهيب : أي شيء تقول أنت؟.

فقال : أنا لا أختار شيئاً ، أحبُّ ذلك إليَّ[٥] أحبه إلىٰ الله.

فقبَّل الثوري بين عينيه ، وقال : روحانية وربِّ الكعبة[٦].

فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة البقاء[٧] والموت ، وقف مع اختيار الله له منهما[٨].

---

(١) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) أ ، ب ، غ زيادة (ابن أسباط).

(٣) ش ، ط (فقال).

(٤) (لما) سقطت من ش.

(٥) د (الله) ، ق (أحب ذلك إلىٰ الله أحبه إليّ).

(٦) قوت القلوب ٢/ ٥١ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٥.

(٧) ق (حالات البقاء) وم ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (الحياة).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وقد كان وهيب بن الورد ـ رحمه الله ـ له المقام العالي من الرضىٰ وغيره).

الثاني والأربعون : أن يعلم أن منع الله سبحانه[1] لعبده المؤمن المحب له[2] عطاء ، وابتلاءه إياه عافية ، قال سفيان الثوري : منع الله[3] عطاء[4] ؛[5] لأنه يمنع عن غير[6] بخل ولا عُدم ، فمنعه اختياراً[7] وحسن نظر.

وهذا كما قال المصنف - رحمه الله -[8]- فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، ساءه ذلك القضاء أو سره ، فقضاؤه لعبده المؤمن[9] عطاء ، وإن كان في صورة[10] المنع. ونعمة ، وإن كانت في صورة محنة. وبلاؤه[11] عافية ، وإن كانت[12] في صورة بلية ، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل ، وكان ملائماً لطبعه ، ولو

---

(١) ط زيادة (وتعالىٰ).

(٢) (له) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (منعه عطاء) ، ق (منع عطاء).

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٩ ، حلية الأولياء ٨/ ٢٨٧ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٧ ، وعن الفضيل نحوه ، إتحاف السادة المتقين ٢/ ٥٢٥ ، وعزاه لأبي نعيم في حلية الأولياء.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (وذلك).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (لم يمنع من بخلٍ ولا عدم وإنما نظراً في حق عبده المؤمن).

(٧) ح٢ (اختياره).

(٨) (المصنف رحمه الله) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (المنع).

(١٠) (التاء) سقطت من ط.

(١١) (وبلاؤه) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(١٢) ط (كان).

رُزق من المعرفة حظًّا وافراً لَعَدّ المنع نعمة[1] الله عليه فيما يكرهه[2]، [3] أعظم من نعمه عليه فيما يحبه، كما قال بعض العارفين: يا ابن آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب[4]، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، و[5]قال بعض العارفين: ارضَ عن الله في جميع ما يفعله بك[6]، فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضىٰ عنه طرفة عين، فتسقط من عينه[7].

---

(١) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (والبلاء رحمة وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية وتلذذ بالفقر أكثر من تلذذه بالغنىٰ، وكان في حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة، وهذه كانت حال السلف، فالعاقل الراضي من يعد البلاء عافية والمنع نعمة والفقر غنىٰ، وأوحىٰ الله إلىٰ بعض أنبيائه: « إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنىٰ مقبلاً فقل ذنب عُجِّلت عقوبته »)، قلت وهذا الكلام أورده أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٣٧، الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/ ١٩٦، وعزاه العراقي في تخريجه للإحياء لأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه، وعن كعب الأحبار بسند ضعيف ولم أجده، والمراد بالنبي موسىٰ عليه الصلاة والسلام، كما في تفسير الطبري ٦/ ٤٢٦ وغيره، وانظر الإتحافات السنية ٣١١.

(٢) ق (يكره).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (أكثر و).

(٤) نحوه في سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٨، حلية الأولياء ٦/ ١٧١.

(٥) ط زيادة (قد).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب (لك) بدل (بك).

(٧) لم أجده.

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه[1] سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمُظهِر لكل شيء، والمالك لكل شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه[2] اختيار، ولا يشرك في حكمه أحداً، والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً، فهو سبحانه الذي اختار وجوده، واختار أن يكون كما[3] قدره له وقضاه: من عافية وبلاء، وغنىٰ وفقر، وعزّ وذل، ونباهة وخمول، فكما[4] تفرد سبحانه بالخلق، تفرد بالاختيار والتقدير[5] والتدبير - وليس للعبد شيء من ذلك - فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالىٰ لنبيه[6]: [﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران :١٢٨]، فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له][7] من الأمر قليل ولا كثير، لم يكن له[8] معول - بعد ذلك - غير الرضىٰ بمواقع الأقدار، وما يجري[9] به من ربه الاختيار.

الرابع والأربعون: أنَّ رضىٰ الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأنه[10] صفته

---

(١) (أنه) سقطت من ش.

(٢) الأصل (شيء اختيار) والأقرب حذفها كما في بقية النسخ.

(٣) أ، ب، غ (كلما).

(٤) أ، ب (فكلما).

(٥) (والتقدير) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) ط زيادة (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، و(ليس) سقطت من د، ق، ط.

(٨) (له) سقطت من الأصل والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

(٩) د (له)، ق (جرىٰ).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، د (لأن الرضىٰ صفة الله).

والجنة خلقه ، قال الله تعالىٰ : (1) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا (2) ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ٧٢] ، وهذا الرضىٰ جزاء علىٰ رضاهم عنه في الدنيا ، فكما(3) كان هذا الجزاء أفضل الجزاء(4) ، كان سببه أفضل الأعمال.

الخامس والأربعون : أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات ، لم يتخيَّر(5) عليه المسائل وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك ، وجعل ذكره في محل سؤاله ؛ بل يكون(6) سؤاله(7) له الإعانة علىٰ ذكره(8) وبلوغ رضاه ، فهذا يُعطىٰ أفضل ما يعطاه سائل كما في الأثر(9) المعروف : «من شغله ذِكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (10) ، فإن السائلين سألوه ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (ورضوان من الله أكبر بعد قوله).

(٢) أ ، ب ، غ بعد قوله ﴿من تحتها﴾ ، قال (إلىٰ قوله : ﴿الفوز العظيم﴾).

(٣) ط (ولما) ، أ ، ب ، غ (كما).

(٤) (أفضل الجزاء) سقطت من م.

(٥) ش (لم تخير).

(٦) ط زيادة (من).

(٧) (سؤاله) سقطت من ش.

(٨) (ذكره) سقطت من الأصل والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (الحديث) بدل (الأثر).

(١٠) أخرجه الترمذي. فضائل القرآن (٥/ ١٨٤) ح(٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري وقال

فأعطاهم الفضل الذي سألوه ، والرضوان رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم ، ولا يمنع الرضىٰ سؤاله أسباب الرضىٰ ، بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون : أن النبي كان يندب إلىٰ أعلىٰ المقامات ، فإن عجز العبد عنه : حطّه إلىٰ المقام الوَسط ، كما قال : «**اعبد الله كأنك تراه**»(١) ، فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال : «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» فحطه عند العجز عن هذا إلىٰ مقام(٢) العلم باطلاعه(٣) ورؤيته(٤) ومشاهدته لعبده(٥) ، وكذا الحديث الآخر « **إن استطعت أن تعمل لله بالرضىٰ**

حسن غريب ، والدارمي (٢/ ٥٣٣) ، والطبراني في الدعاء رقم (١٨٥١) ، والبيهقي في الاعتقاد (١٠١) ، وابن حيان في المجروحين (١/ ٣٧٦) ، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٩) ، وفيه محمد بن الحسن الهمذاني متروك بل كذّبه بعضهم كما في تهذيب التهذيب (٩/ ١٠٢)، وتهذيب الكمال (٢٥/ ٧٦) ، وأورده ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٦) ، وقال رجاله ثقات إلا عطية العوفي ضعيف وفي (١١/ ١٣٤) عزاه للطبراني بسند لين ، وقال أبو حاتم في العلل عندما سأله ابنه عن هذا الحديث قال : منكر ومحمد بن الحسن ليس بالقوي (٢/ ٨٢) ، ومن حديث حذيفة أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣١٣) ، ومن حديث عمر وجابر أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٧٣) ، ومن حديث عمر أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٤٦) ، وقال ليس يجيء فيما علمت مرفوعاً إلا عن هذا الطريق ، وذكر الأثر الألباني في الضعيفة (٣/ ٥٠٦) (١٣٣٥).

(١) الحديث في الصحيحين وتقدم تخريجه ص١٦٣٠ .

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (المقام الأول إلىٰ المقام الثاني وهو).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (باطلاع الله عليه).

(٤) ط زيادة (له).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (في الملأ والخلاء).

مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر علىٰ ما تكره النفس خيراً كثيراً»)[1]، فرفعه إلىٰ أعلىٰ المقامات، ثم رده إلىٰ أوسطها إن لم يستطع الأعلىٰ، فالأول: مقام الإحسان، والذي حطّه إليه مقام الإيمان، وليس دون ذلك إلا مقام الخسران[2].

السابع والأربعون: أنه أثنىٰ علىٰ الراضين بمرِّ القضاء بالحكم والعلم والفقه، والقرب من درجة النبوة، كما في حديث الوفد الذين قدموا علىٰ النبي (ﷺ[3]) فقال: «ما[4] أنتم؟ فقالوا مؤمنون، فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضىٰ بمرِّ القضاء، والصِّدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال: حُكَماء عُلَماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»[5].

---

(١) هذا جزء من ألفاظ حديث ابن عباس وتقدم تخريجه ص١٨١٦.

(٢) لعل الذي يلي هذه الدرجة مقام الإسلام كما هي الدرجات المعروفة وقد أشار إليها في بداية (السادس والأربعون).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (رسول الله) بدل (النبي).

(٤) ب (من) بدل (ما).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٩)، والبيهقي في الزهد (٣٥٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وأبو أحمد العسكري كما في الإصابة (٢/ ٩٨)، وأبو موسىٰ المدني في كتاب الصحابة كما في إتحاف السادة المتقين للزبيدي (١٢/ ٥١٥)، والحديث لا يصح ففي سنده علقمة بن يزيد بن سويد عن أبيه عن جده، قال الذهبي في الميزان (٣/ ١٠٨) لا يعرف وأتىٰ بخبر منكر فلا يحتج به، وضعفه العراقي كما في تخريج الإحياء (١/ ٢٦).

الثامن والأربعون : أن الرضىٰ آخذ بزمام مقامات الدين كلها ، وهو روحها وحياتها ، فإنه روح التوكل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة ، وصفة[(١)] المحب ، ودليل صدق المحبة ، وروح الشكر ودليله.

قال الربيع بن أنس[(٢)] : علامة حب الله : كثرة ذكره ، فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره ، وعلامة الدين : الإخلاص لله[(٣)] وعلامة الشكر ، الرضىٰ بقدر الله والتسليم لقضائه[(٤)].

وقال أحمد بن أبي الحواري[(٥)] : ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي «أول

---

(١) ط (صحة).

(٢) الربيع بن أنس بن زياد الخراساني المروزي البصري ، سمع أنس بن مالك والحسن البصري وحديثه في السنن الأربعة ، وكان عالم مرو في زمانه ، توفي سنة ١٣٩هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ١٠٢) ، الثقات لابن حبان (٣/ ٦٤) ، الجرح والتعديل (٣/ ٤٥٤) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٦٩).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (في السر والعلانية).

(٤) أخرج هذا الأثر المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن الربيع عن بعض أصحابه ٢/ ٢٧٨ ، وذكره البيهقي في شعب الإيمان وضعّف سنده ١/ ٣٦٧ - ٣٧٠ ، بلفظ علامة حب الله حب ذكره ، وعزاه لمالك بن دينار ١/ ٣٨٨ ، وذكره أبو يعلىٰ القزويني في الإرشاد مرفوعاً وقال إنه منكر لا أصل له ١/ ٤٠٩ وكذا ابن عدي في الكامل ٣/ ١٨٥ وقال فيه أربعة أحاديث مناكير ، وفي حلية الأولياء عن شميط (علامة المنافق قلة ذكر الله) ، ٣/ ١٢٩ وأقوال حول دوام الذكر عن أعلام آخرين ٤/ ٣٦٠.

(٥) أبو الحسن ، أحمد بن علي بن أبي الحواري ، واسم أبي الحواري ميمون ، سكن دمشق ، اشتهر بالزهد والورع ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره ، توفي سنة ٢٠٣هـ/ حلية الأولياء

من[1] **يُدعىٰ إلىٰ الجنة الحمّادون»** [2] ، فقال : ويحك ، ليس هو أن تحمده علىٰ المصيبة وقلبك يتعصّىٰ عليك ، إذا كنت كذلك فارجع إلىٰ الصابرين ، إنما الحمد : أن تحمده وقلبك مسلم راضٍ.

فصار الرضىٰ كالروح لهذه المقامات ، والأساس الذي تنبني عليه ، ولا يصح شيء منها[3] بدونه البتة [4].

التاسع والأربعون : أن الرضىٰ يقوم[5] له[6] مقام كثير من[7] التعبدات التي تشق

(١٠/ ٥ ـ ٣٣) ، صفة الصفوة (٤/ ٢٠١ ، ٢١٢) ، شذرات الذهب (٢/ ١١) ، الرسالة القشيرية (ص٦٤).

(١) أ ، ب ، غ (ما).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٢) ، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي. والطبراني في الكبير (١٢/ ١٩) ، والسيوطي في الجامع الصغير (١/ ١١٣) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٥) ، وعزاه للطبراني بأسانيد ثلاثة وقال في أحدها: قيس ابن الربيع وثقه شعبة وغيره ، وضعفه يحيىٰ القطان وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح ، وضعفه الألباني كما في السلسلة الضعيفة (٢/ ٩٣) رقم(٦٣٢) ، وهو في قوت القلوب (١/ ٢٤٠) ، وحلية الأولياء (١٠/ ١٠) ، وإحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦) ، وأورده شيخ الإسلام في التحفة العراقية (٣٦١).

(٣) ق (فيها).

(٤) ق (والله أعلم).

(٥) غ (لا يقوم).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب سقطت (له).

(٧) (من) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

علىٰ البدن فيكون رضاه أسهل عليه، وألذّ له، وأرفع في درجته، وقد ذُكر في أثر إسرائيلي: أن عابداً عبد الله دهراً طويلاً، فأُرِيَ في المنام: أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة، فسأل عنها إلىٰ أن وجدها، فاستضافها ثلاثاً لينظر إلىٰ عملها فكان[1] يبيت قائماً وتبيت نائمة، ويظل صائماً وتظل مفطرة، فقال لها أما لك عمل غير ما رأيت قالت: ما هو والله غير ما رأيت[2] لا أعرف غيره، فلم يزل يقول[3]: تذكري، حتىٰ قالت خُصيلة واحدة هي فيَّ[4]: أني إن كنت في شدة لم أتمن أني في الرخاء[5]، وإن كنت في مرض لم أتمن أني في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمن أني في الظل، قال: فوضع العابد يده علىٰ رأسه وقال: أهذه[6] خُصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز[7] عنها العباد[8].

---

(١) ش (وكان).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق زيادة (أو قالت إلا ما رأيت).

(٣) ط زيادة (لها).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وذلك).

(٥) أ، ب، غ، ط (رخاء).

(٦) ق (هذه) بحذف الألف.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (تعجز).

(٨) وأبو نعيم بسنده في حلية الأولياء ١/ ١٩٣، قوت القلوب ٢/ ٤٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٦، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٢٣.

وقد رُوي عن[١] ابن مسعود[٢] : «من رضي بما نزل[٣] من السماء إلىٰ الأرض غُفِرَ له»[٤].

وفي أثر مرفوع : «من خير ما أُعطي العبد الرضىٰ بما قسم الله له»[٥].

وفي أثر آخر : «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه»[٦].

وفي أثر : أن بني إسرائيل «سألوا موسىٰ أن يسأل ربه أمراً إذا هم فعلوه رضي عنهم ، فقال موسىٰ : ربِّ ، إنك تسمع[٧] ما يقولون ، فقال : قل لهم يرضون عني حتىٰ أرضىٰ عنهم»[٨].

وفي أثر آخر عن النبيِّ ﷺ : «من أحبَّ أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (روىٰ ابن مسعود).

(٢) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٣) أ ، ب ، غ (أنزل).

(٤) الزهد الكبير للبيهقي برقم ٨٢٦ طباعة مؤسسة الرسالة ، وانظر مواعظ الصحابة ص٢٠٠.

(٥) لم أجده.

(٦) معجم الفردوس (١/ ٢٥١) رقم (٩١٧) عن علي ـ رضي الله عنه ـ ، تذكرة الموضوعات للفتني تصوير بيروت (١٩٣) ، طرفه الأول في كنز العمال (٣/ ٣٢٥) ح(٦٧٧١) ، (١١/ ١٠٠) ح(٣٠٧٩٢) (٣٠٧٩٣).

(٧) أ (لتسمع).

(٨) ذكر نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين عن عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ١٢/ ٥٨٣.

عنده فإن الله ينزل منه حيث ينزله العبد من نفسه»[1].

وفي أثر آخر: «من رضي من الله بالقليل من الرزق، رضي الله منه[2] بالقليل من العمل»[3].

وصايا بعض العارفين في فضيلة الرضى

وقال بعض العارفين: أعرف في الموتىٰ عالماً ينظرون إلىٰ منازلهم في الجنان في قبورهم، يُغْدىٰ عليهم ويُراح برزقهم من الجنة بُكرة وعشياً، وهم في غموم وكروب في البرزخ، لو قُسمت علىٰ أهل بلد لماتوا أجمعين.

قيل وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين مؤمنين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضىٰ نصيب[4].

وفي وصية لقمان[5] لابنه: «أوصيك بخصالٍ تقرّبك من الله، وتباعدك من

---

(١) المستدرك (١/ ٤٩٤) وصححه، وضعف الذهبي بعض رجاله وكذا ابن حجر في التقريب (٢/ ٥٩)، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، وقال العراقي صحيح بلفظ (منزلته)، قوت القلوب (٢/ ٤٥)، المغني عن حمل الأسفار (٤/ ٣٣٥)، تهذيب تاريخ دمشق (٢/ ٢٨٩).

(٢) ش زيادة (عنه).

(٧) قوت القلوب ٢/ ٤٦، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٤ وضعف إسناده العراقي/ والديلمي في مسند الفردوس ٥/ ٢٦٦٥، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥١٥، وعزاه للمحاملي في الأمالي من حديث علي.

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤٦) قال: قال بعض علمائنا.

(٥) لقمان بن عنقاء بن سدوف، أبو أنعم وهو ممن عاصر داود عليه الصلاة والسلام، وأصح الأقوال أنه حكيم وليس نبياً، وقد تنوعت الأقوال المنسوبة إليه والثابت منها اسمه وما نص

سخطه : أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وأن ترضىٰ بقدر الله فيما أحببت وكرهت»(١).

وقال بعض العارفين : من يتوكل علىٰ الله ، ويرضىٰ بقدر الله ، فقد أقام الإيمان ، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التي تصلح(٢) للعبد أمره (٣).

الخمسون : أن الرضىٰ يفتح باب حسن الخلق مع الله(٤) ومع الناس(٥) فإن حسن الخلق من الرضىٰ وسوء الخلق من السخط ، وحسن الخلق(٦) يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم(٧) ، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

القرآن عليه ، وما سوىٰ ذلك فهو محل الأخذ والرد/ البداية والنهاية (٢/ ٢٣ ، ١٢٥) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٣) ، إرشاد الساري (٧/ ٢٨٨) ، وانظر رسالة «لقمان الحكيم» تأليف محمد خير رمضان يوسف.

(١) لم أجده.

(٢) (تصلح) سقطت من ق.

(٣) لم أجده.

(٤) ط (تعالىٰ).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (والسخط يفتح باب سوء الخلق مع الله تعالىٰ ومع الناس).

(٦) (الخلق) سقطت من د.

(٧) فيه إشارة إلىٰ الحديث «إنَّ الرجل ليدرك بحسن خلقه.. » أخرجه أحمد من حديث عائشة (٦/ ١٣٣) ، وأبو داود. الأدب (٥/ ١٤٩) ح(٤٧٩٨) ، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٢٩) ، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨) وقال علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه وشاهده صحيح علىٰ شرط مسلم ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣٦) ، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٨٥).

الحادي والخمسون : أن الرضىٰ يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وطيب النفس وسكونها في كل حال[1] ، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهْلع[2] من أمور الدنيا ، وبرد القناعة ، واغتباط العبد بقسمه من ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلامه لمولاه في كل شيء ورضاه منه بما يجريه عليه ، وتسليمه له[3] الأحكام والقضايا ، واعتقاد حسن تدبيره ، وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوىٰ ربه إلىٰ غيره وتبرمه بأقضيته ، ولهذا سمىٰ بعض العارفين الرضىٰ : حسن الخلق مع الله ، فإنه يُوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه ، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه ، فلا يقول[4] : ما أحوج الناس[5] إلىٰ مطر؟ ولا يقول : هذا يوم شديد الحر و[6] شديد البرد ، ولا يقول : الفقر بلاء ، والعيال هَمٌّ[7] وغم ، ولا يسمي شيئاً قضاه الله وقدَّره باسم مذموم إذا لم يذمه[8] الله[9] ، فإن هذا كله ينافي رضاه.

---

(١) م (حاله).

(٢) مُهلع : الهَلَع : الحرص وقلة الصبر ، لسان العرب (٨/ ٣٧٤) ، والهلع : أفحش الجزع ، مختار الصحاح (٦٩٧).

(٣) (له) سقطت من م.

(٤) غ (يقال).

(٥) (الناس) سقطت من د.

(٦) ط (أو).

(٧) (هم) سقطت من د.

(٨) (إذا لم يذمه الله) سقطت من أ ، ب.

(٩) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

قال[1] عمر بن عبد العزيز[2][3]: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر[4].

وقال ابن مسعود[5] : «الفقر والغنىٰ مطيَّتان ما أبالي أيهما ركبت ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنىٰ فإن فيه البذل» [6].

وقال ابن أبي الحواري[7] - أو قيل له[8] - إن فلاناً قال[9] : وددت أن الليل أطول مما هو ، فقال : قد أحسن ، وقد أساء[10] ، أحسن حيث تمنىٰ طوله

---

(١) ط (وقال).

(٢) ط زيادة (رحمه الله).

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، قرشي أموي ، ولد سنة ٦١هـ ، إمام مجتهد زاهد ثقة فقيه ، توفي سنة ١٠١هـ : سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤) ، طبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٠) ، التاريخ الكبير (٦/ ١٧٤).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٦ ـ ٣٤٦) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٢) ، المعرفة والتاريخ (١٠/ ٥٧٠) ، ونحوه في الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة (٣/ ٢٦) رقم(١٠) ، ونحوه في شعب الإيمان (١/ ٢٢٧) رقم(٢٢٨) ، قوت القلوب (٢/ ٤٠).

(٥) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٦) قوت القلوب (١/ ٢٣١) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٩) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٣٥) وعزاه للطبراني ، وبنحوه في الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٦٢) رقم (٥٩) ، الزهد لابن المبارك (١٩٩) رقم(٥٦٦) بلفظ (بأيهما ابتليت) ، ونحوه في الرسالة القشيرية عن عمر (ص٢٩١).

(٧) ش (لأبي سليمان) وهذا هو الموافق لما في حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨).

(٨) (أو قيل له) سقطت من الأصل ، ش ، والأقرب إثباتها كما في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٩) م (يقول).

(١٠) (وقد أساء) سقطت من ق.

للعبادة(١) ، وأساء إذ أحب ما لم يحبه الله(٢)(٣).

وقال عمر بن الخطاب(٤) : «ما أُبالي علىٰ أي حال(٥) أصبحت وأمسيت : من شدة أو رخاء»(٦).

وقال يوماً لامرأته عاتكة ، أخت(٧) سعيد بن زيد - وقد غضب(٨) - : «والله لأسوأنك ، فقالت : أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام ، بعد إذ هداني الله(٩)؟ قال: فقالت(١٠) : فأي شيء تسوءني به إذاً؟»(١١).

تريد أنها راضية بمواقع القدر، لا يسوؤها منه شيء إلا صَرْفها عن الإسلام ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (والمناجاة).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (حيث تمنىٰ ما لم يرده الله ، وأحب ما لم يحبه الله).

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨) ، بلفظ « قلت لسليمان أن ابن داود » .

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) ش (حالة).

(٦) الزهد لابن المبارك (٤٢٥) ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٤٢) رقم(٣٠) (٣/ ٢١) رقم(١٣) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦) ، ونحوه في (٢٦٩ ـ ٢٨١) ، تنبيه الغافلين (٣٦٤) ، قوت القلوب (٢/ ٤٠) ، كنز العمال برقم (٨٥٣٧).

(٧) أ ، ب ، غ (بنت) وهو خلاف الصحيح فزوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، توفيت سنة ٤١هـ كما في البداية والنهاية (٧/ ١٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٦٤).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (عليها).

(٩) ط زيادة (له).

(١٠) ق زيادة (قالت).

(١١) لم أجده.

ولا سبيل له إليه.

وقال الثوري[1] يوماً عند رابعة[2] : اللهم ارض عنا ، فقالت أما تستحي أن تسأله الرضىٰ[3] ، وأنت غير راضٍ عنه؟ فقال : أستغفر الله ، ثم قال لها جعفر بن سليمان : متىٰ يكون العبد راضياً عن الله فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة[4].

وفي أثر إلهي : «ما لأوليائي والهمِّ بالدنيا؟ إن الهمَّ بالدنيا يُذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم»[5].

وقيل : أكثر الناس همّاً بالدنيا أكثرهم همّاً في الآخرة ، [وأقلهم همّاً بالدنيا أقلهم همّاً في الآخرة][6][7].

---

(١) سفيان بن سعيد الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث ، ولد سنة ٩٧هـ ، وتوفي في البصرة سنة ١٦١هـ/ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥٠) ، صفة الصفوة (٣/ ٩٧) ، حلية الأولياء (٦/ ٣٥٦).

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية الزاهدة ، أم عمرو ، من أهل الصلاح والزهد توفيت سنة ١٣٥هـ/ سير أعلام النبلاء (٨/ ٢١٥) ، صفة الصفوة (٤/ ٢٣) ، التعرف (٧٣ ، ١٢١) ، الرسالة القشيرية (٨٦) ، طبقات الأولياء (٢٨٤).

(٣) ط (عنك).

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٥)، وجعفر هذا هو ابن سليمان الضبيعي ، كما في إتحاف السادة المتقين.

(٥) نحوه في حديث خيثمة الإطرابلسي قال : أوحىٰ الله إلىٰ داود (ص١١٦) ، الجرح والتعديل (١/ ٩٤).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ش ، أ.

(٧) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، نحوه في مجموعة آثار السلمي (٢/ ٣٨١).

فالإيمان بالقدر ، والرضىٰ به : يذهب عن العبد الهم والغم والحزن.

وذكر عند رابعة وليٌّ لله قوته من المزابل ، فقال رجل[١] ، [٢] ما ضرَّ هذا أن[٣] يسأل الله أن يجعل قوته[٤] في غير هذا؟ فقالت : أسكت يا بطال ، أما علمت أن أولياء الله هم أرضىٰ عنه من أن يتخيروا عليه أن[٥] ينقلهم إلىٰ معيشة حتىٰ يكون هو الذي يختار لهم[٦].

وفي أثر إسرائيلي : «أن موسىٰ[٧] : سأل ربه[٨] عما فيه رضاه؟ فأوحىٰ[٩] إليه : إنَّ رضائي[١٠] في كرهك ، وأنت لا تصبر علىٰ ما تكره، فقال: رب ، دلني[١١]

---

(١) ط (رجال).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (عندها).

(٣) (أن) سقطت من ق.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (رزقه).

(٥) أ ، ب ، غ (أن يسألوه).

(٦) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، الأولياء لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٤/ ٢٤) رقم٥٠ ، والرضا له (٣/ ٣٣) رقم(٢١).

(٧) ط زيادة (ﷺ).

(٨) (ربه) سقطت من ق.

(٩) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(١٠) ط (رضاه).

(١١) (دلني) سقطت من د ، ق.

عليه، فقال: إنّ رضائي[1] في رضاك بقضائي»[2].

وفي أثر آخر: أن موسى[3] قال: «يا رب، أيّ خلقك أحب إليك؟ فقال: من إذا أخذت منه محبوبه سالمني، قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني[4] في أمر فإذا قضيته له سخط قضائي»[5].

وفي أثر آخر: «أنا الله، لا إله إلا أنا، قدّرت المقادير[6]، ودبّرت التدبير[7]،

---

(١) ط (رضاه).

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٧)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥١٨)، نحوه في الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٧)، الاستقامة (٢/ ٨٢)، وهو في الرسالة القشيرية (٢٩٨)، وذكره ابن القيم في الوابل الصيب (٩٨) عن طريق محمد بن كعب القرطبي وعزاه للبيهقي، وقد تناول شيخ الإسلام بعض مباحثها منها مبحث الرضىٰ فلما ذكر شيخ الإسلام هذا القول، قال: «إن هذه آثار ضعيفة، وحكايات إسرائيلية فيها نظر وليس لها إسناد ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين وهذه القصة مما يُعلم كذبه فإن موسىٰ من أعظم أولي العزم وأكابر المسلمين فكيف يقال إنه لا يطيق أن يعمل بما يرضي الله عنه..»، الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٧)، وفي شعب الإيمان (١/ ٢٠٨) عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالىٰ من لم يرض بقضائي وقدري فليلتمس رباً غيري».

(٣) ط زيادة (عليه السلام).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د (استخارني)، ق (من إذا استخارني).

(٥) قوت القلوب (٢/ ٤٧)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥١٨)، وذكره ابن القيم في الوابل الصيب (٩٨).

(٦) ط (التقادير).

(٧) ط (التدابير).

وأحكمت الصنع ، فمن رضي فله الرضىٰ مني حتىٰ يلقاني ، ومن سخط فله السخط حتىٰ يلقاني»[١].

الثاني والخمسون : أن أفضل الأحوال : الرغبة في الله ولوازمها ، وذلك لا يتم إلا باليقين ، والرضىٰ عن الله ، ولهذا قال سهل : حظُّ الخلق من اليقين علىٰ قدر حظهم من الرضىٰ ، وحظهم من الرضىٰ علىٰ قدر رغبتهم في الله[٢].

الثالث والخمسون : أن الرضىٰ يخلصه من عيب ما لم يعبه الله ، ومن ذم ما لم يذمه[٣] ، فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب ، وذمه بأنواع الذم[٤] ، وذلك[٥] قلة حياء من الله ، وذم لما لا ذنب له[٦] ، وعيب لخلقه ، وذلك يسقط العبد من عينه[٧] ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعِبته وذممته ، لكنت متعرضاً لمقته وإهانته ، ومستدعياً منه : أن يقطع ذلك عنك ، وقد قال :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٧)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥١٩)، وقال العراقي لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) قوت القلوب عن محمد بن سهل (٢/ ٤٨) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٧) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٥).

(٣) ق ، ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) ط (المذام).

(٥) ط زيادة (منه).

(٦) د (ذم ذنب له وعيب لخلقه) ، ح٢ (وذم لمن ليس ذنب وعيب لخلقه) ، ق (وذم لما لم ذنب له) ، ط (لما ليس له ذنب) وهي ساقطة من م.

(٧) ط (عين ربه) وكذا في حاشية الأصل.

بعض العارفين : إن ذم المصنوع وعيبه - إذا لم يذمه صانعه - غيبة له وقدح فيه [١].

الرابع والخمسون : أن النبي ﷺ سأل الله الرضىٰ بالقضاء ، كما في المسند والسنن : «اللهم بعلمك الغيب ، وقُدرتك علىٰ الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضىٰ ، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قُرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضىٰ بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذّة النظر إلىٰ وجهك [٢] والشوق إلىٰ لقائك ، في غير ضرّاء مضرة ، ولا فتنة مُضلّة ، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مُهتدين» [٣].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية [٤] يقول : سأل [٥] الرضىٰ بعد القضاء ؛ لأنه حينئذ تبين حقيقة [٦] الرضىٰ ، وأما الرضىٰ قبله : فإنما هو عزم علىٰ أنه يرضىٰ [٧]

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٨).

(٢) ط زيادة (الكريم وأسألك).

(٣) تقدم تخريجه ص١٨٩٢ .

(٤) ط زيادة (قدس الله روحه).

(٥) أ ، ب ، غ (سأله) و د ، ق (وأسألك).

(٦) أ ، ب ، غ (حقيقته).

(٧) ق (ربه).

إذا أصابه ، وإنما يتحقق الرضىٰ بعده[1].

قال البيهقي : وروينا في دعاء النبي ﷺ : «**اللهم إني أسألك الصِّحة ، والعِفَّة ، والأمانة ، وحُسن الخُلُق ، والرضىٰ بالقدر**»[2].

الخامس والخمسون : أن الرضىٰ بالقدر يخلص العبد من أن يُرضي الناس بسخط الله ، وأن يذمهم علىٰ ما لم يؤته الله ، وأن يحمدهم علىٰ ما هو محض[3] فضل الله ، فيكون ظالماً لهم في الأول[4] ، [5] - مشركاً بهم في الثاني - [6] ، فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم ذلك[7] وحمدهم ، [فخلصه الرضىٰ من ذلك كله][8].

---

(١) الاستقامة (٢/ ٨٦ ـ ٨٧).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٧) ، وهو جزء من حديث ابن عباس « يا غلام.. » وفي لفظ «**وأسألك الرضىٰ بعد القضاء..** » ، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧٣) ، وعزاه للطبراني والبزار ، وقال فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم : وهو ضعيف ، وقد وثِّق ، وبقية رجال أحد الإسنادين رجال الصحيح ، وأوله عند الطبراني في الكبير (٦/ ٨٨) رقم (٢٥٤٢).

(٣) أ ، غ ، ط (عين).

(٤) أ ، ب ، غ ، ح٢ (الأولىٰ).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وهو رضاهم وذمهم).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وهو حمدهم).

(٧) (ذلك) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من ش.

وقد روىٰ عمر بن قيس المُلائي[1] عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تذُمَّهم علىٰ ما لم يؤتِك الله، إن رزق الله لا يجُرُّه حرص حريص، ولا يرده كُره كارِه، وأن الله - بحكمته - جَعَل الرَّوح والفرح في الرضىٰ واليقين، وجَعَل الهم والحزن في الشك والسخط»، وقد رواه الثوري عن منصور عن خيثمة عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ[2].

السادس والخمسون: أن الرضىٰ يفرغ قلبه[3]، ويقل[4] همه وغمه، فيتفرغ

---

(١) عمر بن قيس أبو عبد الله الملائي الكوفي، سمع عكرمة مولىٰ ابن عباس، وعنه سفيان الثوري، وهو ثقة مأمون، توفي ببغداد وقيل بسجستان وقيل بالشام/ تاريخ بغداد (١٢/ ١٦٣)، حلية الأولياء (٥/ ١٠٠)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه عن ابن مسعود: هناد في الزهد (٣٠٤)، الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٥)، من طريق خالد بن يزيد العمري والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ومسند الشهاب (٢/ ٩١)، وذكر علة التدليس، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٢١)، وقال: غريب من حديث الثوري ومن حديث الأعمش تفرد به خالد بن يزيد العمري، ومثل ذلك قال في (٧/ ١٣٠)، من حلية الأولياء، وأخرجه عن أبي سعيد الخدري، أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٠٦)، تفرد به علي بن محمد ابن مروان/ وهو ضعيف، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢١)، وقال محمد بن مروان ضعيف وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١)، وقال الألباني: موضوع، السلسلة الصحيحة (٣/ ٦٧٤) ح(١٤٨٢).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (قلب العبد).

(٤) ط (يقلل).

لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها ، كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بِشر بن بشّار المجاشعي[١] - وكان من العابدين قال : قلت لعابد : أوصني ، قال ألق بنفسك مع القدر حيث ألقاك ، فهو أحرىٰ أن يُفرِّغ قلبك وأن[٢] يُقلّ همك ، وإياك أن تسخط ذلك فَيَحلّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به[٣][٤].

وقال بعض السلف : « ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش ، فإن التدبير والاختيار يكدر علىٰ الناس عيشهم »[٥].

وقال أبو العباس بن عطاء : « الفرح[٦] في تدبير الله لنا ، والشقاء كله في تدبيرنا »[٧] .

وقال سفيان بن عيينة: «من لم يصلح[٨] علىٰ تقدير الله لم يصلح علىٰ تقدير[٩]

---

(١) بشر بن بشار المجاشعي ، كان من السائحين ، مذكور في طبقة القائمين ، كان من الزهاد والعابدين/ حلية الأولياء (١٠/ ١٣٢ ، ١٣٣).

(٢) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم).

(٤) حلية الأولياء (١٠/ ١٣٣) ، الرضا لابن أبي الدنيا - الموسوعة - (٣/ ٧٠) رقم (٧٢).

(٥) القائل : هو أبو العباس بن عطاء كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٥).

(٦) الأصل (الفرج) والصحيح المثبت من أ ، ب.

(٧) في حلية الأولياء عن سهل بن عبدالله (١٠/ ١٩٦) ، شعب الإيمان عن أبي العباس بن عطاء.

(٨) ب (يصح).

(٩) الأصل (تقديره) والصحيح ما أثبته من ق ، ط وفي أ ، ب (تقدير الله بنفسه).

نفسه »[١].

أقوال مأثورة حول تعريف الرضى

وقال أبو العباس الطُّوسي[٢] : « من ترك التدبير عاش في راحة »[٣].

وقال بعضهم : لا تجد السلامة حتىٰ تكون في التدبير كأهل القبور[٤].

وقال : [الرضاء ترك الخلاف علىٰ الله[٥] فيما يجريه علىٰ العبد][٦][٧].

وقال عمر بن عبد العزيز[٨] : «لقد تركتني هؤلاء الدعوات ، وما لي في شيء

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٨).

(٢) أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي ، أبو العباس ، سكن بغداد وصحب الحارث المحاسبي وسرياً السقطي ، توفي في بغداد سنة ٢٩٩هـ .
شذرات الذهب (٣/ ٤١٥) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٢٥) ، تاريخ بغداد (٥/ ٣٠٦) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٩٤).

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢١٣) ونسبه السلمي للخوَّاص في المقدمة في التصوف ضمن مجموعة آثار السلمي (٢/ ٣٨٢) ، شعب الإيمان (١/ ٢٢٥) ، بلفظ «الفرح» وقال عن أبي العباس ابن عطاء ولعله هو الصحيح ؛ لأن هذا القول موجود في مصادر الترجمة لابن عطاء ، ولم أجد الطوسي ولا قوله وابن عطاء يقال له : «البغدادي» كما في التعرف (٢٧) وغيره.

(٤) القائل : هو أبو العباس بن عطاء كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٥) ، وفي حلية الأولياء عزاه لسهل بن عبدالله (١٠/ ١٩٦).

(٥) ط (علىٰ الرب).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٧) القائل : هو أبو العباس بن عطاء كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٧) ، وعن سهل في حلية الأولياء (١٠/ ١٩٦).

(٨) ط (رحمه الله).